

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رِسَالَتُ الْعِلْمِ الْعَلِيَّةِ

الْمَلِكِ عَلِيِّ الْقَارِي

الْمُتَوَفَّى سَنَةِ ١٠١٤ هـ

يَحْتَوِي ثَمَانِينَ رِسَالَةً فِي مُخْتَلَفِ الْفُنُونِ

نُطْبِعُ مَجْمُوعَةً أَوَّلَ مَرَّةٍ مُقَابَلَةً عَلَى عِدَّةِ نُسخٍ خَطِيئَةٍ

حَقَّقَهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا وَخَرَجَ أَحَادِيثُهَا

ماهر أديب جنوش محمد بركات د. محمد مجير الخطيب

د. محمد عيد النصور محمد طارق مغربية احمد فواز الحمير

د. محمد تركي كشوع محمد مصعب كلثوم

حَقَّقَهَا وَاشْرَفَ عَلَى تَحْقِيقِهَا وَقَدَّمَ لَهَا

محمد خُلف العبد الله

دَلَالَةُ اللَّبَابِ

مَجْمُوع
رِسَائِلِ الْعِلَامَةِ
الْمُفَلِّحِ عَلِيِّ الْقَارِي

المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

(٥)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

يُمنع طباعة هذا الكتاب أو تصويره ورقياً أو إلكترونياً

إلا بإذن خطي من الدار الناصرة

تحت المساءلة الدنيوية والأخروية

الإخراج الفني:

خالد محمد ياسين علوان

المخطوط بعلم:

عدنان الشيخ عثمان

دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كرتاش - مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kızıtaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

www.allobab.com - Email: info@allobab.com

مجموع

رسائل العلامة

الملا علي القاري

المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

يحتوي ثمانين رسالة في مختلف الفنون
نطبع مجموعة أول مرة مقابل على عدو نسخ خطية

حفظها وأعلق عليها وخرج أحاديثها

ماهر أديب جوش محمد بركات د. محمد مجير الخطيب
د. محمد عيب المنصور محمد طارق مغربية احمد فواز النخيرة
د. محمد تركي كثوع محمد مصعب كلثوم

جمعها وأشرف على تحقيقها وقدم لها

محمد خلوف العبد الله

المجلد الخامس

كتاب اللغات

فِي هَذَا الْمَجْلَدِ

الصفحة

الموضوع

- الرسالة رقم (٦٢): شرحُ تصريفِ العِزِّي ٥
- الرسالة رقم (٦٣): الزُّبْدَةُ في شرحِ البُرْدَةِ ١٢١
- الرسالة رقم (٦٤): شرحُ بَائِتِ سَعَاد ٢٩١
- الرسالة رقم (٦٥): المَمُورِدُ الرَّوِّيُّ في المَولِدِ النَّبَوِيِّ ٣٧٣
- الرسالة رقم (٦٦): أدِلَّةُ مَعْتَقِدِ أَبِي حَنِيفَةَ في أبَوِي النَّبِيِّ ﷺ ٤٥١
- الرسالة رقم (٦٧): النِّسْبَةُ المَرْتَبَةُ في المَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ ٥٠٣

الرسالة رقم: (٦٢) مجلّة الرسالة
المجلد الثاني

شُحُ تَصْرِيفُ الْعَرَبِيِّ

تأليف الأستاذ
المعلم علي القاري

طبع مطبعة على سحنين في طينين

تجقيق وتعليق
ماهر أديب جنوش

دار الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي صَرَّفَ قُلُوبَ الْعِبَادِ عَلَى نَحْوِ مَا أَرَادَ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى النَّبِيِّ الْأَمِينِ، سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ، وَأَصْحَابِهِ الْأَتْقِيَاءِ الْمُجَاهِدِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وبعد:

فإنَّ القرآنَ هو كتابُ الله الذي أنزله على خاتمِ المرسلين، ليكونَ المنهاجَ الواجبَ اتِّباعَهُ على الناسِ أَجْمَعِينَ، كما أنَّه المُعْجِزَةُ العُظْمَى التي تَحْدَى بِهَا الْخَلْقَ جَمِيعاً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فَلَا غَرَوَ أَنْ جَعَلَ أَشْرَفَ الْعُلُومِ تَعَلُّمَ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْوَصْفِ، الَّذِي أُنْزِلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى قَوَاعِدِهَا فِي اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ، وَأَسْلُوبِهَا فِي الْمَجَازِ وَالْبَيَانِ.

فَعِلْمُ اللُّغَةِ هِيَ الْمِرْقَاةُ لِفَهْمِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ، وَمَعْرِفَةُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، وَفَهْمُ تَرَاكِيِبِهِ وَمَبَانِيهِ، وَتَلَمُّسُ إِشَارَاتِهِ وَمَجَازِهِ.

فَمَنْ أَرَادَ الْعَيْشَ فِي حَدَاتِقِ حَقَائِقِ هَذَا الْكِتَابِ، وَالنُّزُولَ فِي مَرَابِعِ دَقَائِقِهِ، فَلَا بَدَلَهُ مِنَ الْإِلِمَامِ بِقَوَاعِدِ عِلْمِ اللُّغَةِ مِنْ نَحْوِ وَصَرَفِ وَبِلَاغَةٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ التَّعَمُّقُ فِيهَا وَالْإِحَاطَةُ بِجَمِيعِ فُرُوعِهَا، بَلْ أَنْ يَأْخُذَ الْمُؤْمِنُ مِنْ كُلِّ مِنْهَا بِقِسْطٍ يُمْكِنُهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْغَايَةِ الْمَنْشُودَةِ، وَهِيَ تَفْيُؤُ ظِلَالِ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ، لِيَكُونَ ذَلِكَ طَرِيقاً إِلَى بُلُوغِ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْفُوزِ بِالنَّعِيمِ فِي الْعُقْبَى.

وَإِذَا كَانَ عِلْمُ النَّحْوِ هُوَ السَّبِيلُ لِفَهْمِ الْعِبَارَةِ، وَعِلْمُ الْبَلَاغَةِ بِهِ تُعْرَفُ الْإِشَارَةُ، فَإِنَّ عِلْمَ الصَّرْفِ لهما كَالْأَسْسِ لِلْعِمَارَةِ.

فَمَا انْتَضَمَ عَقْدُ عِلْمٍ إِلَّا وَالصَّرْفُ وَاسِطَتُهُ، وَلَا اِزْتَفَعَ مَنَارُهُ إِلَّا وَهُوَ قَاعِدَتُهُ، إِذْ هُوَ إِحْدَى دَعَائِمِ الْأَدَبِ، وَبِهِ تُعْرَفُ سَعَةُ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَتَنْجَلِي فَرَائِدُ مَفْرَدَاتِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ، وَهُمَا الْوَاسِطَةُ فِي الْوَصُولِ إِلَى السَّعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

فَبِهِ مِثْلًا يُعْلَمُ كَيْفَ أَصْبَحَ مَعْنَى ﴿دَسَّنَهَا﴾: أَخْفَاهَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ: دَسَّسَهَا، قَلَبَتْ السَّيْنُ أَلْفًا كَرَاهَةً اجْتِمَاعِ ثَلَاثِ سَيِّنَاتٍ، وَهُوَ بَحْثُ صَرْفِيٍّ صِرْفٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا يُفْهَمُ لِمَاذَا لَمْ تُؤْنَتْ كَلِمَةُ ﴿قَرِيبٌ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَكَذَلِكَ مِثْلًا عِنْدَمَا يُعْرَفُ الْبِنَاءُ الصَّرْفِيُّ لِاسْمِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ: الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ، يُفْهَمُ سَبَبُ اخْتِلَافِ الْعِلْمَاءِ فِي أَيُّهُمَا أْبْلَغُ.

وَمِنْ مَبَاحِثِ عِلْمِ الصَّرْفِ مَعْرِفَةُ الْفَرْقِ فِي الْمَعَانِي نَتِيجَةَ اخْتِلَافِ الْمَبَنِيِّ لِلْأَفْعَالِ عِنْدَ تَصَرُّفِهَا، وَكَيْفِيَّةُ التَّمْيِيزِ بَيْنَهَا؛ كِفْعَلٍ (سَلِمَ) الثَّلَاثِيَّ مِثْلًا، كَيْفَ أَصْبَحَ (أَسْلَمَ) فِي الرَّبَاعِيِّ بَزِيَادَةِ الْهَمْزَةِ، وَ(سَالَمَ) الرَّبَاعِيُّ بَزِيَادَةِ الْأَلِفِ، وَ(سَلَّمَ) الرَّبَاعِيُّ بِالتَّضْعِيفِ، وَ(اسْتَلَمَ) الْخُمَاسِيُّ بَزِيَادَةِ الْهَمْزَةِ وَالتَّاءِ، وَ(اسْتَسَلَّمَ) السُّدَاسِيُّ بَزِيَادَةِ الْهَمْزَةِ وَالسَّيْنِ وَالتَّاءِ.

فَانْظُرْ كَيْفَ تَصَرَّفَ هَذَا الْفِعْلُ وَاخْتَلَفَتْ مَعَانِيهِ بِالزَّوَائِدِ، مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدٌ.

(١) انظر: «شذا العرف في فن الصرف» (ص ٩).

وقد يَبْقَى المعنى الأصلي لكن مع زيادة إفادة، حَسَب القاعدة المعروفة من أن زيادة المبنى تُؤدّي إلى زيادة المعنى في العادة، وهذه القاعدة من القواعد المُتداوِلة عند المفسّرين والبلاغيين، في بيانهم بلاغة القرآن وسرّ نظميّه المَتين.

وقد صَنَّف العلامةُ الفاضل، والعالمُ العاَمِل، قدوةُ المحقّقين، عبد الوهّاب ابن إبراهيم بن عبد الوهّاب الملقَّب بعزّ الدين، أبو المعالي الخزرجيّ الزنجانيّ، مختصره المُسمّى: «تصنيف العزّي»، الذي يُعدُّ من أنفس المُختَصرات في هذا الفنّ وأسدّها، عارياً من الحشو والإكثار، كثير المعاني رَغَم الإيجاز والاختصار، فلا عَجَب أن نال من العلماء القبول، فأقبلوا عليه يَشْرَحون مسائله ويُدَلِّلون صِغابه^(١).

ومن أهمّ ما كُتِب من الشُّروح عليه، هو شرحُ العلامة الرِّبّانيّ سعد الدين التَّفّازانيّ، فقد ذَكَر في خُطْبته: أنّه لَمَّا رَأَى تصنيفَ العزّيّ مختصراً يَنْطَوِي على مباحث شريفة، ويَحْتَوِي على قواعد لطيفة، سَنَح له أن يَشْرَحَه شرحاً يُدَلِّل من اللَّفْظِ صِغابه، ويَكْشِفُ عن وجه المعاني يَقابه... مُضيفاً إليه فوائد شريفة وزوائد لطيفة... إلى آخر ما قال. وهذا الشرح هو من أهمّ المراجع التي اعْتَمَدَهَا مؤلِّفُ هذا الكتاب كما سَيَرُدُّ.

وقد رام العلامة القاري - رحمه الله - شرح هذا المختصر الشَّريف، فكَتَبَ عليه هذا الشَّرح اللطيف.

وهو كتابٌ مُفيد، خالٍ من الصُّعوبة والتَّعقيد، قال المؤلِّفُ عنه في خُطْبته: إنّ هذا تَعْلِيقٌ لطيفٌ وتحقيقٌ طَريفٌ، يَحُلُّ بعضَ المُشكلات، من جهة المَبْنَى أو المَعْنَى في الكَلِمَاتِ المُعْضِلَات، المَنسُوبَةِ إلى العلامة الرِّبّانيّ والفَهَامَةِ الصَّمَدانيّ، عَزَّ المِلَّةُ والدين عبد الوهّاب الزنجانيّ...

(١) انظر ما كتب عليه من شروح في «كشف الظنون» (٢ / ١١٣٩ - ١١٤٠).

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ لِسَهُولَةِ الْفَاضِلِ، وَشِدَّةِ تَبْسِيطِهِ لِلْمَوْضُوعَاتِ، مَعَ الشَّرْحِ الْوَافِي لَهَا وَحُلِّ الْمُشْكَلَاتِ، إِضَافَةً لِمَا تَزَيَّنَ بِهِ مِنْ جَمَالِ التَّرَكِيبَاتِ، الْمُطْعَمَةِ بِشَيْءٍ مِنَ السَّجْعِ فِي نَهَايَةِ الْفَقَرَاتِ، مَا يَجْعَلُ الْقَارِيَّ يَسْتَمْتَعُ بِقِرَاءَتِهِ وَلَا يَمَلُّهُ = لِيَعْدُ مِنْ أَحْسَنِ الْمَرَاجِعِ لَطُلَابِ الْعِلْمِ وَحَتَّى الْمَبْتَدِئِينَ فِيهِ، وَكَذَا لِمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ كُنْهِ هَذَا الْفَنِّ وَفَهْمَ مَرَامِيهِ.

وَقَدْ اعْتَمَدَ الْمُؤَلِّفُ فِي شَرْحِهِ كَثِيرًا عَلَى شَرْحِ التَّفْتَازَانِيِّ، كَمَا يَظْهَرُ مِنْ تَشَابُهِ الْمَسَائِلِ وَتَقَارُبِ الْعِبَارَاتِ، بَلْ حَتَّى تَطَابُقُ الْأَلْفَاظِ وَالنُّقُولِ فِي أَكْثَرِ الْحَالَاتِ، لَكِنْ كَوْنُهُ مِنْ أُمَّةِ التَّحْقِيقِ، كَانَ يَتَعَقَّبُهُ أحيانًا إِنْ اضْطَرَّ لَهُ ذَلِكَ التَّدْقِيقُ، كَمَا تَعَقَّبُهُ فِي وَجْهِ اخْتِيَارِ قَلْبٍ تَاءٍ افْتَعَلَ طَاءً إِذَا كَانَتْ فَاؤُهُ حَرْفَ إِطْبَاقٍ، فَقَالَ: وَاخْتِيرَ الطَّاءُ لَا تَحَادِثْهُمَا مَخْرَجًا، لَا لِقُرْبِهِمَا كَمَا وَهَمَ التَّفْتَازَانِيُّ.

كَمَا نَبَّهَ عَلَى وَهْمِهِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الاحزاب: ٥٣]، حَيْثُ وَقَعَتْ فِي شَرْحِ التَّفْتَازَانِيِّ بِلَفْظٍ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ).

وَخَالَفَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ: وَأَمَّا حَذْفُ الْهَمْزَةِ مِنْ نَحْوِ: خُذْ، فَوَقَعَ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ، وَلَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ الْعَلَامَةُ التَّفْتَازَانِيُّ...

بَلْ تَشَدَّدَ فِي مَوْضِعٍ فَقَالَ: وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثٍ: «اتَّزَرَ» مِنْ اتَّزَرَ، فَقَوْلُ السَّعْدِ: إِنَّ التَّشْدِيدَ خَطَأً، فَاسِدٌ يُخْشَى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ سَنَدَ الْمُحَدِّثِينَ أَقْوَى مِنْ سَنَدِ اللَّغَوِيِّينَ.

وَتَمَّةٌ أَمْثَلَةٌ أُخْرَى سَتَجِدُهَا فِي خِلَالِ الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَمِنْ الْمُلَاحَظَةِ فِي هَذِهِ الْحَاشِيَةِ حُسْنُ السَّبْكِ وَسَهُولَةُ الْإِنْتِقَالِ بَيْنَ الْمَتَنِ وَالشَّرْحِ، بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ الْقَارِيُّ بِوُجُودِ مَتْنٍ وَشَرْحٍ، بَلِ الْجَمِيعُ فِي سِيَاقٍ مُتَّصِلٍ مُتَرَابِطٍ كَأَنَّهُ نَصٌّ وَاحِدٌ، ثُمَّ إِذَا خَرَجَ أحيانًا عَنِ الْمَوْضُوعِ الْأَصْلِيِّ، فَإِنَّهُ يَعُودُ وَيَمْهَدُ لِنَصِّ الْمَتَنِ كَيْ لَا يَظْهَرَ فِي الْكَلَامِ نَوْعُ انْقِطَاعٍ. وَكُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ شَاهِدٌ عَلَى هَذَا، وَلْيُرَاجَعْ فِي ذَلِكَ كَلَامُهُ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ..

كما يلاحظُ حُسْنَ تَقْيِيدَاتِهِ التي بها يَتَوَضَّحُ الكلامُ ويُعْرَفُ المَرَامُ، كما في الكلامِ على ما يَلْحَقُ الفعلَ المضاعَفَ، حيثُ جاءَ ما بينَ متني وشرح: (والحذفُ)؛ أي: وَيَلْحَقُهُ أَيْضاً حَذْفُ شَيْءٍ مِنْ حُرُوفِ أَصُولِهِ؛ (كقولِهِم: مُسْتُ وَظَلْتُ) بسكونِ السَّيْنِ وَاللَّامِ، وقولُهُ: (بِفَتْحِ الفَاءِ)؛ أي: فاءِ الفعلِ وهو الميمُ والظَّاءُ (وكسْرِها، وَأَحَسْتُ) بسكونِ السَّيْنِ؛ (أي: مَسِسْتُ) بكسرِ السَّيْنِ الأولى، وهي اللُّغَةُ الفَصِيحَةُ، ومُضَارِعُهُ بِفَتْحِهَا.

وقد اتَّبَعَ المؤلِّفُ أسلوباً فريداً في هذا الكتابِ، حيثُ إنَّه كَلَّمَا أَتَّهَى موضوعاً مِنَ المواضيعِ يَذْكُرُ بعضَ الخَوَاطِرِ مِنْ كلامِ أَهْلِ الإِشَارَاتِ التي لها نوعٌ ارتباطٍ ولو لفظياً مع الموضوعِ المذكورِ، وَلَمْ أَجِدْ لَهُ في هذا الأسلوبِ سلفاً ولا خَلْفاً في عِلْمِ الصَّرْفِ، اللَّهُمَّ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَعْضِهِمْ في التفسيرِ كالنَّيسَابُورِيِّ وَالْأَلُوسِيِّ.

وَمِنَ المَاخِذِ التي يُمَكِّنُ أَنْ تُذَكَّرَ على المؤلِّفِ: الشَّرْحُ في مَوَاطِنَ المعنى فيها ظاهرٌ واضحٌ ولا تَحْتَاجُ إلى الشرحِ البتَّة:

وَمِنَ ذَلِكَ قولُ المتني: (أَمَّا الماضي) فقال المؤلِّفُ: (أي: مِنَ الأفعالِ). وقريبٌ مِنْهُ ما جاءَ في المتني مِنْ قولِهِ: (فَالْمَبْنِيُّ لِلْفَاعِلِ مِنْهُ) فقال المؤلِّفُ: (أي: مِنَ الماضي؛ أي: الفعلِ الماضي). فالعِبارَةُ الأولى كافِيَةٌ في المراد، ولا لزومَ لِلثَّانِيَةِ البتَّة.

وَانْظُرْ كَذَلِكَ الكلامَ في حَذْفِ لَامِ الفعلِ النَّاقِصِ، حيثُ مَثَّلَ ببعضِ الأفعالِ، فجاءَ بِجميعِ تَصَرِيفَاتِهَا مُتَّصِلَةً مع الضَّمائِرِ، مع أَنَّ ذِكْرَ البعضِ يُغْنِي عن الباقي. كما لا يَخْلُو الأمرُ مِنْ بعضِ المِلاحَظَاتِ الأخرى، كِنِسْبَتِهِ لابنِ مالِكٍ القولَ بأنَّ لَامَ الإِبْتِدَاءِ تُخَلِّصُ المضارعَ للحالِ، في حينِ أَنَّ ابنَ مالِكٍ في «شرح التسهيل» قد ردَّ على مَنْ قالَ بهذا القولِ.

وكذا في تخريجه لحديث: «لَيَسْتَهَيِّنَ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجَمَاعَاتِ...» عزاه لأحمد ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس وابن عمر موقوفاً، والصواب أنه عند جميع مَنْ ذَكَرَهُمْ مرفوعٌ من حديثهما، لكنّه عند مسلم من حديث ابن عمر وأبي هريرة، ما يدلُّ على أَنَّ المؤلَّفَ مع سعة علمه ودقّة نقوله لَمْ يَنْظُرِ الحديثَ في هذه الكتبِ التي خَرَّجَهُ مِنْهَا، ولعلّه نَقَلَهُ بالواسطة.

لكنَّ ما ذُكِرَ لَا يَغُضُّ مِنْ فَضْلِ هَذَا الْكِتَابِ، الَّذِي كَثُرَتْ فَوَائِدُهُ وَاتَّسَعَتْ عَوَائِدُهُ، لَكِنْ فِي قَالِبٍ مِنَ الْإِخْتِصَارِ، وَتَجَنَّبِ الْحَشْوِ وَالتَّكْرَارِ.

وقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتابِ على نسخة خطيّة وحيدة، ومطبوعة قديمة فريدة، فالنسخة هي نسخة قونية، ورَمَزْنَا لَهَا بـ «و»، والمطبوعة هي من نوادر دار الطباعة العامرة التي طُبِعَتْ سَنَةَ (١٢٨٩هـ)، لكنّها كثيرة التَّحْرِيفَاتِ، أَشْرْنَا لِبَعْضِهَا فِي الْحَوَاشِي، وَأَضْرَبْنَا عَنِ الْكَثِيرِ مِمَّا لَا لُزُومَ لِذِكْرِهِ، كَمَا أَنَّهُ خَالٍ مِنَ الضُّبْطِ تَمَاماً، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يُقْبَلُ فِي عِلْمٍ يَعْتَمِدُ عَلَى الضُّبْطِ أَساساً، وقد رمزها لها بـ «ط».

والحمد لله ربّ العالمين

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى فِي جَمِيعِ الْأَمَكْنَةِ وَالْأَزْمَانِ، وَيَجِبُ
صَرْفُ عَنَانِ الشُّكْرِ إِلَى نَحْوِ ثَنَائِهِ بِالْأَوَّلَى وَالْآخِرَى فِي اللِّسَانِ وَالْجَنَانِ، وَالصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ الْإِتِّمَانِ، عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْجَامِعِ لِبَدِيعِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَأَحْبَائِهِ الْمُنْعَوَتَيْنِ بِكَمَالِ الْإِيمَانِ وَجَمَالِ الْإِيقَانِ.

أما بعد:

فيقولُ الواثقُ بِرَبِّهِ الْبَارِي عَلِيُّ بْنُ سُلْطَانٍ مُحَمَّدٍ الْقَارِي: إِنَّ هَذَا تَعْلِيقٌ
لَطِيفٌ وَتَحْقِيقٌ طَرِيفٌ يَحُلُّ بَعْضَ الْمُسْكَلاتِ مِنْ جِهَةِ الْمَبْنَى أَوِ الْمَعْنَى فِي
الْكَلِمَاتِ الْمُعْضَلَاتِ، الْمُنْسُوبَةِ إِلَى الْعَلَامَةِ الرَّبَّانِيِّ وَالْفَهَامَةِ الصَّمْدَانِيِّ، عِزِّ الْمِلَّةِ
وَالدِّينِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الزَّنْجَانِيِّ، عَمَلًا بِمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِيْنَ﴾ [آل
عمران: ٧٩]، وَقَدْ فَسَّرَ بَأَنَّهُمُ الَّذِينَ يُرَبُّونَ النَّاسَ بِصَغَارِ الْعُلُومِ قَبْلَ كِبَارِهَا.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْخَلْقَ مَا حُرِّمُوا الْوُصُولَ إِلَّا بِتَرْكِ الْأُصُولِ وَالِاسْتِغَالِ بِالْفُضُولِ.
وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَصْلَ الْعُلُومِ وَمَدَارَ أُسَاسِهَا عِلْمُ اللُّغَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ
جُزْئِهَا وَكُلِّيَّهَا^(١) نَبْرَاسِهَا^(٢)، فَإِنَّ بِهِ يَتَضَحُّ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ
الْمَعْرِفَةِ وَفَضْلُ لِبَاسِهَا.

(١) فِي «و»: «جُزْئِهَا وَكُلِّيَّهَا».

(٢) فِي هَامِشِ «و»: «النَّبْرَاسُ: الْمَصْبَاحُ».

[تَعْرِيفُ عِلْمِ الصَّرْفِ]

(قال) رضي الله تعالى عنه: (اعْلَم) مُخَاطِباً خُطَابَ الْعَامِّ لَطَالِبِ هَذَا الْمَرَامِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] خُطَاباً لِمَنْ هَذَا إِلَى الْإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهِ.

وقد سَدَّ مَسَدَّ مَفْعُولٍ بِهِ قَوْلُهُ: (أَنَّ التَّصْرِيفَ فِي اللُّغَةِ: التَّغْيِيرُ) واختارَهُ عَلَى الصَّرْفِ فِي الْمَبْنَى وَإِنْ كَانَ هُوَ أَخْصَرَ وَيُشَارِكُهُ فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ قَصَدَ فِيهِ التَّكْثِيرَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ أَي: تَغْيِيرِهَا جِهَةً وَصِفَةً، فَتَارَةً مِنَ الْيَمِينِ وَأُخْرَى مِنَ الْيَسَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مَرَّةً حَارَّةً وَأُخْرَى بَارِدَةً، وَرَخَاوَةً وَعَاصِفَةً، كَمَا يَقْتَضِي هُنَاكَ.

وَالْمَرَادُ بِاللُّغَةِ: لِسَانُ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّهُ مِيزَانُ الْأَدَبِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وَلِمَا وَرَدَ: «أَجَبُوا الْعَرَبَ لثَلَاثٍ: لِأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَكَلَامُ اللَّهِ عَرَبِيٌّ، وَلِسَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ»^(١).

(وَفِي الصَّنَاعَةِ): بِكُسْرِ الصَّادِ^(٢)، وَهِيَ فِي اللُّغَةِ: حِرْفَةُ الصَّانِعِ وَعَمَلُهُ الصَّنْعَةُ، أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ حِسِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا، وَالْمَرَادُ بِهَا هَاهُنَا: اضْطِلَاحُ الصَّرْفِيِّينَ.

(تَحْوِيلُ الْأَصْلِ الْوَاحِدِ)؛ أَي: نَقْلُ الْمَصْدَرِ عَلَى قَوْلِ الْأَكْثَرِ وَالْوَجْهِ الْمُعْتَبَرِ. (إِلَى أَمْثَلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ)؛ أَي: أَبْنِيَةٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَهِيَائِثٌ مُؤْتَلَفَةٌ؛ مِنْ الْمَاضِي، وَالْمُضَارِعِ، وَاسْمِي الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، وَالْجَحْدِ وَالنَّقْيِ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَأَمْثَالِهَا، عَلَى وَجْهِ تَفْصِيلِهَا وَإِجْمَالِهَا.

(١) رَوَاهُ الْعَقِيلِيُّ فِي «الضَعْفَاءِ» (٣ / ٣٤٨)، وَابْنُ الْجَوَزِيِّ فِي «الْمَوْضُوعَاتِ» (١ / ٣٤٨). قَالَ الْعَقِيلِيُّ: مِنْكَرٌ لَا أَصْلَ لَهُ. وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «الْمِيزَانِ» تَرْجُمَةً الْعَلَاءِ بْنِ عَمْرٍو الْحَنْفِيِّ: هَذَا مَوْضُوعٌ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: هَذَا كَذِبٌ.

(٢) تَحَرَّفَتْ فِي «ط» إِلَى: «الصَّنَاعَةِ»، وَالْمُثَبِّتُ مِنْ «و».

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى فَائِدَةِ هَذَا التَّحْوِيلِ الشَّرِيفِ، وَنَتِيجَةِ هَذَا التَّبْدِيلِ الْمُئِيفِ،
حَيْثُ عَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: (لِمَعَانٍ مَقْصُودَةٍ)؛ أَي: لِأَجْلِ حَصُولِ مَطَالِبٍ مُرَادَةٍ فِي مَقَامِ
وُصُولٍ (لَا تَحْصُلُ)؛ أَي: تِلْكَ الْمَعَانِي الْمَقْصُودَةُ (إِلَّا بِهَا)؛ أَي: إِلَّا فِي ضَمَنِ
الْأَمْثَلَةِ الْمُخْتَلَفَةِ الْمُرُودَةِ^(١).

وَبَيَانُهُ: أَنَّ الْمَصْدَرَ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ مِنَ الضَّرْبِ وَالنَّصْرِ وَغَيْرِهِمَا يَشْمَلُ
مَا صَدَرَ عَنْ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ جَمَاعَةٍ، سَوَاءً يَكُونُ مُتَكَلِّمًا أَوْ غَائِبًا أَوْ مُخَاطَبًا،
مَعْلُومًا أَوْ مَجْهُولًا، يَسْتَوِي كَوْنُهُ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي وَالْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ، أَوْ فِي
لِبَاسِ الْجَحْدِ أَوْ النَّفْيِ، أَوْ بِطَرِيقِ الْأَمْرِ أَوْ النَّهْيِ، فَلَا بَدَّ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَبْنِيِّ
لِإِسْتِفَادَةِ مَنْ تَفَاوَتْ الْمَعَانِي.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّ اللُّغَةَ بَحْرٌ عَمِيقٌ لَا يُمَكِّنُ الْإِحَاطَةَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ إِلَّا لِمَنْ
أَظْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ اضْطِفَائِهِ، إِلَّا أَنَّ فِي هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ فِي مَعْرِفَةِ لُغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
بَيَانَ بَعْضِ الْقَوَاعِدِ الْكَلْبِيَّةِ يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا الْأَمْثَلَةُ الْجُزْئِيَّةُ، وَقَدْ أَشَارَ الْمَصْنَفُ
إِلَى وَجْهِ الْإِزْتِبَاطِ الصُّورِيِّ بَيْنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ وَالْإِضْطِلَاحِيِّ، وَأَفَادَ أَنَّ اللَّغَوِيَّ
هُوَ الْمَعْنَى الْأَعْمُ، وَالْإِضْطِلَاحِيُّ هُوَ الْمَعْنَى الْأَخْصُ الْأَتَمُّ، كَمَا فِي سَائِرِ
الْإِضْطِلَاحَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْإِعْتِبَارَاتِ الْعُرْفِيَّةِ، فَالْصَّوْمُ مَثَلًا هُوَ مُطْلَقُ الْإِمْسَاكِ،
وَشَرْعًا: إِمْسَاكٌ خَاصٌّ هُنَاكَ، وَكَذَلِكَ الْحُجُّ وَالنِّكَاحُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

هَذَا، وَيَلِسَانِ الْإِشَارَةِ وَبَيَانِ الْبِشَارَةِ: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَظْهَرُ الْأَسْمَاءِ
وَالصِّفَاتِ، وَمُظْهَرُ الْأَفْعَالِ وَالْمَصْنُوعَاتِ، فَهُوَ الْمَصْدَرُ الْحَقِيقِيُّ الْقَدْرُ، الَّذِي
يَبْدُو مِنْهُ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، فَلَيْسَ فِي الْكَوْنِ غَيْرُ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ وَمَكُونَاتِهِ.
وَمِنْ هَاهُنَا قَالَ بَعْضُ الْأَبْرَارِ: لَيْسَ فِي الدَّارِ غَيْرُهُ دِيَارٌ.

(١) فِي «و»: «الْمُرُودَةِ».

[تقسيم الفعل]

(ثُمَّ الْفِعْلُ) عطفٌ على اسمٍ (أَنَّ)، وهو بكسر الفاء وفتحها مصدرٌ: فَعَلَ يَفْعَلُ، بفتح العين فيهما، وقد قرئ بهما قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، إِلَّا أَنْ فَتَحَهَا شاذٌّ^(١)، وكذا وَرَدَ بِهِمَا فِي حَدِيثٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ»^(٢).

والمراد هنا: كَسَرُ الْفَاءِ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ لِكَلِمَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَهِيَ: مَا تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى فِي نَفْسِهَا مُقْتَرِنٌ بِأَحَدِ الْأَزْمِنَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْمَاضِي وَالْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ؛ كَذ: ضَرَبَ وَيَضْرِبُ وَاضْرِبْ، بِخِلَافِ الْاسْمِ فَإِنَّهَا كَلِمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَى فِي نَفْسِهَا غَيْرُ مُقْتَرِنٍ بِأَحَدِ الْأَزْمِنَةِ الثَّلَاثَةِ؛ كذ: زَيْدٌ وَرَجُلٌ، بِخِلَافِ الْحَرْفِ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى فِي غَيْرِهِ؛ نَحْوُ: (مِنْ) وَ(إِلَى)، وَالْعَلَامَاتُ لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي مَقَدِّمَاتِ النَّحْوِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ. هَذَا، وَفِي مَشْرَبِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَمَذْهَبِ أَصْحَابِ التَّعَرُّفِ لَا يَنْبَغُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ، لَيْسَ لَهُمْ اسْتِقْلَالٌ فِي الْحُكْمِ وَالصَّرْفِ، وَإِنَّمَا إِسْنَادُهُمْ فِي الْإِسْنَادِ، هُوَ التَّعَلُّقُ بِذَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَأَفْعَالِهِ سَبْحَانَهُ فِي جَمِيعِ الْمُرَادِ.

وَإِنَّمَا خَصَّ الْمَصْنُفُ الْفِعْلَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ التَّصْرِيفَ فِيهِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يُصَرَّفْ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا قَلِيلٌ؛ كَأَسْمَى الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ. وَأَمَّا الْحَرْفُ فَلَا تَصْرِيفَ فِيهِ أَصْلًا.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَفْهُومَ الْفِعْلِ بِاعْتِبَارِ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ (إِمَّا ثَلَاثِيٌّ وَإِمَّا رُبَاعِيٌّ) بِضَمٍّ أَوَّلُهُمَا مَنْسُوبَانِ إِلَى ثَلَاثٍ وَرُبَاعٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ حُرُوفُهُ الْأَصْلِيَّةُ ثَلَاثَةً كذ: ضَرَبَ، أَوْ أَرْبَعَةً كذ: دَخَرَ، فَالْأَوَّلُ الثَّلَاثِيٌّ وَالثَّانِي الرُّبَاعِيٌّ؛ إِذْ لَمْ يُبَيِّنْ مِنَ الْفِعْلِ الْخُمَاسِيَّ - بِخِلَافِ الْاسْمِ كذ: سَفَرَجَل - وَلَا الثَّنَائِيَّ بِخِلَافِ الْاسْمِ وَالْحَرْفِ نَحْوُ: (مِنْ) وَ(إِلَى).

(١) لم أقف على القراءة بفتح الفاء، والقراءة بكسرها هي قراءة العشرة.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٣) من طريق أبي قلابة عن ابن عباس مرفوعاً.

(وكلُّ واحدٍ منهما)؛ أي: من الثلاثيِّ والرُّباعيِّ (إمَّا مجرَّدٌ)؛ أي: عن الزائد، باقٍ على حُرُوفِهِ الْأَصْلِيَّةِ ك: عَلِمَ وَسَلَّسَلْ، (أو مَزِيدٌ فِيهِ) بَأَنْ زِيدَ فِيهِ عَلَى حُرُوفِهِ الْأَصْلِيَّةِ: إمَّا حَرْفٌ ك: أَكْرَمَ وَتَدَخَّرَجَ، أو حَرْفَانِ ك: انْقَطَعَ وَاقْشَعَرَ، أو ثَلَاثَةٌ ك: اسْتَغْفَرَ.

وهذا كُلُّهُ بِحَسَبِ الْاسْتِقْرَاءِ، وَفِيهِ مِنَ الْإِيمَاءِ إِلَى أَنْ فِعَلَ اللَّهُ تَعَالَى: إمَّا مُجَرَّدٌ عَدَلٌ فِي حَقِّ الْكَفَّارِ، وَإِمَّا مَزِيدٌ فَضْلٌ فِي حَقِّ الْأَبْرَارِ.

(وكلُّ واحدٍ منهما)؛ أي: من هذه الأربعة، وهي: الثلاثيُّ المجرَّدُ والمَزِيدُ فِيهِ، والرُّباعيُّ المجرَّدُ والمَزِيدُ فِيهِ، (إمَّا سَالِمٌ) وَيُسَمَّى صَحِيحًا، (أو غَيْرُ سَالِمٍ) وَيُسَمَّى مَعْتَلًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِنْ خَلَتْ حُرُوفُ أُصُولِهِ مِنْ حُرُوفِ الْعِلَّةِ وَالْهَمْزَةِ وَالتَّضْعِيفِ - عَلَى مَا سَيَأْتِي - فَسَالِمٌ، وَإِلَّا فَغَيْرُ سَالِمٍ، فَصَارَتِ الْأَقْسَامُ ثَمَانِيَّةً.

وَالْأَمْثَلَةُ: نَصَرَ، وَعَدَ، أَكْرَمَ، أَوْعَدَ، دَخَّرَجَ، زَلَّزَلَ، تَدَخَّرَجَ، تَزَلَّزَلَ.

(وَنَعْنِي)؛ أي: تُرِيدُ نَحْنُ مَعَاشَرَ الصَّرْفِيِّينَ، اخْتِرَازًا مِنَ التَّخْوِينِ؛ فَإِنَّ السَّالِمَ عِنْدَهُمْ مَا لَيْسَ فِي آخِرِهِ حَرْفٌ عِلَّةٌ وَإِنْ وُجِدَ فِيهِ الْهَمْزَةُ وَالتَّضْعِيفُ. (بِالسَّالِمِ)؛ أي: بِالْفِعْلِ السَّالِمِ.

(مَا)؛ أي: فِعْلًا^(١)، أو الْفِعْلَ الَّذِي (سَلِمَتْ حُرُوفُهُ الْأَصْلِيَّةُ الَّتِي)؛ أي: وَهِيَ فِي الْأَصْطِلَاحِ: الْحُرُوفُ الَّتِي (تُقَابَلُ بِالْفَاءِ وَالْعَيْنِ وَاللَّامِ)؛ أي: الْوَاحِدَةِ فِي الثَّلَاثِيِّ ك: ضَرَبَ، عَلَى زِنَةِ: فَعَلَ، وَاللَّامَيْنِ فِي الرُّبَاعِيِّ ك: دَخَّرَجَ، عَلَى وَزْنِ: فَعْلَلْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْفَاءَ وَالْعَيْنَ وَاللَّامَ مِيزَانًا، فَكُلُّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْكَلِمَةِ وَقَعَ فِي مُقَابَلَةِ أَحَدِ حُرُوفِ (فَعَلَ) فَهُوَ أَصْلٌ، وَمَا لَمْ يَقَعْ فَهُوَ زَائِدٌ، وَيُقَابَلُ الْحَرْفُ الزَّائِدُ عَلَى الْأَصْلِ بِلَفْظِ الزَّائِدِ، فَيُقَابَلُ ضَارَبَ عَلَى فَاعَلَ، وَضُورِبَ عَلَى

(١) فِي «ط» وَ«و»: «فَعَلَ»، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُتُ لِأَنَّهَا بَدَلَ مِنْ «مَا» الْمَنْصُوبَةِ بِ «نَعْنِي».

فُوعِلَ، وَقَبِيلٌ عَلَى فَعِيلٍ، وَأَكْرَمَ عَلَى أَفْعَلَ، وَتَدَخَّرَ عَلَى تَفَعَّلَ، وَإِذَا حُذِفَ حَرْفٌ أَصْلِيٌّ حُذِفَ فِي الْمِيزَانِ أَيْضاً، فَيَقَالُ: وَزَنُ (كُلُّ) عَلَى: فُلٌ.

(مِنْ حُرُوفِ الْعِلَّةِ): متعلقٌ بـ (سَلِمَتْ)؛ أي: خَلَصَتْ مِنَ الْوَاوِ وَالْيَاءِ ك: وَعَدَ وَيَسَّرَ، وَالْأَلِفِ الْمُنْقَلِبَةِ عَنْ أَحَدِهِمَا ك: قَالَ وَبَاعَ، وَدَعَى وَرَمَى.

(وَالْهَمْزَةُ): ك: أَمَرَ وَسَأَلَ وَقَرَأَ.

(وَالتَّضْعِيفُ): أي: التَّكْرِيرُ لُغَةً، وَأَمَّا اصْطِلَاحاً فَهُوَ عَلَى تَوْعِينِ:

تَضْعِيفٌ فِي الثَّلَاثِيِّ: فَهُوَ مَا يَكُونُ عَيْنُهُ وَلَا مِهُ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ ك: مَدَّ وَأَعَدَّ.

وَتَضْعِيفٌ فِي الرَّبَاعِيِّ: فَهُوَ مَا يَكُونُ فِي مُقَابَلَةِ فَاؤِهِ وَلَا مِهُ الْأَوَّلِ جِنْسَانِ، وَكَذَا فِي مُقَابَلَةِ عَيْنِهِ وَلَا مِهُ الثَّانِيَةِ؛ ك: زَلَزَلَ وَوَسَّوَسَ^(١).

فَتَقْيِيدُ الْحُرُوفِ بِالْأَصُولِ أَخْرَجَ عَنِ السَّالِمِ نَحْوَ (ظَلْتُ) بِحَذْفِ أَحَدِ حَرْفِي التَّضْعِيفِ، فَإِنَّهُ غَيْرُ سَالِمٍ لَوْ جُودَ التَّضْعِيفُ فِي الْأَصْلِ، وَكَذَا نَحْوُ (قُلْ) وَ(بِعْ) وَ(قِهْ)؛ لَوْ جُودَ حَرْفُ الْعِلَّةِ فِيهَا فِي الْأَصْلِ، وَأَدْخَلَ فِي السَّالِمِ نَحْوَ أَكْرَمَ وَاعْشَوْشَبَ وَاحْمَرَّ فَإِنَّهَا مِنَ السَّالِمِ لَخُلُوُّ أَصُولِهَا عَمَّا ذُكِرَ.

وَهَذَا التَّقْسِيمُ شَامِلٌ لِلَّاسِمِ أَيْضاً، فَدَخَلَ فِي السَّالِمِ مَا أُبْدِلَ أَحَدُ حُرُوفِهِ الصَّحِيحَةِ الْأَصْلِيَّةِ حَرْفَ عِلَّةٍ؛ كَالدِّينَارِ أَصْلُهُ: (دِنَارٌ) بِإِدْغَامِ النُّونِ فِي النُّونِ، ثُمَّ أُبْدِلَتِ النُّونُ الْأُولَى يَاءً لِلتَّخْفِيفِ، وَالْأَنَاسِي أَصْلُهُ: (أَنَاسِينَ) جَمْعُ إِنْسَانٍ، أُبْدِلَتِ النُّونُ يَاءً ثُمَّ أُدْغِمَتْ فِيهَا، وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

(١) فِي «ط» وَ«و»: «وَسَّوَسَ»، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُوتُ. انْظُرْ: «شَرْحُ الْأَلْفِيَّةِ» لِابْنِ عَقِيل (٤ / ٢٦٨)،

وَفِيهِ: وَأَمَّا مُضْعَفُ الرَّبَاعِيِّ فَهُوَ مَا كَانَتْ فَاؤُهُ وَلَا مِهُ الْأُولَى مِنْ جِنْسٍ، وَعَيْنُهُ وَلَا مِهُ الثَّانِيَةِ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ، نَحْوُ: زَلَزَلَ وَوَسَّوَسَ وَشَاشَأَ.

قد مَضَى يومان وهذا الثالثي وأنت بالهَجْران لا تَبَالِي^(١)
 الشَّاهِدُ فِي (الثَّالِي) حَيْثُ أَبْدَلَ الثَّاءَ الْمُثَلَّثَةَ يَاءً مُثْنَةً مِنْ تَحْتُ.
 ودخل في غير السَّالِمِ ما أُبْدِلَ أَحَدُ حُرُوفِهِ الْعِلَّةَ حَرْفٌ صَحِيحٌ؛ ك: أَقْتَتُ
 والثَّرَاثُ، أَصْلُهُمَا: وَقَّتْتُ، وَالْوَرَاثُ مِنَ الْمِيرَاثِ.
 وَيَتَحَصَّلُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا ذُكِرَ: أَنَّ الْفِعْلَ - وَكَذَا الْاسْمُ الَّذِي مِنْ جُمْلَةِ
 الْمَصْدَرِ - سَبْعَةُ أَنْوَاعٍ؛ لِأَنَّهُ:

إِمَّا سَالِمٌ وَيُسَمَّى: صَحِيحًا؛ ك: حَمِدَ وَشَكَرَ. أَوْ غَيْرُ سَالِمٍ وَهُوَ:

إِمَّا مُعْتَلُّ الْفَاءِ وَيُسَمَّى: مَثَالًا؛ ك: وَعَدَ وَيَسَرَ.

وإِمَّا مُعْتَلُّ الْعَيْنِ وَيُسَمَّى: أَجُوفًا؛ ك: قَالَ وَبَاعَ.

وإِمَّا مُعْتَلُّ اللَّامِ وَيُسَمَّى: نَاقِصًا؛ ك: عَفَا وَسَعَى.

وإِمَّا مُعْتَلُّ الْفَاءِ وَاللَّامِ وَيُسَمَّى: لَفِيضًا مَفْرُوقًا؛ ك: وَقَى وَوَعَى.

وإِمَّا مُعْتَلُّ الْعَيْنِ وَاللَّامِ وَيُسَمَّى: لَفِيضًا مَقْرُونًا؛ ك: طَوَى وَحَيَّى.

وَلَمْ يُوجَدْ مَا فِيهِ فَاؤُهُ وَعَيْنُهُ حَرْفًا عِلَّةً؛ ك: وَيَلٍ وَيَوْمٌ.

وإِمَّا مَهْمُوزٌ، وَهُوَ يَشْمَلُ مَا كَانَ فَاؤُهُ أَوْ عَيْنُهُ أَوْ لَامُهُ هَمْزَةً؛ ك: أَكَلَ وَسَأَلَ

وَبَرَّى، وَيُسَمَّى: مَهْمُوزَ الْفَاءِ، أَوْ الْعَيْنِ، أَوْ اللَّامِ.

وإِمَّا مُضَاعَفٌ بِأَحَدِ نَوَعِيهِ، فَيُسَمَّى مُضَاعَفًا ثَلَاثِيًّا؛ ك: مَدَّ وَأَعَدَّ، وَرَبَاعِيًّا

ك: زَلْزَلَ وَسَلْسَلَ.

وقد انتظم المجموع في هذا البيت إجمالًا:

(١) الرجز في «المفصل» للزمخشري (ص ٥١١)، و«شرح الشافية» للرضي (٣/ ٢١٣)، و«المتع»

لابن عصفور (ص ٢٥٠)، وعندهم: «قد مرَّ يومان...».

صَحِيحٌ مَعَ مِثَالٍ مَعَ مُضَاعَفٍ لَفِيفٌ نَاقِصٌ مَهْمُوزٌ أَجُوفٌ
وقد يتركَّب نحو: رَأَى، وَأَنَّ، وَوَدَّ، وَوَأَى، وجاء.

وقد يُنْتَقَلُ مِنْ تَقْسِيمِهِ إِلَى سَالِمٍ وَغَيْرِ سَالِمٍ بِطَرِيقِ الإِشَارَةِ إِلَى تَوْزِيعِ
الْخَلْقِ إِلَى مُسْلِمٍ وَغَيْرِ مُسْلِمٍ؛ كما قال اللهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢٠]، فالمُسْلِمُ الْكَامِلُ كما وَرَدَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ
لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١)، وَغَيْرُهُ إِمَّا مُعْتَلٌّ بَعْلَةُ الْفُسْقِ وَالشَّقَاقِ، وَإِمَّا مُضَاعَفٌ لِعَلْبَةِ
الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَإِمَّا مَهْمُوزٌ وَمَغْمُوزٌ عَلَيْهِ بَوُقُوعِ الْخُلْفِ وَبِتَرْكِ الْوِفَاقِ.
ثُمَّ لَمَّا كَانَ الثَّلَاثِيُّ الْمَجْرَدُ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَزِيدِ
وَالرُّبَاعِيِّ، قَدَّمَهُ فِي التَّفْصِيلِ الصَّنَاعِيِّ، فَقَالَ:

(١) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

* (أَمَّا الثَّلَاثِيُّ الْمَجْرَدُ) وهو أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ سَالِمًا أَوْ غَيْرَ سَالِمٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ أَبْوَابِهِ السَّتَةِ، وَهُوَ لَا يَخْتَلِفُ بِالسَّلَامَةِ وَالْعِلَّةِ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ زِيَادَةٌ: (السَّالِم) وهو غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ فِي التَّمَثِيلِ بـ (سَأَلَ يَسْأَلُ) رَدُّ عَلَيْهِ بِوَجْهِ صَرِيحٍ.

وفيه تنبيهٌ نبيهٌ عَلَى أَنَّ الْمَجْرَدَ مِنَ الْعَلَائِقِ، وَالْمَتَفَرِّدَ عَنِ الْعَوَائِقِ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ التَّقَدُّمَ عَلَى الْخَلَائِقِ، فَقَدْ وَرَدَ: «سَبَقَ الْمَتَفَرِّدُونَ»^(١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿[الواقعة: ١٠ - ١١].

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مِيزَانَ الْمَاضِي الْمَجْرَدِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ عَيْنُهُ مَفْتُوحًا أَوْ مَكْسُورًا أَوْ مَضْمُومًا، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَكُونَ عَيْنٌ مُضَارِعُهُ كَذَلِكَ، فَيَصِيرُ تِسْعَةً أَبْوَابٍ، لَكِنْ لَمْ يُوجَدْ ثَلَاثَةٌ فَافْتَصَرَتْ عَلَى سِتَّةٍ، كَمَا بَيَّنَّهُ بِقَوْلِهِ: (فَإِنْ كَانَ مَاضِيهِ)؛ أَيِ: الثَّلَاثِيِّ (عَلَى فَعَلٍ)؛ أَيِ: عَلَى وَزْنِ فَعَلَ (مَفْتُوحِ الْعَيْنِ) بِكَسْرِ الْحَاءِ^(٢) وَفَتْحِهَا^(٣) (فَمُضَارِعُهُ)؛ أَيِ: الثَّلَاثِيِّ (يَفْعُلُ)؛ أَيِ: يَجِيءُ عَلَى وَزْنِ يَفْعُلُ تَارَةً (أَوْ يَفْعُلُ)؛ أَيِ: أُخْرَى (بِضَمِّ الْعَيْنِ)؛ أَيِ: فِي الْأَوَّلِ، (أَوْ كَسْرِهَا)؛ أَيِ: فِي الثَّانِي، لَفٌّ وَنَشْرٌ مُرْتَبِّ. (نَحْوُ: نَصَرَ يَنْصُرُ): مِثَالٌ لِضَمِّ الْعَيْنِ فِي الْمَضَارِعِ مَعَ فَتْحِهَا فِي الْمَاضِي، يُقَالُ: نَصَرَهُ؛ أَيِ: أَعَانَهُ وَأَغَاثَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٢٥]. وَقِيلَ: نَصَرَهُ؛ أَيِ: رَزَقَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَدُهُ مَبْذُورَةً لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ١٥]؛ أَيِ: لَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ.

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وزاد: قالوا: وما الْمُقَرَّبُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الَّذَايِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذَايِرَاتُ».

(٢) في هامش «و»: «على أنه صفة (فَعَلٍ)».

(٣) في هامش «و»: «على أنه خبر (كان)، وقوله: (على فَعَلٍ) حالٌ من اسم (كان)، هكذا قيل، والظاهر أَنَّ نَصَبَ قَوْلِهِ: (مَفْتُوحِ الْعَيْنِ) عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنْ (فَعَلٍ) وَالْخَبَرُ هُوَ قَوْلُهُ: (عَلَى فَعَلٍ)، كَمَا فِي حَالِ جَرِّ قَوْلِهِ: (مَفْتُوحِ الْعَيْنِ)، فَتَأَمَّلْ».

وأقول: المعنى الأول أَعَمُّ وَأَتَمُّ، والله أعلم وأحكم.

(وَضَرَبَ يَضْرِبُ): مثال لكسر العين في المضارع مع فَتْحِهَا في الماضي، يقال: ضَرَبَهُ بالسَّوْطِ أو غَيْرِهِ: أَوْجَعَهُ، وَضَرَبَ فِي الْأَرْضِ؛ أي: سار فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١]؛ أي: سافرتُمْ، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس: ٧٨]؛ أي: بَيَّنَ لَنَا قِصَّةً عَجِيبَةً، أو قِصَّةً غَرِيبَةً.

* (وَيَجِيءُ)؛ أي: مضارعُ (فَعَلَ) مفتوح العينِ (على يَفْعَلُ مفتوح العينِ) - وفي نسخة: (بَفَتْحِ العينِ) - (إذا كَانَ عَيْنُ فِعْلِهِ) وهو الماضي، ولو قال: (عينه) - كما في نسخة - لكانَ أَخْصَرَ وَأَظْهَرَ، (أو لَامُهُ)؛ أي: لَامُ فِعْلِهِ (حرفاً من حُرُوفِ الْحَلْقِ)، وفي نسخة: (أَحَدَ حُرُوفِ الْحَلْقِ).

(وهي)؛ أي: حُرُوفُ الْحَلْقِ (ستة)، ومَخَارِجُهَا ثلاثة:

(الهمزةُ والهاءُ): مِنْ أَقْصَى الْحَلْقِ.

(والعينُ والحاءُ): الْمَهْمَلَتَانِ، مِنَ الْوَسْطِ.

ومن جملة اللَّطَائِفِ: أَنَّهُ قَالَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ لِمُعْتَزَلِيٍّ: أَيْنَ مَخْرَجُ الْحَاءِ؟ فقال: مِنَ وَسْطِ الْحَلْقِ، فقال له: إِنْ كُنْتَ تَدَّعِي الْإِسْتِقْلَالَ فِي الْخَلْقِ فَأَخْرِجْهَا مِنْ غَيْرِ مَخْرَجِهَا! فَبُهِتَ الْمُعْتَزَلِيُّ.

(والغَيْنُ والخاءُ): الْمَعْجَمَتَانِ، مِنْ أَدْنَاهُ.

(نحو: سَأَلَ يَسْأَلُ): مِثَالُ لِمَا عَيْنُهُ حَرْفُ حَلْقٍ.

(و: مَنَعَ يَمْنَعُ): مِثَالُ لِمَا لَامُهُ حَرْفُ حَلْقٍ.

(وَأَبَى يَأْبَى شاذُّ): جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، تَقْرِيرُ السُّؤَالِ: أَنَّ (أَبَى يَأْبَى)

جاءَ على: (فَعَلَ يَفْعَلُ) بَفَتْحِ الْعَيْنِ فِيهِمَا مَعَ انْتِفَاءِ الشَّرْطِ، وَهُوَ كَوْنُ حَرْفِ الْحَلْقِ عَيْنًا أَوْ لَامًا، وَهنا حَرْفُ الْحَلْقِ فَاءٌ.

وتقريرُ الجواب: أَنَّهُ وَقَعَ مُخَالَفًا لِلْقِيَاسِ.

فإن قيل: كيف يكون شاذًا وهو واردٌ في أفصح الكلام؛ قال الله تعالى: ﴿أَبَى وَأَسْتَكْبَرُ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا الْآنَ يُسَمَّرُ نَوْمُهُ﴾ [التوبة: ٣٢]؟
وأجيب: بأن الشاذَّ على ثلاثة أقسام:

قِسْمٌ مُخَالَفٌ لِلْقِيَاسِ دُونَ الِاسْتِعْمَالِ؛ ك: اسْتَحَوَذَ، وَالْمَسْجِدُ بِالْكَسْرِ.
وقِسْمٌ مُخَالَفٌ لِلِاسْتِعْمَالِ دُونَ الْقِيَاسِ؛ نحو: المسجد بالفتح.
وكلاهما مقبولٌ في مقامٍ فصيحٍ.

وقِسْمٌ مُخَالَفٌ لِلْقِيَاسِ وَالِاسْتِعْمَالِ؛ كقولهِ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجْلَلِ^(١)

إذ القياسُ والاسْتِعْمَالُ: (الْأَجَلُ) بِالْإِذْغَامِ، وهو مردودٌ غيرُ صحيحٍ.
وقد يُجَابُ بِأَنَّ (أَبَى يَأْبَى) محمولٌ على (مَنْعَ يَمْنَعُ) لتَوَافُقِهِمَا فِي الْمَعْنَى،
كما أَنَّ (يَذَرُ) حُمِلَ عَلَى (يَدْعُ) فِي الْمَبْنَى.
لَا يُقَالُ: وَرَدَ (دَخَلَ يَدْخُلُ) وَ(نَحَتَ يَنْحِتُ) وَ(جَاءَ يَجِيءُ) مِمَّا فِيهِ حَرْفُ
الْحَلْقِ فِي مُقَابَلَةِ عَيْنِهِ أَوْ لَامِهِ وَلَسَمَ يُفْتَحُ عَيْنُهُ.
فإنَّا نقولُ: لَا يَلْزَمُ مِنْ وَجُودِ الشَّرْطِ حَصُولُ الْمَشْرُوطِ، بِخِلَافِ عَكْسِهِ؛
كَالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ.

وَأَمَّا (قَلَى يَقْلَى) بِالْفَتْحِ فَلُغَةٌ بَنِي عَامِرٍ، وَالْفَصِيحُ الْكَسْرُ.
و(بَقَى يَبْقَى) بِالْفَتْحِ فِيهِمَا لُغَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَالْأَصْلُ كَسْرُ الْعَيْنِ فِي الْمَاضِي، فَقَلَّبُوهُ
فَتْحًا وَاللَّامَ أَلْفًا تَخْفِيفًا، وَهَذَا الْقَلْبُ قِيَاسٌ عِنْدَهُمْ.

(١) عزاه الخطابي في «غريب الحديث» (٥٢ / ٣) لرؤية، وهو دون نسبة في «المقتضب» (١ / ١٤٢، ٢٥٣)،

و«الأصول في النحو» لابن السراج (٣ / ٤٤٢)، و«الخصائص» لابن جني (٢ / ٣٤٧).

وَأَمَّا (رَكَنَ يَرْكُنُ) بِالْفَتْحِ فِيهِمَا فَمِنْ تَدَاخُلِ اللَّغَتَيْنِ، فَإِنَّهُ جَاءَ مِنْ بَابِ (نَصَرَ يَنْصُرُ) وَ(عَلِمَ يَعْلَمُ)، فَأَخَذَ الْمَاضِي مِنَ الْأَوَّلِ وَالْمَضَارِعُ مِنَ الثَّانِي.

* (وإن كان)؛ أي: ماضيه (على فَعِلَ مكسور العين، فمضارعه يُفَعِّلُ بفتح العين؛ نحو: عَلِمَ يَعْلَمُ)، وهذا قياسٌ مطرَّدٌ له (إلا ما شذَّ)؛ أي: تفرَّدَ؛ أي: قَلَّ وَنَدَرَ، مِنْ (نحو: حَسِبَ يَحْسِبُ) بكسر العين فِيهِمَا على لُغَةٍ، وقرأ بها نافعٌ وابنٌ كثيرٌ وأبو عمرو والكسائي، والباقون بفتح السَّيْنِ في المضارعِ وَفَقَّ الْقِيَاسُ^(١).

والمراذُ بـ (نحوه): نَعَمَ يَنْعَمُ؛ فَإِنَّهُ جَاءَ بِالْوَجْهِينِ أَيْضاً، وكذا ما جاء في الصَّحِيحِ على مِنْوَالِهِ وهو قليل.

(وأخواته)؛ أي: مِنَ الْمُعْتَلِّ وهو كثيرٌ، نحو: وَرِثَ يَرِثُ، ووزن يزن^(٢)، وَوَرَعَ يَرِغُ، وَوَمَقَّ يَمِقُّ، وَوَثِقَ يَثِيقُ، وَوَلِيَ يَلِي، وَيَسَسَ يَسِسُ في لُغَةٍ، وقد جاء بفتح الهمزة أيضاً، ففي التَّنْزِيلِ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ لِذِيكُمُ الْعَمَلُ﴾ [الرعد: ٣١].

وَأَمَّا فَضِّلَ يَفْضُلُ، وَنَعِمَ يَنْعَمُ، وَمَتَّ تَمُوتُ، بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع، فَمِنْ التَّدَاخُلِ لِأَنَّهَا جَاءَتْ مِنْ بَابِ (عَلِمَ يَعْلَمُ) وَ(نَصَرَ يَنْصُرُ)، فَأَخَذَ الْأَوَّلُ مِنَ الْمَاضِي وَالْمَضَارِعُ مِنَ الثَّانِي.

وإنَّما مثْلنا بـ (مَتَّ تَمُوتُ) مُسْتَدَآءٌ إِلَى التَّاءِ لظُهُورِ الْكَسْرِ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ، فهو بكسر الميم مِنَ الْمَاضِي مَنَقُولاً إِلَيْهَا مِنَ الْوَاوِ الْمَحذُوفَةِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ.

(١) وهذا في جميع القرآن. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص ١٩١)، و«التفسير في القراءات السبع» للداني (ص ٨٤). والمراد بالباقيين باقي السبعة، وهم: ابن عامر، وعاصم، وحزمة.

(٢) قوله: «ووزن يزن» كذا في «ط» و«و»، وفيه نظر، فقد ذكر العلماء الأفعال التي يتعين فيها الكسر في هذا الباب، وهي ثمانية: ومق ووثق ووفق وولى وورث وورع وورم ووري. ليس فيها «وزن». انظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٤٣٨)، و«فتح المتعال على لامية الأفعال» (١/ ١٩٠).

وبهذا يظهر لك وجه القراءةَين في ﴿مُتَّ﴾ [مرسم: ٢٣] معاً، و﴿مُتَّمَّ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨] و﴿مُتَّنَا﴾ [المؤمنون: ٨٢] بكسر الميم وفتحها^(١).

والحاصل: أنّه جاء (ماتَ يَمُوتُ) كـ (قَالَ يَقُولُ) مِنْ بابِ (نَصَرَ)، و(ماتَ يَمُوتُ) كـ (خافَ يَخَافُ) مِنْ بابِ (عَلِمَ)، فكلُّ قراءةٍ على مقتضى لغةٍ.

* (وإن كان)؛ أي: ماضيه (على فَعَلَ مَضْمُومِ الْعَيْنِ فَمُضَارِعُهُ يَفْعَلُ بضمّ العينِ؛ نحو: حَسَنَ يَحْسُنُ): وفي نسخة: (وَكَرَّمَ يَكْرُمُ)، وفي أخرى: (وَأَخَوَاتِهِ كَوَجْهَ يَوْجُهُ).

وهذا البابُ مُختَصٌّ بالفعلِ اللَّازِمِ بخلافِ الأبوابِ السَّابِقَةِ، وقد يكونُ بعضُ الأفعالِ له أبوابٌ متعدّدةٌ كـ (قنط)، فإنَّه جاءَ مِنْ بابِ (نَصَرَ) و(ضَرَبَ) و(كَرَّمَ) و(حَسَبَ) والمعنى واحدٌ.

وقد يَخْتَلِفُ المعنى باختلافِ البابِ في المَبْنَى، فـ (لَبَسَ يَلْبَسُ) مِنْ بابِ (عَلِمَ يَعْلَمُ) مَصْدَرُهُ اللَّبْسُ بالضم، وَمِنْ بابِ (ضَرَبَ يَضْرِبُ) مَصْدَرُهُ اللَّبْسُ بالفتح بمعنى الخَلْطِ.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: ﴿مُتَّ﴾ و: ﴿مُتَّنَا﴾ و: ﴿مُتَّمَّ﴾ برفع الميم في كل القرآن، وتابعهم حفص على الضم في حرفي آل عمران: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ [آل عمران: ١٥٧] و: ﴿وَلَكِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٨] ولم يكن حفص يرفع الميم في شيء من القرآن غيرهما. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص ٢١٨)، و«التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٩١).

* (وَأَمَّا الرَّبَاعِيُّ الْمُجَرَّدُ)؛ أي: عن الزائِدِ سالماً أو غيرَ سالِمٍ (فهو)؛ أي: ميزانُ ماضِيهِ (فَعَلَّلَ) بَفَتْحِ الْفَاءِ وَاللَّامَيْنِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ (كَدَخَرَجَ) فَلَانَ الشَّيْءِ؛ أي: دَوَّرَهُ (يُدْخِرُجُ دَخْرَجَةً) مَصْدَرٌ قِيَاسِيٌّ، (وَدِخْرَاجاً) بِكسْرِ أَوَّلِهِ مَصْدَرٌ سَمَاعِيٌّ، وكذلك: زَلَزَلَ يُزَلِّزُ زَلْزَلَةً وَزِلْزَالاً، وَيُلْحَقُ بِهِ نَحْوُ: هَرَوَلَ وَبَسْمَلَ، ودليلُ الإلحاقِ اتِّحَادُ الْمَصْدَرَيْنِ وَزناً واختلافُهُمَا مادَّةً وأصلاً.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مَصَادِرَ الثَّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ مَقْصُورَةٌ عَلَى السَّمَاعِ؛ كَالنَّضْرِ وَالضَّرْبِ وَالْمَنْعِ وَالسُّؤَالِ وَالْعِلْمِ وَالْحِسَابِ وَالْكَرَمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بخلافِ الثَّلَاثِيِّ الْمَزِيدِ فَإِنَّ مَصَادِرَهَا مِنْهَا سَمَاعِيٌّ وَأَكْثَرُهَا قِيَاسِيٌّ كَمَا سَيَأْتِي مُفَصَّلاً.

* (وَأَمَّا الثَّلَاثِيُّ الْمَزِيدُ فِيهِ)؛ أَي: عَلَى حُرُوفِ أَصُولِهِ (فَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ)؛
لأنَّ الزَّائِدَ فِيهِ إمَّا حَرْفٌ وَاحِدٌ، أَوْ اثْنَانِ، أَوْ ثَلَاثَةٌ:

(الأوّل)؛ أَي: مِنَ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ: (مَا كَانَ)؛ أَي: وَجَدَ مَاضِيَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ
أَحْرَفٍ؛ أَي: مَبْنِيًّا عَلَيْهَا، بِأَنْ يَكُونَ الزَّائِدُ فِيهِ حَرْفًا وَاحِدًا وَالْبَاقِي أَصُولًا،
وهذا الْقِسْمُ ثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ:

منها: بَابُ الْإِفْعَالِ، فَمَاضِيهِ (كَأَفْعَل) بِزِيَادَةِ الْهَمْزَةِ الْمَقْطُوعَةِ فِي قَوْلِهِ: (نَحْوُ:
أَكْرَمَ إِكْرَامًا) وَهِيَ لِلتَّعْدِيَةِ غَالِبًا، فَإِنَّ (كَرَّمَ) مَثَلًا لَا زِمَ، فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهِ الْهَمْزَةُ صَارَ
مُتَّعِدِيًّا، يُقَالُ: كَرَّمَ زَيْدٌ، وَأَكْرَمَ زَيْدٌ عَمْرًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾
[المائدة: ٣] فَإِنَّهُ مُتَّعَدٌ، وَلَا زِمُهُ. تَمَّ.

ومنها: بَابُ التَّفْعِيلِ، (وَفَعَّلَ) بِتَكْرِيرِ الْعَيْنِ مِيزَانُ مَاضِيهِ، (نَحْوُ: فَرَّحَ تَفْرِيحًا)،
أَصْلُهُ: تَفَرَّحَ؛ لَوْجُوبِ اشْتِمَالِ الْمَصْدَرِ عَلَى حُرُوفِ فَعْلِهِ، ثُمَّ أُبْدِلَتِ الرَّاءُ الثَّانِيَةُ
مِنْ جَنْسِ حَرَكَةِ مَا قَبْلَهَا.

تَمَّ اخْتِلَافَ أَنَّ الزَّائِدَ هُوَ الْأَوَّلُ أَوِ الثَّانِي؟ وَالْوَجْهَانِ جَائِزَانِ عِنْدَ سَيِّبُوهِ،
وَالْأَوَّلُ مَذْهَبُ الْخَلِيلِ^(١)، وَاخْتَارَهُ ابْنُ مَالِكٍ وَجَمَاعَةٌ^(٢)، وَالثَّانِي اخْتَارَهُ ابْنُ
الْحَاجِبِ وَطَائِفَةٌ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ فَتَدَبَّرْ.

وهو لِلتَّعْدِيَةِ أَيْضًا غَالِبًا مَعَ إِفَادَةِ التَّكْثِيرِ، وَلِذَا جَاءَ فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ (مُنَزَّلٌ)
بِالتَّشْدِيدِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُنْجَمًا مُفَصَّلًا، وَفِي حَقِّ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ: (مُنَزَّلٌ) بِالتَّخْفِيفِ؛ لِأَنَّهُ
نَزَلَ مُجْمَلًا وَمُكْمَلًا. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ - التَّفْعِيلِ - قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَّقْتَ
الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣].

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٤/ ٣٢٩)، و«معجم الهوامع» للسيوطي (٣/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «التسهيل» لابن مالك (ص ٢٩٧).

ومنها: بابُ الْمُفَاعَلَةِ (وَفَاعَلَ) بزيادةِ الألفِ بعدَ الفاءِ ميزانُ ماضيه، (نحو: قَاتَلَ مُقَاتَلَةً) مصدرٌ قياسيٌّ، (وَقَاتَلًا) مصدرٌ سماعيٌّ، وجاء: قَاتَلًا، بتشديدِ التَّاءِ (وَقِيَتَالًا) بالياءِ، وأصلُهُ أَنْ يَكُونَ الْفَعْلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِصَاعِدًا؛ يَفْعَلُ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ مَا يَفْعَلُ الصَّاحِبُ بِهِ، نحو: ضَارَبَ زَيْدٌ عَمْرًا، وَيَكُونُ الْبَادِيُّ هُوَ الْأَوَّلُ، فتأمل.

* (والثاني) من الأقسامِ الثلاثةِ (ما كان)؛ أي: ماضيه (على خمسةِ أحرفٍ) بأنْ يَكُونَ الزَّائِدُ فِيهِ حَرْفَيْنِ، ومجموعُهُ خمسةُ أبوابٍ، وهو على نوعين:

(إِمَّا أَوَّلُهُ التَّاءُ مِثْلُ: تَفَعَّلَ) بزيادةِ التَّاءِ وتكريرِ العينِ (نحو: تَكَسَّرَ تَكْسُرًا) بضمِّ السِّينِ للمُغَايَرَةِ، وهو لِمُطَاوَعَةِ فَعَّلَ بِتَشْدِيدِ الْعَيْنِ، نحو: كَسَّرْتُهُ فَتَكَسَّرَ، وَقَطَّعْتُهُ فَتَقَطَّعَ.

وقد يَجِيءُ لِلطَّلَبِ، نحو: تَكَبَّرَ؛ أي: طَلَبَ أَنْ يَكُونَ كَبِيرًا، وكذا: تَعَرَّفَ وَتَعَلَّمَ؛ أي: طَلَبَ الْمَعْرِفَةَ وَالْعِلْمَ. وَلِلتَّكَلُّفِ؛ نحو: تَزَهَّدَ وَتَحَلَّمَ؛ أي: تَكَلَّفَ الزُّهْدَ وَالْحِلْمَ.

والفرقُ بينهما: حصولُ أصلِ الفعلِ صورةً في التَّكَلُّفِ دُونَ الطَّلَبِ.

(وَتَفَاعَلَ) بزيادةِ التَّاءِ والألفِ (نحو: تَبَاعَدَ تَبَاعُدًا) بضمِّ العينِ، وهو لِمَا يَصْدُرُ مِنْ اثْنَيْنِ فِصَاعِدًا، نحو: تَضَارَبَا تَضَارِبًا، وقد يَكُونُ لِمُطَاوَعَةِ فَاعَلَ؛ نحو: بَاعَدْتُهُ فَتَبَاعَدَ. وَلِلتَّكَلُّفِ؛ نحو: تَجَاهَلَ؛ أي: أَظْهَرَ الْجَهْلَ مِنْ نَفْسِهِ بِخِلَافِ الْمُتَجَاهِلِ.

(وَإِمَّا أَوَّلُهُ الْهَمْزَةُ مِثْلُ: انْفَعَلَ) بزيادةِ الهمزةِ والتَّوْنِ (نحو: انْقَطَعَ انْقِطَاعًا)، وهو لِمُطَاوَعَةِ فَعَلَ بِالتَّخْفِيفِ؛ نحو: قَطَّعَهُ فَاِنْقَطَعَ.

(وَافْتَعَلَ) بزيادةِ الهمزةِ والتَّاءِ (نحو: اجْتَمَعَ اجْتِمَاعًا) وهو لِلْمُطَاوَعَةِ أَيْضًا؛ نحو: جَمَعْتُهُ فَاجْتَمَعَ، وَلِلْمَبَالِغَةِ فِي الْمَعْنَى؛ لِلزِّيَادَةِ فِي الْمَبْنَى، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وبمعنى: تَفَاعَلَ، ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾ [الحج: ١٩]؛ أي: فُوجَانِ اخْتَصَمُوا.

(وَأَفْعَلَّ) بزيادةِ الهمزة وإحدى اللَّامَيْنِ (نحو: أَحْمَرَّ اخْمِرَارًا)؛ أي: اشْتَدَّ حُمْرَتُهُ، وهو للمُبَالِغَةِ، ولا يكونُ إِلَّا لازِمًا، واختَصَّ بالألوانِ والعيوبِ الظَّاهِرةِ.

* (والثَّالِثُ)؛ أي: مِنَ الأقسامِ الثَّلاثَةِ (ما كان)؛ أي: ماضِيهِ (على سِتَّةِ أَحرفٍ) بأن يكونَ الزَّائِدُ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَحرفٍ؛ نحو: اسْتَفْعَلَ، بزيادةِ الهمزة والسَّيْنِ والتَّاءِ؛ (نحو: اسْتَخْرَجَ اسْتَخْرَاجًا) وهو لَطَلَبِ الفِعْلِ؛ نحو: اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ؛ أي: طَلَبَ مَغْفِرَتَهُ.

(وَأَفْعَالَ) بزيادةِ الهمزة والألفِ وإحدى اللَّامَيْنِ؛ (نحو: احْمَارَّ اخْمِرَارًا) وهو أَبْلَغُ مِنْ احْمَرَّ؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنِيِّ تَدُلُّ على زيادةِ المعنى.

(وَأَفْعَوَلَ) بزيادةِ الهمزة والواوِ وإحدى العَيْنَيْنِ؛ (نحو: اغشَوْشَبَ) المكانُ (اغشِيشَابًا)؛ أي: كَثُرَ عُشْبُهُ؛ أي: كَلَّوْهُ^(١) ما دَامَ رَطْبًا، وهو للمُبَالِغَةِ.

(وَأَفْعَوَّلَ) بزيادةِ الهمزة والواوَيْنِ؛ (نحو: اجْلَوَّرَ) بِهِمُ السَّيْرِ؛ أي: دَامَ مَعَ السُّرْعَةِ (اجْلَوَّرَا) بكسرِ اللَّامِ وتشديدِ الواوِ.

(وَأَفْعَنَلَلَّ) بزيادةِ الهمزة والنُّونِ وإحدى اللَّامَيْنِ؛ (نحو: افْعِنْسَسَ افْعِنْسَاسًا)؛ أي: ذَهَبَ صَدْرُهُ إِلَى خَلْفِهِ.

(وَأَفْعَنَلَى) بزيادةِ الهمزة والنُّونِ والألفِ للإلحاقِ؛ (نحو: اسْلَنَقَى اسْلِنَقَاءً)؛ أي: وَقَعَ عَلَى القَفَا.

هذا، وفي لسانِ أَهْلِ البَيَانِ مِنْ أربابِ العِرفَانِ: أَنَّ مَزِيدَ الفَضْلِ فِي أَفْرَادِ الإنسانِ: إمَّا بِمَجَرَّدِ الإيْمَانِ، أو بِانْضِمَامِ الإيْقَانِ، أو بِإِتِمَامِ الإِحْسَانِ.

(١) في «ط»: «كلاه»، وفي «و»: «كلأ»، والصواب المثبت.

فَالأَوَّلُ لِلْعَوَامِّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، وَالثَّانِي لِلخَوَاصِّ مِنَ الْأَصْفِيَاءِ، وَالثَّلَاثُ
لِلْأَخَصِّ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ.

وَكَذَا الْمَرَاتِبُ الثَّلَاثَةُ مُعْتَبَرَةٌ فِي كُلِّ صِفَةٍ وَحَالَةٍ كَمَا هُوَ مُسْطَوْرٌ فِي
مَنَازِلِ السَّائِرِينَ وَمَرَاحِلِ الطَّائِرِينَ، وَبَيَانُهُ: أَنَّ التَّقْوَى أَقْلُ مَرَاتِبِهَا مِنَ الشُّرْكِ
وَنَحْوِهِ، وَأَوْسَطُهَا مِنَ الذَّنْبِ وَعَمْدِهِ، وَأَعْلَاهُ التَّقْوَى مِنْ خُطُورِ مَا سِوَى اللَّهِ.
وَفَسَّرَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ بَقِيَّةَ الْمَقَامَاتِ.

* (وَأَمَّا الرَّبَاعِيُّ الْمَزِيدُ فِيهِ؛ أَي: حَرْفٌ أَوْ حَرْفَانِ، (فَأَمْثَلُهُ)؛ أَي: أُنْبِيَهُ أَبَوَاهُ ثَلَاثَةً:

(تَفَعَّلَ) بزيادةِ التَّاءِ؛ ك: تَدَخَّرَ تَدَخُّرًا، بضمِّ الرَّاءِ فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِعْلِهِ، وَالْحَقُّ بِهِ: تَمَسَّكَنَ؛ أَي: أَظْهَرَ الْمَسْكَنَةَ؛ أَي: السُّكُونَ.

(وَأَفْعَلَّ) بزيادةِ الهمزةِ والنُّونِ (ك: اخْرُجْ خَرَجًا)؛ أَي: ازْدَحَمَ.

والفرقُ بينَ بابي (افْعَنْسَسَ) و(اخْرُجْ)؛ أَنَّهُ يَجِبُ فِي الْأَوَّلِ تَكْرِيرُ اللَّامِ فِي الْموزونِ دُونَ الثَّانِي؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ ثَلَاثِي الْأَصُولِ وَالثَّانِي رُبَاعِي الْأَصُولِ.

(وَأَفْعَلَّ) بزيادةِ الهمزةِ واللَّامِ، فَهُوَ بِسُكُونِ الْفَاءِ وَفَتْحِ الْعَيْنِ، وَاللَّامُ الْأُولَى مُخَفَّفَةٌ وَالْأَخِيرَةُ مُشَدَّدَةٌ؛ (ك: اقْشَعَرَّ) جِلْدُهُ (اقْشَعَرَارًا) بِكسْرِ الشَّيْنِ؛ أَي: أَخَذَتْهُ قَشْعِرِيرَةٌ؛ أَي: رِغْدَةٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَقَشِعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وبلسانِ أربابِ الإشارةِ: الزِّيَادَةُ فِي الْكَمَلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَرْتَبَتَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ دُونَهُمَا فِي الدُّنْيَا، وَبِالدَّرَجَتَيْنِ فِي الْعُقُبَى، أَعْنِي بِهِمَا مَقَامِي: الْكَمَالِ وَالتَّكْمِيلِ.

[تقسيم الفعل إلى متعدٍ ولازم]

(تنبيه)؛ أي: هذا إعلالٌ بما وَقَعَ مُجْمَلًا وَيَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِهِ مُفَصَّلًا: (الفِعْلُ)؛ أي: جِنْسُهُ (إِمَّا مُتَعَدٍّ فَهُوَ)؛ أي: المتعدي، (الذي)؛ أي: الفعل الذي (يَتَعَدَّى)؛ أي: يَتَجَاوَزُ مِنَ الْفَاعِلِ (إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ) وهو الذي وَقَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ؛ (كَقَوْلِكَ: ضَرَبْتُ زَيْدًا)، وقد يَكُونُ مُتَعَدِّيًا إِلَى مَفْعُولَيْنِ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، أو ثَلَاثَةً نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرْنَاهُمْ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٣].

وإِنَّمَا قَيَّدَ الْمَفْعُولَ بِقَوْلِهِ: (به)؛ لِأَنَّ الْمُتَعَدِّيَّ وَغَيْرَهُ سَيَّانٍ فِي نَضْبِ مَا عَدَا الْمَفْعُولَ بِهِ؛ مِنْ الْمَفْعُولِ مَعَهُ، وَالْمَفْعُولِ فِيهِ، وَالْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ، وَالْمَفْعُولِ لَهُ؛ نَحْوُ: اجْتَمَعَ الْقَوْمُ وَالْأَمِيرُ فِي السُّوقِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَوْقَ السَّطْحِ اجْتِمَاعًا لِتَأْدِيبِ زَيْدٍ، أو تَعْلِيمًا لَهُ.

(وَيُسَمَّى) الْمُتَعَدِّيَّ (أَيْضًا: وَاقِعًا) لَوُقُوعِهِ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، (وَمُجَاوِزًا) لِمُجَاوِزَتِهِ الْفَاعِلَ، بِخِلَافِ الْإِلَازِمِ لِفَاعِلِهِ التَّأَمُّ بِهِ غَيْرِ مُحْتَاجٍ إِلَى غَيْرِهِ.

(وَأَمَّا غَيْرُ مُتَعَدٍّ، وَهُوَ)؛ أي: غَيْرُ الْمُتَعَدِّيَّ (الذي)؛ أي: الفعل الذي (لَمْ يَتَجَاوِزْ) - وَفِي نُسْخَةٍ: (لَمْ يُجَاوِزْ) - (الْفَاعِلَ)؛ أي: فَاعِلَهُ؛ (كَقَوْلِكَ: حَسَنَ زَيْدًا)، فَإِنَّ الْفِعْلَ الَّذِي هُوَ الْحُسْنُ لَمْ يَتَصَوَّرْ أَنْ يَتَجَاوِزَ زَيْدًا، بَلْ ثَبَتَ الْحُسْنُ فِيهِ.

(وَيُسَمَّى) غَيْرُ الْمُتَعَدِّيَّ: (لِإِلَازِمًا)؛ لِلزُّومِ عَلَى الْفَاعِلِ وَعَدَمِ تَجَاوُزِهِ عَنْهُ، (و)؛ غَيْرَ وَاقِعٍ؛ لِعَدَمِ وَقُوعِهِ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، وَيُسَمَّى: قَاصِرًا؛ لِقُصْرِهِ عَلَى الْفَاعِلِ وَعَدَمِ تَجَاوُزِهِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ.

فَالنَّحْوِيُّ^(١) مَشْغُولٌ بِزَيْدٍ وَعَمْرٍو وَنَحْوِهِ، وَالصُّوفِيُّ مَشْغُولٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، وَالْأَسْتِغْرَاقُ فِي بَحْرِ شُهُودِهِ وَمَخَوِّهِ.

(١) قوله: «فالنحوي»، كذا وقعت في «ط» و«و» دون تقديم، ولعل هذا من باب الإشارة كما جرت عادة المؤلف من تعقيب كل فقرة بنحو ذلك.

(وَتُعَدِّيهِ)؛ أي: وتُعَدِّي أنتَ الفعلَ، وفي بعضِ النسخ: (وَتُعَدِّيْتُهُ)؛ أي: وجعلَ
اللازمَ متعدِّياً (في الثلاثيِّ المجرّد) - أي: خاصّةً - بأحدِ الشَّيْئَيْنِ:

(بِتَضْعِيفِ الْعَيْنِ)؛ أي: بنقلِ الفعلِ الثلاثيِّ المجرّدِ واللازمِ إلى بابِ
التَّفْعِيلِ لِيَصِيرَ مُتَعَدِّياً.

(وبالهمزة)؛ أي: وينقله إلى بابِ الإفعالِ لذلك.

(كقَوْلِكَ: فَرَّخْتُ زَيْدًا) بتشديدِ الرَّاءِ، فَإِنَّ قَوْلَكَ: (فَرَّخْتُ) - ثلاثيًّا مجرّدًا -
لازِمٌ، فَلَمَّا قُلْتُ: (فَرَّخْتُهُ) بزيادةِ الرَّاءِينِ صارَ متعدِّياً.

(و: أَجْلَسْتُهُ) فَإِنَّ قَوْلَكَ: (جَلَسْتُ) لازمٌ، فَلَمَّا قُلْتُ: (أَجْلَسْتُهُ) بزيادةِ الهمزةِ
صارَ متعدِّياً.

(وبحرفِ الجرِّ)؛ أي: وتُعَدِّيهِ بحروفِ الجارِّ (في الكلِّ) مِنَ الثَّلاثِيِّ والرُّبَاعِيِّ،
مُجَرَّدًا أَوْ مَزِيدًا فِيهِ؛ لِأَنَّ حُرُوفَ الْجَارِّ وُضِعَتْ لَتَجَرَّ مَعَانِي الْأَفْعَالِ إِلَى الْأَسْمَاءِ؛
(نحو: ذَهَبْتُ بِزَيْدٍ، وَأَنْطَلَقْتُ بِهِ) فَإِنَّ ذَهَبَ وَأَنْطَلَقَ لَازِمَانِ، فَلَمَّا أَتَيْتَ بِالْجَارِّ
والمَجْرُورِ ظَاهِرًا أَوْ مُضْمَرًا صَارَا مُتَعَدِّينِ.

قال الرّضِي: وَلَا يُعَدِّي كُلُّ فِعْلٍ بِالْهَمْزَةِ وَالتَّضْعِيفِ، فَإِنَّ النِّقْلَ مِنَ الْمَجْرَدِ إِلَى
بَعْضِ الْأَبْوَابِ الْمَشْعَبَةِ مَوْكُولٌ إِلَى السَّمَاعِ، فَلَا تَقُولُ: ذَهَبْتُ خَالِدًا، وَلَا: أَنْصَرْتُ
زَيْدًا عَمْرًا^(١)، بخلاف: عَلِمْتُ زَيْدًا بَكْرًا.

وهذا باعتبارِ التَّصَرُّفِ، وَأَمَّا فِي طَرِيقِ التَّصَوُّفِ، فَكُلُّ مِنَ الْعِلْمِ وَالظُّلْمِ يَكُونُ
قَاصِرًا وَمُتَعَدِّيًا، وَالْعِلْمُ الْمُتَعَدِّي هُوَ الَّذِي يَتَجَاوَزُ نَفْعُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِتَعْلِيمٍ وَوَعْظٍ
وَتَدْرِيسٍ وَتَصْنِيفٍ وَدَلَالَةٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَالْقَاصِرُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ نَافِعًا لِنَفْسِهِ؛ لِاسْتِغَالِهِ

(١) انظر: «شرح الرضي على الكافية» (٤ / ١٤٢).

بعبادة ربه، ودفع شره وضرره، ولا شك أن الأول أفضل، ومن ثمّة قال عليه السلام: «ففضل العالم على العابد كفضل علي أذنكم»^(١)، وفيه مبالغة لا تخفى.

وكذا الظلم تارة يكون قاصراً على صاحبه ولا يتجاوز ضرره إلى غيره كما في حقوق الله تعالى، وأخرى يكون متعدّياً إلى غيره كحقوق العباد، وهذا أعظم ضرراً وأشدّ خطراً.

وحاصله: أن العلم المتعدّي بمنزلة العلمين، والظلم المتعدّي في مرتبة ظلمين، وأكبر العلم هو معرفة الله، وأعظم الظلم هو الشرك بالله، وأقله خُطُورُ إرادة ما سواه؛ كما قال العارف ابن الفارض:

ولو خَطَرْتُ لي في سِوَاكَ إِرَادَةً على خَطَرِي سَهْواً حَكَمْتُ بِرِدَّتِي^(٢)

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال - كما في «تحفة الأشراف» (٤) /

١٧٧)، و«الترغيب والترهيب» للمنزدي (١ / ٥٦) -: حسن صحيح. وزاد في «التحفة»: غريب.

(٢) البيت في «ديوان ابن الفارض» (ص ٥٢).

(فصل

في أمثلة تصريف هذه الأفعال)

أي: في بيان تفصيل أبنية الماضي والمضارع وما أخذ منه؛ من الأمر والنهي، والجحد والنفي، ونحو ذلك؛ من فعل الثلاثي والرباعي، المجرد أو مزيد فيه، السالم أو غيره، ممّا أشير فيما هنالك.

وقدّم الفعل الماضي لتقدّم زمانه على الحال والاستقبال، مع اختصاصه به على وجه الاستقلال، فقال:

[الفعل الماضي]

(أما الماضي)؛ أي: من الأفعال (فهو الفعل الذي دلّ على معنى)؛ أي: حَدَثَ من الضرب ونحوه (وُجِدَ) ذلك الحدث (في الزمان الماضي) فالماضي الأول صناعي والثاني لغوي، فلا يلزم تصريف الشيء بنفسه، ولا حصول الدور في حده. ثمّ اعلم: أن الماضي إما مبني للفاعل، أو مبني للمفعول، ولكل منهما علامة في المبني ليكون تفرقة في المعنى:

١ - (فالمبني للفاعل منه)؛ أي: من الماضي؛ أي: الفعل الماضي الذي (كان)؛ أي: استمرّ (أولّه)؛ أي: أول حروفه (مفتوحاً) نحو: نَصَرَ (أو أول متحرّك منه مفتوحاً) نحو: اجتمع، فإنّ أول متحرّك من افتعل هو التاء، وهو مفتوح؛ لأنّ الفاء ساكنة، والهمزة غير مُعْتَدِّ بها لسقوطها في الدّرج. و(أو) للتنويع؛ أي: ما كان على أحد هذين الوجهين.

(ومثاله)؛ أي: مثال الماضي المبني للفاعل: (نَصَرَ) للغائب المُفْرَد، ويُسند

تَارَةً إِلَى مُظْهِرٍ؛ نَحْو: نَصَرَ زَيْدٌ، وَأُخْرَى إِلَى مُضْمَرٍ نَحْو: زَيْدٌ نَصَرَ، (نَصَرَا) لِمُثْنَاهُ، (نَصَرُوا) لَجَمْعِهِ، وَقَدْ يُحذفُ وَاوُهُ لِلضَّرُورَةِ فِي الْوِزْنِ؛ كَقَوْلِهِ:

فَلَوْ أَنَّ الْأَطِيَّا كَانَ حَوْلِي^(١)

بِضْمِ النَّوْنِ؛ أَي: كَانُوا.

(نَصَرْتُ) لِلْعَائِيَةِ الْمُفْرَدَةِ، (نَصَرْنَا) لِمُثْنَاهَا، (نَصَرْنَا) لَجَمْعِهَا.

(نَصَرْتُ) لِلْمُخَاطَبِ الْوَاحِدِ، (نَصَرْتُمَا) لِمُثْنَاهُ، (نَصَرْتُمْ) لَجَمْعِهِ.

(نَصَرْتُ) لِلْمُخَاطَبَةِ الْوَاحِدَةِ، (نَصَرْتُمَا) لِمُثْنَاهَا، فَهِيَ كَلِمَةٌ مُشْتَرَكَةٌ، (نَصَرْتُنَّ) لَجَمْعِهَا.

(نَصَرْتُ) لِلْمُتَكَلِّمِ الْوَاحِدِ مُذَكَّرًا كَانَ أَوْ مُؤَنَّثًا، (نَصَرْنَا)؛ أَي: مَعَ غَيْرِهِ، أَوْ

لِلْمُعْظَمِ نَفْسَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١].

(وَقِسْ عَلَى هَذَا) الْمَذْكُورِ مِنْ تَضْرِيْفِ (نَصَرَ) عَلَى وَزْنِ فَعَلَ مَوْزُونَاتِ

(فَعَلَلْ) ك: دَخَرَجَ، (وَتَفَعَّلَلْ) ك: تَزَلَزَلَ، (وَأَفْتَعَّلَ) ك: اجْتَمَعَ، (وَانْفَعَلَ) ك: انْقَطَعَ،

(وَأَسْتَفَعَلَ) ك: اسْتَغْفَرَ، (وَأَفْعَلَّلَ) ك: اخْرَجْتِمَ وَأَفْعَسَسَ، وَتَصَارِيْفُهَا وَاضِحَةٌ.

(وَأَفْعَالٌ) ك: أَحْمَارًا أَحْمَرَارًا، أَحْمَارُوا، أَحْمَارَتُ، أَحْمَارَاتَا، أَحْمَارَزْنَ بِفَتْحِ

الرَّاءِ، وَكَذَا إِلَى آخِرِهِ.

(وَأَفْعَلَّلَ) ك: أَقْشَعَرَ، وَتَقُولُ فِي الْفَكِّ: أَقْشَعَرَزْنَ، بِفَتْحِ الرَّاءِ أَيْضًا.

(وَأَفْعُوَعَلَ) ك: اَعْشَوْشَبَ.. إلخ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَبْوَابِ.

وَمِنْ الْمُشْكِلِ فِي الْجُمْلَةِ: (أَفْعَلَلِي) ك: اسْلَنْقِي، اسْلَنْقِيَا، اسْلَنْقُوا، اسْلَنْقْتُ،

(١) الْبَيْتُ دُونَ نِسْبَةٍ فِي «مَجَالِسِ ثَعْلَبٍ» (ص ٨٨)، وَ«الْكَشَافُ» (٣ / ١٧٧)، وَ«الْإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ

الْخِلَافِ» لِأَبِي الْبَرَكَاتِ الْأَنْبَارِيِّ (١ / ٣٨٥).

اسْلَنْقَتَا، اسْلَنْقَيْنَ... إلخ، بفتح القاف في الكل، وسيأتي بيان إغلال اسْلَنْقُوا واسْلَنْقِيَا واسْلَنْقَيْنَ في الْمُعْتَلَّاتِ عندَ نحوها من الكلمات.

(ولا تَعْتَبِرْ) أنتَ، بصيغة النهي، وفي بعض النسخ مَبْنِيًّا للمفعول بصيغة النَّفْيِ، فيَخْتَلِفُ إعرابُ (حَرَكَاتِ الْأَلْفَاتِ)؛ أي: الهمزات في صُورِ الْأَلْفَاتِ (في الأوائل)؛ أي: أوائل الكلمات الواقعة في أبوابِ (افْتَعَلَ) و(انْفَعَلَ) و(اسْتَفْعَلَ) ونحوه ممَّا في أوله همزة زائدة، سوى بابِ الإفعال لأنَّ همزته مقطوعة مفتوحة، بخلاف غيرها إذ هي موصولة مكسورة.

(فإنها)؛ أي: هذه الْأَلْفَاتُ (زائدة) لدفع الابتداء بالسَّاكِنِ (تَثْبُتُ في الابتداء) للاحتياج إليها (وتَسْقُطُ في الدَّرَجِ)؛ أي: في وَسْطِ الكلام للاستغناء عنها.

٢ - (وَالْمَبْنِيُّ لِلْمَفْعُولِ مِنْهُ)؛ أي: مِنَ الماضي، (وهو)؛ أي: المَبْنِيُّ لِلْمَفْعُولِ مُطْلَقاً سواءً كَانَ مِنَ الماضي والمُضَارِعِ أو غيرهما (الذي لَمْ يُسَمَّ فاعِلهُ)؛ أي: لَمْ يُذَكَّرْ فاعِلهُ معه في تركيبه، وهذا الْمَقَالُ ممَّا يَصْلُحُ لِلْمِثَالِ؛ كما يُقَالُ: ضَرَبَ زيدٌ، فَيَرْفَعُ زيدٌ لقيامه مقامَ فاعِلهُ، ويُسمَّى: نائِبَ الفاعِلِ، وقد يُقَالُ له الفاعِلُ أيضاً مجازاً لتَلَبُّسِهِ - وهو مفعولٌ، وَحَقُّهُ النَّصَبُ - لِيَأْسَ فاعِلهُ مِنَ الرَّفْعِ؛ لَوُقُوعِهِ في مَحَلِّهِ.

والجملة^(١) مُعْتَرِضةٌ بَيْنَ الْمَبْتَدَأِ السَّابِقِ وَخَبَرِهِ اللَّاحِقِ، وهو قوله (ما كان)؛ أي: الفِعْلُ الماضي الذي كانَ (أَوَّلُهُ مضموماً) حَقِيقَةً أو حُكْماً (ك: فُعِلَ) نحو: نُصِرَ وقِيلَ، (وَفُعِلَ) ك: زُلْزِلَ، (وَأُفْعِلَ) ك: أُكْرِمَ، (وَفُعِّلَ) بتشديد العين ك: نُزِّلَ.

(وَفُوعِلَ) ك: قُوتِلَ مجهول قاتل، بَقَلْبِ الْأَلِفِ واواً لانضمام ما قَبْلَهَا، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّيْ﴾ [الأعراف: ٢٠] فَإِنَّهُ مجهولٌ: وَاَرَى.

(١) يعني جملة المتن: «وهو الذي لم يسم فاعله».

(وَتُفْعَلْ) بضمّ التاء والفاء أيضاً؛ لأنّك لو قلت: تُفْعَلْ، بضمّ التاء فقط لالتبس بمضارع فَعَلَ بتشديد العين: إمّا في حالة الوقف، أو النصب، أو مطلقاً؛ لأنّ مثل هذا التغيّر ممّا لا يُعتدُّ به لرفع اللبس.

(وَتُفْعَلْ)؛ أي: وكذا قالوا في مجهول تَفَاعَلَ: (تُفْعَلْ) بضمّ التاء والفاء، إذ لو اقتصرنا على ضمّ التاء وقالوا: تَفَاعَلْ، لالتبس بمضارع فاعَلْ، ثمّ قَلِبَتِ الألفُ واواً لانضمام ما قبلها.

(أو كان أوّل متحرّكٍ منه مضموماً) حقيقةً (نحو: افْتَعَلَ) كـ: اجْتُمِعَ، بضمّ التاء الملفوظة، أو حُكماً كـ: اخْتِيرَ، بضمّ التاء المقدّرة؛ لأنّه أوّل متحرّكٍ منه كما تقدّم في المَبْنِي للفاعل، (واستُفْعِلَ) نحو: اسْتَغْفِرَ، بضمّ التاء.

(وهمزة الوصل) فيما أوّل متحرّكٍ منه مضمومٌ (تتبع هذا المضموم) - الذي هو أوّل متحرّكٍ - (في الضمّ)، يعني: يكون مضموماً عند الابتداء؛ كقولك مُبْتَدِئاً: أُسْتُخْرِجَ المَالُ، بضمّ الهمزة لمُتَابَعَةِ التاء، ومنه قوله تعالى: ﴿اجْتَنَّتْ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، واستُحِقَّ.

(وما قبل آخره)؛ أي: آخر المَبْنِي للمفعول (يكون مكسوراً أبداً) حقيقةً (نحو: نُصِرَ زيدٌ، واستُخْرِجَ المَالُ)، أو حُكماً؛ نحو: بَيْعَ، وانْقِيَدَ، واختِيرَ، ومُدَّ مجهولاً، وقرأ علقمة: ﴿رِدَّتْ إلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] بكسر الرّاء المنقولة^(١)، وكذا: ﴿وَلَوَرِدُوا الْعَادُو﴾ [الأنعام: ٢٨]^(٢).

(١) انظر: «المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات» لابن جني (١/ ٣٤٥).

(٢) وهي قراءة يحيى بن وثاب والنخعي والأعمش. انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٢٨٢).

[الفعل المضارع]

(وَأَمَّا الْمُضَارِعُ)؛ أي: الفعل المضارع (فهو ما)؛ أي: الفعل (الذي يكون أوله إحدَى الزوائد الأربع)؛ أي: الداخلة على حروف الماضي، (وهي: الهمزة والنون والياء)؛ أي: التَّحْتِيَّةُ، (والتَّاءُ) الْفَوْقِيَّةُ.

(يَجْمَعُهَا) - أي: تلك الزوائد - قولك: (أَنْتِ) بفتح التاء وضمها من: أَنِّي يَا نَبِيَّ، بمعنى: حان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

(أَوْ: أَتَيْنَ، أَوْ: نَأْتِي)، أَوْ: (نَأَيْتُ) على ما في نسخة.

وإنما زادوها فرقا بينه وبين ماضيه، وبهذا يندفع توهم كون: أَكْرَمَ، وَتَكَسَّرَ، وَتَرَجَّسَ، وَبَرَزَنِي^(١)، داخلا في تعريفه.

(الهمزة للمتكلم وحده) نحو قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، و: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

(والنون للمتكلم إذا كان معه غيره) نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِيبُ﴾، أَوْ لِلْمُعْظَمِ نَفْسَهُ نحو قوله تعالى: ﴿فَخُنْ نَقْصَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

(والتاء للمخاطب مفردا) نحو: أَنْتَ تَنْصُرُ، (وَمُثْنَى) نحو: أَنْتُمَا تَنْصُرَانِ، (وَمَجْمُوعاً) نحو: أَنْتُمْ تَنْصُرُونَ، (مُذَكَّرًا كَانَ) الْمُخَاطَبُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ (أَوْ مُؤَنَّثًا) فِي جَمْعِ الْإِنَاثِ الْمُخَاطَبَةِ تَقُولُ: أَنْتُنَّ تَنْصُرْنَ، وَفِي الْوَاحِدَةِ الْمُخَاطَبَةِ: أَنْتِ تَنْصُرِينَ، (وَلِلْغَائِبَةِ الْمُفْرَدَةِ) نحو: هِيَ تَنْصُرُ، (وَلِمُثْنَاهَا) نحو: هُمَا تَنْصُرَانِ.

(والياء للغائب المُذَكَّرِ مُفْرَدًا) نحو: هُوَ يَنْصُرُ، (وَمُثْنَى) نحو: هُمَا يَنْصُرَانِ،

(١) بفتح الياء وسكون النون: رملة في ديار بني سعد. انظر: «معجم ما استعجم» (١/ ٣١٠).

(وَمَجْمُوعاً) نحو: هم يَنْصُرُونَ، (وَلَجَمْعِ الْمُؤَنَّثِ الْغَائِبَةِ) نحو: هُنَّ يَنْصُرْنَ، وجاءَ جَمْعُهُنَّ بِالتَّاءِ فِي لُغَةٍ وَقَرَأَهُ عَرَبِيَّةٌ حَكَاهَا يُونُسُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو، فَإِنَّهُ رَوَى: (تَنْفَطِرْنَ) بِالتَّاءِ^(١) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ [الشورى: ٥].
ثُمَّ اعْتَرِضَ بِأَنَّ الْبَاءَ اسْتَعْمِلَ فِي حَقِّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كَوْنِهِ غَائِباً وَمُذَكَّراً.

وَأَجِيبَ: بِأَنَّهُ إِذَا قِيلَ: اللَّهُ يَحْكُمُ، فَ (اللَّهُ) لَفْظُهُ مُذَكَّرٌ غَائِبٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِالْمُتَكَلِّمِ وَلَا بِالْمُخَاطَبِ، وَهُوَ الْمُرَادُّ بِالْغَائِبِ.
ثُمَّ نَحْوُ: (تَنْصُرُ) مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْغَائِبَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ، وَ (تَنْصُرَانِ) بَيْنَ الْغَائِبَتَيْنِ وَالْمُخَاطَبَتَيْنِ.

وَسُمِّيَ هَذَا: الْمَضَارِعُ، وَالْمُضَارَعَةُ فِي اللُّغَةِ: الْمُشَابَهَةُ، مَأْخُوداً مِنَ الضَّرْعِ، كَأَنَّ كِلَا الشَّيْئَيْنِ ارْتَضَعَا مِنْ ضَرْعٍ وَاحِدٍ، فَهُمَا أَخَوَانِ رَضَاعاً.
وَالْمَضَارِعُ مُشَابَهٌ لِاسْمِ الْفَاعِلِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ؛ ك: يَضْرِبُ وَضَارِبٌ، وَلِمُطْلَقِ الْأِسْمِ فِي وَقْعِهِ مُشْتَرَكاً؛ كَمَا بَيَّنَّهَ بِقَوْلِهِ: (وَهُوَ) وَفِي نُسخة: (وهذا)؛ أَي: الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ (يَضْلُحُ لِلْحَالِ) الْمُعَبَّرُ عَنْهُ ب: الْآنِ الْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ زَمَانِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ.

(١) كَذَا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ، وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ فِي «الْقَرَاءَاتِ الشَّاذَّةِ» (ص ١٣٤): «تَنْفَطِرْنَ: بِالتَّاءِ وَالنُّونِ يُونُسُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو»، ثُمَّ قَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ: «هَذَا حَرْفٌ نَادِرٌ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَجْمَعْ بَيْنَ عَلَامَتِي التَّائِيثِ، لَا يَقَالُ: النِّسَاءُ تَقْمَنَ، وَلَكِنْ: يَقْمَنَ...».

وَقَرَأَهُ: «تَنْفَطِرْنَ» بِالتَّاءِ يَنْصُرُونَ عَزَّوَلَّاهُ الْقَارِي: الْبَيْضَاوِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥ / ٧٦).
وَوَقَعَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فِي نَقْلِ هَذِهِ الْقَرَاءَةِ قِيلٌ وَقَالَ، انْظُرْهُ فِي «الْكَشَافِ» لِلزَّمَخْشَرِيِّ (٤ / ٢٠٨)، وَ«الْبَحْرِ الْمَحِيْطِ» لِأَبِي حَيَّانٍ (١٩ / ٧)، وَ«الدَّرِّ الْمَصُونِ» لِلْسَّمِينِ الْحَلْبِيِّ (٩ / ٥٣٩). وَقَالَ السَّمِينُ فِي آخِرِ كَلَامِهِ: «ثُمَّ إِنَّهُ سِوَاءُ قُرِئَ: «تَنْفَطِرْنَ» بِتَاءَيْنِ أَوْ بَاءٍ وَنُونٍ، فَإِنَّهُ نَادِرٌ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ خَالَوَيْهِ، وَهَذِهِ الْقَرَاءَةُ لَمْ يُقْرَأْ بِهَا فِي نَظِيرَتِهَا فِي سُورَةِ مَرْيَمَ».

وَالصُّوفِيَّةُ وَأَرْبَابُ الْأَحْوَالِ بِسَبَبِ تَرْكِ الْمَاضِي لَعَدَمِ اسْتِدْرَاكِهِ، وَتَرْكِ
الْإِسْتِقْبَالِ لَعَدَمِ تَحَقُّقِ وُجُودِهِ، اشْتَغَلُوا بِالْحَالِ وَأَذْرَكُوا كَمَالَ الْمَنَالِ، وَهَذَا مَعْنَى
قَوْلِهِمْ: الْوَقْتُ سَيْفٌ قَاطِعٌ، وَالصُّوفِيُّ ابْنُ الْوَقْتِ، أَوْ: أَبُو الْوَقْتِ، فِي تَعْرِيفِ جَامِعِ
مَانِعٍ، فَإِنَّهُمْ يَعُدُّونَ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ نَفْسًا أُخِيرًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ
مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]؛ أَي: فِي النَّفْسِ الْآتِي، وَلِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ
اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]؛ أَي: نَفْسًا^(١).

وَقَدْ وَرَدَ: وَلَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ
يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا.

وَمِنْ كَلَامِ بَعْضِ الْأَكَابِرِ: الدُّنْيَا سَاعَةٌ فَاجْعَلْهَا طَاعَةً، نَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ
وَالِاسْتِطَاعَةَ.

(تَقُولُ: يَفْعَلُ)؛ أَي: زِيدُ (الآن)؛ أَي: بِهَذَا الْقَيْدِ وَنَحْوِهِ، (وَيُسَمَّى)؛ أَي:
الْمُضَارِعُ حِينَئِذٍ: (حَالًا وَحَاضِرًا)؛ أَي: نَقْدًا.

(أَوْ: يَفْعَلُ غَدًا)؛ أَي: فِي غَدٍ وَنَحْوِهِ، وَيُسَمَّى: مُسْتَقْبَلًا، بِفَتْحِ الْبَاءِ عَلَى
الْمَشْهُورِ؛ لِأَنَّكَ تَسْتَقْبِلُ الزَّمَانَ، فَهُوَ مُسْتَقْبَلُ اسْمٍ مَفْعُولٍ، وَبِكُسْرِهَا لِأَنَّهُ يَسْتَقْبِلُكَ
فَهُوَ مُسْتَقْبَلُ اسْمٍ فَاعِلٍ.

ثُمَّ قِيلَ: الْمُضَارِعُ مَوْضِعٌ لِلْحَالِ وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي الْإِسْتِقْبَالِ، وَقِيلَ بِالْعَكْسِ
فِي الْمَقَالِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا إِطْلَاقُ كُلِّ مُشْتَرَكٍ اشْتِرَاكَ
لَفْظِيًّا عَلَى أَفْرَادِهِ، وَأَنَّهُ مَعَ الْقَرِينَةِ يَتَعَيَّنُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَيَدُونُهَا يَكُونُ مُجْمَلًا، وَلِذَا قِيلَ:
(وَإِذَا أَدْخَلْتَ)؛ أَي: أَنْتَ (عَلَيْهِ)؛ أَي: عَلَى الْمُضَارِعِ الْمُحْتَمِلِ لِلْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالِ
(السَّيْنِ أَوْ سَوْفَ) الدَّالِّينِ عَلَى التَّأْخِيرِ (فَقُلْتَ: سَيَفْعَلُ، أَوْ: سَوْفَ يَفْعَلُ، اخْتَصَّ

(١) أَي: لَنْ يُؤَخِّرَهَا نَفْسًا.

على البناء للفاعل، أو المفعول؛ أي: صارَ مخصوصاً (بزمانِ الاستقبالِ)، و(سَوْفَ) أكثرُ تنفيساً في الإمهالِ لأنَّ كثرةَ المَبْنَى غالباً يَدُلُّ على زيادةِ المعنى.

قيلَ كما في نُسخة: (وَإِذَا دَخَلَهُ لَامُ الْإِبْتِدَاءِ اخْتَصَّ بِزَمَانِ الْحَالِ)؛ نحوَ قولِكَ: لَيَفْعَلُ، وهذا ما ذَهَبَ إليه الكوفيونَ والزمخشريُّ^(١) وابنُ مالكٍ^(٢) وغيرُهم.

وفي التنزيلِ: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣].

واستشكلَ بأنَّ هذا الفعلَ مُستقبلٌ؛ لأنَّ فاعِلَ (يَحْزُنُ) - وهو الذَّهابُ - لم يُوجَدْ عندَ نُطْقِ يعقوبَ عليه السَّلامُ بـ (يَحْزُنُ)، ولا يَسْبِقُ الفعلَ فاعِلَه.

وأجيبَ بأنَّ التَّقْدِيرَ: قَصْدُ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، والقَصْدُ حَالٌ^(٣)، وهذا في بابِ المبالغةِ كمالٌ.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، و: ﴿لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، تَمَحَّضَتِ اللَّامُ لِلتَّوَكُّيدِ مُضْمِحِلاً عَنْهَا مَعْنَى الْحَالِيَّةِ؛

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣١)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

(٢) كذا نقل المؤلف عن ابن مالك، والذي في «شرح التسهيل» لابن مالك (١/ ٢٢) الرد على من قال بأن لام الابتداء تخلص المضارع للحال، فقال: «وأما لام الابتداء فمُخْلِصَةٌ لِلْحَالِ عند أكثرهم، وليس كما ظنوا، بل جائز أن يراد الاستقبال بالمقرون بها؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، و: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾، فـ (يَحْزُنُ) مقرون بلام الابتداء، وهو مستقبل؛ لأن فاعله الذهاب، وهو عند نطق يعقوب عليه السلام بـ (يَحْزُنُ) غير موجود، فلو أُريدَ بـ (يَحْزُنُ) الحال لزم سبق معنى الفعل لمعنى الفاعل في الوجود، وهو محال». وسيذكر المؤلف الجواب على هذا لاحقاً.

(٣) أي: واقع في الحال لا الاستقبال، وليس المراد أنه حال في الإعراب، لأنه مرفوع على أنه فاعل (يَحْزُنُ).

لأنَّهَا إِنَّمَا تُنْفِذُ ذَلِكَ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْمُضَارِعِ الْمُحْتَمِلِ لَهَا، لَا الْمُسْتَقْبَلِ؛
لِصَرْفِ الْمُنَافِي لِمُقْتَضَاهَا^(١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [النحل: ١٢٤] نَزَلَ مَنْزِلَةَ
الْحَالِ؛ إِذْ لَا شَكَّ فِي وَقُوعِهِ فِي الْمَالِ، وَعِنْدَ الْبَصَرَيْنِ اللَّامُ لِلتَّوَكُّدِ فَقَطْ، فَلَا إِشْكَالَ.
وَرَبَّمَا يُقَالُ بِلِسَانِ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ: إِنَّهُ قَدْ يَخْتَلِفُ حَالُ السَّالِكِ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنِ
الْخَلْقِ مِنَ الْكَمَالِ، وَعِنْدَ تَعَلُّقِهِ بِالْغَيْرِ مِنَ النُّقْصَانِ وَالزَّوَالِ.

ثُمَّ اعْلَمْ: أَنَّ الْمَضَارِعَ أَيْضاً إمَّا مَبْنِيٌّ لِلْفَاعِلِ، أَوِ الْمَفْعُولِ، وَلِكُلِّ مِنْهُمَا وَضْعٌ
مَعْمُولٌ مَقْبُولٌ، يُسَمَّى بِالْمَعْلُومِ وَالْمَجْهُولِ، (فَالْمَبْنِيُّ لِلْفَاعِلِ مِنْهُ)؛ أَي: مِنَ الْمَضَارِعِ
(مَا)؛ أَي: الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ الَّذِي (كَانَ حَرْفُ الْمَضَارِعَةِ) وَهِيَ إِحْدَى الزَّوَائِدِ الْأَرْبَعِ
(مِنْهُ مَفْتُوحاً)؛ أَي: فِي غَالِبِ الْأَبْوَابِ؛ مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَجْرَدِ وَالْمَزِيدِ فِيهِ وَغَيْرِهِمَا.

(إِلَّا مَا كَانَ مَاضِيهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرَفٍ؛ نَحْو: دَخَرَجَ) مِنَ الرَّبَاعِيِّ الْمَجْرَدِ،
(وَأَكْرَمَ وَقَاتَلَ وَفَرَّحَ) مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَزِيدِ (فَإِنَّ حَرْفَ الْمَضَارِعَةِ مِنْهُ)؛ أَي: مِمَّا كَانَ
مَاضِيهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرَفٍ (يَكُونُ مَضْمُوماً أَبَداً)؛ أَي: سِوَاءَ كَانَ مَبْنِيّاً لِلْفَاعِلِ أَوْ
الْمَفْعُولِ، وَإِنَّمَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا حِينَئِذٍ بِحَرَكَةِ مَا قَبْلَ آخِرِهِمَا كَمَا سَيَأْتِي، فَيُكْسَرُ فِي
الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ (نَحْو: يُدْخِرُجُ وَيُكْرِمُ وَيُقَاتِلُ وَيُفَرِّحُ).

وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى لُغَةِ الْجَارَةِ^(٢) لِلْحِجَازِيِّينَ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَيَكْسِرُونَ حُرُوفَ
الْمَضَارِعَةِ، فَيَقُولُونَ: يِعْلَمُ وَيَعْلَمُ وَإِعْلَمُ، وَنَعْلَمُ^(٣)، وَيَشْتَرِطُونَ فِي كَسْرِ الْيَاءِ أَنْ لَا
يَكُونَ بَعْدَهَا يَاءٌ أُخْرَى؛ ك: يَنْسِرُ وَيَنَاسُ وَيَنْجَلُ.

(١) قَوْلُهُ: «الْمُنَافِي لِمُقْتَضَاهَا»؛ أَي: السِّينُ الَّتِي هِيَ لِلِاسْتِقْبَالِ الْمُنَافِي لِمَعْنَى الْحَالِ.

(٢) قَوْلُهُ: «لُغَةُ الْجَارَةِ» كَذَا فِي «ط» وَ«و»، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ: «اللُّغَةُ الْجَارِيَّةُ».

(٣) كَلِمَةٌ: «وَنَعْلَمُ» لَيْسَتْ فِي «ط».

وَأَمَّا (أَهْرَاقُ يُهْرِقُ) و(أَسْطَاعُ يُسْطِيعُ) ^(١) بضمَّ حرفِ المضارعةِ فيهما،
فبناءً على أصلهما، فإنَّ الهاءَ والسَّينَ زائدتانِ على خلافِ القياسِ، فكأنَّهما
على أربعةِ أحرفٍ.

وَأَمَّا (يَخْصُمُونَ) و(يَهْدِي) ففيهما لغاتٌ وقراءاتٌ ليس هذا محلُّ بسطِها.

ولمَّا ضُمَّ حرفُ المضارعةِ في المَبْنِيِّ للفاعلِ مِنْ هذه الأربعةِ كما في المَبْنِيِّ
للمفعولِ، أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ علامةَ كونِ هذه الأربعةِ مَبْنِيًّا للفاعلِ، فقال: (وعلامةُ بناءِ هذه
الأربعةِ) نحو: يَدْحَرِجُ وَيُكْرِمُ وَيُقَاتِلُ وَيُقَرِّحُ (للفاعِلِ: كَوْنُ الحَرْفِ الَّذِي قَبْلَ آخِرِهِ)
وفي نسخةٍ: (قَبْلَ الْآخِرِ)؛ أي: قَبْلَ آخِرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هذه الأربعةِ حالَ كونه للفاعلِ
(مَكْسُوراً أَوَّلاً) بخلافِ المَبْنِيِّ للمفعولِ فَإِنَّهُ فِيهِ مَفْتُوحٌ أَوَّلاً، سواءً كَانَ المَبْنِيُّ
للمفعولِ مِنْ هذه الأربعةِ أو غيرَها.

وبهذا التَّفْهِيمُ يَظْهَرُ أَنَّ لَفْظَ (أَوَّلاً) فِي المَتْنِ سَهْوٌ قِطْعاً، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُتَكَلَّفَ
ويُقال: المرادُ بقوله: (أَوَّلاً) جَمِيعُ صِيغِهِ، أو سواءً يَكُونُ سَالِماً أو مُعْتَلِلاً أو غيرَهما.

(مِثَالُهُ)؛ أي: مِثَالُ المَبْنِيِّ للفاعلِ (مِنْ يَفْعُلُ) بضمِّ العَيْنِ: (يَنْصُرُ يَنْصُرَانِ
يَنْصُرُونَ) بالياءِ للغيبةِ (تَنْصُرُ تَنْصُرَانِ) بالتاءِ للتأنيثِ (يَنْصُرْنَ) بالياءِ لثَلَاثٍ يَجْتَمِعُ
عَلَامَتِي التَّأْنِيثِ؛ إِذْ جَمَعَهُمَا شَاذٌ، (تَنْصُرُ تَنْصُرَانِ تَنْصُرُونَ تَنْصُرِينَ تَنْصُرَانِ
تَنْصُرْنَ) بالتَّاءِ للخطابِ فِي كُلِّهَا، (أَنْصُرُ أَنْصُرُ).

وقد يُسْتَعْمَلُ لَفْظُ الاثْنَيْنِ فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ لِلْمُذَكَّرِ الوَاحِدِ؛ كقوله:

فَإِنْ تَرْجُرَانِي يَا ابْنَ عَفَّانَ [أَنْزَجِرَ] وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمَ عَرْضاً مُمَنَّعاً ^(٢)

(١) أصله: «أطاع بطيع». انظر: «سر صناعة الإعراب» لابن جني (١/ ٢١٣).

(٢) البيت لسويد بن كراع العكلي. انظر: «طبقات فحول الشعراء» (١/ ١٧٩)، و«خزانة الأدب»

(١١/ ١٧)، و«التاج» (مادة: جزز). وما بين معكوفتين من المصادر.

وكذا في الأمر، ومنه قوله:

قِفَا بَنِكَ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ^(١)

وقيل: تُنْيِ للتأكيد، فإنه بمنزلة: قِفْ قِفْ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلِفِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

وقد يُسْتَعْمَلُ لفظ الجمع للمفرد تعظيماً؛ نحو قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرْجُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وقيل: معناه: رُدْنِي رُدْنِي، على أن التكرير للتقرير أو التأكيد.

(وقس على هذا) المذكور من تصريف (يُنْصَرُ) بَقِيَّةَ الأبواب: (يَضْرِبُ، وَيَعْلَمُ، وَيُدْخِرُ، وَيُكْرِمُ، وَيُقَاتِلُ، وَيُفْرَحُ، وَيَتَكَسَّرُ، وَيَتَبَاعَدُ، وَيَنْقَطِعُ، وَيَجْتَمِعُ، وَيَحْمَرُّ، وَيَحْمَارُ، وَيُسْتَخْرِجُ، وَيَعْشَوْشِبُ، وَيَقْعَنْسِسُ، وَيَسْلَنْقِي، وَيُدْخِرُ، وَيَحْرَنْجُمُ، وَيَقْشَعِرُ) وأمثال ذلك.

(والمبني للمفعول منه)؛ أي: من الفعل المضارع (ما)؛ أي: الفعل المضارع الذي (كان حرف المضارعة منه مضموماً) وكان ما قبل آخره مفتوحاً (نحو: يُنْصَرُ وَيُدْخِرُ وَيُكْرِمُ وَيُقَاتِلُ وَيُفْرَحُ وَيُسْتَخْرِجُ) وتعريفها على قياس المبني للفاعل.

هذا، ولا خفاء أن الفتح مناسب للكمال، وهو المبني للفاعل، والضم ملائم للذم في مقام العامل، وهو المبني للمفعول، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المعلوم والمجهول عند أرباب النقول وأصحاب العقول.

(واعلم أنه يدخل على المضارع (ما) و(لا) النافيتان) لمعنى الفعل (ولا تُغَيِّرَانِ صِيغَتَهُ)؛ أي: صيغة المضارع عن هيئته وصورته وبنيته من الأصل، فلهما التصرّف باعتبار المعنى لا من طريق المبني، و(ما) لنفي الحال، و(لا) لنفي الحال والاستقبال، وسيجيء أن (لن) لنفي الاستقبال، فاختلف الأحوال في الإعمال.

(١) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في «ديوانه» (ص ٨)، وعجزه:

يسقط اللوى بين الدخول وخول

(نقول: لَا يَنْصُرُ لَا يَنْصُرَانِ.. إلخ) وكذلك: مَا يَنْصُرُ مَا يَنْصُرَانِ.. إلخ.
(وَيَدْخُلُ) على الفعل المضارع (الجازم) وهو: (لَمْ)، و(لَمَّا)، واللَّامُ في الأمر، و(لا) في التَّهْيِي، و(إِنْ) الشَّرْطِيَّةُ وَأَخَوَاتُهَا الْبَقِيَّةُ.
(فِيحذفُ)؛ أي: مِنْ آخِرِ المضارع (حركة الواحد) حقيقة؛ نحو: لَمْ يَنْصُرْ وَلَمْ أَنْصُرْ، أَوْ حُكْمًا؛ نحو: لَمْ تَنْصُرْ، بسكون الراء.
(و) يَحذفُ (نُونُ التَّشْيِيعِ) مُطْلَقًا؛ نحو: لَمْ يَنْصُرَا، وَلَمْ تَنْصُرَا.
(و) يَحذفُ نُونُ (الْجَمْعِ الْمَذْكَرِ)؛ أي: الغائبِ أَوْ الحاضرِ؛ نحو: لَمْ يَنْصُرُوا، وَلَمْ تَنْصُرُوا.

(و) يَحذفُ نُونُ (الوَاحِدَةِ الْمُخَاطَبَةِ) نحو: لَمْ تَنْصُرِي.
لأنَّ النُّونَ في هذه الأمثلة الخمسة كَالضَّمَّةِ فِي الْوَاحِدِ، فَكَمَا يَحذفُ الْحَرَكَةُ كَذَلِكَ يَحذفُ النُّونُ.

(وَلَا يَحذفُ) الْجَازِمُ (نُونُ جَمَاعَةِ الْمُؤَنَّثِ)؛ أي: غَيَّةٌ وَخِطَابًا (فَائَةٌ)؛ أي: نُونُ جَمَاعَةِ الْمُؤَنَّثِ (ضَمِيرٌ كَالْوَاوِ فِي جَمْعِ الْمَذْكَرِ) وَهُوَ فَاعِلٌ فَلَا يَحذفُ، (فَيَبْقَى عَلَى كُلِّ حَالٍ) سِوَاءٍ يَكُونُ مَرْفُوعًا أَوْ مَجْزُومًا أَوْ مَنْصُوبًا، بِخِلَافِ النُّونَاتِ الْآخَرِ، فَإِنَّهَا عَلَامَاتٌ لِلْإِعْرَابِ.

(نقول: لَمْ يَنْصُرْ، لَمْ يَنْصُرَا، لَمْ يَنْصُرُوا، لَمْ تَنْصُرْ).. إلخ.
(وَيَدْخُلُ) عَلَى الْمَضَارِعِ (النَّاصِبُ) وَهُوَ: (أَنْ) وَ(لَنْ) وَ(كَي) وَ(إِذَنْ)، (فَيَبْدُلُ مِنَ الضَّمَّةِ فَتْحَةً) كَمَا هُوَ مُقْتَضَى النَّاصِبِ، فَإِنَّ النَّصْبَ يَكُونُ بِالْفَتْحَةِ أَصَالَةً، كَمَا أَنَّ الرَّفْعَ يَكُونُ بِالضَّمَّةِ، وَالْجَزْمَ بِالسُّكُونِ.

(وَيُسْقِطُ النُّونَاتِ) لِأَنَّهَا عَلَامَةُ الرَّفْعِ (سِوَى نُونِ جَمْعِ الْمُؤَنَّثِ) لِإِمَّا سَبَقَ مِنْ أَنَّهُ ضَمِيرٌ لَا عَلَامَةَ لِلْإِعْرَابِ، (فَنَقُولُ: لَنْ يَنْصُرَ، لَنْ يَنْصُرَا، لَنْ يَنْصُرُوا، إِلَى: لَنْ أَنْصُرَ، لَنْ تَنْصُرَ).

ومعنى (لن) نفى الفعل للاستقبال مطلقاً، وهو الصحيح المشهور المختار لابن مالك^(١)، ومذهب سيويه^(٢) والجمهور، خلافاً للزمخشري حيث قال في «المفصل» وفي «الكشاف» أنها تُفيد التأكيد^(٣)، وتبعه التفتازاني، وبه جزم ابن الحاجب وغيره، وقال في «الأنموذج» نقلاً عن جماعة: إنها تقتضي التأييد^(٤)، قال في «المغني»: وكلاهما دَعَوَى بلا دليل^(٥).

(وَمِنَ الْجَوَازِمِ لَامُ الْأَمْرِ) وهي مكسورة، وفتحها لغة، لكنه إن أُدْخِلَ عليها الواو أو الفاء أو (ثم) جازَ سكونها للتخفيف، قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْعُنَّ عَنْ قَبَائِلِهِمْ حَمْلٌ مُّكْرَهُ﴾ [الحج: ٢٩] قَرِئَ بسكون اللام وكسرهما في السبعة^(٦).

(فتقول في أمر الغائب: لَيَنْصُرْ، لَيَنْصُرَا، لَيَنْصُرُوا، لَيَنْصُرْ، لَيَنْصُرَا، لَيَنْصُرْنَ، لَيَنْصُرْ، لَيَنْصُرْ) وجاء في المخاطب المجهول: لَيَنْصُرْ أَنْتَ، بضم أوله وفتح ما قبل آخره، لَيَنْصُرَا، لَيَنْصُرُوا، لَيَنْصُرِي، لَيَنْصُرَا، لَيَنْصُرْنَ.

(١) انظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٤ / ١٤).

(٢) انظر: «الكتاب» (٢ / ٢٢٠).

(٣) انظر: «المفصل» (ص ٤٠٧)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٨ / ١١)، و«الكشاف» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَقْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ رَنْنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(٤) كذا نقل المؤلف عن الزمخشري القول بتأييد «لن» في «الأنموذج»، وقد سبقه في هذا النقل ابن مالك في «شرح التسهيل» (٤ / ١٤)، وابن هشام في «المغني» (ص ٣٧٤)، والسيوطي في «همع الهوامع» (٢ / ٣٦٥)، ونقل عنه السيوطي أنه قال: «فقولك: لن أفعله، كقولك: لا أفعله أبداً، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ [الحج: ٧٣]». ولم أجد هذا الكلام في «الأنموذج»، بل الذي فيه (ص ٣٢) القول بالتأكيد كما في «الكشاف» و«المفصل».

(٥) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص ٢٧٤).

(٦) قرأ ورش وقنبل وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام، والباقون بسكونها. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص ٤٣٤ - ٤٣٥)، و«التيسير في القراءات العشر» للداني (ص ١٥٦).

وقوله: (في أمر الغائب) إشارة إلى أَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاعِلُ الْمَخَاطَبُ بِاللَّامِ؛ لِأَنَّ أَمْرَ الْمَخَاطَبِ لَهُ صِغَةً تَخْصُّهُ كَمَا سَيَأْتِي، وَقُرِئَ: (فَلْتَقَرَّحُوا) بِالْخَطَابِ^(١)، وَهُوَ شَاذٌ، وَكَانَ عَلَى الْمَصْنُفِ أَنْ يَقُولَ: فَتَقُولُ فِي أَمْرِ غَيْرِ الْمَخَاطَبِ؛ لِيَشْمَلَ الْمُتَكَلِّمَ وَالْمَخَاطَبَ الْمَجْهُولَ، فِيهِ الْحَدِيثُ: «قُومُوا فَلَأُصِلَ لَكُمْ»^(٢)؛ أَيْ: إِمَاماً، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وَإِذَا كَانَ الْمَأْمُورُ جَمَاعَةً بَعْضُهُمْ حَاضِرٌ وَبَعْضُهُمْ غَائِبٌ، فَالْقِيَاسُ تَغْلِيْبُ الْحَاضِرِ نَحْوَ: أَفْعَلًا وَأَفْعَلُوا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ [الإسراء: ٦٣].

وَيَجُوزُ عَلَى قِلَّةِ إِدْخَالِ اللَّامِ عَلَى الْمَضَارِعِ الْمَخَاطَبِ لِيُقَيَّدَ النَّاءُ الْخَطَابَ وَاللَّامُ الْغَيْبَةَ، مَعَ التَّنْصِيصِ عَلَى كَوْنِ بَعْضِهِمْ حَاضِراً وَبَعْضُهُمْ غَائِباً؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «لِتَأْخُذُوا مَصَافِقَكُمْ»^(٣)، وَقَدْ جَاءَ فِي الضَّرُورَةِ حَذْفُهَا وَجَزْمُ الْفِعْلِ بِهَا؛ كَقَوْلِهِ: مُحَمَّدٌ تَفِدَ نَفْسَكَ كُلِّ نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ أَمْرِ تَبَالَا^(٤)

(١) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص ٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) كذا ذكره بهذا اللفظ النحاة، منهم الخليل في «الجمال في النحو» (ص ٢٦٧)، والزجاجي في «اللامات» (ص ٩٣)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١٥ / ٢٩٥)، وابن زنجلة في «حجة القراءات» (ص ٣٣٣)، والزمخشري في «الكشاف» (٢ / ٣٣٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ فَلْيَقَرَّحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وأبو البركات الأنباري في «الإنصاف في مسائل الخلاف» (٢ / ٥٢٥). والحديث رواه الترمذي (٣٢٣٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٥ / ٢٤٣)، من حديث معاذ رضي الله عنه قال: «اِحْتَبَسَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَرَأَى قَرْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيعاً فَنُتِيبَ بِالصَّلَاةِ وَصَلَّى وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: كَمَا أَنْتُمْ عَلَى مَصَافِقِكُمْ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: إِنِّي سَأَحْذَرُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ...».

(٤) انظر: «الكتاب» (٣ / ٨)، و«والمقتضب» (٢ / ١٣٢)، و«سر صناعة الإعراب» (١ / ٣٩١)، وعزاه ابن هشام في «شرح شذور الذهب» (ص ٢٧٥) لأبي طالب.

أي: وبالأ؛ أي: لستفد.

وأجاز الفراء حذفها في الشر؛ كقولك: قل له يفعل، وحمل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]^(١)؛ أي: ليقيموها.

وقال ابن مالك: وليس بصحيح قول من قال: إن أصله: قل لهم فإن تقل لهم يقيموا الصلاة؛ لأن تقدير ذلك [يلزم] منه أن لا يتخلف أحد من المقول لهم عن الطاعة، والواقع بخلاف ذلك، فوجب إبطال ما أفضى إليه وإن كان قول الأكثر^(٢)، انتهى.

قال التفتازاني: والحق أنه جواب الأمر، والشرط لا يلزم أن يكون علة تامة للجزاء^(٣)، بل يكفي توقف الجزاء عليه وإن كان متوقفاً على شيء آخر - كالتوقف^(٤) هنا - نحو: إن تَوَضَّأت [صَحَّتْ] صَلَاتُكَ^(٥).

وقيل: يجوز أن يكون المراد بالعباد: خلص المؤمنين، فلا يتخلف أحد منهم عن الطاعة أصلاً.

ولا يبعد أن يكون المعنى: يقبلوا إقامة الصلاة، أو: يفعلوها في الجملة، فإن هذه الأمة لا تجتمع على الضلالة.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٧٧) و(٣/ ٤٥). وقد نبه ابن هشام في «المغني» (ص ٢٩٧) أن هذا الجواز مشروط بتقدم: «قل». وأشار لهذا الفراء في خلال كلامه، حيث قال: «ولو كان جزمه على محض الحكاية لجاز أن تقول: قلت لك تذهب يا هذا، وإنما جزم كما جزم قوله: دَعَا يَسْمَ، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ [الأعراف: ٧٣]».

(٢) انظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك (٣/ ١٥٦٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٦٨).

(٤) في «ط»: «كالنوفيق»، ولعله تحريف.

(٥) انظر: «حاشية القنوي على البيضاوي» (٣/ ٤٥٢)، وما بين معكوفتين منه.

وقال بعضُ المحققين من أربابِ الأصول: إنَّ كلمةَ (إن) غَلَبَتْ في السَّبِيَّةِ، وأما الآيةُ ففيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنينَ يَنْبَغِي أنْ يَتَبَادَرَا إلى امْتِثَالِ قولِ النَّبِيِّ ﷺ، حتَّى كَانَ قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] سَبَباً لإِقَامَتِهِمْ إِيَّاهَا لَا يَتَخَلَّفُ تلكَ الإِقامةُ عن تلكَ المَقَالَةِ.

وقال ابنُ الحاجب: الجوابُ لَا يَقْتَضِي السُّمْلَازِمَةَ الْقَطْعِيَّةَ، وإنَّما يَقْتَضِي الغَالِبِيَّةَ، وذلكَ حَاصِلٌ، فَإِنَّ أَمْرَ الشَّارِعِ لِلْمُؤْمِنِ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ يَقْتَضِي إِقَامَةَ الصَّلَاةِ غَالِباً^(١).

(وَقِسْ عَلَى هَذَا: لِيَضْرِبْ، وَ: لِيَعْلَمْ، وَ: لِيُدْخِرْ، وَغَيْرَهَا) نَحْوُ: لِيُكْرِمَ، وَ: لِيَفْرَحَ، وَ: لِيَنْقَطِعَ، وَنَحْوَهَا.

(ومنها)؛ أَي: مِنَ الْجَوَازِمِ: (لَا النَّاهِيَّةُ) وَهِيَ الَّتِي يُطْلَبُ بِهَا كَفُّ النَّفْسِ عَنِ الْفِعْلِ، وَإِسْنَادُ النَّهْيِ إِلَيْهَا مَجَازٌ كِاسْنَادِ النَّفْيِ إِلَى (لَا) وَأَمْثَالِهَا؛ لِأَنَّ النَّاهِيَّ وَالنَّافِيَّ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِوَاسِطَتِهَا.

(تَقُولُ فِي نَهْيِ الْغَائِبِ: لَا يَنْصُرُ، لَا يَنْصُرَا، لَا تَنْصُرُوا، لَا تَنْصُرِي، لَا تَنْصُرْنَ، وَفِي نَهْيِ الْحَاضِرِ: لَا تَنْصُرُ، لَا تَنْصُرَا، لَا تَنْصُرُوا، لَا تَنْصُرِي، لَا تَنْصُرَا، لَا تَنْصُرْنَ، وَهَكَذَا قِيَاسُ سَائِرِ الْأَمْثِلَةِ) مِنْ نَحْوِ: لَا يَضْرِبُ، وَ: لَا يَعْلَمُ، وَ: لَا يُدْخِرْ، وَ: لَا يَسْتَخْرِجُ.

وقد جاءَ في المتكَلِّمِ قَلِيلاً؛ كَلَامُ الْأَمْرِ.

(وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالصَّيْغَةِ) سُمِّيَ بِهَا لِأَنَّ حُصُولَهُ بِالصَّيْغَةِ الْمَخْصُوصَةِ دُونَ اللَّامِ، وَلِذَا يُقَالُ لِلْأَمْرِ الْغَائِبِ: الْأَمْرُ بِاللَّامِ، (وَهُوَ الْأَمْرُ الْحَاضِرُ)؛ أَي: الْمُخَاطَبُ (فَهُوَ جَارٍ)؛ أَي: بِاعْتِبَارِ آخِرِهِ (عَلَى لَفْظِ الْمُضَارِعِ الْمَجْزُومِ) مِنْ حَذْفِ الْحَرَكَاتِ وَالتَّنُونَاتِ

(١) انظر: «أُمَالِي ابنِ الْحَاجِبِ» (١/ ٢٣٥).

التي تُحذف في المضارع المجزوم دون نون جماعة الإناث كما هو المعلوم، وهذا مذهب البصريين: أن الأمر مبني أجري مجرى المضارع المجزوم.

وأما الكوفيون فذهبوا إلى أنه مُعرب مجزوم، وأصل (افعل): لَتَفْعَلْ، فحذفت اللام لكثرة الاستعمال، ثم حذفت حرف المضارعة خوف التلبس بالمضارع في بعض الأحوال.

وإذا أجري على المجزوم؛ (فإن كان ما بعد حرف المضارعة متحرّكاً) ك: تُدْخِرْجُ، وتُعَدِّدُ، وتَقُومُ، وتَبِيعُ، وتُرَدِّدُ، (فَتُسْقِطُ)؛ أي: أنت (منه)؛ أي: من المضارع (حرف المضارعة) لِيَتَمَيَّزَ الأمرُ به من مضارعه (وتأتي بصورة الباقي) بعد حذف حرف المضارعة (مجزوماً)؛ أي: كالمجزوم، فهو من باب التشبيه البليغ، نحو: زيدٌ أسدٌ؛ أي: كأسد، ومنه قوله تعالى: ﴿صُمُّكُمْ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨] أي: هم^(١) مثلهم، أو مجزومٌ فيكون من قبيل المجاز في الحذف، نحو: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلها.

ثم إذا حذفت حرف المضارعة وعاملت آخره مُعاملَةً المجزوم (فتقول في الأمر من تُدْخِرْجُ: دَخِرْجُ، دَخِرْجَا، دَخِرْجُوا، دَخِرْجِي، دَخِرْجَا، دَخِرْجَن). وقد يستعمل لفظ الجمع للواحد في موضع التّفخيم؛ كقوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرْجَعُون﴾ [المؤمنون: ٩٩]، ومنه قول الشاعر:

أَلَا فَارْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهَا أَهْلٌ^(٢)
(وهكذا تقول) في كل ما يكون بعد حرف المضارعة منه مُتحرّكاً؛ نحو: (فَرِّخْ وقَاتِلْ وتَكَسَّرْ وتَبَاعَدْ وتَدْخِرْجُ).

(١) في «ط»: «ما هم» بزيادة كلمة «ما»، والمثبت من «و» وهو الصواب.

(٢) ذكر صدره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٢٠٢)، وعزاه الشنيطي في «أضواء البيان» (٥/ ٣٥٥)

لحسان بن ثابت أو غيره.

(وإنَّ كَانَ ما بعده)؛ أي: بعدَ حرفِ المضارعةِ (ساكنًا) كما في: تَنْصُرُ، (فَتَحْذِفُ مِنْهُ حرفَ المضارعةِ وتأتي بِصُورَةِ الباقي مجزومًا)؛ أي: مِثْلَ مَجْزُومِ حَالٍ كونه (مَزِيدًا فِي أَوَّلِهِ هَمْزَةٌ وَضَلَّ) لَتَعَذُّرِ الْإِبْتِدَاءِ بِالسَّاكِنِ، (مَكْسُورَةً) لِأَنَّهَا زِيدَتْ سَاكِنَةً عِنْدَ الْجُمْهُورِ؛ لِمَا فِي سُكُونِهَا مِنْ تَقْلِيلِ الزِّيَادَةِ، ثُمَّ لِمَا احتِجَّ إِلَى تحريكِهَا حُرْكَتُ الْكَسْرِ كما هو الْأَصْلُ فِي التَّحْرِيكِ لِالتَّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ؛ لِمَا بَيْنَ الْكَسْرِ وَالسُّكُونِ مِنَ الْمُؤَاخَاةِ.

وظاهرُ مذهبِ سيبويه أَنَّهَا زِيدَتْ مُتَحَرِّكَةً بِالْكَسْرِ التي هي أَعْدَلُ الحركاتِ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ فِي غَايَةِ مِنَ الثَّقَلِ كَالضَّمَّةِ، وَلَا فِي نِهَائِهِ مِنَ الْخِفَّةِ كَالْفَتْحَةِ؛ لِأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى مُتَحَرِّكِ لِسُكُونِ أَوَّلِ الْكَلِمَةِ، فزِيدَتْهَا سَاكِنَةً لَيْسَتْ بِوَجْهِ.

وإنَّما سُمِّيَتْ هَمْزَةً وَضَلَّ لِأَنَّهَا يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى النُّطْقِ بِالسَّاكِنِ، وَيُسَمِّيَهَا الْخَلِيلُ: سَلَّمَ اللِّسَانَ^(١)، لذلك.

فتكونُ مَكْسُورَةً فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ (إِلَّا) فِي حَالٍ وَاحِدٍ وهو (أَنْ يَكُونَ عَيْنُ الْمُضَارِعِ مِنْهُ)؛ أي: مِنْ الْبَاقِي، أَوْ مِنَ الْمُضَارِعِ (مَضْمُومًا فَتَضُمُّهَا)؛ أي: تَلِكِ الْهَمْزَةُ لِمُنَاسَبَةِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ، (تَقُولُ: انْصُرْ، انْصُرَا، انْصُرُوا، انْصُرِي، انْصُرَا، انْصُرْنَ، وَكَذَا: اضْرِبْ، وَاعْلَمْ، وَانْقَطِعْ، وَاجْتَمِعْ، وَاسْتَخْرِجْ).

وَأَمَّا (خُذْ) وَ(كُلْ) وَ(مُرْ) فَجَاءَ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ تَخْفِيفًا، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِالْمَهْمُوزِ كَمَا سَيَأْتِي فِي بَابِهِ.

وَيُقَالُ هُنَا سَوَالٌ مِنْ جِهَةِ وُرُودِ إِشْكَالٍ، وَهُوَ: أَنْ (أَكْرِمَ) بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ أَمْرٌ مِنْ (تُكْرِمُ)، وَمَا بَعْدَ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ مِنْهُ سَاكِنٌ، وَعَيْنُهُ مَكْسُورَةٌ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُزَدْ فِي أَوَّلِهِ هَمْزَةٌ مَكْسُورَةٌ؟

(١) جاء في هامش «و»: «السلم كسكر: المراقبة كما في «القاموس» وبالتركي: نردبانه».

فأجاب عنه المصنّف بقوله: (وَفَتَحُوا هَمْزَةً أَكْرِمَ بِنَاءً)؛ أي: للبناء (على الأصل المرفوض)؛ أي: المتروك، (فَإِنَّ أَصْلَ تُكْرِمُ: تُؤَكِّرِمُ)؛ لأنّ حروف المضارع هي حروف الماضي مع زيادة حرف المضارعة، فحذفوا الهمزة لاجتماع الهمزتين في نحو (أَكْرِمُ)، ثُمَّ حَمَلُوا يُكْرِمُ وَتُكْرِمُ وَنُكْرِمُ عَلَيْهِ طَرْدًا لِلْبَاب. وقد استعمل الأصل المرفوض من قال:

شَيْخٌ عَلَى كَرْسِيٍّ مُعَمَّمًا فَإِنَّهُ أَهْلٌ لَأَنْ يُؤَكَّرَمَا^(١)
فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ تَزُولُ عَلَّةُ الْحَذَفِ عِنْدَ أَخْذِ الْأَمْرِ بِحَذْفِ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ
رَدُّوا الهمزة الأصليّة؛ لأنّ الهمزة الوصلية إنّما هي عند الضرورة في القضية،
فقالوا من أكرم: أكرم، كما قالوا من تدخرج: دخرج، فلا يكون من القسم
الثاني، بل من القسم الأول، فتأمل.

ولعلّ مقام الجمع في التفرقة بين أمر الحاضر والغائب هو: أنّ أمر الغائب
يحتاج إلى زيادة إفادة من إفحام آله^(٢) لينتبه عن نوم الغفلة ويأتسم في مقام الحضرة،
بخلاف الحاضر فإنّ المتبادر إلى الأمر الحاضر، كما قيل: العاقل يكفيه الإشارة،
بخلاف الغائب المحتاج إلى الإشارة والتذارة.

(واعلم أنّه)؛ أي: الشأن (إذا اجتمع تاءان) اخترازا عن النونين، فإنّ التخفيف
فيهما بحذف إحداهما قليلاً، كقراءة شاذّة: (ونزل الملائكة)^(٣)، (في أول مضارع

(١) البيت في «المقتضب» (٢ / ٩٨)، و«الأصول في النحو» (٣ / ١١٥)، و«الخصائص» (١ / ١٤٤).

(٢) أي: متحير. ووقع في «ط» و«و»: «آلة» بالتاء وهو تحريف، كما وقع في «و»: «إفحام»، مكان: «إفحام».

(٣) في سورة الفرقان، الآية (٢٥)، وهي بضم النون وشد الزاي وكسرها ورفع اللام، ونصب «الملائكة»،

وخرجها ابن جني بعد أن نسبها إلى ابن كثير وأهل مكة على أن الأصل: «نُزِّلَ» فحذفت النون التي هي فاء

الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين. انظر: «المحتسب» (٢ / ١٢٠)، و«روح المعاني» (١٩ / ٢٤). وقراءة ابن

كثير المشهورة عنه: «نُزِّلَ» بنونين الثانية ساكنة وتخفيف الزاي ورفع اللام. انظر: «التيسير» (ص ١٦٤).

مِثْلُ: تَفَعَّلَ وَتَفَاعَلَ وَتَفَعَّلَ (اخْتِرَازٌ عَنِ الْمَاضِي نَحْوُ: تَبَعَ وَتَبَاعَ وَتَتَعَعَ.

وذلك حال كونه فِعْلُ الْمُخَاطَبِ أَوْ الْمُخَاطَبَةِ مُطْلَقًا، أَوْ الْغَائِبَةِ الْمَفْرَدَةِ أَوْ الْمُثَنَّةِ، إِحْدَاهُمَا حَرْفُ الْمَضَارَعَةِ، وَالثَّانِيَةُ التَّاءُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْمَاضِي زَائِدَةً، فَخَرَجَ نَحْوُ: (تَتَلَوْ) فَإِنَّ التَّاءَ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا أَصْلِيَّةٌ.

(فَيَجُوزُ إِثْبَاتُهُمَا)؛ أَي: إِبْقَاءُ التَّائِينَ عَلَى حَالِهِمَا كَمَا هُوَ الْأَصْلُ فِيهِمَا، (نَحْوُ: تَتَجَنَّبُ وَتَتَقَاتَلُ وَتَتَدَخَّرُ) أَمْثَلَةٌ لِلْأَبْوَابِ الثَّلَاثَةِ مُرْتَبَةً.

(وَيَجُوزُ حَذْفُ إِحْدَاهُمَا) تَخْفِيفًا، كَمَا يَجُوزُ إِدْغَامُ الثَّانِيَةِ فِيهَا بَعْدَهَا إِنْ كَانَ مِمَّا يُدْعَمُ فِيهِ: مِثْلُ: تَذَكَّرُونَ، وَتَسَاءَلُونَ، وَتَصَالَحَا، وَهَذَا الْحَذْفُ مُخْتَصٌّ بِالْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ دُونَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ شَدَّ زِيَادَةَ التَّاءِ فِي أَوَّلِ مَاضِي تَفَعَّلَ وَتَفَاعَلَ؛ نَحْوُ: تَقَطَّعَتْ، وَمِنْهُ قِرَاءَةُ شَادَّةٍ فِي (تَشَابَهَ) بِالتَّشْدِيدِ^(١).

وَأَعْرَبُ مِنْ ذَلِكَ زِيَادَةُ الْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ فِي أَوَّلِ مَاضِي تَفَاعَلَ؛ كَقِرَاءَةِ: (يَشَابَهَ) بِالتَّشْدِيدِ أَيْضًا^(٢).

(وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّقْتَ﴾ [عَبَسَ: ٦]) وَالْأَصْلُ: تَتَصَدَّقُ؛ أَي: تَتَعَرَّضُ وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، وَتَقْبِلُ عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ فِعْلُ الْمَاضِي لِقَالَ: تَصَدَّقْتَ؛ لِأَنَّهُ خُطَابٌ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عَبَسَ: ١٠].

(و: ﴿فَارَأَيْتَ تَلْطَفَ﴾ [الْبَلَدُ: ١٤])؛ أَي: تَتَلَطَّطُ، يَعْنِي: تَتَلَهَّبُ، وَلَوْ كَانَ مَاضِيًا لِقَالَ: تَلَطَّطْتَ؛ لِأَنَّ النَّارَ مَوْنَتْ سَمَاعِيٌّ.

(و: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ﴾ [الْقَدَرُ: ٤])؛ أَي: تَنَزَّلُ، وَكَوْنُهُ مُضَارِعًا وَاضِحٌ؛ لِضَمِّ

(١) انظر: «القراءات الشاذة» لابن خالويه (ص ١٤).

(٢) المصدر السابق.

لَامِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مَاضِياً لَفُتِحَتْ. وَجَاءَ فِي التَّنْزِيلِ مِثْلُهُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ أُخَرَ.
وَحَذَفُ الثَّانِيَةِ هُوَ الْأَوَّلَى مِنَ الْأَوَّلَى، وَبِهِ قَالَ الْبَصْرِيُّونَ.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ قَرَأَ الْبَزِّيُّ فِي حَالَةِ الْوَصْلِ بِتَشْدِيدِ التَّاءِ فِي الْأَمْثَلَةِ الثَّلَاثَةِ،
وَكَذَا نَظَائِرُهَا فِي مَحَالٍ مَعْرُوفَةٍ^(١).

(وَمَتَى كَانَ فَأَتْعَلَ صَاداً أَوْ ضَاداً أَوْ طَاءً أَوْ ظَاءً) وَهِيَ الْحُرُوفُ الْمُطْبَقَةُ
أَخْصُ مِنَ الْمُسْتَعْلِيَةِ (قُلِبَتْ تَاوُهُ)؛ أَي: تَاءٌ أَفْتَعَلَ (طَاءً)؛ لَتَعَسَّرَ النُّطْقُ بِالتَّاءِ بَعْدَ هَذِهِ
الْحُرُوفِ، وَاخْتِيرَ الطَّاءُ لِاتِّحَادِهِمَا مَخْرَجاً، لَا لِقُرْبِهِمَا كَمَا وَهَمَ التَّفْتَازَانِيُّ^(٢).

(فَتَقُولُ [فِي] ^(٣) أَفْتَعَلَ مِنَ الصُّلَحِ: اضْطَلَحَ) وَفِي الْأَصْلِ: اضْطَلَحَ.

(و) فِي أَفْتَعَلَ (مِنَ الضَّرْبِ: اضْطَرَبَ) وَالْأَصْلُ: اضْطَرَبَ، وَالْاضْطِرَابُ:
الْحَرَكَةُ وَالْمَوْجُ، وَالْبَحْرُ يَضْطَرِبُ؛ أَي: يَمُوجُ بَعْضُهَا بَعْضاً.

(و) فِي أَفْتَعَلَ (مِنَ الطَّرْدِ: اطَّرَدَ) وَالْأَصْلُ: اطَّرَدَ؛ أَي: اسْتَمَرَّ.

(و) فِي أَفْتَعَلَ (مِنَ الظُّلَمِ: اظْطَلَمَ) وَالْأَصْلُ: اظْطَلَمَ.

وَقَلِيلاً مَا جَاءَ: أَصْلَحَ وَاضْطَرَبَ، بِقَلْبِ الثَّانِي إِلَى الْأَوَّلِ ثُمَّ الْإِدْغَامُ، وَهَذَا
عَكْسُ قِيَاسِ الْإِدْغَامِ.

وَضُعْفَ: (اطَّجَعَ) بِالطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ الْمَشْدُودَةِ فِي اضْطَجَعَ؛ أَي: نَامَ عَلَى الْجَنْبِ.

وَقُرِئَ بِالْإِدْغَامِ فِي ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ [النور: ٦٢] لِلشُّوسِيِّ^(٤)، وَ: ﴿نَخِيفَ بِهِمْ﴾

(١) شدد البزي عن ابن كثير التاء التي في أول الأفعال المستقبلية في حال الوصل في إحدى وثلاثين موضعاً منها الأمثلة الثلاثة المذكورة. انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ٨٤).

(٢) انظر: «شرح تصريف العزّي» للتفتازاني (ص ٧٤).

(٣) ما بين معكوفتين سقط من «ط» و«و». انظر: «شرح تصريف العزّي» للتفتازاني (ص ٧٤).

(٤) أي: بإدغام الضاد في الشين. انظر: «التيسير» للداني (ص ٢٣).

[سبأ: ٩] لِلْكَسَائِي^(١)، وَ: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] لِلدُّورِيِّ فِي وَجْهِهِ وَلِلسُّوسِيِّ^(٢)، وَ: ﴿ذِي الْمَرْثِ سَيْلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] لِلسُّوسِيِّ^(٣).

وَأَمَّا (اَطَّرَدَ) فَيَجِبُ الْإِدْغَامُ لِاجْتِمَاعِ الْمِثْلَيْنِ فِي كَلِمَةٍ.
وَأَمَّا (اَظْطَلَمَ) فَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:
الْأَوَّلُ: إِظْهَارُهُ.

وَالثَّانِي: (اَطَّلَمَ) بِالطَّاءِ الْمُهْمَلَةِ بَقَلْبِ الْمُعْجَمَةِ إِلَيْهَا كَمَا هُوَ الْقِيَاسُ.
وَالثَّالِثُ: (اَظْلَمَ) بِالظَّاءِ الْمُعْجَمَةِ بَقَلْبِ الْمُهْمَلَةِ إِلَيْهَا.
وَرُويَتِ الْوُجُوهُ الثَّلَاثَةُ فِي قَوْلِ زُهَيْرٍ:
هُوَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ
أَي: وَاصِلُهُ مِنَ الْعَطَاءِ.

عَفَوًا وَيُظْلَمُ أحيانًا فَيَظْطَلِمُ^(٤)

فَقَوْلُهُ: (عَفَوًا)؛ أَي: بِسَهُولَةٍ وَمِنْ غَيْرِ مَنَّةٍ، وَ(يُظْلَمُ) بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ، (فَيَظْطَلِمُ) بِصِغَةِ الْفَاعِلِ؛ أَي: فَيَتَحَمَّلُ الظُّلْمَ، فَجَمَعَ لِلْمَدْوُوحِ بَيْنَ الْكَرَمِ وَالْحِلْمِ.
(وَكَذَلِكَ)؛ أَي: مِثْلُ مَا ذُكِرَ مِنَ الْإِبْدَالِ وَالْإِدْغَامِ وَبَدُونِهِ (جَمِيعُ مُتَصَرِّفَاتِهِ) بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَفَتْحُهَا لِحْنُ لِلزُّومِ الْفِعْلِ، وَالْمَعْنَى: جَمِيعُ مَا تَصَرَّفَ فِيهِ، وَالضَّمِيرُ

(١) بِإِدْغَامِ الْفَاءِ فِي الْبَاءِ. الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (ص ١٨٠).

(٢) بِإِدْغَامِ الرَّاءِ فِي اللَّامِ. الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (ص ٤٤).

(٣) بِإِدْغَامِ الشَّيْنِ فِي السَّيْنِ. الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (ص ٢٣).

(٤) انْظُرْ: «الْكِتَابُ» لِسَبِيوهِ (٤ / ٤٦٨)، وَ«غَرِيبُ الْحَدِيثِ» لِأَبِي عُبَيْدٍ (٤ / ٤٦٥)، وَ«غَرِيبُ

الْحَدِيثِ» لِابْنِ قَتِيْبَةَ (٢ / ٦٦)، وَ«سِرْ صَنَاعَةُ الْإِعْرَابِ» لِابْنِ جَنِيٍّ (١ / ٢١٩). وَزَادَ بَعْضُهُمْ وَجْهًا

رَابِعًا، وَهُوَ: «فَيَنْظَلِمُ».

عائِدٌ إِلَى (افْتَعَلَ مِنَ الصُّلَح) وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ، فَهُوَ أَوْلَى مِنْ تَقْدِيرِ التَّفْتَازَانِيِّ: أَي: مُتَصَرِّفَاتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا^(١).

فَإِنَّهُ يَجْرِي ذَلِكَ فِيهَا (نَحْو: اضْطَلَحَ يَضْطَلِحُ) فَعَلٌ مُضَارِعٌ (اضْطِلَاحًا، فَهُوَ مُضْطَلِحٌ) بِكَسْرِ اللَّامِ اسْمُ فَاعِلٍ، (وَذَاكَ مُضْطَلَحٌ عَلَيْهِ) بِفَتْحِ اللَّامِ اسْمُ مَفْعُولٍ، (اضْطَلَحَ) أَمْرُ الْحَاضِرِ، (لَا تَضْطَلِحُ) نَهْيُ الْحَاضِرِ، وَكَذَلِكَ: يَضْطَرِبُ فَهُوَ مُضْطَرِبٌ، وَيَطْرُدُ فَهُوَ مُطْرَدٌ، وَيَظْطَلِمُ فَهُوَ مُظْطَلِمٌ، وَكَذَا: يَضْطَرُّ فَهُوَ مُضْطَرُّ مِنَ الضَّرَرِ، وَكَذَا بَوَاقِي الْأَمْثَلَةِ بِأَسْرِهَا، فَتَدَبَّرْ.

(وَمَتَى كَانَ فَأُفْتَعَلَ دَالًا أَوْ ذَالًا أَوْ زَايَا قُلِيَتْ تَأْوُهُ)؛ أَي: تَاءُ افْتَعَلَ (دَالًا) مَهْمَلَةٌ تَخْفِيفًا، (فَتَقُولُ فِي افْتَعَلَ مِنَ الدَّرءِ) وَهُوَ الدَّفْعُ (وَالذِّكْرُ) وَهُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ (وَالزَّجْرِ) وَهُوَ الْمَنْعُ وَالتَّهْيِ:

(أَدْرَأَ) بِتَشْدِيدِ الْمُهْمَلَةِ، وَالْأَصْلُ: اذْتَرَأَ، وَلَا يَجُوزُ فِيهِ إِلَّا الْإِدْغَامُ؛ لِاتِّحَادِ مَخْرَجِهِمَا.

(وَأَذْكَرَ) بِالْمُهْمَلَةِ الْمَشْدُودَةِ، وَالْأَصْلُ: اذْتَكَّرَ، بِالْمُعْجَمَةِ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجِهٍ: (أَذْكَرَ) بِلا إِدْغَامٍ. وَ(أَذْكَرَ) بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ بِقَلْبِ الْمَهْمَلَةِ إِلَيْهَا. وَ(أَذْكَرَ) بِالذَّالِ الْمُهْمَلَةِ بِقَلْبِ الْمُعْجَمَةِ إِلَيْهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ وَالْأَفْصَحُ.

وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَذْكَرَ بَعْدَ أَمْتِهِ﴾ [يوسف: ٤٥]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِيرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

(وَأَزْدَجَرَ) وَالْأَصْلُ: ازْتَجَرَ، وَفِيهِ وَجْهَانِ:

الْبَيَانُ: وَهِيَ الْفُضْحَى فِي اللَّغَةِ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَقَالُوا بَجْنُونَ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩] ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤].

(١) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٧٥).

والإذغام: بقلب الدال زايًا؛ نحو: أرَجَرَ، دون العكس فتدبَّر، ولعله لئلاَّ يَشْتَبَهَ ب: أَتَجَرَ.

وأما نحو: ﴿فَأَذَرَتْهُمُ﴾ [البقرة: ٧٧] و﴿أَنفَقْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٨] فمن باب التفاعل، وأصلهما: تَذَارَأْتُمْ وَتَنَاقَلْتُمْ، فأبدل التاء دالاً في الأولى، وتاء في الثانية، ثم أذْغَمْتُ فاحتيج إلى همزة الوصل؛ لتعذر الابتداء بالساكين حال الفصل، فأُتِيَ بهمزة مكسورة لأنها الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عَلْمُهُمْ﴾ [النمل: ٦٦]؛ أي: تَذَارَكَ. وأما المَزْمَلُ والمُدْتَرُّ فمن باب التفعّل، أصلهما: مَزْمَلٌ وَمُتَدَتَّرٌ، فأبدلت وأذْغَمْتُ.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَطِيعُوا﴾ [النمل: ٤٧]؛ أي: تَطِيعُوا. وهذا كله باعتبار اتحاد المخرج في بعض الصور، فاقترَب المخرج في بعض آخر. وفيه إشارة إلى أن مَنْ تَقَرَّبَ إلى الله وَتَبَعَدَ عَمَّا سِوَاهُ، وَصَلَ إلى مَقَامٍ لَهُ إلى الله، كما يدلُّ عليه قوله سبحانه في الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ باعًا»^(١). وفي الحديث الإنسي: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ»^(٢).

ثم الإذغام على نوعين: مُمَائِلٌ وَمُتَقَارِبٌ، ومثالهما في هذا المقام ومَرَامِ الكِرَام: أَنْ يَتَخَلَّقَ الْإِنْسَانِيُّ^(٣) بِالْخُلُقِ الرَّبَّانِيِّ، إِذَا وَصَلَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْكَمَالِ، وَزَالَ عَنْهُ التَّغَايُرُ فِي حَالِ الْوِصَالِ، يُعْبَرُ عَنْهُ بِالْإِذْغَامِ وَالْإِذْخَالِ، كما قال بعضُ أربابِ الحال:

(١) قطعة من حديث رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «وإن تقرب... وإن تقرب...».

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «ط»: «تخلق الإنساني»، وفي «و»: «يتخلق الإنسان».

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا^(١)

وَيُقَالُ: فِي سِيرِ^(٢) سُلُوكِ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ، فَنَبَتِ النَّاسُوتِ وَيُنْبِتُ لَهُ^(٣) اللَّاهُوتِ، لَكِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ، وَالِاتِّصَالِ وَالِانْفِصَالِ، كَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْوُجُودِيَّةُ مِنْ أَصْحَابِ الْإِلْحَادِ، وَفَقَّنَا اللَّهُ طَرِيقَ السَّدَادِ، وَاللَّهُ رَوْفٌ بِالْعِبَادِ، وَعَطُوفٌ بِالْعِبَادِ، أَبَدَ الْآبَادِ.

(وَيُلْحَقُ الْفِعْلُ)؛ أَي: يَدْخُلُ آخِرُهُ - وَالْمُرَادُ بِهِ جِنْسُهُ - حَالُ كَوْنِهِ (غَيْرِ الْمَاضِي وَالْحَالِ)، فَيُلْحَقُ فِعْلُ الْاسْتِقْبَالِ (نُونَانِ لِلتَّأْكِيدِ)؛ لِأَنَّ الطَّلْبَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ إِلَى الْاسْتِقْبَالِ، لَا إِلَى الْمَاضِي وَالْحَالِ، وَلَا يُتَوَهَّمُ جَوَازُ إِحَاقِهِمَا بِالْمُسْتَقْبَلِ الصَّرْفِ، أَعْنِي: غَيْرَ الْمَشُوبِ بِمَعْنَى الطَّلْبِ؛ نَحْوُ: سَيَضْرِبَنَّ، وَ: سَوْفَ يَضْرِبَنَّ، فَإِنَّهُمَا لَا يَلْحَقَانِ فِي سَعَةِ الْكَلَامِ إِلَّا مَا فِيهِ مَعْنَى الطَّلْبِ أَوْ شَبْهَهُ، وَعَلَيْهِ جَمِيعُ الْمُحَقِّقِينَ، حَيْثُ قَالُوا: وَلَا يُلْحَقُ إِلَّا مُسْتَقْبَلًا فِيهِ مَعْنَى الطَّلْبِ كَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالِاسْتِفْهَامِ وَالتَّمَنِّيِ وَالْعَرْضِ وَالْقَسَمِ لِكَوْنِهِ غَالِبًا عَلَى مَا هُوَ مَطْلُوبٌ، وَيُشَبَّهُ بِالْقَسَمِ نَحْوُ: (إِنَّمَا تَفْعَلَنَّ) فِي أَنَّ (مَا) زِيدَ لِلتَّأْكِيدِ كَلَامِ الْقَسَمِ فِي مَقَامِ التَّأْيِيدِ.

وَقَدْ تَلَحَّقَ بِالنَّفْيِ تَشْبِيهًا لَهُ بِالنَّهْيِ^(٤)، قِيلَ: هُوَ قَلِيلٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا شَيْخًا عَلَى كَرْسِيٍّ مُعَمَّمَا^(٥)

(١) الشعر للحلاج كما في «آثار البلاد وأخبار العباد» للقرظيني (ص ٦٥).

(٢) في المطبوع: «مسير».

(٣) كلمة: «له» من «و» وليست في «ط».

(٤) في «ط» و«و»: «لشبهها له بالنفي»، والصواب المثبت.

(٥) الرجز دون نسبة في «الكتاب» (٣/ ٥١٦)، وعزاه الخليل في «الجمال في النحو» (ص ٢٥٦) للعجاج،

ونسب أيضاً لابن جُبَابَةَ اللُّصِّ، وَمَسَاوِيرَ الْعَبْسِيِّ، وَأَبِي حَيَّانَ الْفُقْعِيِّ، وَعَبْدَ بْنِ عَبْسٍ. انظر: «أمالِي

ابن الشجري» (٢/ ١٦٥)، و«خزانة الأدب» (١١/ ٤٤٣ - ٤٤٤).

أَي: لَمْ يَعْلَمَنَّ، فَقَلِبَتِ النُّونُ إِلِفًا لِلْوَقْفِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَنَنْفَعَا﴾ [العلق: ١٥]، ﴿وَلَيْكُونَا﴾ [يوسف: ٣٢].

والصَّحِيحُ أَنَّهُ وَقَعَ كَثِيرٌ فَصِيحٌ، فهو مذهبُ أَبِي الْفَتْحِ وَالزَّمْخَشَرِيِّ^(١)، ومُخْتَارُ ابْنِ مَالِكٍ^(٢)، وظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿لَا يَحِطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ﴾ [النمل: ١٨]، يدلُّ عليه.

وَمَنْعَةُ الْجُمْهُورِ إِلَّا فِي تَأْكِيدِ أَوْ ضَرُورَةٍ، فَقَدْ قَالَ سَيَبُويه: يَجُوزُ فِي الضَّرُورَةِ: أَنْتَ تَفْعَلَنَّ^(٣).

ثُمَّ هَاتَانِ النُّونَانِ إِحْدَاهُمَا (خَفِيفَةٌ سَاكِنَةٌ)؛ كَقَوْلِكَ: أَذْهَبَنَّ؛ أَي: أَذْهَبَ الْبَتَّةَ، (و) ثَانِيَهُمَا (ثَقِيلَةٌ مَفْتُوحَةٌ)؛ نَحْوُ: أَذْهَبَنَّ؛ أَي: أَذْهَبَ الْبَتَّةَ الْبَتَّةَ.

وَفِي بَعْضِ النُّسخِ بِالنَّصْبِ؛ أَي: حَالٌ كَوْنِ إِحْدَاهُمَا خَفِيفَةٌ سَاكِنَةٌ وَالْأُخْرَى ثَقِيلَةٌ مَفْتُوحَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ (إِلَّا فِيمَا)؛ أَي: فِي الْفِعْلِ الَّذِي (تَخْتَصُّ) النُّونُ الثَّقِيلَةُ مِنَ الْتُونِينِ (بِهِ)؛ أَي: بِذَلِكَ الْفِعْلِ، وَالْمَعْنَى: مَا يَنْفَرِدُ بِلُحُوقِ هَذَا الْفِعْلِ^(٤)؛ كَمَا يُقَالُ: نَحْصُكَ بِالْعِبَادَةِ؛ أَي: لَا تَعْبُدْ غَيْرَكَ.

(وَهُوَ)؛ أَي: مَا يَخْتَصُّ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ (فِعْلُ الْاِثْنَيْنِ) مَذْكَرَيْنِ أَوْ مُؤَنَّثَيْنِ (وَفِعْلُ جَمَاعَةِ النِّسَاءِ، فَهِيَ)؛ أَي: النُّونُ الثَّقِيلَةُ (مَكْسُورَةٌ فِيهِ)؛ أَي: فِي فِعْلِ الْاِثْنَيْنِ وَجَمَاعَةِ النِّسَاءِ، فَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْفِعْلِ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الْعُطْفِ، وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا إِلَى (مَا)، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَعُودَ إِلَى مَا ذُكِرَ مِنَ الْفِعْلَيْنِ.

(١) انظر: «الخصائص» لأبي الفتح ابن جني (٣/ ٥١٧)، و«المفصل» للزمخشري (ص ٤٥٨).

(٢) انظر: «شرح التسهيل» (٣/ ٢١٠)، و«شرح الكافية الشافية» (٣/ ١٤٠٣)، كلاهما لابن مالك.

(٣) انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٩١).

(٤) في «ط»: «فيما ينفرد ويلحق هذا الفعل».

(فَتَقُولُ: أَذْهَبَانَّ، لِلْاِثْنَيْنِ) أَوْ لِلْاِثْنَتَيْنِ، (وَأَذْهَبَانَّ لِلنِّسَاءِ) بِكسْرِ النُّونِ فِيهِمَا تَشْبِيهًا لَهَا بِنُونِ التَّثْنِيَةِ؛ لِأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بَعْدَ الْأَلِفِ مِثْلَ نُونِ التَّثْنِيَةِ.

وَأَمَّا مَا أَجَازَهُ يُونُسُ وَالْكَوْفِيُّونَ مِنْ دُخُولِ الْخَفِيفَةِ فِي فِعْلِ الْاِثْنَيْنِ وَجَمَاعَةِ النِّسَاءِ بَاقِيَةً عَلَى الشُّكُونِ عِنْدَ يُونُسَ، وَنَظِيرُهُ قِرَاءَةُ نَافِعٍ: ﴿وَمَخْيَايُ﴾ [الأنعام: ١٦٢]^(١)، وَمُتَحَرِّكَةً بِالْكَسْرِ عِنْدَ بَعْضٍ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ مَالِكٍ وَمَنْ تَبِعَهُ، وَقَدْ حَمَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ [يونس: ٨٩] فِي رِوَايَةِ ابْنِ ذَكْوَانَ بِتَخْفِيفِ النُّونِ^(٢) = فَقِيلَ: هِيَ الشَّدِيدَةُ، وَلَكِنْ حُذِفَ مِنْهَا السَّاكِنَةُ تَخْفِيفًا، فَهِيَ مُخَفَّفَةٌ لَا خَفِيفَةٌ، فَعَلَى هَذَا ﴿لَا﴾ نَاهِيَةٌ وَالْفِعْلُ فِي مَحَلِّ جَزْمٍ بِهَا.

وَقِيلَ: النُّونُ نُونٌ رَفْعٍ، وَ﴿لَا﴾ لِلنَّفْيِ وَالْمَرَادُ بِهِ النَّهْيُ.

وَقِيلَ: النَّفْيُ عَلَى حَالِهِ وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ الْحَالِ، فَلَا إِشْكَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِخَفِيفَةِ الْأَحْوَالِ، وَحَقِيقَةِ الْأَقْوَالِ.

(فَتَدْخُلُ) أَنْتَ (أَلِفًا بَعْدَ نُونِ جَمْعِ الْمُؤَنَّثِ) وَقَبْلَ نُونِ التَّثْنِيَةِ، فَتَقُولُ: أَذْهَبَانَّ، وَالْأَصْلُ: أَذْهَبَنْ، فَادْخَلْتَ أَلِفًا بَيْنَهُمَا (لِتَقْصِلَ) تِلْكَ الْأَلِفُ - أَوْ أَنْتَ - بِهَا (بَيْنَ النُّونَاتِ) وَهِيَ: نُونُ جَمَاعَةِ النِّسَاءِ، وَالْمُدْغَمَةُ وَالْمُدْغَمُ فِيهَا، وَاخْتَصَصُوا الْأَلِفَ لَخَفِيفَتِهَا، أَوْ لَشَبِيهِهَا بِالْأَلِفِ التَّثْنِيَةِ، وَلِذَا كُسِرَتْ نُونُهُ كَنُونِهَا.

(وَلَا تَدْخُلُهَا)؛ أَي: فِعْلُ الْاِثْنَيْنِ وَجَمَاعَةِ النِّسَاءِ النُّونُ (الْخَفِيفَةُ) خِلَافًا لِيُونُسَ، فَلَا يَقَالُ: (اضْرِبَانِ) وَلَا (اضْرِبْنَانِ) عِنْدَ غَيْرِهِ؛ (لِأَنَّهُ يَلْزَمُ) مِنْ دُخُولِهَا فِيهِمَا (التَّقَاءُ السَّاكِنَيْنِ) وَهُمَا الْأَلِفُ وَالنُّونُ (عَلَى غَيْرِ حَدِّهِ)؛ أَي: حَدَّ جَوَازِهِ، (فَإِنَّ التَّقَاءَ السَّاكِنَيْنِ إِنَّمَا يَجُوزُ إِذَا كَانَ الْأَوَّلُ) مِنَ السَّاكِنَيْنِ (حَرْفَ مَدٍّ) وَهُوَ الْأَلِفُ وَالْوَاوُ

(١) بِسُكُونِ الْبَاءِ قِرَاءَةُ نَافِعٍ بِخِلَافِ عَن وَرْشٍ. انْظُرْ: «التَّيْسِيرُ فِي الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ» (ص ١٠٨).

(٢) بِتَخْفِيفِ النُّونِ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ فِي رِوَايَةِ ابْنِ ذَكْوَانَ. الْمَصْدَرُ السَّابِقُ (ص ١٢٣). وَانْظُرْ: «شَرْحُ

الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ» لِابْنِ مَالِكٍ (٣/ ١٤١٨). وَانْظُرْ قَوْلَ يُونُسَ فِي «الْكِتَابِ» لِسَيِّبِيهِ (٣/ ٥٢٧).

والياء سَوَاكِينَ، وكان الثاني منهما (مُدْغَمًا) في حرفٍ آخر (نحو: دَابَّةٌ)، فإنَّ الألف والياء ساكنانِ، والألفُ حرفٌ مدٌّ والثاني - وهو الباءُ الأولى - مُدْغَمٌ في الثانية.

وكان الأولى أن يقول: حرفَ لينٍ، ليدخل فيه (خَوِيصَّة) تصغير (خاصَّة)؛ لأنَّ حرفَ اللين أعمُّ من حرفِ المدِّ، وكأنَّ المصنِّفَ لم يفرِّق بينهما.

ثمَّ قيل: (إنَّما) تُفِيدُ الحَضَرَ، فيردُّ عليه أنَّ التَّقَاءَ السَّاكِنَيْنِ جائزٌ في الوقفِ مُطلقاً، سواءً كان على حده أو لا، لأنَّه محلُّ التَّخْفِيفِ والاستراحة، فيقال: زيدٌ، وعَمْرُو، وبَكْرٌ، وكذا حالُ التَّعدادِ ولو وصلاً، فيقال: مِيمٌ، جِيمٌ، عَيْنٌ، سِينٌ.

ويَبْغِي أنْ تُحْمَلَ عبارته على ما إذا التَقَى السَّاكِنَانِ في كلمةٍ كما مثَّله بـ (دَابَّة)، وكذا فعَّله جَارُ الله العَلَامَةُ^(١)، حتَّى لا يَرِدَ عليه ما أَجْمَعَ القُرَّاءُ في نحو ﴿ءَأَكْتَنَ﴾ [يونس: ٥١، ٩١] بسكونِ الألفِ واللام، وكذا ﴿وَمَحْيَايَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]^(٢)، و﴿أَلْتَقَى﴾ [الأحزاب: ٤]^(٣) بسكونِ يائهما عند مَنْ قرأ بهما، وكذا في بعضِ القراءاتِ مِنَ السَّبْعَةِ كـ ﴿ذِي الْعَرْشِ سَيْلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]^(٤)، و﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٥٢]^(٥)، و﴿لَبِئْسَ شَأْنُهُمْ﴾ [النور: ٦٢]^(٦) بإدغامِ الأوَّلِ مِنَ المتغايِرَيْنِ في الثاني، وأمثال ذلك.

فإن قلت: فلمَ لمَ يَجْزِ التَّقَاءُ السَّاكِنَيْنِ في نحو: ﴿قَالُوا أَطِيعُوا﴾ [النمل: ٤٧] بإثباتِ الواوِ وصلاً، مع أنَّ الأوَّلَ حرفٌ مدٌّ والثاني مُدْغَمٌ؟

قلت: جوازُه مشروطٌ بذلك، ولا يُلْزَمُ من وجودِ الشَّرْطِ هُنالك وجودُ المَشْروطِ كما تَقَدَّمَ، والله سبحانه أعلم.

(١) انظر: «المفصل» لجار الله الزمخشري (ص ٤٩٣).

(٢) بسكونِ الياء قراءة نافع بخلاف عن ورش. انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص ١٠٨).

(٣) قراءة البري وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص ١٧٧ - ١٧٨) «النشر» (١ / ٤٠٤).

(٤) بإدغامِ الشين في السين. انظر: «التيسير» (ص ٢٣).

(٥) بإدغامِ الذال في الذال. المصدر السابق (ص ٢٤).

(٦) بإدغامِ الضاد في الشين. المصدر السابق (ص ٢٣).

ثُمَّ إِنَّ النُّونَ الْخَفِيفَةَ لَا تَقْبَلُ الْحَرَكَةَ - لِأَنَّ سَكُونَهَا بِثَانِيٍّ بِخِلَافِ نُونِ ﴿لَا يَكُنْ﴾ [البينة: ١]، فَإِنَّ سَكُونَهَا إِعْرَابِيٍّ - وَلِهَذَا تُحَذَفُ فِي نَحْوِ: اضْرِبَ الْقَوْمَ، وَالْأَصْلُ: اضْرِبْنِ، وَلِذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تُهِنَنَّ الْفَقِيرَ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى كَعَ يَوْمًا وَالذَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ^(١)
أَي: تُهِنَنَّ، وَإِلَّا لَوَجِبَ أَنْ يُقَالَ: لَا تُهِنَنَّ الْفَقِيرَ؛ لِأَنَّهُ نَهْيٌ، فَحُذِفَتِ النُّونُ الْخَفِيفَةُ لِإِتْقَاءِ السَّاكِنِينَ وَلَمْ تُحَرِّكْ.

وَالْمَعْنَى: لَا تَفْخَرْ بِغِنَاكَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الذَّهْرَ لَا يَتْرُكُ الْفَقِيرَ عَلَى فَقْرِهِ وَلَا الْغَنَى عَلَى غِنَاهُ، فَالرُّكُوعُ كَنَاءَةٌ عَنْ تَغْيِيرِ الْحَالِ بِانْحِطَاطٍ بَعْدَ الِازْتِفَاعِ.

وَقَوْلُهُ: (وَالذَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ) جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ مِنْ ضَمِيرِ (تَرَكْعُ)، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»^(٢).

وَقِيلَ: مِنَ الضَّمِيرِ، وَهُوَ غَلَطٌ فِي الْمَبْنِيِّ لِفَسَادِ الْمَعْنَى، وَلَوْ قَالَ الشَّاعِرُ: (تُخَفِّضُ) بَدَلًا: (تَرَكْعُ) لَكَانَ أَحْسَنَ مَبْنًى، وَأَبَيَّنَ مَعْنًى.

هَذَا وَقَبْلَهُ:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهَمومِ سَعَةٌ وَالصُّبْحُ وَالْمُسَيُّ^(٣) لَا بَقَاءَ مَعَهُ
قَدْ يَجْمَعُ الْمَالَ غَيْرُ أَكْلِهِ وَيَأْكُلُ الْمَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهُ^(٤)

(١) البيت للأضبط بن قريع كما في «خزانة الأدب» (١١ / ٤٧٩)، ودون نسبة في «الجميل في النحو» للخليل (ص ٣٣٣)، و«المفصل» (ص ٤٥٩).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٨ / ٣٦٩)، وفيه: لا أصل له، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ، وهو باطل فإنه لم يكن بين الماء والطين؛ إذ الطين ماء وتراب.

(٣) في «ط» و«و»: «والمساء»، والمثبت من المصادر كما يأتي.

(٤) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤ / ٣٨)، و«البيان والتبيين» للجاحظ (١ / ٥٤٤)، و«الأغاني» (١٨ / ١٣٢).

(وَيُحَذَفُ مِنَ الْفِعْلِ مَعَهُمَا): أي حال كون الفعل مقروناً مع التَّوْنِ (التَّوْنُ التي في الأمثلة الخمسة، وهي: يَفْعَلَانِ) للغائِبَيْنِ، (وَتَفْعَلَانِ) للمُخَاطَبَيْنِ والمُخَاطَبَتَيْنِ، (وَيَفْعَلُونَ) للغائِبِينَ، (وَتَفْعَلُونَ) للمُخَاطَبِينَ، (وَتَفْعَلِينَ) للمُخَاطَبَةِ. من أي باب كانت هذه الأمثلة: ثلاثياً أو رباعياً، مجرداً أو مزيداً، فالمقصود من الأمثلة: هي وأمثالها.

وإنما يُحذفُ التَّوْنُ فيها لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ التَّوْنَ فيها علامةُ الإعرابِ، والفعلُ مع نونِ التَّأَكِيدِ يصيرُ مَبْنِيّاً كما ذَكَرْنَا فِي نونِ جَمَاعَةِ النِّسَاءِ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وقد تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَا مَعِيَّةَ بَيْنَ الْخَفِيفَةِ وَفِعْلِ الْاِثْنَيْنِ، فَلَا يَكُونُ فِيهِ إِلَّا عَلَى مَذْهَبِ يُونُسَ^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

(وَيُحَذَفُ) مع حَذْفِ التَّوْنِ (وَأَوْ يَفْعَلُونَ) للغائِبِينَ، (و) (وَأَوْ تَفْعَلُونَ) للمُخَاطَبِينَ، (و) (يَاءُ تَفْعَلِينَ) للمُخَاطَبَةِ؛ لَأَنَّ الْإِتْقَاءَ السَّاكِنِينَ وَإِنْ كَانَ عَلَى حَدِّهِ عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرٌ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ، لَكِنَّهُ ثَقُلَتِ الْكَلِمَةُ وَاسْتَطَالَتْ، وَكَانَتِ الضَّمَّةُ^(٢) وَالْكَسْرَةُ تَذَلُّلًا عَلَى الْوَاوِ وَالْيَاءِ فَحُذِفَتَا، وَهَذَا مَعَ الثَّقِيلَةِ، وَأَمَّا مَعَ الْخَفِيفَةِ فَالْإِتْقَاءُ السَّاكِنِينَ عَلَى غَيْرِ حَدِّهِ فَلَا إِشْكَالَ.

وَالْقِيَاسُ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُحذفَ الْوَاوُ [وَالْيَاءُ]^(٣) أَيْضاً كَالْأَلِفِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ بَعْضِهِمْ، إِذْ كُلُّ مِنْهُمَا فِي هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ ضَمِيرُ الْفَاعِلِ، وَالْفَاعِلُ وَحْدَهُ لَا يُحذفُ، وَالْإِتْقَاءُ السَّاكِنِينَ عَلَى حَدِّهِ، لَكِنْ سَبَقَ أَنَّ الْإِتْقَاءَ السَّاكِنِينَ لَا يَجِبُ أَنْ يَجُوزَ^(٤) عِنْدَ وَجُودِ شَرْطِهِ؛ لِأَنَّ وَجُودَ الشَّرْطِ لَا يُلْزِمُ مِنْهُ وَجُودَ الْمَشْرُوطِ.

(١) تقدم مذهبه قريباً.

(٢) في «ط» و«و»: «الفتحة»، وجاء في هامش «ط»: «الصواب: الضمة». وهو كما قال.

(٣) زيادة يقتضيها السياق. انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ٨٤).

(٤) قوله: «لكن سبق...»، كذا وقعت العبارة في «ط» و«و»، ولعل الصواب: «لكن سبق أن ضمير =

هذا، والمعروف عند علماء هذا الفن - بل حكى بعضهم الاتفاق عليه - : أن حدّ التقاء الساكنين أن يكون الأول حرف لين والثاني مُدْغَمًا، ويكونا في كلمة، فهو هاهنا ليس على حدّه لأنّه في كلمتين: الفعل ونون التأكيد، لكنّه اغْتَصَرَ في الألف وإن لم يكن على حدّه لدفع الالتباس - وإنّ الدّفع أسهل من الرّفْع - وكون وجود التقاء الساكنين مع الألف أخفّ من حذف الألف؛ لأنّ فيه انتقالاً من الأخفّ وهو الفتح إلى الأثقل وهو الكسر، مع حذف الواو والياء ينقل من الأثقل وهو الضّمّ أو الكسر إلى الأخفّ وهو الفتح.

ففي الجملة: يُحذف الواو والياء منهما ولا تُثْبِتَانِ في وقتٍ من الأوقات (إلا إذا انْفَتَحَ ما قَبْلَهُما)، فإنّهما لا تُحذفان حيثُ لَعَدِمَ ما يَدُلُّ عليهما، أعني: الضّمّ والكسر، بل يُحرّك الواو بالضّمّ والياء بالكسر لدفع التقاء الساكنين.

(نحو: لا تَخْشَوْنَ) أصله: تَخْشَوْنَ، حُذِفَتْ ضَمَّةُ الياءِ لِلثَّقَلِ، ثُمَّ الياءُ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِ، فْقِيلَ: تَخْشَوْنَ، وَأُدْخِلَ (لا) النَّاهِيَةُ فحُذِفَتِ النُّونُ فَقِيلَ: لا تَخْشَوْا، فَلَمَّا أُلْحِقَ نُونُ التَّأْكِيدِ التَّقَى السَّاكِنَانِ: الواو والنُّونُ المُدْغَمَةُ، وَلَمْ يُحذفِ الواو لَعَدِمَ ما يَدُلُّ عليه، بل حُرِّكَ بما يَناسبُهُ وهو الضّمُّ لكونها^(١) أخْتَهُ، فَقِيلَ: لا تَخْشَوْنَ، فَهِيَ نَهْيُ الْمُخَاطَبِ لجماعة الذُّكور.

(و: لا تَخْشَيْنَ) أصله: تَخْشَيْنَ، حُذِفَتْ كسرةُ الياءِ لِثِقَلِهَا، ثُمَّ الياءُ الْأُولَى لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِ، فَصار: تَخْشَيْنَ، وَأُدْخِلَ (لا) النَّاهِيَةُ وَحُذِفَتِ النُّونُ، فَقِيلَ: لا تَخْشِي، فَلَمَّا لَحِقَ نُونُ التَّأْكِيدِ التَّقَى ساكِنَانِ: الياءُ والنُّونُ، فَلَمْ يُحذفِ لِمَا مَرَّ، بل حُرِّكَتْ بِالْكَسْرِ لِمُنَاسَبَتِهِ الياءَ، وهو نَهْيُ الْمُخَاطَبَةِ.

= الفاعل عند التقاء الساكنين لا يجب أن يحذف بل يجوز...". انظر المصدر السابق وفيه: «لكن قد ذكرنا أنه لا يجب بل يجوز وإن كان على حده».

(١) في «ط» و«و»: «لكونه»، والصواب المثبت.

(١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

(١٧٧) (ص) «المستدرک»: (١).

(١٨٦) (٧/١) «المستدرک»: (١).

من جملة علماء الحديث، وهو من جملة علماء الحديث، وهو من جملة علماء الحديث.

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

بجانبه: (١٨٦) (ص) «المستدرک»: (١).

(وَيُفْتَحُ) مع النُونَيْنِ (آخِرُ الفعلِ) حقيقةً أو حُكْمًا؛ لِيَشْمَلَ نَحْوًا: لَا تَخْشَوْنَ،
و: لَا تَخْشَيْنَ، فَإِنَّ الْوَاوَ وَالْيَاءَ لَيْسَتَا آخِرَ الفعلِ، بَلْ كُلُّ مِنْهُمَا اسْمٌ بِرَأْسِهِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ:
يَخْشَى، وَهُمَا ضَمِيرُ الْفَاعِلِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الضَّمِيرَ كَجَزءٍ مِنَ الْفِعْلِ فَكَأَنَّهُ آخِرُ الْفِعْلِ.
وقيل: المرادُ بِالْفِعْلِ غَيْرُ النَّاقِصِ إِذْ عُلِمَ حُكْمُهُ فِي (لَتُبْلَوْنَ) وَ(تَرَيْنَ).

(إِذَا كَانَ)؛ أَي: الْفِعْلُ (فِعْلُ الْوَاحِدِ) غَائِبًا كَانَ أَوْ حَاضِرًا (أَوِ الْوَاحِدَةِ الْغَائِبَةِ)؛
لِأَنَّ الْفَتْحَ هُوَ الْأَصْلُ لِحِفَّتِهِ، فَالْعَدُولُ عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ لِعَرَضٍ عَرَضَ فِي عِلَّتِهِ.
(وَيُضَمُّ)؛ أَي: آخِرُ الْفِعْلِ (إِذَا كَانَ)؛ أَي: الْفِعْلُ (فِعْلُ جَمَاعَةٍ الذُّكُورِ)؛ لِيَدُلَّ
الضَّمُّ عَلَى الْوَاوَ الْمَحذُوفَةِ.

(وَيُكْسَرُ)؛ أَي: آخِرُ الْفِعْلِ (إِذَا كَانَ)؛ أَي: الْفِعْلُ (فِعْلُ الْوَاحِدَةِ الْمُخَاطَبَةِ)؛
لِيَدُلَّ الْكُسْرُ عَلَى الْيَاءِ الْمَحذُوفَةِ.

(فَتَقُولُ فِي أَمْرِ الْغَائِبِ مُؤَكَّدًا) - بِكسْرِ الْكَافِ، وَيَجُوزُ فَتَحُهُ - (بِالنُّونِ الثَّقِيلَةِ:
لَيَنْصُرَنَّ) بِالْفَتْحِ لِكَوْنِهِ فِعْلُ الْوَاحِدِ (لَيَنْصُرَانَّ لَيَنْصُرُنَّ) بِالضَّمِّ لِكَوْنِهِ فِعْلُ جَمَاعَةِ
الذُّكُورِ، أَصْلُهُ: لَيَنْصُرُونَ، حُذِفَتِ الْوَاوَ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، (لَتَنْصُرَنَّ) بِالْفَتْحِ أَيْضًا لِأَنَّهُ
فِعْلُ الْوَاحِدَةِ الْغَائِبَةِ، (لَتَنْصُرَانَّ لَيَنْصُرَانَّ) كَمَا مَرَّ.

(وَبِالْخَفِيفَةِ: لَيَنْصُرَنَّ) بِالْفَتْحِ، (لَيَنْصُرُنَّ) بِالضَّمِّ، (لَتَنْصُرُنَّ) بِالْفَتْحِ لِمَا عُلِمَ،
وَتَرَكَ الْبَوَاقِي لِأَنَّ الْخَفِيفَةَ لَا تَدْخُلُهَا.

(و) وَتَقُولُ (فِي أَمْرِ الْحَاضِرِ مُؤَكَّدًا) وَفِي نَسْخَةٍ: الْمُؤَكَّدُ (بِالثَّقِيلَةِ: أَنْصُرَنَّ)
بِالْفَتْحِ لِأَنَّهُ فِعْلُ الْوَاحِدِ، (أَنْصُرَانَّ أَنْصُرُنَّ) بِالضَّمِّ لِأَنَّهُ فِعْلُ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ، (أَنْصُرَنَّ)
بِالْكَسْرِ لِأَنَّهُ فِعْلُ الْوَاحِدَةِ الْمُخَاطَبَةِ، (أَنْصُرَانَّ أَنْصُرَانَّ) لَجَمْعِ الْإِنَاثِ.
(وَبِالْخَفِيفَةِ: أَنْصُرَنَّ، أَنْصُرُنَّ، أَنْصُرَنَّ).

(وَقَسَّ عَلَى هَذِهِ نَظَائِرُهُ)؛ أَي: أَشْبَاهَ كُلِّ مِنْ لَيَنْصُرَنَّ وَأَنْصُرَنَّ.. إِلَى آخِرِهِمَا؛
مِنْ نَحْوِ: لَيَضْرِبَنَّ وَلَيَعْلَمَنَّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِلَى سَائِرِ الْأَفْعَالِ وَالْأَمْثَلَةِ الَّتِي تُوجَدُ هُنَاكَ.

(وَأَمَّا اسْمُ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَجْرَدِ) اخْتِرَازٌ مِنَ الرَّبَاعِيِّ،
وَمِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَزِيدِ فِيهِ؛ لِمَا سَيَأْتِي حُكْمُهَا.

(فَالْأَكْثَرُ) اسْتِعْمَالاً (أَنْ يَجِيءَ اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهُ)؛ أَي: مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَجْرَدِ (عَلَى
فَاعِلٍ، تَقُولُ: نَاصِرٌ) لِلوَاحِدِ (نَاصِرَانِ) لِلثَّانِيَيْنِ حَالِ الرَّفْعِ، وَنَاصِرَيْنِ حَالِ النَّصْبِ
وَالْجَرِّ، (نَاصِرُونَ) لْجَمَاعَةِ الذُّكُورِ فِي الرَّفْعِ، وَ: نَاصِرِينَ، فِي غَيْرِهِ.
وَفَتَحُوا مَا قَبْلَ الْيَاءِ فِي الْمُشْتَى وَكَسَرُوهُ فِي الْجَمْعِ، وَفَتَحُوا النُّونَ فِي الْجَمْعِ
وَكَسَرُوهُ فِي الْمُشْتَى فِرْقاً بَيْنَهُمَا، لَا سِيَّما فِي نَحْوِ: الْمُصْطَفَيْنِ^(١).

(نَاصِرَةٌ) لِلوَاحِدَةِ (نَاصِرَتَانِ) لِلثَّانَتَيْنِ (نَاصِرَاتٌ) لْجَمَاعَةِ الْإِنَاثِ (وَنَوَاصِرُ)
لَهَا أَيْضاً، إِلَّا أَنَّ الْأَوَّلَ جَمْعٌ سَالِمٌ وَالثَّانِي مُكَسَّرٌ.

(وَاسْمُ الْمَفْعُولِ)؛ أَي: وَالْأَكْثَرُ (أَنْ يَجِيءَ عَلَى مَفْعُولٍ، تَقُولُ: مَنصُورٌ،
مَنصُورَانِ، مَنصُورُونَ، مَنصُورَةٌ، مَنصُورَتَانِ، مَنصُورَاتٌ) وَفِي نَسْخَةٍ زِيَادَةً: (وَمَنَاصِرُ)
جَمْعٌ مُكَسَّرٌ لِمَنصُورٍ.

وَأَمَّا قَالَ: (الْأَكْثَرُ فِيهِمَا)؛ لِأَنَّهُمَا قَدْ يَكُونَانِ عَلَى غَيْرِ فَاعِلٍ وَمَفْعُولٍ؛ نَحْوُ:
ضَرَابٍ، وَضُرُوبٍ، وَمَضْرَابٍ، وَعَلِيمٍ، وَحَذِيرٍ، فِي اسْمِ الْفَاعِلِ، وَنَحْوُ: قَتِيلٍ وَحُلُوبٍ
فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ، وَكَذَا الصِّفَةُ الْمُشَبَّهَةُ بِاسْمِ^(٢) فَاعِلٍ عِنْدَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنْعَةِ، وَأَمَّا عِنْدَ
النَّحْوِيِّينَ فَالنُّوعُ الْأَوَّلُ مَشْهُورٌ بِأَمْثَلَةِ الْمُبَالَغَةِ، وَالثَّانِي وَهُوَ الْفَعِيلُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَوْ
الْمَفْعُولِ - كَمَا سَيَأْتِي - خَارِجَانِ عَنِ اسْمَيِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ.
وَأَمَّا الصِّفَةُ الْمُشَبَّهَةُ فَلَا أَمْرَ فِيهَا أَظْهَرَ، فَتَدَبَّرْ.

(١) يعني: لما رأوا ما قبل الياء يفتح في بعض صور الجمع كالمثال المذكور، فتحو النون في
الجمع وكسروه في المشتى، للتمييز بينهما.

(٢) في هامش «ط»: «الباء متعلقة بـ: المشبهة».

(وتقول): رجلٌ (مَمْرُورٌ به)، و: رَجُلَانِ (مَمْرُورٌ بهما)، و: رجالٌ (مَمْرُورٌ بهم)،
و: امرأةٌ (مَمْرُورٌ بها)، و: امرأتانِ (مَمْرُورٌ بهما)، و: نساءٌ (مَمْرُورٌ بهنَّ)؛ أي: لا يُشْتَى
اسمُ فاعِلٍ مِنَ الفعلِ اللَّازِمِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُعَدِّيَهُ؛ إذ ليسَ لَهُ مفعولٌ في أصلِ وضعِهِ.

(فشتي) أنتَ (وتَجَمَعُ) وتُذَكِّرُ (وتُؤَنِّثُ الضَّمِيرَ فيما)؛ أي: في اسمِ المفعولِ
الذي (يَتَعَدَّى) بحرفِ الجرِّ، (لا اسمُ المفعولِ) عَطْفٌ على (الضَّمِيرِ)؛ أي: لا تُغَيِّرُهُ
عن حالِهِ، فلا تقولُ: مَمْرُورانِ بهما، ولا: مَمْرُورونَ بهم، ولا: مَمْرُورةٌ بها، ونحوَ
ذلك؛ لأنَّ القائمَ مقامَ الفاعِلِ لفظاً - أعني: الجارَّ والمجرورَ - مِن حيثُ هو ليسَ
بمؤنَّثٍ لا مُنثَّى ولا مجموع، فلا وجهَ لتأنيثِ العاملِ وتثنيتهِ وجَمْعِهِ.

(وفَعِيلٌ قد يَحْيِيُّ بمعنى الفاعِلِ كالرَّحِيمِ) بمعنى الرَّاحِمِ مع المُبالغةِ،
(وبمعنى المفعولِ كالقتيلِ) بمعنى المقتولِ، وأمثلةُهما في التثنية والجمع والتذكير
والتأنيثِ كأمثلةِ اسمِ الفاعِلِ، إلَّا أَنَّهُ يَسْتَوِي لفظُ المُذَكَّرِ والمؤنَّثِ في الذي بمعنى
المفعولِ إذا ذُكِرَ الموصوفُ، نحو: رَجُلٌ قَتِيلٌ، وامرأةٌ قَتِيلٌ، بخلافِ: مَرَرْتُ بِقَتِيلٍ
فلانٍ وقَتيلتهِ، فإنَّهما لا يَسْتَوِيانِ خوفَ اللَّبسِ.

ثمَّ هذا في الثلاثيِّ، (وأما ما زادَ على الثلاثيةِ ثلاثياً باعتبارِ أصلِهِ أو رُباعياً
(فالضَّابطُ فيه)؛ أي: في بناءِ اسمِ الفاعِلِ والمفعولِ منه: (أَنْ تَضَعَ في مُضارِعِهِ الميمَ
المضمومةَ مَوْضِعَ حرفِ المُضارعةِ، وتَكْسِرَ ما قَبْلَ آخِرِهِ)؛ أي: آخِرَ المُضارِعِ (في)
اسمِ (الفاعلِ، وتَفْتَحَهُ)؛ أي: ما قَبْلَ آخِرِهِ (في) اسمِ (المفعولِ، نحو: مُكْرِمٍ) بضمِّ
الميمِ وكسرِ الرَّاءِ اسمَ فاعِلٍ، (ومُكْرِمٍ) بضمِّ الميمِ وفتحِ الرَّاءِ اسمَ مفعولٍ.

(ومُدْخَرَجٍ ومُدْخَرَجٍ، ومُسْتَخْرَجٍ ومُسْتَخْرَجٍ)؛ أي: بكسرِ ما قَبْلَ آخِرِهِما
في الفاعِلِ وفتحِهِ في المفعولِ.

وكذا قياسُ بَوَاقِي الأمثلةِ إلَّا ما شَذَّ في بعضِ اللُّغةِ؛ نحو: أَسْهَبَ في
الكلامِ؛ أي: أَطْنَبَ، فهو مُسْهَبٌ بفتحِ الهاءِ.

(وقد يَسْتَوِي لفظُ) اسمِ (الفاعلِ والمفعولِ في بعضِ المَوَاضِعِ؛ كَمُحَابِّ وَمُتَحَابِّ) بتشديدِ الباءِ فيهما، (وَمُخْتَارٍ وَمُضْطَرٍّ) وفي نسخةٍ زيادةٌ: (مُنْقَادٍ)، (وَمُعْتَدٍّ) بتشديدِ الدَّالِ، وكذا نحوُهما ممَّا كان الفعلُ متعدياً بِنَفْسِهِ.

(وَمُنْصَبٍّ) في اسمِ الفاعلِ (وَمُنْصَبٍّ فيه) في اسمِ المفعولِ، (وَمُنْجَابٍ؛ أي: مُنْقَطِعٍ وَمُنْكَشِفٍ في اسمِ الفاعلِ (وَمُنْجَابٍ عنه) في اسمِ المفعولِ، ونحوُهما ممَّا كان الفعلُ متعدياً بالحرفِ.

فإنَّ اسمَ الفاعلِ والمفعولِ في هذه الأمثلةِ كُلُّهَا مُسْتَوٍ؛ لِسُكُونِ مَا قَبْلَ الْآخِرِ: بالإدغامِ في بعضٍ، وبالقَلْبِ في بعضٍ، والفرْقُ إِنَّمَا كَانَ بحركتهِ، فلمَّا زالتِ الحركةُ اسْتَوَيَا في التَّقْدِيرِ.

(وَتَخْتَلِفُ)؛ أي: حَالُهَا (في التَّقْدِيرِ) - وفي نسخةٍ: (وَيَخْتَلِفُ التَّقْدِيرُ) - أي: تَقْدِيرُهَا؛ لِأَنَّهُ يُقَدَّرُ كَسْرُ مَا قَبْلَ الْآخِرِ في اسمِ الفاعلِ، وفتحُه في اسمِ المفعولِ، ويُفَرَّقُ في المتعديِّ بالحرفِ بَأَنَّهُ يَلْزَمُ منه ذِكْرُ الْجَارِّ والمَجْرُورِ مع اسمِ المفعولِ بخلافِ اسمِ الفاعلِ.

وقد فَرَعَ المَصْنَفُ مِنْ بَحْثِ السَّالِمِ فَحَانَ أَنْ يَشْرَعَ فِي غَيْرِهِ، وَهُوَ ثَلَاثَةٌ: الْمُضَاعَفُ وَالْمُعْتَلُّ وَالْمَهْمُوزُ، وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي ثَلَاثَةِ فُصُولٍ، وَكَأَنَّهُ أَلْحَقَ الْمُضَاعَفَ بِالسَّالِمِ لِقَلَّةِ تَغْيِيرِهِ، وَأَلْحَقَ الْمَهْمُوزَ بِالْمُعْتَلِّ لِكثَرَةِ تَغْيِيرِهِ فِي تَعْبِيرِهِ، فَقَالَ:

(فصل)

أي: هذا فَضْلٌ ويؤيِّدهُ أنَّ في نسخة: (في المضاعفِ)، وفي نسخة بإضافة الفصلِ إليه، وفي أخرى وهي المعتمَدةُ (المُضاعَفُ) بالرفعِ على أنَّه مبتدأ، ثُمَّ هو اسمُ مفعولٍ مِنْ ضاعَفَ.

(ويُقالُ له: الْأَصَمُّ) لِتَحَقُّقِ الشَّدَّةِ فِيهِ بِوَاسِطَةِ الْإِذْغَامِ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُسَمُّونَ رَجَبًا: شَهْرَ اللَّهِ الْأَصَمِّ، قَالَ الْخَلِيلُ: إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُسْمَعُ فِيهِ صَوْتُ مُسْتَغِيثٍ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحُرِّمِ، وَهِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمِ، وَرَجَبٌ، وَلَا يُسْمَعُ فِيهِ أَيْضًا حَرَكَةُ قِتَالٍ وَلَا قَعْقَعَةُ سِلَاحٍ^(١)؛ أَي: صَوْتُهُمَا.

(وهو)؛ أَي: الْمُضَاعَفُ (مِنِ الثَّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ وَالْمَزِيدِ فِيهِ: مَا كَانَ عَيْنُهُ وَلَاثِمَةً مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ) سَوَاءً كَانَا مِنْ حُرُوفِ الْعِلَّةِ ك: حَيٍّ، أَوْ لَا (ك: رَدٍّ) وَمَدَّ فِي الثَّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ، (وَأَعَدَّ)؛ أَي: الشَّيْءَ: هَيَّأَهُ، وَكَذَا الْأَمْرُ فِي الْمَزِيدِ فِيهِ، (فَإِنَّ أَصْلَهُمَا: رَدَدَ) وَمَدَدَ، أَسْكَنْتِ الْأُولَى وَأُدْغِمَتْ فِي الثَّانِيَةِ، (و: أَعَدَدَ) نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْأُولَى إِلَى مَا قَبْلَهَا فَأُدْغِمَتْ فِي الثَّانِيَةِ.

(وَمِنِ الرَّبَاعِيِّ) مُجَرَّدًا أَوْ مَزِيدًا فِيهِ: (مَا كَانَ فَاوُهُ وَلَاثِمَةً الْأُولَى مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ، وَكَذَلِكَ عَيْنُهُ وَلَاثِمَةً الثَّانِيَةِ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ، وَيُقَالُ لَهُ)؛ أَي: لِلْمُضَاعَفِ الرَّبَاعِيِّ: (الْمُطَابِقُ أَيْضًا) وَهُوَ بَفَتْحِ الْبَاءِ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنَ الْمُطَابَقَةِ بِمَعْنَى الْمُوَافَقَةِ؛ لِأَنَّهُ طُوبِقَ فِيهِ بَيْنَ الْفَاءِ وَاللَّامِ الْأُولَى، وَبَيْنَ الْعَيْنِ وَاللَّامِ الثَّانِيَةِ (نَحْوَ: زَلَزَلَ) الشَّيْءَ؛ أَي: حَرَكَهُ (زَلَزَلَةً) مُصَدَّرٌ قِيَاسِيٌّ، (وَزَلَزَالًا) بِكسْرِ أَوَّلِهِ وَيُفْتَحُ، وَيَتَعَيَّنُ الْكسْرُ فِي السَّالِمِ؛ نَحْوَ: دَخَرَجَاءُ، وَهُوَ مُصَدَّرٌ سَمَاعِيٌّ.

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: رجب).

(وإنَّما أُلْحِقَ الْمُضَاعَفُ بِالْمُعْتَلَّاتِ) حيثُ عُدَّ في غير السَّالِمِ مع أنَّ حروفَهُ حُرُوفُ الصَّحِيحِ؛ (لأنَّ حَرْفَ التَّضْعِيفِ يُلْحَقُهُ الْإِبْدَالُ، كَقَوْلِهِمْ: أَمَلَيْتُ، بِمَعْنَى: أَمَلَلْتُ) يعني أصلُهُ: (أَمَلَلْتُ) فَقَلِبَتِ اللَّامُ الْأَخِيرَةُ يَاءً لِثِقَلِ اجْتِمَاعِ الْمِثْلِينَ مَعَ تَعَدُّرِ الْإِدْغَامِ لِسُكُونِ الثَّانِي.

قال ابنُ عُصْفُورٍ: وَإِنَّمَا جَعَلْنَا اللَّامَ أَصْلًا لِأَنَّ (أَمَلَلْتُ) أَكْثَرُ مِنْ أَمَلَيْتُ^(١).

وذهبَ بعضُ إلى أَنَّهُمَا لُغَتَانِ لِأَنَّ تَصَرُّفَهُمَا وَاحِدٌ، فَلَيْسَ جَعْلُ أَحَدِهِمَا أَصْلًا وَالْآخَرُ قَرَعًا أَوَّلَى مِنَ الْعَكْسِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَصْلِيَّيْنِ فِي الْمَبْنَى مُتَّفَقَيْنِ فِي الْمَعْنَى، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: تَقَضَّى الْبَازِي؛ أَي: نَزَلَ، وَأَصْلُهُ: تَقَضَّضَ، اسْتَقَلُّوا ثَلَاثَ ضَادَاتٍ فَأَبْدَلُوا أُخْرَاهُمَا يَاءً، كَمَا قَالُوا: تَظَنَّى، فِي تَظَنَّنَ، وَكَ: ﴿دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠]؛ أَي: دَسَّسَهَا وَأَخْفَاهَا، وَ: قَصَّيْتُ أَظْفَارِي، فِي: قَصَصْتُ بِمَعْنَى قَطَعْتُ.

(وَالْحَذْفُ)؛ أَي: وَيُلْحَقُهُ أَيْضًا حَذْفُ شَيْءٍ مِنْ حُرُوفِ أَصُولِهِ؛ (كَقَوْلِهِمْ: مَسْتُ وَظَلْتُ) بِسُكُونِ السَّيْنِ وَاللَّامِ، وَقَوْلُهُ: (بِفَتْحِ الْفَاءِ)؛ أَي: فَاءِ الْفَعْلِ وَهُوَ الْمِيمُ وَالظَّاءُ (وَكَسْرُهَا، وَأَحْسْتُ) بِسُكُونِ السَّيْنِ.

(أَي: مَسَيْتُ) بِكُسْرِ السَّيْنِ الْأُولَى، وَهِيَ اللَّغَةُ الْفَصِيحَةُ، وَمُضَارِعُهُ بِفَتْحِهَا، وَحَكَى أَبُو عُبَيْدَةَ: مَسَيْتُ الشَّيْءَ [بِالْفَتْحِ] أَمْسُهُ بِالضَّمِّ^(٢).

(وَوَظَلَلْتُ) بِكُسْرِ اللَّامِ الْأُولَى لَا غَيْرَ.

(وَأَحْسَسْتُ) عَلَى وَزْنِ: أَكْرَمْتُ؛ أَي: أَيْقَنْتُ، وَرَبَّمَا قَالُوا: أَحْسَيْتُ، وَحَسَيْتُ مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا، بِإِبْدَالِ السَّيْنِ يَاءً.

(١) انظر: «اللمع» لابن عصفور (ص ٢٤٧).

(٢) انظر: «الصحيح» (مادة: مسس)، وما بين معكوفتين منه.

أَمَّا فَتَحُهَا^(١) فَلأنَّه حُذِفَتْ عَيْنُ الْفَعْلِ - وهو السَّيْنُ الْأَوَّلَى فِي الْمَثَالِ الْأَوَّلِ
وَاللَّامُ الْأَوَّلَى فِي الثَّانِي - بِحَرَكَتِهَا، فَبَقِيَ فَأْ الْفَعْلِ فِي الْمَثَالَيْنِ مَفْتُوحَةً بِحَالِهَا، وَأَمَّا
كسرها فَلأنَّه نُقِلَتْ حَرَكَةُ عَيْنِ الْفَعْلِ إِلَى مَا قَبْلَهَا بَعْدَ سَلْبِ حَرَكَتِهَا وَحُذِفَتْ الْعَيْنُ.
وَأَمَّا (أَحَسْتُ) فَنُقِلَتْ فَتْحَةُ السَّيْنِ إِلَى الْحَاءِ، فَحُذِفَتْ إِحْدَى السَّيْنَيْنِ.

وفي التنزيل: ﴿فَطَلَّتُمْ تَقْكُهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]؛ أي: صِرْتُمْ تَعَجِبُونَ، و: ﴿ظَلَّتْ
عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]؛ أي: صِرْتَ عَلَيْهِ مُلَازِمًا مُلَاطِفًا.

(وَالْمُضَاعَفُ يَلْحَقُهُ الْإِدْغَامُ) مِنْ بَابِ الْإِفْعَالِ مِنْ عِبَارَاتِ الْكُوفِيِّينَ، وَمِنْ
الْإِفْعَالِ مِنْ عِبَارَاتِ الْبَصْرِيِّينَ، وَكِلَاهُمَا مُتَعَدٌّ، فَنُفِي «الصَّحاح»: أَدْعَمْتُ الْحَرْفَ
وَأَدْعَمْتُهُ، وَيُقَالُ: أَدْعَمْتُ اللَّجَامَ فِي الْفَرَسِ؛ أي: أَدَخَلْتُهُ فِيهِ^(٢).

وفي اصطلاح القراء: إدخال حرفٍ في حرفٍ وَرْفُ اللَّسَانِ بِهِمَا دَفْعَةً وَاحِدَةً،
وهو أنواعٌ: مِنَ الْمُتَمَاثِلِينَ وَالْمُتَقَارِبِينَ وَالْمُتَجَانِسِينَ، فِي كَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَتَيْنِ، كَمَا هُوَ
مُبَيَّنٌ فِي مَحَلِّهِ الْأَلْيَقِ بِهِ.

وَأَمَّا فِي اصطلاح الصَّرْفِيِّ: (فَهُوَ أَنْ تُسَكَّنَ الْحَرْفَ الْأَوَّلَ) مِنَ الْمُتَمَاثِلِينَ
مَخْرَجاً وَصِفَةً (وَتُدْرَجُ)؛ أي: تُدْخَلُ (فِي الثَّانِي) مِنَ الْحَرْفَيْنِ بِحَيْثُ يَصِيرَانِ كَأَنَّهُمَا
حَرْفٌ وَاحِدٌ مُشَدَّدٌ، وَلِذَا يُكْتَبُ بِوَاحِدٍ؛ نَحْوَ: مَدَّ، فَإِنَّ أَصْلَهُ: مَدَدَ، أَسَكَّنْتَ الدَّالَّ
الْأَوَّلَى وَأَدْرَجْتَهَا فِي الثَّانِيَةِ.

(وَيُسَمَّى الْأَوَّلُ) مِنَ الْحَرْفَيْنِ إِذَا أَدْعَمْتَهُ: (مُدْغَمًا) بِصِغَةِ الْمَفْعُولِ لِإِدْغَامِكَ
إِيَّاهُ، (وَالثَّانِي: مُدْغَمًا فِيهِ) لِإِدْغَامِكَ الْأَوَّلَ فِيهِ.

وَالْإِدْغَامُ نَوْعٌ مِنَ التَّخْفِيفِ، وَهُوَ وَاجِبٌ وَجَائِزٌ وَمُمْتَنِعٌ؛ كَمَا بَيَّنَّهُ الْمُصَنِّفُ:

(١) أي: فتح الميم والظاء من «مست» و«ظلت».

(٢) انظر: «الصَّحاح» (مادة: دغم).

(وذلك واجب)؛ أي: في الماضي والمضارع من الثلاثي المجرد مطلقاً، ومن المزيد فيه من الأبواب التي يذكرها، لكنه ما لم يتصل بهما الضمائر البارزة المرفوعة، فإن اتصلت ففيه تفصيل يذكر.

فعبّر عما ذكرنا بقوله: (في نحو: مَدَّ يَمُدُّ، وَأَعَدَّ يُعِدُّ، وَأَنْقَدَّ يَنْقُدُّ، وَاعْتَدَّ يَعْتَدُّ). وقد يطرّد الإدغام فيما يشابه المضاعف من الكلام، (و) منه: (اسْوَدَّ يَسْوَدُّ) من باب الأفعال، (واسودَّ يسودُّ) من باب الأفعيّل، وليس من المضاعف لأن أصلهما السواد.

(واستعدَّ يستعدُّ) مضاعف مصدرهما الاستعداد.

(واطمأنَّ)؛ أي: سَكَنَ (يَطْمَئِنُّ) اطمأننا وطمأنينة، وليس من المضاعف؛ لأن عينه الميم ولاؤه النون، وهو من باب الأفعيّل كالاقشعرار.

(وتمادَّ يتمادُّ) مضاعف من التفاعل، وكذا إذا لحق هذه الأفعال تاء التانيث في بعض الأحوال، فتقول: مَدَّتْ وَأَعَدَّتْ.

(وكذا هذه الأفعال) التي أذغمت وجوباً حال كونها مبنية للفاعل يجب إدغامها (إذا بُنِيَتْ للمفعول) ماضياً كان أو مضارعاً (نحو: مَدَّ يَمُدُّ، وكذا نظائره) من المزيد ك: أَعَدَّ يُعِدُّ، وتمود يتماد^(١).

(وفي نحو مَدَّ) أعني (مصدراً) يجب إدغامه أيضاً، واختَرَزَ بقوله: (مصدراً) عما إذا كان اسماً نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِثَلَاثَةِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وعما قد يُتَوَهَّمُ أنه ماضٍ لتقدمه، أو أمر لتأخره.

(وكذلك) الإدغام واجب (إذا اتصل بالفعل) المضاعف حقيقة أو صورة (ألف الضمير أو واؤه أو ياءه) سواء كان ماضياً أو مضارعاً أو أمراً، مجرداً أو مزيداً فيه، معلوماً أو مجهولاً.

(١) قوله: «تمود يتماد» كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب بالنظر لما تقدم: «اعتدَّ يعتدُّ»

فَالْأَلِفُ (في نحو: مَدًّا) بفتح الميم مبنياً للفاعل، أو ضمّه مبنياً للمفعول، كلاهما من الماضي، والأخير أيضاً من الأمر.

والواو في نحو: (مَدُّوا) بالوجهين للثلاثة.

والياء في نحو: (مُدِّي) وهو بضم الميم لأمر المؤنث.

(وَمُمتنع)؛ أي: الإدغام (في نحو: مَدَدْتُ، وَمَدَدْنَا، وَمَدَدْتَ.. إلى: مَدَدْتُنَّ)

يعني: مَدَدْتُ، مَدَدْنَا، مَدَدْتُمْ، مَدَدْتَ مَدَدْتُمَا مَدَدْتُنَّ (وَمَدَدَنَ وَيَمْدُدْنَ) للغائبات (وَتَمْدُدْنَ وَامْدُدْنَ وَلَا تَمْدُدْنَ) الثلاثة للمخاطبات.

(وجائز)؛ أي: الإدغام (إذا دخل الجازم) أي جازم كان (على الفعل الواحد)،

فَيَجُوزُ عَدَمُ الإدغام وهو لغة الحجازيين، والإدغام وهو لغة بني تميم، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] ^(١).

وإنما قيد الفعل بالواحد لأن الإدغام واجب في فعل الاثنين وفعل جماعة

الذكور وفعل الواحدة المخاطبة كما مرّ، ومُمتنع في فعل جماعة النساء كما سبق، وكان المصنّف اكتفى بما تقدّم.

والحاصل: أن الإدغام الجائز إنما هو في فعل الواحد، غائباً كان أو مخاطباً أو

متكلماً ولو مع الغير، وكذا في الواحدة المخاطبة لأنها في صورة المخاطب.

ثم هذا المضارع المجزوم لا يخلو من أن يكون مكسور العين أو مفتوحه أو

مضمومه، (فإن كان مكسور العين ك: يَفِرُّ، أو مفتوحه ك: يَعْضُّ، فنقول: لَمْ يَفِرَّ، و:

لَمْ يَعْضَّ، بفتح اللام لكونه أخفّ (وكسرها) لأن الساكن إذا حُرِّك حُرِّك بالكسر (و:

لَمْ يَفِرَّ، و: لَمْ يَعْضَّ، بفك الإدغام).

(١) قرأ: ﴿يَرْتَدُّ﴾ بفك الإدغام نافع وابن عامر، والباقون: ﴿يَرْتَدَّ﴾ بالإدغام. انظر: «التيسير في

القراءات السبع» للداني (ص ٩٩).

(وهكذا)؛ أي: بالأَوْجُه الثلاثة (حُكْمُ يَقْشَعِرُّ وَيَخْمَرُ وَيَخْمَارُ) لَأَتْهَا فِي حُكْمِ
 المضاعف الحقيقي، فنقول: لَمْ يَقْشَعِرَّ، وَلَمْ يَخْمَرَّ، وَلَمْ يَخْمَارَ، بكسر اللام وفتحها،
 وَلَمْ يَقْشَعِرْزَ وَلَمْ يَخْمَرْزَ وَلَمْ يَخْمَارِزَ، بفك الإدغام وكسر ما قَبْلَ الآخر.
 (وإن كَانَ الْعَيْنُ مِنَ الْمُضَارِعِ الْمَجْزُومِ مَضمُومًا فيجوزُ الحركاتُ الثلاثُ):
 الضَّمُّ والفتحُ والكسرُ (مع الإدغامِ وفكِّه)؛ أي: ويجوزُ فكُ الإدغامِ أيضاً، (فتقولُ: لَمْ
 يَمُدَّ، بحركاتِ الدَّالِ) الفتحِ والكسرِ كما تَقَدَّمَ مِنَ الوجْهينِ، والضَّمُّ لإنباعِ العينِ (و):
 لَمْ يَمُدُّ (بالفكِّ).

(وهكذا حُكْمُ الأَمْرِ)؛ أي: أَمْرُ الْمُخَاطَبِ، فَإِنَّ أَمْرَ الغَائِبِ عُلِمَ حُكْمُهُ مِنَ
 المجزومِ، والمعنى أَنَّهُ يجوزُ في الأَمْرِ إِذَا كَانَ فِعْلٌ الْوَاحِدِ مَا يجوزُ في الفِعْلِ الْمُضَارِعِ،
 فَإِنْ كَانَ مَكْسُورَ الْعَيْنِ أَوْ مَفْتُوحَهُ (فتقولُ: فَرَّ وَعَضَّ بكسرِ اللامِ وفتحها، وأَفَرَّزَ
 وأَعَضَّضَ) بفكُ الإدغامِ فيهما، (و) إِنْ كَانَ مَضمُومَ الْعَيْنِ فتقولُ: (مُدَّ، بحَرَكَاتِ الدَّالِ،
 و: اَمُدُّ، بالفكِّ) وَقَدْ رُوِيَ الحركاتُ الثلاثُ في قولِ جَرِيرٍ:

دُمَ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنَزَلَةِ اللَّوَى والعيشَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْيَامِ^(١)
 وَأَمَّا إِذَا اتَّصَلَ بِالْمَجْزُومِ حَالُ الإِدْغَامِ هَاءُ الضَّمِيرِ لَزِمَ وَجْهٌ وَاحِدٌ؛ نَحْوُ: رُدَّهَا
 وَرُدَّةً بِالضَّمِّ، وَقِيلَ: بِالْكَسْرِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

(ونقولُ في اسمِ الفاعِلِ: مَادٌّ) بالإدغامِ وجوباً (مَادَّانٍ، مَادُّونَ، مَادَّةٌ،
 مَادَّتَانِ، مَادَّاتٌ) في جمعِ المؤنَّثِ السَّالِمِ (ومَوَادٍ) فِي الْمُكْسَرِ، وَفِي اسمِ
 (المفعولِ: مَمْدُودٌ) بالفكِّ وجوباً (كمَنْصُورٍ).

(١) انظر: «ديوان جرير» (٢/ ٩٩٠)، و«المقتضب» (١/ ١٨٥)، و«المفصل» (ص ١٨٠)، ورواية
 الديوان: «الأقوام»، مكان: «الأيام».

(فصل)

(المُعْتَلُّ) اسمُ فاعِلٍ مِنْ اعْتَلَّ: إِذَا مَرِضَ وَتَغَيَّرَ مِزَاجُهُ، وَالْمَرَادُ هُنَا بِالْاعْتِلَالِ: مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّغْيِيرِ الْمُسَمَّى بِالْإِعْلَالِ، وَهُوَ فِي الْأَصْطِلَاحِ: (مَا كَانَ أَحَدُ أَصُولِهِ)؛ أَي: أَحَدُ حُرُوفِهِ الْأَصْلِيَّةِ (حَرْفَ عِلَّةٍ، وَهِيَ)؛ أَي: حُرُوفُ الْعِلَّةِ: (الْوَاوُ وَالْأَلِفُ وَالْيَاءُ) يَجْمَعُهَا: وَي، الصَّادِرُ مِنَ الْعَلِيلِ. (وُسَمِّيَتْ) حُرُوفُ الْعِلَّةِ: (حُرُوفَ الْمَدِّ وَاللَّيْنِ).

وَأَعْلَمَ أَنَّ حُرُوفَ الْعِلَّةِ إِنْ كَانَتْ مُتَحَرِّكَةً لَا تُسَمَّى حُرُوفَ الْمَدِّ وَلَا اللَّيْنِ، وَإِنْ كَانَتْ سَاكِنَةً:

فَإِنْ كَانَ حَرَكَةُ مَا قَبْلَهَا مِنْ جِنْسِهَا، بَأَنْ يَكُونَ مَا قَبْلَ الْوَاوِ ضَمَّةً، وَمَا قَبْلَ الْيَاءِ كَسْرَةً، وَالْأَلِفُ لَا يَكُونُ مَا قَبْلَهَا إِلَّا فَتْحَةً، تُسَمَّى حُرُوفَ الْمَدِّ وَاللَّيْنِ أَيْضًا. وَإِنْ كَانَ حَرَكَةُ مَا قَبْلَهَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهَا فَيُسَمَّى لَيْنًا لَا مَدًّا، فَحُرُوفُ الْعِلَّةِ أَعْمُ مِنْهُمَا، وَحُرُوفُ اللَّيْنِ أَعْمُ مِنْ حُرُوفِ الْمَدِّ.

وَهَذَا فِي الْوَاوِ وَالْيَاءِ، وَأَمَّا الْأَلِفُ فَيَكُونُ حَرْفَ مَدٍّ أَبَدًا. (وَالْأَلِفُ حَيْثُذِي)؛ أَي: حِينَ إِذْ كَانَ أَحَدَ حُرُوفِ الْأَصُولِ مِنَ الْمَعْتَلِّ (تَكُونُ مُنْقَلِبَةً عَنْ وَاوٍ أَوْ يَاءٍ)؛ نَحْو: قَالَ وَبَاعَ، بِخِلَافِ: قَاتَلَ وَتَبَاعَدَ، مِمَّا لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ الْأَصْلِيَّةِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مُنْقَلِبَةً بَلْ هِيَ زَائِدَةٌ. (وَأَنْوَاعُهُ سَبْعَةٌ) كَمَا تَأْتِي مَفْصَلَةً:

(الْأَوَّلُ: الْمُعْتَلُّ الْفَاءِ) بِإِضَافَةِ (الْمُعْتَلُّ) إِلَى (الْفَاءِ) إِضَافَةً لَفْظِيَّةً؛ أَي: الَّذِي اعْتَلَّ فَاءُهُ فَقَطْ، (وَيَقَالُ لَهُ: الْمِثَالُ؛ لِمُمَاثَلَتِهِ)؛ أَي: لِمُشَابَهَتِهِ (الصَّحِيحُ فِي اخْتِمَالِ

الحركاتِ) الثلاثِ؛ نحو: وَعَدَ وَيَسَّرَ، كما تقول: ضَرَبَ وَنَصَرَ، بخلافِ الأجوفِ والنَّاقِصِ ك: قال، وباع، ودَعَا، وَسَعَى.

ثُمَّ الْفَاءُ إِمَّا وَاوٌ وَإِمَّا يَاءٌ؛ كَمَا فَصَّلَ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: (أَمَّا الْوَاوُ فَيُحْذَفُ مِنَ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الَّذِي) يَكُونُ (عَلَى) وَزَيْنِ (يَفْعُلُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ) وَهُوَ أَعْمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْوَاوُ بَيْنَ الْيَاءِ وَالْكَسْرِ، أَوْ التَّاءِ وَالثَّوْنِ وَالْهَمْزَةِ، (و) يُحْذَفُ أَيْضاً (مِنْ مَصْدَرِهِ)؛ أَي: مَصْدَرِ الْمُعْتَلِّ الْفَاءِ (الَّذِي) يَكُونُ (عَلَى) زَيْنَةً (فِعْلَةً) بِكَسْرِ الْفَاءِ، (وَتَسْلَمُ) الْوَاوُ (فِي سَائِرِ تَصَارِيفِهِ)؛ أَي: بَاقِي تَصَارِيفِ الْمُعْتَلِّ الْفَاءِ؛ مِنْ الْمَاضِي وَاسْمِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ.

(تَقُولُ: وَعَدَ) بِسَلَامَةِ الْوَاوِ (يَعُدُّ) بِحَذْفِهَا (عِدَّةً) بِحَذْفِهَا؛ لِأَنَّ أَصْلَهَا^(١): وَعِدَّةٌ، فَتَقِلْتُ كَسْرَةَ الْوَاوِ إِلَى الْعَيْنِ لِثِقَلِهَا عَلَيْهِ وَحُذِفَتْ الْوَاوُ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «الْعِدَّةُ دَيْنٌ»^(٢)؛ أَي: الْوَعْدُ بِمَنْزِلَةِ الدَّيْنِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَرَمِ وَالدِّينِ. وَأَمَّا (الْوِجْهَةُ) فَلَيْسَ بِمَصْدَرٍ، بَلْ هُوَ اسْمُ الْمَصْدَرِ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الْجَارِي عَلَى غَيْرِ فِعْلِهِ.

(وَوَعِدًا) بِسَلَامَةِ الْوَاوِ، وَكَذَا الْوِصَالُ وَنَحْوُهُ، (فَهُوَ وَاعِدٌ) فِي اسْمِ الْفَاعِلِ، (وَذَلِكَ مَوْعُودٌ) فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ، بِسَلَامَةِ الْوَاوِ فِيهِمَا، (عِدٌ) أَمْرُ الْمُخَاطَبِ بِحَذْفِ الْوَاوِ، (وَلَا تَعِدْ) نَهْيُ الْمُخَاطَبِ، وَكَذَا: لَمْ يَعِدْ، وَلَا يَعِدْ، وَلَنْ يَعِدْ.

(١) فِي «ط» وَ«و»: «أَصْلُهُمَا»، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُت.

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٣٥١٤)، وَ«الصَّغِيرِ» (٤١٩)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ» (١/ ١٩٥): الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ «الْأَوْسَطِ» وَ«الْأَصْغَرِ» مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي مَسْعُودٍ بِسَنَدٍ فِيهِ جِهَالَةٌ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمُرَاسِيلِ». قُلْتُ: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمُرَاسِيلِ» (٥٢٢) عَنْ الْحَسَنِ: أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَتْهُ فَلَمْ يَتَوَافَقْ عِنْدَهُ شَيْئاً، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَذَنِي، قَالَ: «الْعِدَّةُ عَطِيَّةٌ».

(وكذلك)؛ أي: بسلامة الواو في الماضي وحذفها في المضارع والمصدر في نحو (وَمَقَّ) بكسر الميم؛ أي: أَحَبَّ (يَمُقُّ مَقَّةً).

وإذا كان الحذف بسبب الكسرة، (فإذا أزيلت كسرة ما بعدها)؛ أي: ما بعد الواو (أُعِيدَت الواو) المحذوفة لزوال علة الحذف؛ (نحو: لَمْ يُوعَدْ) في المبني للمفعول، ولو مثل ب: (يُوعَدْ) لكان أَخْصَرَ وَأَظْهَرَ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

وأما قول الشاعر:

عَجِبْتُ لمولودٍ وليس له أبٌ وذو لَمْ يَلِدْهُ أَبَوَانِ^(١)
بسكون اللام وفتح الدال فشاذاً.

(وَتَثَبُّتُ) الواو (في يَفْعَلُ بالفتح) لَعَدَمِ ما يَقْتَضِي حَذْفُهَا؛ إذ الفتح خفيفة، (ك: وَجَلَّ) بالكسر؛ أي: خافَ (يُوجَلُّ) بالفتح (إِيجَلُّ) أمرٌ مِنْ يَوْجَلُّ، والأصل: إَوْجَلَّ (قَلِبَتِ الواو ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها) وهذا قياسٌ مطرَّدٌ.

(فإن انْضَمَّ ما قَبْلَهَا)؛ أي: ما قَبْلَ الياء المنقلبة عن الواو في نحو: إِيْجَلَّ (عادت الواو) لزوال علة القلب، وهي كسرة ما قَبْلَ الواو (تقول: يا زَيْدُ إِيْجَلُّ، تُلْفِظُ بالواو) لزوال الكسرة بسقوط الهمزة في الدَّرَج (وَتُكْتَبُ بالياء)؛ لأنَّ الأصلَ في كلِّ كلمةٍ أنْ تُكْتَبَ بصورة لَفْظِهَا، على تقدير الابتداء بها في الأوَّل والوقوف عليها في الآخر، والابتداء بالياء [في]^(٢) نحو: إِيْجَلُّ، فيُكْتَبُ بالياء.

(١) البيت لرجل من أزد السراة كما في «الكتاب» (٢/ ٢٦٦) و(٤/ ١١٥)، و«خزانة الأدب»

(٢/ ٣٣٦)، ورواية «الكتاب» في الموضع الأول: «ألا رب مولود...». قال البغدادى:

الروايتان صحيحتان ثابتتان.

(٢) زيادة يقتضيها السياق. ووقع في «ط»: «والابتداء فيه بالياء».

(وَيَثْبُتُ الْوَاوُ فِي يَفْعُلُ بِالضَّمِّ) أَيْضاً؛ لانتفاء مُوجِبِ الحذفِ (كـ: وَجْهٌ) بضمِّ الجيم؛ أي: صارَ وجهاً ونيهاً (يُوجْهُهُ، أُوجْهُهُ، لَا تَوْجْهَهُ).

ثُمَّ اسْتَشْعَرَ الْمُصَنِّفُ اعْتِرَاضاً عَلَى قَوْلِهِ: (وَيَثْبُتُ فِي يَفْعُلُ بِالْفَتْحِ) لِأَنَّهُ مَنْقُوصٌ بِيَعُضِ الْأَمْثَلَةِ؛ إِذْ حُذِفَ ^(١) مِنْهَا حَرْفُ الْعَلَّةِ مَعَ عَدَمِ وَجُودِ الْكَسْرِ، فَأَجَابَ بِقَوْلِهِ: (وَحُذِفَتِ الْوَاوُ مِنْ: يَطَأُ وَيَسَعُ وَيَضَعُ وَيَدْعُ)؛ أَيْ: يَتْرُكُ (لَأَنَّهَا فِي الْأَصْلِ: يَفْعُلُ بِالْكَسْرِ، فَفُتِحَتْ)؛ أَيْ: الْعَيْنُ بَعْدَ حَذْفِ الْوَاوِ (لِحَرْفِ الْحَلْقِ) لثَلَاثًا يَجْتَمِعُ ثَقِيلَانِ.

(و) حُذِفَتْ أَيْضاً (مِنْ يَذُرُ) مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مَكْسُورَ الْعَيْنِ وَلَيْسَ فَتَحْتُهُ لِأَجْلِ حَرْفِ الْحَلْقِ (لِكَوْنِهِ فِي مَعْنَى: يَدْعُ) فَلَمَّا حُذِفَتْ فِي (يَدْعُ) حُذِفَتْ فِي (يَذُرُ)؛ لِأَنَّ الْمُشَاكَلَةَ فِي الْمَبْنَى تَسْتَدْعِي الْمُقَابَلَةَ فِي الْمَعْنَى.

(وَأَمَّا تَوْأَمَا مَاضِي: يَدْعُ وَيَذُرُ)؛ أَيْ: أَقَلَّ الْعَرَبُ اسْتِعْمَالَ مَاضِيهِمَا؛ إِذْ قُرِئَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] بِتَخْفِيفِ الدَّالِ ^(٢)، وَهِيَ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَرَأَ بِهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُهُ هِشَامٌ، وَأَبُو حَيَّوَةَ، وَابْنُ أَبِي عُبَيْلَةَ ^(٣).

وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْحَبِّ حَتَّى وَدَّعَهُ ^(٤)

(١) فِي «ط»: «حُذِفَتْ».

(٢) جَاءَ فِي هَامِشِ «و»: «قَوْلُهُ: أَيْ: أَقَلَّ الْعَرَبُ، يَعْنِي أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْإِمَاتَةِ هُنَا النَّدْرَةُ وَالْقَلَّةُ، وَيُؤَيِّدُهُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ الشَّاذَّةُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَرِدُ السُّؤَالُ عَلَى قَوْلِ الصَّرْفِيِّينَ: وَأَمَّا تَوْأَمَا مَاضِي يَدْعُ، فَتَأْمَلْ. عَرِيَانِي».

(٣) انْظُرْ: «الْمَخْتَصَرُ فِي شَوَازِ الْقُرْآنِ» (ص ١٧٥)، وَ«الْمَحْتَسِبُ» لِابْنِ جَنِّي (٢/ ٣٦٤)، وَ«رُوحُ الْمَعَانِي» (٢٩/ ١٠٣).

(٤) انْظُرْ: «الْخَصَائِصُ» لِابْنِ جَنِّي (١/ ٩٩)، وَ«مَقَائِيسُ اللُّغَةِ» لِابْنِ فَارَسٍ (٦/ ٩٦)، وَ«رُوحُ الْمَعَانِي» لِلْأَلُوسِيِّ (٢٩/ ١٠٣).

أي: ما الذي عارضه.

وفي «القاموس»: وَدَعَهُ - كَوَضَعَهُ - وَدَعَهُ بِمَعْنَى ^(١).

وفي «الصحاح»: دَعَّ؛ أي: اترك، وأصله: وَدَعَ يَدَعُ، وقد أُمِيتَ ماضيه، لا يُقال: وَدَعَهُ، وإنما يُقال: تَرَكَهُ ^(٢)، وَوَذَرَهُ يَذَرُهُ مِثْلَ وَسِعَهُ يَسَعُهُ، وقد أُمِيتَ مصدره ^(٣).

زاد في «القاموس»: وَذَرْتُهُ شاذٌّ ^(٤)، انتهى.

وقد جاء مصدرُ وَدَعَ في الحديث، ففي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» و«مسلم» و«النسائي» و«ابن ماجه» عن ابن عباس رضي الله عنه وابن عمر موقوفاً: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجَمَاعَاتِ أَوْ لَيَخْتَمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ» ^(٥)؛ أي: الكاملين في الغفلة، وهم الكافرون؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لَئِيفًا عَلَيْهِمْ لَأَيُّهُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثُمَّ لَمَّا كَانَ هُنَا مَطْنَةُ سَوَالٍ، وَهُوَ: إِذَا لَمْ يَكُنْ مَاضِيَهُمَا مُسْتَعْمَلًا فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ فَاءَهُمَا وَاوٌّ؟

أَجَابَ بِقَوْلِهِ: (وَحَذَفُ الْفَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ)؛ أي: الْفَاءُ (وَإِوِيٌّ) إِذْ لَوْ كَانَ يَاءٌ لَمَّا حُذِفَ؛ لِقَوْلِهِ: (وَأَمَّا الْيَاءُ فَتَثَبَّتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ) سَوَاءٌ يَكُونُ مَاضِيًّا أَوْ مُضَارِعًا أَوْ مُصَدَّرًا أَوْ أَمْرًا، أَوْ سَوَاءٌ ضُمَّ مَا بَعْدَهُ أَوْ فُتِحَ أَوْ كُسِرَ؛ لِأَنَّهَا أَخَفُّ مِنَ الْوَائِ، (نَحْوُ:

(١) انظر: «القاموس» (مادة: ودع).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: ودع).

(٣) المصدر السابق (مادة: وذر).

(٤) انظر: «القاموس» (مادة: وذر).

(٥) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١/ ٢٣٩)، وَمُسْلِمٌ (٨٦٥)، وَالنَّسَائِيُّ (١٣٧٠)، وَابْنُ

مَاجَهٍ (٧٩٤)، جَمِيعُهُمْ رَوَوْهُ مَرْفُوعًا لَا مَوْقُوفًا كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ، لَكِنَّهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ

ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.

يَمْنَنَ يَمْنُنُ) بضم الميم فيهما، من اليَمْن وهو البركة، يقال: يَمْنَنَ الرَّجُلُ: إذا صار ذا يَمْنٍ، (وَيَسَّرَ يَسِّرُ) كضَرَبَ يَضْرِبُ، من السَّيْرِ وهو القِمَارُ، وجاء: يَسَّرَ يَسِّرُ بالضم فيهما، (وَيَسَّسَ يَسِّسُ) كعَلِمَ يَعْلَمُ، من اليَاسِ وهو القنوطُ.

(وتقول في أَفْعَلَ من اليائي)؛ أي: ممَّا فاؤه ياءٌ: (أَيَسَّرَ يُوَسِّرُ فهو مُوَسِّرٌ، بقلب الياءِ) من المُضَارِعِ واسم الفاعِلِ (واوًا)؛ إذ الأصلُ: يُيسِّرُ، و: مُيسِّرٌ؛ لأنَّه يائيٌّ، وإنَّما قَلَبَتِ الياءُ (لِسكونِها وانضمامِ ما قبلها) وذلك قياسٌ مطرَّدٌ وفي مثْلِها رفعاً.

(و) تقول (في أَفْتَعَلَ مِنْهُمَا)؛ أي: من الواوِ والياءِ: (اتَّعَدَ)؛ أي: قَبْلَ الْوَعْدِ، أصلُه: اؤْتَعَدَ، قَلَبَتِ الواوُ تاءً وأدْغَمَتْ في الأخرى (يَتَّعِدُ) أصلُه: يَوْتَعِدُ (فهو مُتَّعِدٌ) أصلُه: مُوْتَعِدٌ، (وَاتَّسَّرَ يَتَّسِرُ فهو مُتَّسِرٌ) والأصلُ: ائْتَسَّرَ يَتَّسِرُ فهو مُئْتَسِرٌ، قَلَبَتِ الياءُ تاءً وأدْغَمَتْ.

(ويقال: ائْتَعَدَ) بقلب الواوِ ياءً (يَاتَعَدُ) بقلب الواوِ أَلِفاً (فهو مُوْتَعِدٌ) على الأصلِ، (وَيَتَّسَّرُ) على الأصلِ (يَاتَّسِرُ) بقلبِ الياءِ أَلِفاً (فهو مُوْتَسِرٌ) بقلبِ الياءِ واوًا (و: هذا مكانٌ مُوْتَسِرٌ فيه) في اسمِ المفعولِ؛ أي: يُلْعَبُ فِيهِ الْقِمَارُ، وعَبَّرَ بهذه العبارة لأنَّ الاتِّسارَ لازمٌ، فيَجِبُ تَعْدِيَّتُهُ بحرفِ الجرِّ لِيَنْبَنِيَ مِنْهُ اسمُ المفعولِ، فعَدَّاه ب (في).

(وَحُكْمٌ وَدَّ يَوُدُّ) بفتح الواوِ فيهما (كحُكِمَ عَضٌّ يَعَضُّ) في وجوبِ الإدْغَامِ وامتناعِهِ وجَوَازِهِ، (وتقول في الأمرِ: ائْدُدْ) بفتح الدَّالِ الأولى (ك: اِعْضَضْ) والأصلُ: اؤْدُدْ، قَلَبَتِ الواوُ ياءً لسكونِها وانكسارِ ما قبلها، ويجوزُ: (وَدَّ) بالفتح والكسرِ أيضاً؛ ك: عَضَّ، وإنما ذَكَرَ (اِئْدُدْ) لِمَا فِيهِ مِنَ الإِعْلَالِ الْمُوجِبِ لِلإِشْكَالِ.

(الثَّانِي) من الأنواع السَّبعة: (المُعْتَلُّ العَيْنِ) وهو ما يكونُ عَيْنُهُ حرفَ عِلَّةٍ (ويُقالُ له: الأَجُوفُ) لخلوِّ ما هو كالجَوْفِ لَهُ مِنَ الصَّحَّةِ، (و) يُقالُ له: (ذو الثَّلَاثَةِ) أيضاً؛ لكونِ ماضِيهِ على ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ إذا أَخْبَرْتَ) أَنْتَ (عن نَفْسِكَ) نحو: قُلْتُ

وَبِعْتُ، فَإِنَّ الْفَاعِلَ كَالْجُزْءِ مِنَ الْفِعْلِ، وَإِلَّا فَالْفِعْلُ فِي الْحَقِيقَةِ هُنَا عَلَى حَرْفَيْنِ،
فَالْمَجْمُوعُ فِي الْحَقِيقَةِ جُمْلَةٌ.

(فَالْمُجَرَّدُ) الثَّلَاثِي (تُقَلَّبُ عَيْنُهُ) وَجُوباً (فِي الْمَاضِي) الْمَبْنِي لِلْفَاعِلِ (أَلِفاً
سَوَاءً كَانَ عَيْنُهُ وَآواً أَوْ يَاءً؛ لِتَحَرُّكِهِمَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهُمَا، نَحْوُ: صَانَ وَبَاعَ) وَأَصْلُهُمَا
صَوْنٌ وَبَيْعٌ.

وَأَمَّا (لَيْسَ) فَلَيْسَ عَلَى الْقِيَاسِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُتَصَرِّفَةِ الَّتِي يَجِيءُ لَهَا
الْمَاضِي مَجْهُولاً وَالْمُضَارِعُ مُطْلَقاً، وَغَيْرُهُمَا كَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَنَحْوِهِمَا، إِذْ لَمْ يَجِئْ
مِنْهُ إِلَّا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ بَنَاءً لِلْمَاضِي مَعْلُوماً.

(فَإِنْ اتَّصَلَ بِهِ)؛ أَي: بِالْمَاضِي الْمَجَرَّدِ وَالْمَبْنِي لِلْفَاعِلِ (ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ)
مُطْلَقاً (أَوْ) ضَمِيرُ (الْمُخَاطَبِ) مُطْلَقاً (أَوْ) ضَمِيرُ (جَمْعِ الْمُؤَنَّثِ الْغَائِثَةِ، نُقِلَ فَعْلٌ)
مَفْتُوحُ الْعَيْنِ (مِنَ الْوَائِي إِلَى فَعْلٍ) مَضْمُومُ الْعَيْنِ، (و) نُقِلَ فَعْلٌ مَفْتُوحُ الْعَيْنِ (مِنَ
الْيَائِي إِلَى فَعْلٍ) مَكْسُورُ الْعَيْنِ؛ (دَلَالَةٌ عَلَيْهِمَا)؛ أَي: لِيَذَلَّ الضَّمُّ عَلَى الْوَائِ وَالْكَسْرِ
عَلَى الْيَاءِ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يُحَذَفَانِ كَمَا سَيُعْلَمُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ.

(وَلَا يُغَيَّرُ فَعْلٌ) بِضَمِّ الْعَيْنِ (وَلَا فَعْلٌ) بِكسْرِ الْعَيْنِ (إِذَا كَانَا أَصْلِيَّيْنِ) يَعْنِي
نَحْوُ: طَوَّلَ بِضَمِّ الْعَيْنِ، وَهَبَبَ أَوْ خَوَّفَ بِكسْرِ الْعَيْنِ، لَمْ يُنْقَلْ إِلَى بَابٍ آخَرَ؛ لِأَنَّكَ
تَنْقُلُ مَفْتُوحَ الْعَيْنِ إِلَيْهِمَا، فَيَلْزُمُكَ إِبْقَاؤُهُمَا بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْوَائِ وَالْيَاءِ.
وَالْتَقْيُذُ بكونِهِمَا أَصْلِيَّيْنِ لَيْسَ لِلْإِحْتِرَازِ لَكِنَّهُ لَمَّا ذَكَرْنَا أَنَّ فَعْلَ الْأَصْلِيِّ يُغَيَّرُ،
نَبَّهْنَا أَنَّ فَعْلَ وَفَعِلَ الْأَصْلِيَّيْنِ لَا يُغَيَّرَانِ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ آخَرَ، فَتَدَبَّرْ.

وَلَمْ يَرِدْ أَنَّهُمَا لَمْ يُغَيَّرَا عَنْ حَالِهِمَا أَصْلًا؛ إِذْ هُوَ مَمْنُوعٌ؛ لِأَنَّهُ يَنْقُلُ الضَّمَّةَ
وَالْكَسْرَةَ وَيَحْذِفُ الْعَيْنَ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (وَنَقَلْتُ الضَّمَّةَ) مِنَ الْوَائِ (وَالْكَسْرَةَ)
مِنَ الْيَاءِ (إِلَى الْفَاءِ، وَحَذَفْتُ الْعَيْنَ)؛ أَي: الْوَائِ وَالْيَاءِ (لِالْتِقَاءِ السَّاكِتَيْنِ).

(فتقول: صَانَ صَانًا صَانُوا صَانَتْ صَانَتَا صُنَّ) والأصل: صُونٌ، نُقِلَ فَعَلَ
الواوِيَّ إلى فَعَلَ مضموم العين لاتِّصَالِ ضميرِ جمعِ المؤنَّثِ، ونُقِلَتْ ضَمَّةُ الواوِ إلى
ما قَبْلَهُ بعدَ إسكانِهِ تخفيفاً، وحُذِفَتِ الواوُ لالتقاءِ السَّاكِنَيْنِ فصارَ: (صُنَّ)، وكذلك
بعينه إعلالُ بَقِيَّتِهِ، وهو قوله: (صُنْتَ صُنْتُمَا صُنْتُمْ، صُنْتَ صُنْتُمَا صُنْتَنَّ، صُنْتُ صُنَّا).
(وتقول) في اليائي: (بَاعَ باعًا باعُوا، باَعَتْ باعَتَا بَعْنَ، بَعَتْ بَعْتُمَا بَعْتُمْ، بَعَتْ
بَعْتُمَا بَعْتَنَّ، بَعْتُ بَعْنَا) والأصل: بِيَعْنَ، نُقِلَ إلى مكسورِ العينِ، ونُقِلَتِ الكسرةُ إلى
الفاءِ، وحُذِفَتِ الياءُ.

وعلى هذا القياس كل ما هو مفتوحُ العَيْنِ ك: قال وزارَ، بخلافِ نحو: خافَ
وهابَ وطالَ، فإنه لا نُقَلَّ فيها إلى بابٍ آخرَ، بل تقول: خِفْتُ، والأصل: خَوِفْتُ، و:
هَبْتُ، والأصل: هَيَيْتُ، وطُلْتُ، والأصل: طَوَّلْتُ، فاعْتَلَّ بنقلِ حركةِ العينِ ثُمَّ حَذَفِهِ.
(وإذا بَيَّنَّتهُ): أي: الماضي المجرَّد (للمفعولِ كَسَرْتَ الفاءَ من الجميع)؛
أي: من مفتوحِ العينِ ومكسوره ومضمومه واوياً كانَ أو يائياً (فقلت: صِينَ) في
الواوِيَّ (وإعلالُهُ بالنقلِ والقلبِ) لأنَّ أصلَهُ: صُونٌ، فنُقِلَتْ حركةُ الواوِ [إلى
ما قَبْلَهَا وَقَلْبَتْ] ^(١) ياءً لسكونِها وانكسارِ ما قَبْلَهَا. (وبِيعَ) في اليائي (وإعلالُهُ
بالنقلِ) لأنَّ أصلَهُ: بِيَعَ، نُقِلَتِ الكسرةُ إلى ما قَبْلَهَا بعدَ حَذَفِ ضَمَّتِهِ.

هذه اللُّغَةُ المشهورةُ، وفيه لُغَتَانِ أُخْرَيَانِ:

إحداهُما: (صُونٌ) و(بُوعٌ) بالواوِ السَّاكِنِ فِيهِمَا، وَقَلْبِ الياءِ واواً لسكونِها
وانضمامِ ما قَبْلَهَا.

وثانيهما: الإشمامُ؛ للدَّلَالَةِ على أنَّ الأصلَ في هذا البابِ الضَّمُّ، وحقِيقَةُ هذا
الإشمامِ: أنَّ تَنَحُّوَ بكسرةِ فاءِ الفعلِ نحوَ الضَّمَّةِ، فتُمِيلُ الياءَ السَّاكِنَةَ بَعْدَهَا نحوَ الواوِ

(١) زيادة يقتضيها السياق.

قليلاً؛ إذ هي تابعة لحركة ما قبلها، وهذا مراد النحاة والقراء، لا ضمّ الشفتين فقط مع كسرة الفاء كسراً خالصاً كما في باب الوقف، ولا الإتيان بضمّة خالصة بعدها ياء ساكنة كما توهم بعضهم.

(وتقول في مضارعه: يَصُونُ) مِنَ الْوَائِي، (وَيَبِيعُ) مِنَ الْيَائِي، (وإِعْلَالُهُمَا بالنقل)؛ أي: نُقِلَ ضَمَّةُ الْوَائِ وكسرة الْيَاءِ إِلَى مَا قَبْلَهُمَا؛ إِذِ الْأَصْلُ: يَصُونُ، وَ: يَبِيعُ؛ ك: يَنْصُرُ وَيَضْرِبُ.

(وَيَخَافُ) مِنَ الْوَائِي، (وَيَهَابُ) مِنَ الْيَائِي، (وإِعْلَالُهُمَا بالنقل والقلب)، فَإِنَّ الْأَصْلَ: يَخَوْفُ وَيَهَبُ؛ ك: يَعْلَمُ، فنَقَلَ حَرَكَةَ الْوَائِ وَالْيَاءِ إِلَى مَا قَبْلَهُمَا، ثُمَّ قَلَبَ الْوَائِ وَالْيَاءَ أَلْفَاءً؛ لِتَحَرُّكِهِمَا فِي الْأَصْلِ وافتتاح ما قبلهما الآن.

وَأَمَّا الْمَبْنِيُّ لِلْمَفْعُولِ مِنَ الْجَمِيعِ فَبِالنَّقْلِ وَالْقَلْبِ؛ نَحْوُ: يُصَانُ وَيُبَاعُ وَيُخَافُ وَيُهَابُ.

(وَيَدْخُلُ الْجَازِمُ) عَلَى الْمَضَارِعِ مِنَ الْأَجَوَفِ (فَيَسْقُطُ الْعَيْنُ)؛ أَي: عَيْنُ الْفِعْلِ؛ مِنَ الْوَائِ وَالْيَاءِ وَالْأَلِفِ الْمُنْقَلِبَةِ عَنْ أَحَدِهِمَا (إِذَا سَكَنَ مَا بَعْدَهُ)؛ أَي: مَا بَعْدَ الْعَيْنِ؛ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، (وَيَثْبُتُ) الْعَيْنُ (إِذَا تَحَرَّكَ مَا بَعْدَهُ) حَرَكَةً أَصْلِيَّةً نَحْوَ: لَمْ يَصُونَا، أَوْ مِثَابَةً نَحْوَ: لَمْ يَصُونَنَّ، فَإِنَّ التَّنُونَ فِي الْأَصْلِ سَاكِنَةٌ، وَإِنَّمَا حُرِّكَتْ لِاقْتِضَاءِ نَوْنِ التَّأَكِيدِ تَحْرِيكَ مَا قَبْلَهَا فِي الْمَفْرَدِ، وَإِنَّمَا تَثْبُتُ لِعَدَمِ عِلَّةِ الْحَذْفِ.

(تقول) عِنْدَ دُخُولِ الْجَازِمِ فِي (يَصُونُ): (لَمْ يَصُنْ) بِحَذْفِ حَرَكَةِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ حَذْفِ الْوَائِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، (لَمْ يَصُونَا لَمْ يَصُونُوا) بِالْإِثْبَاتِ فِيهِمَا لِتَحَرُّكِ مَا بَعْدَهُ. (لَمْ تَصُنْ) بِالْحَذْفِ، (لَمْ تَصُونَا) بِالْإِثْبَاتِ، (لَمْ يَصُنْ)، كَمَا تَقُولُ: يَصُنْ؛ لِأَنَّ الْجَازِمَ لَا عَمَلَ لَهُ فِيهِ، وَالْوَائِ قَدْ حُذِفَتْ عِنْدَ اتِّصَالِ التَّنُونِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ.

(لَمْ تَصُنْ لَمْ تَصُونَا لَمْ تَصُونُوا، لَمْ تَصُونِي لَمْ تَصُونَا لَمْ تَصُنْ، لَمْ أَصُنْ لَمْ

نُصْنُ، وهكذا قياسُ) كُلُّ ما كَانَ عَيْنُهُ يَاءً أَوْ أَلِفًا نَحَوَ: (لَمْ يَبْعَ) بالحذفِ لسكونِ ما بعده، (لَمْ يَبِيعَا) بِالْإِثْبَاتِ لِتَحَرُّكِه، (وَلَمْ يَخَفْ) بالحذفِ، (وَلَمْ يَخَافَا).
وَالضَّابِطُ: أَنَّ الْمَحذُوفَ إِنْ كَانَ النُّونَ الَّتِي فِي الْأَمثلةِ الْخَمْسَةِ فَلَا تُحَذَفُ الْعَيْنُ، وَإِلَّا فَتُحَذَفُ.

(وَقَسْ عَلَيْهِ)؛ أَي: عَلَى الْمُضَارِعِ الدَّاخِلِ عَلَيْهِ الْجَازِمُ (الْأَمْرُ) بِأَنْ تُحَذَفَ الْعَيْنُ إِذَا سَكَنَ مَا بَعْدَهُ (نَحَوَ: صُنْ)، وَيَثْبُتُ إِذَا تَحَرَّكَ نَحَوَ: (صُونَا صُونُوا صُونِي صُونَا).

وَأَمَّا جَمْعُ الْمُؤَنَّثِ نَحَوَ: (صُنَّ) فَقَدْ حُذِفَتْ عَيْنُهُ فِي الْمَضَارِعِ.
(وَالْأَمْرُ بِالتَّكْيِيدِ)؛ أَي: مَعَ نَوْنِ التَّكْيِيدِ: (صُونَنَّ، صُونَانَّ، صُونُنَّ، صُونِنَّ، صُونَانَّ) بِإِعَادَةِ الْعَيْنِ الْمَحذُوفَةِ لِرُزَالِ عِلَّةِ الْحَذْفِ بِتَحَرُّكِ مَا بَعْدَهُ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ يُفْتَحُ آخِرُ الْفِعْلِ وَيُضَمُّ وَيُكْسَرُ دَفْعًا لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ.

وَأَمَّا جَمْعُ الْمُؤَنَّثِ نَحَوَ: (صُنَّانَّ) فَحَذَفُ عَيْنِهِ لَازِمٌ قَطْعًا.
(وَكَذَا تَقُولُ فِي الْخَفِيفَةِ: صُونُنَّ وَيَبْعُنَّ وَخَافُنَّ).

وَلَمْ تَعُدِ الْعَيْنُ فِي نَحَوِ: صُنِ الشَّيْءِ، وَ: بَعِ الْفَرَسِ، وَ: خَفِ الْقَوْمَ؛ لِأَنَّ الْحَرَكَاتِ فِي هَذِهِ الْأَمثلةِ عَارِضَةٌ لَا اِعْتِدَادَ بِهَا، فَوْجُودُهَا كَعَدَمِهَا بِخِلَافِ الْحَرَكَةِ فِي نَحَوِ: صُونَا وَيَبِيعَا وَخَافَا، فَإِنَّهَا كَالْأَصْلِيَّةِ لَا تَتَّصِلُ مَا بَعْدَهَا اتِّصَالَ الْجُزْءِ بِمَا قَبْلَهَا.
(وَمَزِيدُ الثَّلَاثِيِّ)؛ أَي: الثَّلَاثِيُّ الْمَزِيدُ فِيهِ (لَا يَغْتَلُّ مِنْهُ)؛ أَي: مِنَ الْأَجُوفِ (إِلَّا أَرْبَعَةُ أَبْنِيَّةٍ)؛ أَي: أَبَوَابٍ، (وَهِيَ): أَفْعَلٌ؛ نَحَوَ: (أَجَابَ يُجِيبُ) وَأَصْلُهُمَا: أَجَوَبُ يُجَوِّبُ، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْوَاوِ مِنْهُمَا إِلَى مَا قَبْلَهَا، وَقُلِبَتْ فِي الْمَاضِي أَلِفًا لِتَحَرُّكِهَا فِي الْأَصْلِ وَإِنْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا الْآنَ، وَفِي الْمَضَارِعِ يَاءً لِسُكُونِهَا وَانْكَسَارِ مَا قَبْلَهَا.

(إِجَابَةٌ) أَصْلُهَا: إِجَوَابًا، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْوَاوِ وَقُلِبَتْ أَلِفًا كَمَا فِي الْفِعْلِ،

ثُمَّ حُذِفَتِ الْأَلِفُ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ وَعُوضَتْ عَنْهَا تَاءٌ فِي الْآخِرِ، وَيُحْذَفُ عِنْدَ الْإِضَافَةِ نَحْوُ: إِقَامَ الصَّلَاةِ.

(و) اسْتَعْلَ نَحْوُ: (اسْتَقَامَ يَسْتَقِيمُ اسْتِقَامَةً)، وَإِعْلَالُهُ ك: أَجَابَ يُجِيبُ إِجَابَةً، وَنَحْوُ اسْتَحَوَذَ وَاسْتَصَوَّبَ مِنَ الشَّوَاذِ تَنْبِيهًا عَلَى الْأَصْلِ.

(و) انْفَعَلَ نَحْوُ: (انْقَادَ يَنْقَادُ) أَصْلُهُمَا: انْقَوَدَ يَنْقَوِدُ، قُلِبَتِ الْوَاوُ أَلِفًا لِتَحَرُّكِهَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا (انْقِيَادًا) أَصْلُهُ: انْقَوَاذُ، قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً لَانْكَسَارِ مَا قَبْلَهَا؛ كَقَوْلِهِمْ: قَامَ يَقُومُ قِيَامًا، وَأَمَّا: حَالٌ يَحُولُ حَوْلًا، فَلَمْ يُعَامَلْ مُعَامَلَةً فِعْلِيَةً.

(و) افْتَعَلَ نَحْوُ: (اخْتَارَ يَخْتَارُ) وَالْأَصْلُ: اخْتِيرَ يَخْتِيرُ، وَقَدْ سَبَقَ إِعْلَالُهُمَا (اخْتِيَارًا) عَلَى الْأَصْلِ.

(وَإِذَا بُنِيَتْ) هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ (لِلْمَفْعُولِ قِيلَ: أَجِيبَ يُجَابُ) وَالْأَصْلُ: أَجُوبُ يُجُوبُ، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْوَاوِ إِلَى مَا قَبْلَهَا، وَقُلِبَتِ فِي الْمَاضِي يَاءً كَمَا فِي يُجِيبُ، وَفِي الْمَضَارِعِ أَلِفًا كَمَا فِي أَجَابَ.

(وَاسْتَقِيمَ يُسْتَقَامُ) وَالْأَصْلُ: اسْتَقُومَ يُسْتَقُومُ، فَنُقِلَتْ وَقُلِبَتِ.

(وَانْقِيدَ)؛ أَي: انْقِيدَ لَهُ، وَالْأَصْلُ: انْقَوَدَ، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْوَاوِ إِلَى مَا قَبْلَهَا بَعْدَ سَلْبِ حَرَكَتِهِ وَقُلِبَتِ يَاءً كَمَا فِي: صِينَ، (يُنْقَادُ) أَصْلُهُ: يُنْقَوَدُ، قُلِبَتِ الْوَاوُ أَلِفًا لِتَحَرُّكِهَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا.

(وَاخْتِيرَ) أَصْلُهُ: اخْتِيرَ، نُقِلَتْ كَسْرَةُ الْيَاءِ إِلَى مَا قَبْلَهَا كَمَا فِي يَبِعَ (يُخْتَارُ) أَصْلُهُ: يُخْتِيرُ.

(وَالْأَمْرُ مِنْهَا)؛ أَي: مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ: (أَجِبَ) بِحَذْفِ الْعَيْنِ لِسُكُونِ مَا بَعْدَهَا ك: بَعِ، (أَجِيَا) بِإِثْبَاتِهَا ك: بِيَعَا، (وَاسْتَقِمَّ اسْتَقِيمًا، وَانْقَدَ انْقَادًا، وَاخْتَرَّ اخْتَارًا) إِلَى آخِرِهَا.

(وَيَصِحُّ)؛ أي: لا يُعَلُّ جميع ما هو غير هذه الأربعة من المعتل العين (نحو: قَوْلٌ وَقَاوَلٌ وَتَقَاوَلٌ، وَزَيْنٌ وَتَزَيْنٌ، وَسَايَرٌ وَتَسَايَرٌ، وَاسْوَدَّ وَابْيَضَّ، وَاسْوَادٌ وَابْيَاضٌ، وَكَذَا) يَصِحُّ وَلَا يُعَلُّ (سَائِرُ تَصَاريفِهَا)؛ أي: جميع تَصَاريفِ هذه المذكورات؛ من الْمُضَارِعِ، وَالْمَصْدَرِ، وَالْأَمْرِ، وَالنَّهْيِ، وَاسْمِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ؛ لَعَدَمِ عِلَّةِ الْإِعْلَالِ، وَكَوْنِ الْعَيْنِ فِي هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ فِي غَايَةِ الْخَفَةِ؛ لِسُكُونِ مَا قَبْلَهَا.

(وَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمُجَرَّدِ يُعَلُّ عَيْنُهُ بِالْهَمْزَةِ) سواءً كَانَ وَائِيًّا أَوْ يَائِيًّا؛ (ك: صَائِنٌ وَبَائِعٌ) وَالْأَصْلُ: صَاوِنٌ وَبَايِعٌ، قُلِبَتِ الْوَاوُ وَالْيَاءُ هَمْزَةً؛ لِأَنَّ الْهَمْزَةَ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَخَفُّ مِنْهُمَا، وَتُكْتَبُ الْهَمْزَةُ بِصُورَةِ الْيَاءِ لِأَنَّ الْهَمْزَةَ الْمُتَحَرِّكَ السَّاكِنَ مَا قَبْلَهَا تُكْتَبُ بِصُورَةِ حَرَكَتِهَا.

(و) اسْمُ الْفَاعِلِ (مِنْ) الثَّلَاثِيِّ (الْمَزِيدِ فِيهِ يَعْتَلُّ بِمَا اعْتَلَّ بِهِ الْمُضَارِعُ)؛ أي: مُضَارِعُ الْمَزِيدِ (ك: مُجِيبٌ) أَصْلُهُ: مُجُوبٌ، (وَمُسْتَقِيمٌ) أَصْلُهُ: مُسْتَقِيمٌ، (وَمُنْقَذٌ) أَصْلُهُ: مُنْقَذٌ، (وَمُخْتَارٌ) أَصْلُهُ: مُخْتَارٌ.

(وَاسْمُ الْمَفْعُولِ مِنَ) الثَّلَاثِيِّ (الْمَجَرَّدِ يَعْتَلُّ بِالنَّقْلِ وَالْحَذْفِ)؛ ك: مَصُونٌ وَمَبِيعٌ، وَالْمَحذُوفُ وَאוُ مَفْعُولٌ عِنْدَ سَيَوِيهِ؛ لِأَنَّهَا زَائِدَةٌ، وَالزَّائِدُ أَوْلَى أَنْ يُحْذَفَ، فَأَصْلُهُمَا: مَصُونُونَ وَمَبِيعُونَ، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْعَيْنِ إِلَى مَا قَبْلَهَا، فَحُذِفَتْ وَاوُ الْمَفْعُولِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، ثُمَّ كُسِرَ مَا قَبْلَ الْيَاءِ لثَلَاثًا تَنْقَلِبُ وَاوُ أَوْ فَيَلْتَبَسُ بِالْوَاوِيِّ، فَ (مَصُونٌ) مَفْعُلٌ وَ (مَبِيعٌ) مَفْعُلٌ.

(و) الْمَحذُوفُ (عَيْنُ الْفِعْلِ عِنْدَ أَبِي الْحَسَنِ الْأَخْفَشِ)؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ كَثِيرًا مَا يَغْرِضُ لَهَا الْحَذْفُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، فَحَذَفُ أَوْلَى، فَأَصْلُ (مَبِيعٌ): مَبِيعُونَ، نُقِلَتْ ضَمَّةُ الْيَاءِ إِلَى مَا قَبْلَهَا وَحُذِفَتِ الْيَاءُ، ثُمَّ قُلِبَتِ الضَّمَّةُ كَسْرَةً لَتَنْقَلِبَ الْوَاوُ يَاءً لثَلَاثًا يَلْتَبَسُ بِالْوَاوِيِّ.

وأما قولهم: مَشِيبٌ، في الواوِيّ من الشَّوبِ وهو الخلطُ، و: مَهُوبٌ، في اليائيّ من الهَيْبَةِ، فَمِنْ الشَّوَادِ، والقياسُ: مَشُوبٌ ومَهِيْبٌ.

(وبنو تَمِيمٍ يُشْتَبُونَ) وفي بعض النسخ: يَتَمَّمُونَ (الياء) دون الواو؛ لأنها أخفُّ من الواوِ، (فيقولون: مَبْيُوعٌ) كما تقول: مضروبٌ، وهذا مُطَرِّدٌ عندهم.

(و) اسمُ المفعولِ (مِنْ) الثلاثِيّ (المَزِيدِ فِيهِ يَعْتَلُّ بِالْقَلْبِ)؛ أي: بَقَلْبِ العَيْنِ أَلْفًا كما في المبنيِّ للمفعولِ مِنَ الْمُضَارِعِ (إِنْ اغْتَلَّ) بصيغةِ المجهولِ؛ أي: أَعْلَلُ (فَعَلُهُ)؛ أي: فَعَلُ اسمِ المفعولِ، وهو المَبْنِيُّ للمفعولِ مِنَ المضارعِ، بأن يكونَ مِنَ الأبنيةِ الأربعةِ (ك: مُجَابٍ وَمُسْتَقَامٍ وَمُنْقَادٍ وَمُخْتَارٍ) والأصلُ: مُجَوَّبٌ وَمُسْتَقَوِّمٌ وَمُنْقَوِّدٌ وَمُخْتَبِرٌ.

(الثالثُ) مِنَ الأنواعِ السَّبْعَةِ: (المُعْتَلُّ اللَّامُ) وهو ما يكونُ لامُهُ حرفَ عِلَّةٍ (ويُقالُ له: الناقِصُ) لِنُقْصَانِ آخِرِهِ مِنْ بعضِ الحركاتِ، (و) يُقالُ له: (ذو الأربعةِ، أَيْضًا) وذلك (لِكونِ ماضِيهِ على أربعةِ أَحْرَفٍ إِذَا أَخْبَرْتَ عَنْ نَفْسِكَ) نحو: غَزَوْتُ وَرَمَيْتُ، وتسميةُ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ لا يقتضي اختصاصه به، فلا يَرِدُ أَنَّهُ قد يُوْجَدُ في غيره.

(فالمَجْرَدُ يُقْلَبُ)؛ أي: فيه (الواوُ والياءُ) اللَّتانِ هما لامُ الفعلِ مِنَ الناقِصِ (أَلْفًا إِذَا تَحَرَّكْنَا) بأيِّ حركةٍ كانتِ (وانْفَتَحَ ما قَبْلَهُما؛ ك: غَزَا وَرَمَى) في الفعلِ الماضي، والأصلُ: غَزَوْا وَرَمَوْا، (وعَصَا وَرَحَى) في الاسمِ، والأصلُ: عَصَوْا وَرَحَوْا، قُلِبَتَا أَلْفًا وَحُذِفَتِ الألفُ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ بَيْنَ الألفِ والتَّنوينِ.

وكانَ الأولى أن يقول: كالعَصَا والرَّحَى؛ لِيَكُونَا على مِثَالِ ما قَبْلَهُما.

ثمَّ المنقلبةُ مِنَ الياءِ تُكْتَبُ بصورةِ الياءِ فِيهِما فرقا بَيْنَهُما وَبَيْنَ المنقلبةِ مِنَ الواوِ. وأما نحو: (غَزَوْا وَرَمَوْا) لِلتَّنْيَةِ، فَأُبْقِيَ على حالِهِما لثَلَا يَلْتَبَسَا بِمُفْرَدِهِما.

(و) وكذلك الفعل الزائد على الثلاثة) بقلبٍ لاميهِ ألفاً عند وجودِ العلةِ المذكورة،
كذلك (اسمُ المفعولِ) من المَزِيدِ فيه، فإنَّ ما قبلَ لاميهِ يكونُ مفتوحاً البتَّة.

ثمَّ أشارَ إلى أمثلةِ الفعلِ واسمِ المفعولِ على طريقِ اللَّفِّ والنَّشْرِ بقوله:

(ك: أعطى) والأصلُ: أعطَوْ، (واشترى) والأصلُ: اشترَي، (واستقصى) أصله: استقصَوْ، قلبتِ الواوُ من أعطَوْ واستقصَوْ ياءً لِمَا سيجي، ثمَّ قلبتِ الياءُ من الجميعِ ألفاً، (والمُعْطَى والمُشْتَرَى والمُسْتَقْصَى) أيضاً كذلك؛ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَنَّ الألفَ في الجميعِ مُنْقَلِبَةٌ مِنَ الْيَاءِ يَكْتُبُونَهَا بِصُورَةِ الْيَاءِ وَلَوْ كَانَ أَصْلُهَا الْوَاوُ.

ومثَّلَ بثلاثةِ أمثلةٍ لأنَّ الزَّائِدَ إمَّا واحدٌ أو اثنانِ أو ثلاثة، وذَكَرَ اسمَ المفعولِ مع اللَّامِ لِيَنْقَى الألفُ فَيَتَحَقَّقَ مَا ذَكَرَ؛ إِذْ لَوْ لَا اللَّامُ لَحُذِفَ الألفُ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّنْوِينِ.

(وكذا) تُقْلَبُ الْيَاءُ إِذَا لَمْ (يُسَمَّ الْفَاعِلُ)؛ أي: فِي الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ (مِنْ الْمُضَارِعِ) مَجْرَداً كَانَ أَوْ مَزِيداً فِيهِ، لأنَّ ما قَبْلَ لاميهِ مفتوحُ البتَّة (كقولك: يُغْزَى وَيُعْطَى) وَأَصْلُهُمَا: يَغْزَوُ وَيُعْطِي، قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً (وَيُزْمَى) أصله: يَزْمِي، قُلِبَتِ الْيَاءُ أَلْفاً مِنَ الْجَمِيعِ؛ لِتَحَرُّكِهَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا.

(وَأَمَّا الْمَاضِي فَتُحْذَفُ اللَّامُ مِنْهُ فِي مِثَالٍ: فَعَلُوا، مُطْلَقاً)؛ أي: إِذَا اتَّصَلَ بِهِ وَאוُ ضَمِيرِ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ، سِوَاءِ كَانَ مَا قَبْلَ اللَّامِ مَفْتُوحاً ك: غَزَوْا، أَوْ مَضْمُوماً ك: سَرَوْا^(١)، أَوْ مَكْسُوراً ك: رَضَوْا، وَאוُ كَانَ اللَّامُ ك: غَزَوْا وَسَرَوْا، أَوْ يَاءً ك: رَمَوْا، مَجْرَداً كَانَ الْفِعْلُ كَمَا سَبَقَ، أَوْ مَزِيداً فِيهِ نَحْوَ: أَعْطَوْا وَارْتَضَوْا؛ لِأَنَّ اللَّامَ وَمَا قَبْلَهُ مَتَحَرَّكَانِ فِي هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ الْبِتَّة، وَحَرَكَةُ اللَّامِ الضَّمَّةُ لِأَجْلِ الْوَاوِ ك: نَصَرُوا وَضَرَبُوا، فَحَرَكَةُ مَا قَبْلَهُ إِنْ كَانَتْ فَتْحَةً تُقْلَبُ اللَّامُ أَلْفاً وَيُحْذَفُ الألفُ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَإِنْ

(١) «سَرَوْ» مِنْ بَابِ ظَرْفٍ: صَارَ سَرِيّاً. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: سرو).

كَانَتْ ضِمَّةٌ أَوْ كسْرَةٌ تَسْقُطَانِ أَوْ تُتْقَلَانِ - كَمَا سَيَأْتِي مَفصَّلاً - لِثِقَلِهِمَا عَلَى اللَّامِ، فَتَسْقُطُ اللَّامُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، فَفِي الْكُلِّ وَجَبَ حَذْفُ اللَّامِ.

(و) يُحْذَفُ اللَّامُ (في مثال: فَعَلْتَ وَفَعَلْنَا)؛ أي: إذا انْتُصَلَتْ بِالْمَاضِي تَاءُ التَّائِيثِ لِلْمُفْرَدِ أَوْ الْمُثَنَّى (إذا انْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا)؛ أي: ما قَبْلَ اللَّامِ، وفي نسخة: (ما قَبْلَهُمَا)؛ أي: الواوِ والياء؛ كـ: غَزَتْ وَغَزَتَا، وَرَمَتْ وَرَمَتَا، وَأَعْطَتْ وَأَعْطَتَا، وَاشْتَرَتْ وَاشْتَرَتَا، وَاسْتَقَصَّتْ وَاسْتَقَصَّتَا. والأصل: غَزَوْتُ وَغَزَوْتَا، وَرَمَيْتُ وَرَمَيْتَا.. إلى الآخر، قُلِبَتْ الواوُ والياءُ أَلْفًا لِحَرَكَتِهِمَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهُمَا، ثُمَّ حُذِفَتِ الْأَلْفُ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَهُوَ فِي فِعْلِ الْاِثْنَيْنِ تَقْدِيرِيٌّ؛ لِأَنَّ التَّاءَ سَاكِنَةً تَقْدِيرًا؛ لِأَنَّ الْمُتَحَرِّكََةَ مِنْ خَوَاصِّ الْأَسْمِ، فَعَرَضَتْ الْحَرَكَةُ هَاهُنَا لِأَجْلِ أَلِفِ التَّائِيثِ، فَلَا عِبْرَةَ بِحَرَكَتِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُلْمَحُ - أَي: لَا يَحْذِفُ الْأَلِفَ فِي السَّيِّئَةِ - هَذَا، وَيَقُولُ: غَرَّاتَا رَمَاتَا،
وَلَيْسَ بِوَجْهِ.

(وَتَبُّتْ)؛ أي: اللّامُ (في غيرها)؛ أي: في غيرِ مِثَالٍ (فَعَلُوا) مُطْلَقًا، ومِثَالٍ (فَعَلْتُ وَفَعَلْنَا) مَفْتُوحِيَّ مَا قَبْلَ اللّامِ، وهو ما لا يَكُونُ على غيرِ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ^(١)، أو يَكُونُ على (فَعَلْتُ وَفَعَلْنَا) لَكِنْ لا يَكُونُ مَفْتُوحًا مَا قَبْلَ اللّامِ، نَحْو: رَضِيتَ رَضِيْنَا، وَسَرُوتَ سَرُوتَا؛ لِعَدَمِ مُوجِبِ الحذفِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا (فَتَقُولُ) فِي فَعَلَ مَفْتُوحِ الْعَيْنِ وَآوِيًا: (غَزَا غَزَوًا غَزَوًا، غَزَتْ غَزَاتًا غَزَوْنَ، غَزَوْتَ غَزَوْتُمَا غَزَوْتُمْ، غَزَوْتَ غَزَوْتُمَا غَزَوْتُنَّ، غَزَوْتَ غَزَوْنَا، وَ) فِي مَفْتُوحِ الْعَيْنِ يَائِيًا (رَمَى رَمِيًا رَمَوْا، رَمَتْ رَمَتَا رَمَيْنَ، رَمَيْتَ رَمَيْتُمَا رَمَيْتُمْ، رَمَيْتَ رَمَيْتُنَّ، رَمَيْتُ رَمَيْنَا، وَ) فِي فَعَلَ مَكْسُورِ الْعَيْنِ (رَضِيَ رَضِيًا رَضُوا، رَضَيْتَ رَضَيْتُمَا رَضَيْتُمْ، رَضَيْتَ رَضَيْتُنَّ، رَضَيْتُ رَضَيْنَا، وَ) فِي فَعَلَ مَكْسُورِ الْعَيْنِ (رَضِيَ رَضِيًا رَضُوا، رَضَيْتَ رَضَيْتُمَا رَضَيْتُمْ، رَضَيْتَ رَضَيْتُنَّ، رَضَيْتُ رَضَيْنَا).

(١) قوله: «وهو ما لا يكون على غير هذه الأمثلة»، كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب حذف «لا» أو «غير».

والفعل المكسور العين سواء كان واوياً أو يائياً لامه ياء؛ لأن الواو ثقلَب ياءً لتطَرُّفها وانكسار ما قبلها؛ ك: رضي، أصله: رَضَوُ، واليائِي ك: خَشِي، ولذا لم يذكر المصنِّف إلا مثلاً واحداً.

(وكذلك تقول: سَرَوْ)؛ أي: صار سيِّداً (سَرَوْا سَرَوْا.. إلى آخره): سَرَوْتَ سَرَوْتَا سَرُونُ، سَرَوْتَ سَرَوْتُمَا سَرَوْتُمْ، سَرَوْتَ سَرَوْتُمَا سَرَوْتُنَّ، سَرَوْتُ سَرُونَا. وذكر مثلاً واحداً لأنه لا يكون إلا يائياً.

(وإنما فتحت) أنت (ما قبل واو الضمير في غَزَوْا أو رَمَوْا) وهو الزَّاي والميم (وضممت)؛ أي: ما قبلها (في رَضَوْا وسَرَوْا) وهو الضَّاد والرَّاء؛ (لأن واو الضمير إذا اتصل بالفعل الناقص بعد حذف اللام) فيُنظَرُ فيه: (فإن انفتح ما قبلها)؛ أي: ما قبل واو الضمير (بقي على الفتحة) إذ لا مانع منها مع كمالها في الخفة، (وإن انضم)؛ أي: ما قبلها (أو كسر، ضم)؛ أي: نُطِقَ بالضم لمناسبته الواو.

ففتح في (غَزَوْا ورَمَوْا) لأن ما قبل الواو بعد حذف اللام مفتوح؛ لأنهما مفتوحا العين، فأبقي الفتح، وكذا أُبقي الضم في (سَرَوْا) لأنه مضموم العين، وكذا ضم في (رَضَوْا) لأنه كان مكسوراً بعد حذف اللام، فقلبت الكسرة ضمةً لتبقى الواو. وقد يقال: نُقلت ضمة الياء إلى ما قبلها بعد سلب حركته ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، وهذا معنى قوله: (وأصل رَضُوا: رَضِيُوا) يعني: بعد قلب الواو ياء؛ لأن الأصل، رَضُوا، (فُنقلت ضمة الياء إلى الضاد وحذفت الياء لالتقاء الساكنين) وهما الياء والواو.

(وإنما المضارع) من المعتل اللام (فُتسكن اللام) وفي نسخة: (الواو والياء والألف) منه في الرفع؛ نحو: يَغْزُو وَيَرْمِي وَيَخْشَى، والأصل: يَغْزُو وَيَرْمِي وَيَخْشَى، فحذفت الضمة لثقلها في: يَغْزُو وَيَرْمِي، وقلبت الياء ألفاً في: يَخْشَى؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها.

(وَتُحَذَفُ)؛ أي: الثلاثة - وفي نسخة: (فِيُحَذَفْنَ) - (في الجَزْمِ) لأنها قائمة مقام الإعراب كالحركة، فكما تُحذف الحركة فكذا هذه الحروف، وقد ثبتت في لغة؛ كقوله:

أَلَمْ يَأْتِيَنَّكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي^(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] في رواية قُتَيْل عن ابن كثير^(٢).
وقيل: الياء متولدة من إشباع الكسرة.

(وَتُفْتَحُ الواو والياء في النُّصْبِ) لَخَفَةِ الْفَتْحَةِ (وَتُثْبِتُ الألف) بحالها؛ لأنها لا تقبل الحركة ولا موجب لحذفها.
(وَيُسْقِطُ الْجَازِمُ وَالنَّاصِبُ التُّونَاتِ)؛ أي: جميعها (سوى نون جماعة الْمُؤَنَّثِ) كما سبق بيانها، (فتقول) حينئذ:

(لَمْ يَغَرْ) بحذف الواو (لَمْ يَغْزُوا) بحذف التُّونِ، (و: لَمْ يَرْمِ) بحذف الياء (لَمْ يَرْمِيَا) بحذف التُّونِ، (و: لَمْ يَرْضَ) بحذف الألف (لَمْ يَرْضِيَا) بحذف التُّونِ.
(و: لَنْ يَغْزَوْ) بفتح الواو (و: لَنْ يَرْمِي) بفتح الياء، (و: لَنْ يَرْضَى) بإثبات الألف.
(وَيُثْبِتُ لَامُ الْفِعْلِ) واوًا كان أو ياءً (في فعل الاثنين مفتوحة) نحو: يَغْزَوَانِ وَيَرْمِيَانِ، على أصلهما، و: يَرْضَيَانِ، بقلب الألف ياءً؛ لأنَّ أَلِفَ التَّثْنِيَةِ يَقْتَضِي فَتْحَ مَا قَبْلَهُ.

(و) يَثْبِتُ لَامُ الْفِعْلِ أَيْضاً فِي فِعْلِ (جماعة الإناث) ساكنة؛ نحو: يَغْزُونِ وَيَرْمِينِ وَيَرْضَيْنِ؛ لِعَدَمِ مُقْتَضِي الْحَذْفِ.

(١) صدر بيت عزاه أبو زيد في «النوادر» (ص ٢٠٣) لقيس بن زهير، وهو دون نسبة في «الكتاب» (٣/

٣١٦)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٦٧).

(٢) انظر: «التيسير» للداني (ص ١٣١).

(وَيُحَذَفُ)؛ أي: لَامُ الفعلِ (من جماعة الذكور) مُخَاطَبِينَ كانوا أو غَائِبِينَ؛ نحو: يَغْزُونَ وَيَرْمُونَ وَيَرْضُونَ، والأصل: يَغْزُوُونَ وَيَرْمِوُونَ وَيَرْضِوُونَ، فحُذِفَتْ حركات اللام لِثِقَلِ الضَّمَّةِ، ثُمَّ اللامُ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، أو يُقَالُ فِي يَغْزُونَ وَيَرْمُونَ: نُقِلَتْ، وَفِي يَرْضُونَ: قُلِبَتْ أَلِفًا ثُمَّ حُذِفَتْ مِنَ الْجَمْعِ.

(و) يُحَذَفُ أَيْضاً مِنْ (فِعْلِ الْوَاحِدَةِ الْمُخَاطَبَةِ) فِي نحو: تَغْزِيَنَ وَتَرْمِيَنَ وَتَرْضِيَنَ، والأصل: تَغْزُوِيَنَ وَتَرْمِوِيَنَ وَتَرْضِوِيَنَ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا (فَتَقُولُ) فِي يَفْعُلُ بِالضَّمِّ: (يَغْزُوُ يَغْزَوَانِ يَغْزُونَ، تَغْزُوُ تَغْزَوَانِ تَغْزُونَ، تَغْزِيَنَ تَغْزَوَانِ تَغْزُونَ، أَغْزُوُ نَغْزُوُ) وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ: يَدْعُوُ.

(وَيَسْتَوِي فِيهِ)؛ أي: فِي مُضَارِعٍ نَحْوِ غَزَا (لَفْظُ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ فِي الْخِطَابِ وَالْغَيْبَةِ)؛ أي: (جَمِيعاً) كَمَا فِي نَسْخَةِ:

أَمَّا فِي الْخِطَابِ فَلَأَنَّكَ تَقُولُ: أَنْتُمْ تَغْزُونَ، وَ: أَنْتَنَ تَغْزُونَ، بِالنَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ فِيهِمَا. وَأَمَّا فِي الْغَيْبَةِ فَلَأَنَّكَ تَقُولُ: الرِّجَالُ يَغْزُونَ، وَ: النِّسَاءُ يَغْزُونَ، بِالْيَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ فِيهِمَا.

(لَكِنَّ التَّقْدِيرَ)؛ أي: تَقْدِيرَ كُلِّ مِنْهُمَا (مُخْتَلِفٌ) فِي التَّعْبِيرِ، (فَوَزْنُ الْمُذَكَّرِ)؛ أي: جَمْعِهِ: (يَفْعُمُونَ) فِي الْغَيْبَةِ (وَتَفْعُمُونَ) فِي الْخِطَابِ بِحَذْفِ اللَّامِ فِيهِمَا؛ لِأَنَّ مَرَّ أَنْ الْأَصْلَ: (يَغْزُوُونَ) حُذِفَتِ اللَّامُ، وَالْوَاوُ ضَمِيرٌ، (وَوَزْنُ الْمُؤَنَّثِ)؛ أي: جَمْعِهِ: (يَفْعَلْنَ) فِي الْغَيْبَةِ (وَتَفْعَلْنَ) فِي الْخِطَابِ؛ لِأَنَّ تَقْدَّمَ أَنَّ اللَّامَ يَثْبُتُ فِي فِعْلِ جَمَاعَةِ الْإِنَاثِ.

(وَتَقُولُ) فِي يَفْعُلُ بِالْكَسْرِ: (يَرْمِي يَرْمِيَانِ يَرْمُونَ، تَرْمِي تَرْمِيَانِ يَرْمِينَ، تَرْمِيَانِ تَرْمُونَ، تَرْمِيَنَ تَرْمِيَانِ تَرْمِينَ، أَزْمِي تَرْمِي) وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ: يَهْدِي.

(وَأَصْلُ يَرْمُونَ: يَرْمِيُونَ، فُفْعِلَ بِهِ مَا فُعِلَ بِهِ: رَضِيُوا^(١))؛ أَي: نُقِلَتْ ضَمَّةُ الْيَاءِ إِلَى الْمِيمِ وَحُذِفَتِ الْيَاءُ لِاتِّفَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ خَالَفَ (يَغْرُونَ) وَ(يَرْضُونَ) فِي عَدَمِ بَقَاءِ عَيْنِهِ عَلَى حَرَكَةِ الْأَصْلِيَّةِ، فَنَبَّهَ عَلَى كَيْفِيَّةِ ضَمِّ الْعَيْنِ وَاتِّفَاءِ الْكَسْرِ.

(وهكذا)؛ أَي: مِثْلُ يَرْمِي (حُكْمٌ مَا كَانَ مَا قَبْلَ لَامِهِ مَكْسُوراً) فِي جَمِيعِ مَا ذَكَرَ (كِيَهْدِي) مِنَ الْإِهْدَاءِ، (وَيُنَاجِي) مِنَ الْمُنَاجَاةِ، (وَيَرْتَجِي) مِنَ الْارْتِجَاءِ وَهُوَ طَلِبُ الرَّجَاءِ (وَيَنْبِرِي)؛ أَي: يَغْرِضُ، وَفِي نَسَخَةٍ: (يَعْتَرِي)؛ أَي: يَعْتَرِضُ، (وَيَسْتَدْعِي) مِنَ الْاسْتِدْعَاءِ، فَأَجْرٌ عَلَيْهَا أَحْكَامٌ (يَرْمِي) وَصَرَفُهَا تَصْرِيفُهُ كَمَا عَرَفْتَ فِي مَقَامِ التَّفْصِيلِ، فَإِنَّ الذِّكْيَ كَفَّاهُ هَذَا الْقَدْرُ مِنَ التَّلْعِيلِ، وَأَمَّا الْبَلِيدُ فَلَا يُفِيدُهُ التَّطْوِيلُ، وَلَوْ تَلَيَّتْ عَلَيْهِ التَّوَرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ.

(و) عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ قَوْلُهُ: (يَرْعَوِي)؛ أَي: يَكُفُّ (وَيَعْرِوْرِي) مِنَ اعْرَوْرَيْتِ الْفَرَسَ؛ أَي: رَكِبْتَهُ عُرْيَاناً.

(وَتَقُولُ) فِي يَفْعَلُ بِالْفَتْحِ: (يَرْضَى يَرْضِيَانِ يَرْضُونَ، تَرْضَى تَرْضِيَانِ يَرْضَيْنِ) بِالْيَاءِ دُونَ الْأَلِفِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ الْيَاءُ وَالْأَلِفُ مُنْقَلِبَةٌ عَنْهُ، وَهَذَا لَيْسَتْ مَتَحَرِّكَةً فَلَا تُقْلَبُ، بَلْ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهَا (تَرْضَى تَرْضِيَانِ يَرْضُونَ، تَرْضَيْنِ تَرْضِيَانِ يَرْضَيْنِ، أَرْضَى تَرْضَى) وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ: يَسْعَى.

(وهكذا قِياسُ) مَا كَانَ مَا قَبْلَ لَامِهِ مَفْتُوحاً؛ نَحْوُ:

(يَتَمَطَّى) وَالْأَصْلُ: يَتَمَطَّوْ، مَصْدَرُهُ: التَّمَطَّى، وَأَصْلُهُ: التَّمَطُّوْ، وَهُوَ الْمَدُّ، قَلَبْتَ الْوَاوُ يَاءً وَالضَّمَّةُ كَسْرَةً؛ لِرَفْضِهِمُ الْوَاوَ الْمُتَطَرِّفَةَ الْمَضْمُومَ مَا قَبْلَهَا.

(وَيَتَصَابِي) أَصْلُهُ: يَتَصَابَوْ، مَصْدَرُهُ: التَّصَابِي، أَصْلُهُ: التَّصَابُوْ، لِأَنَّهُ مِنَ الصَّبْوَةِ، فَأَعِلَّ كَمَا سَبَقَ.

(١) فِي «ط» وَ«و»: «رَضُوا»، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُوت.

(وَيَتَقَلَّسِي) أصله: يَتَقَلَّسُوْ، مصدره: التَّقَلَّسِي، أصله: التَّقَلَّسُوْ كالتَدَرُّجِ.

(ولفظُ الواحدةِ المؤنَّثةِ في الخطَابِ كلفظِ الجَمْعِ)؛ أي: جمعِ المؤنَّثِ في الخطَابِ (في بابِ يَرْمِي وَيَرْضَى)؛ أي: في كُلِّ مَا كَانَ مَا قَبْلَ لَامِهِ مَكْسُوراً أَوْ مَفْتُوحاً، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي الْوَاحِدَةِ وَالْجَمْعِ: تَرْمِيْنَ وَتَهْدِيْنَ وَتُنَاجِيْنَ وَنَحْوَهَا، وَكَذَا: تَرْضِيْنَ وَتَمَطِّيْنَ وَتَتَصَائِيْنَ وَأَمْثَالُهَا فِيهِمَا جَمِيعاً.

(والتَّقْدِيرُ مُخْتَلِفٌ) فِي التَّعْبِيرِ؛ (فوزنُ الواحدةِ) مِنْ يَرْمِي: (تَفْعِيْلُنْ) بِكسرِ العينِ (وَمِنْ) يَرْضَى: (تَفْعِيْلُنْ) بفتحِ العينِ، وَاللَّامُ مَحذُوفَةٌ كَمَا مَرَّ، (ووزنُ الجَمْعِ) مِنْ يَرْمِي: (تَفْعِلُنْ) بِالْكَسْرِ وَمِنْ يَرْضَى: (تَفْعَلُنْ) بِالْفَتْحِ، يَأْتِيَاتِ اللَّامُ لِأَنَّهَا تَتَّبَعَتْ فِي فِعْلِ جَمَاعَةِ النِّسَاءِ مُطْلَقاً.

(وَالْأَمْرُ مِنْهَا)؛ أي: مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَهِيَ يَغْزُو وَيَرْمِي وَيَرْضَى: (اغْزُ اغْزُوا اغْزُوا اغْزِي اغْزُوا اغْزُونَ، وَ) كَذَا: ادْعُ (ارْمِ ارْمِيَا ارْمُوا ارْمِي ارْمِيَا ارْمِينَ، وَ) كَذَا: اِهْدِ (ارْضِ ارْضِيَا ارْضُوا ارْضِي ارْضِيَا ارْضِينَ) وَكَذَا: اسْعَ، وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ لَاتِّحَ.

(وَإِذَا أَدْخَلْتَ نُونَ التَّأْكِيدِ)؛ أي: عَلَى نَحْوِ (اغْزُ) وَ(ارْمِ) وَ(ارْضِ) خَفِيفَةً كَانَتْ النُّونُ أَوْ ثَقِيلَةً (أُعِيدَتِ اللَّامُ) الْمَحذُوفَةُ (فَقُلْتَ: اغْزُونَ) بِإِعَادَةِ الْوَاوِ (و: ارْمِينَ) بِإِعَادَةِ الْيَاءِ (وَارْضِينَ) بِإِعَادَةِ الْأَلِفِ، وَرَدُّهَا إِلَى أَصْلِهَا وَهُوَ الْيَاءُ ضَرُورَةً تَحْرِيكُهَا.

وَلَا تُعَادُ اللَّامُ فِي فِعْلِ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ وَالْوَاحِدَةِ الْمُخَاطَبَةِ؛ أَمَّا مِنْ (ارْضِ) فَلِأَنَّ التَّيَقَّاءَ السَّاكِنِينَ لَمْ يَرْتَفِعْ حَقِيقَةً؛ لِعُرُوضِ حَرَكَتِي الْوَاوِ وَالْيَاءِ الضَّمِيرَيْنِ، وَأَمَّا مِنْ (اغْزُ) وَ(ارْمِ) فَلِأَنَّ سَبَبَ الْحَذْفِ بَاقٍ؛ أَعْنِي التَّيَقَّاءَ السَّاكِنِينَ لَوْ أُعِيدَ اللَّامُ.

(وَأَسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهَا)؛ أي: مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ: (غَازٍ) أَصْلُهُ: غَازَوْ (غَازِيَانِ) أَصْلُهُ: غَازَوَانِ (غَازُونَ) أَصْلُهُ: غَازِوُونَ، ثُمَّ غَازِيُونَ (غَازِيَةٌ) أَصْلُهُ: غَازِوَةٌ (غَازِيَتَانِ) أَصْلُهُ: غَازِوَتَانِ (غَازِيَاتُ) أَصْلُهُ: غَازِوَاتُ (وَعَوَازٍ) أَصْلُهُ: عَوَازِوُ.

وكذا حكمُ دَاعٍ، و(رامٍ رَامِيَانِ رَامُونِ) أصله: رَامِيُون (رَامِيَّةٌ رَامِيَتَانِ رَامِيَاتٌ وَرَوَامٍ)، وكذا حُكْمُ سَاعٍ وَغَاشٍ، فيقالُ في جمعِ المذَكَّرِ مِنْهُمَا: سَوَاعٍ وَغَوَاشٍ، (وراضٍ رَاضِيَانِ رَاضُونِ) أصله: رَاضُونُ ثُمَّ رَاضِيُون (رَاضِيَّةٌ رَاضِيَتَانِ رَاضِيَاتٌ وَرَوَاضٍ، وأصلُ غَازٍ: غَازُوٌ) ك: نَاصِرٍ (قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً لَتَطَرَّفُهَا وَانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا) وهذا قِيَاسٌ مَطَّرٌ، وكذا (راضٍ) أصله: رَاضُوٌ، جُعِلَ: رَاضِيٌّ، وأصلُ رامٍ: رَامِيٌّ، فَحُذِفَتْ ضَمَّةُ الْيَاءِ مِنَ الْجَمِيعِ اسْتِثْقَالاً، فَاجْتَمَعَ سَاكِنَانِ: الْيَاءُ وَالتَّنْوِينُ، فَحُذِفَتْ الْيَاءُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِينِ دُونَ التَّنْوِينِ؛ لِأَنَّهَا حُرِفُ عِلَّةٍ وَالتَّنْوِينُ حُرِفٌ صَحِيحٌ، فَحُذِفَتْ أَوَّلَى، فَإِنْ زَالَ التَّنْوِينُ أُعِيدَتْ الْيَاءُ؛ نَحْوُ: الْغَازِيِ وَالرَّامِيِ.

(كَمَا قُلِبَتِ) الْوَاوُ يَاءً (فِي غَزِيٍّ) مِنَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ فِي الْمَاضِي، وَالْأَصْلُ: غَزَوْ، (ثُمَّ قَالُوا: غَازِيَّةٌ) بِقَلْبِ الْوَاوِ يَاءً مَعَ عَدَمِ تَطَرُّفِهَا صَوْرَةً؛ (لِأَنَّ الْمُؤَنَّثَ فَرَعُ الْمَذَكَّرِ)؛ لَكُونِ الْمُؤَنَّثِ غَالِباً عَلَى الزِّيَادَةِ، فَلَمَّا قَلَبُوهَا فِي الْأَصْلِ قَلَبُوهَا فِي الْفَرَعِ، فَقَالُوا: غَازِيَّةٌ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، (وَالْتَاءُ طَارِيَةٌ) عَلَى أَصْلِ الْكَلِمَةِ، وَلَيْسَتْ مِنْهَا بَلْ هِيَ مُلْحَقَةٌ، فَكَأَنَّ الْوَاوُ مُتَطَرِّفَةٌ حَقِيقَةً.

وَأَصْلُ غَوَازٍ: غَوَازِيٌّ بِالتَّنْوِينِ، أُعِلَّ إِعْلَالُ غَازٍ، وَلَا بَحْثَ لَنَا مَعَشَرَ الصَّرْفِيِّينَ عَنْ أَنَّهُ مُنْصَرِفٌ أَوْ غَيْرُهُ، وَأَنَّ تَنْوِينَهُ أَيُّ تَنْوِينٍ، وَكَذَا حُكْمُ غَوَاشٍ. ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْإِعْلَالَ إِنَّمَا هُوَ حَالُ الرَّفْعِ وَالْجَرِّ، وَأَمَّا حَالُ النَّصْبِ فَتَقُولُ: رَأَيْتُ غَازِيًّا وَرَامِيًّا وَغَوَازِيٍّ وَرَوَامِيٍّ، كَالصَّحِيحِ.

(وَتَقُولُ فِي مَفْعُولٍ مِنَ الْوَائِيٍّ)؛ أَي: فِي اسْمِ الْمَفْعُولِ مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَجْرَدِ الْوَائِيٍّ: (مَغْرُؤٌ) أَصْلُهُ: مَغْرُؤُوٌّ، أُدْغِمَتْ.

(وَمِنَ الْيَائِيٍّ)؛ أَي: مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَجْرَدِ الْيَائِيٍّ (مَرْمِيٌّ) أَصْلُهُ: مَرْمُؤِيٌّ (فَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وَأُدْغِمَتِ الْيَاءُ) فِي الْيَاءِ (وَكُسِرَ مَا قَبْلَهَا) لَتَسْلَمَ الْيَاءُ، وَإِنَّمَا

(و) الثلاثي (المزبد فيه) من الناقص (ثقلب واؤه ياء) لاستثقال الواو؛
 (لأن كل واو وقعت رابعة فصاعداً)؛ أي: خامسة أو سادسة (ولم يضم ما قبلها)
 احترازاً من نحو: يغزو (قلبت ياء) طلباً للخفة؛ لثقل الكلمة بالإطالة، (فتقول:
 أعطى يعطي) الأصل: أعطو يعطو، (واعتدي يعتدي) وأصلهما: اعتدو يعتدو،
 (واسترشى يسترشي) الأصل: استرشو يسترشو.

(وتقول مع الضمير: أعطيت واعتديت واسترشيت، وكذلك تغازينا وتراجينا)
 بقلب الواو ياء في الجميع؛ لما قدمنا.

ويفهم من الأمثلة أن حكم هذه المسألة في لام الفعل دون غيره، فلا يرِدُ نحو
 قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ [المجادلة: ١٩]، ﴿وَجَنَزْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٨].

(الرابع) من الأنواع السبعة: (المُعْتَلَّ العين واللام) وهو ما يكون عينه ولاؤه
 حرف علة (ويقال له: اللَّفِيفُ) لاجتماع حرفي العلة فيه (المَقْرُونُ) لمقارنتهما من
 غير فصل بينهما.

(فتقول: شَوَى يَشْوِي شَيًّا؛ ك: رَمَى يَرْمِي رَمِيًّا) وأصل (شَيًّا): شَوِيًّا، اجتمعت
 الواو والياء وسبق الساكن فقلبت الواو ياءً وأدغمت.

وتقول: (قَوِيَ يَقْوَى قُوَّةً) والأصل: قَوَوَ يَقْوَوُ - فَأَعْلَلَ إِعْلَالُ رَضِيَ يَرْضَى - قُوَّةً
 على أصله، إلا أنها أدغمت للخفة.

(وَرَوَى يَرَوِي رِيًّا) أصله: رَوِيًّا (مثل: رَضِيَ يَرْضَى رَضِيًّا)، وأمَّا: رَوَى
 يَرَوِي، من باب ضرب، فمصدره: رواية، واختلفاً أيضاً دِرَايَةً (فهو رِيَّانُ، وامرأة

= وذكره البخاري قبل الحديث (٣٤٣٦) تعليقاً موقوفاً عليه، ورواه موقوفاً عليه أيضاً: عبد الرزاق في

«تفسيره» (٢ / ٦ - ٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥ / ٥٠٦)، ولم يصح الرفع كما قال السيوطي.

انظر: «روح المعاني» (١٦ / ٦٣).

رَئَى) وَأَصْلُهُمَا: رَوَّيَانُ وَرَوَّيَ عَلَى فَعْلَانٍ وَفَعَلَى (مِثْلُ: عَطَشَانٌ وَعَطَشَى) فَبَيَّنَّا عَلَى الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ؛ لثَلَا يَشْتَبَهُ بِالرَّائِي وَالرَّائِيَةِ مِنَ الرَّوَايَةِ.

(وَأَرْوَى) غَيْرَهُ (كَ: أَعْطَى) فِي بِنَاءِ الْمَزِيدِ.

(وَحَيَّيْ)؛ ك: رَضِيَ بِلا إِذْغَامٍ (وَحَيَّ) بِإِذْغَامِهِ، وَقَدْ قُرِئَ بِهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَحْيِي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَتِهِ﴾ [الأنفال: ٤٢] فَنَافَعُ وَشُعْبَةٌ وَالْبَزْيُ بِالْفِكَ^(١)، (يَحْيِي) بِلا إِذْغَامٍ فِي مُضَارِعِ (حَيَّيْ) وَ(حَيَّ) كِلَيْهِمَا، (حَيَوَةً) فِي الْمَصْدَرِ بِقَلْبِ الْيَاءِ أَلِفًا، وَيُكْتَبُ بِصُورَةِ الْوَاوِ عَلَى لُغَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ مِمَّنْ يُمِيلُ الْأَلِفَ إِلَى الْوَاوِ، وَكَذَلِكَ ﴿الصَّلَاةُ﴾ وَ﴿الزَّكَاةُ﴾ وَ﴿الرَّبْوَا﴾.

وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمُصْحَفِ يُكْتَبُ بِالْوَاوِ اقْتِدَاءً بِنَقْلَتِهِ، وَفِي غَيْرِهِ بِالْأَلِفِ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ الْحَاجِبِ فِي الْخَطِّ: كَتَبُوا كُلَّ أَلِفٍ رَابِعَةً فَصَاعِدًا فِي اسْمٍ أَوْ فِعْلٍ يَاءٌ إِلَّا فِيمَا قَبْلَهَا يَاءٌ ك: يَحْيَا^(٢).

(فَهُوَ حَيٌّ) بِالْإِذْغَامِ فَقَطْ فِي النَّعْتِ، (وَحَيًّا) فِي فِعْلِ الْاِثْنَيْنِ مِنْ (حَيَّ) بِالْإِذْغَامِ، (وَحَيَّيَا) مِنْ (حَيَّيْ) بِالْفِكَ (فَهُمَا حَيَّانِ) فِي تَشْيِئَةِ: حَيٌّ.

(وَحَيُّوَا) فِي فِعْلِ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ مِنْ (حَيَّ) بِالْإِذْغَامِ (فَهُمْ أَحْيَاءُ) فِي جَمْعِ: حَيٌّ. (وَيَجُوزُ) فِي فِعْلِ جَمَاعَةِ الذُّكُورِ: (حَيُّوَا) بِالتَّخْفِيفِ (كَ: رَضُوا) مِنْ (حَيَّيْ) بِلا إِذْغَامٍ، وَالْأَصْلُ: حَيُّوَا؛ ك: رَضُوا، فَأَعْلَلَ إِعْلَالَهُ كَمَا سَبَقَ.

(وَالْأَمْرُ: أَحْيِ) مِنْ تُحْيِي (كَأَرْضِي) مِنْ تُرْضِي.

(١) انظر: «التيسير» للداني (ص ١١٦).

(٢) تحرفت في «ط» و«و» إلى: «يحيى» بالالف المقصورة، والصواب المثبت، وعبارة ابن الحاجب كما في «شرح الشافية» للرضي (٣/ ٣٣٢): «... إلا فيما قبلها ياء إلا في نحو يحيى ورئى علمين»، وهي صواب أيضاً.

(و) تَقُولُ فِي أَفْعَلَ: (أَحْيَا^(١) يُحْيِي) ك: أَعْطَى يُعْطِي، وَفِي فاعَلْ: (حَايَا^(٢) يُحَايِي مُحَايَاً) أَصْلُهُ: مُحَايَاً.

(و) فِي اسْتَفْعَلَ: (اسْتَحْيَا^(٣) يَسْتَحْيِي اسْتَحْيَاءً، اسْتَحْيَ) فِي الْأَمْرِ، فَهُوَ مُسْتَحْيٍ، وَذَاكَ مُسْتَحْيَاً^(٤).

(وَمِنْهُمْ)؛ أَي: مِنَ الْعَرَبِ (مَنْ يَقُولُ: اسْتَحْيَ يَسْتَحْيِي) بِحَذْفِ إِحْدَى الْيَائِنِ، (اسْتَحْ)، وَهَذِهِ لُغَةٌ تَمِيمِيَّةٌ، وَالْأَوَّلَى حِجَازِيَّةٌ وَبِهَا جَاءَ التَّنْزِيلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].
وَوَقَعَ فِي «شرح العلامة التفتازاني»: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ)^(٥)، وَهُوَ وَهْمٌ مِنْهُ نَشَأَ مِنْ تَرْكِيبِ الْآيَتَيْنِ وَتَلْفِيْقِ الْجُمْلَتَيْنِ.

(وَذَلِكَ) الْحَذْفُ (لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ؛ كَمَا قَالُوا)؛ أَي: بَعْضُ الْعَرَبِ: (لَا أَذْرِي، فِي: لَا أَذْرِي) وَنَظِيرُهُ حَذْفُ التَّوْنِ مِنْ (يَكُونُ) حَالِ الْجَزْمِ، نَحْوُ: لَمْ أَكْ، وَ: لَا تَكُ.
(الْخَامِسُ) مِنَ الْأَنْوَاعِ السَّبْعَةِ: (مُعْتَلُّ الْفَاءِ وَاللَّامِ) وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ فَاؤُهُ وَلَا مَهُ حَرْفِي عِلَّةٍ، (وَيُقَالُ لَهُ: اللَّفِيفُ) - لِمَا مَرَّ - (الْمَفْرُوقُ) لِاجْتِمَاعِ حَرْفِي الْعِلَّةِ مَعَ الْفَارِقِ بَيْنَهُمَا بِالْعَيْنِ الَّذِي هُوَ حَرْفٌ صَحِيحٌ؛ ك: وَلِي يَلِي، بِكَسْرِ لَامِهِمَا.

(فَتَقُولُ) مِنْ بَابِ ضَرَبَ: (وَقَى)؛ أَي: حَفِظَ، وَقَيًا وَقَوًا، وَالْأَصْلُ: وَقَيًا، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَلَقُوا﴾ [البقرة: ١٤] (ك: رَمَى) رَمِيًا رَمَوْا، (يَقِي يَقِيَانُ يَقُونَ) وَلَمْ يَقُلْ: كَرَمِي؛ لِأَنَّهُ يَخَالِفُهُ فِي حَذْفِ الْفَاءِ؛ إِذْ أَصْلُهُ: يَوْقِي، وَمَرَّ إِعْلَالُهُ فِي (يَعْدُ).

(١) كُتِبَتْ فِي «ط» وَ«و»: «أَحْيَى» بِالْمَقْصُورَةِ، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُت. انظر التعليق السابق.

(٢) كُتِبَتْ فِي «ط» وَ«و»: «حَايَى» بِالْمَقْصُورَةِ، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُت. انظر التعليق السابق.

(٣) كُتِبَتْ فِي «ط» وَ«و»: «اسْتَحْيَى» بِالْمَقْصُورَةِ، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُت. انظر التعليق السابق.

(٤) فِي «ط» وَ«و»: «مُسْتَحْيِي»، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُت عَلَى أَنَّهُ اسْمٌ مَفْعُول.

(٥) انظر: «شرح تصريف العزبي» للتفتازاني (ص ١٦٤).

وَأَمَّا حَكْمُ اللَّامِ مِنْهُ فَحُكْمُهُ ك: يرمي، وتقول في الأمر: (ق) ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِنَا﴾ [البقرة: ٢٠١]، (فَيَصِيرُ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ) عِنْدَ عَدَمِ التَّرْكِيبِ، وَيَلْزَمُهُ الْهَاءُ فِي الْوَقْفِ نَحْو: قَه؛ لَثَلَا يَلْزَمَ الْإِبْتِدَاءُ بِالسَّكَنِ إِنْ سَكَنْتَ الْحَرْفَ الْوَاحِدَ لِلْوَقْفِ، أَوْ الْوَقْفُ عَلَى الْمُتَحَرِّكِ إِنْ لَمْ يُسَكَّنْ، وَكِلَاهُمَا مَمْتَنِعٌ، وَأَمَّا فِي الْوَصْلِ فَتَقُولُ: (ق) يَا رَجُلُ (قِيَا) (قُوا) أَصْلُهُ: قِيُوا، (قِي) أَصْلُهُ: قِيِي (قِيَا) (قَيْنَ)، فَهُوَ وَاقٍ، وَالْأَصْلُ: وَاقِي، وَذَلِكَ مَوْقِيٌّ، وَأَصْلُهُ: مَوْقَوِيٌّ، فَأَعْلَلَ إِعْلَالَ رَامٍ وَمَرْمِيٍّ.

(وَتَقُولُ فِي التَّأْكِيدِ) بِالنُّونِ: (قَيْنَ) بِإِذْغَامِ اللَّامِ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْكَلَامِ (قِيَانٌ قُنَ) بَضْمُ الْقَافِ فِي فِعْلٍ جَمَاعَةٍ الذُّكُورِ، وَحَذْفِ الْوَائِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ وَدَلَالَةِ الضَّمِّ عَلَيْهَا، (قُنَ) بِكَسْرِ الْقَافِ فِي فِعْلٍ الْوَاحِدَةِ^(١)، وَحَذْفِ الْيَاءِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ وَدَلَالَةِ الْكَسْرِ عَلَيْهَا، (قِيَانٌ قَيْنَانٌ).

(وَبِالْخَفِيفَةِ: قَيْنَ قُنَ قَيْنَ).

(وَتَقُولُ) مِنْ بَابِ عَلِمَ يَعْلَمُ: (وَجِي) الْفَرَسُ: إِذَا وُجِدَ فِي حَافِرِهِ وَجَعٌ (يُوجِي) ك: رَضِيَ يَرْضَى، (وَالْأَمْرُ: رَاجِعٌ) أَصْلُهُ: رَاجَحٌ؛ ك: إِزْضَ، قُلِبَتْ وَائِهِ يَاءٌ لِسُكُونِهَا وَانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا.

(السَّادِسُ) مِنَ الْأَنْوَاعِ السَّبْعَةِ: (الْمُعْتَلُّ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ) وَهُوَ مَا يَكُونُ فَاؤُهُ وَعَيْنُهُ حَرْفِي عِلَّةً (ك: يَيْنَ) بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ (فِي اسْمٍ مَكَانٍ) وَهُوَ وَادٍ أَوْ عَيْنٌ، (وَيَوْمٌ) بِمَعْنَى نَهَارٍ أَوْ وَقْتٍ، (وَوَيْلٌ) وَهُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أَوْ كَلِمَةُ عَذَابٍ، (وَلَا يُثْنِي مِنْهُ)؛ أَي: مِنْ هَذَا النَّوعِ (فِعْلٌ)؛ أَي: مُطْلَقًا.

(السَّابِعُ) وَهُوَ آخِرُ السَّبْعَةِ: (الْمُعْتَلُّ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ وَاللَّامِ) وَيُسَمَّى: مُعْتَلُّ الْكُلِّ،

(١) أَي: الْوَاحِدَةُ الْمُخَاطَبَةُ.

وَلَمْ يَجِءْ فِي الْكَلَامِ مِنْ هَذَا النَّوعِ إِلَّا مِثَالَانِ (وذلك: واو وياء، لاسمي الحرفين)
وتركيب الياء من الياءات الثلاث اتفاقاً، ويجعلون لامه همزة تخفيفاً، وأمّا ألف الواو
فمُنْقَلَبَةٌ عَنْ الْوَائِ كَمَا قَالَ الْأَخْفَشُ، وَقِيلَ: مِنَ الْيَاءِ. وَالْأَوَّلُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الْوَائِيَّ أَكْثَرُ
مِنَ الْيَائِيَّ، فَالْحَمْلُ عَلَيْهِ أُخْرَى.

وفي «القاموس»: يُوَيُّ - ك: سُمِّيَ - [كَانَهُ] اسْمٌ، انتهى.

وَأَمَّا (وَائِ) فَعَجْمٌ كَمَا لَا يَخْفَى.

(فصل في بيان المَهْمُوزِ)

وهو ما يكونُ أحدَ حروفِ أصلِهِ همزةً، وهو على ثلاثة أنواعٍ؛ لأنَّ الهمزةَ: إمَّا فاءٌ كما مرَّ، ويُسمَّى: مَهْمُوزُ الفاءِ، أو عينٌ - ك: سَأَلَ - ويُسمَّى: مَهْمُوزُ العينِ، أو لامٌ - ك: قرأ - ويُسمَّى: مَهْمُوزُ اللامِ.

(وَحُكْمُ المَهْمُوزِ فِي تَصَارِيفِ فِعْلِهِ) ماضياً كان أو مُضارعاً (حُكْمُ الصَّحِيحِ؛ لأنَّ الهمزةَ حرفٌ صحيحٌ) بدليلِ قَبُولِهَا الحركاتِ الثلاثةَ، بخلافِ حُرُوفِ العِلَّةِ، وهذا إذا لَمْ يَقْتَرِنْ معه عِلَّةٌ أخرى؛ مِنْ تَضْعِيفِ أو حُرُوفِ عِلَّةٍ، وإلَّا فيكونُ حُكْمُهُ حُكْمُ مُقَارِنِهِ؛ ك: أَبَّ لِلسَّيْرِ يُؤْبُّ: إذا تَهَيَّأ، وك: رَأَى وأَوَى ووَأَى.

(لكنَّها)؛ أي: الهمزةُ (قد تُخَفَّفُ) بإبدالِها أَلِفاً أو واواً أو ياءً (إذا وَقَعَتْ غيرَ أوَّلٍ) حقيقةً مِنْ جنسِ حركةٍ ما قَبْلَها؛ نحو: يَأْكُلُونَ وَيُؤْمِنُونَ وَيُنْسِ، أو حُكماً؛ نحو: (وامُرْ) بالألفِ، والأصلُ: (وامُرْ) بالهمزة، وكذا: ﴿لَقَاءَ نَا أَتَتْ﴾ [يونس: ١٥]، و: ﴿الَّذِي أَوْثِقَ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، و: ﴿يَنْصَلِّحُ آثِنَنَا﴾ [الأعراف: ٧٧]^(١). فالمرادُ بـ (غيرِ الأوَّلِ): أن لا يكونَ الهمزةُ في أوَّلِ الكلامِ؛ إذ لا تُخَفَّفُ حينئذٍ أصلاً، لا أوَّلِ الكلمةِ؛ إذ قد تُخَفَّفُ وصلّاً.

وأما حذفُ الهمزةِ مِنْ نحو: خُذْ، فَوَقَعَ على خلافِ القياسِ، وليس كما ظَنَّهُ العلامةُ التَّفْتازانيُّ أَنَّهُ ليسَ مِنْ هذا البابِ، فإنَّ همزةَ الوصلِ حَذْفُها لازِمٌ عندَ فَقْدِ الاحتِياجِ إليها^(٢)؛ إذ البَحْثُ في الهمزةِ التي هي فاءُ الفعلِ، لا في همزةِ الوصلِ.

(١) انظر: «التيسير» لللداني (ص ٣٤)، وفيه: أن ورشاً كان يسهل الهمزة المفردة سواء سكنت أو تحركت إذا كانت في موضع الفاء من الفعل في الأمثلة المذكورة ونحوها.

(٢) انظر: «شرح تصريف العزي» (ص ١٧٠).

وإنَّما تُخَفَّفُ الهمزة (لأنَّها حرفٌ شديدٌ) في صِفَتِها، (مِنْ أَقْصَى الحَلْقِ) مَخْرَجُها، فتخَفَّفُ دَفْعاً لشدَّتِها ورفْعاً لِحِدَّتِها، وتخفيفُها يكونُ بالقلبِ والحذفِ وأنواعِ التَّسهيلِ، ممَّا لا يَلِيْقُ ذِكرُه على وجهِ الاستيعابِ في مِثْلِ هذا الكتابِ، فإنَّه بابٌ طويلٌ الذَّيلِ ممتدُّ السَّيلِ، يَعْرِفُه أَهلُه مِنْ أربابِ القراءةِ وأصحابِ اللُّغة.

وإذا تَقَرَّرَ أَنَّ حُكْمَه حُكْمُ الصَّحِيحِ (فتقولُ: أَمَلْ يَأْمُلْ؛ ك: نَصَرَ يَنْصُرُ) في جميعِ تَصَاريفِه، (والأمرُ: أُوْمَلْ بقلبِ الهمزة) التي هي فاءُ الفعلِ (واواً) فإنَّ الأصلَ: (أُوْمَلْ) بهمزيَّتَينِ: الأولى للوصلِ، والثانية فاءُ الفعلِ، فقلِبَتْ واواً لِسكونِها وانضمامِ ما قَبْلَها، وذلك (لأنَّ الهمزتيْنِ إذا التَقَتَا)؛ أي: اجتمعَتَا حالَ كونِهما (في كلمةٍ واحدةٍ ثانيتهما ساكنةً) جملةً حاليةً (وَجَبَ قَلْبُها)؛ أي: قلبُ الثانيةِ الساكنةِ (بحركةٍ ما قَبْلَها)؛ أي: بحرفِ حركةِ الهمزة التي قَبْلَها رَوْماً للخِفَّةِ، فإنْ كانتِ حركةً ما قَبْلَها فتحةً تُقَلَّبُ بحرفِ الفتحَةِ وهو الألفُ، وإنْ كانتِ ضَمَّةً تُقَلَّبُ بحرفِ الضَمِّ وهو الواوُ، وإنْ كانتِ كسرةً تُقَلَّبُ بحرفِ الكسرةِ وهي الياءُ.

(ك: آمَنَ) أصلُه: أأْمَنَ، قُلِبَتِ الثانيةُ أَلْفاً (و: أُوْمِنَ) مجهولُ آمَنَ، أصلُه: أُوْمِنَ، بهمزيَّتَينِ قُلِبَتِ الثانيةُ واواً (وإيماناً) مَصْدَرُ آمَنَ، والأصلُ: إِيْمَانٌ، قُلِبَتِ الثانيةُ ياءً، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بينَ القراءِ وأهلِ العربيةِ.

وإنَّما قال: (إذا التَقَتَا)؛ لأنَّ الهمزةَ السَّاكنَةَ التي قَبْلَها غيرُ همزةٍ لا يَجِبُ قَلْبُها بحرفِ حركةٍ ما قَبْلَها، بل يجوزُ في بعضِ القراءاتِ وبعضِ اللغاتِ؛ ك: رَاسٍ وبُوسٍ وبِيسَ.

وقال: (في كلمةٍ)؛ لأنَّهما لو كانتا في كلمتينِ لا يَجِبُ ذلك أيضاً، بل يجوزُ؛ نحو: ﴿قَالَ أَتُونِي﴾ [يوسف: ٥٩]، و: ﴿يَنْصَلِحُ أَثْنَتَا﴾ [الأعراف: ٧٧]، و: ﴿الَّذِي أَوْتُونِ﴾

وقال: (ثانيتها ساكنة)؛ لأنها لو كانت متحركةً فلها أحكامٌ آخرُ في الحالاتِ محلَّ بيانها الكتبُ المطبوعاتُ، ونظرٌ فيه العلامةُ التفتازاني؛ لأنه يَنْقُصُ بنحو: أئمة، والأصل: أئمة كأحمر، فإنه لم تُقلِّبِ الثانيةُ ألفاً كما في (أمن)، بل نُقلت حركةُ الميمِ إليها وقلبت ياءً فليل: أئمة.

قال: ويمكنُ الجوابُ بأنه شاذٌّ^(١)، انتهى.

ولا يخفى أن نُقلها مُقدِّمٌ على قلبها، ولذا قرأ جمهورُ القراء بتَحْقِيقِ الهمزة الثانية، وبعضهم سهَّلوا كالياء، وبعضهم قلبوها ياءً^(٢).

ولعلَّ الحكمةَ في تقديم نُقلها حالَ إعلالِها وجوبُ الإذغامِ عندَ اجتماعِ المِثْلَيْنِ اتِّفَاقاً، على أنه لو أُبدِلَ همزةٌ وأدغمَ معه لصارَ مُلتبساً باسمِ الفاعِلِ مِنَ الأَمِّ، والله أعلم.

ثمَّ إذا قُلِبَتِ الثانيةُ (فإن كانتِ الهمزةُ الأولى) مِنَ الهمزَتَيْنِ الْمُتَقَلِّبَتَيْنِ ثَانِيَتُهُمَا واواً أو ياءً (همزةٌ وصلٍ تعودُ الثانيةُ)؛ أي: تصيرُ الهمزةُ المُتَقَلِّبَةُ واواً أو ياءً (همزةٌ خالصةٌ) (عندَ الوصلِ)؛ أي: وصلِ تلكَ الكلمةَ بكلمةٍ قبلها، يعني: عندَ سُقُوطِ همزةِ الوصلِ في الدَّرَجِ؛ لأنه يَرْتَفِعُ حينئذِ التَّقاءُ الهمزَتَيْنِ فلا تَبْقَى علَّةُ القلبِ، فتعودُ المُتَقَلِّبَةُ إلى أصلِها حالَ وَصلِها مُطْلَقاً، فقوله: (إذا انْفَتَحَ ما قَبْلُهَا) وهمَّ مَحْضٌ وَقَعَ في غيرِ محلِّها؛ لأنَّ الهمزةَ الثانيةَ تعودُ عندَ سُقُوطِ همزةِ الوصلِ سِوَا انْفَتَاحِ ما قَبْلُهَا أو انْضَمَّ أو انكسَرَ؛ لزوالِ العِلَّةِ وهي اجْتِمَاعُ المِثْلَيْنِ.

فمثال ما انْفَتَحَ ما قَبْلُهَا قوله تعالى: ﴿إِلَى الْهُدَى أَفْتِنَا﴾ [الأنعام: ٧١]، أصله: (إيتنا) بياءٍ لكسرةٍ ما قَبْلُهَا ابتداءً، فلمَّا سَقَطَتْ همزةُ الوصلِ عَادَتِ الهمزةُ المُتَقَلِّبَةُ انتهاءً.

(١) انظر: «شرح تصريف العزي» للتفتازاني (ص ١٧٢).

(٢) انظر اختلاف القراء في قراءتها في «السبعة» لابن مجاهد (ص ٣١٢)، و«التيسير» (ص ١١٧).

ومثال ما انْضَمَّ ما قبلها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدْنَ لِي﴾ [التوبة: ٤٩] وأصله: (اِثْدَن) فلما سقطت الهمزة الأولى عادت الثانية.

ومثال ما انْكَسَرَ ما قبلها قوله تعالى: ﴿فَلْيُؤْذِرْ أَلْذِي أَوْثَمِنَ أَمْتَنَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصل: (أَوْثَمِنَ) بالواو لا بالياء كما تَوَهَّم بعض الفضلاء، فعند سُقوط الهمزة الأولى عادت الثانية.

(وحُذِفَتِ الهمزة في خُذْ وكُلْ ومُرْ على غير قياس) فإنه يقتضي أن يكون الأمر من تأخُذ وتأكل وتأمر: أُوخِذْ وأُوكل وأومُر، لكنهم لما اشتقوا الأمر منها حَذَفُوا الهمزة الأصلية ولم يحتاجوا إلى همزة الوصل العارضية، فقالوا: (خُذْ وكُلْ ومُر) في جميع الأحوال (لكثرة الاستعمال).

ولمَّا كان هذا الاستعمال واجباً في (خُذْ وكُلْ) وجائزاً في (مُر) استدرك بقوله: (وقد يحيى مُر على الأصل عند الوصل)؛ أي: لا عند الابتداء (كقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: ١٣٢]) أصله: أومُر، حُذِفَتِ همزة الوصل وأُعِيدَتِ الثانية فقل: (وأمر) وجاء في الحديث: «فمر برأس التمثال.. ومُر بالسَّير»^(١).

(وأزَرَ)؛ أي: عَاوَنَ (يَازِرُ) ويُخَفَّفُ قياساً، (وهنا يَهْنِي) وقد يُخَفَّفُ شاذاً (ك: ضَرَبَ يَضْرِبُ) بلا فَرْقٍ في تصريفهما (إِزَرَ) أمرٌ من: تَازَرَ، قُلِبَتِ الثانية ياءً كما في إيمان.

(وَأَدَبَ يَأْدُبُ) ك: كَرَّمَ يَكْرُمُ (أُودِبَ) أمرٌ منه، وأصله: أُودِبَ، قُلِبَتِ الثانية واواً.

(وَسَالَ يَسَالُ كَمَنْعَ يَمْنَعُ) والأمر: (اسأَلْ، ويجوز) في لغة: (سَالَ يَسَالُ)

(١) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

بِقَلْبِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا، وَقِيلَ: أَجُوفٌ وَآوِيٌّ أَوْ يَائِيٌّ، وَقُرِئَ ﴿سَالَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] بِالْوَجْهَيْنِ فِي السَّبْعَةِ^(١)، (وَالْأَمْرُ) مِنَ الثَّانِي: (سَلَّ)، وَقُرِئَ بِالْأَمْرَيْنِ فِي السَّبْعَةِ^(٢).
ثُمَّ (سَلَّ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَأْخُودًا مِنْ (تَسَالٌ) بِالْأَلِفِ، وَإِعْلَالُهُ ظَاهِرٌ، وَهُوَ حَذْفُ التَّاءِ وَالْأَلِفِ لِلانْتِقَاءِ^(٣)، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ (تَسَالٌ) بِالْهَمْزَةِ، ثُمَّ نُقِلَ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ إِلَى مَا قَبْلَهَا وَحُذِفَتْ، وَاسْتُغْنِيَ بِحَرَكَتِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ.
وَحَكَى الْأَخْفَشُ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ: (اسَلَّ) مَوْضِعَ (سَلَّ)^(٤)، فَتَأَمَّلْ.

(وَأَبْ يُوُوبُ) مَهْمُوزُ الْفَاءِ الْأَجُوفُ (وَسَاءَ يَسُوءُ) مَهْمُوزُ اللَّامِ الْأَجُوفُ (ك: صَانَ يَصُونُ) فِي تَصَارِفِهِ، فِي كَوْنِ عَيْنِهِ وَآوًا وَفِي إِعْلَالِهِ؛ ك: قَالَ يَقُولُ، (وَجَاءَ يَجِيءُ) مَهْمُوزُ اللَّامِ النَّاقِصُ (ك: كَالَ يَكِيلُ) فِي كَوْنِ عَيْنِهِ يَاءً وَفِي إِعْلَالِهِ؛ ك: بَاعَ يَبِيعُ، (فَهُوَ سَاءٌ) فِي اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ (سَاءَ)، (وَجَاءَ) فِيهِ مِنْ (جَاءَ)، وَأَصْلُهُمَا: سَاوٍ وَجَائِيٌّ، قُلِبَتِ الْوَائُ وَالْيَاءُ هَمْزَةً كَمَا فِي قَاتِلٍ وَبَائِعٍ، فَقِيلَ: (سَاءٌ) وَ (جَاءٌ) بِهِمَزَتَيْنِ، فَقُلِبَتِ الثَّانِيَةُ يَاءً لَانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا كَمَا فِي (أَثَمَةٌ)، كَذَا ذَكَرَهُ سَعْدٌ^(٥)، وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ قَلْبَ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ فِيهِ لَيْسَ لَانْكِسَارِ مَا قَبْلَهَا، بَلْ لَانْكِسَارِهَا فِي نَفْسِهَا؛ لِأَنَّ ابْنَ الْحَاجِبِ وَغَيْرَهُ مِنْ عُلَمَاءِ هَذَا الْفَنِّ ذَكَرُوا أَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَتِ الْهَمْزَتَانِ وَتَحَرَّكَتَا:

(١) قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿سَالَ﴾ غَيْرَ مَهْمُوزٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿سَالَ﴾ مَهْمُوزًا، وَكُلُّهُمْ قَرَأَ: ﴿سَائِلٌ﴾ بِالْهَمْزِ بِلَا اخْتِلَافٍ. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٦٥٠).

(٢) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْكَسَائِيُّ بِلَا هَمْزٍ: ﴿وَسَلُّوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٢]، وَ﴿فَسَلَّى اللَّيْلِ﴾ [يونس: ٩٤]، وَ﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإشراء: ١٠١]، وَ﴿وَسَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ [الزخرف: ٤٥]، وَمَا كَانَ مِثْلَهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمُوَاجِهُ بِهِ وَقَبْلَهُ وَآوٍ أَوْ فَاءٍ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَمَزَةُ بِالْهَمْزِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٢٣٢).

(٣) فِي هَامِش «و»: «أَي: لَانْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَلْفٌ (تَسَالُ)، وَالثَّانِي: اللَّامُ لِأَجْلِ الْجُزْمِ».

(٤) انظر: «المقتضب» للمبرد (١/ ٢٥٤).

(٥) انظر: «شرح تصريف العزي» (ص ١٧٦).

تارة تُقَلَّبُ بحركة ما قَبْلَها ك: جاء، وتارةً بحركة نفسها مثل: أئمة، أصله: أئمة أَفْعَلَةٌ، جمعُ إمام.

والحاصل: أنه قيل فيهما: (سائي) و(جائي)، ثُمَّ أُعِلَّ إعلال غازٍ ورام، فقيل: ساءٍ وجاء، والوزن: فاع، وهذا قولٌ سيبويه المختارُ في إعلالِهِ^(١).

(وَأَسَا؛ أي: واويّ (يأسو) مهموزُ الفاءِ النَّاقِصُ الواويّ (ك: دعا يدعو) في إعلالِهِ وتَصْرِيفِهِ، (وَأَتَى يَأْتِي) مهموزُ الفاءِ النَّاقِصُ اليائيّ (ك: رَمَى يَرْمِي) إعلالاً وتَصْرِيفاً، (والأمرُ)؛ أي: من (أتى يَأْتِي): (أيت) أصله: إئت.

(ومَنهم)؛ أي: مِنَ العربِ (مَن يقول: ت) يا رَجُلُ؛ ك: ق، بحذفِ الهمزة والاستغناء عن همزة الوصل، وفي الوقف: تَه؛ ك: قَه (تَشْبِيهاً لَهُ ب: تَحْذُ) كما مرَّ.

(وَوَأَى)؛ أي: وَعَدَ، وهو مَهْمُوزُ العينِ اللَّفِيفُ المَفْرُوقُ (يُؤَيِّ) أصله: يُوئِي، (إِ) أَمْرٌ مِنْهُ (ك: وَقَى يَقِي ق) في جميعِ تَصَاريفِهِ وإعلالِهِ.

(وَأَوَى يَأْوِي) مهموزُ الفاءِ اللَّفِيفُ المَقْرُونُ (أَيَّا) أصله: أَوَيَّا (ك: شَوَى يَشْوِي شَيًّا) أصله: شَوِيًّا (أَيُّو) أَمْرٌ مِنْ تَأْوِي؛ ك: (أَشْوِ) أَمْرٌ مِنْ تَشْوِي، والأصل: إئو، قُلِبَتْ الثَّانِيَةُ يَاءً لِمَا مَرَّ، ثُمَّ الْيَاءُ تَصِيرُ هَمْزَةً عِنْدَ سَقُوطِ هَمْزَةِ الْوَصْلِ فِي الدَّرَجِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، وهو فَعْلٌ جَمَاعَةٌ الذُّكُورِ مِنَ الْأَمْرِ الْحَاضِرِ، وَالْأَصْلُ: (أَتَوْوا) بِهِمَزَتَيْنِ، فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهَا الْفَاءُ سَقَطَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ وَعَادَتْ الهمزةُ الْمُنْقَلِبَةُ فَصَارَ: ﴿فَأَوُوا﴾ بِالْهَمْزَةِ السَّاكِنَةِ، وَقَرَأَ بَعْضُ السَّبْعَةِ بِالْأَلِفِ الْمُنْقَلِبَةِ^(٢).

(وَنَأَى)؛ أي: بَعَدَ، وهو مَهْمُوزُ العينِ النَّاقِصُ (يُنْأَى؛ ك: رَعَى يَرْعَى، إِنَّا) ك: إِرْعَ، في الأمر.

(١) انظر: «الكتاب» (٤ / ٣٧٦).

(٢) لم أَقِفْ عَلَيْهَا، بَلْ فِي «التيسير» (ص ٣٤) خلافه، فَقَدْ ذَكَرَ الدَّانِي هَذِهِ الْآيَةَ ضَمْنَ اسْتِثْنَاءَاتٍ وَرَشَّ مِنْ تَسْهِيلِ الهمزةِ الْمَفْرُودَةِ الْوَاقِعَةِ فَاءً لِلْفِعْلِ.

(وكذا قياس: رَأَى يَرَأَى)؛ أي: كَانَ قِياسُ (يَرَى) أَنْ يَكُونَ ك: يَنأَى وَيَرَعَى؛
لأنَّهُ مِنْ بَابِهِمَا، ولأنَّهُ لَا بَدَأَ مِنْ وَجُودِ جَمِيعِ حُرُوفِ الْمَاضِي فِي الْمُضَارِعِ مَعَ
زِيَادَةِ حُرُوفِ الْمُضَارَعَةِ.

(لكنَّ العربَ قَدْ اجْتَمَعَتْ)؛ أي: (أَجْمَعَتْ) كما فِي نَسْخَةٍ، وَالْمَعْنَى: اتَّفَقَتْ
(عَلَى حَذْفِ الهمزة) الَّتِي هِيَ عَيْنُ فِعْلِهِ (مِنْ مُضَارِعِهِ)؛ أي: مُضَارِعِ (رَأَى)، وَظَاهِرُ
كَلَامِهِ أَنَّهُ حُذِفَ مَجَاناً وَفُتِحَ الرَّاءُ لِلْأَلِفِ بَعْدَهَا، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ إِعْلَالَهُ بِالنَّقْلِ وَالْحَذْفِ،
وَاخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ دُونَ أَمْثَالِهِ هُنَاكَ: كَثْرَةُ الِاسْتِعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْأَحْوَالِ.
(فَقَالُوا: يَرَى يَرِيَانِ يَرُونَ) أَصْلُهُ: يَرِيُونَ، وَأَصْلُ أَصْلِهِ: يَرِيبُونَ (تَرَى تَرِيَانِ
يَرِينَ) أَصْلُهُ: يَرِيبِينَ (تَرَى تَرِيَانِ تَرُونَ، تَرِينَ تَرِيَانِ تَرِينَ، أَرَى نَرَى) وَإِعْلَالُ لَامِهِ
ك: يَنأَى وَيَرَعَى.

(وَاتَّفَقَ فِي خُطَابِ الْمُؤَنَّثِ لَفْظُ الْوَاحِدَةِ وَالْجَمْعِ) لِأَنَّكَ تَقُولُ: تَرِينَ يَا
امْرَأَةُ، وَ: تَرِينَ يَا نِسْوَةٌ، (لكنَّ الْوَاحِدَةَ وَزُنُهَا تَفْقِينَ) بِحَذْفِ اللَّامِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ:
تَرِينَ، وَأَصْلُ أَصْلِهِ: تَرِيبِينَ، نُقِلَتْ حَرَكَةُ الهمزة فَحُذِفَتْ، ثُمَّ قُلِبَتِ الْيَاءُ أَلِفًا
وَحُذِفَتْ لِلْإِتْقَاءِ، أَوْ يُقَالُ: الْكُسْرُ عَلَى الْيَاءِ ثَقِيلَةٌ فَحُذِفَتْ، ثُمَّ حُذِفَتِ الْيَاءُ
لِلْإِتْقَاءِ، فَبَقِيَ (تَرِينَ) بِحَذْفِ الْعَيْنِ وَاللَّامِ.

(وَالْجَمْعُ)؛ أي: وَزُنُهُ (تَفْلَنَ)؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ: تَرِيبِينَ ك: تَرَضِينَ، فَأُعِلَّ كَمَا مَرَّ
فَبَقِيَ: (تَرِينَ) بِإِثْبَاتِ اللَّامِ، وَالْيَاءُ هُنَا لَامُ الْفِعْلِ، وَفِي الْوَاحِدَةِ ضَمِيرُ الْفَاعِلِ.
(فَإِذَا أَمَرْتَ) بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ؛ أي: بَنَيْتَ الْأَمَرَ (مِنْهُ)؛ أي: مِنْ تَرِينَ (فَقُلْتَ
عَلَى الْأَصْلِ: إِرَا؛ ك: إِرْعَ) لِأَنَّهُ مِنْ تَرَأَى؛ ك: إِرْعَ مِنْ تَرَعَى إِعْلَالًا وَتَصْرِيفًا،
وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَقُولَ: (قُلْتَ) كَمَا فِي نَسْخَةٍ صَحِيحَةٍ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ إِذَا كَانَ مَاضِيًا
بِغَيْرِ (قَدْ) لَمْ يَجُزْ دُخُولُ الْفَاءِ فِيهِ، فَيُقَدَّرُ (قَدْ) لِيَصِحَّ.

(و) قُلْتُ (على) تقدير (الحذف) من تَرَى: (رَ) بالفتح، والوزن: (ف)،
 (وَيَلْزُمُهُ الهاءُ في الوقفِ) كما مرَّ في (قَه)، (فتقول: رَهَ رَيَا رَوَا) وأصله: رَيُوا
 (ري) أصله: رَيِي (رَيَا رَيْنَ) بفتح الرَّاءِ في الجميع على أصله.
 (وبالتأكيد: رَيْنَ) بإعادة اللَّام المحذوفة كما في: أُغْزُونَ (رَيَانٌ رُونٌ) بضم
 الواوِ دون الحذف كما في: اغْزَنَ؛ لأنَّه لا ضَمَّةَ هنا تدلُّ عليه؛ إذ ما قبله مفتوح،
 (رَيْنَ) بكسرِ ياءِ الضَّميرِ دون الحذف كما في اغْزِنَ؛ لأنَّه لا كسرةَ هنا تدلُّ عليه
 إذ ما قبله مفتوح (رَيَانٌ رَيْنَانٌ).

(وبالخفيفة رَيْنَ رُونٌ رَيْنَ، فهو راءٍ) في اسمِ الفاعِلِ، أصله: رائي، أُعِلَّ إعلالٌ
 رام (رائيَان) في تثنيته (راؤُون) في جمعه، أصله: رائِيُون، نُقِلَتِ الهمزةُ فحذفتِ الياءُ،
 فوزنُه: فاعُون، وهو (ك: راع راعيَان راعُون، وذلك مَرُيٌّ) في اسمِ المفعولِ (ك:
 مَرُعي) أصله: مَرُؤُوي؛ ك: مَرُوي، قُلِبَتِ الواوُ ياءً وأدْغِمَتْ وكُسِرَ ما قبلُها.
 (وبناءً أَفْعَل) ماضي بابِ الإفعالِ (منه)؛ أي: من (رَأَى) (مُخَالِفٌ لِأَخَوَاتِهِ
 أيضاً)؛ أي: كما كانَ (يَرَى) مُخَالِفاً لِأَخَوَاتِهِ مِنْ نَحْوِ (يَنَأي) في التِّزَامِ حَذْفِ الهمزةِ
 منه دونَ الأخواتِ، كذلك كانَ بناءُ بابِ الإفعالِ مُطْلَقاً - سواءً كانَ ماضياً أو مضارعاً
 أو أمراً أو غيرَهما^(١) - مُخَالِفٌ لِأَخَوَاتِهِ مِنْ نَحْوِ: (أَنَأي) في التِّزَامِ حَذْفِ الهمزةِ منه
 دونَ الأخواتِ، وذلك لكثرة الاستعمال.

(فتقول: أَرَى) في الماضي، أصله: أَرَأَى؛ ك: أَعْطَى، نُقِلَتِ حركةُ الهمزةِ إلى
 الرَّاءِ وحذفتِ الهمزةُ، وكذا: أَرَيَا أَرُوا أَرَتْ، أَرَتَا أَرَيْنَ.. إلخ، وللقراءِ مذاهبٌ في
 نحو: ﴿أَرَأَيْتَ﴾؛ مِنْ تحقيقِ الهمزةِ وتسهيلِها وإبدالِها^(٢).

(١) قوله: «غيرهما» كذا في «ط»، وسقطت العبارة من «و»، ولعل الصواب: «غيرها».

(٢) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو وابن عامر وحمزة في كل القرآن بالهمز، وقرأ نافع من غير همز والألف
 على مقدار ذوق الهمز، وقرأ الكسائي يغيّر همز ولا ألف. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٢٥٧).

(يُري) في المضارع، أصله: يُرْيِي؛ كـ: يُعْطِي، نُقِلَتْ فُحِذِفَتْ، وكذا: يُرْيَان، يُرُون أصله: يُرْيُون^(١)، فَأُعِلَّ كما مرَّ، فوزنه يُفُون، تُرِي تَرْيَانِ يُرِينْ وأصله: يُرَيْن^(٢) ووزنه بعد إعلاله: يُفَعْلَن^(٣)، مصدره: (إِرَاءَة) أصله: إِرَاءَاً إفعالاً، فُقِلِبَت الياءُ همزةً لوقوعها بعد الألف زائدةً فصارَ: إِرَاءُ إفعالاً، نُقِلَتْ حركةُ الهمزة إلى الرَّاءِ فُحِذِفَت الهمزةُ كما في الفعلِ، وعُوْضَتْ تاءُ التانيث عن الهمزة كما عُوْضَتْ عن الواو في إقامة.

(و) يجوزُ: (إِرَاء) بلا تعويضٍ؛ لأنَّ ذلك ليسَ مثْلَ إقامة؛ لأنَّ عينَ الفعلِ لم يُحذف من الفعلِ في (إقامة) بخلاف ذلك، فلمَّا حُذِفَتْ مِنْ (إقامة) ولمَّ تُحذف من فعله التَّرمِ التَّعْوِيضُ في الأكثرِ، فإنَّها قد تُحذفُ حالَ الإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِقَامَ الصَّالِوةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وهاهنا لمَّا حَذِفَتْ [في المصدرِ]^(٤) ما حُذِفَ في فعله لم يَحْتَجْ إلى لزومِ التَّعْوِيضِ، فجَوَّزَ (إِرَاء) كثيراً شائعاً.

(وتقول: إِرَايةً) بالياء أيضاً؛ لأنَّها إنَّما تُقْلَبُ همزةً إذا وَقَعَتْ طَرَفاً، وَمَنْ قَلَبَ نَظَرَ إلى أَنَّ الياءَ^(٥) حُكْمُهَا حُكْمُ كلمةٍ أُخرى، فكانَها مُتَطَرِّفةً.

(فهو: مُرٍ) في اسمِ الفاعلِ، أصله: مُرْيِي، حُذِفَت الهمزةُ كما مرَّ فَأُعِلَّ إعلالاً رامٍ، فُقِيلَ: (مُرٍ) على وزنِ مُفٍ (مُرْيَانٍ) أصله: مُرْيَانِ (مُرُون) أصله: مُرْيُون (وَأَرَتْ) في فِعْلٍ الواحدِ الغائيةِ، أصله: أَرَأَيْتَ؛ كـ: أَعْطَيْتَ، حُذِفَت الهمزةُ الثَّانيةُ وَقُلِبَت الياءُ أَلْفاً وحُذِفَتْ لِلإِتْقَاءِ فُقِيلَ: أَرَتْ، على وَزَنِ: أَفَتْ، فهي (مُرِيَّةٌ) في اسمِ الفاعلِ للواحدةِ أصله: مُرْيِيَّةٌ (مُرْيَتَانِ) أصله: مُرْيَتَانِ، (مُرِيَاتٌ) أصله: مُرْيَاتٌ (وذاك مُرِي) أصله:

(١) في «ط»: «وكذا يريان يريون أصله يريون» وفي «و»: «وكذا يريان يرون أصله يريون».

(٢) في «ط» و«و»: «يريين»، والصواب المثبت.

(٣) قوله: «يفعلن» كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب: «يفلن»؛ لأن «يفعلن» هو وزنه قبل الإعلال.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) في «ط» و«و»: «بقاء»، والصواب المثبت.

مُرَأَى، حُذِفَتِ الهمزة كما تقدّمَ وَقُلِبَتِ الياءُ أَلِفًا ثُمَّ حُذِفَتْ لِلإِتْقَاءِ، ووزنه مُفَى.
وتقولُ في اسمِ الفاعِلِ: جاءَنِي مُرٍ، وَمَرَزْتُ بِمُرٍ، بالحذفِ، ورَأَيْتُ مُرِيًّا،
بالإثباتِ لَخِفَةِ الفتحَةِ.

وفي اسمِ المفعولِ: جاءَنِي مُرَى، ورَأَيْتُ مُرَى^(١)، وَمَرَزْتُ بِمُرَى،
[بالحذفِ]^(٢) في الجميعِ لبقاءِ العِلَّةِ، وهي تَحَرُّكُها وانْفِتَاحُ ما قَبْلَها.

وفي تثنِيَةِ اسمِ المفعولِ: (مُرَيَّان) بفتحِ الرَّاءِ، وفي الجمعِ: (مُرَوْن) بفتحِ الرَّاءِ
أيضاً، أصلُه: مُرَيَّونَ قُلِبَتِ الياءُ أَلِفًا وحُذِفَتْ، (مُرَاة) في المؤنَّثِ، أصلُه: مُرِيَّةٌ، قُلِبَتْ
ياؤه أَلِفًا فَحُذِفَتْ^(٣)، (مُرَيَّات) بفتحِ الرَّاءِ.

(و) في (الأمرِ: أَرِ) بناءً على الأصلِ المرفوضِ، وهو من (تَأْرِي) حَذِفَتْ
حرفَ المُضَارَعَةِ وَاللَّامَ بَقِيَ: أَرِ (أَرِيَا أَرُوا) أصلُه: أَرِيُوا، نُقِلَتْ ضَمَّةُ الياءِ
وحُذِفَتْ، ووزنه: أَفُوا.

(أَرِي) أصلُه: أَرِيي، ففَعِلَ ما سَبَقَ، ووزنه: أَفِي (أَرِيَا أَرِيَنَّ) على وزنِ:
أَفَلَا أَفَلَنَّ.

(وبالتأکید: أَرِيَنَّ) بإعادةِ اللَّامِ ك: أَغَزَوَنَّ (أَرِيَانَّ أَرَنَّ) بحذفِ الواوِ لدلالةِ
الضَمَّةِ عليها، (أَرَنَّ) بحذفِ الياءِ لدلالةِ الكسرةِ عليها (أَرِيَانَّ أَرِيَنَانَّ).

(وفي النّهْيِ: لا تُرِ لا تُرِيَا لا تُرُوا، لا تُرِي لا تُرِيَا لا تُرِيَنَّ، وبالتأکید: لا تُرِيَنَّ لا
تُرِيَانَّ لا تُرِيَنَّ، لا تُرِيَنَّ لا تُرِيَانَّ لا تُرِيَنَانَّ).

(وتقولُ في افْتَعَلَ مِنَ المَهموزِ الفاءِ: ائْتَالَ؛ أي: أَصْلَحَ (كاختار، وايتَلَى)؛

(١) في «ط» و«و»: «مريّا»، والصواب المثبت.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) قوله: «فحذفت»، كذا في «ط» و«و»، ولعل الصواب إسقاطها، فلا حذف هنا.

أَي: قَصَرَ (كَافْتَضَى) وَالْأَصْلُ: (اِئْتَالَ) وَ(اِئْتَلَى) قُلِبَتِ الثَّانِيَةُ يَاءً كَمَا فِي: إِيْمَانٍ، وَقَدْ ثُبِتَ فِي حَدِيثٍ: «اتَّرَزَ»^(١) مِنْ اتَّرَزَ، فَقَوْلُ السَّعْدِ: إِنَّ التَّشْدِيدَ خَطَأٌ^(٢)، فَاسِدٌ يُخْشَى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ سَنَدَ الْمُحَدِّثِينَ أَقْوَى مِنْ سَنَدِ اللَّغَوِيِّينَ.

وَأَمَّا (اِتَّخَذَ) فَالْمُعْتَمَدُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ (أَخَذَ) بَلْ مِنْ (تَخَذَ) بِكسْرِ الْخَاءِ بِمَعْنَى: (أَخَذَ)، فَلِذَلِكَ أُدْغِمَ، وَقَدْ قُرِئَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] بِالْوَجْهِينِ فِي السَّبْعَةِ^(٣).

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٠) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بَلْفَظٍ: «وَكَانَ بِأَمْرِي فَاتَّرَزُ...»، وَفِي الْبُخَارِيِّ أَيْضًا (٣٠٣) مِنْ حَدِيثِ مَيْمُونَةَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَاشِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَمَرَهَا، فَاتَّرَزَتْ وَهِيَ حَائِضٌ»، وَفِيهِ أَيْضًا (٣٦١) مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ فِي الصَّلَاةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ: «فَإِنْ كَانَ وَاسِعًا فَالْتَحِفْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ ضَيِّقًا فَاتَّرَزْ بِهِ».

(٢) انْظُرْ: «شَرْحُ تَصْرِيفِ الْعِزِيِّ» (ص ١٨٤).

(٣) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابُو عَمْرٍو: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِ﴾ بِتَخْفِيفِ التَّاءِ وَكسْرِ الْخَاءِ، وَالباقُونَ بِتَشْدِيدِ التَّاءِ وَفَتْحِ الْخَاءِ. انْظُرْ: «التَّيْسِيرُ» لِلدَّانِي (ص ١٤٥).

(فصل)

في بناء اسمي الزمان والمكان

وهو اسمٌ وُضِعَ لزمانٍ أو مكانٍ باعتبار وقوع الفعل فيه من غير تقييد بأحد الأزمنة الثلاثة، أو بمكانٍ من الأمكنة، وهو من الألفاظ المشتركة مثل: المجلس، يصلح لمكان الجلوس ولزمانه.

وهما (من يفعل: مفعّل، بكسر العين) توافقاً (كالمجلس) في السالم (والمبيت) في المعتل، أصله: مبيتٌ، نُقِلَتْ كسرة الياء إلى ما قبلها.

(ومن يفعل ويفعل بفتح العين وضمة) لفّ ونشر مرتّب (على مفعّل مفتوح العين) أمّا في مفتوحه فللتوافق، وأمّا في مضمومه فلتعذر الضمّ؛ لرفضهم مفعلاً في الكلام، إلا: مكرماً ومعوّناً، ويرجع الفتح على الكسر لخفته (كالمذهب) من يذهب بالفتح (والمقتل) من يقتل بالضّم (والمشرب) من يشرب بالفتح لكنه من باب علم (والمقام) من يقوم، وأصله: مقومٌ، أُعِلَّ إعلالاً قام.

(وشدّ: المسجد والمشرق والمغرب والمطلع والمجزر) مكان نحر الإبل وذبح الجزور (والمرفق) مكان الرّق (والمفرق) مكان الفرق، ومنه: مفرق الرأس (والمسكن) مكان الشكون (والمنسك) مكان العبادة (والمبيت) مكان النبات (والمسقط) مكان السقوط، ومنه: مسقط الرأس.

والمعنى: أنّ هذه الكلمات كلّها جاءت مكسورة العين وقياسها الفتح؛ لأنّ المجزّر من يجزّر بفتح العين، والباقي من مضمومه.

(وحكي الفتح)؛ أي: فتح العين (في بعضها)؛ أي: بعض هذه المذكورات على وفق القياس، وهو (المسجد) لغة شاذّة، و(المطلع) و(المسكن) و(المنسك) قراءات متواترة^(١).

(١) قرأ: ﴿مطلع﴾ [القدر: ٥] بفتح اللام السبعة عدا الكسائي فإنه قرأ بالكسر، وقرأ: ﴿في مسكنهم﴾ =

(وَأَجِيزَ الْفَتْحُ فِي كُلِّهَا) عَلَى وَفْقِ الْقِيَاسِ.

(هَذَا) الَّذِي ذُكِرَ (إِذَا كَانَ الْفِعْلُ صَحِيحَ الْفَاءِ وَاللَّامِ) سَوَاءٌ كَانَ وَسْطُهُ حَرْفَ عِلَّةٍ أَوْ غَيْرَهَا، (وَأَمَّا غَيْرُهُ)؛ أَي: غَيْرُ صَحِيحِ الْفَاءِ وَاللَّامِ (فَمِنْ الْمُعْتَلِّ الْفَاءِ) اسْمُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ (مَكْسُورٌ عَلَيْهِ أَبَدًا؛ كـ: الْمَوْضِعِ وَالْمَوْعِدِ) لِأَنَّ الْكَسَرَ هُنَا أَسْهَلُ بِشَهَادَةِ الْوِجْدَانِ.

(وَمِنْ الْمُعْتَلِّ اللَّامِ) اسْمُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ (مَفْتُوحٌ عَلَيْهِ أَبَدًا) سَوَاءٌ كَانَ مَفْتُوحَ الْعَيْنِ أَوْ مَضْمُومَهُ أَوْ مَكْسُورَهُ، وَأَوْتًا أَوْ يَائِيًا، بِقَلْبِ اللَّامِ أَلِفًا (كَالْمَأْوَى وَالْمَرْمَى) وَكَذَا: الْمَوْتَى، وَأَتَى بِمِثَالَيْنِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ وَاحِدٌ فِيمَا عَلَيْهِ أَيْضًا حَرْفُ عِلَّةٍ، وَفِيمَا لَيْسَ كَذَلِكَ.

(وَقَدْ تَدْخُلُ عَلَى بَعْضِهَا نَاءُ التَّانِيثِ) إِمَّا لِلْمُبَالَغَةِ، أَوْ لِإِرَادَةِ الْبُقْعَةِ، وَذَلِكَ مَقْصُورٌ عَلَى سَمَاعِ اللَّغَةِ (كَالْمَظَنَّةِ) بِالْكَسْرِ، لِلْمَكَانِ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّ الشَّيْءَ فِيهِ، (وَالْمَقْبَرَةِ) بِالْفَتْحِ لِمَوْضِعِ يُقْبَرُ فِيهِ، (وَالْمَشْرِقَةِ) بِالْفَتْحِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُشْرِقُ مِنْهُ الشَّمْسُ.

(وَشَذَّ الْمَقْبَرَةُ وَالْمَشْرِقَةُ بِالضَّمِّ)؛ لِأَنَّ قِيَاسَهَا الْفَتْحُ؛ لَكُونِهِمَا مِنْ (يَفْعُلُ) مَضْمُومِ الْعَيْنِ.

(و) بِنَاءُ اسْمِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ (مِمَّا زَادَ عَلَى الثَّلَاثَةِ) ثَلَاثِيًّا مَزِيدًا أَوْ رِبَاعِيًّا مَجْرَدًا أَوْ مَزِيدًا فِيهِ (كَاسِمِ الْمَفْعُولِ) مِنْ بَابِهِ (كَالْمُدْخَلِ وَالْمُقَامِ) وَالْمُدْخَرِجِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْمُسْتَخْرَجِ وَالْمُخْرَنْجِمِ.

(وَإِذَا كَثُرَ الشَّيْءُ بِالْمَكَانِ قِيلَ فِيهِ: مَفْعَلَةٌ) بِفَتْحِ الْمِيمِ وَالْعَيْنِ وَسُكُونِ الْفَاءِ

= [سبأ: ١٥] بفتح الكاف حمزة وحفص، وقرأ: ﴿مَسْكَاً﴾ [الحج: ٣٤، ٦٧] بفتح السين ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ونافع وعاصم. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٦٩٣، ٥٢٨، ٤٣٦).

مَبْنِيَّةٌ (مِنَ الثَّلَاثِيِّ الْمَجْرَدِ)؛ أَي: إِنْ كَانَ الْاسْمُ مَجْرَدًا بُنِيَ، وَإِنْ كَانَ مُزِيدًا فِيهِ رُدَّ إِلَى الْمَجْرَدِ وَبُنِيَ (فَيُقَالُ: أَرْضٌ مَسْبَعَةٌ)؛ أَي: كَثِيرَةُ السَّبْعِ (وَمَأْسَدَةٌ)؛ أَي: كَثِيرَةُ الْأُسْدِ (وَمَذَابَةٌ)؛ أَي: كَثِيرَةُ الذَّنْبِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْمَجْرَدِ.

(وَمُبْطَخَةٌ)؛ أَي: كَثِيرَةُ الْبُطِيخِ، (وَمَقْتَاةٌ) بَفَتْحٍ مَثْلَثَةٍ فَهْمَزَةٍ؛ أَي: كَثِيرَةُ الْقُثَاءِ، بِالضَّمِّ مَمْدُودًا، وَهَذَانِ مِنَ الْمَزِيدِ فِيهِ، حُذِفَتْ إِحْدَى الطَّاءَيْنِ وَالْيَاءُ مِنَ الْبُطِيخِ.

وَفِي نَسَخَةٍ: (مَطْبَخَةٌ) بِتَقْدِيمِ الطَّاءِ، فَيَكُونُ مِنَ الطَّبِيخِ، لَعْنَةٌ فِي الْبُطِيخِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ الْبُطِيخَ بِالرُّطَبِ^(١). وَفِي رَوَايَةٍ: الطَّبِيخُ^(٢). وَفِي رَوَايَةٍ: الْقُثَاءُ^(٣)، وَلَا مَنَعَ مِنَ الْجَمْعِ.

وَحُذِفَ أَحَدُ الثَّائِيَيْنِ وَالْأَلِفُ مِنَ الْقُثَاءِ.

(و[أَمَّا]^(٤) اسْمُ الْآلَةِ، وَهُوَ)؛ أَي: الْآلَةُ، وَذَكَرَ بِاعْتِبَارٍ خَبْرَهُ (مَا يُعَالِجُ بِهِ الْفَاعِلُ الْمَفْعُولُ لَوْصُولِ الْأَثَرِ إِلَيْهِ)؛ أَي: إِلَى الْمَفْعُولِ؛ كَالْمِنْحَتِ الَّذِي يُعَالِجُ بِهِ النَّجَّارُ الْخَشَبَ لَوْصُولِ الْأَثَرِ إِلَى الْخَشَبِ، وَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ (أَمَّا) وَجَوَابِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (فَيَجِيءُ)؛ أَي: اسْمُ الْآلَةِ (عَلَى مِثَالِ مُحَلَّبٍ) عَلَى مِفْعَلٍ بَفَتْحِ الْعَيْنِ قِيَاسًا (وَمُكْسَحَةٍ) عَلَى مِفْعَلَةٍ سَمَاعًا (وَمِفْتَاحٍ) عَلَى مِفْعَالٍ (وَمُضْفَاةٍ) أَصْلُهُ: مُضْفَوَةٌ، قُلِبَتِ الْوَاوُ أَلِفًا. (وَقَالُوا)؛ أَي: أَكْثَرُ الْعَرَبِ: (مِرْقَاةٌ) بِكَسْرِ الْمِيمِ (عَلَى هَذَا)؛ أَي: عَلَى أَنَّهَا اسْمُ آلَةٍ كَالْمُضْفَاةِ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ لِمَا يُرْقَى بِهِ؛ أَي: يُصْعَدُ فِيهِ، وَهُوَ السُّلَّمُ.

(١) رواه أبو داود (٣٨٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٦٧٩) و(٦٨٠) من حديث عائشة أيضاً، ولفظ الرواية الثانية: «كان يعجبه الطبخ...».

(٣) رواه مسلم (٢٠٤٣) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما. والقضاء يجوز فيه فتح القاف وكسرها.

(٤) ما بين معكوفتين سقط من «ط» و«و». انظر: «شرح مختصر تصريف العزي» للسعد (ص ١٨٨).

(وَمَنْ فَتَحَ الْمِيمَ)؛ أي: ميمَ المِرْقَاةِ (أَرَادَ الْمَكَانَ)؛ أي: مكانَ الرَّقِيِّ، دُونَ
الآلَةِ، وَقَدْ قَالُوا: مِطْهَرَةٌ وَمِطْهَرَةٌ، فَمَنْ كَسَرَهَا شَبَّهَهَا بِالآلَةِ الَّتِي يُعْمَلُ بِهَا، وَمَنْ
فَتَحَهَا قَالَ: هَذَا مَوْضِعٌ يُجْعَلُ فِيهِ.

(وَشَذَّ مُذْهَنٌ) لِلإِنَاءِ الَّذِي جُعِلَ فِيهِ الدُّهْنُ (وَمُسْعُطٌ) لِلَّذِي جُعِلَ فِيهِ
السَّعُوطُ - بَفَتْحٍ أَوَّلِهِ - فَهُوَ دَوَاءُ الْأَنْفِ (وَمُدْقٌ) بِتَشْدِيدِ الْقَافِ لِمَا يُدْقُ بِهِ
(وَمُنْخَلٌ) لِمَا يُنْخَلُ بِهِ (وَمُكْحَلَةٌ) لِلإِنَاءِ الَّذِي يُجْعَلُ فِيهِ الْكُحْلُ (وَمُخْرَضَةٌ)
بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ لِلإِنَاءِ الَّذِي يُجْعَلُ فِيهِ الْأَشْنَانُ، حَالُ كَوْنِهَا
(مُضْمُومَةُ الْمِيمِ وَالْعَيْنِ) وَالْقِيَاسُ كَسْرُ الْمِيمِ وَفَتْحُ الْعَيْنِ، (وَجَاءَ: مِدْقٌ وَمِدْقَةٌ)
بِكَسْرِ الْمِيمِ وَ[فَتْحِ] الْعَيْنِ (عَلَى الْقِيَاسِ) هَذَا.

* (تَنْبِيْهُ) عَلَى كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ الْمَرَّةِ، وَهُوَ الْمَصْدَرُ الَّذِي قُصِدَ بِهِ الْوَاحِدَةُ مِنْ مَرَّاتٍ
الْفِعْلِ بِاعْتِبَارِ حَقِيقَةِ الْفِعْلِ، لَا بِاعْتِبَارِ خُصُوصِيَّةِ نَوْعٍ مِنْهُ: (الْمَرَّةُ مِنْ مَصْدَرِ الثَّلَاثِيَّ
الْمُجَرَّدِ) وَيَكُونُ (عَلَى فَعْلَةٍ بِالْفَتْحِ)؛ أَي: بِفَتْحِ الْفَاءِ (تَقُولُ: ضَرَبْتُ ضَرْبَةً) فِي السَّلَامِ
(و: قُمْتُ قَوْمَةً) فِي غَيْرِهِ؛ أَي: ضَرْبًا وَاحِدًا وَقِيَامًا وَاحِدًا.

(وَمِمَّا زَادَ عَلَى الثَّلَاثَةِ) رِبَاعِيًّا كَانَ أَوْ ثَلَاثِيًّا مَزِيدًا فِيهِ يَحْصُلُ (بِزِيَادَةِ الْهَاءِ)
الَّتِي هِيَ تَاءُ التَّأْنِيثِ الْمَوْقُوفُ عَلَيْهَا هَاءٌ فِي آخِرِ الْمَصْدَرِ (كَالْإِعْطَاءَةِ وَالْإِنْطِلَاقَةِ)
وَالِاسْتِخْرَاجَةِ وَالْمُنْدُوحَةِ، وَهَذَا الْحُكْمُ عَامٌّ فِيمَا ذَكَرَ.

(إِلَّا مَا فِيهِ تَاءُ التَّأْنِيثِ مِنْهُمَا)؛ أَي: مِنَ الثَّلَاثِيَّ وَالرِّبَاعِيَّ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ
فِيهِ تَاءُ التَّأْنِيثِ (فَالْوَصْفُ بِالْوَاحِدَةِ) وَاجِبٌ (كَقَوْلِكَ: رَحِمْتُهُ رَحْمَةً وَاحِدَةً)
قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نْفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ [الْحَاقَّةُ: ١٣]، (وَدَخَرَجْتُهُ دَخْرَجَةً وَاحِدَةً)
وَقَابَلْتُهُ مُقَابَلَةً وَاحِدَةً، وَاطْمَأْنَنْتُ اطْمِئْنَانَةً وَاحِدَةً.

(١) مَا بَيْنَ مَعْكَوْفَتَيْنِ سَقَطَ مِنْ «ط» وَ«و». انْظُرْ: «شرح مختصر تصريف العزي» للسعد (ص ١٩١).

(والفِعْلَةُ بالكسْرِ؛ أي: بكسرِ الفاءِ (للنَّوعِ مِنَ الفعلِ)؛ أي: الحالة التي عليها الفعلُ، (تقولُ: هو حَسَنُ الطَّعْمَةِ والجلِسةِ)؛ أي: حَسَنُ النَّوعِ مِنَ الطَّعْمِ والجلوسِ. ومنه: (الِقْتَلَةُ) بالكسْرِ للحالة التي قُتِلَ عليها المَيِّتُ، و(المَيِّتَةُ) للحالة التي أُمِيتَ عليها، أماننا الله تعالى على مَحَبَّتِهِ تابِعِينَ لِدِينِ نَبِيِّهِ وَمِلَّتِهِ، بَصَرَفِ قُلُوبِنَا إِلَى نَحْوِ عُيُوبِنَا لِنَتَّوَبَ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الرسالة رقم: (٦٣) مجلّة رسائل الإمام الميرزا علي القاري

البركة في شرح البركة

تأليف العلامة
الميرزا علي القاري

يطبع مطبعة على نسخين مطبوعين

تصنيف وتصحيح
ماهر أديب جروش

دار الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمته التحفنيق

الحمد لله ربَّ العالمين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على النبيِّ الكريمِ الأمين، وعلى آله وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ على مَنْ جُمِعَتْ لَهُ كُلُّ الْفَضَائِلِ، واجْتَمَعَتْ فِيهِ خَيْرُ الشَّمَائِلِ، فَمَنْ لَجَمْعِهَا وَعَدَّهَا يُحَاوِلُ، فَمَهْمَا اسْتَعْمَلَ مِنْ وسائلٍ، فسيَقْنَى العُمْرُ ولا يَتَّهَى الإِخْصَاءُ، كيف وهو خَيْرُ مَنْ حَمَلَتْ الأَرْضُ وَأَظْلَمَتِ السَّمَاءُ؟ فصاحَةُ المَنْطِقِ مع حُسْنِ البَيَانِ، وبلاغَةُ القولِ في طلاقَةِ اللِّسَانِ، شُجَاعٌ لا يَعْرِفُ الخَوْفَ والفَزَعَ، قَوِيٌّ لا يَمْلِكُهُ القَلَقُ والجَزَعُ، لا يَجْبُنُ في الحَادِثَاتِ ولا لَعْدُوِّ يَسْتَكِينُ، بل يُواجِهُهُ بِرِباطَةٍ جَاشٍ وفَوادٍ مَكِينٍ.

لا يَقْهَرُ يَتِيمًا ولا يَنْهَرُ سائِلًا، ولا يَزْدَرِي بائِسًا ولا يَحْقِرُ عَائِلًا، يُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ وَيُحِبُّ الْمَساكِينَ، فقلْبُهُ يُنبِغُ رَحْمَةً مَعِينٍ، يُؤانِسُ الْأَصْحَابَ وَيَسْتَشِيرُهُمْ، وَيَسْأَلُ عَنْهُمْ وَيُزَوِّرُهُمْ، فَكانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّفْسِ والمَالِ والبَنِينِ، أَذَاهُ قَوْمُهُ فَأَكْثَرُوا، فَحَتَّى الرَّبَاعِيَّةَ كَسَرُوا، فما زادَ أَنْ قالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ، هو الموصوفُ بِاشْتِمَالِ الحُسْنِ وإِحاطَتِهِ بِجميعِ حالاتِهِ ومَقالاتِهِ، وَحَرَكاتِهِ وَسَكَناتِهِ، والمُنْصِفُ بالبِشْرِ التَّامِّ، والبِشَاشَةِ على طَرِيقِ الدَّوامِ، والابْتِسَامِ في وَجهِه الخاصِّ والعامِّ، على وَجهِه يَرْتَضِيهِ المَلِكُ العَلَامُ، عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، ما دَامَتِ اللَّيالي والأيامُ.

فضائلُ لَيْسَ لَهَا حَدٌّ، فالْعُدْرُ فَقَدْ أَغْيَانِي الْعَدَّ، والعِلْمُ بِالْمُتَّهَى عِنْدَ الْخالِقِ الْعَلِيمِ، الَّذِي حَلَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤] وَجَلَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿[الأنبياء: ١٠٧]، وَتَوَلَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، وَوَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبعد:

فقد كثر المادحون لهذا النبي الكريم، والواصفون لِمَا أَوْلَاهُ اللَّهُ مِنَ الْخُلُقِ العظيم، ومن هؤلاء الشاعرُ الصُّوفيُّ شرفُ الدِّينِ البُوصيريُّ، حيث تُعدُّ قصيدته «البردة» الموسومة بـ: «الكواكبُ الدُّرِّيَّةُ في مَدْحِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ» من أهمِّ القصائدِ في هذا المَدِيحِ النَّبَوِيِّ، كما كانت مصدرَ وَحْيٍ لكثيرٍ من القصائدِ التي أُنتِشت بعد البُوصيريِّ في هذا الباب، ومَنَعَ إلهامُ للشُعراءِ والكتابِ، فكَمَ من قصائدٍ نُسِجَتْ على مِنوالِها، وكَمَ من كُتِبَ أُلْفَتْ في شرحِها وإعرابِها، وكان كثيرٌ من شُراحِها من علماءِ العربيَّةِ البارزين، وفي شُروحهم من الفوائدِ النَّحْوِيَّةِ، والصَّرْفِيَّةِ، والبَلَاغِيَّةِ، واللُّغَوِيَّةِ، والأَدَبِيَّةِ والتَّارِيخِيَّةِ، الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

فَمَنْ هُوَ البُوصيريُّ؟ وما هي قصيدته «البردة»؟

البُوصيريُّ: هو محمدُ بنُ سعيدِ بنِ حمَّادِ بنِ عبدِ الله الصَّنْهَاجِيُّ المصريُّ، أبو عبدِ الله، شَرَفُ الدِّينِ، كانَ أَحَدُ أَبَوَيْهِ مِنْ «بُوصِيرٍ» وَالْآخَرُ مِنْ «دِلَاصٍ» فَرَكَّبَ لَهُ نِسْبَةً مِنْهُمَا وَقَالَ: «الدَّلَاصِيرِيُّ»، وَلَكِنْ اشْتَهَرَ بِ«البُوصِيرِيِّ»، وَكَانَتْ لَهُ أَشْيَاءُ مِثْلُ هَذَا يَرَكِّبُهَا مِنْ لَفْظَتَيْنِ، اشْتَغَلَ بِصِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَالتَّصْرِيفِ، وَكَانَ شَاعِرًا حَسَنَ الدِّيَاجَةِ، مَلِيحَ الْمَعَانِي، تُوِّفِيَ سَنَةَ (٦٩٦هـ).

وَلَمْ يُذْكَرِ البُوصِيرِيُّ عِنْدَ مَنْ تَرَجَّمَ لَهُ فِي عِدَادِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، بَلْ هُوَ صُوفِيٌّ مِنْ أَتْبَاعِ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُ شَاعِرٌ ظَرِيفٌ تَجَرِي فِي شِعْرِهِ النُّكْتُ الْمُسْتَمْلَحَةُ، وَلَهُ فِي مَدِيحِ النَّبِيِّ ﷺ الْقَصَائِدُ

الحِسان، كما له في شَكْوَى الحال وذَمِّ الموظَّفينَ في ذلك الزَّمان، قصائدُ لا تَخْلُو مِن ذِكَاءٍ مع صَنعَةِ الإثقان، فهو يَذْكُرُ أَنَّ الموظَّفينَ كانوا يَسْرِقُونَ الغِلالَ، وأنَّهم لولا ذلك ما لَبَسُوا الحريرَ أو شَرَبُوا الخُمورَ وعاشُوا في الدَّلالِ، وأنَّ مِنَ الكُتَّابِ طائفةٌ تظاهرتْ بالتَّنَسُّكِ وعُدَّتْ مِنَ الزُّهَّادِ، مع أنَّها تملأُ بَطُونَهَا بالسُّخْتِ وأكلِ أموالِ البلادِ والعِبَادِ، ويَذْكُرُ أَنَّ القُضَاةَ خائُوا الأمانةَ، وبرَّروا بتأويلِ القرآنِ والحديثِ تلكَ الخيانةَ، وفي ذلك يقولُ:

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدِمِينَا	فَلَمْ أَرْ فِيهِمْو حُرًّا أَمِينَا
فَكَمْ سَرَقُوا الْغِلَالَ وَمَا عَرَفْنَا	بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعِيُونَا
وَلَوْلا ذَاكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا خُمورَ الْأَنْدَرِينَا
تَنَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَعُدُّوا	مِنَ الزُّهَّادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَا
تَفَقَّهَتِ الْقُضَاةُ فَخَانَ كُلُّ	أَمَانَتِهِ وَسَمَّوهُ الْأَمِينَا
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالٍ مِضْرَ	سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا

كما يَذْكُرُ أَنَّ المسلمينَ والأقباطَ كانوا مختلفينَ، فكان المسلمونَ يقولونَ: لنا بمِصْرَ حقوقٌ، وكان القِبْطُ يقولونَ: نحنُ ملوكُ مِصْرَ، وكان اليهودُ يَسْتَحِلُّونَ مَالَ الطَّوائِفِ أَجمَعينَ، وفي ذلك يقولُ:

يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ	بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْأَخْذِينَا
وَقَالَ الْقِبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرَ	وإِنَّ سِوَاهُمُو هُمْ غَاصِبُونَا
وَحَلَّلَتِ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبَبِ	لَهُمْ مَالَ الطَّوائِفِ أَجْمَعِينَا ^(١)

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» (٣/ ٨٨)، و«فوات الوفيات» (٣/ ٣٦٢). وانظر كذلك مقدمة «العمدة

في إعراب البردة» لعبد الله الجاجة (ص ١٣).

وقصّة شفائه من الفالج بعد تظّمه للبُرْدَةِ معروفة مشهورة، والله أعلم بصحّتها، وسيذكرها الشّارح في بداية شرحه، وقد جعلها البعض دلالة على عقلية البوصيري الموسومة بالطّيبة والسّداجة مثل أكثر الصّوفيّة.

ولعلّ حكاية البوصيري هذه - مع ما في قصيدته من القوّة والجزالة - هي سبب ما صاحب البردّة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشّراح لكلّ بيت من أبياتها فائدة: فبعضها أمان من الفقر، وبعضها أمان من الطّاعون، وبيت لمرض الصّرع، وبيت للحفظ من الحريق، وآخر للتوفيق بين الزوجين...!

ومما يدلّ على مكانتها عند البعض تلك العناية التي كان يوجّهها العلماء الأزهريون في عقد الدّروس في يومي الخميس والجمعة لدراسة «حاشية الباجوري على البردّة»، وهي دروس كانت تتلقّاها جماهير من الطّلاب، ويتخيرون لها أوقات الفراغ. وأمّا أثر البردّة في الشعر والشّعراء، فعظيم جدًّا، فقد ضمّنوها، وسطّروها، وخمّسوها، وسبّعوها، وعشّروها، وعارّضوها^(١).

وتسميتها بالبردّة ذُكرت فيه قصص وأقوال ذكرها صاحب «كشف الظنون»، كما ذكر جمعاً ممن تصدّوا لشرحها، ومنهم:

١ - العلّامة أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل الشّافعي المقرئ النّحويّ المؤرّخ، المتوفّى سنة (٦٦٥هـ)، وقد نقل العلّامة القاري عنه مرّة واحدة.

٢ - جمال الدّين: عبد الله بن يوسف، المعروف بابن هشام النّحويّ، المتوفّى سنة (٧٦١هـ).

٣ - جلال الدّين: محمد بن أحمد المحلّي الشّافعيّ، المتوفّى سنة (٨٦٤هـ). وقد أكثر القاري من النقل عنه.

(١) انظر: «العمدة في إعراب البردّة» المقدمة لعبد الله العجاجة (ص ٢٢).

٤ - الشَّيْخُ زَيْنُ الدِّينِ: خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْهَرِيُّ، المتوفى سنة (٩٠٥هـ). وقد جاء في هامش إحدى النسختين الخطيتين المعتمدتين في تحقيق هذه الرسالة بعض النقول عنه، وقد أثبتناها في الحواشي.

٥ - الشيخ شهاب الدين: أحمد بن محمد القسطلاني، شارح «البخاري»، المتوفى سنة (٩٢٣هـ)، وسمّاه: «مشارك الأنوار المضيئة في شرح الكواكب الدرية».

٦ - القاضي: زكريا بن محمد الأنصاري، المتوفى سنة (٩٢٦هـ)، سمّاه: «الزبدة الرائقة، في شرح البردة الفائقة».

٧ - عصام الدين: إبراهيم بن عربشاه الإسفراييني، المتوفى سنة (٩٤٤هـ)، وهو من الشروح التي أكثر القاري من النقل عنها.

٨ - الشيخ محيي الدين: محمد بن مصطفى، المعروف ب: شيخ زاده، المتوفى سنة (٩٥١هـ).

٩ - شرح الملا علي القاري، الذي بين أيدينا، وهو من أحسن الشروح كما قال صاحب «كشف الظنون»^(١).

* المأخذ على القصيدة:

وهذه القصيدة انتقدتها كثير من أهل العلم في أبيات معينة لما فيها من الغلو بنظرهم، ودافع عنها آخرون معللين ومؤولين ما نقد منها! ومن هذه الأبيات المنتقدة قوله في البيتين (٨٠) و(٨١):

مَا سَأَمَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ	إِلَّا وَنَلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضْمِ
وَلَا التَّمَسُّتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ	إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

(١) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٣٣١).

ففيهما مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾، ولحديث: «وإذا استعنت فاستعن بالله»، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعْمَلُوا فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ومن ذلك قوله في البيتين (١٣٥) و(١٣٦):

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنَّ تَلْقَاهُ الْأَسَدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ
وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُتَّصِرٍ بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ
فَإِنَّ طَلَبَ النَّصْرِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ اللَّهِ، وَالنَّاصِرُ وَالْوَلِيُّ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَلَا أَحَدَ
سِوَاهُ، كَيْفَ وَهُوَ الْقَائِلُ وَلَمْ يَسْتَنْ: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُوِّ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
[البقرة: ١٠٧، والتوبة: ١١٦، والعنكبوت: ٢٢، والشورى: ٣١].

ومثله قوله في البيت (١٤٩):

وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُهُ لِحَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ
فَإِنَّ الْإِنْتِصَارَ وَالْخَلَاصَ يَكُونُ بِالْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَطَلَبِ الْعَوْنِ مِنْهُ، لَا
بِإِنْشَادِ الْقَصَائِدِ فِي مَدِيحِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وَقَالَ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ:
﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] لَا قَصَائِدَ الْمَدِيحِ.
وقوله في البيت (١٤٦):

فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذَّمِّ
فَكَمْ مِمَّنْ يُسَمَّى مُحَمَّدًا وَلَا يَسْتَحِقُّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ذِمَّةً وَلَا عَهْدًا، وَلَوْ نَظَرَ إِلَى
زَمَانِنَا لَرَأَى مِنْ هَذَا الْعَجَبِ الْعُجَابِ.

وَمِنَ الْمَاخِذِ أَيْضًا الْقَسَمُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ فِي الْبَيْتِ (٧٥):

أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ
مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ
ومنها قوله في البيت (١٥٦):

لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا
تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعُضْيَانِ فِي الْقِسَمِ
وفي هذا ما فيه، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُقْسَمَ عَلَى حَسَبِ الْمَعَاصِي، بَلْ
عَلَى قَدْرِ الطَّاعَاتِ تَكُونُ الرَّحِمَاتُ مِنْ مَالِكِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.
ومن ذلك أيضاً المبالغة في المديح؛ كقوله في البيت (٤٣):

دَغَ مَا أَدْعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ
وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْكُمِ
فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَمْدَحُهُ بِمَا شِئْتَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَدِيحِ، وَصِفُهُ بِمَا شِئْتَ مِنَ الْأَوْصَافِ،
لَكِنْ لَا يَصِلُ بِكَ الْمَدْحُ إِلَى تَأْلِيهِهِ كَمَا فَعَلَتِ النَّصَارَى مَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي
هَذَا مَا فِيهِ.

لَكِنْ لَعَلَّ أَكْثَرَ بَيْتٍ أَثَارَ الْجَدَلِ حَوْلَهُ هُوَ قَوْلُهُ فِي الْبَيْتِ (١٥٤):

فَإِنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا
وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
كَيْفَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَمَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ
وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا بِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿قُلْ لَا
أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ
وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

أَي: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَكَانَتْ حَالِي عَلَى خِلَافِ مَا هِيَ عَلَيْهِ؛ مِنْ
اسْتِكْنَارِ الْخَيْرِ وَاجْتِنَابِ السُّوءِ وَالْمُضَارِّ حَتَّى لَا يَمَسَّنِي شَيْءٌ مِنْهَا، وَلَسِمَ أَكُنْ
غَالِبًا مَرَّةً وَغَيْرَ غَالِبٍ أُخْرَى فِي الْحُرُوبِ.

وقد ردَّ بعضهم على البوصيري في بيته هذا وما شابهه من أبيات بقوله: مُقْتَضَى هذه الأبيات عِلْمُ الْغَيْبِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مِنْ جُودِهِ، وَتَضَمَّنَتْ الْإِسْتِغَاثَةَ بِهِ ﷺ مِنْ أَعْظَمِ الشَّدَائِدِ وَرَجَائِهِ لِكَشْفِهَا... وهذه الأمور من خصائص الربوبية والألوهية التي ادَّعَتْهَا النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنْ لَمْ يَقُلْ هَؤُلَاءِ: إِنَّ مُحَمَّدًا هُوَ اللَّهُ، أَوْ: ابْنُ اللَّهِ، وَلَكِنْ حَصَلَتِ الْمُشَابَهَةُ لِلنَّصَارَى فِي الْعُلُوِّ الَّذِي نَهَى عَنْهُ ﷺ بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١)، وَالْإِطْرَاءُ هُوَ الْمَبَالِغَةُ فِي الْمَدْحِ حَتَّى يُؤَوَّلَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يُجْعَلَ لِلْمَمْدُوحِ شَيْءٌ مِنْ خِصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَلُوهِيَّةِ^(٢).

فهذا بعض ما قيل على البوصيري في هذه القصيدة.

* محاسن القصيدة: لكنَّ هذا كله لا يمنعنا أن نُشِيدَ بِقُوَّةِ شِعْرِهِ وَجَزَالَتِهِ، وَخُصُوصاً فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ غُرَّةَ الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ، حَتَّى ذَاعَ فِي الْأَفَاقِ صِيَتُهَا، وَتَرَنَّمَتِ الْمَجَالِسُ وَالْمَحَافِلُ بِأَيَّاتِهَا الَّتِي اتَّسَمَتْ بِمَا اتَّسَمَ بِهِ شِعْرُ الْبُوصِيرِيِّ مِنْ كَوْنِهِ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَاللِّطَافَةِ، وَقَمَّةِ الْعُدُوبَةِ وَالْإِنْسِجَامِ، فَقَدْ عُدَّتْ مِنْ أَجْمَلِ الْقَصَائِدِ وَأَقْوَاهَا؛ لِمَا حَوَتْهُ مِنْ بَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ وَحُسْنِ التَّعْبِيرِ، وَدِقَّةِ التَّشْبِيهِ وَالتَّصْوِيرِ، وَرِقَّةِ الْأَلْفَافِ فِي مَوَاضِعِ الْمَدِيحِ وَالْحِكْمِ وَنَحْوِهَا، وَشِدَّتِهَا وَفَخَامَتِهَا فِي وَصْفِ الْحُرُوبِ وَأَشْبَاهِهَا، فَمِنْ جَمِيلِ الْمَدِيحِ قَوْلُهُ:

أَكْرَمَ بِخُلُقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ	بِالْحُسْنِ مَشْتَوِلٌ بِالْبِشْرِ مُتَّسِمٌ
كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ	وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هَمَمٍ

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الرد على البردة» لعبد الله بن عبد الرحمن الملقب بـ (أبابطين) (ص ١٣).

وَمِنْ مَلِيحِ الْحِكَمِ قَوْلُهُ:

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمَهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِ أَوْ يَصِمِ
إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

وَمِنْ تَصْوِيرِ الْحُرُوبِ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ حُلَّ بِسَاحَةِ الْكُفَّارِ:

كَأَنَّمَا الدِّينَ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُم بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرِمِ
يَجْرُ بِحَرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ يَزْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ
فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ الْبَلِيغَةِ، وَالْمَعَانِي السَّمِينَةِ، وَالْأَلْفَاظِ الْفَخْمَةِ الْقَوِيَّةِ، حَيْثُ اسْتَعْمَلَ أَلْفَاظَ: (الْقَرْمِ) وَ(اللَّحْمِ) وَ(الْإِلْطَامِ)، الْمُنَاسِبَةَ لِمَقَامِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ فِي الْحَرْبِ، كَمَا شَبَّهَ الْخَمِيسَ - وَهُوَ الْجَيْشُ الْعَظِيمُ - بِالْبَحْرِ فِي الْمَهَابَةِ وَالْجَرِيَانِ، وَالْإِهْلَاكِ وَاللَّمْعَانِ، وَتَمَوَّجَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فِي السَّيْدَانِ وَالْهَيْجَانِ، وَشَبَّهَ أَفْوَاجَ الْمُقَاتِلِينَ بِأَمْوَاجِ الْبَحْرِ فِي التَّتَابُعِ وَالتَّدَاوُعِ، وَذَلِكَ الْبَحْرُ يَزْمِي مَوْجاً مُتَلَاطِماً بَتَلَاخِقٍ، وَهُوَ الْأَبْطَالُ الَّتِي تَتَصَادَمُ وَتَتَسَابِقُ، وَتَتَصَاكُكُ أَسْلِحَتُهُمْ وَتَتَلَاصِقُ.

* شَرْحُ الْعَلَامَةِ الْمَلَا عَلِي الْقَارِي:

فَهَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنْ أَجْمَلِ قِصَائِدِ الْمَدِيحِ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَجْمَلَهَا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ، وَبَعْضُ صُورِهَا يَتَطَلَّبُ بَيَانَ رُوْعَةَ ذَلِكَ التَّصْوِيرِ، فَقَدْ جَاءَ شَرْحُ الْعَلَامَةِ الْقَارِي هَذَا لِتَزْيِيعِ الْغَمُوضِ عَنْ مَعَانِيهَا، وَيُبْرِزَ بَعْدَ مَرَامِيهَا، بَعْبَارَاتِهِ الْجَمِيلَةَ الرَّخِيْمَةَ، وَعِظَاتِهِ الْحَسَنَةَ الْكَرِيمَةَ، وَسَمَّاها:

«الزُّبْدَةُ فِي شَرْحِ الْبُرْدَةِ»

فَجَاءَتْ كَمَا أَرَادَهَا مُؤَلِّفُهَا، مِنْ أَجْمَلِ مَا خَطَّهُ الْقَلَمُ، رَائِعَةً مِنْ رَوَائِعِ الْأَدَبِ

وَالْحَكَمَ، وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ الْبُرْدَةِ فَيَأْصُ الْمَشَاعِرَ فِيهَا، صَادَقَ الْعَوَاطِفَ فِي مَعَانِيهَا، فَإِنَّ الشَّارِحَ قَدْ تَمَاهَى مَعَ هَذَا الْفَيْضِ وَالصُّدُقِ، فَجَاءَ شَرْحُهُ بِكَلِمَاتٍ تَدْخُلُ إِلَى الْقَلْبِ فَتَجْعَلُهُ يَدُقُّ، وَعِبَارَاتٍ تَهْزُ الْمَشَاعِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الصُّدُقِ، تَقِيضُ نُصْحًا وَشَفَقَةً وَدَعْوَةً إِلَى التَّوْبَةِ وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ، فَهِيَ تَعْبِيرٌ عَنِ الْفَيُوضَاتِ أَكْثَرُ مِنْهَا شَرْحًا لِلآيَاتِ، وَتَصْوِيرٌ لِلْمَشَاعِرِ أَكْثَرُ مِنْ رَصْفِ الْكَلِمَاتِ، فَكَانَ الشَّرْحُ جُرْعَةً إِيْمَانِيَّةً، وَنَفْحَةً رَبَّانِيَّةً مِنْ نَفْسٍ نَقِيَّةٍ، وَرُوحٍ طَاهِرَةٍ زَكِيَّةٍ، هِيَ دَعْوَةٌ لِإِصْلَاحِ النُّفُوسِ وَمُرَاقِبَةِ الْقُلُوبِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِهَا، حَتَّى لَا يَكُونَ سِوَى الْخَالِقِ فِي مُحَرَابِهَا، وَلَا تَدُقُّ بِغَيْرِ حُبِّ الْإِلَهِ فِي خَلْجَاتِهَا، وَمِمَّا قَالَ فِي شَرْحِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ: «وَأَعْدَى عَدُوِّكَ: نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنَبَيْكَ، فَإِنَّ اللَّصَّ الدَّاخِلَ بَدَاءَ عُضَالٍ، لَا يُمَكِّنُ الْإِخْتِرَازُ عَنْهُ بِحَالٍ... وَلَا تَنْهَا السَّطِيئَةَ فِي الْوُصُولِ إِلَى مَقَامِ حُصُولِ الْمَأْمُولِ، فَلَا يُمَكِّنُ مُخَالَفَتُهَا بِالْمَرَّةِ وَلَا تَذَلُّكَ، وَلَا مُوَافَقَتُهَا فَتُضِلَّكَ، فَإِنْ سَمَّيْتَهَا تَأْكُلُكَ، وَإِنْ جَوَّعْتَهَا تَخْذُلُكَ، فَعَلَيْكَ بِالْإِعْتِدَالِ؛ لَتُوصِلَكَ إِلَى مَنْزِلِ الْوِصَالِ، وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَعَدُوٌّ لَا صُلْحَ مَعَهُ؛ إِذْ هُوَ مُجْبُولٌ عَلَى عَدَاوَتِكَ، وَمُوكُولٌ إِلَى ضَلَالَتِكَ، فَتَشَمَّرْ لِمُحَارَبَتِهِ، وَاجْتَهِدْ فِي مُخَالَفَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، قَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ، فَإِنَّهُ كَلَبٌ سُلْطَ عَلَيْكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى صَرْفِهِ وَمَنْعِهِ».

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «انْظُرُوا يَا أَصْحَابِي، وَاعْتَبِرُوا يَا أَحِبَّائِي، مِنْ خَسَارَةِ نَفْسِي الْفَاسِدَةِ، فِي مُعَامَلَتِهَا الْكَاسِدَةِ، مِنْ إِثَارِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، مَعَ مُعَارَضَتِهَا لِلْعُقُوبِ الْبَاقِيَةِ، عَلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، الْمَوْصِلِ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، حَيْثُ لَمْ تَشْرَ الْمُلْكُ الْبَاقِي بِالثَّمَنِ الْفَانِي، وَلَمْ تَقْصِدْ تَحْصِيلَ الدِّينِ بِتَرْكِ الدُّنْيَا بِحُسْنِ النِّيَّةِ وَصَفَاءِ الطَّوَيَّةِ».

وَهَكَذَا كَانَ أَكْثَرُ هَذَا الشَّرْحِ، فَهُوَ لَا يَتْرُكُ مَنَاسِبَةً دُونَ أَنْ يَقْدَمَ فِيهَا مَوْعِظَةٌ.

وقد سَلَكَ في شرح الأبياتِ ثلاثَ مَراحِلَ:

الأولى: شرحُ المفردات.

الثانية: إعرابُ الكلمات.

الثالثة: الختمُ بالمعنى العامِّ لكلِّ بيتٍ من الأبيات.

وقد يختلفُ الترتيبُ بينَ الأولِ والثاني، ويكون في ضمّنيهما بعضُ الشرحِ الجزئي، لكن المعنى العامُّ يكون مؤخراً وشاملاً للكلِّ.

ومن الأساليبِ الحسنةِ التي تُطالِعُ في هذا الشرح: ربطُ المعاني الشعريةِ بالآياتِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ؛ كقولِ صاحبِ البردة:

واخْشَ الدَّسائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ قَرُبَ مَحْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّحَمِ

ربطه الشارحُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وقوله:

وَلَا تُطْعِ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكْماً فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَضَمِ وَالْحَكَمِ

قال الشارح: في البيتِ إيماءٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ مِنْهُمْ آيْماً أَوْ كُفُوراً﴾

[الإنسان: ٢٤] أو إشارةً إلى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا طاعةَ لمخلوقٍ

في مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ».

أمّا قوله:

وَرَأَوْنَهُ الْجِبَالَ الشُّمَّ مِنْ دَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا آيْماً شَمَمٍ

فقال عنه المؤلف: وفيه تلميحٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الْآيَةُ هُوَ فِي بَيْنِهَا

عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقوله:

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثُمَّ اضْطَفَّاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ
قال المؤلف: وفي البيت تلويحٌ إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ
الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وتلميحٌ إلى حديث صحيح، وهو قوله
صلى الله تعالى عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَفَى
مِنْ كِنَانَةَ قَرِيشًا، وَاضْطَفَى مِنْ قَرِيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».
وقولُ صاحبِ البردة:

لَمْ يَمْتَحِنَا بِمَا تَعَيَّا الْمُقْصُولُ بِهِ حِرْصاً عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهَمِ
قال الشَّارحُ: وفي البيت إيماءٌ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفي قوله:

وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ
قال المؤلف: وفي البيت إيماءٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ
نُصِرَهُ اللَّهُ﴾ [الآية [التوبة: ٤٠]، وإشارةٌ إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وفي بيت البردة:

كَانَهُمْ هَرَباً أَبْطَالَ أَبْرَهَةَ أَوْ عَسْكَرٌ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتِيهِ رُمِي
قال: وفي بناء (رُمِي) على صيغة المجهول إيماءٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ
إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

وفي البيت الذي فيه:

وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا أُؤْلِيَتْ مِنْ رُتَبٍ وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُؤْلِيَتْ مِنْ نِعَمٍ

قال: قيل: المصراعُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، والثَّانِي عبارةٌ عن قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، وفي تفخيمهما إيماءٌ إلى أنَّ الأفهامَ تَحَيَّرَتْ عن تفصيلِ تفسيرِ ما أَوْحَى، والأحلامُ تاهَتْ في تبيينِ تَعْيِينِ الآيَاتِ الْكُبْرَى.

وأحياناً يشبَّه البيتُ ببيتٍ آخرٍ منسوجٍ على منواله، وما أجملَ تشبيهه بيتَ

البردة:

كَأَنَّمَا اللَّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ مِنْ مَعْدِنِي مَنَاطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسِمٍ
بَيْتِ الْبَحْتَرِيِّ:

فَمِنْ لُؤْلُؤٍ يُبْدِيهِ عِنْدَ ابْتِسَامِهِ وَمِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الْكَلَامِ يُسَاقِطُهُ
أَمَّا قَوْلُ صَاحِبِ الْبَرْدَةِ:

لَا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظَمُهُ طُوبَى لِمُتَشَقِّقٍ مِنْهُ وَمُلْتَمِّمٍ
فَجَعَلَهُ مُقْتَبَسًا مِنْ بَيْتِ الزَّهْرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

مَاذَا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ لَوْ لَمْ يَشَمَّ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا
وفي بيت:

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرْفَقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرِفَتْ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
قال: فيه إيماءٌ إلى ما قيل:

وما حبُّ الدِّيارِ شَغَفَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَ

ولا يخلو كلامه أحياناً من التنبيه على إيماءاتٍ بعباراتٍ تكون أحياناً أقرب إلى كلام أهل الإشارات، كالبيت الذي فيه:

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَى قَرِمٍ
قال: وفيه إيماءٌ إلى أن الدينَ ممَّا يجبُ القيامُ بخدمته لوصولهِ، والاعتناءُ لمظهرهِ وحصولهِ، ولأَفْلَهُ الانتقالُ إلى قلوبِ أربابِ الكَمال، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ الضَّجَرَ مِنَ الضَّيْفِ وأهلِ الارتحال، دَيَّدَنُ الكَفَّارِ والجُهَّالِ.
وفي البيت الذي فيه:

تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذَرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لِيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ
قال: وفي العُدُولِ عن الأوقاتِ أو الأيامِ إلى (الليالي) إيماءٌ إلى سوءِ حالِ أوقاتهم؛ فإنَّ ظُلْمَةَ الزَّمانِ وسوَادَهُ كنايةٌ عن ذلك، أو إشارةٌ إلى أنَّ حالَهُم في اللَّيَالِي التي هي مكانُ راحتِهِم، وَزَمانُ اسْتِراحتِهِم، كانتْ كذلك، فكيف زَمانُ أَيامِهِم المشوَّشَةِ المشوَّومةِ عليهم بأنواعِ الكُدُوراتِ، وأصنافِ الضَّرُوراتِ.
وأمثال هذا كثير في هذا الكتاب الرائع المفيد، لكن رغم كل ما ذكر لا يخلو الأمر من بعض الملاحظات:

فَمِنِ الْمَآخِذِ الَّتِي قَدْ تَوَخَّذُ عَلَى شَرْحِ الْعَلَمَةِ الْقَارِي: الْقَوْلُ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الْمُسْتَعْرَبَةِ؛ كَنَقْلِهِ عَنِ الْبَعْضِ قَوْلَهُ: صَاحِبُ الْوَرْدِ مَلْعُونٌ.
وكقوله في معرضِ تَعْدَادِ فُضَائِلِ النَّبِيِّ ﷺ: وَمِنْ جُمْلَةِ مُعْجَزَاتِهِ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى حَتَّى عَلَى أَيْدِي بَعْضِ أُمَّتِهِ.
وكقصَةِ الرَّجُلِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَخَالَفَ هَوَى نَفْسِهِ، فَتَرَكَ الْخُرُوجَ إِلَى الْجِهَادِ لِأَنَّهُ أَتَاهُمَا بِدَفْعِهِ لِلْجِهَادِ لَغَرَضِ الرِّيَاءِ.

وكذا تلميحُه بهمَّ يوسفَ عليه السلامُ بما يُنزَّه عنه الأنبياءُ.

وكذا ما نقلَه عن الغزاليِّ حيث قال: بل رُوِيَ عن الغزاليِّ: أنَّ تربةً لصِقتْ بجسده من الفرش، أعلى رتبةً من العرش.
ومن ذلك نقلُه: أنَّ حمامَ الحرمِ اليومَ هو من نسلِ الحمامة التي نَسَجَتْ على فمِ الغارِ.

ومنه ما نقلَه عن بعضِ الظُرفاء، ناعثاً إياه بأنَّه من كُملِ العُرفاء، أنه قال:
من كمالِ ظهورِ الرَّحمةِ في العُقْبَى يندمُ المُذنبونَ على تَقْليلِ مَعْصِيَتِهِمْ في الدُّنْيَا.
وهذا الكلامُ من أحدِ الظُرفاءِ الكُملِ مردودٌ بلا تمهّل، فلعل جاهلاً مثله يسمعه، فيسارعَ إلى اغتنامِ الفرصةِ بالإكثارِ من المعاصي؛ لئلا يكونَ في الآخرةِ من النَّادِمين على ما فرَّطَ من تَرْكِهَا.

وكذا اعتباره أحدَ أبياتِ القصيدةِ نصّاً في الردِّ على المعتزلةِ في تفضيلهم الملائكةَ على الأنبياء، وكأنه حديثٌ عن النبي ﷺ، والبيتُ هو:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِيمِ
وقد ذَكَرْنَا الردَّ على كُلِّ ما تَقْدَم، كُلُّ في مكانِهِ، والحمدُ لله.

ومن هذا البابِ موافقَتُهُ لبعضِ ما جاء في البردةِ ممَّا عَدَّه البعضُ من المُخَالَفاتِ، كالبيتين اللَّذَيْنِ فيهما:

ما سَأَمَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلَّا وَنَلْتُ جِوَاراً مِنْهُ لَمْ يُضْمِ
وَلَا التَّمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

ومن ذلك الاستدلالُ بأحاديثَ لا أصلَ لها؛ كحديث: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ سَقَرٍ». والصحيحُ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ».

وكذا حديث: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورِي، فَنَظَرَ إِلَيْهِ تَعَالَى نَظْرَ هَيْبَةٍ فَانْشَقَّ نِصْفَيْنِ، فَتَخَلَّقَ مِنْ نِصْفِهِ الْكَوْنَيْنِ». وَلَمْ أَحِذْهُ فِي كِتَابِ.

وَلَعَلَّ مِنَ الْمَأْخِذِ قَوْلُهُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ فِي مَفْعُولِ اشْتَكَى، مَعَ أَنَّهُ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، وَذَلِكَ فِي الْبَيْتِ:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنْ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنْ وَرَمٍ
وَإِخْلَالُهُ أحياناً بالقواعد لضرورة السَّجْعِ؛ كقوله: وَقَالَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ
عَبْدِ الْمُطَّلَبِ: رَأَيْتُ نُوراً عَلَى نُورِ السَّرَاجِ غَالِبِ. وَالصَّوَابُ: غَالِباً.
وَمَنْهُ تَجْوِيزُهُ كَوْنِ (مَا) اسْتِفْهَامِيَّةً فِي بَيْتِ الْبَرْدَةِ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنِ الْوُدُّ بِهِ سَوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ
وهذا غيرُ ظاهرٍ في نظري إلا باعتبار (مَنِ الْوُدُّ) اسْتِفْهَاماً ثانياً، وفيه تَكْلُفٌ، كما
أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُشِرْ إِلَيْهِ؛ أَعْنِي إِلَى الْاسْتِفْهَامِ فِي (مَنِ الْوُدُّ).
هَذَا، وَقَدْ اعْتَمَدْنَا فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى نُسَخَتَيْنِ خَطِيئَتَيْنِ نَفِيسَتَيْنِ:
الْأُولَى نَسْخَةُ جَامِعَةِ الْمَلِكِ سَعُودٍ، وَرَمَزُهَا: «د»، وَالثَّانِيَةُ نُسْخَةُ وَلِيِّ الدِّينِ
أَفَنْدِي وَرَمَزُهَا: «ل».

وَقَدْ جَاءَ فِي هَامِشِ «د» تَعْلِيقَاتٌ مَفِيدَةٌ بَعْضُهَا مِنْ شَرْحِ الشَّيْخِ خَالِدِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْهَرِيِّ، وَفِي هَامِشِ «ل» كَذَلِكَ بَعْضُ التَّنْبِيهَاتِ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

أحمدُهُ امتثالاً لأمرِهِ لا إحصاءً لشُكرِهِ، وأُصَلِّي على حَبِيبِهِ وَصَفِيِّهِ وَرَسُولِهِ
وَنَبِيِّهِ، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَتَابِعِيهِ وَحِزْبِهِ.
وبعد:

فقد رُوِيَ عن ناظم القصيدة المعروفة بالبردة المشهورة بـ «البردة» أنه قال:
أصابني خلطٌ فالجٍ أبطلَ نصفي، ففكرتُ أن أعملَ قصيدةً في مدحِ النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم لأستشفعَ بها إلى الله تعالى، فأنشأتُ هذه القصيدة ونمتُ، فرأيتُ
النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، فمسحَ عليَّ بيده المباركة فوفيتُ لوفتي،
فخرجتُ غدوةً من بيتي فإذا بعضُ الفقراء يستَشِدُّني قصيدةً أولها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ

فَتَعَجَّبْتُ إِذْ مَا كُنْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَدًا، فقال: والله لقد سمعتها تُشَدُّ بينَ يدي
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يتمايلُ تمايلَ الأغصانِ، فأعطيتُهُ إِيَّاهَا، فنَشَرَ
الخبرَ بينَ النَّاسِ، وَلَمَّا انْتَهَى إلى وزيرِ الملكِ الظَّاهِرِ^(١) اسْتَسْخَهَا وَتَذَرَّ أَنْ لَا يَسْمَعَهَا
إِلَّا واقفاً حافياً حاسراً، فرأى هو وأهلُه من بركاتِها خيراً كثيراً.

ثمَّ أصابَ مَوْقِعٌ^(٢) هذا الوزيرَ رَمَدٌ عَظِيمٌ أَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى الْعَمَى، فرأى في

(١) في هامش «د»: «وهو صاحب بهاء الدين»، ووردت القصة في «الوافي بالوفيات» (٣/ ٣٦٨)،
وفيه: «بهاء الدين بن حنا».

(٢) هو سعد الدين الفارقي. انظر المصدر السابق.

مَنَامِهِ كَأَن قَائِلًا يَقُولُ: امضِ إلى الوزيرِ وخُذْ مِنْهُ الْبُرْدَةَ واجْعَلْهَا عَلَى عَيْنِكَ، فَعَرَضَ عَلَى الْوَزِيرِ مَا رَأَى، فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ يُقَالُ لَهُ الْبُرْدَةُ، وَإِنَّمَا عِنْدِي مَدِيحُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَسْتَشْفِي بِهِ، فَأَخْرَجَ الْقَصِيدَةَ وَوَضَعَهَا عَلَى عَيْنَيْهِ وَقَرِئَتْ وَهُوَ جَالِسٌ، فَشَفَاهُ اللَّهُ مِنَ الرَّمَدِ لَوْقَتِهِ، فَسُمِّيَتْ بِالْبُرْدَةِ^(١).

وهي معجزةٌ عند طلب الحاجاتِ ونزولِ المِهْمَّاتِ، ولعلَّهَا سُمِّيَتْ بُرْدَةً لكونِهَا فِي الْمَعْنَى كِسْوَةً شَرِيفَةً فَصُلَّتْ عَلَى قَامَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَسْمِيَةُ الصِّفَةِ كِسْوَةً مَجَازٌ مشهورٌ.

هذا، وَقَدْ سَنَحَ لِخَاطِرِ أَفْقَرِ عِبَادِ اللَّهِ الْغَنِيِّ الْبَارِي، عَلِيِّ بْنِ سُلْطَانِ مُحَمَّدٍ الْهَرَوِيِّ الْقَارِي، أَنْ أَخَذَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الْمُبَارَكَةَ الْمَيْمُونَةَ الْمَرْضِيَّةَ؛ رَجَاءً لشفَاءِ الْأَمْرَاضِ الظَّاهِرِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ، مِنْ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيَّةِ، وَابْتِغَاءً لخلْعَةِ الْعَافِيَةِ السَّاتِرَةِ لِلذُّنُوبِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، بِوَضْعِ شَرْحٍ لَطِيفٍ عَلَى الْمَقْصُودِ، مُطَّلٍ غَيْرِ مُمِلٍّ وَلَا مُخِلٍّ، جَعَلَهُ اللَّهُ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّهُ بعبَادِهِ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، وَسَمِّيَتْهُ:

«الرُّبْدَةُ فِي شَرْحِ الْبُرْدَةِ»

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الشَّرِيفَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى فَوَائِدَ لَطِيفَةٍ:

منهَا: أَنَّ عَادَةَ الشُّعْرَاءِ جَرَتْ بِأَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ فِي مَطَالَعِ قَصَائِدِهِمْ تَيْمُنًا بِذِكْرِ لَوَازِمِ الْعَشْقِ مِنْ مُقَاسَاةِ الْأَحْزَانِ وَالْأَشْوَاقِ، وَتَحْمُلِ مَكَارِهِ الْبُعْدِ وَالْفِرَاقِ، وَيُسَمُّونَهُ تَغْزُلًا وَتَشْيِيبًا، وَيَعُدُّونَهُ مِنْ جُمْلَةِ لُطْفِ الْمَطْلَعِ تَقْرِيبًا.

ومنهَا: أَنَّهُمْ يَجْرِدُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُخَاطَبًا يُحَاوِرُونَهُ دَلَالًا وَعِتَابًا، وَيُحَاضِرُونَهُ سُؤْلًا وَجَوَابًا، إِشَارَةً إِلَى نُدرَةٍ خَبِيرٍ يُظْهِرُونَ رَمُوزَ الْعَشْقِ عَلَيْهِ، وَإِشْعَارًا إِلَى قَلَّةِ صَدِيقٍ يُضْمِرُونَ كَنُوزَ الْحُبِّ لَدَيْهِ.

(١) فِي هَامِش «ل»: «الظاهر: بالبردة».

ومنها: أَنَّهُمْ يُعَيِّرُونَ كَلَامَهُمْ مِنْ أَسْلُوبٍ إِلَى آخَرَ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّفَاتِ تَكَلُّمًا وَخِطَابًا وَغِيَّةً؛ تَطْرِيبَةً لِلْمَسْمُوعِ وَتَنْشِيطًا لِلْسَّامِعِ، فَإِنَّهُمْ فِي ضَيَافَةِ الْأَرْوَاحِ يَتَصَنَّعُونَ بِأَسَالِيبِ الْإِيرَادَاتِ، كَمَا أَنَّ النَّاسَ فِي إِطْعَامِ الْأَشْبَاحِ يَصْنَعُونَ أَلْوَانَ الْأَطْعَمَةِ الْوَارِدَاتِ.

ومنها: معرفة الحب والعشق، فإنَّ الحبَّ في وضع اللسان: عبارة عن مِيلِ النَّفْسِ إِلَى الْمُوَافِقِ الَّذِي تَصَوَّرَهُ مِنْ حُسْنٍ أَوْ إِحْسَانٍ، والعشق هو الميلُ الْمُفْرِطُ الْغَالِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَكُلٌّ مِنَ الْحُسْنِ وَالْإِحْسَانِ يُذَرِّكُ تَارَةً بِالْبَصْرِ وَتَارَةً بِالْبَصِيرَةِ، وَالْحُبُّ يَتَّبِعُهُمَا، وَكَمَالُهُمَا لِلْحَقِّ تَعَالَى حَقِيقَةً؛ إِذْ لَا يَصِحُّ نَفْيُهُ وَاتِّفَاؤُهُ عَنْهُ تَعَالَى، بِخِلَافِ صِفَاتِ الْخَلْقِ فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ ثَوْبٍ مُسْتَعَارٍ. ثُمَّ الْمَجَازِيُّ قِسْمَانِ:

نَفْسَانِيٌّ: وَعَلَامَتُهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ إِعْجَابِ السُّمَّحِبِّ بِشِمَائِلِ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ يَجْعَلُ النَّفْسَ لِيَنَّةَ ذَاتٍ وَجِدٍ وَرِقَّةٍ، مُنْقَطِعَةً عَمَّا سِوَى مَحْبُوبِهِ، وَلِذَا قِيلَ: الْمَجَازُ قَنْطَرَةُ الْحَقِيقَةِ.

وَخَيَوَانِيٌّ: وَهُوَ يُعِينُ الْأَمَّارَةَ عَلَى اسْتِخْدَامِ الْعَاقِلَةِ فِي تَحْصِيلِ اللَّذَّةِ الْعَاجِلَةِ، وَالْأَكْثَرُ مُقَارَنَتُهُ لِلْفُجُورِ حَقِيقَةً أَوْ حُكْمًا.

ومنها: أَنَّ الْقَصِيدَةَ مُرْتَبَةٌ عَلَى عَشْرَةِ أَبْوَابٍ:

الْأَوَّلُ: فِي التَّغَزُّلِ وَبَيَانِ دَاءِ النَّفْسِ وَدَوَائِهَا.

الثَّانِي: فِي رِيَاضَتِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّالِثُ: فِي تَفْضِيلِهِ عَلَى الْكَائِنَاتِ.

الرَّابِعُ: فِي خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ.

الخَامِسُ: فِي إِرْهَاصَاتِهِ.

السَّادُسُ: فِي مُعْجَزَاتِهِ.

السَّابِعُ: فِي الْقُرْآنِ.

الثَّامِنُ: فِي مِعْرَاجِهِ.

التَّاسِعُ: فِي غَزَوَاتِهِ.

العَاشِرُ: فِي عَرْضِ الْحَاجَةِ عَلَى الْمَمْدُوحِ وَالْمُنَاجَاةِ مَعَ الْمَوْلَى.

قَالَ النَّازِمُ شَرْفُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ الْبُوصَيْرِيِّ الْمِصْرِيِّ،
وَقِيلَ: الدَّمَشْقِيُّ الشَّامِيُّ، كَسَاهُ اللَّهُ حُلَلَ الْغُفْرَانِ، وَأَسْكَنَهُ بُحْبُوحَةَ الْجَنَانِ:

١- أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بِذِي سَلَمٍ مَرَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ

همزة الاستفهام للتقرير مُنْصَبَّةٌ عَلَى (مَرَجَتْ) قُدِّمَتْ لِلصَّدَارَةِ، وَ(مِنْ تَذَكُّرِ) مُتَعَلِّقٌ بـ (مَرَجَتْ) قُدِّمَ لِلحَضَرِ، وَ(تَذَكُّرِ) مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى مَفْعُولِهِ، وَفَاعِلُهُ مَحذُوفٌ؛ أَي: مِنْ تَذَكُّرِكَ جِيرَانًا، وَهُوَ جَمْعُ جَارٍ أَوْ مُجَاوِرٍ، وَهُوَ الْأَوَّلَى بِالْمَقَامِ. وَ(بِذِي سَلَمٍ)؛ أَي: صَاحِبِ شَجَرَةٍ فِي الْبَادِيَةِ مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ؛ أَي: كَاتِبِينَ بِمَكَانٍ فِيهِ هَذَا الشَّجَرُ، وَهُوَ بَفَتْحِ اللَّامِ، وَرُويَ بِكسْرِهَا. وَ(دَمْعًا) مَاءُ الْبُكَاءِ مَفْعُولٌ بِهِ لـ (مَرَجَتْ)، وَ(جَرَى) صِفَتُهُ؛ أَي: دَمْعًا جَارِيًا، (مِنْ مُقْلَةٍ) مُتَعَلِّقٌ بـ (جَرَى) وَهِيَ دَاخِلُ الْعَيْنِ. وَ(بِدَمٍ) مُتَعَلِّقٌ بـ (مَرَجَتْ).

وَالْمَعْنَى: يُحَاوِرُ مُخَاطَبًا جَرَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَقُولُ: يَا مَنْ يُبَالِغُ فِي الْبُكَاءِ لَا بَدَّ لِعُرُوضِ بَكَائِكَ مِنْ سَبَبٍ، فَمَا هُوَ؟ أَهَوَ لَوْعَةُ الْفِرَاقِ وَمَشَقَّتُهُ بِأَنْ ابْتَلَيْتَ بِفِرَاقِ أَحِبَابٍ كُنْتَ فَرِحًا بِوُجْدَانِهِمْ فِصْرَتْ وَجِعًا بِهُجْرَانِهِمْ؟ أَمْ سَبَبٌ آخَرُ يَأْتِي فِي الْبَيْتِ الْآتِي.

٢- أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ نِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

(أَمْ) مُنْقَطِعَةٌ، وَ(هَبَّتِ) فَعْلٌ مَاضٍ وَ(الرِّيحُ) فَاعِلُهُ، وَهِيَ مُؤَنَّثٌ سَمَاعِيٌّ،

و(من تلقاء كاظمة)؛ أي: من جهتها، مُتَعَلِّقٌ بـ (هَبَّتْ)، وهي اسمٌ لموضع، وصَرَفُها للضرورة، و(أَوْمَضَ) بمعنى: لَمَعَ، عَطَفْتُ عَلَى (هَبَّتْ)، و(الْبَرْقُ) فاعله، و(في الظلّماء) متعلّقٌ بمحذوفٍ حالٍ من الفاعل؛ أي: واقِعاً في اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، و(من إَضَمَ) بكسر الهمزة مُتَعَلِّقٌ بـ (أَوْمَضَ) بتقديرٍ مُضَافٍ؛ أي: من تلقاء إَضَمَ، فَإِنَّهُ جَبَلٌ، والبرق لا يَلْمَعُ مِنْ نَفْسِ الْجَبَلِ بَلْ مِنْ جِهَتِهِ.

قيل: المرادُ بذِي سَلَمٍ وكاظمة وإَضَمَ مواضعٌ قُربَ مدينةِ الإسلام، مَدِينَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، وهو يَنَاسِبُ جَدّاً في المَقَام، وقريبُ المَأْخِذِ لمعنى المَرَام.

والمعنى: أَوْ سَبَبُ بُكَائِكَ لُمْعَةُ الْوِصَالِ، بَأَنْ تَمْنَيْتَ وَصَالَهُمْ بِإِهْدَاءِ الرِّيحِ إِلَيْكَ نَسِيمَ أَخْبَارِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ، وَإِبْدَاءِ الْبَرْقِ عَلَيْكَ آثَارَ مَسَاكِينِهِمْ وَدِيَارِهِمْ.

وفيه إيماءٌ إلى أَنَّ مَاوَاهُمْ فِي الْبُعْدِ بَحِيثٌ لَا يَتَنَهَى إِلَيْهِ إِلَّا الرِّيحُ، وَفِي الرَّفْعَةِ بَحِيثٌ لَا يَرْتَقِي إِلَيْهِ إِلَّا السَّحَابُ، فَالْقَاصِدُ إِلَيْهِ يَتَحَمَّلُ جُهْداً عَلَى جُهْدِهِ، وَيُقَاسِي وَجْداً عَلَى وَجْدِهِ.

ثُمَّ بَعْدَ الْمَسَافَةِ اسْتِعَارَةُ لُبْعَدِ الْمَرْتَبَةِ، وَعُلُوُّ الْمَكَانِ لِعُلُوِّ الْقَدْرِ وَالْمَكَانَةِ. وَإِنَّمَا قَالَ: (فِي الظَّلْمَاءِ)؛ لِأَنَّ الضُّوءَ فِي الظُّلْمَةِ أَجْلَى، وَمِنْ مَكَانٍ عَالٍ أَجْلَى. وَمُحْصَلُ مَعْنَى الْبَيْتَيْنِ: إِنَّ بُكَاءَكَ إِنَّمَا لَتَذَكُّرٍ وَصَلٍ مَاضٍ مُتَطَلِّعٍ، أَوْ لَتَطَلُّبٍ وَصَلٍ حَالٍ مُتَوَقَّعٍ.

وَيُمْكِنُ حَمْلُ الْمَعْنَى عَلَى الْحَقِيقَةِ بِتَمْهِيدٍ مُقَدِّمَةٍ، وَهِيَ: أَنَّ الْمُرِيدَ قَدْ يَبْلُغُ بِالرِّيَاضَةِ حَدّاً تَعْرِضُ لَهُ خُلُسَاتٌ وَجَذَبَاتٌ مِنْ أَطْلَاعِ نَوْرِ الْحَقِّ عَلَيْهِ لَذِيذَةٌ، كَأَنَّهَا بُرُوقٌ تَلْمَعُ إِلَيْهِ ثُمَّ تَخْمَدُ لَدَيْهِ، وَتُسَمَّى تِلْكَ الْخُلُسَاتُ وَقْتاً، وَهُوَ أَوَّلُ دَرَجَاتِ الْوُجْدَانِ وَالْوُصُولِ، وَكُلُّ وَقْتٍ مُحْفُوفٍ بِوَجْدَيْنِ: وَجْدٌ إِلَيْهِ؛ أَيْ: حُزْنٌ عَلَى اسْتِطَانِهِ، وَوَجْدٌ عَلَيْهِ؛ أَيْ: حُزْنٌ وَأَسْفٌ عَلَى قَوْتِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا الْمُرِيدُ الْمَرْتَاضُ،

ما سببُ بكائك؟ هل تذكُر تلك الجَذَبَاتِ اللَّذِيذَةَ وَالْاِشْتِيَاقَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِضَائِهَا، أَوْ تَطْلُبُ أَمْثَالَهَا أَوْ أَعْلَى مِنْهَا إِلَى أَنْ يَحِقَّ الْوَصُولُ؟ بَلَّغْنَا اللَّهَ الْحَصُولَ بِجَاهِ الرَّسُولِ. فَكَأَنَّ الْمُخَاطَبَ أَنْكَرَ ذَلِكَ النَّاشِءَ عَنِ الْحُبِّ، فَقَالَ لَهُ:

٣- فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمًّا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَقِفْ بِهِم

الفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ تُسَمَّى فصيحةً؛ أي: إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَأُوكَ لِأَجْلِ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ، وَ(مَا) اسْتِفْهَامِيَّةٌ فِي الْمَوْضِعَيْنِ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى الْابْتِدَائِيَّةِ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ فِيهِمَا مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى الْخَبَرِيَّةِ، وَتَقْدِيرُهُ: أَيُّ شَيْءٍ حَادَثَ لِعَيْنَيْكَ وَلِقَلْبِكَ؟ وَالشَّرْطُ طَيِّبَانِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ تَقْدِيرُهُ: مَا حَدَثَ لِعَيْنَيْكَ هَامِيَّتَيْنِ؟ أَي: سَائِلَتَيْنِ دَمْعُهُمَا عِنْدَ قَوْلِكَ لِهَمَّا: (اكْفُفَا)؛ أَي: امْتَنَعَا عَنِ الْبُكَاءِ، وَمَا حَدَثَ لِقَلْبِكَ هَائِمًا؟ أَي: حَائِرًا عِنْدَ قَوْلِكَ لَهُ: اسْتَقِفْ؛ أَي: كُنْ مُفِيقًا حَاضِرًا.

قال الخبيصي^(١) في شرح القصيدة: يجوزُ: كُفًّا وَاكْفُفًا، بِالْإِدْغَامِ وَالْفَتْحِ.

وهو وهمٌ منه؛ إِذْ صَرَّحُوا بِوُجُوبِ إِدْغَامِ مِثْلِهِ فِي كِتَابِ الصَّرْفِ.

وقال عصامُ الدين^(٢) في شرحها: فَكَّهُ لِلضَّرُورَةِ.

وقال أبو شامة في شرحها: فَكَّهُ خِلَافُ الْقِيَاسِ.

وقيل: تَعَدَّدُ الْعَيْنُ إِنَّمَا هِيَ فِي الصُّورَةِ، وَأَمَّا فِي الْمَعْنَى الْمَطْلُوبِ مِنْهَا فَوَاحِدَةٌ، وَلِهَذَا قَدْ يُرَى الشَّيْءُ شَيْئَيْنِ، فَالتَّعَدُّدُ الصُّورِيُّ لَا يَقْدَحُ فِي الْوَحْدَةِ الْحَقِيقِيَّةِ؛ كَمَا هُوَ

(١) عبيد الله بن فضل الله، فخر الدين الخبيصي، متكلم منطقي. من كتبه: «التذهيب في شرح التهذيب» في المنطق، و«التجريد الشافي» منطق أيضاً، و«شرح منظومة اليافعي في التوحيد»، توفي في حدود سنة (١٠٥٠هـ). انظر: «هدية العارفين» (١/ ٦٥٠)، و«الأعلام» (٤/ ١٩٦).

(٢) إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفراييني، عصام الدين، من كتبه: «الأطول» في شرح «تلخيص المفتاح» للقرطبي، في علوم البلاغة، و«ميزان الأدب» و«حاشية على تفسير البيضاوي»، توفي سنة (٩٤٥هـ). انظر: «الأعلام» (١/ ٦٦).

مذهب بعض المتصوفة المشتهرة بالوجودية، فلفظ (أكفأ) بالنظر إلى الحقيقة مفرد وإن كان في صورة التثنية.

وهذا كما ترى تكلف.

وقيل: فك الإدغام على توهم الأفراد، فلا يُخل بالفصاحة كما أخل في قوله:

الحمد لله العليّ الأجل^(١)

ثم قال: ويمكن أن يقال: إنه أشار إلى أنه - أي: الناظم - قال به بلسان الحيران، وهو لا يعتب بهفوات اللسان، ومثل هذا يعدّ ظرافة من البلغاء في البيان.

والمعنى: إن كنت تُنكر كون البكاء من أعماق المحبة بناءً على أن له أسباباً آخر، فلم لا تملك عينيك وقلبك، فإنك إن أردت ترك البكاء سأل دمعهما، وإن أردت إفاقة القلب عن الوجد يتحير ويتولّ، ومثل هذا البكاء لا يكون إلا من الحب، ومثل هذا التحير لا يوجد إلا من البعد أو القرب.

ثم قال له ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة:

٤ - أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْعُبَّ مُنْكِتٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ

همزة الاستفهام للتعجب أو للإنكار التوبيخي؛ أي: لا ينبغي أن يكون.

و(يَحْسَبُ) بكسر السين وفتحها، و(الصَّبُّ): العاشق، من صَبَّ الماء، غَلَبَ عليه لكثرة بكائه غالباً، و(ما) زائدة، و(بَيْنَ) ظرف لـ (مُنْكِتٌ)، والانْسِجَامُ: السَّيْلَانُ بشدة، والاضْطِرَامُ: الاشتعال بقوة، والتقدير: بين دمع مُنْسَجِمٍ وقلب مُضْطَرِمٍ. وضمير (منه) راجع لـ (الصَّبِّ)، وحذف بعد (مُضْطَرِمٍ) لدلالة ما قبله عليه.

والمعنى: ما يليق للمحب أن يظن أن حبه يخفى على الناس في حال كمال

(١) عزاه الخطابي في «غريب الحديث» (٥٢ / ٣) لرؤبة، وهو دون نسبة في «المقتضب» (١ / ١٤٢ و ٢٥٣)،

و«الأصول في النحو» لابن السراج (٣ / ٤٤٢)، و«الخصائص» لابن جني (٢ / ٣٤٧).

ظُهوره، بسبب سيلان دمه واضطراب قلبه، فإنها بمنزلة شاهدين على إثبات حبه ومُخبرين من أهل بيته على نفسه، فحسبان الكتمان بطلان الحسبان.

وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

ثم استدل على أنه مُحِبٌّ، فقال مخاطباً له:

٥- لَوْلَا الْهُوَى لَمْ تُرْفُ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرَقْتَ لَذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
(الهُوَى) مصدرُ هَوَيْهِ: أحَبَّهُ، والإراقة: الصَّبُّ، والطلل: ما شَخَصَ مِنْ أَثَرِ الدَّارِ مِنْ نَحْوِ اللَّبَنِ وَالْأَحْجَارِ، وَأَرَقَ بِالْكَسْرِ بِمَعْنَى: سَهَرَ، وَ(الْبَانِ): نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ يُشَبَّهُ بِهِ الْقَدُّ، وَطَوَّلُ الْقَامَةِ، وَحُسْنُ الْهَيْئَةِ، وَطِيبُ الرَّائِحَةِ^(١)، وَ(الْعَلَمِ) إمَّا الْعَلَامَةُ أَوْ الْجَبَلُ، وَاللَّامُ فِيهِمَا لِلْجَنْسِ أَوْ لِلْعَهْدِ؛ أَي: الَّذِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ، قِيلَ: الْمَرَادُ جَبَلٌ إِضْمٌ^(٢)، وَالتَّنْوِينُ عَوَظٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَي: عَلَى طَلَلِهِمْ، وَالظَّاهِرُ أَنْ يَكُونَ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ؛ أَي: عَلَى تَذَكُّرِ الطَّلَلِ، وَإِلَّا فَلَا وَصُولَ إِلَى مَنَزِلِ الْمَحْبُوبِ، وَلَا حُصُولَ عَلَى أَثَرِ الْمَطْلُوبِ، وَكَلِمَةُ (لَا) إمَّا زَائِدَةٌ لِلْعَطْفِ عَلَى الْمَنْفِيِّ بِتَأْوِيلِ (لَمْ تُرْفُ) ب: لَا أَرَقْتَ؛ لِأَنَّ (لَمْ) لَمْ تَدْخُلْ عَلَى الْمَاضِي، وَإِمَّا نَافِيَةٌ مَعَ أَنَّهَا لَا تَدْخُلُ عَلَى الْمَاضِي بِلَا تَكَرَّارٍ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّأْوِيلِ.

والمعنى: يَسْتَدِلُّ عَلَى حُصُولِ الْحَبِّ بِلَا وُصُولِ الْقُرْبِ، وَيَقُولُ: لَوْ لَمْ يَتِمَّ كُنْ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ فِي مَدِينَةِ قَلْبِكَ لَتَوَقَّفَ أَمْرُكَ إِلَى مَشِيئَتِكَ، فَلَمْ تُرْفُ دَمْعاً عَلَى أَثَرِ وَخْبِرٍ، وَلَمْ تَسْهَرْ لَذِكْرِ جَبَلٍ وَشَجَرٍ، فَلَا حَ أَنْ دَمْعَكَ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ الْهُوَى، وَسَهْرَكَ شُعْلَةٌ مِنْ نَارِ الْجَوَى^(٣).

(١) في هامش «د»: «والبان شجر الخلاف، واحده: بانه، والعلم اسم جبل، والمراد بهما هنا: موضعان بالحجاز. خالد بن عبد الله الأزهري».

(٢) فوقها في «د»: «كذا»، وبعدها في «ل»: «وكذا التنوين...».

(٣) في هامش «د»: «ومن المعلوم أن السهر والبكاء من علامات أهل المحبة والبلاء والولاء، والمحِب =

وفيه إيماءٌ إلى ما قيل:

وما حُبَّ الدَّيَّارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ولكنْ حُبٌّ مَن سَكَنَ الدَّيَّارَ^(١)
ثُمَّ تَعَجَّبَ مِنْ إنْكَارِهِ الحُبَّ بَعْدَ ظُهُورِهِ فقال:

٦- فكيف تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
الاستفهامُ للإنكارِ التَّوْبِيخِي، أو للاستِيعَادِ والتَّعَجُّبِ^(٢)، والفاءُ فَصِيحَةٌ
في جوابِ شرطٍ محذوفٍ، يعني: إذا دَلَّتِ الأدْلَةُ على المطلوبِ الذي هو
حُبُّ المحبِّوبِ، وتوَيْنُ (حُبًّا) لِلتَّعْظِيمِ، و(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ، وَضَمِيرُ (بِهِ) لِلْحُبِّ،
و(عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحْرِيمُ: ٤]^(٣).

وقيل: المرادُ بالعدولِ: دَمَعُ العَيْنَيْنِ مع السَّقَمِ، أو أنواعُ الدَّمْعِ وأصنافُ السَّقَمِ،
والإضافةُ بَيَانِيَّةٌ، والمرادُ: الدَّمْعُ والسَّقَمُ النَّاشِئَانِ^(٤) عن الحُبِّ والأَلَمِ.

٧- وَأَثَبْتَ الْوَجْدُ حَظِّي عِبْرَةً وَضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ

= لا يبيكي إلا للحبيب، والمريض لا يتمنى إلا لقاء الطبيب، ولذا قيل:

سهر العيون لغني وجهك باطل وبكاؤهن لغير فقدك ضائع.

(١) البيت لمجنون بني عامر، واسمه: قيس بن معاذ، ويقال: قيس بن الملوّح، أحد بني جعدة بن كعب
بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. انظر: «خزانة الأدب» للبيدادي (٢/ ٢١٢)

(٢) في هامش «د»: «و(كيف) حال لا مفعول فيه على ما تُؤْهِمُ، بدليل أنه يجاب بالحال مثل: راكباً،
في جواب: كيف جاء زيد؟ وتبدل منه الحال؛ مثل: كيف جاء زيد أراكباً أم ماشياً، و(ما) مصدرية،
وَضَمِيرُ (بِهِ) لِلْحُبِّ، أو موصولة والضمير لها، والشهادة مستعارة للدلالة الصادقة. شرح آخر».

(٣) في هامش «د»: «وَذَكَرُ العَدُولِ ترشيح لها - للشهادة - وإضافته إلى الدمع والسقم للبيان، أو بمعنى
(من): أي: العدول المستفادة من جهتهما، وهي كما ذكرت خمسة فتأمل، أو المراد تحقق الدمع
والسقم في الأوقات المختلفة وتواليهما. شرح آخر».

(٤) في «ل»: و«د»: «الناشئين»، والصواب المثبت.

(أَثَبَتْ) عَطَفْتُ عَلَى (شَهِدْتُ)، و(الْوَجْدُ): الْحُزْنُ مِنْ جِهَةِ الْحَبِّ، وَهُوَ بِمَعْنَى كَاتِبِ دَارِ الْحُكْمِ، وَالضَّنَى: الْهَزَالُ وَالضَّعْفُ، وَيُلَازِمُهُ عَادَةً صُفْرَةُ الْوَجْهِ، وَ(الْبَهَارُ) بِفَتْحِ الْبَاءِ: نَوْعٌ مِنَ الْوَرْدِ الْأَصْفَرِ، وَ(الْعَنَمُ): شَجَرٌ لَهُ أَغْصَانٌ حُمْرَانِيَّةٌ^(١) تُشَبَّهُ بِه الْأَصَابِعُ، وَ(ضَنَى) عَلَى زِنَةِ رَحَى عَطَفْتُ عَلَى (عَبْرَةً) عَلَى وَزْنِ: قَطْرَةٌ؛ أَيِ: وَأَثَبَتْ عَلَى خَدِّكَ اللَّذِينَ هُمَا بِمَنْزِلَةِ الْوَرَقَيْنِ خَطُّ عَبْرَةٍ؛ أَيِ: الدَّمْعُ الْمَمْزُوجُ بِالْدَّمِ مِثْلَ الْعَنَمِ، عَلَى وَزْنِ الْعَلَمِ، وَخَطُّ ضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ، فَالْتَّزُّ مُشَوَّشٌ.

وقيل: المرادُ بِالْخَطَّيْنِ: دَمْعُ الْعَيْنَيْنِ عَلَى الْخَدَّيْنِ، وَ(ضَنَى) عَطَفْتُ عَلَى (خَطَّيْ)، وَ(مِثْلُ الْبَهَارِ وَالْعَنَمِ) صِفَةٌ (خَطَّيْ). لَكِنْ فِيهِ فَضْلٌ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ بِالْأَجْنَبِيِّ وَهُوَ (ضَنَى).

كَذَا قِيلَ، وَالْأَوَّلَى أَنْ يُعْطَفَ (ضَنَى) عَلَى (خَطَّيْ)، وَيُجْعَلَ (مِثْلُ الْبَهَارِ وَالْعَنَمِ) صِفَةً لِمَجْمُوعِ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ.

وَمَعْنَى الْبَيْتَيْنِ: كَيْفَ تُنْكِرُ الْمَحَبَّةُ بَعْدَ أَنْ شَهِدَ بِهَا شَاهِدًا عَدْلٍ مَا قَدَّرَتْ عَلَى جَرِّهِمَا، وَحَكَمَ قَاضٍ لَا يُنْقِضُ حُكْمَهُ مَعَ وُجُودِهِمَا، وَكَتَبَ عَلَى صُفْرَةِ الْخَدَّيْنِ مَنَشُورُ الْمَحَبَّةِ بِخَطَّيْنِ أَحْمَرَيْنِ، أَوْ سَجَّلَ قَضِيَّةَ الْمَوَدَّةِ مَعَ شُهُودِ الْأَثَرِ عَلَى وَرَقَيْنِ خَدَّكَ بِخَطِّ أَحْمَرَ وَأَصْفَرَ، فَكُلُّ مَنْ رَأَى يَقْرَأُ آيَةَ الْمَحَبَّةِ اللَّائِحَةِ مِنْ وَجْهِكَ، وَيُطَالِعُ الْعَلَامَةَ الْوَاضِحَةَ مِنْ خَدِّكَ، فَالْإِنْكَارُ بِانْحِرَافِ الضُّلُوعِ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ. وَأُسْنَدُ إِثْبَاتِ الْحُمْرَةِ وَالصُّفْرَةِ إِلَى الْوَجْدِ لِأَنَّهُ سَبَبٌ قَرِيبٌ لِعُرْوِضِ الْحَالَاتِ لِلْقَلْبِ مِنَ الْخَيْرَةِ وَالْاضْطِرَامِ وَالْأَرْقِ وَالسَّقَمِ، وَالْدَّمْعُ مِنَ السَّيْلَانِ وَالْأَنْسَجَامِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَحْمَرَارِ وَالْأَصْفَرَارِ، بَلَا اخْتِيَارٍ.

وَأَمَّا الْحَبُّ فَهُوَ سَبَبٌ لِلْحُزْنِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ، وَلِهَذَا الْأَحْوَالِ ثَانِيًا وَبِالْعَرَضِ.

(١) أَيِ: حَمْرُ اللَّوْنِ، وَهِيَ تَبَيَّنَتْ فِي أَصْلِهِ، وَلَا تُشَبِّهُ سَائِرَ أَغْصَانِهِ. انْظُرْ: «الْمَخْصَصُ» (٣/ ٢٥٧).

وَلَمَّا انْتَهَى أَمْرُ السَّقَمِ إِلَى صَبْغِ الْبَشْرِ^(١) بِالْصُّفْرَةِ، وَأَمْرُ الدَّمْعِ إِلَى
الْانْصِبَاغِ بِالْحُمْرَةِ، وَصَفَّهُمَا بِالْعَدَالَةِ إِذْ لَا مَجَالَ لِلتَّهْمَةِ وَالْبَطَالَةِ، فَقَدْ تَأَثَّرَ الظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ مِنَ الْعَشْقِ وَالْمُودَّةِ، وَفَنِيَ الْمَحَبُّ عَنْ ذَاتِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، وَالظَّاهِرُ عَنْوَانُ
الْبَاطِنِ، وَنَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ.

وَلَمَّا انْكَشَفَ كَوْنُ الْمَخَاطَبِ مُحِبًّا، وَكَانَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ فِي الْمَعْنَى، رَجَعَ عَنِ
التَّجْرِيدِ إِلَى التَّكَلُّمِ، وَاعْتَرَفَ بِالْحَبِّ فَقَالَ:

٨- نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى فَأَرَقَنِي وَالْحَبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ

(نَعَمْ) تَصَدِّقُ لِمَا أُثِّبَ بِالِاسْتِدْلَالِ مِنْ قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ وَتَسْجِيلِ
الْقَاضِي مِنَ الْمُحِبِّ؛ أَي: مَا ادَّعَيْتَ عَلَيَّ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَأَثْبَتَهُ حَقًّا، وَلَهُ كَمَالُ الصَّحَّةِ،
فَقَدْ أَسْهَرَنِي خَيَالُ مَحْبُوبِي، وَأَوْجَعَنِي فِرَاقُ مَطْلُوبِي.

يعني: جَاءَنِي فِي اللَّيْلِ خَيَالُهُ، وَأَسْهَرَنِي أَلَمُ وَصَالِهِ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ فِي لَذَّةِ
النَّوْمِ غَافِلًا عَنْ حَالِهِ.

(وَالْحَبُّ يَعْتَرِضُ)؛ أَي: يُعْذِمُ وَيُزِيلُ وَيَمْنَعُ اللَّذَاتِ بِسَبَبِ أَلَمِ الْمَحْبُوبِ
بِالذَّاتِ، وَقِيلَ: يَتَخَلَّلُ بَيْنَهُمَا، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ أَوْ مُعْتَرِضَةٌ، وَاللَّذَّةُ: إِدْرَاكُ الْمُتَلَائِمِ،
وَالْأَلَمُ خِلَافُهُ.

فَالْأَوَّلَى فِي طَرِيقِ مَحَبَّةِ الْمَوْلى: أَنْ يُفَسِّرَ اللَّذَّةَ بِخَيَالِ الْمَهْوِيِّ وَالْأَلَمَ بِمَا
يَخْطُرُ بِيَالِهِ مِنَ السَّوَى، فَالْمَعْنَى: جَاءَنِي فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ خَيَالُ مَالِ الْوَصَالِ، وَنَبَّهَنِي
مِنْ نَوْمِ الْغَفْلَةِ وَشَغَلَنِي بِذِكْرِهِ وَفَكْرِهِ عَلَى طَرِيقِ أَرْبَابِ الْكَمَالِ، وَانْقَلَبَتِ اللَّذَاتُ
الظَّاهِرِيَّةُ أَلَامًا بَاطِنِيَّةً، وَالْأَلَامُ الْحَسِيَّةُ لَذَاتٍ مَعْنَوِيَّةً، فَطُوبَى لَهَا، فَطُوبَى لَهَا.

(١) البشر: ظاهر جلد الإنسان، جمع بشرة. انظر: «القاموس» (مادة: بشر).

ثُمَّ اسْتَشْعَرَ لَاثِمًا بِلِسَانِ الْحَالِ فَخَاطَبَهُ فَقَالَ:

٩- يَا لَاثِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مِّنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلَمْ

(الْعُذْرِي): مَنسُوبٌ إِلَى بَنِي عُذْرَةَ - بَضْمُ الْعَيْنِ -: قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْيَمَنِ إِذَا عَشِقُوا مَا تُتُوا؛ لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ تَكُونُ جَمِيلَةً عَفِيفَةً كَثِيرَةَ الْحَيَاءِ، وَفَتَيَانَهُمْ سَرِيعَ الْحُبِّ قَلِيلَ الصَّبْرِ شَدِيدَ الْحَيَاءِ.

وَقِيلَ: الْهَوَى الْعُذْرِيُّ: هُوَ الْمُفْرِطُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ مُقْبُولَ الْعُذْرِ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ.

و(مَعْدِرَةً) مَفْعُولٌ فَعْلٍ مَقْدَرٍ؛ أَي: أَقْبَلَ مَعْدِرَةً، أَوْ: اعْذُرْنِي مَعْدِرَةً، وَ(مِنِّي) مُتَعَلِّقٌ بِهَا، وَقِيلَ: مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، وَ(إِلَيْكَ) حَالٌ، أَوْ كِلَاهُمَا صِفَتَانِ؛ أَي: مَعْدِرَةٌ صَادِرَةٌ مِنِّي مُتَوَجِّهَةٌ إِلَيْكَ، أَوْ: مُلْقَاةٌ إِلَيْكَ.

وَالْمَعْنَى: أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ بِأَنِّي مُبْتَلَى بِالْحُبِّ الْمَذْكُورِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَسْطُورِ، (وَلَوْ أَنْصَفْتَ)؛ أَي: لَوْ أَتَيْتَ بِالْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ (لَمْ تَلَمْ) فِي الْحُبِّ وَتَرَكْتَ الْعَدْلَ؛ لَعِلْمِكَ بِأَنَّهُ لَيْسَ اخْتِيَارِيًّا، بَلْ يَكُونُ الْعَشْقُ اضْطِرَارِيًّا.

وَقِيلَ: الْمَعْدِرَةُ قَوْلُهُ: (مَحَضَّتَنِي النَّصَحَ).

وَقِيلَ: قَوْلُهُ: (وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ).

وَتَفْصِيلُهُ: يَا مَنْ يَلُومُنِي فِي الْحُبِّ الْمُفْرِطِ أَقْبَلَ مَعْدِرَتِي وَلَا تَظْلِمْ بِمَلَامَتِي، فَإِنَّ الْحُبَّ أَذَابَ لَحْمِي، وَأَسَالَ دَمِي، وَأَزَالَ دَمْعِي عَنْ حَدَقَتِي، وَصَبَغَ بِالْصُّفْرَةِ بَشْرَتِي، وَنَهَبَ قَرَارِي، وَسَلَبَ اخْتِيَارِي:

وَعَيَّبُ الْفَتَى فِيمَا أَتَى بِاخْتِيَارِهِ وَلَا عَيْبَ فِيمَا كَانَ خَلْقًا مُرَكَّبًا

فَحَاصِلُ الْمَعْدِرَةِ: إِنَّ حُبِّي عُذْرِي، وَحُبُّ الْعُذْرِيَّ عُذْرِي.

وقال العصام: (مَعْدِرَةٌ) تَمَيِّزٌ مِنْ نِسْبَةِ (الْعُدْرِيِّ)، و(مَنِّي) متعلقٌ بـ (إِلَيْكَ) وهو اسمٌ فَعْلٌ بِمعْنَى: ائْبُدْ.

١٠ - عَدْتُكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنْ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمٍ
يَقَالُ: عَدَا عَنْهُ عَدَوًا: جَاوَزَهُ، وَإِلَيْهِ عَدَوَى: سَرَى إِلَيْهِ سِرَايَةً، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ لَا بَدَّ مِنَ الْقَوْلِ بِحَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ، وَالْمَشْهُورُ تَقْدِيرُ (إِلَى)؛ لِيَكُونَ دَعَاءً عَلَيْهِ، إِشَارَةً إِلَى مَا وَرَدَ: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ»^(١).

و(الْوُشَاةُ) بضم الواو: جمعُ واشٍ؛ أي: الكَذْبَةُ السَّاعِينَ بِالْفَسَادِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْفَوَادِ، وَالْأَنْحِسَامُ: هُوَ الْإِنْقِطَاعُ.

والمعنى: لِيَكُنْ حَالُكَ مِثْلَ حَالِي؛ لَتَذُوقَ وَبَالِي، وَحُرْقَةَ قَلْبِي وَبَالِي، وَهُوَ أَنَّ سِرِّي لَا يَخْفَى عَنِ الْوَاشِينَ وَاللَّائِمِينَ لِأَخْلَصَ عَنِ الشَّمَاتَةِ وَالْمَلَامَةِ، وَمَرْضِي لَا يَنْقُطِعُ بِالْوَصْلِ لَأَفُوزَ بِالسَّلَامَةِ.

وقيل: المعنى: تَجَاوَزَ حَالِي عَنكَ إِلَى الْعَمَازِينَ، وَفَاشٌ^(٢) سِرِّي عِنْدَ اللَّمَّازِينَ، وَذَاعَ عِنْدَ الْأَحْبَاءِ، وَشَاعَ عِنْدَ الْأَعْدَاءِ، وَلَا يَنْقُطِعُ هَذَا الدَّاءُ، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ عِنْدَ الْأَطْبَاءِ، فَإِذَا عَلِمْتَ حَالِي فِي هَذَا الْمَقَامِ، فَأَنْصِفْ وَاتْرُكِ الْمَلَامَ.
وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِتَقْدِيرِ (عَنْ) دَعَاءٌ لَهُ بَعْدَ الْإِبْتِلَاءِ بِحَالِهِ، أَوْ دَعَاءٌ عَلَيْهِ بِالْحِزْمَانِ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى مَرْتَبَةِ كَمَالِهِ.

و(لَا) فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِنُفْيِ الْجِنْسِ لَا لِلْمُشَابَهَةِ ب: لَيْسَ؛ لَعَدَمِ جَوَازِ دُخُولِهَا عَلَى الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ.

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٥) من طريق خالد بن معدان عن معاوية بن جبريل قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ» قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ وليس إسناده بمُتَّصِلٍ، وخالد بن معدان لم يُدْرِكْ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ.

(٢) في هامش «ل»: «الظاهر: وفشا».

ولمَّا رأى مُبَالَغَةَ اللَّائِمِ فِي مَلَامَتِهِ، وَظَهَرَ أَنَّ قَصْدَهُ مُنْحَصِرٌ فِي سَلَامَتِهِ، وَقَدْ بَالَغَ فِي تَدْلِيسِ عَيْبِهِ، وَالاعْتِذَارِ عَمَّا ظَهَرَ مِنْ سُوءِ غَيْبِهِ، ثُمَّ اسْتَيْقَنَ أَنَّ عُذْرَهُ غَيْرُ نَافِعٍ، وَتَدْلِيسُهُ غَيْرُ نَاجِعٍ، أَنْصَفَ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ التَّقْصِيرَ مِنْ قِبَلِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَقَالَ هَذَا الْمَقَالُ:

١١- مَحْضَتَنِي النَّصْحُ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَالِ فِي صَمَمِ النَّصِيحَةِ: إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِلغَيْرِ، وَالْمَخْضُ: الْإِخْلَاصُ وَالتَّصْفِيَةُ، وَالْمِرَادُ مِنْ عَدَمِ السَّمَاعِ وَمِنْ الصَّمَمِ: عَدَمُ الْإِتِّفَاتِ وَعَدَمُ الْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ.

وَالْعُذَالُ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ: جَمْعُ عَاذِلٍ، وَهُوَ اللَّائِمُ النَّاصِحُ؛ أَي: أَخْلَصَتْ لِي ^(١) النَّصِيحَةُ وَصَفَّيْتُهَا عَنِ الْأَعْرَاضِ الْفَاسِدَةِ فِي لَوْمِكَ لِي فِي الْهَوَى مِنْ جِهَةِ أَسْبَابِهِ؛ كَالْإِتِّفَاتِ إِلَى مَا يُحِبُّ، وَالتَّطَلُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَحَاسِنِهِ وَالتَّوَلُّعِ بِهِ، وَلَكِنْ لَا أَقْبَلُهَا، فَإِنِّي أَسِيرُ الْعَشْقِ وَأَنْتَ أَمِينُ الْعَقْلِ، وَلَا يَجْرِي حُكْمُهُ فِي مَمْلَكَةِ الْعَشْقِ، فَالْعَقْلُ يَنْبِي وَالْعَشْقُ يَهْدُمُ، وَالْعَقْلُ فِي التَّجَارَةِ وَالْعَشْقُ فِي الْغَارَةِ.

وَفِي الْبَيْتِ تَلْمِيحٌ إِلَى الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيَصُمُّ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالبَخَارِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» ^(٢).

وَبَعْدَ بَيَانِ حَالِ يَعْمُ الْمُحِبِّينَ مِنْ عَدَمِ سَمَاعِ كَلَامِ اللَّائِمِينَ، ذَكَرَ مَا يَخْصُهُ مِنْ عَدَمِ قَبُولِ النَّصِيحَةِ مَعَ إِفْضَائِهِ إِلَى حَالَةِ الْفَضِيحَةِ:

١٢- إِنِّي أَتَهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذْلِي وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهْمِ

(١) فِي «د»: «إِلَيَّ».

(٢) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥ / ١٩٤) (٢١٦٩٤)، وَأَبُو دَاوُدَ (٥١٣٠)، وَالبَخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ الْكَبِيرِ» (٢ / ١٠٧) وَ(٣ / ١٧١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُوقُوفٌ، أَمَّا الْمَرْفُوعُ فَفِيهِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَانْظُرْ تَفْصِيلَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِي التَّعْلِيلِ عَلَى «الْمُسْنَدِ» ط الرِّسَالَةِ.

(نَصِيح) بمعنى: ناصِح، والإضافة بيانِيَّةٌ، والعَدْلُ بفتح الدالِ: اسمُ مَصْدَرٍ، وبالشُّكُونِ مصدرٌ، وقال العصامُ: هما مَصْدِرَانِ. وجملَةٌ: (والشَّيْبُ...) حالٌ لازِمةٌ من مفعولٍ (اتَّهَمْتُ) في المعنى وهو (الشَّيْب).

والمرادُ من نصيحةِ الشَّيْبِ: أنَّه يقولُ بلسانِ الحالِ: إِنَّه قُرْبَ الازْتِحَالِ، وَأَنَّ زَمَانَ التَّوْبَةِ والانتِقَالِ مِنْ سَيِّئِ الْأَحْوَالِ، وَحَلَّ تَرْكُ الْعَشْقِ الْمَجَازِيَّ، وَوَجَبَ الْحُبُّ الْحَقِيقِيُّ، وَتَدَارَكَ مَا فَاتَ، مِنْ تَضْيِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَعَدَمِ إِصْلَاحِ الْحَالَاتِ.

ولذا لَمَّا رَأَى أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِيُّ قَدَسَ اللهُ سِرَّهُ السَّامِي مِرَاةً، وَطَالَعَ فِيهَا وَقَدْ ظَهَرَ الْبَيَاضُ فِي لَحِيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ وَطَلَعَتِ الْمُئِنَّفَةُ، قَالَ: ظَهَرَ الشَّيْبُ وَلَمْ يَذْهَبِ الْعَيْبُ، وَمَا أَذْرِي مَا فِي الْعَيْبِ.

فَإِذَا كَانَ حَالُ الْعَاشِقِ^(١) أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَةَ نَصِيحِ الشَّيْبِ الْخَالِي عَنِ التُّهْمَةِ وَالْعَيْبِ، فَبِالْأَوَّلَى أَنْ لَا يَقْبَلَ كَلَامَ أَهْلِ الْمَلَامِ بِلَا كَلَامِ.

وقيل: المرادُ بِاتِّهَامِ الشَّيْبِ: حَمْلُ وَقْعِهِ عَلَى غَيْرِ أَوَانِهِ؛ لِثَلَا يَسْتَعِدَّ بِمَا يَجِبُ فِي زَمَانِهِ، كَمَا يَقُولُ كَهْوَلُ الْأَوْبَاشِ: إِسْرَاعُ الشَّيْبِ مِنَ الْمَحْنِ. وَمِنْ كَلَامِهِم: الشَّيْبُ نُورُ الْهَمُومِ، وَالْمَعْنَى: إِنِّي اتَّهَمْتُ النَّاصِحَ الَّذِي هُوَ أَبْرَأُ مِنْ كُلِّ تُّهْمَةٍ وَأَصْدَقُ مِنْ كُلِّ نَاصِحٍ وَهُوَ الشَّيْبُ، فَإِنَّهُ دَلِيلُ انْهِزَامِ الْقَلْبِ وَانْهَادِمِ الْقَالِبِ، فَالْسَّعِيدُ مَنْ يَتَّعِظُ بِوَعْظِهِ. قِيلَ: نَظَرَ رَجُلٌ إِلَى شَيْبَةٍ فِي رَأْسِهِ، فَجَمَعَ نِسَاءَهُ فَقَالَ: ائْتِدْبُنِي فَقَدْ مَاتَ بَعْضِي، وَأَنْشَدَ:

إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَأَبْكِ بَعْضاً فبَعْضُ الشَّيْءِ مِنْ بَعْضٍ^(٢) قَرِيبُ

(١) في «ل»: «العشق».

(٢) في النسختين: «من شيء»، والمثبت من المصادر. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ١٨٧)، و«الأغاني» (١٦/ ٤٣٣)، و«ولباب الآداب» للشعالبي (ص ١٥٥). وعزوه لأبي يعقوب الخريمي، واسمه: إسحاق بن حسان.

ثُمَّ عَلَّلَ اتِّهَامَهُ لِلشَّيْبِ مَعَ بُعْدِهِ مِنَ الْوُقُوعِ، فَقَالَ:

١٣- فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ^(١)

الفاء للعطف على (اتَّهَمْتُ) مُفِيدَةٌ لِلتَّسْبِيحِ؛ أَي: إِذَا اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ أَفْضَى بِي^(٢) الْجَهْلُ إِلَى عَدَمِ الْإِتْعَازِ مِنَ النَّذِيرِ الْمُخْبِرِ بِوُصُولِ الْمَوْتِ، وَهُوَ الشَّيْبُ الْكَامِلُ وَالْهَرَمُ، فَالنَّذِيرُ بِمَعْنَى الْمُنْذِرِ، وَالْإِضَافَةُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، وَالْهَرَمُ تَنَاهِي الشَّيْبِ، وَالْمُنْذِرُ بِمَعْنَى: الْمُخَوِّفِ بِقُرْبِ الْمَوْتِ الْمُفُوتِ لِلتَّوْبَةِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ، وَ(مِنْ جَهْلِهَا) عِلَّةٌ لِعَدَمِ الْإِتْعَازِ بِمَا ذُكِرَ، وَقِيلَ: النَّذِيرُ بِمَعْنَى الْإِنْذَارِ مُصَدَّرٌ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْإِتْعَازِ أَوْ بِالْجَهْلِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ - أَعْنِي: الْقُوَّةَ الْحَيَوَانِيَّةَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى الْقُوَّةِ الْمُدْرِكَةِ وَالْمُحَرِّكَةِ - إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا طَاعَةُ الْقُوَّةِ الْعَاقِلَةِ مَلَكَةً، كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ بَهِيمَةٍ غَيْرِ مُرْتَضَاةٍ تَنْبَغِثُ إِلَى مَا يَدْعُوهَا إِلَيْهِ شَهْوَتُهَا وَغَضَبُهَا، وَتَسْتَخِذُ الْعَاقِلَةَ، فَيَكُونُ النَّفْسُ أَمَارَةً وَالْعَاقِلَةُ مُؤْتَمِرَةً عَنْ كَرِهٍ مُضْطَرَّةً.

أَمَّا إِذَا رَاضَتْهَا الْعَاقِلَةُ وَمَنْعَتْهَا عَنْ تِلْكَ الدَّعَاوِيِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَإِنْ تَأَدَّبَتْ فِي خِدْمَتِهَا، وَتَمَرَّنَتْ عَلَى طَاعَتِهَا بِحَيْثُ تَأْتِمُرُ بِأَمْرِهَا وَتَنْتَهِي بِنَهْيِهَا، كَانَتْ الْعَاقِلَةُ مَطْمَئِنَّةً وَالنَّفْسُ مُؤْتَمِرَةً، وَإِنْ أَطَاعَتْ تَارَةً وَعَصَتْ أُخْرَى، فَحِينَ عَصَتْ تَتَّبِعُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَنْدُمُ فَتَلُومُ نَفْسَهَا فَتَكُونُ لَوَّامَةً.

وَالْأَخْصَرُ أَنْ يُقَالَ: الْأَمَارَةُ هِيَ الْعَاصِيَةُ، وَالْمَطْمَئِنَّةُ هِيَ الْمُطِيعَةُ، وَاللَّوَّامَةُ هِيَ الْمُقْتَصِدَةُ الْمُخْتَلِطَةُ.

ثُمَّ عَطَفَ عَلَى (مَا اتَّعَظْتُ) قَوْلَهُ:

(١) فِي هَامِشِ «ل»: «الْفَصْلُ الثَّانِي فِي ذِكْرِ النَّفْسِ وَتَتَبِعَ هَوَاهَا».

(٢) فِي «ل»: «لِي».

١٤- ولا أعددت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأسي غير مُحْتَشِم
 الفعل الجميل: هو ما استحسنه الشرع والطبع، والقرى بكسر القاف: الضيافة،
 والمراد هنا: الأعمال الصالحة من التوبة وغيرها، والإلمام: النزول، والاحتشام:
 الاستحياء من جهة الاخترام، والتقيد بنفي الاحتشام إشارة إلى سهولة قرأه عند
 الكرام، والتخصيص بالرأس لأنه أول ما يبدو فيه الشيب، وإيماء إلى أنه جاء على
 رأسه بالغفلة.

وقيل: المراد أن الشيب غير مُحْتَشِم عند النفس لكرهتها إيّاه.
 (ولا أعددت) عطف على (ما اتعظت) عطف الخاص على العام، فإن الاتعظ
 يكون بامتنال الأوامر واجتناب الزواجر.

ويمكن أن يراد بالاعتاظ: الاجتناب، وبالإعداد: إتيان المحاسن، فالبیت الأول
 إشارة إلى أن نفسه لم تنته بنهي العاقلة، والبيت الثاني إلى أنها لم تأتمر بأمر الكاملة،
 فبان أنها في العصيان غاية، وفي الأمر بالطغيان نهاية، و(غير) منصوب على الحالية
 من ضمير^(١) (ألم)، يعني: أن النفس الأمارة بالسوء لم تجتنب عن السيئات ولم
 تمتثل بالطاعات، حتى إنها ما أعدت ضيافة ضيف مكرم محمول على الهام، نازل
 على فرق الأنام، بلا طريق الاحتشام، وإكرام الضيف واجب عقلاً وثابت نقلاً، سيما
 إذا كان ذا شبيبة، وجاء غفلة، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾
 [الذاريات: ٢٤]، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(٢) وقال:
 «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»^(٣).

(١) كلمة: «ضمير» سقطت من «ل».

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤٣٤٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

١٥ - لو كنتُ أَعْلَمُ أَنِّي ما أَوْفَّرُهُ كَتَمْتُ سِرّاً بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالكَتَمِ
(الكَتَمُ) بفتحِ تين: نَبْتُ يُخْلَطُ بِالْوَسْمَةِ أو بِالْحِنَاءِ وَيُخْتَصَّبُ بِهِ، والمرادُ
بالسَّر: إنذارُ السَّيْبِ عن الغفلة، وتنبهُهُ على قُرْبِ الرِّحْلَةِ؛ أي: لو كنتُ أَعْلَمُ
أَنِّي ما أَعْظَمُ السَّيْبِ الذي هو واجبُ الإكرامِ عندَ العقلاءِ الكِرَامِ، بعدَ نزوله بي
وظهوره عندي، وقبل^(١) ظهوره عندَ غيري، أَخَفَيْتُ أسْرارَهُ وَأَسْرَرْتُ إظهارَهُ،
التي بَدَتْ على راسِي، وظَهَرَتْ على سَاسِي^(٢)، مِنْ أَثَرِ الكِبَرِ وزوالِ الصَّغَرِ،
(بالكَتَمِ)؛ أي: خَضَبْتُهُ حَتَّى لا تُنْسَبَ إلى الفَضِيحَةِ، وَعَدَمِ سَمَاعِ النَّصِيحَةِ، مِنْ
لِسانِ الحالِ، والحالُ أَنَّهُ أَبْلَغُ مِنْ بَيانِ القالِ.

١٦ - مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايِيهَا كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ
(الجِمَاحُ) بكسرِ الجيم: جَمْعُ جَمُوحٍ، شَبَّهَ الْأَخْلَاقَ الذَّمِيمَةَ بِالذَّوَابِّ الذَّمِيمَةِ.
وقيل: (الجِمَاحُ) مصدرٌ، فالرَّدُّ بِمعْنَى الإزالةِ.
(وَمِنْ غَوَايِيهَا) صِفَةُ (جِمَاحٍ)؛ أي: ناشئةٌ مِنْ ضلالتِها، والاستفهامُ لِلتَّضَرُّعِ،
والاستِعاذَةِ بِغيرِهِ، والاستِعْطافِ لِنَفْسِهِ.

والمعنى: مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي بِتَبْدِيلِ الصِّفَاتِ الرَّدِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِ الدَّنِيَّةِ، الْحَادِثَةِ مِنْ
النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ، السَّكَارَةِ الْغَدَّارَةِ، بِتَأْدِيبِهَا وَتَحْصِيلِ الْأَحْوالِ الْجَمِيلَةِ، وَالْمَقَامَاتِ
الْجَلِيلَةِ، كَمَا تُبَدَّلُ الْحَرَكَاتُ الْغَيْرُ السَّمَرُضِيَّةِ، لِلْخِيُولِ الْغَيْرِ السَّمْهَدِيَّةِ، بِاللُّجُمِ الْمَشْبُوهَةِ
بِالْمَوَاعِظِ السَّنِيَّةِ.

قال عصامُ الدِّينِ: وَتَشْبِيهُ النَّفْسِ بِالْفَرَسِ مَأْخُودٌ مِنْ لِسَانِ الشَّرْعِ: «نَفْسُكَ
مَطِيئُكَ فَارْفُقْ بِهَا»^(٣).

(١) فِي «ل» لعلها: «وقيل».

(٢) فِي «ل»: «شابي». والمثبت من «د»، والسَّاسُ: القادح فِي السِّنِّ.

(٣) ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ فِي كِتَابِ «الْكَسْبِ» (٨٦) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ سَنَدٍ.

قيل ^(١): مقصوده: مُرشدٌ كامل، وهو العالمُ العاَمِلُ، فاستشعرَ قائلاً غيبياً يقولُ:

١٧- فلا تَرْمِ بالمعاصي كسرَ شهوتِها إِنَّ الطَّعَامَ يُقْوِي شَهْوَةَ النَّهْمِ

النَّهْمُ بفتحِ الهاءِ: إفراطُ الشَّهْوَةِ في الطَّعَامِ، وبكسْرِها صفةٌ منه.

والمعنى: إذا أَرَدْتَ رَدَّ الْجَمَاحِ؛ لإرادةَ التَّخْلُصِ مِنَ الْجَنَاحِ، فلا تَطْلُبْ كسرَ شهوةِ النَّفْسِ بِالْمَنَاهِي، ولا حَسَمَ نَشَوَاتِهَا ^(٢) بالملاهي، يعني: لا تَطْنُ أَنْكَ إِذَا سَبَّغْتَها بمقصوداتها امتنعتَ عن مَضَرَّاتها، فَإِنَّ الحِرْصَ يزدادُ بوجدانِ ما ابتغاه، والطَّبْعُ يَتَقَوَّى بما يلائمُ مُقْتَضَاهُ، كَمَنْ ابْتُلِيَ بالمعدةِ النَّارِيَّةِ، أو الجوعَةِ البَقْرِيَّةِ، فَإِنَّهُ يزدادُ قوَّةَ مرضِهِ بالأكلِ كالبهائمِ، والمُسْتَسْقِي يزدادُ عطشهَ بالشُّرْبِ الدَّائِمِ، فالمعاصي تزيِدُ شهوتَها ولا تَنْقُصُها، وتُفْسِدُها ولا تُصْلِحُها، وَمِنَ المشهورِ بينَ أطباءِ الأرواحِ: أَنَّ معالجةَ النَّفْسِ بِالتَّخْلِيَةِ وَالتَّحْلِيَةِ، كما أَنَّ المعروفَ بينَ أطباءِ الأشباحِ: أَنَّ المداواةَ بِالتَّقْيَةِ وَالتَّقْوِيَةِ.

فالحاصلُ: أَنَّ لَيْسَ لها دواءٌ إِلَّا الاِخْتِمَاءُ، فَإِنَّ لها بحُبِّ المألوفِ ابتلاءً، ويدُلُّ عليه قوله:

١٨- وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقْطُمَهُ يَنْقَطِمِ

شَبَّ الصَّبِيُّ: بَلَغَ ^(٣) الشَّبابَ، وَ(الرِّضَاعُ) بكسرِ الرَّاءِ وفتحِها.

والمعنى: مَثَلُ النَّفْسِ فِي الاسْتِمْرَارِ عَلَى المُسْتَلَذَّاتِ المُضِرَّةِ حَالُ إهمالِها، والآنِزَجَارِ عنها عِنْدَ إعمالِها، مَثَلُ الطِّفْلِ الرِّضِيعِ: إِنْ تَرَكْتَهُ عَلَى الرِّضَاعِ، يَنْشَأُ عَلَى حُبِّهِ بِحُكْمِ الطَّبَّاعِ، فَيَرْضَعُ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ، وَيَفْسُدُ مِرْاجُهُ بِالْأَخْلَاطِ الرَّدِيَّةِ فِي زَمَانِهِ،

(١) في «د»: «قيل بقوله».

(٢) في «ل»: «شهواتها».

(٣) في «د»: «بلغ إلى».

وإن تَفْطِمَهُ بتفغيرها عن الثَّدي بالحِيل، وتَأْنِسُهُ بلذِيذ الأَطْعَمَةِ على السَّهْلِ، يَنْقُطِمُ
وفي سلكِ الخير يَنْتَظِمُ، ونَعَمَ ما قال مَنْ قال:

النَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ^(١)

١٩ - فَاضْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤْلِيَهُ إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِ أَوْ يَصِمِ

صَرَفَهُ: مَنَعَهُ، وَقِيلَ: صَرَفَهُ: غَيَّرَهُ. وَالْهَوَى: مِيلَانُ النَّفْسِ إِلَى مَا تَسْتَلِذُّهُ مِنْ
غَيْرِ دَاعِيَةِ الْهُدَى، وَ(حَازِرْ) مَبَالِغَةُ احْذَرْ، فَإِنَّ السُّفَاعِلَةَ إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلْمُغَالَبَةِ فَهِيَ
لِلْمُبَالِغَةِ، وَلِذَا قِيلَ: مَعْنَاهُ: احْذَرْ احْذَرْ.

وَوَلَّاهُ: جَعَلَهُ وَالْيَا، وَقَلَّدَهُ الْوِلَايَةَ، وَتَوَلَّى الْأَمْرَ: تَقَلَّدَهُ وَالتَّرَمُّهُ وَصَارَ وَالْيَا عَلَيْهِ،
وَ(مَا) شَرْطِيَّةٌ زَمَانِيَّةٌ أَوْ عُمُومِيَّةٌ، وَقِيلَ: مَوْصُولَةٌ، وَصَحَّحَهُ الْعِصَامِيُّ.

أَضْمَى الصَّيْدَ: قَتَلَهُ فِي مَكَانِهِ الَّذِي ضَرَبَهُ فِيهِ، وَوَصَمَهُ: جَعَلَهُ ذَا عَيْبٍ.

وَبَيْنَ (يُضْمِ) وَ(يَصِمِ) تَجَنُّسٌ خَطِّيٌّ، وَهُوَ صَنِيعٌ بَدِيعِيٌّ.

وَالْمَعْنَى: إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ النَّفْسَ مَنِعٌ^(٢) لِلْمَفَاسِدِ الْعِظَامِ، وَهِيَ قَابِلَةٌ لِقَطْعِهَا عَنْهَا
بِالْفِطَامِ، فَاْمُنْعُهَا عَنْ هَوَاهَا، وَغَيَّرَهَا عَنْ مُشْتَهَاهَا، وَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ أَنْ تَجْعَلَ الْهَوَى أَمِيرًا
عَلَى مَمْلَكَةِ عَقْلِكَ وَحِصْنِ قَلْبِكَ، فَإِنَّهُ دَاعٍ إِلَى الضَّلَالَةِ وَالْخَسَارَةِ، غَيْرُ صَالِحٍ لِلْحُكُومَةِ
وَالْإِمَارَةِ؛ لِأَنَّ الْهَوَى إِذَا اسْتَوْلَى وَخَالَفَ الْمَوْلَى، يُهْلِكُ فِي الْحَالِ بِسُوءِ الْمَالِ، أَوْ يَعْيبُكَ
بِالْإِضْلَالِ بِقَبِيحِ الْأَعْمَالِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَا خُوِّدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فَإِنَّهُ إِنْ
أُرِيدَ بِنِسْيَانِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَدَمُ الْإِعْتِقَادِ بِحَقِيقَتِهِ فَهُوَ ضَلَالَةٌ حَقِيقَتِيَّةٌ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ عَدَمُ الْعَمَلِ
بِمُقْتَضَاهُ فَهُوَ ضَلَالَةٌ إِضَافِيَّةٌ.

(١) الْبَيْتُ لِأَبِي ذُؤَيْبِ الْهَذَلِيِّ. انْظُرْ: «جُمُهرَةُ أَشْعَارِ الْعَرَبِ» (ص ٢٠٦).

(٢) فِي «د»: «كَانَ مَنِعًا».

ولمَّا فَرَّغَ عن بيانِ قابليَّةِ النَّفْسِ بالتَّربِّيَّةِ، شَرَعَ في بيانِ التَّحْلِيَّةِ المتقدِّمةِ على التَّحْلِيَّةِ، ومِنَ المعلومِ أنَّ رِياضَةَ النَّفْسِ مَنَعُهَا هَوَاهَا، وَجَبَرُهَا على طاعةِ مَوْلَاهَا، والأوَّلُ زهدٌ وتَبَرُّ، والثاني عبادةٌ وتوَلُّ، ولذا قال:

٢٠- وراعِها وهي في الأعمالِ سائِمةٌ وإنَّ هي استَحَلَّتِ المَرْعى فلا تُسَمِّ

المِراعاةُ: المِراقِبَةُ، وسامَتِ الماشِيَّةُ: إِذا رَعَتْ، والإِسامَةُ: إِخراجُها إلى المَرْعى، واستَحَلَّتِ الشَّيْءَ: عَدَهُ حُلُوءاً، وأرادَ بالأعمالِ: الصَّالحاتِ، فكأنَّ السَّيِّئاتِ لَحُلُوءُها عن النَّفعِ ليستْ بأعمالٍ، وبالسَّوْمِ فيها: الاِشْتِغالُ بها، وبالمَرْعى: التَّوافلُ لا الواجباتِ والمُسْتَحَبَّاتِ، فإنَّهما لا يَسْتَوْجِبَانِ التَّركَ بالاستِحْلاءِ.

والمعنى: راعِ النَّفْسَ وراقِبِها حالَ اشْتِغالِها بِصالحِ أعمالِها، فَضْلاً عن بَقِيَّةِ أحوالِها، وأزْجُرْها إِذا عَمِلْتَ بالتَّوافلِ على طريقِ العادَةِ الإِلَفِّيَّةِ، مِن غيرِ إِخلاصِ نِيَّةٍ، وحضورِ طَوِيَّةٍ، فإنَّ العادَةَ غيرُ العِبادَةِ، ولذا قيل: الإِرادَةُ تركُ العادَةِ.

وقيل: المعنى: راقِبِ النَّفْسَ في أَثناءِ العِبادَةِ، حتَّى لا تَجْري مَجْرى العادَةِ، بتركِ أركانِها وشِرائطِها، وَسُنَنِها وآدابِها، أو لا تُفْسِدَ بِمُفْسِداتِها الدَّاخِلَةِ فيها والخارجَةِ منها؛ مِن العُجْبِ والرَّياءِ، والغُرُورِ والخُيَلَاءِ، واستِجْلابِ حُطامِ الدُّنيا، وإنَّ اكْتَفَتْ النَّفْسُ بِظاهِرِ عبادَتِها، وَلَمْ تُبالِ بِفسادِ صُورتِها، أو معانِها ومَرتَبَتِها، فازْجُرْها فإنَّها ليستْ بِعبادةٍ، بل هي مَحْضُ عادَةٍ، ولهذا المعنى قيل: صاحِبُ الوِردِ مَلْعُونٌ^(١).

ويمكُنُ أنْ يُجْعَلَ هذا البَيْتُ خِطاباً لِلعارِفِ الَّذي يَفْهَمُ المَعارِفَ، ويُقالُ: اِعْمَلْ صالِحاً ولا تُلاحِظْ في عَمَلِكَ؛ لِتَحْظِيَ بالوصولِ إلى أَمَلِكَ، وإنَّ تَبَجَّحْتَ

(١) قال المؤلف في «المِرقاة» (٣/ ٢٨٠): «محمول على المِراثي». وقال في «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة» (ص ١٥٩): «باطل لا أصل له». قلت: التوفيق بين كلاميه: أن المراد بالبطلان كونه مرفوعاً، وبالتأويل حملاً على المِراثي كونه من أقوال القوم، ومع ذلك ففيه مبالغة لا داعي لها.

النَّفْسُ بِتَرْيُّهَا بَزِينَةِ الْأَعْمَالِ، أَوْ تَعَجَّبَتْ بِحِلْيَةِ الْأَحْوَالِ، فَارْجُرْهَا فَإِنَّ وَرَاءَ الْأَعْمَالِ
وَالْأَحْوَالِ حَصُولَ الْكَمَالِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْوِصَالِ، رَزَقَنَا اللَّهُ الْمُهَيْمِنُ الْمُتَعَالِ.

٢١ - كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَذِرْ أَنَّ السَّمَّ فِي الدَّسَمِ
تعليل لقوله: (فلا تُسِم)، و(كَمْ) خبرية منصوبة المحل على المصدرية أو
الظرفية؛ أي: كثيراً من التحسينات^(١) أو المرات، وهي متعلقة بـ (حَسَنْتَ) أو (لَذَّةً)
على سبيل التنازع، أو (قاتلة).

و(حيث) في الأصل بمعنى المكان، فاستُعير في مقام التعليل بمعنى الجهة.
و(السَّم) بثلاث السين، لكن الرواية هنا بالفتح للمناسبة، ومعنى حَسَنُ: جَعَلُهُ
حَسَنًا، أَوْ: نَسَبَهُ إِلَى الْحُسْنِ، و(لِلْمَرْءِ) مفعول (قاتلة)، واللام للتقوية.
والمعنى: إِنَّ النَّفْسَ أَمَارَةٌ غَدَارَةٌ خَدَاعَةٌ مَكَارَةٌ، فكثيراً ما خَدَعَتِ الْمَرْءَ،
وَحَسَنْتْ فِي بَاصِرَتِهِ مَا يُفْسِدُ فِطْرَةَ بَسْهَجَتِهِ، فَانْخَدَعَ بِخُرَافَاتِهَا، وَاسْتَحْسَنَ
الْمُهْلِكَاتِ مِنْ أَقَاتِهَا، فَانْصَرَعَ فَجَاءَةً؛ لِتَنَاوُلِ سُمِّهَا فَلْتَةً، إِذْ لَذَّةُ الدَّسَمِ، أَخْفَتْ
طَعْمَ السَّمِّ، فَلَمْ يَذِرْ ضُرَّهُ، وَصَادَفَ شَرَّهُ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وفي البيت لطيفة؛ وهي: أَنَّ لَفْظَ (سَم) مذكور في (الدَّسَمِ)، كما قيل في قوله
عليه السلام: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ سَفَرٍ»^(٢)، يعني: بزيادة نقطة في (سَفَر)، أو بزيادة القاف
على الفاء بحساب الجُمَّل، وإلا فمعناه: أَنَّ السَّفَرَ^(٣) نوع عذاب من أنواع جهنم، فإنَّ
من جملة أنواعها الصَّعُودُ، وهو جبلٌ عظيمٌ من نارٍ يُكَلَّفُ الْجَهَنَّمِيُّ بِالطُّلُوعِ وَالتَّزْوِلِ

(١) في «ل»: «التحسينات».

(٢) لا أصل له كما في «كشف الخفاء» (١/ ٥٤٩)، والصواب: «السفر قطعة من العذاب»، كما رواه

البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في «ل»: «السفر».

مُنْضَمًّا إِلَى بَقِيَّةِ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ، وَبِهَذِهِ الْمَعَانِي يَظْهَرُ أَنَّ عَكْسَهُ لَا يُفِيدُ هَذِهِ الْإِفَادَةَ، وَإِنْ كَانَ يُفِيدُ نَوْعَ مُبَالِغَةٍ غَيْرِ مُطَابِقَةٍ فِي الْخَارِجِ بِحَسَبِ الْعَادَةِ، وَنَظِيرُهُ: الْعِبَادَةُ أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ النَّفْسَ كَمَا تُرَاعَى فِي الْعِبَادَاتِ، كَذَلِكَ تُرَاقَبُ وَلَا تُلَاحَظُ فِي الْمُبَاحَاتِ، الَّتِي لَا بَدْءَ لِلسَّالِكِ مِنْهَا فِي الْحَالَاتِ، فَقَالَ:

٢٢- وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

أَي: اتَّقِ الْمَكَائِدَ الْخَبِيثَةَ وَالرَّذَائِلَ الْخَفِيَّةَ الْحَاصِلَةَ مِنَ الْجُوعِ وَالشَّبَعِ مَثَلًا، فَإِنَّ فِي مَعْنَاهُمَا السَّهَرَ، وَالنَّوْمَ، وَالسُّكُوتَ، وَالْكَلامَ، وَالْعِزْلَةَ، وَالخِلَاطَةَ، وَالْفَقْرَ، وَالْغِنَى، وَالْعُزُوبَةَ، وَالزَّوْجَ، فَفِي كُلِّ مَنَافِعُ وَمَضَرَّاتٍ، وَفَوَائِدُ وَبَلِيَّاتٍ، فَكَثْرَةُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ تُورِثُ الْمَصَائِبَ فِي الدُّنْيَا وَالْمَعَائِبَ فِي الْعُقْبَى، فَإِنَّهَا جَالِيَةٌ لِأَدْوَاءِ الْجَسَدِ الَّذِي هُوَ مَرْكَبٌ رُوحِ السَّالِكِ، وَلِخَسَارَةِ النَّفْسِ وَإِيقَاعِهَا فِي الْمَهَالِكِ^(١)، وَبِهَا تَحْدُثُ كَثْرَةُ النَّوْمِ الْمُفْتَضِيَّةُ لِلْكَسَلِ، وَتَضْيِيعُ الْعُمْرِ وَقَسَاوَةُ الْقَلْبِ وَغَفْلَتُهُ وَمَوْتُهُ بِطُولِ الْأَمَلِ، وَقَلَّةُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ سَبَبٌ لِحِدَّةِ الْمَزَاجِ، وَسَوْءُ الْخُلُقِ بِلا عِلَاجٍ، وَدُبُولِ النَّفْسِ وَالْمَلَالِ، وَالْكَلالِ فِي تَحْصِيلِ الْكَمَالِ، فَعَلَيْكَ فِي الْاِغْتِذَاءِ بِالْاِعْتِدَالِ، فَإِنَّ الْأَطْرَافَ رَذَائِلُ وَالْأَوْسَاطَ فَضَائِلُ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وَنَعَمْ مَا قَالَ مَنْ قَالَ: جَمَعَ اللَّهُ الطَّبَّ - أَي: الصُّورِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ - فِي نَصْفِ الْآيَةِ.

وَإِنَّمَا قَالَ: (فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ)؛ أَي: شِدَّةَ مَجَاعَةٍ (شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ): جَمْعُ تُخْمَةٍ، وَهِيَ عَدَمُ أَنْهَضَامِ الطَّعَامِ فِي الْمَعِدَةِ، مَعَ اشْتِعَالِهِ عَلَى صَاحِبِهِ وَتَعَفُّفِهِ فِيهَا وَإِذْيَانِهِ، وَالْمَرَادُ: شِدَّةُ الشَّبَعِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ وَالْحُكَمَاءَ تَتِمَادَحُ بِقَلَّةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَتَتَذَامُّ

(١) فِي هَامِشِ «د»: «يَا مَالِكُ الْمَمَالِكِ نَجْنَا مِنَ الْمَهَالِكِ، أَنْتَ الْمَلِكُ الْبَاقِي وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ».

بكثرته؛ لَأَنَّ قَلَّتُهُمَا دَلِيلٌ عَلَى الْقَنَاعَةِ وَمَلَكَ النَّفْسِ وَقَمَعَ الشَّهْوَةَ، وَسَبَبٌ لِلصَّحَةِ،
وَبَاعِثٌ لَصَفَاءِ الْخَاطِرِ وَحِدَّةِ الذَّهْنِ، وَكَثَرَتُهُمَا دَلِيلٌ عَلَى الْحَرَصِ وَالشَّدَّةِ وَغَلَبَةِ
الشَّهْوَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا تَقَدَّمَ.

فَيَتَوَهَّمُ فِي بَادئِ الرَّأْيِ أَنَّ الْجَوْعَ لَا يَكُونُ فِيهِ شَرٌّ، ثُمَّ بَدَقَّةِ النَّظَرِ يُعْرِفُ أَنَّ فِيهِ
شُرُوراً أَيْضاً، فَدَفَعَ الْوَهْمَ وَأَزَالَهُ، وَقَرَّرَ الْحَقَّ وَأَجْلَى حَالَهُ، وَ(رُبَّ) لِلتَّكْلِيلِ، وَقَدْ
يَكُونُ لِلتَّكْثِيرِ.

ثُمَّ قَالَ تَحْرِيزاً عَلَى التَّوْبَةِ، وَتَحْضِيضاً عَلَى الْأُوبَةِ:

٢٣- وَاسْتَفْرِغِ الذَّمَّ مِنْ عَيْنٍ قِدَامَتَلَأَتْ مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّمِ حِمِيَةَ النَّدَمِ
الاستفراغُ فِي عِلْمِ الطَّبِّ: عِلَاجُ الْأَمْتِلَاءِ، وَالْحِمِيَةُ بِمَعْنَى الْإِخْتِمَاءِ، وَالْإِضَافَةُ
بَيَانِيَّةٌ؛ أَيِ: الْإِخْتِمَاءِ الَّذِي هُوَ النَّدَمُ، وَقِيلَ: بِمَعْنَى: مِنْ؛ أَيِ: الْإِخْتِمَاءِ الْحَاصِلِ مِنْ
النَّدَمِ النَّاشِئِ مِنْهُ.

و(الْمَحَارِمِ): جَمْعُ مَحْرَمٍ بِمَعْنَى حَرَامٍ، وَامْتِلَاءُ الْعَيْنِ مِنَ الْمَحَارِمِ كَنَائَةً عَنْ
ارْتِكَابِ كَثْرَةِ الْمَنَاهِي، وَالْإِثْنَادُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاهِي.

وَالْمَعْنَى: إِنْ كَانَتْ أَمْتَلَأَتْ مَعْدَتُكَ الْمَعْنَوِيَّةَ، بِالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ الرَّدِيَّةِ، فَفَرَّغْ
عَنْ مَدْخَلِ عَيْنِكَ الْإِحْسِيَّةِ، دَمْعَ النَّدَامَةِ لِارْتِكَابِ الْأُمُورِ الْمَنْهِيَّةِ، ثُمَّ التَّزِمِ الْإِخْتِمَاءَ
الَّذِي هُوَ النَّدَمُ، فَإِنَّهُ الْأَصْلُ فِي التَّوْبَةِ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ فِي الْأُوبَةِ، وَلِذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ
تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»^(١)، كَمَا قَالَ: «الْحُجُّ عَرَفَةٌ»^(٢)، وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا
أَرْكَانٌ أُخَرُ، وَكُلُّ مِنْهُمَا فِي حَقِيقَةٍ كُلُّ مِنْهُمَا مُعْتَبَرٌ؛ لِأَنَّ النَّدَامَةَ إِذَا حَصَلَتْ تَسْتَلْزِمُ

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٤٢٥٢) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٩٤٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٩٠٤)، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٠١٥)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ

الدِّيْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بقية أركان التوبة غالباً؛ من قَلَعَ المعصية في الحال، ومن العزم على عَدَمِ العَوْدِ في الاستقبال، وما يتبعها من أداءِ حقوقِ الملكِ المُتعال، ومن قضاءِ حقوقِ العِبَاد ولو بالاستِحلال.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى أَنَّ صَبَّ العَبَرَاتِ يَضَعُ السَّيِّئَاتِ وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وإيماءٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ [التوبة: ٨٢]، وفي ^(١) قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] لمن له اليوم عينان بالدمع تجريان، وما أحسن من قال من أرباب الحال:

وكيفَ تَرَى ليلَى بعينٍ تَرى بها سِوَاهَا وما طَهَّرَتْهَا بِالْمَدَامِيعِ ^(٢)
وقال آخرُ:

طَهَّرِ الْعَيْنَ بِالْمَدَامِيعِ سَبْعاً مِنْ شُهُودِ السَّوَى تَزُلْ كُلُّ عِلَّاهِ
ثم قال مشيراً إلى مقامِ المُجَاهَدَةِ؛ للوصولِ إلى مَرْتَبَةِ المُشَاهَدَةِ:

٢٤- وخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النُّضْحَ فَاتَّهِمِ
يعني: قد عَرَفْتَ وُلُوعَ النَّفْسِ فِي هَوَاهَا، وَحِرْصَهَا وَمُبَالَغَتَهَا فِي مُشْتَهَاهَا، وَلَهَا مُعِينٌ يَحْتُمُّهَا عَلَى تَحْصِيلِ مُرَادَاتِهَا، وَيُزَيِّنُ لَهَا مَقْصُودَاتِهَا، وَهُوَ الشَّيْطَانُ، الَّذِي لَهُ عَلَى غَيْرِ التَّائِبِ سُلْطَانٌ، فَهُمَا عَدُوَّاكَ فِيمَا أَمْرَاكَ وَنَهْيَاكَ، وَأَعْدَى عَدُوِّكَ: نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ، فَإِنَّ اللَّصَّ الدَّاخِلَ بَدَاءَ عُضَالٍ، لَا يُمَكِّنُ الْاِحْتِرَازُ عَنْهُ بِحَالٍ، وَلِأَنَّهَا عَدُوٌّ مَحْبُوبٌ، وَعَيْبُ الْمَحْبُوبِ مُسْتَوْرٌ وَمَحْجُوبٌ، فَفِي الْحَدِيثِ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ» ^(٣)، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

(١) في «د»: «وقيل في».

(٢) البيت ليزيد بن معاوية كما في «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) تقدم تخريجه عند شرح البيت الحادي عشر.

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنْ^(١) عَيْنُ الشُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا^(٢)
وَلَأَنَّهُا الْمَطِيَّةُ فِي الْوُصُولِ إِلَى مَقَامِ حُصُولِ الْمَأْمُولِ، فَلَا يُمَكِّنُ
مُخَالَفَتَهَا بِالْمَرَّةِ وَلَا تُذَلِّلُكَ، وَلَا مُوَافَقَتُهَا فَتُضِلَّكَ، فَإِنْ سَمَّتْهَا تَأْكُلُكَ، وَإِنْ
جَوَّعَتْهَا تَحْذُلُكَ، فَعَلَيْكَ بِالْإِعْتِدَالِ؛ لِتُوصِلَكَ إِلَى مَنْزِلِ الْوِصَالِ، وَأَمَّا الشَّيْطَانُ
فَعَدُوٌّ لَا^(٣) صُلْحَ مَعَهُ؛ إِذْ هُوَ مُجْبُولٌ عَلَى عَدَاوَتِكَ، وَمُوكُولٌ إِلَى ضَلَالَتِكَ،
فَتَشَمَّرَ لِمُحَارَبَتِهِ، وَاجْتَهِدْ فِي مُخَالَفَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ، فَإِنَّهُ كَلَبٌ سُلْطَ عَلَيْكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّهِ، فَإِنَّهُ
تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى صَرْفِهِ وَمَنْعِهِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: جَاهِدْ وَحَارِبْ.

وَقَالَ الْغَزَالِيُّ: اجْمَعْ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ نَجَوْتَ بِالْإِسْتِعَاذَةِ فِيهَا، وَإِنْ تَغَلَّبَ عَلَيْكَ
فَجَاهِدْ بِعَوْنِ رَبِّهَا.

يَعْنِي: خَالَفَهُمَا فِي أَمْرِهِمَا وَاعْصِهِمَا فِي نَهْيِهِمَا، وَإِنْ أَتَاكَ بِمُخْضِ النَّضْحِ
صُورَةٌ فَانْسُبْهُمَا إِلَى الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَالْمَكْرِ وَالْحِيلَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ
بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وَاسْمَعْ حِكَايَتَيْنِ لَطِيفَتَيْنِ رَوَايَتَيْنِ ظَرِيفَتَيْنِ:

-
- (١) كَتَبَ فَوْقَهَا فِي «د»: «كَمَا أَنْ»، وَمِثْلُهُ فِي هَامِشِ «ل»، وَقَدْ وَرَدَ الْبَيْتُ فِي الْمَصَادِرِ بِاللَّفْظَيْنِ.
(٢) الْبَيْتُ لِعَبْدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، كَمَا فِي كِتَابِ «الْحَيَوَانَ» لِلْجَاهِظِ (٣/ ٤٨٨)، وَ«عَيُونِ
الْأَخْبَارِ» لِابْنِ قَتِيْبَةَ (١/ ٢٨٣)، وَ«الْعَقْدُ الْقَرِيدُ» لِابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ (٢/ ١٨٢).
(٣) فِي «د»: «فَعْدُوٌّ وَلَا»، وَفِي «ل»: «فَعْدُوكَ لَا»، وَالْمَثْبُتُ هُوَ الْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْكَلَامِ.

إحداهما: حكاها المولوي الرومي في كتابه «المثنوي»^(١) المعنوي: أن معاوية خال المؤمنين كان نائماً عند الصباح، فجاء الشيطان وقال: حيّ على الفلاح، ففطن معاوية لمكره وغدره في ظهوره وأمره، فقال: أنت ما تأمر إلا بالمعصية، فكيف أمرك لي بالطاعة؟! فتعلل بعلة لم يلتفت إليها، ولا يمكن أن يقرر العاقل عليها، فقال معاوية: لا بد لك من إظهار سبب هذا الأمر العجيب، فإنه من مثلك غريب أي غريب! فقال: نعم، فأتاك الصبح يوماً من الأيام، بسبب المنام عن صلاة الجماعة مع سيد الأنام، فندمت على ما فات، وتحسرت عليه في الأوقات، فكتب لك أضعاف ما كنت تلحقه من الطاعات، فخفت أن تنام عن الصلاة مرة أخرى، فيحصل لك زيادة المثوبة في الأخرى.

وثانيتهما: ما ذكره الغزالي في «منهاج العابدين»: لقد بلغنا عن بعض الصالحين يقال له: أحمد بن أرقم البلخي، أنه قال: نارعتني نفسي بالخروج إلى الغزو، فقلت: سبحان الله! إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وهذه تأمرني بالخير، فلا تكون هذه أبداً، ولكنها استوحشت فتريد لقاء الناس لتستروح إليهم، ويتسامع الناس بها فيستقبلونها بالتعظيم، والبر والتكريم، فقلت لها: لا أنزلك العمران، ولا أنزلك على ذي معرفة، فأجابت، فأسأت الظن بها وقلت: الله تعالى أصدق، فقلت لها: أقاتل العدو حاسراً - أي: بلا سلاح - فتكونين من أول قتيل، فأجابت، فأسأت الظن بها...، وعددت أشياء مما أرادها، فأجابت إلى ذلك كله.

قال: فقلت: يا رب! نبهني لها فإنني متهم لها ومصدق لك، فكوشفت كأنها تقول: يا أحمد! أنت تقتلني كل يوم بمنعك إياي من شهواتي مرات، وبمخالفتك لي

(١) «المثنوي» لجلال الدين محمد بن محمد البلخي ثم القونوي. انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٥٨٨). وقد ولد في بلخ، وقضى أكثر حياته في قونية، وهي من المدن التركية، فلذلك يقال له أيضاً: الرومي، أما المولوي فلعلمها من كلمة: مولانا. توفي سنة (٦٧٠هـ).

وَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ، فَإِنْ قَاتَلْتَ قُتِلْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً فَنَجَوْتُ مِنْكَ، وَيَتَسَامَعُ النَّاسُ فَيُقَالُ: اسْتَشْهَدَ أَحْمَدُ، وَيَكُونُ لِي شَرَفٌ وَذِكْرٌ.

قال: فقعدتُ ولم أخرج إلى الغزو في ذلك العام^(١).

فَانْظُرْ إِلَى خِدَاعِ النَّفْسِ وَغُرُورِهَا تُرَائِي النَّاسَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِعَمَلٍ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا
ولهذا قَدَّمَهَا عَلَيْهِ ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ السَّابِقَ، فَقَالَ:

٢٥- وَلَا تُطْعِ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ
(منهما) حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، وَالضَّمِيرُ لِلنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، وَالْفَاءُ تَعْلِيلِيَّةٌ،
وَفِي نَسْخَةِ بِالْوَاوِ وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ^(٢)، وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ الْخَارِجِيِّ، كَذَا قِيلَ، وَالْأَظْهَرُ
أَنَّهَا لِلْجِنْسِ، وَالْخَصْمُ مَنْ يَظْهَرُ كَوْنُهُ مِنْ جِهَتِهِمَا، وَيُرَوِّجُ لِبَهْرَجَتِهِمَا، وَالْحَكَمُ
مَنْ يُبْطِنُ ذَلِكَ، وَيَسْتَدْرِجُ لِيُوقِعَ فِي الْمَهَالِكِ.

وَالْمَعْنَى: لَا تُطْعِ أَحَدًا تَعْرِفُ كَوْنَهُ مِنْ جِهَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، خَصْمًا كَانَ أَوْ
حَكَمًا، مِثْلَ الْمُبْتَدِئَةِ الْمُظْهِرَةِ وَالْفَسَقَةِ الْمُسْتَرَّةِ، فَإِنَّ قَوْلَ كُلِّ مَكْرٍ وَتَلْبِيسٍ، وَفِعْلُهُ
كَيْدٌ وَتَدْلِيسٌ، فَإِنَّ مُحِبَّ الْعَدُوِّ عَدُوٌّ، وَمُبْغِضَ الْحَبِيبِ إِبْلِيسُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي صَدِيقُكَ لَيْسَ النَّوْكَ عَنْكَ بِعَارِزٍ^(٣)
أَي: لَيْسَ الْحِمَاقَةُ عَنْكَ بِبَعِيدٍ عِنْدَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ.

(١) قد يقال: أهو الذي خالف نفسه بتركه الجهاد في ذلك العام، أم هي التي خدعته بمنعه من أمر يعد من أعظم القربات إلى الله؟

(٢) في «ل»: «وفي نسخة بالواو الحالية»، والمثبت من «د» والمعنى واحد.

(٣) البيت لبشار بن برد، وهو في «ديوانه» (١/ ٣٦٤).

وفي البيت إيماء إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَهْلًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو إشارة إلى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١). ولمّا رأى العاقل الصادق، الناصح للعاشق، أنّه بنفسه متلوّث بالمناهي، ومُتلبّس بالملاهي، وقد قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، والأمر بالمعروف من غير العامل وإن كان حسنّة، لكنّه بحسب العرف الظاهر سيئة = أناب إلى الله، وتاب عمّا سواه، وقال:

٢٦ - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلًا لِيذِي عُقْمٍ
النَّسْلُ: الولد، والعَقْمُ - كالفَرَسِ - والعُقْمُ: عَدَمُ النَّسْلِ، يريد أن نسبة الولد إلى من ليس له ولد زور وبهت، فكذا نسبة الفضل والعمل إلى غير أهلها كذبٌ بحت. وبيانه: أن ظاهر حال الأمير أنّه مُؤتمِرٌ، فكأنّه نسب إلى نفسه أنّه بالعمل مُتأثرٌ، أو كأنّه ادّعى أن هذا الحال ثابت له على هذا المنوال، والحال أن فعّاله تُخالف الأقوال، فيكون كاذباً فيما ادّعاه من المقال^(٣).

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ قَوْلَهُ بِلا عَمَلٍ، وَأَمْرُهُ لغيره لَا يَخْلُو عَنْ زَلَلٍ، فَقَالَ:

(١) رواه بهذا اللفظ: البزار في «مسنده» (١٩٨٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رضي الله عنه بلفظ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

(٢) في هامش «د»: «وحاصل معنى الكلام: استبعاد هذه الحالة، يريد أنه مضيع عمره فيما لا يعنيه، وتارك لما يعنيه؛ لأنه يقول ما لا يفعل، وإليه أشار رئيس الطائفة حيث قال: ويل للقاتلين بالحق العاملين بالباطل، ادعوا في الدنيا منازل المقربين، ونزلوا في الآخرة منازل المجرمين. مصنفك».

٢٧- أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا أَتَمَمْتَ بِهِ وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِم^(١)
(ما) فِي الْأَوَّلَيْنِ نَافِيَةٌ، وَفِي الثَّلَاثِ اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَ(الْخَيْرَ) مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ،
كَذَا قَالَهُ أَكْثَرُ الشُّرَاحِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْبِيضَاوِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] مِنْ أَنَّ حَذْفَ الْجَارِّ مِنْ ﴿أَنْ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَطْرَدِ مَعَ
(أَنْ) وَ(أَنْ)، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِهِ؛ كَقَوْلِهِ:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ^(٢)

وَقَالَ الْمُحَلِّيُّ: (أَمَرَ) يَتَعَدَّى إِلَى اثْنَيْنِ، ثَانِيهِمَا بِنَفْسِهِ تَارَةً وَبِالْبَاءِ أُخْرَى،
وَالِاسْتِعْمَالُ فِي الْبَيْتِ، انْتَهَى. وَكَأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى ظَاهِرِ الْاسْتِعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالْحَالِ، وَعَنَى أَنَّهُ يُسْتَعْمَلُ تَارَةً بِحَذْفِ الْبَاءِ وَتَارَةً بِإِثْبَاتِهَا.

وَالْمُرَادُ بِالْأَمْرِ: مَا يَعْمُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ، وَالْخَيْرُ: مَا لَهُ عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ، وَالِاسْتِقَامَةُ:
الثَّبَاتُ، وَالِإِقَامَةُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَامْتِنَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ الزَّوْجِرِ.

يَعْنِي: هَذَا الْقَوْلُ مِنِّي لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْرَدُ صُورَةٍ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ لَهُ
تَأْثِيرٌ وَنَفْعٌ كَبِيرٌ، وَلِذَا قِيلَ: عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنْ اتَّعَطَّتْ فَعِظِ النَّاسَ، وَلَا فَاسْتَحْ. وَيُقَالُ:
طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ مَرِيضٌ^(٣)

٢٨- وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصِمْ

(١) فِي هَامِشٍ «ل»: «إِنْ ثَبَتَ لِلنَّفْسِ الْاسْتِقَامَةُ فَتِلْكَ عَيْنُ الْكِرَامَةِ».

(٢) انْظُرْ: «تَفْسِيرُ الْبِيضَاوِيِّ» (٣/ ١٢٥). وَالْبَيْتُ فِي «الْكِتَابِ» (١/ ٣٧)، وَ«خَزَانَةُ الْأَدَبِ»

(١/ ٣٣١)، وَاخْتَلَفَ فِي نَسْبَتِهِ، قَالَ الْبَغْدَادِيُّ: نَسَبَ لِعَمْرُو بْنِ مَعْدِي كَرْبٍ، وَلِلْعَبَّاسِ بْنِ

مَرْدَاسٍ، وَلِزُرْعَةَ بْنِ السَّائِبِ، وَلِخَفَافِ بْنِ نَدْبَةَ. وَعَجَزَهُ:

فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

(٣) وَصَدْرُهُ كَمَا فِي «الْمَرْقَاةِ» (٩/ ٣٢٦):

وغيرُ تقيٍّ يأمرُ الناسَ بالتَّقَى

التَّزُودُ: طَلَبُ الزَّادِ وَأَخْذُهُ عِنْدَ التَّوَجُّهِ إِلَى الْمَرَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا مَعْبَرَةٌ، وَالنَّاسُ عَلَيْهَا عَبْرَةٌ، وَأَكْثَرُهُمْ بِلَا عِبْرَةٍ، فَلَا بَدَّ مِنْ تَحْصِيلِ الزَّادِ لِيَصِلَ السَّالِكُ الْمُرِيدُ إِلَى الْمُرَادِ. وَالنَّافِلَةُ فِي اللُّغَةِ مُطْلَقًا: الزِّيَادَةُ، وَفِي الْأَصْطِلَاحِ: الطَّاعَاتُ الزَّائِدَةُ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ الْمُؤَكَّدَةِ، فَكَمَا أَنَّ الزَّادَ وَصْلَةٌ إِلَى قُرْبِ الْمَقْصِدِ فِي السَّفَرِ الدُّنْيَوِيِّ، فَكَذَا النَّافِلَةُ وَسِيلَةٌ إِلَى حَيْثُ الْمَقْصُودُ الْأَصْلِيُّ فِي السَّيْرِ الْمَعْنَوِيِّ، فَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ... وَبَصَرَهُ...» الْحَدِيثُ^(١).

وَالْمَعْنَى: مَا جَعَلْتُ شَيْئًا مِنَ النَّوَافِلِ زَادَ السَّفَرِ قَبْلَ الْمَوْتِ، وَلَا تَهَيَّأتُ لِلْوَصُولِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ قَبْلَ الْفَوْتِ، وَاقْتَصَرْتُ مِنْ قُصُورِ هَمَّتِي عَلَى فَرَضِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ، وَمَا قُمْتُ بِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ حَقَّ الْقِيَامِ، بِزِيَادَةِ النَّوَافِلِ فِي اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ. ثُمَّ انْتَقَلَ مِنَ التَّشْبِيهِ إِلَى مَدْحِ الْحَبِيبِ، فَقَالَ بِلَا وَصْلِ عَطْفٍ، مُشِيرًا إِلَى فَضْلِ لُطْفٍ:

٢٩ - ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنْ اشْتَكْتَ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنْ وَرَمِ^(٢) الظُّلْمِ: وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَالْمَرَادُ مِنْهُ هُنَا: التَّرْكَ. وَالسُّنَّةُ: الطَّرِيقَةُ الْمَرْضِيَّةُ. وَالظَّلَامُ^(٣): ذَهَابُ النُّورِ، يُرَادُ بِهِ اللَّيْلُ بِذِكْرِ اللَّازِمِ وَإِرَادَةُ الْمَلْزُومِ، وَإِحْيَاؤُهُ: تَرْكُ النَّوْمِ مُسْتَعْلًا بِنَوْعِ عِبَادَةٍ فِيهِ، فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ، وَالْيَقَظَةُ كَالْحَيَاةِ، وَالْإِيقَاطُ كَالْإِحْيَاءِ، فَتَنِيَةُ النَّفْسِ مِنَ النَّوْمِ كَالْحَيَاةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا»^(٤).

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في هامش «ل»: «الفصل الثالث في ذكر المدائح والدخول».

(٣) في «د»: «والظلام بالفتح».

(٤) رواه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه. ورواه البخاري أيضاً (٦٣٢٥) =

والمرادُ من شِكَايَةِ الْقَدَمَيْنِ الْمَكْرُمَيْنِ: دَلَالَتُهُمَا عَلَى الْوَجَعِ النَّاشِ مِنْ الْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ، وَأَمَّا الرُّوحُ فَكَانَتْ مُتَلَذِّدَةً بِالرَّاحَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَمُطْمَئِنَّةً بِالْحَالَاتِ وَالْمَقَامَاتِ الْإِنْسِيَّةِ الْقُدْسِيَّةِ، وَالْعِبْرَةُ بِالْأَحْوَالِ الْبَاطِنِيَّةِ، لَا بِالْأَعْضَاءِ الظَّاهِرِيَّةِ، وَلِذَا قَالَ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(١).

و(الضَّر) بِالضَّمِّ وَيُفْتَحُ، مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ^(٢)؛ أَي: مِنْ الضَّرِّ الْكَائِنِ مِنْ جِهَةِ الْوَرَمِ.

والمعنى: تَرَكْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا اللَّيَالِيَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُنَاجَاتِهِ، وَالْقِيَامِ بِأَنْوَاعِ طَاعَاتِهِ، حَتَّى تَوَرَّمْتُ قَدَمَاهُ، وَلَا يَتْرُكُ عِبَادَةَ مَوْلَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٣).

فَإِذَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ عُلُوِّ حَالِهِ وَرَفْعَةِ كِمَالِهِ قَامَ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ، فَكَيْفَ يَصْلُحُ لِسَائِرِ الْأَنْعَامِ، أَنْ يَرْقُدُوا طَوْلَ اللَّيَالِي كَالْأَنْعَامِ، وَقَدْ قِيلَ: لِلْعَابِدِ فِي اللَّيْلِ أَجْرَانِ عَلَى الطَّاعَةِ: أَجْرُ تَرْكِ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ، وَأَجْرُ لَتَحْمُلِ الْعِبَادَةِ.

وقد ورد: الْأَجْرُ عَلَى قَدْرِ الْمَشَقَّةِ^(٤).

= من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ومسلم (٢٧١١)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٤٤٦)، وَمُسْلِمٌ (١٠٥١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فَعَلَ «اشْتَكَى» يَتَعَدَّى نَفْسَهُ، فَلَا دَاعِيَ لِلْقَوْلِ بِنَزْعِ الْخَافِضِ هُنَا. انْظُرْ: «مَخْتَارُ الصَّحَاحِ» (مَادَّة: شَكَ).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٨٣٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٨١٩)، مِنْ حَدِيثِ الثَّغِينَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) وَهَذَا غَيْرُ لَازِمٍ فِي كُلِّ حَالَةٍ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَاسْتَدِلَّ لِذَلِكَ بِفَضْلِ كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ - مَعَ

سَهُولَتِهَا - عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ. انْظُرْ: «فَتْحُ الْبَارِي» (٢/ ٣٢٨).

ولسماً ذَكَرَ عِبَادَتُهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي هي الوسيلةُ إلى الدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا فِي الْعُقُبَى، أشارَ إلى مَقَامِ زُهْدِهِ فِي الدُّنْيَا، واختيارِ الرِّيَاضَةِ فِي مَرْضَاةِ الْمَوْلَى، وقال:

٣٠- وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحاً مُتَرْفَ الْأَدَمِ

(شَدَّ) عطفٌ على (أَحْيَا)، و(مِنْ) سَبَبٌ، و(السَّغَبُ) بفتح الحاء: الجوع، والحشأ: القلبُ وما أحاطَ به الجوفُ، وحشأ البطنُ: أمعأوه، والجمعُ: أحشَاءُ.

وطَوَاهُ: لفَّه، والكشْحُ: الخضرُ، وهو مفعولٌ (طَوَى). والمتَرْفُ اسمُ مفعولٍ بمعنى: المُفْرِطُ في النُّعْمَةِ. و(الْأَدَم) بفتح الحاء: جمعُ الأديم، وهو الجِلْدُ.

يعني: تركتُ طريقةَ مَنْ ارتاضَ بالجوعِ حتَّى احتاجَ إلى شَدِّ أحشائه، ورَبَطَ أضلَاعَهُ مِنْ أَعْضَائِهِ، وَقَدْ رَبطَ الحجرَ على خصرِهِ النَّاعِمِ لِيَسْتَعِينَ بِثِقَلِ الحجرِ على خِفَةِ الْأَحْشَاءِ، وَيَسْتَرِيحَ بِبَرْدِهِ مِنْ حَرَارَةِ بَاطِنِ الْأَغْضَاءِ، مع أَنَّهُ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ، وَسَدُّ الْأَوَّلِيَاءِ؛ لاختيارِ الْمَوْلَى لَهُ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى، فَإِنَّهُ أَوَّلَى لِسُلُوكِ طَرِيقِ الْعُقُبَى، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ﴾ [العلق: ٦].

وأما قوله صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»^(١)، مع نُذْرَتِهِ، إشارةً إلى كَمَالِ مَشَقَّتِهِ، وَعَدَمِ تَحَمُّلِ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى مَرَارَتِهِ، وَلِذَا قَالَ صَلَّى اللهُ تَعَالَى

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٣٦)، وابن الجوزي في «العلل» (١٣٤٦)، من حديث أنس رضي الله عنه. قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ». لكن قال الزركشي في «التذكرة» (ص ٢٠٩): «ومن شواهد ما أخرجه النسائي وابن حبان في «صحيحه» من جهة أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ» فَقَالَ رَجُلٌ: وَيَعْتَدِلَانِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قلت: رواه النسائي (٥٤٨٥)، وابن حبان (١٠٢٦)، من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم به، ودراج في روايته عن أبي الهيثم ضعف كما في «التقريب».

عليه وسلم: «أشدُّ الناسِ بلاءَ الأنبياءِ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فالْأَمْثَلُ»^(١) مِنَ الْأَصْفِيَاءِ.

وَشَدُّهُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ وَقَعَ لَهُ فِي حَفْرِ الْخَنْدِقِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرٍ^(٢).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يَحَدِّثُهُمْ وَقَدْ عَصَبَ بَطْنُهُ بِعَصَابَةٍ، [فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطْنُهُ؟] فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ^(٣). نَقَلَهُ الْمُحَلِّي.

وَلَمَّا كَانَ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ إِشَارَةً إِلَى صَلَاتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَفِي هَذَا الْبَيْتِ إِيْمَاءٌ إِلَى صَوْمِهِ وَرِيَاضَتِهِ، وَقَدْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ مِنَ الْعَوَامِّ أَنَّ^(٤) رِيَاضَتَهُ كَانَتْ اضْطِرَّارِيَّةً، وَعِنْدَ الْخَوَاصِّ تُعْتَبَرُ الرِّيَاضَةُ الْاِخْتِيَارِيَّةُ، أَزَالَ ذَلِكَ الْمَقَالَ، فَقَالَ:

٣١ - وَرَاوَدَنِي الْجِبَالُ الشَّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ الْمُرَاوِدَةِ: الْمُطَالَبَةُ، وَالْمُفَاعَلَةُ إِذَا لَمْ تَكُنْ لِلْمُغَالَبَةِ فَهِيَ لِلْمُبَالِغَةِ، وَ(الشَّمُّ): جَمْعُ الْأَشْمِ، وَالشَّمَمُ: الِازْتِفَاعُ، وَ(مِنْ ذَهَبٍ) صِفَةٌ أَوْ حَالٌ، وَ(أَيَّمَا شَمَمٍ)؛ أَي: شَدِيدَ الِازْتِفَاعِ، مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ (أَرَاهَا)، وَأَصْلُهُ: أَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ لِلتَّكْيِيدِ وَ(أَيِّ) مُضَافٌ إِلَى (شَمَمٍ) وَهُوَ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْوَصْفِ؛ أَي: مُرْتَفَعًا أَيْ مُرْتَفِعٌ، يُقَالُ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَيْ رَجُلٍ؛ أَي: كَامِلٍ فِي الرُّجُولِيَّةِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الْمُضَافُ وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ بِمَعْنَى الْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ لِلْمَقَامِ.

وَالْمَعْنَى: أَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا وَأَقْبَلَ عَلَى الْمَوْلَى، وَآثَرَ مَتَاعِبَ الْفَقْرِ عَلَى مَنَاصِبِ الْغِنَى، حَتَّى إِنَّ الْجِبَالَ الشَّامِخَةَ مِنَ الدَّنَائِيرِ الرَّاسِخَةِ عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ،

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٨) مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤١٠١).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٤٠)، وَمَا بَيْنَ مَعْكَوْفَتَيْنِ مِنْهُ.

(٤) فِي «د»: «أَنْ هَذِهِ».

وَتَزَيَّنْتَ بِأَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ لَدَيْهِ، وَمَالَتْ غَايَةَ الْمِيلِ إِلَيْهِ، لَعَلَّهُ يَرْفَعُ النَّظَرَ عَلَيْهَا، فَتَرْفَعُ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا بِأَمْرِهِ بَعْدَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَ فِيهِمْ فِرَّةً وَرَزَقْنَا رِبَّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وفيه إشارة إلى ما رُوِيَ: أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ: أَتُحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ لَكَ هَذِهِ الْجِبَالَ ذَهَبًا وَتَكُونَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ؟ فَأَطْرَقَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا جَبْرِيلُ! الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ، وَقَدْ يَجْمَعُهَا مَن لَا عَقْلَ لَهُ»، فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: ثَبَّتَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ. قَالَ الْمُحَلِّي: ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الشفا» وَغَيْرُهُ^(١).

وفي هذا برهانٌ شافٍ وبيانٌ كافٍ، على فضل الفقيرِ الصَّابِرِ على الغنيِّ الشَّاكِرِ، كَمَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ السَّادَةُ السُّنِّيَّةُ وَالطَّائِفَةُ الصُّوفِيَّةُ، نَفَعَنَا اللَّهُ بِأَسْرَارِهِمْ، وَجَعَلْنَا تَابِعِينَ لِأَثَارِهِمْ، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى مَعْنَى هَذَا الْمَقَالِ، مَن قَالَ مِّنْ أَرْبَابِ الْكَمَالِ: هَمَّةُ الرِّجَالِ تَهْدُ الْجِبَالَ.

وفيه تلميحٌ إلى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَزَقْنَاهُ آلَتِي هُوَ فِي بَيْنَهُمَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، وَإِيمَاءٌ مُّليحٌ إِلَى مَرِيَّةِ فَضِيلَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ عَرَضَ عَلَيْهِ الْمَوْلَى جَمِيعَ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الذَّهَبَ وَسِيلَةٌ إِلَى تَمَامِ لَذَاتِهَا، وَجَمِيعَ شَهَوَاتِهَا، مَعَ أَنَّهُ عَلَى وَجْهِ

(١) انظر: «الشفا» (١/ ١١٣). وهذا الحديث - كما ذكر العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/

١٠٨٤) - ملفق من حديثين: الأول حديث أبي أمامة الذي رواه الترمذي إثر الحديث (٢٣٤٧)،

والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٤) (٢٢١٩٠)، بلفظ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبِعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا...» الحديث، وإسناده ضعيف، وانظر

الكلام عليه في التعليق على «المسند». والثاني حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه الإمام أحمد

في «المسند» (٦/ ٧١) (٢٤٤١٩)، ولفظه: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع

من لا عقل له». وجود إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٨٦).

الإباحة، بل بدون المحاسبة، كما ورد في رواية: فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئاً مِنْهَا، مع كمال الاحتياج بها، وإمكان تحصيل العبادات المالية بسببها، وسيئنا يوسف عليه السلام عَرَضَتْ امْرَأَةٌ نَفْسَهَا عَلَيْهِ عَلَى وَجْهِ الْحُرْمَةِ، فَوَقَعَ فِيهَا وَقَعَ مِنَ الْهَمِّ وَالْهَمَّةِ^(١)، فَيَا لَهَا مِنْ هَمٍّ عَظِيمَةٍ، وَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ جَسِيمَةٍ، وَيَا لَهَا مِنْ عَصْمَةٍ وَسِيمَةٍ.

٣٢- وَأَكْثَرُ زُهْدُهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصْمِ

الزُّهْدُ: عزوف النفس عن الدنيا، والإعراض عن الهوى، والضَّرُورَةُ: شِدَّةُ الْحَاجَةِ، ومنها الاضطرارُّ ضِدُّ الْاِخْتِيَارِ.

وَيَقَالُ: عَدَا عَلَيْهِ: إِذَا غَلَبَهُ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ.

وَالْعِصْمُ: جَمْعُ عِصْمَةٍ، وَهِيَ قُوَّةٌ بِالْغَةِ، أَوْ زَاجِرَةٌ سَابِغَةٌ، أَوْدَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي خَوَاصِّ عِبَادِهِ وَأَكَابِرِ عِبَادِهِ، يَمْنَعُهُمْ عَنِ التَّعَرُّضِ لِمَنْهِيَّاتِهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ مَأْمُورَاتِهِ.

يعني: أَكْثَرُ فَقْرُهُ الظَّاهِرِيِّ، وَاحْتِيَاجُهُ الْحِسِّيِّ، زُهْدُهُ وَإِعْرَاضُهُ عَنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَعَدَمُ إِقْبَالِهِ عَلَى جِبَالِ الذَّهَبِ الذَّاهِبِ فِي الْهَوَى، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَلَا يَخْتَارُ هَذَا إِلَّا مَنْ تَلَذَّذَ بِحُلَاوَةِ الْعِبَادَةِ، وَمَعَ هَذَا لَا يَكُونُ تَرْكُ الدُّنْيَا وَالتَّوَجُّهُ إِلَى الْمَوْلَى

(١) هذا الكلام من المؤلف - رحمه الله - فيه نظر لا يخفى، ونبي الله يوسف منزله عما لمح إليه المؤلف من الهم، وقد قال أبو حيان رحمه الله في «البحر» (١٢ / ٤٤٤) (طبعة الرسالة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْسُفَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَاهُ بَرَاهُكَ رَبُّهُ﴾ [يوسف: ٢٤]: طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفساق، والذي اختاره: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قَارَفْتُ لَوْلَا أَنَّ عِصْمَكَ اللَّهُ... وأما أقوال السلف فتعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قاذحة في بعض فساق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب...، إلى آخر ما قال، فراجعه ثمة.

إِلَّا بِعِصْمَةِ اللَّهِ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، وَبِحِفْظِهِ فِي جَانِبِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ^(١)، فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ الْعَلِيَّةُ، وَعَلَبَتْ بِحِفْظِ اللَّهِ هِمَّتُهُمُ الْعَلِيَّةُ، لَا تَعْدُو وَلَا تَغْلِبُ الضَّرُورَةُ الْغَالِبِيَّةَ عَلَى الْقُوَّةِ الْقَلْبِيَّةِ، رَزَقَنَا اللَّهُ مِنْ أَدْوَابِهِمُ الْقُدْسِيَّةِ، وَنَفَعَنَا بِنَفَحَاتِهِمُ الْإِنْسِيَّةِ.

٣٣- وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةً مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تُخْرَجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ قَالَ الْمَحَلِّيُّ: (تُخْرَجُ) عَلَى بِنَاءِ الْمَفْعُولِ، وَفِيهِ نَكْتَةُ لَطِيفَةٍ لَا تَخْفَى.

وَالدُّنْيَا تَأْنِيثُ الْأَذَنَى بِمَعْنَى: الْأَقْرَبُ إِلَيْنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأُخْرَى، وَقِيلَ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ الدَّنَاءَةِ وَالْخِسَّةِ، وَلَهُ بِمَقَامِ التَّعَجُّبِ غَايَةُ الْمُنَاسَبَةِ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ صِفَةُ الْحَيَاةِ أَوْ الدَّارِ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى أَعْرَاضِهَا الْكَاسِدَةِ، وَأَعْرَاضِهَا الْفَاسِدَةِ، مِنَ الْجَاهِ وَالْمَالِ، وَمَا يَتَّبِعُهُمَا مِمَّا يَجْزِي إِلَى الْوَبَالِ فِي الْمَالِ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ تَكُونُ الدُّنْيَا مَذْمُومَةً دَنِيَّةً، وَأَمَّا إِذَا صُرِفَتْ فِي مَرْضَاةِ الْمَوْلَى تَكُونُ مُسْتَحْسَنَةً مَرْضِيَّةً، كَمَا وَرَدَ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(٢).

وَمَعَ هَذَا تَرْكُهَا أَفْضَلُ عِنْدَ الْأَكْبَارِ الْكُمَّلِ، وَلِذَا قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا طَالِبَ الدُّنْيَا لِيَتَبَرَّ، تَرَكْتُكَ لِلدُّنْيَا أَبَرَّ^(٣).

وَقَالَ ﷺ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا فِي حِجْرِهِ دَرَاهِمُ يَقْسِمُهَا، وَآخِرَ يَذْكُرُ اللَّهَ، كَانَ الذَّاكِرُ اللَّهُ أَفْضَلَ»، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ^(٤).

(١) فِي «ل»: «الْأَوْلِيَاءِ» دُونَ وَאו الْعُطْفِ.

(٢) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤ / ٢٠٢)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٣٢١١)، وَالتَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٣١٨٩)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ كَمَا قَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ» (٢ / ٨٩٢).

(٣) انْظُرْ: «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» (٣ / ٢٠٦).

(٤) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٥٩٦٩) مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْوَاظِعِ عَنْ أَبِي بَرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً. قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١٠ / ٧٤): «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَرَجَالَهُ وَثَقُوا». =

ثُمَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ لَا تَجْتَمِعَانِ، وَلِذَا قِيلَ: إِنَّهُمَا ضَرَّتَانِ، أَوْ: مِثْلُ كَفَنِي الْمِيزَانِ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ آخِرَتَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ دُنْيَاهُ، فَاتَّبِعُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»^(١).

وَالْمَعْنَى: كَيْفَ تَدْعُو إِلَى السَّمِيلِ إِلَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَأَعْرَاضِهَا الْفَانِيَةِ الرَّدِّيَّةِ، الضَّرُورَةُ الْاِخْتِيَارِيَّةِ، أَوِ الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ الْاِخْتِيَارِيَّةِ، لِمَنْ لَوْ لَا وَجُودُهُ، وَقَضْلُهُ وَجُودُهُ، لَمْ تَظْهَرْ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَلَا وُجِدَ فِي الْعَالَمِ غَيْرَ الْمُوجِدِ مَوْجُودٌ، وَفِيهِ لَا حِجَّةٌ إِلَى أَنَّ الدُّنْيَا تَابِعَةٌ لَهُ^(٢)، وَلَا خُلِقَتْ إِلَّا لَهُ وَلَا تَبَاعِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ تَابِعِينَ لَهَا، أَوْ مَغْلُوبِينَ لَهَا، بَلْ هَمَّتْهُمْ الْعَالِيَّةُ، وَنَهَمَتْهُمْ الْغَالِيَّةُ، عَدَمُ الْاِلْتِفَاتِ إِلَى النِّعَمِ الْبَاقِيَةِ، فَضْلاً عَنِ اللَّذَاتِ الْفَانِيَّةِ، وَلِذَا قِيلَ: الدُّنْيَا حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَالْآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا، وَهُمَا حَرَامَانِ عَلَى أَهْلِ اللَّهِ.

وَفِي الْبَيْتِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: «لَمَّا افْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ، وَكَانَ^(٣) قَدْ رَأَى عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوباً: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَسَأَلَ اللَّهُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَغْفَرَ لَهُ، فَقَالَ: إِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْ لَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ»، رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ بَيْهَقٍ^(٤).

= لَكِنْ قَالَ ابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ» (ص ٢٣٨): «الصَّحِيحُ عَنْ أَبِي الْوَاظِعِ عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ مِنْ قَوْلِهِ، خَرَجَهُ جَعْفَرُ الْفَرِيَابِيِّ».

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤ / ٤١٢)، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٠٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «الْتَرغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ» (٤ / ٨٤): رَوَاهُ أَحْمَدُ وَرَوَاتُهُ ثَقَاتٌ.

(٢) كَلِمَةُ «لَهُ» مِنْ «د»، وَلَيْسَتْ فِي «ل».

(٣) كَلِمَةُ «كَانَ» مِنْ «د»، وَلَيْسَتْ فِي «ل».

(٤) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤٢٢٨)، وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٥ / ٤٨٩) وَقَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْلَمٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ.

وَأَدَمُ أَبُو الْبَشَرِ، وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، وَسَخَّرَ لَهُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْقُدْسِيُّ الْمَشْهُورُ: لَوْلَاكَ لَمَّا خُلِقَتْ
الْأَفْلَاكُ، فَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ، لَكِنَّ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ.

٣٤ - مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْنِ - مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ

رُويَ فِي (مُحَمَّد) الْجَرْ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ (مَنْ)، وَالرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ
وَهُوَ: (هُوَ)، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مَبْتَدَأٌ، وَ(سَيِّدٌ) خَبَرُهُ، وَ(الْكَوْنَيْنِ)؛ أَي: الْوُجُودَيْنِ، بِمَعْنَى:
الْمَوْجُودَيْنِ، وَهُمَا: الدُّنْيَا وَالْعُقْبَى، وَالْمَرَادُ: أَهْلُهُمَا، أَوْ: عَالَمُ الْغَيْبِ وَعَالَمُ الشَّهَادَةِ.
وَقِيلَ: الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: (فِي).

وَعُطِفُ (الثَّقَلَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ) لِلتَّخْصِصِ بَعْدَ التَّعْمِيمِ، وَلِلرَّدِّ عَلَى مَنْ خَصَّ
رِسَالَتَهُ^(١) إِلَى الْإِنْسِ دُونَ الْجِنِّ، وَإِلَى الْعَرَبِ دُونَ الْعَجَمِ، وَ(مِنْ) الْأُولَى بَيَانِيَّةٌ
وَالثَّانِيَةُ زَائِدَةٌ لِلضَّرُورَةِ^(٢).

وَفِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ لُغَتَانِ: فَتَحُهِمَا، وَضَمُّ الْأَوَّلِ وَسُكُونُ الثَّانِي، فَفِي الْبَيْتِ تَفَنُّنٌ.
وَتُقْرَأُ نُونُ (الثَّقَلَيْنِ) مِنَ الْمِضْرَاعِ الثَّانِي.

وَالْمَعْنَى: مُحَمَّدٌ الَّذِي كَثُرَتْ مَحَامِدُهُ وَمَنَاقِبُهُ، وَكَثُرَتْ حَامِدِيَّتُهُ^(٣) حَيْثُ
عُرِفَتْ مَرَاتِبُهُ - فَإِنَّهُ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ مَفْعُولٌ لِلْمُبَالَغَةِ، ثُمَّ نُقِلَ مِنَ الْوَصْفِيَّةِ إِلَى الْأَسْمِيَّةِ،
فَرَائِحَةُ الْوَصْفِيَّةِ لَائِحَةٌ فِي الْعَلَمِيَّةِ - سَيِّدٌ مَنْ وُجِدَ فِي الْكَوْنَيْنِ، وَأَفْضَلُ مَنْ ظَهَرَ فِي
الْعَالَمَيْنِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ لِأَجْلِهِ الدَّارَيْنِ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ،

(١) فِي «د»: «الرسالة».

(٢) فِي هَامِش «د»: «و(مِنْ عَرَبٍ) بضم أوله وسكون ثانيه، و(مِنْ عَجَمٍ) بفتحيتين معطوف على
(مِنْ عَرَبٍ) و(مِنْ) لبيان. من شرح الشيخ خالد الأزهرى».

(٣) فِي «ل»: «حامديه».

وَالصَّنْفِينِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ الْمَكْلَفِينَ، بَلْ قِيلَ: إِنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَقِيلَ: إِلَى الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ وَالنَّبَاتَاتِ، وَجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ، بَلْ قِيلَ: إِنَّهُ مُرْسَلٌ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ^(١)، فَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالِاتِّفَاقِ.

٣٥- نَبِيُّنَا الْأَمْرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ أَبَرَّ فِي قَوْلٍ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمِ
النَّبِيُّ أَصْلُهُ الْهَمْزُ، وَقَدْ قُرِئَ بِهِ^(٢)، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَوْ الْفَاعِلِ، فَإِنَّهُ مُخْبِرٌ وَمُخْبَرٌ، وَالْجُمْهُورُ بِالْيَاءِ الْمَشْدُودَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مُبْدَلٌ.

وقيل: إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الثَّبُوتِ وَهُوَ الرِّفْعَةُ، فَإِنَّهُ مَرْفُوعُ الْمَرْتَبَةِ.

وَهُوَ إِنْسَانٌ بَعَثَهُ اللَّهُ وَأَوْحَى إِلَيْهِ سَوَاءً أَمْرًا بِالتَّبْلِيغِ أَمْ لَا، فَهُوَ أَعْمٌ مِنَ الرَّسُولِ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (الْأَمْرُ النَّاهِي). وَ(أَبَرَّ) بِمَعْنَى: أَصْدَقُ، مِنْ بَرٍّ فِي الْحَدِيثِ: صَدَقَ.

يعني: سَيِّدُنَا وَنَبِيُّنَا وَمَوْلَانَا وَرَسُولُنَا هُوَ الْأَمْرُ بِمَا هُوَ مَأْمُورٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ مِنْ الْعَقَائِدِ الرَّضِيَّةِ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْبَهِيمَةِ، وَالنَّاهِي عَنِ الْأُمُورِ الدَّنِيَّةِ، وَالْأَفْعَالِ الرَّدِيَّةِ، وَهُوَ فِي تَكْمِيلِ النَّاقِصِينَ حَاضِقٌ، وَفِي إِخْبَارِهِ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَهُ صَادِقٌ؛ لِأَنَّهُ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، بَلْ بِالْوَحْيِ الْجَلِيِّ أَوْ الْخَفِيِّ مِنْ عِنْدِ الْمَوْلَى، فَلَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَلَا أَحَقُّ مِنْهُ فِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَسَائِرِ الْحَالَاتِ.

٣٦- هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرَجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحِمِ

(الْحَبِيبُ) بِمَعْنَى: الْمَحْبُوبِ، وَمَحَبَّةُ الْمَخْلُوقِ: هِيَ مِيلُ النَّفْسِ إِلَى مُلَاتِمِهِ،

(١) فِي «د»: «وَالسَّابِقِينَ».

(٢) قَرَأْنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْقَبِيضَ﴾ وَ﴿الشُّبُوتَ﴾ وَ﴿الْأَنبِيَاءَ﴾ وَ﴿النَّبِيَّ﴾ بِالْهَمْزِ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ، إِلَّا فِي مَوْضِعَيْنِ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا﴾، ففِيهِمَا تَفْصِيلُ انْظُرْهُ فِي «التَّيْسِيرِ» لِلدَّانِي (ص ١٥٧).

وَمَحَبَّةُ الْخَالِقِ لِعَبْدِهِ: تَمْكِينُهُ مِنْ سَعَادَتِهِ، وَتَوْفِيقُهُ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَتَهْيِئَةُ أَسْبَابِ قُرْبَتِهِ، وَالْإِفَاضَةُ عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ.

وَالشَّفَاعَةُ: طَلَبُ الْعَفْوِ وَالْفَضْلِ مِنَ الْغَيْرِ لِلْغَيْرِ.

وَالهَوْلُ: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْخَوْفِ، يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْهَائِلِ أَوِ الْمَهُولِ مِنْهُ. وَافْتَحَمَ فِي الْأَمْرِ؛ أَي: دَخَلَ فِيهِ بِشِدَّةٍ، وَالتَّقْدِيرُ: لِكُلِّ هَوْلٍ مُقْتَحَمٍ فِيهِ.

وَالْمَعْنَى: ذَلِكَ السَّيِّدُ الْعَلِيُّ الشَّانِ، وَالنَّبِيُّ الْجَلِيُّ الْبُرْهَانِ، هُوَ حَبِيبُ اللَّهِ وَأَحِبَّائِهِ، وَلَا عِبْرَةَ بَمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِ، الَّذِي ثَبَّتَ شَفَاعَتَهُ وَتُرْجَى إِجَابَتُهُ لِكُلِّ أَمْرٍ عَسِيرٍ وَهَوْلٍ خَطِيرٍ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ لَهُ شَفَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةً؛ كَمَا وَرَدَ بِهَا الْأَحَادِيثُ الْمُعْتَمَدَةُ:

مِنْهَا: الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، وَاللَّوَاءُ الْمَمْدُودُ، الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْوَالِدُ وَالْمَوْلُودُ.

وَمِنْهَا: الشَّفَاعَةُ فِي إِسْقَاطِ الْعَذَابِ، أَوْ تَخْفِيفِهِ عَنِ الْمَعْدُبِينَ^(١).

وَمِنْهَا: الْمُسَامَحَةُ عَنْ ذُنُوبِ الْمُسْتَحِقِّينَ.

وَمِنْهَا: رَفْعُ دَرَجَاتٍ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٣٧- دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ

الاسْتِمْسَاكُ: التَّمَسُّكُ وَالتَّشَبُّثُ وَالتَّعَلُّقُ، وَالْحَبْلُ مَعْرُوفٌ، وَيُسْتَعَارُ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ. وَالْإِنْقِصَامُ: الْإِنْقِطَاعُ.

وَالْمَعْنَى: دَعَا الْخَلْقَ إِلَى طَاعَةِ الْخَالِقِ دَعْوَةً تَامَّةً كَامِلَةً، غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِلِ هِيَ شَامِلَةٌ، لِلْخَلْقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَاصِلَةً، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَدْعُ إِلَى

(١) يعني: من المؤمنين، فإن الكافرين في نار جهنم خالدين، لا يخفف عنهم وما هم منها بمخرجين.

سَبِيلَ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴿[النحل: ١٢٥]، وإيماءً إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]، فَمَنْ تَمَسَّكَ بِدَعْوَتِهِ مِنْ كِتَابِهِ وَسُنَّتِهِ، فَقَدْ تَمَسَّكَ بِحَبْلِ وَثِيقٍ غَيْرِ مَنْقُطٍ إِلَى حِينٍ وَصَلَّتْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وَقَالَ عز وجل: ﴿فَمَنْ يَكْتُم بِالْفَلْغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِإِلَهِهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ أَي: لَا انْقِطَاعَ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى بِشَارَةِ حُسْنِ الْخَاتِمَةِ.

٣٨- فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ
فَاقَهُ وَفَاقَ عَلَيْهِ: زَادَ عَلَيْهِ فِي الرَّفْعَةِ مِنْ فَوْقِ.

و(الْخَلْقُ) بَفَتْحِ الْخَاءِ: حُسْنُ الصُّورَةِ، وَهِيَ اعْتِدَالُ الْأَعْضَاءِ، وَتَنَاسُبُ الْأَشْكَالِ، وَ(الْخُلُقُ) بِضَمَّتَيْنِ - وَقَدْ يُسَكَّنُ الثَّانِي - : حُسْنُ السَّيْرِ، وَهِيَ اعْتِدَالُ قُوَى النَّفْسِ وَأَوْصَافُهَا بِالْكَمَالِ، وَخَصَّصَ مِنْهَا الْعِلْمَ لِأَنَّهُ رَأْسُ الْفَضَائِلِ، وَالْكَرَمَ لِأَنَّهُ أَسُّ الْفَوَاضِلِ، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْقُدْرَةِ، فَهُمَا مَرْجِعَا الْكَمَالَاتِ بِأَسْرِهَا، وَمَدَارُ نِظَامِ الْكَائِنَاتِ عَنْ آخِرِهَا.

يعني: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقَ الْأَنْبِيَاءَ فِي الْجَمَالِ الصُّورِيِّ، حَتَّى رَجَّحُوهُ عَلَى الْكَرِيمِ ^(١) بِنِ الْكَرِيمِ بْنِ الْكَرِيمِ، وَفِي الْكَمَالِ الْمَعْنَوِيِّ، حَتَّى أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وَلَمْ يُقَارِبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَضْلاً عَنْ الْعُلَمَاءِ وَالْكَرَمَاءِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ، فِي جَنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ عِلْمِهِ، وَفِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ كَرَمِهِ، وَاطْلُبْ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْمَنَاقِبِ الْعَلِيَّةِ، فِي كِتَابِ «الْمَوَاهِبِ اللَّدِّيَّةِ».

٣٩- وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ
عَرَفَا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشَفَا مِنَ الدَّيْمِ

(١) فِي هَامِشِ «ل»: «أَي: يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

الْعَرَفُ وَالْأَغْتِرَافُ: أَخَذَ الْمَاءَ بِالْيَدِ مِلءَ الْكَفِّ، وَالرَّشْفُ: الْمَصُّ، وَالذِّيمُ: جَمْعُ الذِّيمَةِ، وَهِيَ الْمَطَرُ الدَّائِمُ الْمُتَّصِلُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَالْمَعْنَى: وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ - أَوْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ - مُلْتَمِسٌ وَمُسْتَمِدٌّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ الْفَرْدِ الْأَكْمَلِ، وَالْغَوْثُ الْأَفْضَلُ، وَهُوَ مِنْ وَضَعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى الْوَصْفِ النَّبِيِّ.

(غَرَفًا)؛ أَي: شَيْئًا سِيرًا، أَوْ مَدَدًا كَثِيرًا، مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ، (أَوْ رَشْفًا)؛ أَي: اسْتَطْعَمًا لَطِيفًا وَاسْتِسْقَاءً شَرِيفًا مِنْ أَمْطَارِ كَرَمِهِ، وَمِنْ مَوَائِدِ نِعَمِهِ.

٤٠ - وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكْمِ

(لَدَيْهِ)؛ أَي: عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحَدُّ الشَّيْءِ: غَايَتُهُ وَمُنْتَهَاهُ، وَالنُّقْطَةُ بِالضَّمِّ: مَا حَصَلَ مِنَ النُّقْطَةِ بِالْفَتْحِ، مِنْ نَقَطَ الْكِتَابَ نَقْطًا وَنُقْطَةً: وَضَعَ عَلَيْهِ النُّقْطَةَ. وَ(الشَّكْلَةُ) بِالْفَتْحِ مِنْ شَكَلْتُ الْكِتَابَ: إِذَا قَيَّدْتَهُ بِالْإِعْرَابِ. وَ(الْحِكْمُ): جَمْعُ الْحِكْمَةِ، وَهِيَ إِحْكَامُ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ، وَقِيلَ: إِتْقَانُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَخَصَّ النُّقْطَةَ بِالْعِلْمِ وَالشَّكْلَةَ بِالْحِكْمِ؛ لِأَنَّ الشَّكْلَ يَحْصُلُ بِهِ مَزِيدُ بَيَانٍ لَا يَحْصُلُ بِالنُّقْطَةِ، كَذَا قِيلَ.

وَالْأَظْهَرُ: أَنَّ النُّقْطَةَ أَوْلَى بِمَزِيَّةِ الظُّهُورِ، وَلِذَا أُضِيفَتْ إِلَى الْعِلْمِ، وَالشَّكْلَةُ أَمْرٌ زَائِدٌ خَارِجٌ عَنْ مَاهِيَةِ الْمَفْهُومِ الْمَتَوَقَّفِ عَلَى النُّقْطَةِ الَّتِي مَدَارُ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهَا، وَلِذَا تُسَبِّتُ إِلَى الْحِكْمِ، وَهِيَ عُلُومٌ دَقِيقَةٌ عَقْلِيَّةٌ مُتَفَرِّعَةٌ عَلَى الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلِذَا لَمَّا أَرَادَ رَئِيسُ^(١) الْحُكَمَاءِ الظَّاهِرِيَّةِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ رَئِيسِ الْعُلَمَاءِ الْبَاطِنِيَّةِ، رُدَّ عَنْ الْبَابِ، وَوَقَعَ فِي الْحِجَابِ، الْمُتَشَجِّجِ لِلْعَذَابِ، وَالْحَرَمَانِ عَنِ الثَّوَابِ.

(١) كَتَبَ فَوْقَهَا فِي «ل»: «المراد به: علي بن أبي سينا قلت: لعله يريد (أبو علي ابن سينا)، الملقب بالرئيس».

ولمّا كان كلّ مُفْرَدًا لفظاً وعبارَةً عمّا أُضِيفَ إليه معنًى، جازَ إفراذُ الضّميرِ العائدِ إليه أوّلاً في (مُلْتَمِسٍ)، وجمعه ثانياً في (واقفون)؛ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَبٍ لُرُسُلٍ﴾ [ق: ١٤]، وقوله تعالى: دَعَا الْخَلْقَ إِلَى طَاعَةِ الْخَالِقِ دعوةً تامّةً كاملةً، غيرَ منسوخةٍ مخصوصةٍ بل هي شاملةٌ، للخلْقِ إلى يومِ القيامةِ واصِلَةٌ ﴿كُلُّ لَهُ قَدِثُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]. والمرادُ من (العلم): علْمُ الله الذي لا يَتَنَاهَى، ومن (الحِكم): حِكْمَةُ التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ثمَّ إنّ علومَ الأنبياء والعلماءِ بأسرها بمنزلةِ نقطةٍ من كلماتِ الله التي لا تَنفَدُ، وحِكمَ الحكماءِ عن آخرها بمنزلةِ شَكْلَةٍ من حِكمِ الله التي لا تُعَدُّ، وهذه النُّقْطَةُ والحِكمَةُ حاصلَتانِ لَهُ عليه السَّلَامُ على وجهِ التَّمامِ، والأنبياءُ لَهُم حَدٌّ مُعَيَّنٌ، ومَقَامٌ معلومٌ مُبَيَّنٌ، يَقِفُونَ عِنْدَهُ لَا يَتَخَطَّوْنَ عَنْهُ قَدْرٌ أُنْمَلَةُ، وَلَا يَتَعَدُّونَ مِنْهُ طَوْلَ نَمْلَةٍ.

وما ذَكَرْتُهُ فِي نُقْطَةِ الْعِلْمِ إِيْمَاءً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإشارةً إِلَى قَوْلِ الْخَضِرِ لِمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا غَمَسَ الْعَصْفُورُ مِنْقَارَهُ فِي الْبَحْرِ: «مَا عَلِمْتُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الْخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا مَقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا الْعَصْفُورُ مِنْقَارَهُ» رواه البخاري^(١).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمِ: عُلُومُهُ وَحِكْمُهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ عِلْمَهُ حَاطٍ لِقُنُونِ^(٢) الْعِلْمِ؛ كَعِلْمِ الْقِرَاءَةِ وَالتَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالفِقْهِ وَالْقِصَصِ وَالمَوَاعِظِ وَالعَقَائِدِ وَغَيْرِهَا، وَفِي كُلِّ مِنْهَا صُنُفٌ مُجَلَّدَاتٌ وَأَلْفٌ مُدَوَّنَاتٌ، وَكَذَا حِكْمُهُ جَامِعٌ لِأَنْوَاعِ الْحِكَمِ:

منها: علْمُهُ بِالطَّبِّ الظَّاهِرِيِّ الْمُتَعَلِّقِ بِالأَشْبَاحِ، وَعِلْمُهُ بِالعلاجِ المعنويِّ الْمُصْلِحِ لأمراضِ الأزواجِ.

(١) رواه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في هامش «ل»: «لعله: لأنواع».

ومنها: علومُ خَوَاصِّ الأشياءِ مِنْ مَنَافِعِهَا أو مضارِّها.

ومنها: معرفةُ أحوالِ الفلكيَّةِ والآفائيَّةِ، المسمَّاةِ بالهيئةِ السَّنيَّةِ السَّنيَّةِ.

ومنها: عِلْمُهُ بِالْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي عَجَزَ عَنْهَا الْكَهَنَةُ وَالْمُنَجِّمِيَّةُ.

ومنها: حقائقُ الصُّوفيَّةِ ودقائقُ العَرَبِيَّةِ، فَدَوْنُ الدَّفَاتِرِ وَزَيْنَ الْمَنَابِرِ

تَحْرِيرُهَا^(١) وَتَقْرِيرُهَا، حَتَّى صَارَ عِلْمَاءُ أُمَّتِي وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَظَهَرَتْ لَهُمْ خَوَارِقُ

الْعَادَاتِ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ الْأَصْفِيَاءِ.

فَعِلْمُ كُلِّ نَبِيٍّ وَحِكْمَتُهُ كَنَقْطَةِ مِنْ كِتَابِ عِلْمِهِ، وَشَكْلُهُ مِنْ بَابِ حِكْمِهِ،

يَعْنِي: حَدُّهُمْ وَرُتَبُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِهِ وَمَنْزِلَتِهِ مِثْلُ مَرْتَبَةِ النُّقْطَةِ مِنَ اللَّفْظِ

وَالْمَبْنَى، أَوْ نَسَبِ الشَّكْلِ وَالْإِعْرَابِ مِنَ الْمَعْنَى، وَلِذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «أُوتِيتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ»^(٢)، وَ: «أُمِرْتُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»^(٣)، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ

بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، فَ (مِنْ) فِي

الْبَيْتِ عَلَى هَذَا بَيَانِيَّةٌ، وَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ ابْتِدَائِيَّةٌ، وَ (أَوْ) لِلتَّقْسِيمِ.

٤١ - فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ

يُقْرَأُ الْبَيْتُ بِسُكُونِ الْهَاءِ فِي (فَهُوَ) وَيُشْبَعِهَا فِي (مَعْنَاهُ)، وَهُمَا لُغَتَانِ

مَشْهُورَتَانِ، وَقَرَاءَتَانِ مُتَوَاتِرَتَانِ، فَأَخْطَأَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُمَا مِنْ صَرُورَاتِ الشَّعْرِ.

و (حَبِيباً) حَالٌ، وَقِيلَ: مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ (اصْطَفَاهُ) بِتَضْمِينِهِ مَعْنَى: جَعَلَ،

(١) فِي «ل»: «بِتَحْرِيرِهَا».

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٩٧٧)، وَمُسْلِمٌ (٥٢٣)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَلَفْظُ الْبُخَارِيِّ:

«بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ...»، وَلَفْظُ مُسْلِمٍ: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ...» وَفِي رِوَايَةٍ: «أُوتِيتُ جَوَامِعَ...»، وَفِي

رِوَايَةٍ كَالْبُخَارِيِّ: «بُعِثْتُ». وَأَمَّا لَفْظُ الْمُؤَلِّفِ: «أُوتِيتُ بِجَوَامِعَ...» فَلَعَلَّهُ خَطَأٌ.

(٣) مَعْنَاهُ صَحِيحٌ لَكِنْ لَمْ أَجِدْهُ بِهَذَا اللَّفْظِ.

و(النَّسَم) بفتحَيْن: جمعُ نَسَمَةٍ، وهي النَّفْسُ، أو كُلُّ ذِي رُوحٍ، وقيل: هي الأَدَمِيُّ، والفاءُ للجزاء.

أي: إِذَا عَرَفْتُ^(١) أَنَّهُ عَلَا عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ، وَفَاقَ عَلَيْهِمْ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، أَوْ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ^(٢)، أَوْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، أَوْ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، أَوْ فِي مُعَامَلَتِهِ مَعَ الْخَلْقِ وَالْحَقِّ، أَوْ فِي الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، ثُمَّ اخْتَارَهُ وَاجْتَبَاهُ، وَاتَّخَذَهُ مُجِبًّا أَوْ مَحْبُوبًا وَارْتَضَاهُ، مِنْ بَيْنِ الْخَلَائِقِ بَارِئُ النَّسَمَاتِ، وَفَاطِرُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

و(ثُمَّ) لإفَادَةِ التَّرْتِيبِ فِي الصِّفَاتِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا عَلَى بَابِهَا مِنَ التَّرَاخِي، يَعْنِي: قُرِّرَتْ لَهُ مَرْتَبَةُ النُّبُوَّةِ بَعْدَ تَمَامِ الصُّورَةِ وَالسَّيَرَةِ، وَإِنْ كَانَ إِعْطَاءُ هَذِهِ الرُّتْبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ غَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ عَلَى وَجُودِ الْكَمَالَاتِ الصُّورِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِالسَّوِيَّةِ، وَإِنَّمَا الْإِخْتِلَافُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْأُمُورِ الْعَادِيَّةِ، وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى وَجْهِ انْتِظَارِ الْأَصْطِفَاءِ إِلَى الْمَدَّةِ الْأَرْبَعِيَّةِ، وَتَرْجِيحِهِ عَلَى عَيْسَى وَيَحْيَى مِمَّنْ أُعْطِيَ النُّبُوَّةَ فِي حَالِ الطُّفُولِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ الْمَتَبَادِرُ إِلَى الْوَهْمِ عَكْسَ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَهَذَا مُسْتَفَادٌ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْعِصَامِيَّةِ.

وَفِي الْبَيْتِ تَلْوِيحٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وَتَلْمِيحٌ إِلَى حَدِيثٍ صَحِيحٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةِ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

وَفِي رَوَايَةٍ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ» الْحَدِيثَ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(٤).

(١) فِي «ل»: «عَرَفَ».

(٢) كَتَبَ تَحْتَهَا فِي «د»: «جَوَابُ إِذَا». وَهَذَا غَيْرُ ظَاهِرٍ، وَلَمْ أَجِدْ فِي السِّيَاقِ مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ جَوَابًا لـ (إِذَا).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٢٧٦) مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٦٠٥) مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا سيّد وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَيَيْدِي لِيَوَاءَ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمُنَا آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ [وَأَوَّلُ] مُشَفِّعٍ وَلَا فَخْرَ» رواه أحمدُ والترمذي وابنُ ماجه^(١).

٤٢- مُنَزَّةٌ عَنْ شَرِيكَ فِي مَحَاسِنِهِ فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ (مُنَزَّةٌ) خبرٌ ثانٍ لـ (هو)، أو مُبْتَدَأُهُ محذوفٌ، وهو: هو، والمحاسِنُ: جمعُ حَسَنٍ على خلافِ القياس، و(فيه) بإشباع الضمّة صفةُ (الحُسْنِ) أو حالٌ منه. وفي إثباتِ الجَوْهَرِ لِلْحُسْنِ الَّذِي هُوَ عَرَضٌ وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ بَعْدَمِ الانْتِقَاسِ لَطَافَةٌ لَا تَخْفَى.

يعني: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْفَرِدٌ فِي جَمَالِ الصُّورَةِ الْبَهِيَّةِ، وَالسَّيِّرَةِ السَّنِيَّةِ، لَا يُشَارِكُهُ فِي كَمَالِهِمَا أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيَّةِ، إِمَّا فِي مَجْمُوعِ الْمَحَاسِنِ مِنْ حَيْثُ الْمَجْمُوعُ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِيقِيِّ، وَإِمَّا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى طَرِيقِ الْادِّعَائِيِّ، فَكَأَنَّ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ غَيْرُ حُسْنٍ فِي جَنْبِ حُسْنِهِ.

٤٣- دَعَا مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَذْحًا فِيهِ وَاحْكُمِ يَجُوزُ فِي (نَبِيِّهِمْ) التَّشْدِيدُ وَالْهَمْزُ، وَيُقْرَأُ بِإِشْبَاعِ مِيمِ الْجَمْعِ وَلَوْ وَقَفًا؛ تَنْزِيلًا لِلْوَقْفِ مَنْزِلَةَ الْوَصْلِ لِلزَّوْنِ، وَ(مَذْحًا) تَمْيِيزٌ، وَالْاِخْتِكَامُ: اسْتِعْمَالُ الْحِكْمَةِ وَاتِّقَانُ الْحُكْمِ.

يعني: اُنْزَكَ فِي مَذْحِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْاِتِّحَادِ، وَالْحُلُولِ، وَالتَّثْلِيثِ، وَالتَّنَاسُخِ، وَالتَّوَالُدِ،

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٢)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ونحو ذلك مما يُوجِبُ الكُفْرَ والشُّرْكَ والضَّلَالَ، وَيَتَرْتَبُ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ، وَالْوَبَالُ وَالْأَغْلَالُ، حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُم: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُم: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ، وَقَالَ بَعْضُهُم: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَاحْكُمْ مَا شِئْتَ فِي حَقِّهِ مِنْ جِهَةٍ نَعْتِهِ وَمَذْهَبِهِ مِنْ شَرَفِ شَأْنِهِ، وَعُلُوِّ مَنْصَبِهِ وَمَكَانِهِ، وَتَكَلَّمَ بِالْحِكْمَةِ، وَأَتَقَنَ فِي الْحُكْمِ بِالْمِذْحَةِ، حَتَّى لَا تَتَجَاوَزَ عَنِ الْحَدِّ الْإِنْسَانِيِّ إِلَى الْوَصْفِ الصِّمْدَانِيِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتَبٍ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، أَيْنَ التُّرَابُ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ؟!

٤٤ - وَأَنْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَأَنْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمٍ (مَا) مَوْصُولَةٌ، وَ(مِنْ) بَيَانِيَّةٌ، وَالتَّنْوِينُ لِلتَّعْظِيمِ فِيهِمَا، وَالْفَاءُ لِلْعَطْفِ التَّفْسِيرِيِّ، أَوْ لِلْفَصَاحَةِ عَنِ الشَّرْطِ التَّقْدِيرِيِّ؛ أَي: إِذَا تَرَكْتَ مِثْلَ دَعْوَى النَّصَارَى وَكَلَامِ الْخَيَارَى فَلَكَ السَّعَةُ فِي دَائِرَةِ النَّسْبَةِ إِلَى ذَاتِهِ الْمَعْظَمَةِ مَا شِئْتَ مِنَ الْأَوْصَافِ الْمَكْرَمَةِ؛ مِنْ جَمَالِ الْخَلْقِ، وَكَمَالِ الْخُلُقِ، وَطِيبِ الْعِرْقِ، وَذَكَاءِ اللَّبِّ وَصَفَاءِ الْجَنَانِ، وَبِلَاغَةِ الْكَلَامِ وَفَصَاحَةِ اللَّسَانِ، وَسَائِرِ كِمَالَاتِ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَنبُعُ الْإِحْسَانِ، وَمُبْدَعُ الرَّحْمَنِ. وَأَيْضاً لَكَ الرُّخْصَةُ فِي النَّسْبَةِ الدَّائِرَةِ عَلَى إِحَاطَةِ كِمَالِ قَدْرِهِ وَمَرْتَبَتِهِ، وَجَمَالِ طَوْرِهِ وَعَظَمَتِهِ، مَا أَرَدْتَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِظَمَةِ وَفَنُونِ الْكِرَامَةِ، وَأَجْنَاسِ الْمَعْجَزَةِ الَّتِي لَا يُسْتَقْصَى حَدُّهَا، وَلَا يُحْصَى عَدُّهَا^(١).

٤٥ - فَلِإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرَبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ الْفَاءِ لِلتَّعْلِيلِ لَامْتِنَاعِ الْمَدْحِ بِالتَّفْصِيلِ، وَنَضْبُ (يُعْرَبُ) عَلَى جَوَابِ النَّفْيِ، وَضَمِيرُ (عَنْهُ) لِلْحَدِّ، وَيُقْرَأُ بِالْإِشْبَاعِ عَلَى لُغَةِ مُرَاعَاةِ اللَّزْنَةِ، وَالبَاءُ لِلِاسْتِعَانَةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِ(نَاطِقٌ) أَوْ (يُعْرَبُ).

(١) فِي هَامِشِ «ل»:

يَفْنَى الزَّمَانَ وَفِيهِ مَا لَمْ يَوْصَفْ

«وَعَلَى تَفَنُّنٍ وَاصْفِيهِ بِحُسْنِهِ

والإعرابُ: الإفصاح والبيان والإيضاح، وهو لا يكونُ إلَّا باللسان، فالتعبيرُ عنه بالفم من باب إرادة الحالِ بذكر المكان، وفائدةُ ذكره مع أنَّ النطق لا يكونُ بغيره: زيادةُ إفادةِ عمومِ الحكم في عدمِ حصرِ قدره، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨] من نظائره.

يعني: إنَّما أمرتُك بالنسبةِ الإجماليةِ، في عدِّ صفاته الكماليةِ، فإنَّ فضائله التفصيليةَ ليس لها نهاية، حتَّى يُمكنَ أن يُبينه أحدٌ على غاية، ولو بلغ مبلغُ البلغاءِ والفُصحاءِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه أفضلُ من جميعِ الملائكةِ وسائرِ الأنبياء، بل إيماءٌ إلى أنَّه لا يعلمُ حقيقةَ الذاتِ المحمَّديةِ، وحقيقةَ الصفاتِ الأحمديَّةِ، إلَّا الموصوفُ بصفاتِ الرُّبوبيَّةِ، ولذا قال بعضُ العارفين: الخلقُ عرَفوا الصفاتِ الألوهيةَ، ولم يعرِفوا النُّعوتِ المُصطفويةَ.

٤٦ - لو ناسبتَ قدره آياته عِظماً أحيا اسمه حين يُدعى دارِسَ الرَّمِ
العِظْمُ بكسرِ العينِ خِلافَ الصَّغَرِ، كذا في «القاموس»^(١)، فيكونُ مُستعاراً للعَظْمَةِ، والرَّمُ: جمعُ الرِّمَةِ؛ كالقِطْعِ والقِطْعَةِ، وهي العِظامُ الباليةُ. ويقالُ: دَرَسَ الرَّسْمُ: إذا عَفَا، فانْدِرَاسُها زيادةٌ في البلى.

و(قَدْرُه) مفعولٌ به قُدِّمَ لاهتمامِهِ، و(عِظْماً) تمييزٌ؛ ك: طابَ زيدٌ نفساً، و(اسمُه) فاعلٌ (أحيا)، والنسبةُ مجازيةٌ، فإنَّ الإحياءَ مِنَ الصفاتِ الإلهيةِ، وضميرُ (يُدعى) راجعٌ إلى (اسمُه)، أو إلى الله، أي: يُسألُ باسمِهِ، و(دارِس) مفعولٌ، والإضافةُ من قبيلِ إضافةِ الصِّفَةِ إلى الموصوفِ؛ أي: الرَّمِيمَ الدَّارِسَ، والجملَةُ جوابُ (لو).

والمعنى: أنَّه ظَهَرَ لَهُ الآياتُ البيناتُ الدالَّةُ على رسالته ونبوته، وتبيَّنتْ له الكراماتُ والمعجزاتُ المُشعِرةُ على علُوِّ مرتبته ورفعته وعظمتِهِ بقدرِ ما

(١) انظر: «القاموس» (مادة: عظم).

اَقْتَضَى مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَحُكْمَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَمِنْ جَمَلَةِ مُعْجَزَاتِهِ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى حَتَّى عَلَى أَيْدِي بَعْضِ أُمَّتِهِ، وَمَعَ هَذَا لَوْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَاسَبَةَ التَّامَّةَ السَّيِّئَةَ بَيْنَ ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ وَآيَاتِهِ الْبَهِيمَةِ، لِأَخْيَا اللَّهُ تَعَالَى بِاسْمِهِ فَضْلاً عَنْ رَسْمِهِ إِذَا دُعِيَ وَذُكِرَ اسْمُهُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَوْ وَصِفُ مِنْ أَوْصَافِ صِفَاتِهِ الْعِظَامِ الْبَالِيَةِ وَالْأَجْسَامِ الْفَانِيَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَجَازِيَّةِ، حَيْثُ جَعَلَ خَاصِيَّةَ اسْمِهِ الْمُحَمَّدِيِّ أَوْ وَصْفِهِ الْأَحْمَدِيِّ ^(١) أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ عَلَى مِيتٍ حَقِيقِيٍّ لَصَارَ حَيًّا حَاضِراً، وَإِذَا ذُكِرَ كَافِرٌ أَوْ غَافِلٌ جُعِلَ مُؤْمِناً وَحُوِّلَ ذَاكِراً، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَتَرَ جَمَالَ هَذَا الذَّرِّ الْمَكْنُونِ، وَكَمَالَ هَذَا الْجَوْهَرِ الْمَصُونِ، لِحِكْمَةٍ بِالْغَيْهِ وَنَكْتَةٍ سَابِغَةٍ، وَلَعَلَّهَا لِيَكُونَ الْإِيمَانُ غَيْبِيًّا، وَالْأَمْرُ ^(٢) تَكْلِيفِيًّا، لَا الشُّهُودُ عَيْنِيًّا وَالْعِيَانُ بَدِيهِيًّا، أَوْ لثَلَا يَصِيرَ مَزْلَقَةً لِأَقْدَامِ الْعَوَامِّ، وَمَزْلَةً لِنَصْرِ ^(٣) الْجَهَّالِ بِمَعْرِفَةِ الْمَلِكِ الْعَلَامِ.

وَلَا شُبْهَةٌ أَنْ فِي مَقَامِ الْمُبَالَغَةِ عَوْدُ ضَمِيرٍ (يُدْعَى) إِلَى (اسْمِهِ) أَوْلَى مِنْ أَنْ يُقَالَ: يُدْعَى اللَّهُ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى. وَلَا يَرِدُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَشَرْفِهِ شَأْنٌ لَا يُمَكِّنُهُ الْبَيَانُ، فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي عَظَمَةِ الدَّلَالَةِ، لَا فِي شَرَفِ الْمَقَالَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ ظَهَرَتْ عَلَى قَدْرِ عَظَمَةِ نَبِيِّنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ لَمَا أَنْكَرَ أَحَدٌ نُبُوَّتَهُ وَرِسَالَتَهُ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا عَظَمَتَهُ، وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ [الرعد: ٣١]؛ أَي: لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ، لَكِنَّهُ صُرِفَ عَمَّا ذُكِرَ لَمَّا كَانَ هُنَاكَ مَانِعٌ مُنِيعاً ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [الرعد: ٣١].

ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنَّ النَّاطِمَ لَوْ قَالَ:

لَوْ نَاسَبَتْ عَظَمَةُ آيَاتِهِ عِظَمًا أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى الْعَظَمُ فِي الرَّمَمِ

(١) فِي «د»: «اسْمُهُ الْأَحْمَدِيُّ أَوْ وَصْفُهُ الْمُحَمَّدِيُّ».

(٢) فِي «د»: «وَالْأَمْرُورُ»، وَفِي «ل»: «وَالْأُمُورُ»، وَلَعَلَّ الْمَثْبُوتَ هُوَ الْأَنْسَبُ بِسِيَاقِ الْكَلَامِ.

(٣) كَلِمَةٌ: «لِنَصْرِ» كَذَا وَقَعَتْ فِي «د»، وَغَيْرُ وَاضِحَةٍ فِي «ل».

بضمّ العينِ في (عُظْمَه)، وافتحها في (العَظْم) لكانَ أنسَبَ بالمناسبة اللَّفْظِيَّة،
والمُلاطَفة النُّطْقِيَّة، مع مُراعاة اللُّطائفِ المعنويَّة، التي تَقْتَضِي الذَّاتِ الجامِعيَّة.

٤٧ - لَمْ يَمْتَحِنَا بِمَا تَعَيَّا الْعُقُولُ بِهِ حِرْصاً عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهْم

الامتحانُ: الابتلاءُ والاختبارُ، وعَيِيَ بالأمرِ: عَجَزَ عنه وَلَمْ يَهْتَدِ لوجهه.

والعقلُ: مَلَكةٌ تَعْقِلُ صاحبها عن الفَضائح، وتمنعه عن القَبائح.

والحرصُ: شدَّةُ الرِّغْبَةِ في الشَّيْءِ والميلُ إليه، وصَرَفَ الهِمَّةِ عليه.

والارتيابُ: الشُّكُّ والتردُّدُ.

ويقالُ: وَهَمَ بالفتح: إِذَا رَجَحَ جَانِبَ الْبَاطِلِ، وهام: إِذَا تَحَيَّرَ فِي عَقْلِهِ الْعَاقِلُ.

و(ما) موصولةٌ، والضَّميرُ في (به) راجعٌ إليه، و(حرصاً) مفعولٌ لَهُ أو حَالٌ.

والمعنى: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَايَةِ رَافَتِهِ وَنَهَايَةِ رَحْمَتِهِ

لَمْ يَأْتِنَا بِشَيْءٍ مِنْ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا بِشَيْءٍ مِنْ تَكَالِيفِ الْأَحْكَامِ، لَمْ يَهْتَدِ

العقلُ بِإِدْرَاكِهِ أَوْ يَعْجِزُ صَاحِبُهُ عَنْ إِدْرَاكِهِ، بَلْ أَتَانَا بِالْحَنِيفِيَّةِ النَّوْرَاءِ، وَالْمَلَّةِ السَّمْحَةِ

الْبَيْضَاءِ؛ لِأَجْلِ حِرْصِهِ عَلَيْنَا، وَكَمَالِ التَّفَاتِهِ إِلَيْنَا، فَلَمْ نَشُكَّ فِي رِسَالَتِهِ، وَلَمْ نَتَحَيَّرْ فِي

مُتَابَعَتِهِ، وَلَمْ نَخْتَرْ طَرِيقاً عَلَى طَرِيقَتِهِ، الْجَامِعَةِ بَيْنَ شَرِيعَتِهِ وَحَقِيقَتِهِ.

وفي البيتِ إيماءٌ إلى قولِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤٨ - أَغْيَا الْوَرَى فَهَمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْهُ غَيْرُ مُنْفَجِمِ

الإعْياءُ: التَّعْجِيزُ، و(الْوَرَى): الْخَلْقُ، وَضَمِيرُ (مَعْنَاهُ) يُقْرَأُ بِالْإِشْبَاعِ،

و(المعنى): مَقْصُودُ الْكَلَامِ، وَكَمَالُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى وَجْهِ التَّمَامِ، وَفِي نَسْخَةٍ:

(لِلْقُرْبِ) فَالْأَمُّ بِمَعْنَى (فِي).

وَضَمِيرُ (مِنْهُ) يُشَبَّعُ، وَكَذَا (فِيهِ) فِي نَسْخَةٍ، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي نَسْخَةٍ: (مِنْهُمْ) فَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى (الْوَرَى)، وَجَوَزٌ عَلَى النُّسخَةِ الثَّانِيَةِ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى (مَعْنَاهُ).

وَالْإِنْجَامُ: قَبُولُ الْإِنْزَامِ، وَأَصْلُهُ: أَنَّ الْخَصْمَ يَتَسَوَّدُ وَجْهُهُ كَالْفَحْمِ عِنْدَ الْإِنْزَامِ. وَإِسْنَادُ الْإِعْيَاءِ إِلَى الْفَهْمِ مَجَازِيٌّ؛ أَي: أَعْيَا اللَّهُ الْوَرَى عَنْ فَهْمٍ مَعْنَاهُ. وَ(فَهُمْ) مِصْرَفٌ إِلَى مَفْعُولٍ؛ أَي: فَهَمُّهُمْ مَعْنَاهُ.

وَمَا بَعْدَ (لَيْسَ) مُفَسَّرٌ لَضَمِيرِ الشَّأْنِ فِيهَا، وَ(يَرَى) مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ، وَ(فِي الْقُرْبِ) مُتَعَلِّقٌ بِهِ أَوْ بـ (لَيْسَ)، وَيَجُوزُ نَصْبُ (غَيْرِ) عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ (يَرَى) عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الرُّؤْيَةِ الْقَلْبِيَّةِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ فَهْمَ مَعَانِيهِ الْخَفِيَّةِ الْبَهِيَّةِ، وَكَمَالَاتِهِ السَّرِيَّةِ السَّيِّئَةِ، أَعْجَزَ الْكَائِنَاتِ بِأَسْرِهَا، وَالْمَخْلُوقَاتِ بِشَرَّاسِرِهَا، فَلَيْسَ يُبْصِرُ - بَلْ وَلَا يُعْلَمُ - فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ الْمَكَانِيِّينَ، أَوِ الْعَهْدِ وَالْعَصْرِ الزَّمَانِيِّينَ، مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرٌ^(١) عَاجِزٍ عَنِ إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ، وَغَيْرُ سَاكِتٍ عَنْ حَقِيقَةِ مَبْنَاهُ، سِوَاءٍ مَنْ تَشَرَّفَ بِلُقْبَاهُ، وَطُوبَى لِمَنْ رَأَاهُ، أَوْ تَحَسَّرَ عَلَى عَدَمِ مُطَالَعَةِ طُلْعَةِ مَوْلَاهُ، مَقُولًا فِي حَقِّهِ: وَاشْوَاقَاهُ.

أَوِ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ بِحَسَبِ السَّمَرْتِيَّةِ وَاعْتِبَارِ الْمَنْزِلَةِ، يَعْنِي: يَسْتَوِي فِي عَدَمِ الْعِلْمِ بِإِحَاطَةِ كَمَالَاتِهِ، وَالتَّخَيُّرِ فِي عُلوِّ ذَاتِهِ وَرَفْعَةِ صِفَاتِهِ، مَنْ قَرَّبَ إِلَيْهِ فِي الْحَالِ وَالْمَقَامِ؛ كَأُولِي الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ الْكِرَامِ، وَالْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ الْكِرَامِ، وَمَنْ بَعُدَ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَمُسَايَرَتِهِ مِنْ عَوَامِّ الْأَنَامِ.

٤٩ - كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنِينَ مِنْ بُعْدٍ صَغِيرَةٍ وَتُكِلُ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمٍ

(١) كلمة «غير» ضبطت في «ل» بالضم.

(بُعْد) بضمّتين لغةً، والإكْلالُ: التّعجيزُ عن الإدراك، و(الطَّرْف): البَصَرُ، و(أَمَم) بفتحَتين: القُرْبُ.

يعني: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَصْفِهِ الَّذِي تَقَدَّمَ - مِنْ أَنَّهُ عَجَزَ عَنْ فَهْمِ مَبَانِيهِ وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهِ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَالشَّقِيُّ وَالسَّعِيدُ - كَالشَّمْسِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ جِهَةِ الْبُعْدِ حَالِ كَوْنِهَا صَغِيرَةً، وَتُعْجِزُ الْبَصَرَ وَالنَّظَرَ مِنَ الْقُرْبِ وَتُضَيِّرُ نَفْسَ الرَّائِي حَسِيرَةً، وَهَذَا مِنْ تَشْبِيهِهِ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ؛ لِتَقْرِيبِ الْفَهْمِ الْمُنْكَوسِ - وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الشَّمْسَ - عَلَى مَا قِيلَ: إِنَّهَا قَدَرُ كُرَةِ الْأَرْضِ مِثْلَهُ وَتِسْعًا وَسِتِّينَ مَرَّةً^(١) - كَمَا أَنَّهَا تَظْهَرُ مِنَ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ صَغِيرَةً، وَإِذَا تَقَرَّبَ الشَّخْصُ لِإِدْرَاكِ حَقِيقَتِهَا وَمَتَرَلَتْهَا يَرَى نَفْسَهُ عَاجِزَةً حَقِيرَةً، كَذَلِكَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى فِي بَادِي النَّظَرِ أَنَّهُ فَرْدٌ مِنْ أَحَادِ الْبَشَرِ، وَإِذَا تَأَمَّلَ الْوَاحِدُ فِي جَمَالِ ذَاتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، تَحَيَّرَ وَعَجَزَ عَنْ إِدْرَاكِ مَرَاتِبِ دَرَجَاتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قَالَ الْمَفْسَّرُونَ: الْمَرَادُ بِالْبَعْضِ: ذَاتُهُ الْعَلِيَّةُ الصِّفَاتُ.

أَوْ يَقَالُ: إِنَّهُ ﷺ يَرَى فِي نَظَرِ الْأَغْيَارِ مِنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنِ الْأَسْرَارِ صَغِيرًا^(٢)، وَفِي عَيْنِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَخُلَاصَةِ الْإِنْسَانِ كَبِيرًا^(٣)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أَي: ظَاهِرًا ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]؛ أَي: بَاطِنًا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي فِي عَيْنِي صَغِيرًا»؛ أَي: لِمُشَاهَدَةِ عَظَمَتِكَ «وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيرًا»^(٤)؛ أَي: لِمُكَاشَفَةِ قُدْرَتِكَ.

(١) فِي هَامِش «ل»: «مَقْدَارُ الشَّمْسِ».

(٢) فِي النُّسخَتَيْنِ: «صَغِيرٌ»، وَالصُّوَابُ الْمَثْبُتُ.

(٣) فِي النُّسخَتَيْنِ: «كَبِيرٌ»، وَالصُّوَابُ الْمَثْبُتُ.

(٤) رَوَاهُ الْبَزَارُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٤٤٣٩) مِنْ حَدِيثِ بَرِيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ كَمَا فِي «الْعِلَلِ» لِابْنِهِ (٢/ ١٦٢): حَدِيثٌ مُنْكَرٌ لَا يَعْرِفُ.

٥٠- وكيف يُدركُ في الدُّنيا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ
(كيف) ظرفٌ متضمنٌ لاستفهام الإنكار والاستبعاد، ومُتعلِّقٌ بـ (يُدركُ)،
وتَقَدَّمَ لَصَدَارَةُ الاستفهام، و(الحُلُم) بضمَّتين لغةً، وهو ما يراه النَّائمُ، والمرادُ
هنا: الخَيَالُ. والقَوْمُ همُ الْوَرَى، أو ما وراء الأنبياء والأولياء.

والمعنى: كيف يَعْلَمُ في الدُّنيا الدِّنيَّة حَقِيقَةَ الذَّاتِ المَحْمَدِيَّة، وَحَقِيقَةَ الصِّفَاتِ
الأحمدِيَّة، جماعةٌ غافلةٌ كالنِّيام، قَعُوا عن معرفته بالخَيالات والأوهام، وفيه تنبيهٌ
على ما رُوِيَ: «النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا»^(١)، وإشارةٌ تحتها بِشارةٌ: أَنَّ شَمْسَ جَمَالِهِ
وَكَوْكَبَ جَلَالِهِ تَطْلُعُ مِنْ أَفْقِ كَمَالِهِ فِي الْآخِرَةِ وَقَتِ النَّدَامَةِ، كما قال: «آدَمُ وَمَنْ
دُونَهُ تَحْتَ لَوَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فَإِنَّ البصائرَ تَكْمُلُ حِينَئِذٍ لِإِدْرَاكِ السَّرَائِرِ لِلْقَرِيبِ
وَالْبَعِيدِ، قال تعالى: ﴿فَبَصَّرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ولذا قال بعضُ العارفين: إِنَّمَا امْتَنَعَ
رُؤْيُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ لِأَنَّ الْبَاقِي لَا يَرَى إِلَّا بِالْعَيْنِ الْبَاقِيَّةِ.

٥١- فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
يُقْرَأُ الْبَيْتُ بِإِشْبَاعِ هَاءٍ (فيه) على قِراءَةِ الْمَكِّيِّ، وكسْرِ الميمِ فِي (كُلِّهِمْ)،
وَالْإِشْبَاعُ مِنَ الْحُكْمِ الشَّعْرِيِّ.

يعني: نَهَايَةُ بُلُوغِ عِلْمِنَا، وَغَايَةُ وَصُولِ فَهْمِنَا، فِي مَبْنَى ذَاتِهِ: أَنَّهُ بَشَرٌ عَظِيمٌ، وَجَوْهَرٌ
جَسِيمٌ، مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، وَأَحَادِ الْأَعْيَانِ، وَفِي مَعْنَى صِفَاتِهِ أَنَّهُ أَفْضَلُ الْكَائِنَاتِ، وَسَيِّدُ
الْمَوْجُودَاتِ، وَإِنَّمَا أَكَّدَ بِالْ (كُلِّ) دَفْعاً لَخِلَافِ الْبَعْضِ، وَهَذَا إِشْعَارٌ بِالْعَجْزِ وَالْقُصُورِ
لِأَهْلِ الثَّقَلَيْنِ، عَنْ إِحَاطَةِ كُنْهِهِ فِي الْجَانِبَيْنِ.

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٩٣): «لم أجده مرفوعاً، يعزى لعلي بن أبي طالب». ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٢) عن سفيان الثوري قوله.

(٢) رواه الترمذي (٣٦١٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح.

٥٢ - وكلُّ آيِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ
(كُلُّ) مرفوعٌ على الابتداء، والواو لعطفِ الجملِ، وَيَعْدُ قَوْلُ عَصَامِ الدِّينِ:
إِنَّهُ مَنْصُوبٌ عَطْفًا عَلَى اسْمِ (أَنْ)، وَالْآيِ: جَمْعُ الْآيَةِ بِمَعْنَى الْمَعْجَزَةِ، وَ(الرُّسُلُ)
بِسُكُونِ السَّيْنِ تَخْفِيفًا: جَمْعُ الرَّسُولِ، وَ(الْكَرَامُ): جَمْعُ الْكَرِيمِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ
الْاِكْتِفَاءِ^(١)، إِذْ يُفْهَمُ غَيْرُهُ بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ.

يعني: جميعُ ما أتى الرُّسُلُ والأنبياءُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ تِلْكَ
الْآيَاتُ الظَّاهِرَاتُ، أَوِ الْمَعْجَزَاتُ الْبَاهِرَاتُ، مِنْ أَثَرِ نُورِهِ الْأَصْلِيِّ، الَّذِي اتَّصَلَ إِلَيْهِمْ
بِالطَّرِيقِ الْفَرْعِيِّ، فَمَعْجَزَاتُ السَّابِقِينَ مَعْجَزَةٌ لَهُ، كَمَا أَنَّ كِرَامَاتِ اللَّاحِقِينَ كِرَامَةٌ
لَهُ، فَالسَّابِقُونَ وَاللَّاحِقُونَ إِنَّمَا هُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ نَائِبُونَ، كَالْمَقْدَمَةِ وَالسَّابِقَةِ لِلْأَمِيرِ
سَائِرُونَ، وَإِلَى حُكْمِهِ صَائِرُونَ، وَكَذَا كُلُّ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَنُكْتَةٍ وَحِكْمَةٍ فَإِنَّهَا مِنْ أَشْعَةِ
أَنْوَارِهِ، وَلَمَعَةِ أَسْرَارِهِ.

٥٣ - فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضِلَ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرُنْ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

(١) الْاِكْتِفَاءُ: أَنْ يَقْتَضِيَ الْمَقَامَ ذِكْرَ شَيْئَيْنِ بَيْنَهُمَا تَلَازِمٌ وَارْتِبَاطٌ، فَيَكْتَفَى بِأَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ لِنُكْتَةٍ، وَيَخْتَصُ
غَالِبًا بِالْارْتِبَاطِ الْعَطْفِيِّ كَقَوْلِهِ: ﴿سَرَّيْلٌ تَقِيصُكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أَيِ: وَالْبَرْدِ، وَخُصَّصَ الْحَرُّ
بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْخُطَابَ لِلْعَرَبِ وَبِلَادِهِمْ حَارَةٌ، وَالْوَقَايَةُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْحَرِّ أَهَمُّ لَأَنَّهُ أَشَدُّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَرْدِ،
وَقِيلَ فِي تَأْوِيلِهِ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَمِنْهُ: ﴿يَرْبِكُ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ أَيِ: وَالشَّرُّ، وَإِنَّمَا خُصَّ الْخَيْرُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ مَطْلُوبُ الْعِبَادِ
وَمَرْغُوبُهُمْ، أَوْ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ وَجُودًا فِي الْعَالَمِ، أَوْ لِأَنَّهُ إِضَافَةُ الشَّرِّ إِلَى اللَّهِ لَيْسَ مِنْ بَابِ الْأَدَابِ.
وَمِنْهُ: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]؛ أَيِ: وَمَا تَحَرَّكَ، وَخُصَّ السُّكُونُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَغْلَبُ
الْحَالِينَ عَلَى الْمَخْلُوقِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْجِمَادِ، وَلِأَنَّهُ كُلُّ مَتَحَرِّكٍ يَصِيرُ إِلَى السُّكُونِ.
وَمِنْهُ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ أَيِ: وَالشَّهَادَةِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مِمَّا هِيَ وَاجِبٌ، وَأَثَرُ الْغَيْبِ لِأَنَّهُ
أَمْدَحُ، وَلِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِالشَّهَادَةِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ. انظر: «الإِتْقَانُ» للسيوطي (٢/ ٢٠٣).

تَخْيِيلٌ حَسَنٌ وَتَعْلِيلٌ مُسْتَحْسَنٌ، فَإِنَّ تَشْبِيهَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِالشَّمْسِ تَشْبِيهٌ بَلِغٌ، وَإِلْإِضَافَةٌ بِمَعْنَى (مِنْ)؛ أَي: مِنْ أَفْضَالِ اللَّهِ، كَذَا قِيلَ.

وَالْأَظْهَرُ: أَنَّ الْفَضْلَ بِمَعْنَى الْفَضِيلَةِ وَالزِّيَادَةِ، وَإِلْإِضَافَةٌ لِأَدْنَى الْمُلَابَسَةِ،
يَعْنِي: كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ مَتَمِّيزَةٌ بِزِيَادَةِ الضَّوِّ وَأَصَالَةِ النُّورِ مِنْ سَائِرِ الْأَقْمَارِ وَالْكَوَاكِبِ
الْكَوَامِلِ، كَذَلِكَ نَبِيًّا مِمَّا تَزَارُ بِفَضْلِ أَسْرَارِ الْفَضَائِلِ، وَأَصْلُ أَنْوَارِ الشَّمَائِلِ، عَنْ سَائِرِ
أَرْبَابِ الْفَوَاضِلِ، وَهُمْ - يَعْنِي: الرُّسُلَ وَالْأَنْبِيَاءَ - أَمْثَالُ الْكَوَاكِبِ لِتِلْكَ الشَّمْسِ.

وَالْإِضَافَةُ تُفِيدُ أَنَّ كَوْكَبَ الشَّمْسِ مُخْتَصٌّ بِمَا يَسْتَفِيدُ مِنْ قِيَّضِهِ،
وَيَسْتَفِيدُ مِنْ ضَوْئِهِ، وَهُوَ الْقَمَرُ، كَمَا هُوَ فِي مَحَلِّهِ مُقَرَّرٌ، فَجَمْعُهُ لَتَعَدُّدِ الْمَشَبِّهِ
بِهِ^(١)، وَقِيلَ: بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ مِنَ الْهَلَالِيَّةِ وَالْبَدْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا.

وَقِيلَ: الْمَرَادُ مُطْلَقُ الْكَوَاكِبِ، فَيَكُونُ الْحُكْمُ تَغْلِييًّا أَوْ مُبَالَغَةً أَوْ ادِّعَائِيًّا،
(يُظْهِرُنَ)؛ أَي: الْكَوَاكِبُ أَنْوَارُ الشَّمْسِ لِلنَّاسِ، وَخُصُّوا الشَّرْفَهُمْ، وَلَوْ قَالَ: لِلخَلْقِ، لَعَمَّ.
(فِي الظُّلَمِ): جَمْعُ ظُلْمَةٍ؛ أَي: ظُلَمِ اللَّيَالِي.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ سَمَاءِ
الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، بِزِيَادَةِ النُّورِ وَمَزِيَّةِ الْأَصْلِ، وَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ، إِنَّمَا هُمْ بِمَنْزِلَةِ الْقَمَرِ مِنْ بَيْنِ الْكَوَاكِبِ، فِي أَنَّهُمْ يَسْتَمْدُونَ مِنْ نُورِ
نُبُوَّتِهِ الْقَدِيمَةِ، وَيَسْتَنِيرُونَ مِنْ ضِيَاءِ رِسَالَتِهِ الْقَوِيمَةِ، أَوْ لَأَنَّهُمْ كَالنُّجُومِ يُظْهِرُونَ
أَنْوَارَهُمْ فِي اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ، وَالْأَوْقَاتِ الْمُدْهِمَةِ.

(لِلنَّاسِ)؛ أَي: لِبَعْضِهِمْ، أَوْ لِكُلِّهِمْ، وَالتَّخْصِصُ بِالنَّاسِ لِأَنَّ الْجِنَّ لَمْ يُبْعَثْ
غَيْرُ نَبِيٍّ بِهِمْ.

وَإِذَا طَلَعَ نُورُ الشَّمْسِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، غَابَ كَوَاكِبُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْأَحَدِيَّةِ، وَعَلَى

(١) فَوْقَهَا فِي «د»: «أَي: الْأَنْبِيَاءَ».

هذا فالتعبيرُ عن الأنبياء المشبهين بالكواكبِ المُنورين بضميرِ الإناثِ في (يُظْهِرُنَ) بناءً على حُكْمِ المعبرِ به، وهذا عكسُ ما وَرَدَ في القرآنِ مِنْ قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ أَهَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وفيه إشارةٌ إلى نسخِ شريعةِ نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم شرائعَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأنبياء، وإيماءٌ إلى أن يومَهُ لَيْسَ بعدهُ لَيْلٌ، وَدِينُهُ لَا يَعْقِبُهُ زَوَالٌ وفناء.

٥٤ - أَكْرَمَ بِخُلُقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٌ بِالْبِشْرِ مُتَّسِمٌ

(أَكْرَمَ به) صيغةُ تَعَجُّبٍ، والخُلُقُ بالفتح: الخِلْقَةُ والصُّورَةُ، وبضمتين: الصِّفَةُ والسَّيْرَةُ.

والاشْتِمَالُ في أصلِ الاستعمالِ: التَّلَفُّفُ بالشَّمْلَةِ والتَّلَبُّسُ بها مع الإحاطة.

و(البِشْر) بالكسر: ما يَظْهَرُ في بَشَرَةِ الْبَشَرِ مِنْ أَثَرِ الشَّرُورِ، ويسمَّى: الْبَشَاشَةُ، وفي بعضِ النسخِ: (بالبِشْر)، وهو سَعَةُ الْخَيْرِ والسَّامِحَةُ. والاتِّسَامُ بالشَّيْءِ: الاتِّصَافُ به، مِنَ الْوَسْمَةِ وهي الْعَلَامَةُ.

وجملته (زَانَهُ) صفةُ (نَبِيٍّ) أو (خُلُقِ نَبِيٍّ).

و(بالْحُسْنِ) متعلقٌ بـ (مُشْتَمِلٌ) وهو بالجرِّ صفةُ أُخْرَى، ومثله ما بعده، والحُسْنُ راجِعٌ إلى الخُلُقِ، والبِشْرُ ناظِرٌ إلى الخُلُقِ، أو كُلُّ مِنْهُمَا أَعْمٌ، وهو في دَوْقِي أَتَمُّ.

يعني: ما أَكْرَمَ خُلُقَ نَبِيٍّ وَصُورَتَهُ الظَّاهِرَةَ، الذي رَزَقَهُ وَحَسَنَهُ خُلُقَهُ وَسَيْرَتَهُ الْبَاطِنَةَ الطَّاهِرَةَ، فهو كما قال تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ، كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] هو^(١) الموصوفُ بأشتمالِ الحُسْنِ وإحاطتهِ جميعَ حالاتِهِ ومَقَالَاتِهِ، وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، والمُتَّصِفُ بِالْإِتِّسَامِ بِالْبِشْرِ التَّامِّ،

(١) كلمة «هو» ليست في «ل».

والبَشَاشَةِ عَلَى طَرِيقِ الدَّوَامِ، وَالْإِتِّسَامِ فِي وَجْهِ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، عَلَى وَجْهِ
يَرْضِيهِ الْمَلِكُ الْعَلَامُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَا دَامَتِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ.
وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُدْرِكَ لَانْحَةَ مِنْ صِفَاتِ خُلُقِهِ الْجَسِيمِ، أَوْ تَشَمَّ رَائِحَةَ مِنْ
نُعُوتِ خُلُقِهِ الْعَظِيمِ، فَعَلَيْكَ بِ«الشُّفَا» وَ«المَوَاهِبِ»؛ لَتُظْفَرَ بِالْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ.

٥٥- كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ وَالبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمٍ

أي: هُوَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ، مِثْلُ الزَّهْرِ وَالْوَرْدِ فِي
الظَّرَافَةِ وَالطَّرَاوَةِ، وَفِي اللَّطَافَةِ وَالطَّلَاوَةِ^(١). وَمِثْلُ الْبَدْرِ وَهُوَ لَيْلَةٌ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ، الْمُعْبَرُ
عَنْهُ بِطَرَفِي الرَّفْعَةِ وَالتَّغْلِيَةِ عَلَى الْكَائِنَاتِ، وَفِي غَلْبَةِ نُورِهِ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ،
وَهُوَ وَمَا قَبْلَهُ مَتَعَلِّقَانِ بِخُلُقِهِ الْمَكْرَمِ، كَمَا أَنَّ الْوَصْفَانِ الْمَتَأَخِّرَانِ رَاجِعَانِ إِلَى خُلُقِهِ
الْمُعْظَمِ، وَمِثْلُ الْبَحْرِ فِي أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ إِلَى أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ
الرَّحْمَنِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الدُّرُورُ وَالْمَرْجَاتُ ۖ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرَّحْمَنِ: ٢٢-٢٣].
وَمِثْلُ الدَّهْرِ - وَهُوَ أَعْمُ مِنَ الْعَصْرِ - فِي الْهِمَّةِ، وَالْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا
مَلَكَةُ الشَّجَاعَةِ، وَعُلُوُّ هِمَّةِ الزَّمَانِ تَخْيِيلِيٌّ، وَأَمَّا وَضْفُهُ فَتَحْقِيقِيٌّ، وَالتَّشْبِيهُ مِنْ بَابِ
تَشْبِيهِ النَّعْتِ الْمَعْنَوِيِّ بِالْأَمْرِ الْحِسِّيِّ.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي نُعُومَةِ بَدْنِهِ وَرِعَانَةِ جَسَدِهِ: مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَنْسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيْبَاجًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

وَمِمَّا جَاءَ فِي عُلوِّ مَقَامِهِ وَنُورِ وَجْهِهِ: مَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِقَوْلِهِ: «فَضَّلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»،

(١) فِي «د»: «وَالطَّلَاقَةُ».

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦١)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٣٠).

رواه أحمدُ والترمذيُّ وغيرُهما^(١)، وقال في حديثٍ آخر: «فَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَاكُم»، رواه الترمذي وغيره^(٢).

وَمِمَّا رُوِيَ فِي كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَبِرِّهِ وَأَمْتِنَانِهِ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أُعْطَاهُ، قَالَ: فَسَأَلَهُ رَجُلٌ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَآتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ اسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ^(٣).

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ قَلْبِهِ وَهِمَّتِهِ وَمَلَكََةِ شَجَاعَتِهِ: رَكُضُ بَغْلَتِهِ لَمَّا وَلَّى الْمُسْلِمُونَ فِي حُنَيْنٍ قَبْلَ الْكِفَارِ إِلَى أَنْ أَنْهَزُمُوا بِخَصَايِثٍ رَمَاهُمْ بِهَا^(٤).

وَعَنِ الْبَرَاءِ: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥).

رَوَى الْحَدِيثَيْنِ مُسْلِمٌ، وَالتَّشْبِيهُ الْأَخِيرُ عَلَى عَادَةِ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ وَمُبَالَغَتِهِمْ فِي تَحْسِينَاتِ الْأَدَبِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ فِي مَمْدُوحِهِ:

لَهُ هِمَمٌ لَا مُتَهَيٍّ لِكَبِيرِهَا وَهَمَّتْهُ الصُّغَرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ^(٦)
وَقَدْ نُسِبَ هَذَا الْبَيْتُ إِلَى حَسَّانٍ مَدَحَ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥ / ١٩٦)، والترمذي (٢٦٨٢)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. ورواه أيضاً أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه وقال: حديث غريب.

(٣) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٤) رواه مسلم (١٧٧٥).

(٥) رواه مسلم (١٧٧٦).

(٦) أنشده ضمن أبيات أعرابي لداود بن المهلب، وفيه قصة ذكرها التنوخي في «المستجد من فعلات الأجواد» (ص ٣٢).

٥٦ - كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ فِي^(١) جَلَالَتِهِ فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمٍ (في جلالته) صفةٌ لـ (فردٍ)، و(في عسكرٍ) متعلّقٌ بمحذوفٍ في محلّ رفعٍ على أَنَّهُ خَبَرٌ (كَأَنَّ)؛ أي: كَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَالُ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِذَاتِهِ، وَثَابِتٌ فِي عَظَمَةِ صِفَاتِهِ، وَكَائِنٌ فِي ظُهُورِ كَمَالَاتِهِ، مِنْ كَمَالِ هَيْبَتِهِ، وَجَلَالِ أُهْبَتِهِ، قَائِمٌ فِي قَلْبِ عَسْكَرٍ كَبِيرٍ، وَفِي وَسْطِ حَشَمٍ كَثِيرٍ، حِينَ تَلْقَاهُ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ، وَتَرَاهُ فِي ذَلِكَ الْمَوْكِبِ.

وَفِي الْبَيْتِ إِشَارَةٌ إِلَى قُوَّةِ شَجَاعَتِهِ، وَعَظَمَةِ مَهَابَتِهِ، بِأَنْ يَكُونَ حَالُ الْإِنْفِرَادِ مِنْ قُوَّةِ الْجَاشِ كَمَنْ يَكُونُ فِي قَلْبِ الْجِيُوشِ مِنْ حَالِ الْإِنْتِعَاشِ، وَإِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو عَنْ مُتَابَعَةِ أَعْوَانِهِ، وَمُشَايَعَةِ خِلَانِهِ مِنَ الرِّجَالِ الْغَيْبِيَّةِ، وَالْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ.

وَفِي نَسْخَةٍ: (مِنْ جَلَالَتِهِ) عَلَى أَنَّهُ عَلَّةٌ لِلتَّشْبِيهِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ (كَأَنَّ)، وَهُوَ فِي الْمَعْنَى وَجْهُ الشَّبَهِ؛ إِذِ الْقَصْدُ تَشْبِيهُهُ مُفْرَدًا بِنَفْسِهِ الْمُخْتَارِ، مَصْحُوبًا بِعَسْكَرٍ وَحَشَمٍ فِي الْهَيْبَةِ وَالْوَقَارِ.

وَفِي نَسْخَةٍ: (بُهُمْ) - بَدَلُ (حَشَمٍ) - بَضْمُ الْبَاءِ: جَمْعُ بُهُمْ بِفَتْحِهَا، وَهُوَ الشَّجِيعُ، وَقِيلَ: جَمْعُ بُهْمَةٍ ك: تُهْمَةٌ، وَهُوَ الْعَسْكَرُ أَوِ الرُّكْبَانُ، وَالنُّسخَةُ الْمَشْهُورَةُ أَوَّلَى؛ لِإِتْيَانِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِي الْقَوَافِي الْآتِيَةِ.

٥٧ - كَأَنَّمَا اللَّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ مِنْ مَعْدِنِي مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمٍ يُقْرَأُ الْبَيْتُ بِسُكُونِ الْهَمْزَةِ الْأُولَى وَإِدَالِهَا مِنَ (اللُّوْلُؤِ)، وَبِإِشْبَاعِ هَاءِ (مِنْهُ)، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْمَنْطِقُ: مَكَانُ النَّطْقِ، وَهُوَ الْقَلْبُ أَوِ اللِّسَانُ، وَهُمَا مَظْهَرُ الْبَيَانِ. وَالمُبْتَسَمُ بِصِيغَةِ الْمَفْعُولِ: مَكَانُ التَّبَسُّمِ وَهُوَ الشَّفَتَانِ، وَهُمَا مَظْهَرُ الْأَسْنَانِ.

(١) فِي هَامِش «ل»: «مِنْ»، وَهِيَ نَسْخَةٌ كَمَا سَبَقَ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَنْطِقُ وَالْمُبْتَسِمُ مَصْدَرَانِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى اللَّامِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ لِلْبَيَانِ.

وَفِي الْبَيْتِ تَشْبِيهَانِ: أَحَدُهُمَا مَعْنَوِيٌّ، وَالْآخَرُ حِسِّيٌّ، يَعْنِي: أَنَّ جَوَامِعَ كَلِمِهِ وَذُرَرِهِ، وَمَنْظُومَ أَسْنَانِهِ وَتَغْرِهِ؛ كَاللُّؤْلُؤِ الْمَصُونِ فِي لَطَافَتِهِ وَغُرَرِهِ، كَمَا قَالَ الْبُحْثَرِيُّ: فَمِنْ لُؤْلُؤٍ يُبْدِيهِ عِنْدَ ابْتِسَامِهِ وَمِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الْكَلَامِ يُسَاقِطُهُ^(١) وَشَبَّهَ الْفَمَ وَالْقَلْبَ بِالْمَعْدِنِ فِي أَنَّهُ لَا يَنْفَدُ بِكَثْرَةِ لَطَافَتِهِ، وَوَصَفَ اللَّؤْلُؤَ بِالْمَكُونِ الدَّلَالِ عَلَى طَرَاوَتِهِ، وَتَقْيِيدِهِ بِكَوْنِهِ فِي صَدْفِهِ وَمَعْدِنِهِ لِكَوْنِهِ فِيهِ أَحْسَنَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ.

قَالَ الْمَحَلِّيُّ: حُكِيَ أَنَّ بَعْضَهُمْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ الصَّدِّيقَ يَرْفُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْبَيْتِ وَالْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ، بِأَحْسَنِ الْأَنْغَامِ.

وَلَمَّا أَشَارَ بِبَعْضِ كِمَالَاتِهِ الصُّورِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ مِنْ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ حَالَ الْحَيَاةِ، أَوْمَأَ بِأَنَّهُ أَيْضاً مَتَمِيزٌ عَنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي حَالِ الْمَمَاتِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

٥٨ - لَا طَيْبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظَمَهُ طُوبَى لِمُتَشَقِّقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمٍ
الطَّيْبُ: اسْمٌ لِمَا يُنْطَبُّ بِهِ، وَعَدَلَّ بِهِ: سَاوَاهُ، وَالتُّرْبُ بِالضَّمِّ بِمَعْنَى التُّرْبَةِ أَوْ التُّرَابِ، وَنَصْبُهُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، وَالضَّمُّ بِمَعْنَى الْجَمْعِ وَاللِّمِّ.
وَالْأَعْظَمُ: جَمْعُ الْعِظَامِ، وَالْمَرَادُ: جَمِيعُ أَعْضَائِهِ الْمَعْظَمَةِ، مَجَازاً بِذِكْرِ الْجِزْءِ وَإِرَادَةِ الْكُلِّ.

(١) الْبَيْتُ فِي «الصَّنَاعَتَيْنِ» لِأَبِي هِلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ (ص ٢٠٨)، وَ«زَهْرُ الْأَدَابِ» لِلْقِيَرَوَانِيِّ (١ / ٢١٥)، وَ«مَحَاضِرَاتُ الْأَدْبَاءِ» لِأَبِي الْقَاسِمِ الْأَصْبَهَانِيِّ (٢ / ٣٢٦)، وَرَوَاتِهِ فِي الْمَصَادِرِ:

فَمِنْ لُؤْلُؤٍ تَجْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهُ
(٢) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤ / ٨)، وَأَبُو دَاوُدَ (١٠٤٧)، وَالنَّسَائِيُّ (١٤٧٤)، وَابْنُ مَاجَةَ (١٦٣٦)، مِنْ حَدِيثِ أَوْسَ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

و(طُوبَى) مصدرٌ مِنْ بابِ طَابَ؛ كُبُشِرَى وَرُفَى، والواوُ منقِلِبَةٌ عن الياءِ لُضْمَةٍ ما قَبْلَها، وهو مرفوعُ المحلِّ؛ كقولك: سلامٌ لك، أو منصوبُ المحلِّ؛ ك: طيباً لك، و: سلاماً لك. واللامُ للبيانِ كما في: سَقِيّاً لك، ومعناه: أَصْبَتْ خيراً أو طيباً، وفيه معنى التَّعَجُّبِ والتَّمَنِّي.

وإِنْتَشَقْ؛ أي: شَمِّ، وتُقرأ هاءُ (منهُ) بالإشباع، وَضَمِيرُهُ راجعٌ إلى (ترب) ^(١)، وهو أبلغُ مِنْ أَنْ يَكُونَ عائداً إِلَيْهِ صلى الله تعالى عليه وسلم. وَلَثْمُهُ والتَّثْمَةُ: قَبْلُهُ.

يعني: لا يُوجَدُ طيبٌ ^(٢) مِنْ مِسْكٍ أو عِبِيرٍ أو غَيْرِها يُساوي نفسه بترابِ تربته التي لَمَّتْ أعضاؤه وَجَمَعَتْ أجزاءه، وأحاطَتْ بجسمه الشَّريف، وَفَرَنْتُ بِقُرْبِ بدنهِ اللطيف.

ولهذا يَتَعَجَّبُ وَيَتَمَنَّى - ويُقال: وَيَتَرَنَّى - بأنَّ الحالَ المستطابَةَ حاصلةٌ لِمُنْشَمٍّ مِنْ ذلك التُّراب، ومُقبَلٍ مِنْ ذلك الأَعْتاب، وهو كنايةٌ عن الزَّيادةِ والاقْتِرَابِ، مِنْ ذلك البَابِ، ففي الحديثِ المَتَّفِقِ عليه عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: ما شَمَمْتُ غَيراً ولا مِسْكَاً ولا شَيْئاً أَطيبَ مِنْ رِيحِ رسولِ اللهِ ﷺ ^(٣).

والبيتُ مُقتَبَسٌ مِنْ مَرثِيَةِ البَتُولِ الزَّهراءِ فاطمةَ الكُبْرى رضيَ اللهُ عنها:

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبٌ لَوْ أَنَّهَا صُبَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ صِرُنَ لَيَالِيَا
ماذا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ لَوْ لَمْ يَشَمَّ ^(٤) مَدَى الزَّمانِ غَوَالِيَا ^(٥)

(١) في النسختين: «تربة»، والمثبت هو الموافق لما في البيت.

(٢) في النسختين: «طبيك»، والصواب المثبت.

(٣) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٤) في هامش «ل»: «أن لا يشم»، وانظر التعليق الذي بعده.

(٥) البيتان في «الوفا بحقوق المصطفى» لابن الجوزي (ص ٨١٩)، و«نهاية الأرب» للنويري

(١٨ / ٢٦٥)، و«سلوة الكتيب» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص ١٦٢). وفيها جميعاً: «أن لا =

ثُمَّ صَرَّحَ العلماءُ بِأَنَّ ضَرْيْحَهُ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ،
وإنَّما الخلافُ المشهورُ بينَ مَكَّةَ والمَدِينَةِ، بل رُوِيَ عن الغزاليِّ: أَنَّ تُرْبَةَ لَصِقَتْ
بجسدهِ مِنَ الْفَرَشِ، أَعْلَى رُتْبَةً مِنَ الْعَرْشِ^(١).

ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ بَلَغَ مَبْلَغَ الْكَمَالِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ ظَهَرَ مِنْ مَبَادِيهِ
لَوَائِحِ الْجَمَالِ، فَقَالَ:

٥٩ - أَبَانَ مَوْلَدُهُ عَنْ طَيْبِ عُنْصُرِهِ يَا طَيْبَ مُبْتَدَأٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ
الإِبَانَةُ: الإِظْهَارُ، وَالْمَوْلَدُ وَالْمُبْتَدَأُ وَالْمُخْتَتَمُ، وَفِي نَسْخَةٍ: (الْمُفْتَحُ): أَسْمَاءُ زَمَانٍ.
وَالْعُنْصُرُ: الْأَصْلُ وَالْأَرْكَانُ. وَ(مِنْهُ) بِإِشْبَاعِ الْهَاءِ، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ﷺ.
يعني: أَظْهَرَ زَمَانٌ وَلادِيَتِهِ، بِإِظْهَارِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، عَنْ نِظَافَةِ مَادَّتِهِ وَأَصْلِهِ وَنَسَبِهِ، وَلَطَافَةِ
خِلْقَتِهِ وَحَسَبِهِ، فَيَا قَوْمِ انْظُرُوا طَيْبَ زَمَانٍ ابْتِدَاءَ خِلْقَتِهِ، وَطَهَارَةَ وَقْتِ اخْتِتَامِ رَحْلَتِهِ.
وَالنَّدَاءُ لِلتَّعَجُّبِ وَالتَّعْجِيبِ، وَالْحَثُّ عَلَى فَهْمِهِ وَالتَّرْغِيبُ، وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى
حُسْنِ فَاتِحَتِهِ وَخَاتِمَتِهِ، وَإِنْبَاءٌ إِلَى عُلُوِّ سَعَادَتِهِ فِي بَدَائَتِهِ، الَّتِي هِيَ أَسَاسُ نَهَائَتِهِ، وَلِذَا
قَالَ الصَّدِّيقُ الْأَكْبَرُ لَمَّا قَبْلَهُ بَعْدَ مِمَاتِهِ: طَيْبَتْ حَيًّا وَمَيِّتًا^(٢)، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
فِي الْمَهْدِ يَنْطِقُ عَنْ سَعَادَةِ جَدِّهِ أَثَرُ النَّجَابَةِ سَاطِعَ الْبُرْهَانِ^(٣)
وَالْمَرَادُ بِالْإِبْتِدَاءِ وَالْإِخْتِتَامِ: الْإِسْتِمْرَارُ وَالِدَوَامُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَيَحْيُوهُ
بِكُرُّهِ وَأَصِيلًا﴾ [الْأَحْزَابُ: ٤٢]، ﴿وَهُمْ يَرْزُقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مَرْيَمُ: ٦٢].

٦٠ - يَوْمَ تَقْرَسَ فِيهِ الْفُرُسُ أَنَّهُمْ قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ

= يشم، وفيها أيضاً عكس الترتيب في البيتين.

(١) فِي هَذَا الْكَلَامِ وَالِاسْتِدْلَالُ نَظَرٌ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَةِ يَسْتَدِلُّ لَهَا بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٦٧).

(٣) انْظُرْ: «خَزَانَةُ الْأَدَبِ» (٢/ ٢٠٠).

المرادُ باليوم: مُطْلَقُ الزَّمان؛ لقوله في البيت الآتي: (وباتَ إيوانُ كسرى)، وهو بدلٌ من (مولده)، أو خبرٌ مقدَّر هو: هو.

و(تَفَرَّسَ)؛ أي: نَظَرَ وَعَلِمَ بِالْفِرَاسَةِ، وهي قُوَّةٌ يُدْرِكُ بِهَا الإنسانُ المعاني الباطِنَةَ مِنَ المخايلِ الظَّاهِرَةِ.

و(الْفَرَسُ): اسمٌ جمعٍ لأهلِ بلادِ فارسَ، وهو بكسرِ الرَّاءِ في لغةِ العربِ، ويسكونها في كلامِ الْعَجَمِ.

و(أَنَّهُمْ) يُقرأُ بِصِلَةِ الميمِ. و(البُؤْسُ) يُهْمَزُ وَلَا يُهْمَزُ، وهو الشَّدَّةُ الْمُورِثَةُ لِلْهَمْ وَالْحَزَنِ. و(النِّقَمُ) بكسرِ النُّونِ وفتحِ القافِ: جمعُ نِقْمَةٍ بمعنى العقوبة.

يعني: زمانٌ ولادته، وأوانٌ بدأته صلى الله تعالى عليه وسلم، هو وقتُ ظَهَرِ بطريقِ الفِرَاسَةِ، في ساعته الموصوفةِ بالنَّفَاسَةِ، لأهلِ الفُرسِ مِنْ عُظَمَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ، أَنَّهُمْ قد أَعْلِمُوا إِعْلَاماً مُتَضَمِّناً لِلتَّخْوِيفِ، بنزولِ الشَّدَائِدِ والعُقوباتِ بِهِمْ على وَجْهِ التَّضْعِيفِ، مِنْ زوالِ دولَتِهِمْ، وانْقِراضِ مَلَّتِهِمْ، حيثُ قَارَنَ ولادَتَهُ الآياتُ والعلاماتُ، التي يُقالُ لها: الإزْهاصَاتُ، وهي خَوَارِقُ العاداتِ، المتقدِّمةُ على ظُهورِ المُعْجِزاتِ، كما أشارَ إلى بعضها المصنِّفُ، وَيَعْجِزُ عن إحصائها المُنْصِفُ.

٦١- وباتَ إيوانُ كِسْرَى وهو مُنْصَدِعٌ كَشَمَلِ أَصْحابِ كِسْرَى غيرِ مُلْتَمِمْ

(باتَ) عطفٌ على (تَفَرَّسَ)؛ أي: صارَ في وقتِ البَيْتوتَةِ، والمرادُ: ليلةُ ميلاده عليه التَّحِيَّةُ، والإيوانُ بكسرِ الهمزة مُعَرَّبٌ لِمُسَقَّفٍ لا يكونُ لجانبِهِ المقَدَّمُ جدًّا.

و(كِسْرَى) بكسرِ الكافِ وفتحِها مُعَرَّبٌ خُسْرُو، وهو اسمٌ لملكِ الفُرسِ؛ كِفَرَعُونَ لِمِصْرَ، وَفَيْصَرَ لِلرُّومِ، والنَّجاشِيُّ لِلْحَبَشَةِ، والخاقانُ لِلتُّرْكِ، وَتُبَّعٌ لِلْيَمَنِ.

والانْصِدَاعُ: الانْشِقَاقُ. والشَّمْلُ: التَّفَرُّقُ بعدَ الاجْتِمَاعِ. والائْتِشَامُ بالهمزِ: الاتِّصَالُ.

والمراد بـ (كسرى) الثاني غير الأول، وليس من باب الإظهار موضع الإضمار، فإنَّ الأول أنوشروان بن قباد العادل، وحديث: «وُلِدْتُ فِي زَمَانِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ» لَا أَصْلَ لَهُ كَمَا قَالَ السَّخَاوِيُّ^(١)، وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ أَبْرُويزُ بْنُ هُرْمَزَ بْنِ يَزْدَجَرْدَ بْنِ أَنْوَشُرَوَانَ.

وفي «شرح المنظومة»: أَنَّ هَذَا الثَّانِي عَمُّ وَالِدِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ أَبِي حَنِيفَةَ نِعْمَانَ ابْنِ ثَابِتِ بْنِ طَاوُسِ بْنِ هُرْمَزَ، وَتَلْمِذُهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ يَصِلُ إِلَيْهِ فِي طَاوُسٍ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ حَسَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاوُسٍ^(٢).

و(غَيْرَ مُلْتَمِسٍ) خَبَرُ (بَاتٍ)، و(كَشْمَلٍ) مُتَعَلِّقٌ بـ (غَيْرَ مُلْتَمِسٍ)، وَإِنَّمَا لَمْ يَلْتَمِسْ لِيَكُونَ تَذَكُّرًا بَاقِيَةً، وَتَعْيِهَا أَدْنُ وَاعِيَةٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (كَشْمَلُ أَصْحَابِ كِسْرَى) خَبَرُ (بَاتٍ)، و(غَيْرَ مُلْتَمِسٍ) حَالًا مِنَ الشَّمْلِ، فَيَرَادُ مِنَ الْإِلْتِمَامِ: الْإِتْفَاقُ.

والمعنى: صَارَ لَيْلَةُ ظُهُورِهِ وَبُدُوُّ نُورِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَاقُ إِيوَانِ كِسْرَى مَكْسُورًا إِيَّارَةً إِلَى كِسْرِهِمْ، وَغَيْرَ مُلْتَمِسٍ إِيْمَاءً إِلَى عَدَمِ جَبْرِهِمْ؛ كَتَفَرَّقَ أَصْحَابُ كِسْرَى الْآخِرِ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ اتِّفَاقًا لَمْ يَتَّفِقْ لِأَحَدٍ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ؛ كَمَسْنَدِهِ، وَمَقَامِهِ وَحَشَمِهِ وَجُيُوشِهِ وَأَعْوَانِهِ وَخَدَمِهِ، فَلَمْ يَزَالُوا فِي الْإِنْهَادِ وَالْإِنْهَزَامِ حَتَّى جَاءَ تَبَاشِيرُ الْإِسْلَامِ.

رُوي: أَنَّهُ لَمَّا ارْتَجَّ إِيوَانُهُ، خَافَ هُوَ وَأَعْوَانُهُ، إِذْ سَقَطَ أَرْبَعُ عَشْرَةَ شُرْفَةً، فَوَجَّهَ قَاصِدًا إِلَى النُّعْمَانِ بْنِ مُنْذِرٍ أَحَدِ مُلُوكِ الْعَرَبِ؛ لِيَسْتَفْسِرَ عَنْ سِرِّ مَا بَدَأَ، فَرَفَعَ الْخَبَرَ إِلَى سَطِيحٍ وَقَدْ أَشْفَى عَلَى الضَّرِيحِ، وَهُوَ أَحَذَقُ كَهَنَةِ الْعَرَبِ، مَا كَانَ لَهُ عَظْمُ سَوَى

(١) انظر: «المقاصد الحسنة» (ص ٧٠٧).

(٢) في «د»: «تابوس» في المواضع الثلاثة.

رأسه أصلاً، فقال: يكون أسبابُ شتاتٍ، ويموتُ ملوكٌ ومَلَكَاتُ بعددِ الشُّرُفاتِ.
قيل: قال كِسْرَى: بينما يعيشُ أربعةَ عَشَرَ مَلِكاً ويموتون، يُدَبِّرُ اللهُ فيما سيكون.
فماتَ عَشْرَةٌ مِنْهُمْ في أربعِ سِنين، وانْقَرَضَ أربعتُهُمْ إلى خلافةِ أميرِ المؤمنين،
عثمانَ رضي اللهُ تعالى عنه وعن كُلِّ الصَّحَابَةِ أَجْمَعين.

٦٢- والنَّارُ خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ
الْخُمُودِ: الانْطِفَاءُ، وَنَفْسُ النَّارِ كِنَايَةٌ عَنْ لَهَبِهَا، وَالْأَسْفُ: الْحُزْنُ، وَالسَّاهِي:
الْغَافِلُ، وَالسَّدَمُ: الْحَيْرَةُ. وَجُمْلَةُ: (النَّارُ خَامِدَةٌ) عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (وَهُوَ مُنْصَدِّعٌ)،
وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَطْفاً عَلَى (بَات)؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ فِي تَقْدِيرِ الْمَفْرَدَاتِ.

يعني: والنَّارُ التي كَانَتْ مُوقَدَةً مُدَّةَ أَلْفِ سَنَةٍ - لَأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، وَلَهَا
خَدَمَةٌ يَحْفَظُونَهَا وَيَفْقَدُونَهَا^(١) - خَمَدَتْ وَهَمَدَتْ عِنْدَ ظَهْوَرِ نَوْرِ وَلادَتِهِ، وَأَشْعَتْ
شَمْسِ نَبَوِّهِ وَوَلَايَتِهِ.

وفيه إيماءٌ إلى أَنَّ مَنْ اقْتَبَسَ مِنْ هَذَا النُّورِ انْطَمَسَ وَانْطَفَأَ عَنْهُ النَّارُ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ
نَارَ جَهَنَّمَ تَقُولُ: «جُزْ يَا مُؤْمِنُ فَإِنَّ نُورَكَ أَطْفَأَ لَهَبِي»^(٢).

وقوله: (مِنْ أَسْفٍ)؛ أَي: مِنْ تَأَسُّفٍ وَتَحْزُنٍ عَلَى كِسْرَى، أَوْ الْفُرْسِ، أَوْ عَلَى
كُفْرِهِمْ حَيْثُ عَبْدُوهَا وَتَرَكَوا عِبَادَةَ خَالِقِهَا، أَوْ مِنْ أَجْلِ حَصُولِ الْأَسْفِ وَالْحُزْنِ لَهُمْ
بِتَفْقُدِ^(٣) مَعْبُودِهِمْ.

(١) قوله: «ويفقدونها»، كذا في النسختين، ولعل الصواب: «ويتفقونها».

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢ / ٢٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦ / ٣٩٤)، وابن الجوزي

في «العلل» (١٥٣٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٣٦٠): فيه سليم بن منصور

بن عمار، وهو ضعيف.

(٣) كذا في النسختين، ولعل الصواب: «يفقد».

وفيه إشارة إلى أنَّ الحادثَ والفانيَ غيرُ مستحقٍّ للعبودية، بل الحيُّ الذي لا يموتُ يستحقُّ الربوبيةَ.

وقوله: (والنهر)؛ أي: وصار في تلك الليلة المظلمة والساعة المكرمة نهرُ الفراتِ غافلاً ينبوعه عن مجراه من حيرة الفراق، ووقع في ساوة وهي بادية بين دمشق والعراق.

أو المرادُ بالعين: الباصرة، فالمعنى: سَهَا عَيْنُ مَاءِ الْفَرَاتِ لِتَحِيرَهُ مِنْ مَفْاجِئِ الْبَلَوَى، وَضَلَّ الطَّرِيقَ لَطُرُّو الْعَمَى، كَذَا قِيلَ.

وقيل: أي: نهرُ كسرى الذي جعلَ فوقه سدًّا عظيمًا ومقامًا كريمًا، وصرفَ فيه خراجَ العالمِ، ولم يَرِ مثله عينُ بني آدم، يَسَّ في تلك الليلة عينه، مثلَ قاسي قلبٍ لم تَدْمَعْ عينه من الحيرة في القدرة الإلهية، والخشية من العظمة السلطانية.

وفيه إشارة إلى أنَّ الجمادات لها تغيُّراتٌ بتغييرِ المغيِّرِ الربَّانيِّ، وتأثيراتٌ بتأثيرِ المؤثِّرِ الصِّمدانيِّ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْدَرُكُونِ بِزُدَا وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿فَنَسْفَنَاهُ وَبَدَّارِهِ الْأَرْضُ﴾ [الفصص: ٨١].

وفي هذا كله ردُّ على الطَّبِيعِيَّةِ، التي تُخالفُ الأصولَ الشرعيَّةَ، وفيه إشعارٌ إلى أنَّ كلَّ نهرٍ من العلومِ العقليَّةِ، المتضمَّنةِ للدقائقِ الفلسفيَّةِ، ليس لها وجودٌ عندَ بحرِ علومِ الشرعيَّةِ، وينبوعُ معارفِهِ الحقيقيَّةِ.

٦٣ - وساءَ ساوَةٌ أَنْ غَاضَتْ بِحَيْرَتِهَا وَرَدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِي

سَاءَةٌ: أَحْزَنُهُ، و(ساوَةٌ): بلدةٌ بعينها تابعةٌ لهَمدانَ في قديمِ الزَّمان، وصارتَ
أيَّامَ هارونَ الرَّشيدِ مِن أَتباعِ قُومٍ قَريباً مِن كاشانَ.

و(غاض) بمعنى: نَقَصَ، جاءَ لازِماً ومُتَعَدِّياً، والبُحيرةُ: تصغيرُ البحرِ، قيل:
وهي عَظيمةٌ، فتصغيرُها للتَّعْظِيمِ. و(رُدَّ) على بناءِ المفعولِ، وواوُه للعطفِ أو للحالِ.
والواردُ: هو المُشْرِفُ على الماءِ دَخَلَهُ أو لَمْ يَدْخُلْهُ، ويقالُ للسَّابِقِ أيضاً.

والباءُ لِلْمُلاَبَسَةِ إِنْ كانَ (الغَيْظُ) بِالظَّاءِ المُشَالَةِ، أو لِلسَّبَبَةِ على رِوَايَتِهِ بِالضَّادِ
بمعنى النِّقْصِ، وهو متعلِّقٌ بـ (رُدَّ). و(حين) يتعلَّقُ بـ (رُدَّ) أو بـ (الغَيْظِ) أو بـ (وارد).
و(ظَمِي) فِعْلٌ ماضٍ مِنَ الظَّمِّ بِالْهَمْزِ، وهو العطشُ، فلَمَّا سَكَنَ الهمزةَ وَقَفَا
أَبْدَلَ ياءً، وما وَقَعَ في بعضِ النُّسخِ من حذفِ الياءِ فهو سَهْوٌ قَلَمٌ.

والمعنى: أَحْزَنَ أَهْلَ ساوَةٍ - وكانت حَوَالِيها صوامعُ لليهودِ وكنائسُ للنصارى
مُعتَبَرةً، ومُنْتَزَهاةٌ مُشْتَهَرةٌ - نُقْصانُ بُحيرَتِها مائِهاً، وانتِقاَصُ^(١) ماءِ بُحيرَتِها في ليلةِ
الميلادِ على خِلافِ المُعتادِ، وَرَجَعَ قاصِداً مائِهاً وطالِباً ما بها^(٢) بالقَهْرِ والعَضْبِ، أو
بسببِ النِّقْصِ والتَّعَبِ، حينَ عَطِشَ وَرَجَعَ عَطِشانَ، وعلى نَفْسِهِ عَضْبانَ.

وفيه إيماءٌ إلى أَنَّ بحرَ أَهْلِ العذابِ إِنَّمَا هو كسرابٌ بَقِيعةٌ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ ماءً،
بِخِلافِ الكَوْثَرِ الَّذِي أُعْطِيَ خَيْرُ البَشَرِ، فَإِنَّهُ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَها أَبَداً.

وفي نسخةٍ: (غَارَتْ) بدلًا: (غاضَتْ) وهو أَظْهَرُ في المعنى، وأدُلُّ على
المُدَّعى، ويندفعُ وَهُم النُّقْصانُ بقوله: رُدَّ الواردُ السَّابِقُ فكيفَ باللاحقِ؟ وأكَّدَ دَفْعَهُ
أيضاً بقوله:

٦٤ - كَأَنَّ بِالنَّارِ ما بِالماءِ مِنْ بَلَلٍ حُزْناً وبِالماءِ ما بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ

(١) في «ل»: «ماءها أو انتقااص».

(٢) في «د»: «أو طالب مائها».

(الضَّرَم) بفتح حَين: الَّتِي هَابُ النَّارِ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الْمَاءِ) وَ(النَّارِ) لِلْعَهْدِ؛
أَي: نَارِ فَارِسَ وَمَاءَ بَحِيرَةَ، وَقِيلَ: لِلْجِنْسِ. وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

والمعنى: أَنَّ الَّذِي كَانَ بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ كَأَنَّهُ حَصَلَ بِالنَّارِ؛ لِأَجْلِ الْحَزَنِ عَلَى
زَوَالِ الْكُفْرِ وَالْكَفَّارِ، فَكَأَنَّهَا تَبْكِي عَلَى اضْمِحْلالِ الْكُفْرِ وَجَلَاءِ عَبْدَتِهَا، وَتَحْتَرِقُ
عَلَى مُفَارَقَةِ أَحِبَّتِهَا، وَكَأَنَّ بِالْمَاءِ حَصَلَ^(١) الَّذِي كَانَ بِالنَّارِ مِنْ شُعْلَةِ الْإِثْهَابِ، حُزْنًا
عَلَى مُفَارَقَةِ الْأَصْحَابِ وَالْأَحْبَابِ، فَكَأَنَّهُ يَحْتَرِقُ وَجَدًا لِفُقْدَانِ شَارِبَتِهَا، وَتَأْسَفًا
لذَهَابِ مُتْرَهَاتِهَا.

٦٥ - وَالْجِنُّ تَهْتَفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمِ
(الجن) مأخوذٌ مِنْ جَنَّةٍ: إِذَا سَتَرَهُ، سُمُّوا بِهِ لِاسْتِتَارِهِمْ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ.
وَهَتَفَ: أَي: صَاحَ وَأَفْهَمَ الْكَلَامَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ السَّامِعُ.

يعني: وَطَائِفَةُ الْجِنِّ أَيْضًا عَلِمُوا بِوِلَادَتِهِ، وَأَخْبَرُوا بِحُلُولِ وَقْتِ رِسَالَتِهِ، وَالْأَنْوَارُ
فِي زَمَانٍ ظَهَرَ ذَلِكَ النُّورُ ظَهَرَتْ عَلَى الْإِنَامِ، بِحَيْثُ أَضَاءَتْ قُصُورَ الرُّومِ وَالشَّامِ.
(وَالْحَقُّ): أَي: أَمْرٌ نُبُوَّتُهُ (يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى) قَارَنَ وَلَادَتَهُ وَهُوَ الْإِضَاءَةُ، (وَمِنْ
كَلِمِ) نَطَقَتْ بِهِ الْجِنُّ لِإِرَادَةِ الْإِشَاعَةِ.

رُوي: أَنَّهُ سَمِعَ النَّاسُ مِنْ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ وَالْحَجُّونَ، عِنْدَ وَلَادَةِ ذَلِكَ الدُّرِّ
الْمَكْنُونِ، أَصْوَاتَ الْجِنِّ فِي مَدْحِ أُمِّهِ أَمْنَةَ، وَلَمْ يَرَوْا مِنْهُمْ أَحَدًا: لَقَدْ وَلَدَتْ
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدَ.

وُنُقِلَ عَنْ أُمِّ عَثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ حَضَرْتُ لَيْلَةَ الْمِيلَادِ،
فَرَأَيْتُ الْأَنْوَارَ سَاطِعَةً عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ^(٢).

(١) فِي «ل»: «وَصَلَ».

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٢٥ / ١٤٧ وَ ١٨٦)، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» =

لقد أَسْمَعْتَ لو نادَيْتَ حَيًّا ولكن لا حياةَ لِمَنْ تُنادِي
والحاصل: أَنَّهُمْ ما اِنْتَفَعُوا بِبِشَارَةِ الْبَشِيرِ، ولا تَأَثَّرُوا بِنَذَارَةِ النَّذِيرِ، لا مِنْ
الآيَاتِ والمعْجَزاتِ الْمَرْئِيَّةِ، ولا مِنْ الدَّلالاتِ والحِكْمِيَّاتِ السَّمْعِيَّةِ، أو: لا مِنْ
رُؤْيَةِ الْأَنْوَارِ فِي لَيْلَةٍ وَلادَتِهِ، ولا مِنْ أَخْبَارِ الْجَنِّ بِظُهُورِ رِسالَتِهِ، أو: لا مِنْ كَسْرِ قَصْرِ
كِسْرَى حِينَ أَبْصَرُوا، ولا مِنْ قَوْلِ الْكَهَنَةِ لَهُمْ حِينَ أَخْبَرُوا. لكونِهِمْ ضَمًّا عَنْ سَماعِ
الحَقِّ وقَبولِهِ، وعُمِيًّا عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ ووُصولِهِ.

وفي الْبَيْتِ لَفٌّ وَنَشْرٌ مشوَّشٌ، والأَظْهَرُ أَنَّهُ عَكَسَ لِيَتَعَلَّقَ ما بَعْدَهُ بما قَبْلَهُ لفظاً
ومَعْنَى، فيكونَ مِنْ قَبِيلِ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾
الآية [آل عمران: ١٠٦].

٦٧ - مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كاهِنُهُمْ بأنَّ دِينَهُمُ الْمُعْجَجَ لَمْ يَقُمْ

الجارُّ تَنَزَّاعٌ فِيهِ الْفِعْلانِ الْمُتَقَدِّمانِ. والكاهِنُ: الْمُخْبِرُ عَنْ بَعْضِ الْأُمُورِ
الْغَيْبِيَّةِ، بِالسَّماعِ مِنَ الطَّائِفَةِ الْجَنِّيَّةِ، الْمُسْتَرْقَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ، وَقَدْ قالَ
تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

والاعْجَاجُ فِي الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ: عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ الصُّورِيَّةِ، وفي غَيْرِ
الْحِسِّيَّةِ: عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.
وقامَتِ السُّوقُ: إِذا نَفَقَتْ.

والمعنى: صَمُّوا حَيْثُ لَمْ يَسْمَعُوا بِشائِرِ الْإِنْذارِ، مِنْ بَعْدِ ما أَخْبَرَ كاهِنُهُمْ
أَقْوَامَهُمُ الْكُفَّارَ، بأنَّ طَريقَتَهُمُ الَّتِي تَدِينُوا بِها، وَخَرَجُوا عَنْ طَريقِ الصَّوابِ
الَّذِي فُطِّرُوا عَلَيْهِ بِسَبَبِها، لَمْ يَقُمْ اعْجَاجُها، وَلَمْ يَحْصُلْ رَواجُها، قالَ تعالى:
﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

وفيه إيماء إلى أَنَّهُ أَجْمَعَ الْمُحِقُّ وَالْمُبْطِلُ عَلَى حَقِّيَّةِ بُتُوهِ وَصِدْقِ رِسَالَتِهِ، فالإصرارُ على الإنكار؛ لإطفاءِ نورِ الأبصار، ولذا قال النَّاطِمُ - رحمه الله تعالى - بعده:

٦٨- وَبَعْدَ مَا عَابَتُنَا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهَبٍ مُنْقَضَةٍ وَفَقَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنَمٍ

(بعد) رُؤْيٍ بِالْجَرِّ وَالنَّصْبِ، و(ما) مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ، و(الأفق) بسكون الفاءِ مخفَّفٌ وضمُّها: مفردُ الآفاق، وهي جَوَانِبُ السَّمَاءِ.

و(الشُّهُبُ) بضمَّتين: جمعُ شهابٍ بمعنى الكوكبِ المُضْيِءِ، وَيُطْلَقُ عَلَى شُعْلَةٍ نَارٍ ساطعةٍ، والأصحُّ أَنَّهَا مُنْفَصِلَةٌ مِنْ نَارِ الْكَوَاكِبِ وَلَيْسَتْ نَفْسُ الْكَوَاكِبِ؛ لَصَمِّهَا قَارَةً فِي الْفَلَكَ عَلَى حَالِهَا، وما ذاكَ إِلَّا كَقَبَسٍ يُؤْخَذُ مِنَ النَّارِ وهي ثابتةٌ كاملةٌ غيرُ ناقصةٍ.

والانْقِضَاؤُ: السَّقُوطُ، يُقَالُ: انْقَضَ السَّهْمُ: سَقَطَ، وَتَجَوَّزَ الْحَرَكَاتُ الثَّلَاثُ فِي (مُنْقَضَةٍ)، وَنُصِبَ (وَفَقَّ) بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَوْ عَلَى الْحَالِيَّةِ؛ أَي: حَالِ كُونِهَا مُوَافِقَةً لِمَا فِي الْأَرْضِ.

والمعنى: عَمُّوا حِينَ لَمْ يَرَوْا بَوَارِقَ الْإِنذَارِ الْوَاضِحَةِ، مِنْ بَعْدِ مُعَايَنَتِهِمْ فِي أَطْرَافِ السَّمَاءِ بَعْضَ الشُّهُبِ السَّاقِطَةِ اللَّائِحَةِ، عَلَى وَفْقِ سَقُوطِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَصْنَامِ الْكَالِحَةِ.

والحاصلُ: أَنَّهُ مَا نَفَعَهُمُ الْآيَاتُ الْآفَاقِيَّةُ، مِنْ مَنَعِهِمُ الْاسْتِرَاقَاتِ السَّمْعِيَّةَ، وَلَا الْآيَاتُ الْإِنْفُسِيَّةَ، مِنْ انْكِبَابِ الْأَصْنَامِ عَلَى الْوُجُوهِ الْمَقْلُوبِيَّةِ، فَلَمْ يَنْجَحْ فِيهِمْ الْعِيَانُ، كَمَا لَمْ يَنْفَعْ لَهُمُ الْبَيَانُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ.

٦٩- حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثَرَ مُنْهَزِمٍ

(حَتَّى) عَاطِفَةٌ أَوْ ابْتِدَائِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بـ (مُنْقَضَةٍ)، و(غَدَا) بِمَعْنَى: صَارَ، وَقِيلَ:

بمعنى: ذَهَبَ، معطوفٌ على (مُنْقَضَةٍ)؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ
الَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

و(منهزم) اسمُ (غدا)، و(يقفو) خبره، (إثرَ) ظرفٌ، و(من الشياطين) صفةُ
(منهزمٌ)، و(عن طريقِ الوحي) وفي نسخة: (الحقُّ) متعلِّقٌ بـ (يقفو) لتضمُّنه
معنى: يَهْرُبُ، كذا قيل، وقيل: متعلِّقٌ بـ (غدا)، والأظهرُ أَنَّهُ متعلِّقٌ بـ (منهزمٌ)،
و(طريقِ الوحي): أبوابُ السماء.

يعني: وقتَ ظهورِ نُورِ ولادته الميمونة، وحينَ نفاسِ ولادةِ أمِّه الأمانةِ
المأمونة، انقَضَ الشُّهُبُ حَتَّى صَارَ الشَّيَاطِينُ الْمُسْتَرْفُونَ مُنْهَزِمِينَ هَارِبِينَ، عن
أبوابِ السماءِ التي هي طُرُقُ وحيِ الأنبياءِ والمُرْسَلِينَ، وَيَتَّبِعُ كُلُّ مِنْهَزِمٍ مِنْهُمْ
عَقِبَ مِنْهَزِمٍ آخَرَ مُتَتَابِعِينَ.

والحاصلُ: أَنَّ تَتَابُعَ الشُّهُبِ مَعَ كَثْرَتِهِ ظَهَرَ أَيَّامَ ظُهُورِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَقْتَ وَلادته، وَلَمْ يَكُنْ لِلْكَفَّارِ عَهْدٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ
فِي الْجُمْلَةِ بِانْقِضَائِهَا رُجُومًا لِأَوْلَئِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمُصْبِحٍ وَجَعَلْنَا كُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ ﴿وَأَنَا
لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ⑧ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ
فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩]، فالمرادُ به: بعدَ البُعْثَةِ، كَذَا حَقَّقَهُ
الشَّيْخُ جَلَّالُ الدِّينِ الْمَحَلِّي، رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مَحَلَّهُ الْعَلِيِّ.

٧٠ - كَانَهُمْ هَرَبًا أَبْطَالُ أَبْرَهَةٍ أَوْ عَسْكَرٌ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِي

ضميرُ (كَانَهُمْ) إلى الشَّيَاطِينِ، و(هَرَبًا) تمييزٌ، أو حَالٌ بمعنى: هَارِبِينَ،
و(الأبطالُ) جمعُ بَطْلٍ بمعنى الشُّجَاعِ، و(أبرهة) اسمُ رئيسِ أصحابِ الفيلِ، (أو

عَسْكَرٌ) بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى (أَبْطَالُ)، وَالرَّاحَةُ: بَطْنُ الْكَفِّ، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَضَمِيرُ (رُمِي) رَاجِعٌ إِلَى الْعَسْكَرِ.

وَالْمَعْنَى: كَأَنَّ الشَّيَاطِينَ حِينَ يُقَذَّفُونَ بِالشُّهُبِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُمْ هَارِبُونَ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى، شَجَعَانُ أَبْرَهَةَ حَيْثُ شَرَدُوا مَعَ الْفِيلِ لَمَّا رَمَتْهُمْ الْأَبَايِلُ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجَّيلٍ، أَوْ كَأَنَّهُمْ عَسْكَرُ بَدْرٍ أَوْ حُنَيْنٍ حَيْثُ انْهَزَمُوا حِينَ رُمُوا بِالْحَصَيَاتِ مِنْ كَفِّهِ الْكَرِيمَتَيْنِ.

وَفِي بِنَاءِ (رُمِي) عَلَى صِيغَةِ الْمَجْهُولِ إِيْمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَ إِلَهٌ رَحْمَى﴾ [الأنفال: ١٨].

فَالْمَصْرَاعُ الْأَوَّلُ: إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ أَصْحَابِ الْفِيلِ؛ إِذْ كَانَ مَوْلَدُهُ عَامَ الْفِيلِ لَيْلَةَ الْإِثْنَيْنِ لِاثْنَيْ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ.

وَسَبَبُ الْقِصَّةِ: أَنَّ مَلِكَ الْيَمَنِ بَنَى كَنِيسَةً بِصَنْعَاءَ لِيَصْرِفَ الْحَاجَّ إِلَيْهَا، فَأَخَذَتْ رَجُلًا مِنْ كِنَانَةَ فِيهَا وَلَطَخَ بِالْعَذْرَةِ فَبَلَّتْهَا، فَحَلَفَ لِيَهْدِمَنَّ الْكَعْبَةَ، فَجَاءَ بِجَيْشٍ كَثِيرٍ وَفِيلٍ عَظِيمٍ مَعَ أَفْيَالٍ إِلَى مَكَّةَ، فَحِينَ تَهَيَّؤُوا لِلدُّخُولِ غُشِيَ عَلَيْهِمْ وَوَلَّوْا هَارِبِينَ، وَرُمُوا بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجَّيلٍ، قِيلَ: كُلُّ حَجَرٍ أَصْفَرُ مِنَ الْحِمَّصِ وَأَكْبَرُ مِنَ الْعَدَسِ يَجِيءُ عَلَى مَغْفَرِ الْعَسْكَرِيِّ، وَيَخْرُجُ مِنْ دُبُرِهِ الدَّابِرِيُّ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

وَالْمَصْرَاعُ الثَّانِي: إِشَارَةٌ إِلَى غَزْوَةِ بَدْرٍ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١)، وَإِلَى غَزْوَةِ حُنَيْنٍ

(١) لَمْ أَجِدْ فِي الْبُخَارِيِّ رَمِي الْكَفَّارِ بِالْحَصَى، لَكِنْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١/ ٣٦٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ فَتَعَاهَدُوا بِاللَّابِ وَالْعَزَى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا قُمْنَا إِلَيْهِ قِتَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَلَمْ تُفَارِقْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ... فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قَامَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَحَصَّيَهُمْ بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» قَالَ: فَمَا أَصَابَتْ رَجُلًا مِنْهُمْ حَصَاةٌ إِلَّا قَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا.

رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١)، وهو من معجزاته عليه السَّلامُ، فَإِنَّهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تَرَابٍ وَقَالَ: «شَاهَتِ
الْوُجُوهُ»، وَحَثَا فِي وَجْهِهِ الْكَفَّارَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهَا مِنْهُ شَيْءٌ^(٢).
قَالَ عَصَامُ الدِّينِ: المشهورُ أَنَّهُ كَانَ كَفًّا مِنَ الْحَصَى، والمفهومُ مِنَ الْبَيْتِ خِلَافُهُ.
قُلْتُ: تَشْبِيهُ الرَّاحَتَيْنِ بِاعْتِبَارِ الْوَاقِعَتَيْنِ فِي الْغَزْوَتَيْنِ، وَقَدْ سَبَّحْتَ تِلْكَ الْحَصَى
فِي كَفِّي الْمِصْطَفَى حَتَّى سَمِعَهُ أَصْحَابُ أَهْلِ الصَّفَا، وَهَذِهِ مَعْجَزَةٌ أُخْرَى أَشَارَ النَّازِلُ
إِلَيْهَا، حَيْثُ قَالَ:

٧١- نَبَذًا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحٍ بِيْطْنِهِمَا نَبَذَ الْمُسْبِحُ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمِ

(نَبَذًا) مصدرُ (رَمَى) مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ، أَوْ التَّقْدِيرُ: نَبَذَهُ نَبَذًا بِهِ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ لَتَقْوِيَةِ
عَمَلِ الْمَصْدَرِ، وَالضَّمِيرُ فِي (بِهِ) إِلَى (الْحَصَى)، وَالتَّذْكِيرُ لِأَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ.
وَضَمِيرُ بَطْنِهِمَا لـ (رَاحَتَيْهِ) فَفِيهِ تَجْرِيدٌ، وَالْبَاءُ بِمَعْنَى: فِي.

و(نَبَذَ الْمُسْبِحُ) صِفَةٌ (نَبَذًا) بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ؛ أَي: نَبَذًا مِثْلَ نَبَذِ الْمُسْبِحِ، أَوْ بَدَلًا مِنْهُ.
وَهُوَ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ؛ أَي: نَبَذَ اللَّهُ الْمُسْبِحَ وَهُوَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْأَحْشَاءُ:
جَمْعُ الْحَشَى، وَهُوَ مَا فِي الْبَطْنِ، وَالْمُلْتَقِمُ: الْحَوْتُ.

يعني: رُمِيَ رَمِيًّا بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ وَكَفَّيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ بَعْدَ تَسْبِيحٍ عَظِيمٍ،
حَيْثُ سَمِعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ الْكَرِيمِ، كَمَا رُمِيَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ بَعْدَ
الْإِتْقَامِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:
٨٧]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْقَمْعَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِمٌ﴾^(١٢٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ^(١٢٣) لَلَبِثَ فِي
بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُنْعَثُونَ^(١٢٤) ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢-١٤٥]، وَالْقَصْدُ

(١) رواه مسلم (١٧٧٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في قصة حنين. وانظر حديث ابن
عباس عند أحمد الذي تقدم قريباً.

تَشْبِيهُ نَبَذِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَصَى الْمُسْبَحِ عَلَى وَجْهِ الْعَسْكَرِ فَهَرَبَ ^(١) مُنْكَسِرًا، كَنَبَذَ اللَّهُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ حَيًّا فَرَجَعَ مُنْجَبِرًا، فِي أَنَّ كِلَا مِنْهُمَا خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَكَمَا أَنَّ نَبَذَ الْمُسْبَحِ كَانَ سَبَبًا لِنَجَاتِهِ وَهَدَايَةِ قَوْمِهِ، كَذَلِكَ نَبَذَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ سَبَبًا لَخَلَاصِ الْمُؤْمِنِينَ وَهَدَايَةِ بَعْضِ الْكَافِرِينَ.

قَالَ الْجَلَالُ الْمَحَلِّيُّ: وَكَأَنَّ النَّاطِمَ وَقَفَ عَلَى دَلِيلِ تَسْبِيحِ الْحَصَى الْمَرْمِيِّ بِهِ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَيْهِ مَنْ اغْتَرَضَهُ بِالتَّقْيِي فِي ذَلِكَ، أَوْ قَصَدَ التَّسْبِيحَ الثَّابِتَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ^(٢)، قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفًّا مِنْ حَصَى، فَسَبَّحَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ، ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الشَّافِ» وَغَيْرُهُ ^(٣)، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُ النَّاطِمِ: (بَعْدَ تَسْبِيحٍ)؛ أَي: لِجِنْسِ الْحَصَى فِي مَوْطِنٍ آخَرَ، انْتَهَى.

لَكِنْ لَا يَظْهَرُ حَيْثُ وَجْهُ التَّعْبِيرِ بِالنَّبَذِ، وَالتَّشْبِيهِ بِنَبَذِ الْمُسْبَحِ.

٧٢- جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمِ السَّجْدَةِ: الْأَنْخِفَاضُ، وَذَا يَتِمُّ بَوْضِعُ الرَّأْسِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلِذَا يُفَسَّرُ بَوْضِعُ أَفْضَلِ الْأَجْزَاءِ عَلَى أَرْضِ الْأَشْيَاءِ، أَوِ الْمَرَادُ الْخُضُوعُ وَالْإِنْقِيَادُ.

(١) فِي «د»: «فَهَزَمُوا».

(٢) فِي هَامِش «ل»: «وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عَطَشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحَدِيثِ وَبَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَكُوعٌ، فَتَوَضَّأَ مِنْهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسَ نَحْوَهُ وَقَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ تَتَوَضَّأُ بِهِ وَنَشْرَبُ إِلَّا مَا فِي رَكُوتِكَ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ فِي الرُّكُوعِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعَيُونِ، فَشَرَبْنَا وَتَوَضَّأْنَا، قِيلَ لَجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِثْلَ أَلْفٍ لَكُنَّا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِثْلَ مِثْلٍ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ [٤١٥٢] وَمُسْلِمٌ [١٨٥٦].»

(٣) انْظُرْ: «الشَّافِ» (٢/ ٢٥٦). وَرَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (٣٩/ ١٢٠)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعِلَلِ» (٣٢٧)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصَحُّ. وَفِيهِ أَنَّهُنَّ سَبَّحْنَ فِي كَفِّ عَمْرِو عُثْمَانَ أَيْضًا. وَرَوَى ابْنُ الْجَوْزِيِّ نَحْوَهُ فِي «الْعِلَلِ» (٣٢٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَقَلَ عَنِ النَّسَائِيِّ قَوْلَهُ: هَذَا حَدِيثٌ بَاطِلٌ مُنْكَرٌ.

والمعنى: جاءت الأشجار لأجل دعوته، وأجابته وقت طلبه ومُنَادَاتِهِ، حال كونها مُنْقَادَةً خاشِعةً، على رأسها واقعة، وتمشي إليه ﷺ خاضعة، على ساق بلا قدم رافعة واضِعة.

وفي البيت أنواع من خوارق العادات؛ الأولى: فهم الخطاب من النباتات، مع أنها ليست من ذوات الحياة، ثم مجيئها وتعدُّ الحركات والسكنات، ثم قصدُها إليه وتواضعها لذيهِ، صلى الله تعالى عليه وسلم.

ثم مشيها على ساق بلا قدم: إمّا على رأسها، أو مع انخفاضها وخضوعها وأدبها. قال عصام الدين: المجيء إنما حصل من شجرة واحدة على ما ورد في التواريخ والأخبار، فجمع (الأشجار) محمول على التكرار.

يعني: تكرر حركتها مع وجود وخذتها، وغفل عما ذكره صاحب «الشفاء»، وغيره من أهل الوفاء، في شمائل المصطفى عليه التحيّة والثناء: أن أعرابياً سأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم آيةً، فقال له: «قل لتلك الشجرة: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوك»، فمالت [عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فقطعت عروقها ثم جاءت تجرُّ عروقها في الأرض حتى وقفت بين يديه، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: فمرها فلترجع إلى منبتها، فأمرها فرجعت، فذلت عروقها في منبتها فاستوت فيه^(١).

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه في حديثه الطويل آخر الكتاب: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فنظر فلم ير شيئاً يستريح به، فإذا شجرتين بشاطئ الوادي،

(١) انظر: «الشفاء» (١/ ٢٢٥). والحديث رواه البزار في «مسنده» (٤٤٥٠)، وفيه: فأمرها رسول الله

أن ترجع، فقام الرجل فقبل رأسه ويديه ورجليه وأسلم. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/

١٠): رواه البزار، وفيه صالح بن حيّان وهو ضعيف. وما بين معكوفتين من «الشفاء»، ولفظ

البزار: «... فمالت على كل جانب منها حتى قلعت عروقها...».

فَانْطَلَقَ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بَعْضُ مِنْ أَغْصَانِهَا وَقَالَ: «أَنْقَادِي مَعِيَ يَا ذَنْ اللَّهِ تَعَالَى»، فَاِنْقَادَتْ مَعَهُ حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الْآخَرَى، فَأَخَذَ بَعْضُ مِنْ أَغْصَانِهَا وَقَالَ: «أَنْقَادِي مَعِيَ يَا ذَنْ اللَّهِ تَعَالَى»، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا فَقَالَ: «الْيَمَّامَا عَلَيَّ يَا ذَنْ اللَّهِ» فَالْتَأَمَّتَا، ثُمَّ بَعْدَ انْقِضَاءِ حَاجَتِهِ افْتَرَقَتَا، فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ^(١).

٧٣- كَأَنَّمَا سَطَرْتُ سَطْرًا لِمَا كَتَبْتُ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ فِي اللَّقَمِ^(٢)

(ما) في (كأنما) كافة، والسَّطْرُ: الكتابة، فاللَّامُ في (لما) بمعنى الوقت.

وَالسَّطْرُ: الصَّفُّ مِنَ الشَّيْءِ، وَالْفُرُوعُ: الْأَغْصَانُ، وَالْبَدِيعُ: الْغَرِيبُ الْعَجِيبُ؛ فَعِيلٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ، وَالْإِضَافَةُ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ، وَ(مِنْ) بَيَانٌ لـ (ما) الْمَوْصُولَةِ، وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ؛ أَي: كَتَبْتُهُ.

وَاللَّقَمُ بِفَتْحَتَيْنِ: وَسَطُ الطَّرِيقِ، وَقِيلَ: اللَّوْحُ، قِيلَ: الْأَوَّلَى رِوَايَةً وَدَرَايَةً: (بِاللَّقَمِ) وَالْبَاءُ بِمَعْنَى (فِي). وَ(اللَّقَمُ): تَقْلِيبُ الْقَلَمِ الَّذِي هُوَ أَدَاةُ الْكِتَابَةِ، فِيهِ نَوْعٌ غَرَابَةٌ، وَهِيَ مِنَ الْمَحْسِّنَاتِ الْبَدِيعَةِ.

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى: أَنَّهُ شَبَّهَ آثَارَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ فِي الْأَرْضِ الْمَفِيدَةِ لِلْمُعْتَبِرِ، بِالْخَطِّ الدَّالِّ عَلَى اللَّفْظَةِ الْمَفِيدَةِ لِلْمَعَانِي لِلْمُتَدَبِّرِ.

٧٤- مِثْلَ الْعِمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرُهُ تَقِيهِ حَرٌّ وَطَيْسٌ لِلْهَجِيرِ حَمِي

(مِثْلَ) مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: مَجِيئاً مِثْلَ الْعِمَامَةِ، بِفَتْحِ الْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ، وَوَهْمَ عَصَا الدِّينِ حَيْثُ قَالَ: عَلَى وَزْنِ الْعِمَامَةِ. فَإِنَّهَا بِكسْرِ الْمَهْمَلَةِ كَمَا فِي «الْقَامُوسِ» وَغَيْرِهِ^(٣).

(١) رواه مسلم (٣٠١٢).

(٢) في هامش «ل»: «باللقم»، وهي رواية كما سيرد.

(٣) انظر: «القاموس» (مادة: عمم).

وبالزَّفْع خبرٌ مبتدأٌ محذوفٌ؛ أي: هي - يعني: الأشجار - مثلُ الغَمَامَةِ في الانْقِيَادِ إليه، والقيامُ بوظائفِ الخدمةِ لديه، ﷺ، أو: مجيءُ الأشجارِ مثلَ تَظْلِيلِ الغَمَامَةِ، على حَذْفِ الْمُضَافِ.

و(أنى) بمعنى: من أين؟ أي: أي موضعٍ إلى أي موضعٍ^(١)، أو بمعنى: كيف؛ أي: ماشياً أو راكباً، سريعاً أو بطيئاً.

و(سائرة) بالزَّفْع خبرٌ لمُقَدَّرٍ؛ أي: هي سائرة، و(تَقِيهِ) بمعنى: تَحْفَظُهُ، خبرٌ ثانٍ لهذا المقَدَّرِ، أو استئنافٌ. وبالنَّصْبِ على أَنَّهَا حَالٌ كما بعدها؛ أي: تشبيهُ الغَمَامَةِ حَالِ كونِهَا سائرةً أَنَّى سَارَ.

والوطيسُ: التَّنُورُ، والمرادُ: تَنُورُ الهَوَاءِ، و(حَمِي) فعلٌ ماضٍ، وسكونُ آخِرِهِ عَارِضٌ فِي الْوَقْفِ، وهو صِفَةٌ لِلْوَطِيسِ، يُقَالُ: حَمِيَ الْوَطِيسُ: إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ، وكذا: إِذَا صَعِبَ الْأَمْرُ.

والهَجِيرُ: نِصْفُ النَّهَارِ الْحَارِّ، والبَاءُ بمعنى: في، وكذا اللَّامُ كما في بعضِ النُّسخِ.

يعني: جاءتِ الأشجارُ ساجدةً لديه وماشيةً إليه مثلَ مجيءِ الغمامة، سائرةً عليه حافظةً له عن شِدَّةِ حَرِّ النَّهَارِ، وظاهرةً عِنْدَ الْأَخْيَارِ وَالْأَغْيَارِ، حَيْثُ سَارَ النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ، فالأشجارُ تَشَرَّفَتْ بِخِدْمَتِهِ، والغمامةُ تَشَمَّخَتْ وَارْتَفَعَتْ بِظِلَّتِهِ، فَقَدْ دَانَتْ لَهُ الْأَسَافِلُ وَالْأَعَالِي، بعونِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْمُتَعَالِي.

قال المحلِّي: وتَظْلِيلُهَا لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَعَ فِي سَفَرِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ بِهِ فِي رَكْبٍ تَاجِراً إِلَى الشَّامِ، رواه التِّرْمِذِيُّ^(٢).

(١) قوله: «إلى أي موضع» ليس في «د».

(٢) رواه الترمذي (٣٦٢٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٥٥): تفرد به =

قال عصام الدين: لو قال:

مِثْلَ الْغَمَامَةِ لَمَّا سَارَ سَائِرَةٌ وَقَتُهُ حَرٌّ وَطَيْسٌ لِلْهَجِيرِ حَمِي
 لَكَانَ أَوْلَى؛ لَأَنَّ (أَنَّى) مُتَضَمِّنَةٌ مَعْنَى: إِنَّ، وَهِيَ تَجْعَلُ مَدْخُولَهَا مُسْتَقْبَلًا،
 وَالْحَالُ أَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي الْمَاضِي، وَغَايَةُ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ فِي دَفْعِ الْإِشْكَالِ: أَنَّ
 يُعْتَبَرُ الْإِسْتِقْبَالُ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا قَبْلَ السَّيْرِ، وَهُوَ أَوَّلُ زَمَانٍ وَجُودِ الْغَمَامَةِ.

٧٥ - أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنَشَقِّ إِنَّ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ
 قِيلَ: الْقَسَمُ بغيرِ اللَّهِ جَرَى عَلَى الْعَادَةِ، وَإِلَّا فَالْشَّرْعُ عَدَهُ شِرْكَاً، وَلِهَذَا يُقَدَّرُ فِي
 أَمْثَالِهِ الْمُضَافُ؛ أَي: لَفْظَةُ الرَّبِّ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً عَنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِلَّهِ أَنْ يُقَسِّمَ بِمَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ
 تَعْظِيماً لِبَعْضِ مَوْجُودَاتِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ﴾
 [المدثر: ٣٢-٣٤].

وَأَغْرَبَ الْعَصَامِيُّ حَيْثُ قَالَ: الْقَسَمُ الَّذِي يُرَادُّ بِهِ تَأْكِيدُ الْحَكْمِ لَيْسَ بِمَنْهِيٍّ
 عَنْهُ، وَلِهَذَا فِي الْمَحَاوِرَاتِ يُقَسَّمُ بِالْعُمَرِ وَنَحْوِهِ، وَمَنْعٌ أَنْ يَكُونَ الْمَنْعُ عَنْهُ مَنْقُولاً.
 وَأَقُولُ: قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ
 تَعَالَى فَقَدْ أَشْرَكَ»، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(١).

= قِرَاد، واسمه: عبد الرحمن بن غزوان، ثقة احتج به البخاري والنسائي؛ ورواه الناس عن قِرَاد
 وحسنه الترمذي، وهو حديث منكر جداً...، ثم ذكر سبب نكارتة من وجوه، فراجعه ثمة.
 (١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢/ ٦٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥٣٥)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤٥).
 قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفُسِّرَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ قَوْلَهُ: «فَقَدْ كَفَرَ أَوْ
 أَشْرَكَ» عَلَى التَّغْلِيظِ.

وجاء في «الصحيحين» عن ابن عمر أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(١).

قال الطيبي: وذلك لأن الحلف تعظيم للمحلوف به، وحقيقة التعظيم مختصة بالله تعالى، ويكره الحلف بغير أسماء الله تعالى، سواء في ذلك النبي والكعبة والملائكة والأمانة والحياة والروح وغيرها^(٢).

والقمر يطلق على النير المنير بالليل بعد مضي ثلاث ليالٍ، وأما قبله فيقال له: الهلال، والضمير في (له) وفي (قلبه) له صلى الله تعالى عليه وسلم^(٣).

(مبرورة القسم) صفة لـ (نسبة)؛ أي: نسبة مصححة للقسم، بحيث لو حلف حالف على ثبوت تلك النسبة كان بازاً وصادقاً.

وقيل: صفة (يميناً) دل عليها (أقسمت).

والمعنى: إن للقمر المنشق مناسبة صريحة ومثابته صحيحة بقلبه الأنور وصدره الأزهر، بحيث يصدق الحالف بثبوت تلك النسبة كل من له مشكاة^(٤)، ومن وجوه النسبة: الانشقاق بلا ضرر، والالتئام بلا أثر، وإن واحدة آية من آياته، والأخرى معجزة من معجزاته.

وأما انشقاق القلب: فقد روى مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن جبريل عليه السلام أتاه وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق صدره عن قلبه، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله

(١) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) انظر: «شرح المشكاة» للطيبي (٨ / ٢٤٣٦).

(٣) في «ل»: «والضمير في له له، وفي قبله له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم». وفيها زيادة وتحريف.

(٤) المسكة: العقل الوافر. انظر: «القاموس» (مادة: مسك).

فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَرَى أَثَرَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ^(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِيثٌ: «فَرَجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ..» الْحَدِيثُ^(٢).

وَأَمَّا انْشِقَاقُ الْقَمَرِ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِزٌّ ﴿[القمر: ١ - ٢].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ شَقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا أَنَّ حِرَاءَ بَيْنَهُمَا^(٣)، انْتَهَى.

وَبَيَّنَتْ أَنَّ الْقَمَرَ انْشَقَّ مَرَّتَيْنِ^(٤)، وَتَقَدَّمَ أَنَّ شَقَّ الصَّدْرِ كَانَ كَرَّتَيْنِ، فَصَارَتْ النِّسْبَةُ بَيْنَ الْقَلْبِ الْمَنِيرِ وَالْقَمَرِ الْمُسْتَنِيرِ نِسْبَتَيْنِ.

٧٦- وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكَفَّارِ عَنْهُ عَمِي

(١) رواه مسلم (١٦٢) / (٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٣) رواه البخاري (٣٨٦٨).

(٤) في هامش «د»: «شق القمر مرتين، وشق الصدر أيضاً مرتين». وحديث انشقاق القمر مرتين رواه مسلم (٢٨٠٢) عن أنس: أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ. لَكِنِ الْمُرَادُ بِالْمَرَّتَيْنِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ: شَقَّتَيْنِ أَوْ فَلَاقَتَيْنِ، لَا أَنَّهُ وَقَعَ الانْشِقَاقُ مَرَّتَيْنِ كَمَا يُوْهِمُ ظَاهِرُ اللَّفْظِ. انْظُرْ تَفْصِيلَ ذَلِكَ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» لِابْنِ الْقَيْمِ (١) / (٣٠٠ - ٣٠١).

أي: اذْكُرْ ما جَمَعَهُ غَارُ ثَوْرٍ مِنْ جِبَالِ مَكَّةَ، وَ(مِنْ) بَيَانٌ لـ (مَا)، وَالْمَرَادُ مِنْ الْخَيْرِ الْفَضَائِلُ، وَمِنْ الْكَرَمِ الْفَوَاضِلُ، أَوْ الْأَفْعَالُ الْجَمِيلَةُ وَالْأَخْلَاقُ الْجَلِيلَةُ، أَوْ الْخِصَالُ الْمُكْتَسَبَةُ وَالْخِلَالُ الْمُسْتَوْهَبَةُ، وَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ؛ ك: أَهْلٌ، أَوْ الْإِطْلَاقُ مِنْ بَابِ الْمُبَالَغَةِ؛ ك: رَجُلٌ عَدْلٌ، وَالْمَرَادُ بِهِمَا: الْجَامِعَيْنِ لِهَمَا مِنَ النَّبِيِّ وَالْوَلِيِّ، أَوْ عَلَى طَرِيقِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ الْمُرْتَبِّ، فَالْخَيْرُ الْمُطْلَقُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَالْكَرَمُ يُرَادُ بِهِ أَفْضَلُ الْأَمَّةِ.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ، مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيهِ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي مَالٌ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ»^(١).

(وَكُلُّ طَرْفٍ)؛ أَي: بَصَرٍ وَنَظَرٍ (مِنْ الْكَفَّارِ) الدُّوَارِ حَوْلَ الْغَارِ، مُتَّبِعِينَ لِلْآثَارِ، (عَنْهُ)؛ أَي: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الْمَتَّبِعُ. أَوْ التَّقْدِيرُ: عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا (عَمِي) حَيْثُ لَمْ يَرَوْهُمَا، وَهُوَ إِمَّا مَاضٍ وَهُوَ الْأَظْهَرُ، فَالْيَاءُ أَصْلِيَّةٌ، أَوْ صِفَةٌ فَالْيَاءُ إِشْبَاعِيَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَبَّهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَيُؤْذِي ضَوْءُ شَمْسٍ عَيْنَ خُفَّاشٍ^(٢)

وَقَالَ:

كَمَا يَصُرُّ رِيَّاحُ الْوَرْدِ بِالْجُعَلِ^(٣)

(١) رواه الترمذي (٣٦٦١).

(٢) لم أجده.

(٣) عجز بيت للمتنبي، وصدره كما في «ديوانه» بشرح الواحدي (ص ٢٠٣):

بذي الغباوة من إنشادها ضررٌ

في «الصَّحِيحِينَ»: قَالَ الصَّدِّيقُ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِهِمْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ لَأَبْصَرَنَا، فَقَالَ: «مَا ظَنَنْتَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ تَالِهُمَا»^(١).
وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٧٧- فَالْصَّدُوقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِّيقُ لَمْ يَرِ مَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرَمِ (الصَّدُوقُ) مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى: الصَّادِقُ، أَوِ الْمَصْدُوقُ، أَوْ ذُو الصَّدُوقِ، بِالْمَعْنَى الْأَعْمِ، أَوْ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ؛ ك: رَجُلٌ عَدْلٌ.

يَعْنِي: الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ الَّذِي انْحَصَرَ فِيهِ الصَّدُوقُ بَلْ هُوَ عَيْنُ الصَّدُوقِ قَارٌّ فِي الْغَارِ، قَارٌّ مِنَ الْكِفَارِ، بِأَمْرِ الْجَبَّارِ، وَالصَّدِّيقُ مَعَهُ فِي الْغَارِ وَالْأَسْفَارِ، إِذِ الصَّدِّيقُ - وَهُوَ كَثِيرُ الصَّدُوقِ - لَا يُفَارِقُ الصَّدُوقَ، فَهُوَ الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَنْفَكُ.

ثُمَّ قِيلَ: (لَمْ يَرِ مَا) بَفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ؛ أَي: لَمْ يَبْرَحَا وَلَمْ يَزُولا، وَأَصْلُهُ بِيَاءٌ بَعْدَ الرَّاءِ هِيَ عَيْنُ الْفِعْلِ، حُذِفَتْ تَبَعًا لِحَذْفِهَا فِي إِسْنَادِهِ إِلَى الْمُفْرَدِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَالْأَصْلُ فِي اسْتِعْمَالِ مِثْلِهِ إِثْبَاتُ الْيَاءِ عِنْدَ تَحْرِيكِ الْمِيمِ اعْتِدَادًا بِالْعَارِضِ، وَزَانَ مَا فِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فَهَذَا الْوَجْهُ - وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْحَذْفُ لِعَدَمِ اعْتِبَارِ الْعَارِضِ - أَوْجَهُ مِنَ الْحَمْلِ عَلَى ضَرُورَةِ الشَّعْرِ لِأَنَّهُ مُحَلٌّ نَظَرٍ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ حَذْفِ الْقِيَاسِيِّ مِنْ ضَرُورَاتِ الشَّعْرِيِّ، وَأَيْضًا يَوْجِبُ الْإِتْبَاسَ الْمُشَوَّشَ فِي إِرَادَةِ الْمَعْنَى عَلَى النَّاسِ، وَنَظِيرُهُ مَا قِيلَ: إِنَّهُ مَجْهُولٌ مِنَ الرُّومِ^(٢) بِمَعْنَى الطَّلَبِ.

وَمِنَ اللَّطَائِفِ: أَنَّهُمَا مَطْلُوبَانِ وَلَيْسَا بِمَطْلُوبَيْنِ، بَلْ إِنَّهُمَا مَحْبُوبَانِ وَلَكِنْ كَانَا عَنْ أَعْيُنِ الْأَعْدَاءِ مُحْجُوبَيْنِ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٦٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فِي «ل»: «الْوَرَمُ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

وقيل: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَرَمِ، يعني: ما انْتَفَخَا مِنَ الْغَضَبِ؛ لِلأَدَبِ مَعَ حُكْمِ الرَّبِّ.

وقيل: ما انْتَفَخَا مِنَ الْوَرَمِ النَّاشِئِ مِنَ السُّمِّيَّاتِ، فَإِنَّ الْغَارَ كَانَ مَأْوَى الْحَيَّاتِ، فَيَكُونُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ.

وقيل: إِنَّهُ مُفْرَدٌ مُؤَكَّدٌ بِالنُّونِ الْخَفِيفَةِ، فَأُبْدِلَتِ الْفَاءُ لِلْوَقْفِ، وَالضَّمِيرُ لـ (الصَّدِيقِ)، وَيَكُونُ خَبَرًا عَنْهُ حَيْثُ لَسَعَتِ الْحَيَّةُ رِجْلَهُ الْمَبَارَكَةَ، وَازْتَفَعَ عَنْهُ الْوَرَمُ بِبَرَكَةِ دَعَائِهِ الْمَكْرَمِ، ﷺ.

وفي بعض النسخ بصيغة المجهول مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْمَعْنَى، لَكِنْ قَالَ بَعْضُ الشُّرَاحِ: إِنَّهُ مِنْ تَصْحِيفِ الْكِتَابِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

(وَهُمْ يَقُولُونَ)؛ أَي: وَالْحَالُ أَنَّ الْكُفَّارَ الْوَاقِفِينَ عَلَى بَابِ الْغَارِ الْعَمِيِّ عَنِ الْأَبْصَارِ، بَعَوْنِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْقَهَّارِ: (مَا بِالْغَارِ)؛ أَي: لَيْسَ فِيهِ (مِنْ أَرِمٍ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الرَّاءِ؛ أَي: أَحَدٌ، وَ(مِنْ) مَزِيدَةٌ لِلْمُبَالَغَةِ، نَاطِرِينَ إِلَى حَوْمِ الْحَمَامِ وَيَبْضِهِ حَوْلَ الْغَارِ، وَتَسْجِ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى فَمِ الدَّارِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ:

٧٨- ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحْمِ
(الْبَرِّيَّةِ) بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ وَبِالْهَمْزِ: أَي: الْخَلَائِقُ، وَالْمَرَادُ بِخَيْرِهِمْ هُوَ النَّبِيُّ الْمَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ الْمَرَادُ: سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ وَسَنَدُ الْأَوْلِيَاءِ.

وقوله: (لَمْ تَنْسُجْ) بِكَسْرِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا، (وَلَمْ تَحْمِ) بِضَمِّ الْحَاءِ مِنَ الْحَوْمِ وَهُوَ الدَّوْرُ حَوْلَ الشَّيْءِ، وَالتَّأْنِثُ فِي الْفِعْلَيْنِ بِاعْتِبَارِ الْجِنْسَيْنِ، وَقِيلَ: فِي الْعَنْكَبُوتِ لِمَا اشْتَهَرَ مِنْ أَنَّ النَّسْجَ شُغْلُ الْأُنْثَى كَمَا أَنَّ الْبَيْضَ مُخْتَصٌّ بِالْحِمَامَةِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْكُفَّارَ لَعَدَمِ يَقِينِهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ، حَسِبُوا أَنَّ الْعَنْكَبُوتَ لَمْ يَنْسُجْ عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَالْحَمَامَ لَمْ يَحْمِ حَوْلَ الْغَارِ، فَظَنُّوا أَنَّ لَيْسَ فِي الدَّارِ دِيَّارٌ،

ورجعوا عن تَتَبِعِ الآثار، وقالوا: لو كانَ أَحَدٌ في الغار، لَمَّا كانَ هذه الآثار، حَتَّى قال أُمِّيَّةُ بْنُ حَلَفٍ حينَ قال بَعْضُهُم: نَدْخُلُ الغار: أَمَّا تَرَوْنَ مِنْ نَسْجِ العَنْكَبوتِ عليه؟ ما أَرى إِلَّا أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ مُحَمَّدٌ^(١).

وهذا مِنْ أعْظَمِ الآياتِ على كَمالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تعالى، حيثَ وَقَّاهُ اللَّهُ مِنْ أعْظَمِ الأعداءِ، بِأَوْهَنِ البِناءِ، وَمِنْ أَظْهَرِ العَلاماتِ على إِعْلاءِ قَدْرِ نَبِيِّهِ العَلِيِّ، وَصَفِيهِ العَجَلِيِّ، حيثَ اسْتَخْدَمَ لَهُ الطَّيْرَ والحِشْرَاتِ، كما أَظْهَرَ لَهُ تَسْبِيحَ الجَماداتِ، وَتَسْخِيرَ النَّباتاتِ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ النَّاطِمُ في تَبْيِينِ أنواعِ المُعْجِزاتِ، وَأَصْنَافِ خَوَارِقِ العاداتِ. قيل: وَحَمَامُ الحَرَمِ الآنَ مِنْ نَسْلِ تلكَ الحَمَّامةِ، وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ قَتْلِ العَنْكَبوتِ بِتِلْكَ العَمَّامةِ^(٢).

٧٩ - وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطْمِ (الأُطْمِ) بِضَمَّتَيْنِ: جَمْعُ أَطْمَةٍ وَهِيَ الحُصَيْنُ؛ أَي: حَفِظَ اللَّهُ المَلِكِ الجَبَّارِ لِنَبِيِّهِ المُخْتارِ جَعَلَهُ مُسْتَغْنِيًّا عَنِ الدُّرُوعِ وَالأسلِحَةِ المَتَعَدِّدَةِ، وَعَنْ الحِصُونِ العَالِيَةِ المَرْتَفِعَةِ، فَإِنَّ عَنائَتَهُ كِفَايَةً، وَوَقَايَتُهُ كُلُّ وَقَايَةٍ؛ لِأَنَّهُ يَحْفَظُ مَنْ شَاءَ بِما شَاءَ مِنْ

(١) رواه أبو نعيم من طريق الواقدي حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن النبي ﷺ. انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ٣٠٦). والواقدي متروك كما أن الخبر منقطع. وقصة نسج العنكبوت رواها أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١) - طبعة الرسالة - بإسناد ضعيف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند». وقصة الحمامتين رواها ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٤٣)، والعقبلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٢٢ - ٤٢٣)، وفي إسناده عون - ويقال: عوين - بن عمرو القيسي، أعله العقيلي به وقال: لا يتابع عليه، وأبو مصعب المكي مجهول. وانظر: «نصب الراية» للزبيدي (١/ ١٢٣).

(٢) حديث النهي عن قتل العنكبوت قطعة من خبر موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه. انظر التعليق السابق.

مخلوقاتِهِ، وَيَقِي مَنْ أَرَادَ وَقَايَتَهُ بِيَدَيْهِ مَصْنُوعَاتِهِ، كَمَا جَعَلَ الْغَارَ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الْحِصْنِ الْحَصِينِ، وَصَيَّرَ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ فِي قُوَّةِ الدَّرْعِ الْمَتِينِ.

رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْرِسُ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاللَّهُ يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ وَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي رَبِّي»^(١).

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْعِصْمَةَ أَوَّلًا كَانَتْ بِوَاسِطَةِ الْحِجَابِ، وَلَمَّا ارْتَفَعَ الْحِجَابُ حُفِظَ بَرَبُّ الْأَرْبَابِ.

وَفِي الْبَيْتِ إِيمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ﴾ الْآيَةُ [التوبة: ٤٠]، وَإِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَلْتَضَرُّ إِلَّا مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٨٠- مَا سَأَمَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلَّا وَنَلْتُ جَوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضْمِ السَّوْمُ: إِذَا قَةُ الشَّدَّةِ وَالْمِخْنَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].

وَفِي نَسْخَةٍ: (مَا ضَامَنِي) مِنَ الضَّيْمِ، وَهُوَ الظُّلْمُ. وَالنَّسْبَةُ إِلَى الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ مُطْلَقُ الزَّمَانِ مَجَازِيَّةٌ عُرْفِيَّةٌ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ يُقَدَّرَ مُضَافٌ، أَي: خَالِقُ الدَّهْرِ وَمُقَلِّبُهُ وَمُصَرِّفُهُ. (ضَيْمًا) مَفْعُولٌ ثَانٍ عَلَى نَسْخَةِ السَّيْنِ، وَمَفْعُولٌ مُطْلَقٌ عَلَى نَسْخَةِ الضَّادِ، وَفِي نَسْخَةٍ: (يَوْمًا) مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ.

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٠٤٦) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَقَالَ: حَدِيثٌ غَرِيبٌ. وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ رَوَى مَرْسَلًا دُونَ ذِكْرِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

و(اسْتَجَرْتُ) عطفٌ على (سامني)، والاستِجَارَةُ: طَلَبُ الْجَوَارِ، وهو الْمُهْلَةُ
وَالْخَلَاصُ، وقيل: الِاتِّجَاءُ وَالِاتِّيَاذُ وَطَلَبُ الْمَنَاصِ.

وقيل: (اسْتَجَرْتُ) حَالٌ بِتَقْدِيرِ: قد، وهو الْأَظْهَرُ.

والاستِثْنَاءُ مُفْرَعٌ، وَالضَّمِيرُ فِي (به) رَاجِعٌ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
و(نَلْتُ) بِكسْرِ النُّونِ مِنْ نَالَهُ يَنَالُهُ: إِذَا وَصَلَ إِلَى مُرَادِهِ وَحَصَلَ مَنَاهُ وَمَقْصُودُهُ.

وَالجَوَارُ بِكسْرِ الجِيمِ: الْمُجَاوِرَةُ أَوِ الْمُحَافِظَةُ، وَالضَّمِيرُ فِي (منه) لِلضَّمِيمِ الْمَدْلُولِ
عَلَيْهِ بِ(ضَامٍ) إِنْ أُريدَ بِالْجَوَارِ الْخَلَاصُ، وَبِ(خَيْرِ الْبَرِيَّةِ) إِنْ أُريدَ بِهِ طَلَبُ الْمَنَاصِ.

و(لَمْ يُضْمِ) مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ.

ثُمَّ هَذَا الْبَيْتُ وَمَا بَعْدَهُ وَقَعَ فِي بَعْضِ النُّسخِ قَبْلَ قَوْلِهِ: (خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِ)
فِي آخِرِ الْقَصِيدَةِ.

وَالْمَعْنَى: مَا أَذْأَقَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِي الزَّمَانِ ضَرَرًا مِنْ أُمُورِ الْأَكْوَانِ، وَفِي^(١)
وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَسَاعَةٍ مِنَ السَّاعَاتِ، وَالْحَالُ أَنِّي قَدْ التَّجَّأْتُ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَلْتُ
الْخَلَاصَ عَلَيْهِ، إِلَّا وَقَدْ نَلْتُ مِنْهُ خَلَاصًا، وَوَجَدْتُ فِيهِ مَنَاصًا، لَمْ يُغْلَبْ وَلَمْ
يُظْلَمْ، أَوْ لَمْ يُخَفَّرْ بَلْ يُخْتَرَمَ.

٨١- وَلَا التَّمَسُّتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ
(الْمُسْتَلَمِ) بِفَتْحِ اللَّامِ اسْمُ مَكَانٍ أَوْ مَفْعُولٍ؛ أَي: مَا طَلَبْتُ غِنَى الدُّنْيَا بِالْكَفَايَةِ
وَوَغْنَى الْعُقْبَى بِالسَّلَامَةِ مِنْ إِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، إِلَّا أَخَذْتُ الْعَطَاءَ وَنَلْتُ الْمُنَى مِنْ خَيْرِ
مُسْتَلَمٍ مِنْهُ وَمَطْلُوبٍ عَنْهُ.

وَحَاصِلُ الْبَيْتَيْنِ: أَنَّ دَفْعَ الضَّرَرِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، وَجَلَبَ النَّفْعِ الدِّينِيِّ

(١) فِي «د»: «فِي».

والذَّنُوبِيَّ، حَاصِلٌ بِالْتَّمَسْكِ إِلَى جَنَابِهِ، وَوَاصِلٌ بِالْوُقُوفِ عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ^(١).

٨٢ - لَا تُنْكِرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمْ (لَمْ يَنَمْ) بَفَتْحِ النَّوْنِ، وَفِي نُسخَةٍ (مَتَى) مَكَانَ (إِذَا)؛ أَي: لَا تُنْكِرُ أَيُّهَا الْمُنْكِرُ، وَلَا تَسْتَغْرِبُ أَيُّهَا الْمُقَرُّ، الْوَحْيَ الرَّبَّانِيَّ وَالْإِلَهَامَ الصَّمْدَانِيَّ الْحَاصِلَ مِنْ رُؤْيَاهُ فِي الْمَنَامِ؛ لِأَنَّ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَلْبًا عَظِيمًا وَصَدْرًا كَرِيمًا إِذَا نَامَتِ عَيْنَاهُ لَمْ يَنَمْ قَلْبُهُ فِي رُؤْيَاهُ، وَفِي «الصَّحِيحِينَ»: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»^(٢).

٨٣ - وَذَلِكَ حِينَ بَلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ فَلَيْسَ يُنْكِرُ فِيهِ حَالٌ مُخْتَلِمٌ يُقْرَأُ الْبَيْتُ بِإِشْبَاعِ هَاءٍ (فِيهِ) وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى (حِينَ الْبُلُوغِ).
وَالْمُخْتَلِمُ بَفَتْحِ اللَّامِ مُصَدَّرٌ مِمِّيٌّ بِمَعْنَى الْاِخْتِلَامِ، كَذَا قِيلَ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ بِكسْرِ اللَّامِ بِمَعْنَى: بِالْبَلْغِ.

يعني: وَذَلِكَ الْوَحْيُ الْمَعْظَمُ وَالْحَالُ الْمَكْرَمُ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِ نُبُوَّتِهِ وَفِي بَدْءِ بَدْوِ رِسَالَتِهِ، وَقَدْ نُبِّئَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُوَ حَدُّ مَبْدَأِ النُّبُوَّةِ، فَلَيْسَ يُنْكِرُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَبَلُوغٍ ذَلِكَ الْأَوَانِ حَالٌ بِالْبَلْغِ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، مُوصُوفٍ بِأَوْصَافِ الْكَمَالِ، مِنْ دَعَايِ الْوَحْيِ فِي الْمَنَامِ، فَإِنَّهُ مِنْ مَقْدَمَاتِ وَحْيِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَفِي «شرح السنة»: أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَيَّامِ الْوَحْيِ - وَهُوَ ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً - كَانَ

(١) الْاِلْتِجَاءُ وَالِاسْتِجَارَةُ إِنَّمَا يَكُونَانِ إِلَى اللَّهِ، كَمَا أَنَّ التَّمَسَّكَ الْغَنَى لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْهُ سُبْحَانَهُ، وَحَاشَا لِرَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَقْبَلَ مِنْ عَبْدٍ أَنْ يَلْتَجِيَ إِلَيْهِ أَوْ يَطْلُبَ مِنْهُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مِنْ خِصَائِصِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَفِي الْبَيْتَيْنِ مُخَالَفَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَسْتَعِيزُ﴾، وَلِحَدِيثِ: «وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ»، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الزَّرْكَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ [المنكوت: ١٧].

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٤٧)، وَمُسْلِمٌ (٧٣٨)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي الْمَنَامِ، وَبِهَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ ﷺ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ»^(١).

٨٤- تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحِيَ بِمُكْتَسَبٍ وَلَا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهِمٍ
(مُكْتَسَبٍ) وَ(مُتَّهِمٍ) صِيغَتَا مَجْهُولٍ.

يعني: تَكَاثَرَ خَيْرُهُ وَدَامَ نَفْعُهُ، أَوْ تَعَالَى وَتَعْظَمَ كِبَرِيَاؤُهُ، وَهَذَا إِنْشَاءٌ لِلتَّعْجُبِ؛ أَيِ: سُبْحَانَهُ لَيْسَ وَحْيُهُ حَاصِلٌ بِاِكْتِسَابِ الْأَعْمَالِ، وَلَا بِتَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَحْوَالِ، بَلْ مَحْضٌ مُوَهِّبٌ، وَمَجْرَدُ عَطِيَّةٍ، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَلَا يَوْجَدُ نَبِيٌّ ثَبَتَتْ نَبُوَّتُهُ وَتَحَقَّقَتْ مَعْجَزَتُهُ مُتَّهِمًا عَلَى مَا يَأْتِي مِنَ الْمَغْيِبَاتِ وَإِخْبَارِ أُمُورِ الْكَائِنَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] عَلَى قِرَاءَةِ الظَّاءِ الْمَشَالَةِ^(٢)؛ أَيِ: بِمُتَّهِمٍ.

٨٥- كَمْ أَتَرَأْتَ وَصَبًا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ وَأُطْلَقَتْ أَرْبَاءٌ عَنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ
(كَمْ) خَبْرِيَّةٌ، وَ(الْوَصَبُ) بَفَتْحَتَيْنِ: الْأَلَمُ وَالتَّعَبُ، وَفِي نَسْخَةٍ بِكسْرِ الصَّادِ؛ أَيِ: الْمَرِيضُ، وَهُوَ أَوْضَحُ.
وَالرَّاحَةُ: الْكَفُّ، أَوْ بَاطِنُهُ.

وَالْإِطْلَاقُ ضِدُّ التَّقْيِيدِ، وَ(الْأَرْبُ) بَفَتْحَتَيْنِ: الْحَاجَةُ، وَفِي نَسْخَةٍ بِكسْرِ الرَّاءِ؛
أَيِ: صَاحِبَ الْحَاجَةِ، وَهُوَ أَظْهَرُ مَعْنَى.

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢ / ٢٠٤). والحديث رواه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤)، من حديث أنس رضي الله عنه. ورواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿بظنين﴾ بالظاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحَمْزَةُ: ﴿بِضنين﴾ بالضاد. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٦٧٣).

والرَبْقَةُ بالكسر: حبلٌ له عقدةٌ يُشدُّ به التَّمائمُ، و(اللَّمَم) بفتحين: صغارُ الذنوبِ، وطَرَفٌ مِنَ الجنون؛ لأنَّ الجنونَ فُنون.

يعني: كثيراً مِنَ الآلامِ، أو ذَوِي الأسقامِ، حَصَلَتْ لَهُمُ الرَّاحَةُ مِنَ الأَلَمِ والسَّقَمِ، ببركةِ راحتهِ الأَكْرَمِ، وكَفَّهَ الأَفْخَمِ، وَكَمْ أَخْلَصَتْ أَرْبابَ الحاجاتِ عن عقدةِ عُقُودِ السَّيِّئَاتِ: إمَّا بالتَّوْبَةِ المَاحِيَةِ عن العُقُوبَاتِ، وإمَّا بِالشَّفَاعَةِ البَاعِثَةِ عَلَى رِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ.

أو: كَمْ أَرْسَلَتْ أَرْبابَ الجنونِ الظَّاهِرِيِّ أو البَاطِنِيِّ عن عُروَةِ جُنُونِهِم، وعن ظُلْمَةِ فُنُونِهِم، وَجَعَلَهُم مَجَازِيِبَ متوجِّهينَ إِلَى المَحَارِبِ.

رُوي: أَنَّ امرأةً أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَابِنِ لَهَا بِهِ جَنُونٌ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ الْمَبَارَكَةِ صَدْرَهُ فَتَحَّ ثَعَّةٌ - بِالمَثَلَةِ والمَهْمَلَةِ؛ أَي: قَاءَ قَيْئَةً - فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ مِثْلُ الْجَرِّ وَالْأَسْوَدِ^(١).

وكان في كَفِّ شُرْحَيْلِ الجُعْفِيِّ سِلْعَةٌ - بِكسرِ السَّيْنِ؛ أَي: زِيَادَةُ لَحْمٍ - تَمْنَعُهُ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى السَّيْفِ وَعَلَى عِنَانِ الدَّابَّةِ، قَطَفَهَا صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ الْمَبَارَكَةِ، فَذَهَبَتْ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ^(٢). ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الشَّفا» وَغَيْرُهُ مَعَ وَقَائِعِ كَثِيرَةٍ^(٣).

٨٦ - وَأَخْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ حَتَّى حَكَّتْ غُرَّةً فِي الْأَعْصَرِ الذَّهْمِ

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٦٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢): رواه أحمد والطبراني، وفيه فرقٌ السَّبْخِي وثقه ابن معين والعجلي وضعفه غيرهما.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢١٥) من طريق مخلد بن عقبة بن عبد الرحمن بن شرحبيل الجعفي، عن جده عبد الرحمن، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ ويكفي سلعة... قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٨): رواه الطبراني، ومخلد ومن فوقه لم أعرفهم، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) انظر: «الشفا» (١/ ٢٤٢).

في «القاموس»: الشَّهْبُ محرَّكةٌ: بياضٌ يَضْدَعُهُ سِوَادٌ؛ كَالشَّهْبَةِ بِالضَّمِّ، وَسَنَةُ شَهْبَاءٍ: لَا خُضْرَةَ فِيهَا، أَوْ لَا مَطَرَ.

و(الغُرَّةُ) بِالضَّمِّ: بياضٌ في الجَبْهَةِ.

و(الأَعْصُرُ): جَمْعُ عَصِيرٍ، وَهُوَ الزَّمَانُ، وَ(الدَّهْمُ) بِضَمَّتَيْنِ: جَمْعُ أَذْهَمَ، وَهُوَ الْأَسْوَدُ.

وَنِسْبَتُهُ الْإِحْيَاءُ إِلَى الدَّعْوَةِ مَجَازِيَّةٌ سَبَبِيَّةٌ، يَعْنِي: أُحْيِيتْ دَعْوَتُهُ الْمُبَارَكَةُ بِالسُّقْيَا السَّنَةِ الَّتِي كَانَتْ مَيِّتَةً وَيَابِسَةً أَرْضُهَا لِقَلَّةِ الْمَطَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ أَي: سَنَةُ الْقَحْطِ الَّتِي هِيَ شَهْبَاءٌ لِعَلْبَةِ بَيَاضِ الْأَرْضِ فِيهَا بَعْدَ النَّبَاتِ عَلَى سَوَادِهَا بِالنَّبَاتِ، فَهِيَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْبَيَاضِ مَيِّتَةٌ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الرِّزْقَ قَدْ يَقِلُّ لَكِنْ لَا يُعْدَمُ بِالْكُلِّيَّةِ، إِلَى أَنْ شَابَهَتْ تِلْكَ السَّنَةُ بَيَاضاً وَاضِحاً فِي جَبِينِهَا، وَضِيَاءٌ لَامِحاً فِي أَوَّلِ حِينِهَا، مُسْتَعَارٌ مِنْ غُرَّةِ الْفَرَسِ فِي الْأَزْمَنَةِ السُّودِ لَشِدَّةِ خُضْرَةِ الزَّرْعِ فِيهَا حَتَّى يُرَى أَسْوَدٌ مِنْ كَثَرَةِ الزَّرْعِ بِهَا، يَعْنِي: تِلْكَ السَّنَةُ أَخْضَبُ مِنْهَا حَتَّى كَانَتْهَا غُرَّةٌ فِيهَا، وَغُرَّةٌ كُلُّ شَيْءٍ: أَحْسَنُهُ وَأَيَمُّنُهُ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَعْصُرِ الدَّهْمُ: أَزْمَنَةُ الْقَحْطِ وَالْغَلَاءِ.

٨٧- بَعَارِضٍ جَادَ أَوْ خِلَتْ الْبَطَاحُ بِهَا سَيِّباً مِنَ الْبِمِّ أَوْ سَيْلًا مِنَ الْعَرَمِ

الْعَارِضُ: السَّحَابُ، وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقٌ بِـ (أُحْيِيتْ) أَوْ (دَعْوَتُهُ) أَوْ (حَكَتْ).

و(جَادَ) مِنَ الْجَوْدِ بِفَتْحِ الْجِيمِ، وَهُوَ إِكْثَارُ الْمَطَرِ، وَقِيلَ: مِنَ الْجُودِ بِالضَّمِّ.

و(أَوْ) بِمَعْنَى: إِلَى أَنْ. وَ(خِلَتْ) بِكَسْرِ الْخَاءِ مِنَ الْخَيْالِ وَهُوَ الظَّنُّ وَالْحُسْبَانُ.

و(الْبَطَاحُ): جَمْعُ أَبْطَحَ أَوْ بَطَحَاءَ، وَهُوَ الْوَادِي الْمَتَسِّعُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى

الْبَطَحَاءِ، وَهِيَ الْحَصْبَاءُ، وَضَمِيرُ (بِهَا) رَاجِعٌ إِلَى (السَّنَةِ الشَّهْبَاءِ).

و(سَيِّئاً)؛ أي: عطاء؛ أي: ماء جارياً، وهو منصوبٌ على أَنَّهُ مفعولٌ ثانٍ لـ(خِلْتُ)،
 وَرُويَ بِالرَّفْعِ على أَنَّهُ مبتدأٌ و(بها) خبره، والجملة في محلِّ النَّصْبِ مفعولٌ ثانٍ له.
 والمعنى: أَخَيَّتْ دَعْوَتُهُ الأرضَ المَيِّتَةَ بسببِ عُرُوضِ سَحَابٍ أَكْثَرَ المَطَرِ - أو
 جَادَ بالمَطَرِ - إلى أَن ظَنَنْتُ أَيُّهَا المَخَاطَبُ وَحَسِبْتُ الأودِيَةَ المَتَّسِعَةَ في تلك السَّنَةِ
 عطاءً وافياً وماءً جارياً مِنَ البحرِ لكَثْرَتِهِ، أو سَيْلاً سارياً مِنَ الوادي المنكسرِ سُدَّهُ لِقُوَّتِهِ.
 وفيه تنبيهٌ نبيُّه على أَن لدعوة نبيِّه صلى الله تعالى عليه وسلم تأثيراً في ملكوتِ
 سمائه وأرضه، رَوَى الشَّيْخَانِ عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رجلاً دَخَلَ المسجدَ يومَ
 الجمعةِ ورسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائمٌ يَخْطُبُ، فقال: يا رسولَ الله!
 هَلَكْتَ الأموالُ وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يُغِيثُنَا، فَرَفَعَ رسولُ الله صلى الله تعالى
 عليه وسلم يَدَيْهِ فقال: «اللَّهُمَّ أَغْنِنَا» ثلاثاً، وما نَرَى في السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ ولا قَرَعَةٍ،
 فَطَلَعَتْ سَحَابَةٌ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، والله ما رَأَيْنَا الشَّمْسَ سَبْتًا. ثُمَّ دَخَلَ رجلٌ مِنَ الجُمُعَةِ
 المَقْبِلَةِ ورسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائمٌ يَخْطُبُ، فقال: يا رسولَ الله!
 هَلَكْتَ الأموالُ وانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ أَنْ يُمَسِّكَهَا عنها، فَرَفَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ
 حَوَالَيْنَا ولا عَلَيْنَا...» إلى آخره، فَأَقْلَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي، وسُئِلَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:
 أَهو الرجلُ الأوَّلُ؟ فقال: لا أَدْرِي^(١).

وقوله: (سَبْتًا) بموحدة بين السين والتاء؛ أي: قِطْعَةً مِنَ الزَّمان، وفي
 روايةٍ للبخاريٍّ: فما زِلْنَا نُمْطِرُ إلى الجمعةِ القابلةِ^(٢).

و(الْقَرَعَةُ) بفتح القاف والزاي: قِطْعَةُ سَحَابٍ، كذا ذَكَرَهُ المَحَلِّيُّ.

والأنسبُ بالرواية الأخيرة للبخاريٍّ أَنْ يُفَسَّرَ السَّبْتُ بالأسبوعِ مِنَ السَّبْتِ

(١) رواه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٠١٥).

إلى السَّبَبِ كما ذَكَرَهُ صَاحِبُ «النَّهْيَةِ»، ثُمَّ قَالَ: وَقِيلَ: أَرَادَ مَدَّةً مِنَ الزَّمَانِ قَلِيلَةً كَانَتْ أَوْ كَثِيرَةً^(١).

٨٨ - دَغْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظَهَرَ نَارِ الْقِرَى لَيْلًا عَلَى عِلْمِ

(الْقِرَى) بِكَسْرِ الْقَافِ: الضِّيَافَةُ، وَ(الْعِلْمِ) بِفَتْحَتَيْنِ: الْجَبَلِ.

وَيُقْرَأُ الْبَيْتُ بِفَتْحِ يَاءِ الْإِضَافَةِ فِي (وَصْفِي)، وَالْوَاوُ بِمَعْنَى: مَعَ؛ لِأَنَّ عَطْفَهُ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ يُخَلُّ بِالْمَقْصُودِ وَالْمَطْلُوبِ.

وَالْمَعْنَى: ائْتَرَكْنِي أَيُّهَا النَّاصِحُ لِي بِالِاخْتِصَارِ فِي الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ يَنْجَرُّ إِلَى الْمَلَالِ وَالسَّامِ، فَإِنَّ ذِكْرَ الْحَبِيبِ لَا يَشْبَعُ مِنْهُ اللَّيْبُ، فَخَلَّنِي مَعَ وَصْفِي لَهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِآيَاتِ بَيِّنَاتٍ، وَعَلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ، وَمَعْجَزَاتٍ لَانْحَاتٍ، ظَهَرَتْ ظَهُورًا بَيِّنًا فِي الْآفَاقِ، فِي وَقْتِ ظُلْمَةِ الْجَهْلِ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، مِثْلَ شِعَاعِ نَارِ الضِّيَافَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْجَبَلِ؛ لِلْعَلَامَةِ فِي اللَّيْلِ الَّذِي هُوَ أَذْهَى لِلْوَيْلِ؛ لِحُضُورِ الْمُحْتَاجِينَ وَوُصُولِ الْمُشْتَاقِينَ مِنَ الْمُسَافِرِينَ وَالْمُجَاوِرِينَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ، وَالذَّلَالَاتِ الْفُرْقَانِيَّةَ، ظَهَرَتْ وَقْتُ شِدَّةِ الْاِحْتِيَاجِ إِلَيْهَا، وَعَلَتْ عُلوًّا لَا يُمَكِّنُ الِازْتِفَاعُ عَلَيْهَا.

٨٩ - فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمٍ

(حُسْنًا) وَ(قَدْرًا) تَمْيِيزَانِ، وَ(يَنْقُصُ) رُويَ مَعْلُومًا وَمَجْهُولًا، وَ(غَيْرَ مُنْتَظِمٍ) حَالٌ، وَالْفَاءُ لِلتَّعْلِيلِ.

يَعْنِي: أَنَّ أَوْصَافَ جَمَالِهِ وَأَسْبَابَ كَمَالِهِ فِي غَايَةِ الْاِسْتِهَارِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَنَارِ، وَإِنَّمَا نَظَّمْتُ بَعْضَهَا فِي سِلْكِ النَّظْمِ؛ لِأَنَّهُ أَضْبَطُ وَأَحْفَظُ وَأَقْرَبُ إِلَى الْفَهْمِ،

(١) انظر: «النَّهْيَةُ» لابن الأثير (مادة: سبت).

كما أَنَّ الدَّرَّ وهو اللُّؤْلُؤُ المَعْلُومُ يَزِيدُ حُسْنُهُ فِي حَالِهِ الْمَنْظُومِ، وَلَا يَنْقُصُ قَدْرُهُ حَالَ كَوْنِهِ مَنْشُورًا عِنْدَ أَرْبَابِ الْعُلُومِ.

٩٠ - فَمَا تَطَاوُلَ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ

تَطَاوَلَ إِلَيْهِ: مَدَّ عُنْقَهُ مُرِيدًا لِلإِطْلَاقِ عَلَيْهِ، وَالْأَمَالُ: جَمْعُ الْأَمَلِ، وَهُوَ الرَّجَاءُ، وَهُوَ مُضَافٌ إِلَى (الْمَدِيحِ) وَهُوَ اسْمٌ لِمَا يُمَدَّحُ بِهِ.

وقيل: بمعنى الممدوح، وَاللَّامُ لِلْعَهْدِ أَوْ الْاسْتِغْرَاقِ، وَهُوَ أَوْلَى.

وفي نسخة: (آمالي) بِيَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَنَصْبِ (المدح) بنزع الخافض.

وَالْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ: هِيَ الْخِصَالُ الْكَسْبِيَّةُ أَوْ الطَّبِيعِيَّةُ، وَالشَّيْمُ الْمَرْضِيَّةُ:

هِيَ الْأَحْوَالُ الْوَهْبِيَّةُ.

قيل: (ما) الْأَوَّلَى اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَلَا بَدَّ مِنْ تَقْدِيرِ: أَي: فَإِنَّ

تَطَاوَلَ آمَالِي بِالْمَدِيحِ إِلَى صِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ، لَا أَصِلُ إِلَى بَيَانِ جَمِيعِهَا وَإِنْ طَالَ عُمْرِي أَلْفَ سَنَةٍ.

وقيل: (ما) نَافِيَةٌ^(١)، وَالْفَاءُ لِلتَّعْلِيلِ.

وقيل: (ما) مَوْصُولَةٌ، وَالْفَاءُ لِلْعَطْفِ عَلَى (وَصْفِي).

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى: إِنَّمَا انْتَقَلْتُ مِنَ الْإِسْتِغَالِ عَنْ وَصْفِ حَالَاتِهِ إِلَى وَصْفِ

آيَاتِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْأَمَالَ لَا تَطَاوُلَ إِلَى أَوْصَافِهِ الْبَهِيَّةِ وَأَخْلَاقِهِ السَّيِّئَةِ، فَأَرَدْتُ أَنْ

أَتَشَرَّفَ بِوَصْفِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَأَرْتَشِحَ مِنْ بَحْرِ لَطَائِفِهَا بِرَشَحَاتِ فَائِضَاتِ، فَمَا لَا

يُذَرِّكَ كُلَّهُ لَا يُتْرَكُ كُلُّهُ، وَذَرَكُ بَعْضُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكُلِّ.

(١) فَإِنْ كَانَتْ نَافِيَةً كَانَ الْأَوَّلَى جَعَلَ (تَطَاوَلَ) فِعْلًا مُضَارِعًا مُحذُوفَ التَّاءِ مَفْتُوحَ الْوَاوِ، أَمَا فِي

الاسْتِفْهَامِيَّةِ فَتَكُونُ بِضْمِ الْوَاوِ وَرَفْعِ اللَّامِ - وَكَذَا ضُبِطَتْ فِي «ل»، وَلَمْ تَضْبُطْ فِي «د» - عَلَى

أَنَّهَا اسْمٌ هُوَ خَيْرُ (مَا) الْاسْتِفْهَامِيَّةِ الَّتِي هِيَ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ.

٩١ - آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ
(آيَاتُ حَقٍّ) إِمَّا مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ مَبْتَدَأٌ، وَ(مِنَ الرَّحْمَنِ) صِفَةٌ، وَالْخَبْرُ
(مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ)، أَوْ عَلَى أَنَّهُ خَبْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ؛ أَي: هِيَ، يَعْنِي: الْآيَاتُ
الْمَوْصُوفَةُ، وَالْبَوَاقِي أَخْبَارٌ مُتَرَادِفَةٌ، أَوْ صِفَاتٌ مُتَلَاصِقَةٌ.

وَإِمَّا مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ عَطْفٌ بَيَانٍ لـ (آيَاتٍ) فِي قَوْلِهِ: (دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ)،
أَوْ عَلَى الْمَدْحِ، وَكَذَلِكَ (مُحَدَّثَةٌ) وَ(قَدِيمَةٌ)، وَ(صِفَةُ الْمَوْصُوفِ). وَفِي نَسْخَةٍ:
(مُحْكَمَةٌ) بَدَل (مُحَدَّثَةٌ).

ثُمَّ الْحَقُّ صِفَةُ مُشَبَّهَةٍ؛ أَي: آيَاتٌ ثَابِتَةٌ وَصَادِقَةٌ، وَ(صِفَةُ الْمَوْصُوفِ) مَبْتَدَأٌ،
وَ(قَدِيمَةٌ) خَبْرُهُ، كَذَا قَالُوا، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ (صِفَةَ الْمَوْصُوفِ) خَبْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ هُوَ:
هِيَ؛ أَي: هَذِهِ الْآيَاتُ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ وَالْكَمَالَاتِ الْفُرْقَانِيَّةَ آيَاتٌ ثَابِتَةٌ، وَمَعْجَزَاتٌ صَادِقَةٌ،
نَازِلَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، بِمَقْتَضَى الرَّحْمَانِيَّةِ عَلَى أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾
عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ [الرحمن: ١ - ٤]، وَهِيَ (مُحَدَّثَةٌ)؛
أَي: نَزُولُهَا (قَدِيمَةٌ) وَجُودُهَا وَحُصُولُهَا، أَوْ: مُحَدَّثَةٌ لَفْظًا قَدِيمَةٌ مَعْنَى، وَهِيَ صِفَةُ
الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ، فَلَا يَجْرِي عَلَيْهَا سِمَةُ الْعَدَمِ.

وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ حَيْثُ قَالُوا بِحُدُوثِ كَلَامِ اللَّهِ الْقَدِيمِ، وَعَلَى الْحَنَابِلَةِ
حَيْثُ قَالُوا بِقَدَمِ الْفَاضِلِ، بَلْ تَفَوَّهُوا بِقَدَمِ كِتَابَتِهِ وَمِدَادِهِ وَأَوْرَاقِهِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ مِنَ
السَّخَافَةِ، الظَّاهِرِ بَطْلَانُهُ عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاهَةِ، لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاهَةِ، فَاهْلُ
التَّحْقِيقِ فِي الْمَسْأَلَةِ عَلَى مَذْهَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى الْمَرْكَبِ مِنَ الْأَصْوَاتِ

والحروف مَجَازٌ، وهو مذهبُ قُدماءِ المشايخ، ولهذا عَرَفُوهُ بِأَنَّهُ صِفَةٌ تَجَلَّتْ فِي مَظْهَرِ الحُرُوفِ والأصواتِ، فباعتبارِ المَظْهَرِ حادثٌ، وباعتبارِ صِفَةِ المَظْهَرِ قديمٌ. وثانيهما: أَنَّهُ يُطْلَقُ عليهما بالاشتراك، وهو بالمعنى الأولِ قديمٌ، وبالمعنى الثاني حادثٌ، وهذا هو المشهورُ، والمذهبُ المنصورُ، وتَمَامُ التَّفْصِيلِ يُفْضِي إِلَى التَّطْوِيلِ.

٩٢ - لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ
يعني: لَمْ تَقْتَرِنْ الآيَاتِ الْقَدِيمَةَ وَالْبَيِّنَاتِ الْكَرِيمَةَ بِزَمَانٍ مِنَ الْأَزْمِنَةِ، وَحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ مِنَ الْمَاضِي وَالحَالِ وَالْأَسْتِقْبَالِ؛ لِأَنَّهُ يُلْزَمُ مِنَ الْاِقْتِرَانِ إِمَّا حُدُوثُ الْآيَاتِ أَوْ قَدَمُ الزَّمَانِ، وَهُمَا خِلَافٌ ذَوِقِ أَهْلُ الْعِرْفَانِ، وَالحَالُ أَنَّهَا تُخْبِرُنَا عَنْ أُمُورِ الْمَعَادِ، وَهُوَ عَوْدُ الْخَلْقِ بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْمَ التَّلَاقِ وَالتَّنَادِ، وَعَنْ أُمُورِ السَّعَادِ، وَهُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: (وَعَنْ عَادٍ)؛ أَي: وَعَنْ نَحْوِ قِصَّةِ عَادٍ الْأَوَّلَى وَهُمْ قَوْمٌ هَوْدٍ، وَعَنْ الثَّانِيَةِ وَهِيَ عَادُ إِرَمَ، وَأَمثالُهُ مِنْ نَحْوِ قَوْمِ نُوحٍ وَثَمُودَ.

والمقصودُ: أَنَّ الْمَاضِيَّةَ وَالْأَسْتِقْبَالِيَّةَ الْمَفْهُومِيَّةَ مِنَ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ بِالإِضَافَةِ إِلَيْنَا، وَإِلَّا فَالْكَلَامُ النَّفْسِيُّ مَبْرَأٌ عَنِ الْحُدُوثِ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ لَدِينَا. وأيضاً فيه: أَنَّ الْآيَاتِ كَمَا أَنَّهَا بِالْفَاظِهَا مُعْجِزَةٌ، كَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهَا مِنْ حَيْثُ الإِخْبَارُ عَنِ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ فِي الْأَزْمِنَةِ.

٩٣ - دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ
ضَمِيرُ (جَاءَتْ) رَاجِعٌ إِلَى (كُلِّ مُعْجِزَةٍ) وَهُوَ اكْتَسَى التَّائِيثَ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ. يعني: دَامَتْ وَاسْتَمَرَّتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْمُعْجِزَاتُ الْفُرْقَانِيَّةُ، فَصَارَتْ فَائِزَةً بِسَبَبِ وَصْفِ الْقَدَمِ، وَإِخْبَارِ مَعَادِ عَادٍ وَإِرَمَ، وَعَدَمِ عُرُوضِ السَّخِّحِ وَالتَّبْدِيلِ الَّذِي فِي حُكْمِ الْعَدَمِ، عَلَى كُلِّ مُعْجِزَةٍ حَاصِلَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ وَلَوْ مِنْ نَبِينَا، إِذْ جَاءَتْ وَحَدَّثَتْ

المعجزة، فلا تكون قديمة بصفة موصوفة، ولم تَدُم، فإنَّ مُعْجَزَةً كُلُّ نَبِيٍّ تَنْقُضِي بِمَوْتِهِ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ أي: مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، وَالتَّنْسِخِ وَالتَّحْوِيلِ.

والحاصل: أَنَّ الْآيَاتِ قَدِيمَةً ثَابِتَةً، وَمُعْجَزَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ دَائِمَةٌ، بِخِلَافِ غَيْرِهَا مِنَ الْمَعْجَزَاتِ.

٩٤ - مُحْكَمَاتٌ فَمَا يُبَيِّنَنَّ مِنْ شُبِّهِ لِيَذِي شِقَاقٍ وَلَا يَبْغِينَ مِنْ حَكَمٍ (يُبَيِّنَنَّ) بَضْمُ الْيَاءِ، وَ(يَبْغِينَ) بَفَتْحِهَا، وَ(شُبِّهِ): جَمْعُ شُبْهَةٍ، وَهِيَ بَاطِلَةٌ تُشَبِّهُ الْحَقَّ.

و(الشَّقَاقُ) بِالْكَسْرِ هُوَ ^(١) الْخِلَافُ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْمَخَالِفِينَ يَكُونُ فِي شَقٍّ، أَوْ يَرِيدُ مَشَقَّةَ الْآخَرِ.

و(الْحَكَمُ) بَفَتْحَتَيْنِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ، وَقِيلَ: بِكَسْرِ وَفَتْحٍ: جَمْعُ حَكْمَةٍ. وَ(مُحْكَمَاتٌ) بِالتَّشْدِيدِ مِبَالِغَةٌ: مُحْكَمَاتٌ، وَيُؤَيِّدُهُ رَوَايَةٌ: (وَمُحْكَمَاتٌ) بِالْوَاوِ مَعَ التَّخْفِيفِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ ﴾ [هود: ١]، أَوْ التَّقْدِيرُ: مِنَ الْآيَاتِ مُحْكَمَاتٌ، فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، وَهَذَا الْمَعْنَى أَوْفَقُ، وَبِالسِّيَاقِ أَلْصَقُ.

والمعنى: أَنَّ الْآيَاتِ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى مُحْكَمَةً لَا تُنْسَخُ وَلَا تُبَدَّلُ، أَوْ جَعَلَهَا مُشْتَمِلَةً عَلَى حِكْمٍ وَمَثَلٍ، أَوْ جَعَلَهَا ذَاتَ حُكْمٍ، فَتَحْكُمُ عَلَى كُلِّ مُجْمَلٍ، أَوْ حَاكِمَةٌ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، وَالسُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ، وَالْأَقْيَسَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْإِتِّفَاقَاتِ الْإِجْمَاعِيَّةِ، أَوْ تَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ وَالبَاطِلِ، أَوْ تَحْكُمُ بِالْحُرْمَةِ وَالْجِلِّ،

(١) فِي «د»: «وَهُوَ».

(فَمَا يُبَيِّنُ) وَلَا يُخْلِسَنَّ تِلْكَ الْآيَاتُ شُبْهَةً مِنَ الشُّبُهَاتِ لَذي خِلَافٍ لِلْحَقِّ
مِنَ الْخِلَافِيَّاتِ، (وَلَا يَبْغِيَنَّ)^(١): وَلَا يَطْلُبَنَّ حَاكِمًا يَحْكُمُ بِغَيْرِهَا عَلَيْهَا؛ لظهور
براهينها، أَوْ حَكَمًا زَائِدَةً^(٢) يُحْتَاجُ إِلَيْهَا؛ لَوْضُوحِ قَوَانِينِهَا.

٩٥- مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَامِ
(حُورِبَتْ) مَجْهُولٌ حَارَبَتْ، مِنَ الْمَحَارَبَةِ بِمَعْنَى الْمُعَارَضَةِ، وَالْحَرْبُ
بِفَتْحَتَيْنِ: الشَّدَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ: سَلْبُ الْمَالِ، وَيَلْزَمُ الْمَسْلُوبَ مِنْهُ الشَّدَّةُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ
لُغَةٌ فِي الْحَرْبِ.

و(السَّلَام) بِفَتْحَتَيْنِ: الْإِسْتِسْلَامُ وَالْإِنْقِيَادُ وَالصُّلْحُ.
و(الْأَعَادِي): جَمْعُ الْأَعْدَاءِ، جَمْعُ الْعَدُوِّ، وَ(أَعْدَى) أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنَ الْعَدَاوَةِ.
يَعْنِي: مَا عَارَضَ الْآيَاتِ أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ مِنْ مُعَارَضَتِهَا لِأَجْلِ كَمَالِ
بَلَاغَتِهَا وَفَصَاحَتِهَا أَكْبَرَ الْمُعَارِضِينَ وَأَقْوَى الْمُعَانِدِينَ حَالِ كَوْنِهِ مُلْقِيًا آلَةَ الْمُعَارَضَةِ،
وَمُلْغِيًا حَالَةً^(٣) الْمَعَانِدَةِ، وَمُسْلِمًا لَهَا ظَهْوَرَ الْمَعْجِزَةُ، وَخَرَقَ الْعَادَةَ.

ثُمَّ اعْتَرَأَ الرُّوعَةَ لِلْمُعَارِضِينَ، وَعَجَزُ مُعَارَضَةِ الْمُعَانِدِينَ: هَلْ هُوَ
بِخُرُوجِهِ عَنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ لِإِسْتِمَالِهِ عَلَى جِزَالَةِ الْأَلْفَاظِ وَحُسْنِ الْمَعَانِي مِنْ
كَمَالِ الْفَصَاحَةِ وَكَوْنِهِ عَلَى أَعْلَى طَبَقَاتِ الْبَلَاغَةِ فَيَكُونُ كِلَا حَيَاءِ الْمَوْتَى وَقَلْبِ
الْعَصَا وَتَسْبِيحِ الْخَصَى، أَوْ هُوَ الصَّرْفَةُ وَأَنَّ الْمَعَارَضَةَ كَانَتْ فِي مَقْدُورِهِمْ؟
فَفِيهِ اخْتِلَافٌ أُمَّةٌ أَهْلُ السُّنَّةِ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْأَوَّلِ، وَعَلَيْهِ الْمَعْوَلُ،
وَالثَّانِي مَذْهَبُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَقَدَرَدَّه
الشَّاطِبِيُّ فِي «الرَّائِيَّةِ».

(١) بَعْدَهَا فِي «د»: «وَفِي نَسْخَةٍ: وَمَا يُبَيِّنُ».

(٢) فِي «د»: «زَائِدًا».

(٣) فِي «ل»: «وَمُلْغِيًا حَالًا».

وعلى القولين قد ترك العرب المعارضة بما هو في مقدورهم، أو ما هو من جنس مقدورهم^(١)؛ لعجزهم عن الإتيان بمثله، وإلا لمارضوا في البلاد بالبلاء والجلأ والسبأ والإذلال، والتفريع والتوبيخ وسلب النفوس والأموال، وقد أخبر الله تعالى عن تلك الأحوال بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

٩٦ - رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحُرِّمِ
البلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو أمرٌ يُوجِبُ أَنْ يَتَكَلَّمَ المتكلمُ بكيفيةٍ مخصوصةٍ. وعارض الشيء: قابله به، وسأواه إيَّاه، والحرِّم: جمعُ حُرْمَةٍ؛ كعُرفٍ وعُرْفَةٍ، وهي ما تكونُ في حريمِ الرَّجُلِ.

وفي المضارع الأول إيماءٌ إلى قول الجمهور، وفي الثاني إشعارٌ إلى قول غيرهم، ففيه دلالةٌ على أنه لا مانع من القول بأن هناك وجوهٌ للإعجاز، كما هو مُقررٌ في محله.

يعني: رَدَّتْ ودَفَعَتْ بلاغةُ الآياتِ القرآنية، وفَصَّاحَةُ الكلماتِ الفرقانية، دَعْوَى مُعَارِضِهَا فَضْلاً عن ظهورِ مُعَارِضَتِهَا ووقوعِ مُقَابَلَتِهَا، مثل رَدِّ الموصوفِ بكمالِ الغيرةِ والمنعوتِ بشدةِ الحميةِ مدَّ يدَ الجاني، وتَصَرَّفَ الخائنِ الباغي، عن حَوْلِ حَرِّمِ حَرَمِهِ، وعن الوصولِ إلى حصولِ حَرَمِهِ.

٩٧ - لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ

(١) قوله: «بما هو في مقدورهم، أو ما هو من جنس مقدورهم» الفرق بينهما: تمكُّنهم على الأول منه إلا أنهم صرفوا عنه، وعَدَمُ تَمَكُّنِهِمْ منه على الثاني مع كونه من جنس مقدورهم. قاله المؤلف في «شرح الشفا» (١/ ٧٦٢).

(فَوْقَ) معطوفٌ على (كَمْوَجٍ) صفة (مَعَانٍ) المرفوع بالابتدائية، وَنَضْبُهُ لازِمٌ على الظَّرْفِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ مَجَازِيَّةً، وَنَحْوُهُ فِي كَلَامِ الْحَكِيمِ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

يعني: للآياتِ البَيِّنَاتِ الموصوفاتِ بالمعجزاتِ مع قَطْعِ النَّظَرِ عن فَصَاحَتِهَا وبلاغَتِهَا معانٍ ثابتةٌ كثيرةٌ كموج البحر في الازديادِ وَعَدَمِ النَّقَادِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]؛ يعني: معانيها، وبهذا يزول الإشكال القويُّ الواردُ من جهةِ القَبْلِيَّةِ في الآية كما حَرَزْنَاهُ فِي «حَاشِيَةِ الْجَلَالَيْنِ»^(١)، أو في النُّصْرَةِ والإمدادِ^(٢)، فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كما أَنَّ الْمَوْجَ يُؤَيِّدُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَهَا مَعَانٍ وَأَحْكَامٌ حَسَنَةٌ، وَحِكْمٌ مُسْتَحْسَنَةٌ، فَوْقَ جَوَاهِرِ الْبَحْرِ مِنْ نَحْوِ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمَةِ، عِنْدَ أَرْبَابِ الْبَصِيرَةِ وَأَصْحَابِ الْخَبَرَةِ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنْاسٍ مَشْرَبَهُمْ.

٩٨ - فَلَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ

الفاءُ لِلتَّيَجَةِ، وَفِي نَسْخَةٍ: (فَمَا تُعَدُّ)، وَفِي نَسْخَةٍ: (عَجَائِبُهَا) فَالضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ. (وَلَا تُسَامُ) مِنَ السَّوْمِ؛ أَي: لَا تُقَابَلُ، وَ(عَلَى) بِمَعْنَى: مَعَ، وَيُرْوَى: (وَلَا تُقَاسُ). وَ(الْإِكْثَارُ): الْإِثْنَانُ بِالْكَثِيرِ. وَ(السَّامُ) بِفَتْحَتَيْنِ: السَّامَةُ وَالْمَلَالَةُ.

يعني: معاني الآياتِ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْعَدِّ، وَلَا تُضَبِّطُ مَعَانِيهَا الْعَجِيبَةُ فِي حَيْثِ الْحَدِّ، وَهِيَ الْعِبَرُ وَالْحِكْمُ، وَالْآدَابُ وَالشَّيْمُ، وَالْمَوَاعِظُ وَالْبَرَاهِينُ، وَالْعَوَارِفُ وَالْمَعَارِفُ، وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّرْهيبُ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَالْأَحْكَامُ وَالْأَمْثَالُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا تَعْرِضُ الْمَلَالَةُ بِكَثْرَةِ التَّلَاوَةِ:

(١) فِي هَامِش «ل»: «لِلْمُصَنِّفِ حَاشِيَةُ الْجَلَالَيْنِ».

(٢) قَوْلُهُ: «فِي النُّصْرَةِ وَالْإِمْدَادِ»، مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «فِي الْإِزْدِيَادِ...».

هُوَ الْمِسْكُ مَا كَرَّرْتَهُ يَتَصَوِّعُ^(١)

وفي الحديث: «إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ، وَلَا تَنْقُضِي غَرَائِبُهُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ»^(٢).

وفي البيت إشارة إلى تَفْوِيقِ حُسْنِ مَعَانِيهَا عَلَى جَوَاهِرِ الْبَحْرِ، حَيْثُ يَمْلُ رَاغِبُهَا بِوُجُودِ كَثَرَتِهَا أَوْ كَثْرَةِ قِيمَتِهَا.

٩٩ - قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاغْتَصِمِ سَكَنَ هَمْزَةً (قَارِيهَا) لِلنَّظْمِ، ثُمَّ أُبْدِلْتُ، وَالْقِرَّةُ فِي الْأَصْلِ: الْبُرُودَةُ، وَهِيَ أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَلِذَا يَتَمَنَّى قُرَّةَ الْعَيْنِ وَبَرْدَ الْعَيْشِ.

يعني: فَرِحَ بِهَا قَارِيُّهَا حِينَ قَرَأَتْهَا، وَزَادَ نَوْرُ عَيْنِهِ بِرُؤْيَيْهَا، حَيْثُ تَلَذَّذَ بِتِلَاوَتِهَا، فَقُلْتُ لَهُ عَلَى جِهَةِ الرَّغْبَةِ أَوْ عَلَى طَرِيقِ الْغُبْطَةِ: وَاللَّهِ لَقَدْ ظَفِرْتَ بِمَا يُوَصِّلُكَ إِلَى مَرْضَاتِهِ، وَيُرْقِيكَ إِلَى دَرَجَاتِ جَنَّاتِهِ، فَاسْتَمْسِكْ بِالْفَاظِهَا وَمَبَانِيهَا، وَتَحْقِيقِ مَعَالِمِهَا وَمَعَانِيهَا، وَالْعَمَلِ بِأَمْرِهَا وَمَنَاهِيهَا.

١٠٠ - إِنْ تَلَّهَا خَيْفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَى أَطْفَأَتْ نَارَ لَطَى مِنْ وَرْدِهَا الشِّيمِ (لَطَى) مِنْ أَعْلَامِ جَهَنَّمَ، أَوْ طَبَقَةً مِنْ طَبَقَاتِهَا، وَهِيَ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ، وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ التَّنْوِينَ لِلضَّرُورَةِ فَعَقْلُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْمِيزَانِ؛ إِذِ التَّنْوِينُ وَالْأَلْفُ مُتَسَاوِيَانِ فِي الْوِزْنِ.

(١) عجز بيت صدره كما في «تاج العروس» (مادة: ضوع):

أَعِذْ ذُكْرَ نُعْمَانَ لَنَا إِنْ ذُكِرَ

(٢) رواه الترمذي (٢٩٠٦) من طريق الحارث الأعور الهمداني عن علي رضي الله عنه مرفوعاً،

ثم أعله بقوله: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

قلت: لكن معناه صحيح.

و(لَطَى) الثَّانِيَةُ وُضِعَتْ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لثَلَا يَلْتَمِسُ أَوْ يَحْصُلُ التَّفَكُّيْكَ، وَفِي نَسْخَةٍ: (حَرَّ لَطَى) بَدَلُ: (نَارَ لَطَى)، وَالثَّانِيَةُ أَنْسَبُ بِالْإِطْفَاءِ كَمَا لَا يَخْفَى.

وَالْوَرْدُ يُطْلَقُ عَلَى وَرْدِ الْقُرْآنِ وَعَلَى وَرْدِ الْمَاءِ، فِإِضَافَتُهُ إِلَى الْآيَاتِ يُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ، وَوَضَعُهُ بِ- (السَّبْمِ) - بَفَتْحِ الْمَعْجَمَةِ وَكَسْرِ الْمَوْحَدَةِ؛ أَي: الْبَارِدِ - يُقَوِّي الثَّانِي، فَإِنْ حُمِلَ عَلَى الْأَوَّلِ فَمَعْنَى (السَّبْمِ) هُوَ: الدَّافِعُ لِلْحَرَارَةِ، وَإِنْ حُمِلَ عَلَى الثَّانِي فَتَشْبِيهُ الْآيَاتِ بِهِ لِأَنَّهَا سَبَبُ حَيَاةِ الْأَرْوَاحِ كَمَا أَنََّّهُ مُوجِبُ حَيَاةِ الْأَشْبَاحِ.

يَعْنِي: إِنْ تَقَرَّأَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ، أَوْ تَتَّبَعَ الْأَحْكَامَ الْفُرْقَانِيَّةَ، خَوْفًا مِنْ حَرَارَةِ النَّارِ، مَتَنَزِّلًا عَنْ دَرَجَةِ الْإِخْرَارِ وَالْإِبْرَادِ، أَطْفَأَتْ حَرَّهَا وَدَفَعَتْ ضَرَّهَا مِنْ أَجْلِ مُلَازِمَةِ وَرْدِ الْقُرْآنِ الدَّافِعِ لِحَرَارَةِ النَّيرانِ.

وَفِيهِ اقْتِبَاسٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ: أَنَّهُ إِذَا وَقَفَ الْمُؤْمِنُ عَلَى الصَّرَاطِ تَقُولُ النَّارُ: «جُزْ يَا مُؤْمِنٌ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي»^(١).

١٠١ - كَانَتْهَا الْحَوْضُ تَبْيِضُ الْوُجُوهُ بِهِ مِنْ الْعُصَاةِ وَقَدْ جَاؤُوهُ كَالْحُمَمِ
عَبَّرَ عَنِ الْمَاءِ بِالْحَوْضِ لِأَنَّهُ مَحَلُّهُ، فَيَكُونُ مَجَازًا بِذِكْرِ الْمَحَلِّ وَإِرَادَةِ الْحَالِ، أَوْ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ؛ أَي: مَاءُ الْحَوْضِ، وَهُوَ حَوْضُ الْكَوْثَرِ، وَالْمُرَادُ بِالْوُجُوهِ الدَّوَاتُ؛ إِذْ بَيَّنَّهَا بِالْعُصَاةِ وَشَبَّهَهَا بِالْحُمَمِ - بَضَمِّ الْمَهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْمِيمِ -: جَمْعُ حُمَمَةٍ كَتَهْمَةٍ، وَهِيَ الْفَحْمُ.

يَعْنِي: تِلَاوَةُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَالْعَمَلُ بِالْأَحْكَامِ الصَّمَدَانِيَّةِ، فِي الدَّارِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مُوجِبَةٌ لِبَيَاضِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنُورِ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَنْزِلَةِ حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (٢٢ / ٢٥٨)، وَابْنُ عَدِي فِي «الْكَامِلِ» (٦ / ٣٩٤)، وَابْنُ الْجَوَازِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمُتَنَاهِيَةِ» (١٥٣٢)، مِنْ حَدِيثِ يَعْلَى بْنِ مَنِةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١٠ / ٣٦٠): فِيهِ سَلِيمُ بْنُ مَنْصُورٍ وَابْنُ عِمَارٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ.

فِي الدَّارِ الْآخِرِيَّةِ، حَيْثُ تَبَيَّضَ وَجْهُهُ الْعُصَاةُ بِالْحَوْضِ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ جَاؤُوهُ سُودًا كَالْفَحْمِ، وَفِي حَدِيثِ «الصَّحِيحِينَ»: «فِيُخْرَجُونَ مِنْهَا.. فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ»^(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ»^(٢)؛ أَي: فَيَذْهَبُ السَّوَادُ عَنْهُمْ وَيُظْهَرُ الْبَيَاضُ، وَكَذَلِكَ الْآيَاتُ بِقِرَاءَتِهَا وَالْعَمَلُ بِهَا تَبَيُّضُ الْوُجُوهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

١٠٢ - وَكَالصِّرَاطِ وَكَالْمِيزَانِ مَعْدَلَةً فَالْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمْ
يعني: والآيات كالصِّراطِ فِي أَنَّهَا تُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ، وَكَالْمِيزَانِ مِنْ جِهَةِ الْعَدَالَةِ، حَيْثُ إِنَّهَا تُبَيِّنُ حَقَّ كُلِّ أَحَدٍ كَمَا يَنْبَغِي، وَتَرْفَعُ الْخُصُومَةَ بِالْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَقْرُونِ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَطَلَبُ الْعَدْلِ فِي الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ الْآيَاتِ بَيْنَ النَّاسِ لَمْ يَسْتَقِمْ وَلَمْ يَثْبُتْ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهَا، وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ كُلُّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَيْهَا.

١٠٣ - لَا تَعَجَّبَنَّ لِحَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهْمِ
(الحسودُ) بفتح الحاء: مُبَالِغَةُ الْحَاسِدِ، وَهُوَ الَّذِي يَرِيدُ زَوَالَ نِعْمَةِ الْغَيْرِ.
(وَالْفَهْمُ) بِكسر الهاء؛ أَي: شَدِيدُ الْفَهْمِ.

يعني: لَا تَتَعَجَّبَنَّ وَلَا تَسْتَغْرِبِ الْبَيِّنَةَ مِنْ مُبَالِغٍ فِي الْحَسَدِ عَلَى الْحَسَدِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَبَعْضِ الْمَشْرِكِينَ، حَيْثُ ذَهَبَ يُنْكِرُ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَيَجْعَلُ الْمَعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ، (تجاهلاً)؛ أَي: إِظْهَارًا لِلْجَهْلِ مَعَ الْعِلْمِ بِحَقِيقَتِهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِحَقِيقَتِهَا، وَالْحَالُ أَنَّ هَذَا الْمُنْكَرَ الْمُتَجَاهِلَ عَيْنُ الْمَاهِرِينَ وَخَيْرُ الْفَهْمِينَ بِمَا اشْتَمَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّلَالَاتِ عَلَى صَدَقِ الْجَائِي بِهَا عَنْ اللَّهِ

(١) رواه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى، فإنكارها منه عناداً^(١) له دَعَا إِلَيْهِ الْحَسَدُ عَلَى نِعْمَةِ النُّبُوَّةِ وَمِنْحَةِ الرِّسَالَةِ؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، فلا عَجَبَ في إنكارها للحسد، فإنَّ الموجودَ قد يُنْكَرُ لأمْرٍ؛ كما في قوله:

١٠٤ - قد تُنْكَرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكَرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
(السَّقَمُ) بفتح الحاء: المرض.

يعني: قد تُنْفِي العينُ وجودَ نُورِ الشَّمْسِ مِنْ أَجْلِ عِلَّةٍ بها وإنْ شَاهَدَتْ وَحَقَّقَتْ ضِيَاءَهَا؛ كذلك الآياتُ ظهورُها أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ، وَلَكِنَّ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُهَا، وَالْحَفَّاشُ^(٢) لَا يُدْرِكُهَا، وَالرَّمْدَانُ لَا يَبْغِيهَا، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ نُقْصَانِ الرَّائِي نُقْصَانُ الْمَرْئِيِّ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد يُنْكَرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ اللَّذِيذِ الْمُتَعَارَفِ الْمَعْرُوفِ بِأَنَّهُ حَيَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ، مِنْ أَجْلِ عِلَّةٍ سَقَمَ تَمْنَعُهُ عَنْ إِدْرَاكِ لَذَّتِهِ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مُزْمَنٌ لَا يَنْفَعُهُمْ شِفَاءُ الْقُرْآنِ، وَلَا يَسْتَلِذُّونَ بِطَعْمِ الْفُرْقَانِ، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو كَالنَّيْلِ مَاءٌ لِلْمَحْجُوبِينَ وَدُمَاءٌ لِلْمَحْجُوبِينَ، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا.

ثُمَّ أَلْتَقَتْ مِنْ نَعْتِ الْمَمْدُوحِ إِلَى خُطَابِهِ، فَقَالَ:

١٠٥ - يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمُ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ سَعِيًّا وَفَوْقَ مُتُونِ الْأَيْتَنِ الرُّسَمِ

(يَمَّمُ): قَصَدَ، وَ(الْعَافُونَ): جَمْعُ الْعَافِي، هُوَ السَّائِلُ، وَ(السَّاحَةُ): الْعَرَصَةُ، وَ(سَعِيًّا) حَالٌ بِمَعْنَى: سَاعِيْنِ، وَ(فَوْقَ) عَطْفٌ عَلَيْهِ بِمَعْنَى: كَاتِبَتَيْنِ فَوْقَهَا.

(١) فِي «د»: «عَنَادًا».

(٢) فِي هَامِش «ل»: «حَفَّاشٌ طَيْرٌ لَيْسَ لِلشَّمْسِ رَائِيًّا».

و(الْمُتُونُ): جمعُ المتن وهو الظَّهْرُ.

و(الْأَيْتُق) بتقديم الياءِ على النُّونِ: مقلوبُ الْأَيْتُقِ، أصلُه: أَنْوُقُ، قُدِّمَتْ
الواوُ ثُمَّ قُلِبَتْ ياءٌ لِمَزِيدِ الْخِفَّةِ^(١)، جمعُ النَّاقَةِ.

و(الرُّسْم) بضمَّتَيْنِ، وهي الإِبْلُ التي تُؤَثِّرُ في الأرضِ مِنْ شِدَّةِ الوَطْءِ.

والمعنى: يا سَيِّدَ مَنْ قَصَدَ السَّائِلُونَ ساحةَ كَرَمِهِ، وَتَوَجَّهَ الطَّالِبُونَ إلى
فِضَاءِ حِلْمِهِ وَحُكْمِهِ، مُسْرِعِينَ على إقْدَامِهِمْ، وَمُسْتَعِجِلِينَ على أَقْدَامِهِمْ،
وَرَاكِبِينَ فوقَ ظُهُورِ النَّاقَاتِ القَوِيَّةِ، كَهَيْئَةِ حُجَّاجِ الكَعْبَةِ العَلِيَّةِ: ﴿يَأْتُونَكَ رِجَالًا
وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (١٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴿[الحج: ٢٧]
ذُنُوبِيَّةً وَأُخْرُوبِيَّةً، بِمِشَاهِدَةِ بَيْتِ اللَّهِ العَتِيقِ.

وفيه إشارةٌ إلى تعميمِ تَوَجُّهِ أنواعِ السَّائِرِينَ إلى حَضْرَتِهِ، وَقَصْدِ أَصْنَافِ
السَّالِكِينَ إلى خِدْمَتِهِ، مِنَ القَرِيبِ والبَعِيدِ في مَسَافَةِ الطَّرِيقِ، والقَوِيِّ والضَّعِيفِ
في الوُسْعِ والضَّيْقِ، والفَقِيرِ والغَنِيِّ على المَجَازِ والتَّحْقِيقِ.

١٠٦ - وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى لِمُعْتَمِرٍ
مَعْطُوفٌ عَلَى الْمُنَادَى، وَ(الْآيَةُ): الْعَلَامَةُ تَصَدَّقُ عَلَى الدَّلِيلِ، يَعْتَبَرُ بِهَا
وَيُقَيَّسُ مِنْهَا مَنْ يَرِيدُ أَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَ(النِّعْمَةُ) بِمَعْنَى: الْمُنْعَمُ بِهِ.
وَفِي الْمِصْرَاعِ الْأَوَّلِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
[الشورى: ٥٢]، وَيُوضِّحُهُ الْبَيْتُ الْآتِي:

كَفَّاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأَمِّيِّ مُعْجِزَةً

(١) كلام المؤلف فيه نظر، فقولُه: «مقلوبُ الْأَيْتُقِ» يدل على أن الواو قُلبت ثم قدمت، وهو عكس قولُه
بعده: «قدمت الواو ثم قُلبت»، فلعلهما وجهان في التعليل، وقد اقتصر ابن الأثير على الثاني فقال:
الْأَيْتُقُ: جمعُ قَلَّةٍ لِنَاقَةٍ، وَأَصْلُهُ: أَنْوُقُ، فَقُلِبَ وَأُبْدِلَ واوُهُ ياءً. انظر: «النهاية» (مادة: نوق).

وفي المضراع الثاني إيماء إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وبه صلى الله تعالى عليه وسلم فُسرَ قوله تعالى: ﴿فَكَفَرْتَ بِأَنعَمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢] بصيغة الجمع لإفادة المبالغة.

ومُجْمَلُ معناه: أَنَّ مَنْ تَأَمَّلَ فِي مَبْنَاهُ؛ مِنْ خَلْقِهِ الْخَلِيقِ، وَخُلُقِهِ الْحَقِيقِ، وَتَدَبَّرَ فِي جَمِيلِ أَثَرِهِ، وَحَمِيدِ سِيرِهِ، وَبِرَاعَةِ عِلْمِهِ، وَرَجَاحَةِ حِلْمِهِ، وَجُمْلَةِ كَمَالِهِ، وَجِلَّةِ خِصَالِهِ، لَمْ يَمْتَرِ فِي صَحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وَلَمْ يَشْكْ فِي صِدْقِ دَعْوَتِهِ، فَيَغْتَنِمُ بِوُجُودِهِ^(١) وما ظَهَرَ مِنْ عِلْمِهِ وَجُودِهِ.

وتكرارُ النداء^(٢) لإظهارِ الرِّغبةِ في الإصغاء، وجوابُ النداءِ قوله:

١٠٧ - سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كما سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
سَرَى لَغَةً فِي أَسْرَى، بِمَعْنَى: سَارَ فِي اللَّيْلِ، وَ(لَيْلًا) نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ^(٣)، وَذَكَرَهُ لِلتَّأَكُّيدِ، وَتَنْكِيرُهُ لِلتَّغْلِيلِ، وَالْمُرَادُّ مِنْ (حَرَمٍ) الْأَوَّلِ: حَرَمُ مَكَّةَ شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَمِنِ الثَّانِي: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، وَلَيْسَ لَهُ حَرَمٌ، فَالْمُرَادُّ بِهِ: مَكَانٌ مُحْتَرَمٌ.

و(دَاجٍ) اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الدُّجُوِّ، وَهُوَ شِدَّةُ الظُّلْمَةِ، صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ؛ أَيْ: لَيْلٍ دَاجٍ، وَ(مِنْ) بَيَانِيَّةٌ، وَ(الظُّلَمِ) بَضْمٌ فَفَتْحٌ: جَمْعُ ظُلْمَةٍ.

والمعنى: سَرَيْتَ بِإِسْرَاءِ اللَّهِ تَعَالَى سُرَى عَجِيبًا، وَسَيْرًا غَرِيبًا؛ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] مِنَ الْحَرَمِ الْمُحْتَرَمِ الْمَكِّيِّ، فِي سَاعَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ لَيْلَةٍ جَلِيلَةٍ، إِلَى الْحَرَمِ الْمُعْظَمِ الْقُدْسِيِّ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ

(١) فِي «د»: «وُجُودِهِ».

(٢) قَوْلُهُ: «وَتَكَرَّرَ النِّدَاءُ»، كَذَا فِي النُّسخَتَيْنِ، وَلَمْ أَجِدْ فِي الْكَلَامِ السَّابِقِ تَكَرُّارًا لِلنِّدَاءِ، وَإِنَّمَا الَّذِي تَكَرَّرَ هُوَ الْمَوْصُولُ.

(٣) فِي «ل»: «الظَّرْفِ».

قوله عز وجل: ﴿مَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] كَسْرِيَانِ
البدر وهو القمر في أوانٍ كمالٍ ظُهوره، وعلوُّ جمالِ نُوره، في وقتِ الخفاءِ عن
الأغيار، تحتِ قِيَابِ الأستار.

ووجهُ الشبهة: سرعةُ السَّيرِ في الوصولِ إلى المَقام، وكَمالُ الإضاءةِ في
شدةِ الظَّلام، والمرادُ بالظُّلْمَةِ حينئذٍ مع وجودِ البدرِ المتبادِرِ إلى فَهَمِ بعضِ
فُضلاءِ زماننا أَنَّهُ يَقْتَضِي التَّنَاقُضَ وَيُوجِبُ التَّعَارُضَ: هو الظُّلْمَةُ بالقُوَّةِ لولا نُورُ
البدرِ في الطُّلُعَةِ، على أَنَّ اللَّيْلَ لَا يَخْلُو مِنْ نَوْعِ ظُلْمَةٍ مع حُصولِ نورِ البدرِ في
الجُمْلَةِ، كما أشارَ إليه سبحانه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ أَلِيلِ
وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ونُقل: أَنَّ سِيرَهُ وَرُجُوعَهُ كانَ في ثلاثِ ساعاتٍ أو أربع، وهذا القَدْرُ من
المعراجِ بجسمِهِ وحالِ يقظته^(١) بالإجماع، ومُنْكَرُهُ كافرٌ بلا نزاع، وأَمَّا مُنْكَرُ ما
فوقه، وهو الذي يُذَكِّرُ بعده، فَيُعَدُّ مِنْ أَهْلِ الْإِيتِدَاعِ.

١٠٨ - وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرْمَ
(بِتَّ) ماضٍ مُخاطَبٌ مِنَ الْبَيْتُوتَةِ، وفي نسخة: (وظَلَّتْ) بفتحِ الظَّاءِ وكسْرِها،
أصلُهُ: ظَلَلْتَ بمعنى: صِرْتَ. و(تَرْقَى) بفتحِ القافِ؛ أي: تَصْعَدُ.
(وَنِلْتَ) معروفٌ مِنَ النَّيْلِ بمعنى الوصولِ، أو مجهولٌ مِنَ النَّوْلِ بمعنى العطاءِ،
والأَوَّلُ أَظْهَرُ، وفي الرِّوَايَةِ أَشْهَرُ.

والقَابُ: القَدْرُ، رُويَ بالجَرِّ على الإعرابِ، وبالنَّصْبِ على الحِكايةِ، وهو
أَقْرَبُ إِلَى الصَّوابِ. و(مِنْ) بَيَانِيَّةٌ. و(لَمْ تُدْرِكْ) مجهولٌ مِنَ الإدراكِ. و(لَمْ تُرْمَ)
مِنَ الرُّومِ وهو القَصْدُ.

(١) في «د»: «اليقظة».

يعني: كنت في تلك اللَّيْلَةِ الْخَفِيَّةِ، تَرْتَقِي وَتَصْعَدُ فِي الْمَعَارِجِ الْجَلِيَّةِ، وَالْمَصَاعِدِ السَّنِيَّةِ، باختراقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِيَّةِ، إِلَى أَنْ وَصَلْتَ مَنْزِلَةً عَلِيَّةً، وَمَرْتَبَةً بَهِيَّةً، هِيَ قَدْرُ قُرْبِ قَوْسَيْنِ، عِنْدَ تَلَاقِي الطَّرْفَيْنِ، مِنْ رَبِّ الْكَوْنَيْنِ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ كَمَالِ الْقُرْبِ، وَالْمَرَادُ: قُرْبُ الْمَكَانَةِ لَا الْمَكَانَ؛ لِتَرْتُّهِ تَعَالَى عَنِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ، أَوْ يُقَالُ: مِنْ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، أَوْ مِنْ مَقَامِ الْوَحْيِ عَلَى وَجْهِ الْاِمْتِنَانِ. وَتَرَكَ: (أَوْ أَذْنَى) بِمَعْنَى: بَلْ أَقْرَبُ إِلَى الْمَلِكِ الْأَعْلَى، مِنْ ضَرُورَةِ الشُّعْرَاءِ، وَفِي حِكَايَةِ الْمَقْدَمِ إِشْعَارًا بِالْوَرَاءِ.

(لَمْ تُدْرِكْ) تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ الْعَلِيَّةَ، بِالْمَكَاسِبِ الْاجْتِهَادِيَّةِ، مِنَ الْفَضَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُمْ بِالْمَوَاهِبِ اللَّدُنِّيَّةِ، وَلَمْ تُقْصَدْ وَلَمْ تُطْلَبْ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ الْجَلِيَّةُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَضْلًا عَنِ الْأَوْلِيَاءِ.

وَاخْتَلَفَ فِي هَذَا التَّرْقِي: هَلْ كَانَ جِسْمَانِيًّا، أَوْ رُوحَانِيًّا؟ وَهَلْ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِ الْبَصَرِ أَوْ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ؟ وَمَتَى كَانَ، وَكَمْ كَانَ، وَكَيْفَ كَانَ؟ مِنْ تَفَاصِيلِ قِصَّةِ الْمَعْرَاجِ، يُعْرَفُ مِنْ كُتُبِ السِّيَرِ لِأَهْلِ الْاِخْتِيَاجِ.

١٠٩ - وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ (الرُّسُلِ) مَجْرُورٌ عَلَى الصَّحِيحِ، وَهُوَ بِسُكُونِ السَّيْنِ مُخَفَّفُ الْمَضْمُونِ: جَمْعُ رَسُولٍ، وَهُوَ أَخْصَصُ مِنَ النَّبِيِّ.

يعني: وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَسَائِرُ الْأَصْفِيَاءِ بِسَبَبِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ وَالْمَرْتَبَةِ الْجَلِيَّةِ، تَقْدِيمًا مِثْلَ تَقْدِيمِ الْمَخْدُومِ عَلَى الْخُدَّامِ، وَتَسْلِيمِ الْمُقْتَدِنِ فِي الْأَحْوَالِ بِالْإِمَامِ.

وَاخْتَلَفُوا أَنَّ الْإِمَامَةَ كَانَتْ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى؟ وَلَا مَنَعَ مِنَ الْجَمْعِ إِيْمَاءٌ إِلَى مَقَامِ الْجَمْعِ فِي عَالَمِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ، بِتَوْفِيقِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.

١١٠ - وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مَوْكَبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ
الواوُ حَالِيَّةٌ، وَالخَرْقُ: الْمُرُورُ، وَالْعُدُولُ إِلَى الْمَضَارِعِ اسْتِحْضَارُ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ،
وَالْمَوْكَبُ بِكَسْرِ الْكَافِ: جَمَاعَةُ الْفَرَسَانِ، وَالْعَلَمُ: الرَّايَةُ، وَيُقْرَأُ (فِيهِ) بِالْإِشْبَاعِ.

يعني: وَأَنْتَ تَقْطَعُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ الَّتِي يُطَابِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، أَوْ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، حَالٌ كَوْنِكَ مَارًّا بِالْأَنْبِيَاءِ أَوْ
بَأَرْوَاحِهِمْ، فَفِي «مُسْلِمٍ»: أَنَّهُ مَرَّ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِآدَمَ، وَبِالثَّانِيَةِ بَعِيسَى وَيَحْيَى، وَفِي
الثَّالِثَةِ بِيُوسُفَ، وَفِي الرَّابِعَةِ بِإِدْرِيسَ، وَفِي الْخَامِسَةِ بِهَارُونَ، وَفِي السَّادِسَةِ بِمُوسَى،
وَفِي السَّابِعَةِ بِإِبْرَاهِيمَ^(١)، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالتَّحِيَّةُ وَالْإِكْرَامُ، فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ مَصْحُوبٍ
بِهَيْبَةٍ عَظِيمَةٍ وَهَيْئَةٍ كَرِيمَةٍ؛ إِذْ كَانَ مَعَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَعْبَرُ عَنْهُ بِالْجَمْعِ؛ كَقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ فَإِنَّهُ فُسِّرَ بِجَبْرِيلَ، أَوْ أَقِيمَ مُقَامَ جَمْعٍ مِنَ
الْكَرَامِ، وَقَوْمٍ مِنَ الْعِظَامِ.

(كُنْتَ فِيهِ)؛ أَي: فِي ذَلِكَ الْمَوْكَبِ (صَاحِبَ الْعَلَمِ)؛ أَي: الْمُسَارِ إِلَيْهِ،
وَالْمَدَارَ عَلَيْهِ.

وَالْعَلَمُ: الرُّمْحُ فِي رَأْسِهِ رَايَةٌ؛ لِيَكُونَ عَلَى صَاحِبِ الْمُلْكِ عِلَامَةً وَآيَةً،
وَقَدْ كَانَ جَبْرِيلُ يَسْتَفْتِحُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ بِالتَّمَجِيدِ الْمُتَمَجِّدِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ مَعَكَ؟
فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ.

١١١ - حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَأْوًا لِمُسْتَتَقٍ مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا تَرْفَى لِمُسْتَتِمٍ
(حَتَّى) غَايَةً لِلَاخْتِرَاقِ، وَ(إِذَا) ظَرْفِيَّةٌ مَجَازِيَّةٌ؛ أَي: أَنْتَ دَخَلْتَ الْبَابَ وَقَطَعْتَ
الْحِجَابَ، إِلَى أَنْ لَمْ تَتْرُكْ غَايَةً لِسَاعٍ إِلَى السَّبْقِ مِنْ كِمَالِ الْقُرْبِ الْمُطْلَقِ إِلَى جَنَابِ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحق، ولا تَرَكْتَ موضعَ رُفِّيَّ وُصُعود، وقيامٍ وقُعود، لطالبِ رِفْعَةٍ في عالمِ الوجود، بل تجاوزتَ ذلك إلى مقامِ قابِ قَوْسَيْنِ أو أَذْنَى، فأَوْحَى إليك رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ ما أَوْحَى.

١١٢ - خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

هذا لبيانِ اختصاصِهِ بالدُّنُو المُشَارِ إليه بقوله: ﴿أَوَّاذَنْ﴾ [النجم: ٩]، وبالمَحَبَّةِ الدَّائِيَةِ الإِلَهِيَّةِ التي هي أعلى المَقَاماتِ وأَعْلَى.

وقوله: (خَفَضْتَ) جوابُ (إِذَا) على تقديرِ شَرْطِئِهَا، وبدلٌ مِنْ قوله: (لَمْ تَدْعُ) على تقديرِ ظَرْفِئِهَا، والخَفَضُ: حَطُّ رُتْبَةٍ، وَجَعْلُ شَيْءٍ تَحْتَ شَيْءٍ، ومنه الخَفَضُ في الإعرابِ.

والإِضَافَةُ: الإِلصَاقُ والنَّسْبَةُ، و(إِذْ) متعلِّقٌ بـ (الإِضَافَةِ).

والمعنى: خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ وَمَرْتَبَةٍ مِنْ مَقَاماتِ الأنبياءِ، وَمَرَاتِبِ الأَصْفِياءِ، بِبِرَّةٍ إِضَافَتِكَ إِلَى الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ، وَنَسَبَتِكَ إِلَى المَحَبَّةِ البَهِيَّةِ، أَوْ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَقَامِكَ الجَلِيِّ، وَبِالنَّسْبَةِ إِلَى حَالِكَ العَلِيِّ، حِينَ نَادَاكَ بِالرَّفْعِ إِلَى المَقَامِ الأَعْلَى، المُعَبَّرِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ فِي التَّعْظِيمِ، وَالمُشَارِ إِلَيْهِ المَشْهُورِ بِالتَّكْرِيمِ، فِيمَا أُفْرِدَ بِهِ مِنْ بَيْنِ^(١) أَفْرَادِ جِنْسِهِ، وَتَمَيَّزَ عَنْ أَقْرَانِهِ بِإِمْدَادِ نَسْبِهِ.

وَلَا يَخْفَى مَا فِي البَيْتِ مِنَ الصِّفَةِ الإِيمَانِيَّةِ إِلَى الاضْطِلَاحَاتِ النَّحْوِيَّةِ^(٢)؛ مِنْ الخَفَضِ وَالرَّفْعِ وَالإِضَافَةِ وَالتَّوَادُّعِ وَالمُفْرَدِ وَالْعَلَمِ وَالمُنَاسَبَاتِ الجَلِيلَةِ.

١١٣ - كَيْمَا تَفُوزَ بِوَضَلٍ أَيْ مُسْتَتِرٍ عَنْ الْعُيُونِ وَسِرٍّ أَيْ مُكْتَمٍ

عِلَّةٌ غَائِيَّةٌ لِقَوْلِهِ: (سَرَيْتَ) وَ(بِتَّ)؛ أَيْ: فَعَلْتَ ذَلِكَ الْمُتَهَيِّ^(٣) إِلَى مَنزَلَةِ قَابِ

(١) كلمة: «بين» من «د»، وليست في «ل».

(٢) في هامش «ل»: «بل فيه صنعة التوحيد، وتفصيله في شرح عقود الجمان نظم التلخيص».

(٣) في «ل»: «المنهي».

قَوْسَيْنِ أَوْ أَذْنَى لـ (تَفَوَّزَ بَوْصِلٍ) مِنَ اللَّهِ، وَقَطَعَ عَمَّا سِوَاهُ، (أَيُّ مُسْتَرٍّ عَنِ الْعُيُونِ)؛
أَيُّ: عَنِ عُيُونِ الْخَلْقِ (وَسِرٍّ)؛ أَيُّ: وَبِحَصُولِ سِرٍّ عَظِيمٍ مِنْ أَسْرَارِ الْمَحْبُوبِ، وَمِنْ
آثَارِ الْمَطْلُوبِ (أَيُّ مُكْتَتَمٍ)؛ أَيُّ: خَفِيٍّ عَنِ أَبْصَارِ الْأَغْيَارِ.

و(أَيُّ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ مَجْرُورٌ صِفَةً لِمَا قَبْلَهَا، دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَى الْكَمَالِ؛
أَيُّ: بَوْصِلٍ كَامِلٍ فِي الْاِسْتِتَارِ، وَسِرٍّ كَامِلٍ فِي الْاِكْتِتَامِ.

و(تَفَوَّزَ) مَنْصُوبٌ بـ (أَنْ) مُقَدَّرَةٌ بَعْدَ (كَي) بِمَعْنَى اللَّامِ، أَوْ بـ (كَي) بِمَعْنَى
(أَنْ) وَاللَّامُ مُقَدَّرَةٌ قَبْلَهَا، وَ(مَا) زَائِدَةٌ عَلَى الْوَجْهَيْنِ.

قَالَ الشَّيْخُ جَلَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ: وَهَذَا السِّرُّ مَأْخُودٌ مِنْ حَدِيثٍ: «عَلَّمَني رَبِّي
لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عِلْمًا شَتَّى، فَعِلْمٌ أَخَذَ عَلَيَّ كَتَمَانَهُ، وَعِلْمٌ خَيْرَنِي فِيهِ، وَعِلْمٌ أَمَرَنِي أَنْ
أُبْلِغَهُ» قَالَ عَلِيٌّ: فَكَانَ يُسِرُّ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَإِلَيَّ مَا خَيْرٌ فِيهِ. ذَكَرَهُ جَمْعٌ
مِنَ الشُّرَاحِ، وَلَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى أَصْلٍ فِي كِتَابِ الْحَدِيثِ.

وَلَا يُنَافِي مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ مَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّ وَبَرَأَ
النَّسْمَةَ، إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. قُلْتُ: وَمَا
فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: الْعَقْلُ، وَفَكَأُكَ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ^(١) لَأَنَّ
هَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَبْلِيغِ النَّاسِ، وَذَلِكَ فِي غَيْرِهِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

ثُمَّ فِي الْبَيْتِ إِيْمَاءٌ إِلَى رُؤْيَيْهِ لِرَبِّهِ، وَمُنَاجَاتِهِ بَلْبِهِ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي أَنَّهُ رَأَاهُ بَعِينُهُ
أَوْ بِقَلْبِهِ، أَوْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ فِي مُنَاجَاتِهِ وَأَنَّهُ نَاجَى رَبَّهُ أَوْ
جِبْرِيلَ، وَالْأَصْلُ فِيهِمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، عَلَى مَا يَبَيِّنُ فِي التَّفَاسِيرِ.

وليس المراد من القُربِ والوصلِ القُربَ المكانيَّ والوصلَ الصُّوريَّ، بل ظهورُ عَظَمِ مَنْزِلَتِهِ وإشراقِ أنوارِ مَعْرِفَتِهِ، ومشاهدةُ أسرارِ غَيْبِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، والتَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِهِ، وَقَصْرُ النَّظَرِ عَلَى مُطَالَعَةِ جَمَالِهِ وشُهُودِ كَمَالِهِ.

١١٤ - فُحِزَتْ كُلُّ فَخَّارٍ غَيْرِ مُشْتَرَكٍ وَجُزَّتْ كُلُّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحَمٍ

(حُزَّتْ) و(جُزَّتْ) كلاهما على وزن: قُلْتُ، والأوَّلُ بالحاءِ المهملةِ مِنْ حَازَهُ: جَمَعَهُ، والثَّانِي بِالْجِيمِ مِنْ جَازَهُ؛ أَي: تَجَاوَزَ عَنْهُ.

وَالْفَخَّارُ بِكَسْرِ الْفَاءِ: مَا يُفْتَخَرُ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْفَوَاضِلِ وَالشَّمَائِلِ، أَوْ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمُفَاخَرَةِ، وَ(غَيْرِ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ إِمَّا مَجْرُورٌ صِفَةً لِمَا قَبْلَهُ^(١)، وَإِمَّا مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ (كُلُّ)، أَوْ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ. وَالْمُشْتَرَكُ وَالْمُزْدَحَمُ اسْمَا مَفْعُولٍ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ.

قِيلَ: الْمُرَادُ مِنَ الْفَخَّارِ الْغَيْرِ الْمَشْتَرَكِ: مِثْلُ الْوَسِيلَةِ وَالْفَضِيلَةِ وَالذَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَالْكُوْثَرِ، وَالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَاللَّوَاءِ الْمَمْدُودِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمِنَ الْمَقَامِ الْغَيْرِ الْمُزْدَحَمِ: مَقَامُ الْمَحَبَّةِ، وَخَتَمُ النُّبُوَّةِ، وَالْمِعْرَاجِ، وَالرَّسَالَةِ الْعَامَّةِ، وَأَمْثَالُهَا.

أَوْ الْمُرَادُ: مَقَامَاتُ الْعَارِفِينَ الْوَاصِلِينَ، الْمَسْمُوءَةُ عَنْدهُمْ: مَنَازِلُ السَّالِكِينَ وَالسَّائِرِينَ، الَّتِي لَا يُمَكِّنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، وَلَا الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُدْرِكَهَا فَلْيَجَاهِدْ لِيُشَاهِدَ، فَإِنَّ الْخَبَرَ لَيْسَ كَالْمُعَايَنَةِ، وَالْمُقَابَلَةُ لَيْسَتْ كَالْمُبَايَنَةِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَاتُ تَنْتَهِي بِالْفَنَاءِ فِي التَّوْحِيدِ، وَالِاسْتِغْرَاقِ فِي بَحْرِ التَّفْرِيدِ، وَقَانَا اللَّهَ مِنْ حِجَابِ الْإَيْنِ إِلَى قِبَابِ الْعَيْنِ.

(١) فِي النُّسخَتَيْنِ: «بَعْدَهُ»، وَالصُّوَابُ الْمَثْبُت.

١١٥- وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا أُؤْلِيَتْ مِنْ رُتَبٍ وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُؤْلِيَتْ مِنْ نِعَمٍ^(١)
(وُؤْلِيَتْ)؛ أي: جُعِلَتْ والياءُ، و(أُؤْلِيَتْ)؛ أي: أُعْطِيَتْ وإفياً، والإدراكُ: الإحاطةُ
بالشيءِ ذاتاً وصفةً، والمِقْدَارُ: ما يُقَدَّرُ به كَيْفِيَّةً وَكَمِّيَّةً، والرُّتَبُ: جَمْعُ الرُّتْبَةِ، والنَّعَمُ:
جَمْعُ النِّعْمَةِ.

قيل: المصراعُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾
[النجم: ١٠]، والثاني عبارةٌ عن قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]،
وفي تفخيمِهما إيماءٌ إلى أنَّ الأفهامَ تَحِيرَتْ عن تفصيلِ تفسيرِ ما أَوْحَى،
والأحلامَ تاهَتْ في تَبْيِينِ تَعْيِينِ الآيَاتِ الْكُبْرَى.

١١٦- بُشِّرَى لَنَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا مِنْ الْعَنَاءِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ
(بُشِّرَى) مصدرٌ أُريدَ به ما يَحْصُلُ به مِنَ الْمَسَرَّةِ الْمُغَيَّرِ لِلْبَشَرَةِ، وهي الحالةُ
الطَّيِّبَةُ وَالْبَهْجَةُ الصَّالِحَةُ، وَنَضَبُ (مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ) على الاختصاصِ؛ كما في قوله
صلى الله تعالى عليه وسلم: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ»^(٢).

وقيل: هو هنا منادى.

و«إِنَّ» بالكسرِ للتعليلِ.

والمرادُ مِنَ الْعَنَاءِ: الْأَلْطَافُ الْخَفِيَّةُ الْأَزَلِيَّةُ الَّتِي تُورِثُ السَّعَادَاتِ الْجَلِيلَةَ الْأَبَدِيَّةَ.
وَرُكْنُ الشَّيْءِ: جُزْؤُهُ الَّذِي يَسْتَنْدُ عَلَيْهِ، وَمَرْجِعُهُ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ.

(١) وقع في «د»:

«وعز إدراك ما وليت من رتب وجل مقدار ما أوليت من نعم»
ومثله في «ل» مع التبديل بين «أوليت» و«وليت»، وقد صحح في هامش كلا النسختين كما هو مثبت.
(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (٦٢٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: «إننا معاشر الأنبياء
لا نورث»، وهو عند البخاري (٦٧٢٨)، ومسلم (١٧٥٧)، دون قوله: «إننا معاشر الأنبياء».

والمعنى: تَبَاشِيرُ صُبْحِ السَّعَادَةِ وَالْإِقْبَالِ، وَمَنَاشِيرُ الْبُشْرِ وَالْبِشَارَةِ وَالْإِجْلَالِ، أَشْرَقَتْ وَنُشِرَتْ لِمَعَاشِرِ الْإِسْلَامِ، مِنْ أَقْوَامِ الْعَرَبِ وَجَمَاعَاتِ الْأَعْجَامِ، حَيْثُ خُصُّوا بِرُكْنَيْنِ مَتِينَيْنِ، وَدِينٍ نَاسِخٍ رَاسِخٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

١١٧ - لَمَّا دَعَا اللَّهُ دَاعِيَنَا لَطَاعَتِهِ بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ

(دعا) بمعنى: سَمَّى، و(الله) فاعله، و(داعينا) مفعوله، وسكونُ الياءِ ضرورةٌ، وقد جاءَ في غيرِ الضرورةِ أيضاً في قولهم: أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا، و(لَطَاعَتِهِ) متعلِّقٌ بـ (داعينا)، واللَّامُ بمعنى: إِلَى، وَضَمِيرُهُ لِلَّهِ، و(بَأَكْرَمِ) متعلِّقٌ بـ (دعا)، و(الرُّسُلِ) بسكونِ السَّيْنِ لُغَةً فِي ضَمِّهَا: جَمْعُ رَسُولٍ.

وقيل: (دَاعِيَنَا) بَدَلٌ مِنَ الْفَاعِلِ، و(لَطَاعَتِهِ) متعلِّقٌ بـ (دعا)، وكذا قوله: (بَأَكْرَمِ الرُّسُلِ)؛ إِذْ هُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى.

ومعنى قوله: (كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ)؛ أَي: عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ شَرَفَ الْأُمَّةِ لَشَرَفِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أَي: أَنْتُمْ.

وَالنَّاظِمُ أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً، إِلَى أَنَّ الْمَفْهُومَ مِنْ كَوْنِ الْأُمَّةِ مَوْصُوفَةً بِنِعَتِ الْخَيْرِيَّةِ، أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُمْ مَنَعُوتاً بِنِعَتِ الْأَكْرَمِيَّةِ، وَلَكِنْ عَكَّسَ الْقَضِيَّةَ الْاسْتِدْلَالِيَّةَ^(١)؛ إِجْلَالاً لِمَرْتَبَةِ الرِّسَالَةِ الْعَلِيَّةِ الْمُصْطَفَوِيَّةِ الْمُرْتَضَوِيَّةِ، فَإِنَّ كَوْنَنَا خَيْرَ أُمَّةٍ مِنْ بَقِيَّةِ جَائِزَتِهِ، وَجَدَّوْى مُتَابِعَتِهِ، فَإِنَّ تَكْرِيمَ التَّبَعِ مِنْ تَكْرِيمِ الْمَتَّبُوعِ، عَلَى مُقْتَضَى الْمَعْقُولِ وَالْمَشْرُوعِ.

وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْمَعْرَاجِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ حَصُولِ الْوُصُولِ وَبَلُوغِ الْمُنَى

(١) فِي هَامِشٍ «ل»: «بَلْ أَشَارَ النَّازِمُ إِلَى الدَّلِيلِ اللَّمِّيِّ اسْتِدْلَالاً مِنَ الْعِلَّةِ إِلَى الْمَعْلُولِ فِي الْمُؤَثِّرِ لَا الْأَثَرِ، فَافْهَمْ».

والمُراد، شَرَعَ في بيانِ غَزَوَاتِهِ وشَجَاعَةِ سِرَاتِهِ في مَجَاهِدَةِ الْجِهَادِ، وَمُكَابَدَةِ الْكِبَادِ^(١)،
لِدَفْعِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، وَالزَّيْغِ وَالْفَسَادِ، فَقَالَ:

١١٨ - رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَى أَنْبَاءُ بَعْثِهِ كُنْبَاءُ أَجْفَلَتْ غُفْلًا مِنَ الْغَنَمِ
الرَّوْعُ بمعنى التَّخْوِيفِ، وَ(الْعِدَى) بِكسْرِ الْعَيْنِ مَقْصُورًا: اسْمُ جَمْعٍ لِلْعَدُوِّ،
وَالْأَنْبَاءُ: جَمْعُ النَّبَأِ: وَهُوَ الْخَبْرُ الَّذِي فِيهِ شَأْنٌ، وَالبِئْثَةُ: الرِّسَالَةُ، وَالنَّبَأُ: صَوْتُ الْأَسَدِ،
وَالْإِجْفَالُ: الْإِزْعَاجُ عَدُوًّا وَاضْطِرَابًا، وَالْغُفْلُ بِضَمِّ الْمَعْجَمَةِ: جَمْعُ غَافِلٍ، كَبُرْلٍ وَبَازِلٍ.
المعنى: خَوَّفَتْ أَخْبَارُ بُيُوتِهِ وَأَثَارُ رِسَالَتِهِ قُلُوبَ أَعْدَاءِ الدِّينِ، مِنَ الْكُفَّارِ
وَالْمُشْرِكِينَ، مِثْلَ صَيْحَةِ الْأَسَدِ أَفْرَعَتِ الْأَغْنَامَ الْغَافِلَةَ، حَيْثُ تَنْزَعِجُ وَتَفْرِقُ
بِمَجَرَّدِ صَوْتِهِ بَدُونِ سَطْوَتِهِ.

وَقِيْدَ الْغَفْلَةُ لَزِيَادَةِ تَأْثِيرِ الْهَيْبَةِ.

وفيه إشارةٌ إلى حديثِ «الصَّحِيحِينَ»: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»^(٢).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ شَهْرَيْنِ»^(٣).

والمَرَادُ بِهِ مَا فِي «شرح العُمْدَةِ»، لِابْنِ الْمُثَنِّ: وَرَوَيْنَا: «وَنُصِرْتُ
بِالرُّعْبِ شَهْرًا أَمَامِي وَشَهْرًا خَلْفِي»^(٤)، وَيُقَاسُ بِذَلِكَ الْيَمِينُ وَالشَّمَالُ، فَيَكُونُ
الْمَرَادُ بِالْأَوَّلِ: شَهْرًا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

١١٩ - مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ حَتَّى حَكَّوْا بِالْقَنَّا لَحْمًا عَلَى وَضَمِّ

(١) قوله: «الكِبَادِ»، لَعَلَّه جَمْعُ الْكَبْدِ بِمَعْنَى الشَّدَةِ، وَالْمُكَابَدَةُ مُصْدَرُ كَابَدَهُ بِمَعْنَى قَاسَاهُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى:
وَمُقَاسَاةَ الشَّدَائِدِ.

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٠٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «...
وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ حَتَّى إِنَّ الْعَدُوَّ لِيَخَافُونِي مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ...». وَرَوَى فِيهِ أَيْضًا
(١١٠٥٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ: نُصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ عَلَى عَدُوِّهِ.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٦٦٧٤)، من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه. قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي
«مَجْمَعِ الزَّوَادِ» (٨ / ٢٥٩): فِيهِ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فُرُوهٍ وَهُوَ مَثْرُوكٌ.

(يَلْقَاهُمْ) يُقْرَأُ بإشباع الميم، و(المُعْتَرَك) على صيغة المفعول بمعنى: المعركة، وحكاة: شابهه، و(القَنَا): الرُمح، و(الوَصَم) بفتح المعجمة: خَشَبٌ يَقْطَعُ الْقَصَابُ اللَّحْمَ فَيَضَعُهُ عَلَيْهِ لِيُرْغَبَ فِيهِ الْمُشْتَرِي.

يعني: ما زال النبي عليه السلام جاهداً أعداء الإسلام في كل معركة وملحمة ومقام، حتى تركهم قتلى على رؤوس القنا مشابهين اللحم الموضوع على الخشب المعلق من السماء، عبرة للنَّاظرين، ونزهة للمتفرجين.

وفي تشبيه الأصحاب بالقصاب والكفار بالغنم مبالغة في كمال شجاعة أحبائهم، ودلالة على ضعف وجبن قلوب أعدائهم.

١٢٠ - ودُّوا الفِرَارَ فكادُوا يَغِيْطُونَ بِهِ أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعُقْبَانِ وَالرَّخِمِ الْغِيْطَةُ: إرادة نعمة مع عدم إرادة زوالها عن صاحبها، و(أشلاء) كأشياء: جمع شلُو بكسر الشين، وهو العضو، و(شالت) بمعنى: ارتفعت، و(العقبان) بكسر العين: جمع عُقَابٍ بالضَّمِّ، وهو والرحمة نوعان من الطير يقعان على السميتة يأكلان منها ويحولان لفرخهما^(١).

يعني: الكفار تمنَّوا الفرار عن سيد الأبرار وسند الأخيار، الذي يتمنون خدمته الأحرار، فقاربوا - من كمال نفرتهم وضعف غفرتهم^(٢) - أن يتمنوا أن يحصل لهم مثل ما حصل للأعضاء، حيث ارتفعت بها الطيور إلى الهواء؛ ليخلصوا من جهاد سيد الأنبياء وأصحابه سادات الأولياء.

(١) في «ل»: «ياكلان منهما ويحولان لفرخهما»، والمثبت من «د»، وهو الصواب.

(٢) في «د»: «غفرتهم» بالعين المهملة، والمثبت من «ل»، ولعله يريد به: جمعهم، من قولهم: جاؤوا جَمًّا غَفِيرًا، وَجَمَّ الْغَفِيرُ، وَجَمَاءَ الْغَفِيرِ، وَجَمَّ الْغَفِيرَةُ، وَجَمَاءَ الْغَفِيرَةِ، ونحوها، والمعنى: جاؤوا جميعاً. انظر: «القاموس» (مادة: غفر).

١٢١- تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ^(١)

أي: تَمُرُّ اللَّيَالِي بِأَيَّامِهَا، وَتَنْقُضِي الْأَوْقَاتُ بِأَعْلَامِهَا، وَلَا يَعْلَمُ الْكَفَّارُ عِدَّتَهَا، مِنْ شِدَّةِ هُمُومِ اجْتِهَادِهِمْ بِمُجَاهَدَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَسَابِ عِدَّتِهَا، مَا لَمْ تَكُنْ اللَّيَالِي مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَهِيَ: رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ، فَإِنَّهُمْ يَذُرُونَهَا بِإِمْسَاكِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقِتَالَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ.

وَفِي الْعُدُولِ عَنِ الْأَوْقَاتِ أَوْ الْأَيَّامِ إِلَى (اللَّيَالِي) إِيْمَاءٌ إِلَى سُوءِ حَالِ أَوْقَاتِهِمْ؛ فَإِنَّ ظُلْمَةَ الزَّمَانِ وَسَوَادَهُ كُنَايَةً عَنْ ذَلِكَ، أَوْ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ حَالَهُمْ فِي اللَّيَالِي الَّتِي هِيَ مَكَانُ رَاحَتِهِمْ، وَزَمَانُ اسْتِرَاحَتِهِمْ، كَانَتْ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ زَمَانُ أَيَّامِهِمِ الْمَشُوشَةِ الْمَشْهُومَةِ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْكُدُورَاتِ، وَأَصْنَافِ الضَّرُورَاتِ؟!

١٢٢- كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَى قَرِمِ (القَرْمِ) بَفَتْحِ الْقَافِ وَشُكُونِ الرَّاءِ: السَّيِّدُ، وَبِكَسْرِ الرَّاءِ: شَدِيدُ الْأَشْتِهَاءِ إِلَى اللَّحْمِ.

أي: إِنَّمَا الْكَفَّارُ وَقَعُوا فِيْمَا وَقَعُوا مِنْ وَهْنِهِمْ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ مَثَلٌ فِي أَعْيُنِهِمْ بِتَمَثَالِ سُلْطَانٍ نَزَلَ ضَيْفًا فِي سَاحَةِ دَارِهِمْ، مُسْتَوِلِيًّا عَلَى حَيْطَةِ بِلَادِهِمْ وَدِيَارِهِمْ، وَمَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ كُلُّ سَيِّدٍ مُطَاعٍ حَرِيصٍ لِأَكْلِ^(٢) الْأَعْدَاءِ، وَسَنَدِ شَجَاعِ مَهِيْبٍ فِي عَيُونِ الْأَشْقِيَاءِ، فَلَمْ يَعْلَمُوا مَا هُوَ، فَقَلِقُوا وَتَاهُوا.

وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ الدِّينَ مِمَّا يَجِبُ الْقِيَامُ بِخِدْمَتِهِ لَوْصُولِهِ، وَالْإِغْتِنَامُ لِمَظْهَرِهِ^(٣) وَحُصُولِهِ، وَإِلَّا فَلَهُ الْإِنْتِقَالُ إِلَى قُلُوبِ أَرْبَابِ الْكَمَالِ.

(١) وَقَعَ هَذَا الْبَيْتُ فِي النُّسخَتَيْنِ مُقْتَرَنًا مَعَ الْبَيْتِ السَّابِقِ، وَحَقُّهُ أَنْ يَكُونَ هُنَا، فَلِذَلِكَ أَثْبَتْنَاهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

(٢) فِي «ل»: «كُلْ».

(٣) فِي «ل»: «لِحُضْرَتِهِ».

وفيه إشعارٌ بأنَّ الصَّجَرَ مِنَ الضَّيْفِ وأهلِ الارْتحالِ، دَيَّدَنُ الكَفَّارِ والجُهَّالِ.

١٢٣ - يَجْرُ بِحَرِّ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمٍ

الجرُّ: الجَذْبُ والقَوْدُ، والخميسُ: جيشٌ كبيرٌ له خمسةُ أركانٍ: مُقدِّمةٌ، وساقَةٌ، وقلبٌ، ومِمنةٌ ومِيسرةٌ. والجيشُ يشبهُ بالبحرِ في المَهَابَةِ والجَرَّانِ، والإِهْلَاكِ واللِّمْعَانِ، وتَمَوْجٌ بعضُهُ ببعضٍ في المِيدَانِ والهَيِجَانِ، وجَرَّارُ العَسْكَرِ: مَنْ يَرْدُونَ في الهِجَاءِ بِحُكْمِهِ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَمْرِهِ.

و(فَوْقَ سَابِحَةٍ) صِفَةُ (بحر)؛ أي: طائفةٌ جاريةٌ مِنَ الفَرَسِ والإِبِلِ، وكذا (يَرْمِي بِمَوْجٍ)، والباءُ لِلتَّعْدِيَةِ؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿تَرْمِي بِشَكْرٍ﴾ [المرسلات: ٣٢]، والضميرُ في (يَرْمِي) إِلَى الْبَحْرِ أَوِ الْخَمِيسِ، لَا إِلَى السَّابِحَةِ كَمَا تُوهَّمُ.

والمَوْجُ: مَا يَحْصُلُ مِنَ التَّلَاطُمِ والاضْطِرَابِ، وَ(مِنْ) بَيَانِيَّةٌ، وَ(مُلْتَطِمٍ) صِفَةُ (مَوْجٍ)؛ أي: ضاربٌ بعضُهُ على بعضٍ مِنْ شِدَّةِ الهَيِجَاءِ وَقُوَّتِهِ، وَاللِّتْطَامُ هُنَا: مُصَادَمَةُ الْأَبْطَالِ عِنْدَ الْمُسَابَقَةِ، وَاضْطِكَاكُ أَسْلِحَتِهِمْ.

وَالْأَبْطَالُ: جَمْعُ بَطْلٍ، وَهُوَ الشُّجَاعُ.

والمعنى: مَا زَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْرُ جُنْدًا مَخْمَسًا مُشَبَّهًا بِبَحْرِ مَوْجٍ يَجْرِي عَلَى خِيُولٍ رَائِضَةٍ وَنُوقٍ خَائِضَةٍ فِي مِيدَانِ الْمَعَارِكِ وَمُضْمَارِ الْمَهَالِكِ، تُقْبَلُ وَتُدْبَرُ فِي أَوَانِهِ وَمَكَانِهِ، وَتُوصَلُ وَتَحْمَلُ فِي زَمَانِهِ، وَذَلِكَ الْبَحْرُ يَرْمِي مَوْجًا مُتَلَاطِمًا بَتَلَاخِقٍ، وَهُوَ الْأَبْطَالُ الَّتِي تَتَصَادَمُ وَتَتَسَابِقُ، وَتَتَصَاكُكُ أَسْلِحَتُهُمْ وَتَتَلَاصِقُ.

١٢٤ - مِنْ كُلِّ مُتَدَبِّ لِّلَّهِ مُحْتَسِبٍ يَسْطُو بِمَسْأَلٍ لِلْكَفْرِ مُضْطَلِمٍ

يَقَالُ: نَدَبَهُ: دَعَاهُ، وَانْتَدَبَ: أَجَابَ، وَأَمَّا مَا قَالَ الْجَلَّالُ الْمَحَلِّيُّ مِنْ أَنَّهُ بَفَتْحِ الدَّالِّ بِمَعْنَى: مَدْعُوٌّ^(١)، فَهُوَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ. وَأَعْرَبَ الشَّيْخُ زَكَرِيَّا حَيْثُ تَبَعَهُ وَلَمْ

(١) فِي «د»: «المدعو».

يَتَعَقَّبُهُ، فِي «الْقَامُوسِ»: نَدَبُهُ إِلَى الْأَمْرِ - كَنَصَرَهُ -: دَعَاهُ وَحَثَّهُ وَوَجَّهَهُ، وَ«انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ»^(١)؛ أَي: أَجَابَهُ إِلَى عُفْرَانِهِ^(٢).

وَالِاخْتِسَابُ: طَلَبُ الثَّوَابِ وَالِاجْتِهَادُ فِي تَحْسِينِ النِّيَّةِ وَتَحْصِيلِ الْإِخْلَاصِ، وَالْحِسْبَةُ: الْأَجْرُ.

قِيلَ: (لِلَّهِ) مُتَعَلِّقٌ بِـ (مُحْتَسِبٍ)، وَالْأَظْهَرُ تَعَلُّقُهُ بِـ (مُتَدَبِّ)؛ لِأَنَّ الْاِخْتِسَابَ مَفْهُومٌ مِنْ بَنِيَّةِ الْاِخْتِسَابِ، بِخِلَافِ الْاِنتِدَابِ، وَيَحْتَمِلُ التَّنَازُعُ. وَ(يَسْطُو)؛ أَي: يَصُولُ، وَاسْتَأْصَلَهُ: قَلَعَهُ مِنْ أَصْلِهِ، وَاصْطَلَمَهُ: أَهْلَكَهُ.

و(مِنْ كُلِّ) بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: (مِنْ الْأَبْطَالِ)، أَوْ بَيَانٌ لَهَا^(٣)، وَهُوَ الْأَوْجَهُ، فَإِنَّ هَذَا الْبَيْتَ مَسْوقٌ لَوْصِفِ تِلْكَ الْأَبْطَالِ بِالْهَمِّ الْعَالِيَةِ وَالْمَقَاصِدِ الْغَالِيَةِ، كَمَا أَنَّ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مَسْوقٌ لَوْصِفِ الْجَيْشِ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ، وَجُودَةِ الْعُدَدِ، وَغَايَةِ الْمَدَدِ، وَنَهَايَةِ الْمُدَدِ. يَعْنِي: أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ، الْمَهْرَةُ فِي إِبْطَالِ أَهْلِ الضَّلَالِ، هُمْ كُلُّ مُجِيبٍ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ بِالرَّغْبَةِ الْكَامِلَةِ، وَمُجْتَهِدٍ فِي إِخْلَاصِ النِّيَّةِ بِالْحِسْبَةِ الشَّامِلَةِ، يَصُولُ وَيَجُولُ، وَيَقْوَتُهُ وَبِقُدْرَتِهِ تَعَالَى يَحُولُ، مُلْتَبِسًا بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ وَأَهْلِهِ، وَمُضْطَلِمٍ لِلْبَاطِلِ مِنْ أَصْلِهِ وَنَسْلِهِ؛ مِنْ آلَاتِ الْقِتَالِ مِنْ سَيْفٍ وَنَبْلِ وَنَضْلِهِ.

١٢٥ - حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ

(حَتَّى) غَايَةٌ لـ (يَجْرُ)، وَ(هِيَ بِهِمْ) جَمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَ(مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ) صِفَةٌ مَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: ذَاتَ رَحِمٍ مَوْصُولَةٌ لِلرَّحِمِ، وَهِيَ خَبْرٌ لـ (غَدَتْ).

(١) رَوَاهُ بِهَذَا اللَّفْظَ الْبُخَارِيُّ (٣٦) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٧٦) بِلَفْظٍ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ...».

(٢) انْظُرْ: «الْقَامُوسُ» (مَادَّة: نَدَب).

(٣) كَلِمَةٌ: «لَهَا» مِنْ «د» وَلَيْسَتْ فِي «ل».

وَالرَّحِمُ: الْقَرَابَةُ.

وَصِلَةُ الرَّحِمِ: رَعَايَةُ الْأَقَارِبِ بِصِلَةٍ أَوْ زِيَارَةٍ أَوْ تَعَهُدٍ أَوْ تَفَقُّدٍ، وَنَحْوَهَا مِمَّا يَلْتَمِسُونَ مِنْهُ، وَوَرَدَ: «صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ»^(١).

(وَمِنْ بَعْدِ مُتَعَلِّقٍ بِـ (عَدَتْ).

وَالْمَعْنَى: مَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْرُ الْعِجُوشَ وَالسَّرَايَا، وَيُجِيفُ الْخِيُولَ وَالْمَطَايَا، حَتَّى صَارَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَالْحَالُ أَنَّهَا مُلْتَبَسَةٌ بِهِمْ، لَا يُفَارِقُهُمْ شِدَّةُ الْقِرَاعِ، وَلَا كَثَرَةُ الدَّفَاعِ، وَبَقِيَتْ ذَاتُ شَوْكَةٍ وَأَعْوَانٍ، بَعْدَ كَوْنِهَا غَرِيبَةً ذَاتَ عَجْزٍ وَهَوَانٍ. فَالْمُرَادُ مِنَ الْغُرْبَةِ وَالْوُصْلَةِ لَازِمُهُمَا فِي الْمَقَامِ، أَعْنَى: الْإِهَانَةُ وَالْإِكْرَامُ.

وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢)، ضَبِطَ (بَدَأَ) بِالْهَمْزَةِ؛ أَي: جَاءَ وَظَهَرَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَقُومُونَ بِهِ، فَهُوَ مَقْطُوعُ الرَّحِمِ، ثُمَّ قَامَ بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، فَوَصَلُوا رَحِمَهُ وَشَكَرُوا نِعَمَهُ.

١٢٦ - مَكْفُولَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرٍ أَبٍ وَخَيْرٍ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَتَمْ (مَكْفُولَةٌ) خَبَرٌ ثَانٍ لـ (عَدَتْ)، أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحذُوفٌ، هُوَ: هِيَ، وَمَعْنَاهَا: مَحْفُوظَةٌ، فَضْمِيرُ (مِنْهُمْ) رَاجِعٌ إِلَى الْكُفَّارِ، أَوْ: مُتَكَفِّلَةٌ، فَالضَّمِيرُ إِلَى (الْأَبْطَالِ) الْأَبْرَارِ، وَفِي نَسْخَةٍ: (مِنْهُ)، فَالضَّمِيرُ إِلَى النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ.

(١) رَوَاهُ ابْنُ عَدِي فِي «الْكَامِلِ» (٦/ ١٥٨) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ فِي «ذَخِيرَةِ الْحِفَاطِ» (٣/ ١٥٢٤): رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأَنْصَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو، وَمُحَمَّدُ مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي الطَّفِيلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٨/ ١٥٢): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَفِيهِ رَاوُلٌ بِسَمٍ. وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٨/ ١٥٢): رَوَاهُ الْبِزَارُ، وَفِيهِ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْبَرَاءِ الْغَنَوِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٦) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ويريدُ بالأبِ والبعلِ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، وبعدهُ الخلفاءُ الرَّاشِدِينَ وبعدهمُ العلماءُ
المجتهدِينَ والأمرَاءُ الْمُجَاهِدِينَ.

وَيُقَالُ: يَتِمُّ الْوَلَدُ - بِكَسْرِ الْفَوْقَانِيَّةِ - يَتِمُّ بِفَتْحِهَا: إِذَا مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ صَغِيرٌ،
وَأَمَّتِ الْمَرْأَةُ تَتِمُّ - كَبَاعَتْ تَبِيعُ -: إِذَا خَلَّتْ مِنْ زَوْجِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُوا
الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وفي قوله: (أبدًا) إيماءٌ إلى أَنَّهَا مَصُونَةٌ عَنِ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ.
والمعنى: صَارَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ مَحْفُوظَةً بِكِفَالَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنْ يَجْعَلَهَا دَائِمًا فِي حِصَانَةِ مُرَبِّ مُشْفِقٍ، وَحِمَايَةِ
قِيَمٍ مُزْفِقٍ، بَلْ هِيَ أَبَدًا مَنْصُودَةٌ بِأُولِي الْأَمْرِ وَأُولِي الْعِلْمِ، أَصْحَابِ الْعَدْلِ وَالْكَرَمِ
وَالْحِلْمِ، مَصُونَةٌ بِحِمَايَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ، فَنِعْمَ الْكَفِيلُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

١٢٧ - هُمُ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ ماذا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُضْطَمِّمٍ

(هُمُ الْجِبَالُ) مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ^(١) الْبَلِيغِ؛ كَمَا فِي: زَيْدٌ الْأَسَدُ، وَوَجْهُ الشَّبَّهِ:
الثَّبَاتُ وَالتَّمَكُّينُ وَالْقَرَارُ مِنْ غَيْرِ فِرَارٍ، وَالصَّلَابَةُ وَالْعِظَمَةُ، وَالْهَيْبَةُ وَالْمَعْدِنِيَّةُ.

وَالْمُصَادِمَةُ: الْمُقَارَعَةُ، وَالْمُضْطَمِّمُ: مُصْدَرٌّ، أَوْ اسْمٌ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ. وَ(مَاذَا
رَأَى) بَدَلٌ مِنْ ضَمِيرِ (عَنْهُمْ): (هُمْ)^(٢).

و(مِنْهُمْ) فِي الْبَيْتِ يُقْرَأُ بِالْإِشْبَاعِ.

وَالْفَاءُ فِي (فَسَلْ) جَوَابُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: إِنْ لَمْ تُصَدِّقْنِي فَاسْأَلْ عَنْهُمْ
مُصَادِمَهُمْ، فَإِنْ مُصَادِمَ الْجِبَالِ يَنْكَسِرُ وَيَهْلِكُ، أَوْ يَتَأَخَّرُ وَيَنْهَزِمُ فِي الْمَالِ، وَسَلْ عَنْهُمْ

(١) فِي «د»: «تَشْبِيهِ».

(٢) كَلِمَةُ: «هُمْ» مِنْ «د»، وَلَيْسَتْ فِي «ل».

ماذا رَأَوْا مِنَ الرَّجَالِ كَالْجِبَالِ؛ مِنَ الثَّبَاتِ فِي الشَّدَّةِ، وَالصَّبْرِ فِي الْمِحْنَةِ، وَالشُّكْرِ فِي الْمِنْحَةِ، فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ وَزَمَانٍ حَرَكَةٍ.

وفي نسخة: (مُصَادِمُهُمْ) بفتح الدال^(١)؛ أي: مَوَاضِعَ حَرْبِهِمْ، و(ماذا رَأَى) بصيغة الإفراد؛ أي: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْكِنَةِ، وَهُوَ أُنْسَبُ بِالْبَيْتِ الْآتِي عَلَى طَرِيقِ الْعَطْفِ التَّفْسِيرِيِّ، أَوْ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ.

١٢٨ - وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أُحُدًا فُصُولَ حَتْفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الرَّخَمِ

حَنِينٌ وَإِيبَنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ، وَبَدْرٌ: مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَأُحُدٌ: جَبَلٌ بِقَرَبِ الْمَدِينَةِ.

و(فُصُولَ) بدلٌ، أَوْ خَبَرٌ مَحذُوفٌ^(٢)؛ أي: اسْأَلْ أَهْلَ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ، مِنَ الَّذِينَ اطَّلَعُوا عَلَى وَقَائِعِ تِلْكَ الْأَزْمِنَةِ، حَيْثُ وُجِدَ فِيهَا أَنْوَاعُ هَلَاكِ لِلْأَعْدَاءِ، وَأَنْوَاعُ بَلَاءٍ أَشَدُّ إِصَابَةً مِنَ الْوَبَاءِ، وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْغَزَوَاتِ فِي كِتَابِ السِّيَرِ مَسْطُورٌ، وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ مَذْكُورٌ.

قيل: ذَكَرَ أُحُدٌ غَيْرُ مَنَاسِبٍ؛ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الْهَزِيمَةِ.

وَأُجِيبَ: بِأَنَّ الشَّجَاعَةَ إِنَّمَا تُعْرَفُ حَالُ الْكَسْرِ بِالثَّبَاتِ وَالتَّحَفُّظِ، وَأَيُّ شَجَاعَةٍ أَقْوَى مِنْ حَالِهِمْ أَنْ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ ثَبَّتُوا حَتَّى رَجَعَ الْكَفَّارُ خَائِبِينَ إِلَى بِلَدِهِمْ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِسْتِثْصَالِ، بِعَوْنِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْمُتَعَالِ.

وَالْأَحْسَنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ غَلَبُوا^(٣) أَوَّلًا، ثُمَّ لَمَّا تَفَرَّقُوا فِي غَنَائِمِهِمْ وَتَرَكَ رُمَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْمَرَكَزَ وَمَحَلَّ الْقَرَارِ، اخْتَالَ الْكَفَّارُ بَعْدَ الْفِرَارِ، وَدَخَلُوا مِنْ وَرَائِهِمْ،

(١) فِي النِّسَخَتَيْنِ: «بِفَتْحِ الْمِيمِ»، وَهُوَ سَهْوٌ أَوْ سَبْقٌ قَلَمٍ.

(٢) فَإِنْ كَانَتْ بَدَلًا مِنَ الْأَمْكِنَةِ الثَّلَاثَةِ فَهِيَ مَنْصُوبَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ خَبَرًا فَهِيَ مَرْفُوعَةٌ.

(٣) فِي «د»: «غَلَبُوهُمْ».

فَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ قِتَالِهِمْ، وَمَعَ هَذَا ثَبَّتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّحْفِظِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَالتَّخْلُصِ مِنْ اسْتِثْصَالِهِمْ، فَالْعَلْبَةُ لَهُمْ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَبَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ^(١).

١٢٩- الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَ مَا وَرَدَتْ مِنْ الْعِدَى كُلِّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللَّمَمِ أَصْدَرَهُ عَنِ الْمَنْهَلِ: أَخْرَجَهُ، وَأَوْرَدَهُ فِيهِ: أَدْخَلَهُ، وَوَرَدَ فِيهِ: دَخَلَ. وَ(مَا) مَصْدَرِيَّةٌ.

و(الْمُصْدِرِي) مضافٌ إِلَى (الْبَيْضِ)، وَلِهَذَا أُسْقِطَ^(٢) ثَوْنُهُ، وَهُوَ^(٣) مَنْصُوبٌ بِتَقْدِيرٍ: أَمْدَحُ.

و(الْبَيْضِ): السُّيُوفُ الْمَصْقُولَةُ، وَيَجُوزُ نَصْبُهُ كَمَا قُرِئَ فِي: (وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ)^(٤)، وَحُذِفَ الثَّوْنُ تَخْفِيفًا.

و(حُمْرًا) حَالٌ مِنَ (الْبَيْضِ)؛ أَي: مُلَطَّخَةٌ بِالْدَّمَاءِ.

و(مِنْ الْعِدَى) حَالٌ مِنَ (كُلِّ)، وَ(مِنْ) لِلتَّبْعِيضِ، وَهُوَ^(٥) مَفْعُولٌ (وَرَدَتْ).

و(مِنْ اللَّمَمِ) بَيَانُ (مُسْوَدٍّ)، وَ(اللَّمَمِ): جَمْعُ لِمَمَةٍ، وَهِيَ الشَّعْرَةُ الْمُسْتَرْسِلَةُ إِلَى الْمَنْكِبِ وَالْمَرَادُ: مَنَبَتُهَا، وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْكَفَّارَ الْمُقْتُولِينَ غَالِبُهُمْ شَبَابٌ.

١٣٠- وَالكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكْتُ أَقْلَامَهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرِ مُنْعَجِمٍ

(الكَاتِبِينَ) عَطْفٌ عَلَى (الْمُصْدِرِي)؛ أَي: الطَّاعِنِينَ (بِسُمْرِ الْخَطِّ) وَهِيَ الرِّمَاحُ: جَمْعُ أَسْمَرٍ، وَ(الْخَطِّ) شَجَرُهَا، وَقِيلَ: مَوْضِعٌ بِالْيَمَامَةِ يُجَلَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْهِنْدِ،

(١) فِي «د»: «عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرًا».

(٢) فِي «ل»: «سَقَطَ».

(٣) أَي: «الْمُصْدِرِي».

(٤) هِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ أَبِي إِسْحَاقَ كَمَا فِي «الْمَخْتَصَرِ فِي شَوَازِ الْقُرْآنِ» لِابْنِ خَالَوَيْهِ (ص ٩٧).

(٥) أَي: «كُلِّ».

(ما تَرَكْتَ أَقْلَامُهُمْ)؛ أي: أَسِنَّةُ رِمَاحِهِمْ (حرفَ جِسْمٍ) مِنَ الْكُفَّارِ؛ أي: طَرَفَهُ (غير مُنْعَجِمٍ)؛ أي: بلا أَثَرٍ، و(غير) بِالنَّصْبِ صِفَةً لـ (حَرْفٍ)، وبِالْجَرِّ صِفَةً لـ (جِسْمٍ).
والجُمْلَةُ الْمَنْفِيَّةُ حَالٌ مِنْ (سُمِرَ) عَلَى رِوَايَةٍ: (أَقْلَامُهَا)، وَمِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي (الكَاتِبِينَ) عَلَى رِوَايَةٍ: (أَقْلَامُهُمْ)؛ أي: غَيْرَ تَارِكَةٍ أَقْلَامُهُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً اسْتِثْنَائِيَّةً.

وقيل: (ما) مَوْصُولَةٌ مَفْعُولٌ لـ (الكَاتِبِينَ) وَالْعَائِدُ إِلَى (ما) مَحذُوفٌ.

وَلَا يَخْفَى مَا فِي طَيِّ الْبَيْتَيْنِ مِنْ لَطَائِفِ الْعِبَارَةِ، وَظَرَائِفِ الْإِشَارَةِ، وَمُجْمَلُ مَعْنَاهُمَا: أَنَّ الْأَصْحَابَ، الَّذِينَ هُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ، بِتَوْفِيقِ رَبِّ الْأَزْوَاجِ، يُورَدُونَ السُّيُوفَ فِي أَعْنَاقِ الْأَعْدَاءِ مُبَيَّضَةً، وَيُصْدِرُونَهَا بِتَلَطُّحِ دِمَائِهِمْ مُحْمَرَّةً، وَيَكْتُبُونَ عَلَى صَفَحَاتِ^(١) رِقَاعٍ وَجُوهِهِمْ مَنشُورَ الْخَسَارِ بِأَقْلَامِ الرِّمَاحِ الْخَطِيئَةِ الْمَائُونَةِ عَنِ الْأَنْكِسَارِ، وَمَا تَرَكْتَ هَذِهِ الْأَقْلَامُ طَرَفَ جِسْمٍ مِنْهُمْ مُهْمَلَةٌ بِلا نُقْطَةٍ، وَلَا مَنِيَتْ شَعْرٍ مِنْهُمْ مُجْمَلَةٌ بِلا طَعْنَةٍ.

١٣١ - شَاكِي السَّلَاحِ لَهُمْ سَيِّمًا تُمَيِّزُهُمْ وَالْوَرْدُ يَمْتَارُ بِالسَّيِّمِ مِنَ السَّلَمِ

(شَاكِي السَّلَاحِ) صِفَةٌ (الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ) أَوْ بَدَلٌ أَوْ حَالٌ مِنْهُ؛ أَي: تَامِيهِ، وَقِيلَ: حَادِيهِ، وَهُوَ اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الشُّوْكِ بَعْدَ الْقَلْبِ.

وَالسَّيِّمُ: هِيَ الْعَلَامَةُ، وَالسَّلَمُ: شَجَرٌ يُشَبِّهُ شَجَرَ الْوَرْدِ، وَيَمْتَارُ الْوَرْدُ عَنْهُ بِحُسْنِ الْخَلْقَةِ وَبِهَاءِ الْمَنْظَرِ وَطَيْبِ الرَّائِحَةِ، وَقِيلَ: شَجَرٌ ذُو شَوْكِ يَكُونُ فِي الْبَادِيَةِ، وَقِيلَ: مُطْلَقُ الشَّجَرِ.

وَالْمَعْنَى: هَؤُلَاءِ الشُّجْعَانُ أَصْحَابُ سَيِّدِ الْأَبْرَارِ، بِإِمْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَإِعْدَادِ الْقُوَّةِ، أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ بِالتَّوَاضُّعِ وَالْأَنْكِسَارِ، وَالْكَرَمِ وَالْإِيثَارِ، يَمْتَارُونَ فِي

(١) فِي «د»: «صَفَحَاتِ».

عَيْنِ الْأَحْبَاءِ مِنَ الْأَعْدَاءِ بِحُسْنِ السِّمَاءِ، كَمَا يَمْتَارُ الْوَرْدُ مِنَ الشَّجَرِ، وَالشَّجَرُ مِنَ الثَّمَرِ، فَهُمْ أَزْهَارُ حَدَائِقِ الْوُجُودِ، سَيِّمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ.

١٣٢ - تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمْ فَتَحَسِبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلِّ كَمٍ يُقْرَأُ الْبَيْتُ بِإِشْبَاعِ ضَمَّةٍ مِيمٍ (نَشْرَهُمْ)، وَ(تَحَسِبُ) بِكسْرِ السَّيْنِ وَفَتْحِهَا، وَالْإِهْدَاءُ: إِرْسَالُ الْهَدِيَّةِ، وَالْمَرَادُ بِرِيَّاحِ النَّصْرِ: بَرَكَاتُهُ وَتَمَرَاتُهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِالرِّيَّاحِ الدَّوَلَاتُ، قَالَ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَاعْتَزَمْنَهَا فَعُقْبَى كُلِّ عَاصِفَةٍ سُكُونُ^(١)
وَالْمَرَادُ بـ (نَشْرَهُمْ): أَخْبَارُهُمُ الطَّيِّبَةُ، وَ(الْأَكْمَامِ): جَمْعُ كِمٍّ بِكسْرِ الْكَافِ، وَهُوَ الْغِلَافُ، وَ(الْكِمِّيُّ): الشُّجَاعُ، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ، فَقِيلَ: خُفِّفَ لِلضَّرُورَةِ.
وَقَوْلُهُ: (فَتَحَسِبُ الزَّهْرَ) مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ الْمَقْلُوبِ؛ أَي: فَتَحَسِبُ كُلَّ كِمِّيٍّ فِي الدَّرُوعِ زَهْرًا فِي الْأَكْمَامِ، وَفِيهِ ادِّعَاءٌ أَنَّ نَشْرَهُمْ أَخَذَ^(٢) الْمَسَامَ، بِحَيْثُ كُلَّمَا وَصَلَ إِلَيْهَا رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ تَظُنُّهَا نَشْرَهُمْ.

وَقِيلَ: (كُلُّ كِمِّيٍّ) مَفْعُولٌ أَوَّلٌ لَتَحَسِبُ، وَمَا قَبْلَهُ الثَّانِي.

وَالزَّهْرُ فِي أَكْمَامِهِ أَحْسَنُ مَنْظَرًا، وَأَطْيَبُ رَائِحَةً مِنْهُ خَارِجَ الْأَكْمَامِ.

١٣٣ - كَانَتْهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رَبِي مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ الرَّبِّي: جَمْعُ رَبْوَةٍ بِتَثْنِيتِ الرَّاءِ، وَهِيَ: مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَنَبْتُهَا أَثْبَتُ فِي الْأَرْضِ مِنْ نَبْتٍ غَيْرِهَا؛ لَطُولِ عُرْوَقِهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْمَاءِ، بِخِلَافِ نَبْتٍ غَيْرِهَا.

(١) الْبَيْتُ لِابْنِ هَنْدٍ؛ كَمَا فِي «غُرَرِ الْخَصَائِصِ الْوَاضِحَةِ» لِبَرْهَانَ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِالْوُطَوَّاطِ (ص ٢٤٠).

(٢) فِي «ل»: «أَخَذَهُمْ»، وَالصَّوَابُ الْمَثْبُت.

فَهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ أَثْبَتُ مِنْ غَيْرِهِمْ بِكَثِيرٍ، لَكِنْ (مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ) بِكَسْرِ
الشَّيْنِ وَفَتْحِ الْحَاءِ؛ أَي: مِنْ قُوَّةِ الثَّبَاتِ وَمُرَاعَاةِ الْاِخْتِيَاطِ، (لَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ) بَفَتْحِ
الشَّيْنِ وَضَمِّ الْحَاءِ وَالزَّايِ: جَمْعُ حَزَامٍ، وَهُوَ: مَا يُشَدُّ بِهِ السَّرَجُ وَغَيْرُهُ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ
بِالرَّبْطِ التَّامِّ، وَالِاسْتِحْكَامِ التَّمَامِ.

١٣٤- طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَى مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا فَمَا تَفَرَّقُ بَيْنَ الْبُهْمِ وَالْبُهْمِ

(فَرَقًا) بَفَتْحَتَيْنِ؛ أَي: خَوْفًا وَفَرَعًا، وَهُوَ تَمْيِيزٌ مِنْ نِسْبَةِ الطَّيْرَانِ إِلَى الْقُلُوبِ^(١).

و(الْبُهْمِ) بَفَتْحِ الْبَاءِ وَسُكُونِ الْهَاءِ: جَمْعُ بُهْمَةٍ، وَهِيَ السَّخْلَةُ وَلَدُ الْغَنَمِ،
و(الْبُهْمِ) بِضَمٍّ فَفَتْحٌ: جَمْعُ بُهْمَةٍ بِضَمٍّ فَسُكُونٍ: الشُّجَاعُ.

والمعنى: إِنَّ قُلُوبَ الْأَعْدَاءِ اضْطَرَبَتْ، وَمِنْ أَجْلِ شِدَّتِهِمْ فِي الْحَرْبِ فِرَعَتْ^(٢)،
إِلَى أَنْ صَارَتْ لَا تُمَيِّزُ بَيْنَ الْمَذْكُورِينَ، وَلَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَسْطُورِينَ؛ لِأَنَّ نَظَرَهُمْ مُحْصُورٌ
عَلَى الظَّاهِرِ، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْقَذِرِ وَالطَّاهِرِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَنْظُرُهُمُ الدَّقِيقُ، الْمَقْرُونُ
بِالْمَعْنَى الْحَقِيقُ، يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ [فاطر: ١٢]؛ أَي: وَإِنْ كَانَ فِي نَظَرِ الْحَيْرَانِ بَيَانٌ أَنَّهُمَا
مُسْتَوِيَانِ، ﴿هَذَا عَذَبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مَلْعٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وَمَنْ لَمْ يَذُقْ لَمْ يَعْرِفْ، وَمَنْ
لَمْ يَعْرِفْ لَمْ يَعْتَرِفْ.

١٣٥- وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنَّ تَلْقَاهُ الْأُسْدُ فِي آجَاهِهَا تَجِمُ

النُّصْرَةُ مُصَدَّرٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ، وَ(الْأُسْدُ) بِضَمِّ الهمزة وَسُكُونِ الشَّيْنِ:
جَمْعُ أَسَدٍ.

(١) أَوْ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ.

(٢) فِي «د»: «فِرَعَتْ».

والآجام بالمد: جمعُ أَجَمَةٍ، وهي أرض كثيرة القصب. و(تَجِم) بفتح التاء وكسر الجيم، من وَجَمَ، أي: حَزَنَ، أو سَكَتَ مُهْتَمًّا.

والشَّروطُ الثاني وجوابه جوابُ الأوَّل، وليس هذا^(١) من توالي الشَّرطين المشهور بأنَّ ثانيهما حالٌ من الأوَّل، وأنَّ الجوابَ له؛ نحو: إنَّ جِئْتَنِي إنَّ تَأَدَّبْتَ أَكْرَمْتُكَ؛ أي: إنَّ جِئْتَنِي مُتَأَدِّبًا أَكْرَمْتُكَ، ولا بدَّ من تقديم التَّأدُّبِ على المجيء لِيَتَحَقَّقَ مُقَارَنَتُهُ له، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نِصْحِي﴾ إنَّ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴿[هود: ٣٤].

والمعنى: مَنْ يَكُنْ نُصْرَتُهُ وإِعَانَتُهُ وَقُوَّتُهُ وإِعَانَتُهُ على مُحَارَبَةِ الأعداء، بواسطة سَيِّدِ الأَحْبَاءِ، إِنْ تَلَقَّاهُ جَمِيعُ أَفْرَادِ الأُسْدِ المشهور بالشَّجَاعَةِ والمَهَابَةِ، فِي مَحَالِّهَا المَسْمُوءَةِ بالغَابَةِ، وهي فيها أَجْرٌ مِنْهَا فِي غَيْرِهَا فِي إِيْصَالِ الكَاتِبَةِ، تَسْكُنُ على حَالِهَا، وَلَا تَتَحَرَّكُ خَوْفًا مِنْهُ فِي مَالِهَا.

وفي هذ البيت إشعارٌ بما رَوَى مُخْبِي السُّنَّةِ فِي «شرح السُّنَّة» عَنِ ابْنِ المُنْكَدِرِ: أَنَّ سَفِينَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْطَأَ الْجَيْشَ بِأَرْضِ الرُّومِ أَوْ أُسْرَ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا يَتَلَمَّسُ الْجَيْشَ، فَإِذَا هُوَ بِالأَسَدِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَارِثِ! أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ مِنْ أَمْرِي كَيْتٌ وَكَيْتٌ، فَأَقْبَلَ الأَسَدُ لَهُ بِضَبْصَةٍ حَتَّى قَامَ إِلَى جَنْبِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ صَوْتًا أَهْوَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ حَتَّى بَلَغَ الْجَيْشَ، ثُمَّ رَجَعَ الأَسَدُ^(٢). ذَكَرَهُ صَاحِبُ «المَشْكَاة» فِي (بَابِ الكَرَامَاتِ)^(٣).

١٣٦ - وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ

(١) فِي «ل»: «وهذا»، بِإِسْقَاطِ «لَيْسَ»، وَهُوَ خَطَأً.

(٢) رَوَاهُ البَغْوِيُّ فِي «شرح السُّنَّة» (٣٧٣٢)، وَرَوَاهُ أَيْضاً عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «المُصَنَّف» (٢٠٥٤٤)، وَمِنْ طَرِيقِهِ رَوَاهُ البَغْوِيُّ.

(٣) انْظُرْ: «مَشْكَاةُ المَصَابِيح» (٥٩٤٩).

(مِنْ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ زَائِدَةٌ، وَضَمِيرُ (بِهِ) لِلرَّسُولِ، وَالْإِنْقِصَامُ بِالْقَافِ هُوَ الرِّوَايَةُ، وَهُوَ الْإِنْكَسَارُ فَوْقَ الْإِنْقِصَامِ بِالْفَاءِ، أَعْنِي: الْإِنْكَسَارُ مَعَ الْيَنُونَةِ، وَ(غَيْرِ) فِي الْمَحَلِّينِ جَارٍ جَرَّهُ عَلَى الْوَضْعِيَّةِ، وَنَضْبُهُ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ (تَرَى)، عَلَى أَنْ تَكُونَ مِنْ رُؤْيَا الْقَلْبِ، وَرَفْعُهُ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ هُوَ: هُوَ.

يعني: وَلَنْ تَعْلَمَ وَلِيًّا لَهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَنْصُورٍ بِهِ، وَلَا تَبْصُرَ عَدُوًّا حَالِ كَوْنِهِ غَيْرَ مَكْسُورٍ وَمَقْهُورٍ بِهِ، بَلْ كُلُّ وَلِيٍّ بِهِ مُتَّصِرٌ^(١)، وَكُلُّ عَدُوٍّ لَهُ مِنْكَسِرٌ.

١٣٧ - أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجْمِ

الإِحْلَالُ: الْإِنْزَالُ، وَالْأَشْبَالُ: جَمْعُ شَبَلٍ بِكَسْرِ الشَّيْنِ، وَهُوَ وَلَدُ الْأَسَدِ، وَالْأَجْمُ بِفَتْحَتَيْنِ: جَنْسٌ مُقَامَةٌ الْأَسَدِ، وَالْوَاحِدَةُ: أَجْمَةٌ.

أَي: أَحَلَّ أُمَّتَهُ الْمَرْحُومَةَ، فِي حِصْنِ مِلَّتِهِ الْمَعْصُومَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَسَدَ يَنْزِلُ مَعَ أَوْلَادِهِ فِي أَجْمَتِهِ الْمَأْجُومَةِ.

وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ الْمَلَّةَ كَالْحِصْنِ لِلْأُمَّةِ، فَمَنْ التَّجَأَ إِلَيْهَا سَلِمَ مِنَ الْآفَاتِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْهَا تَعَرَّضَ لِلْبَلِيَّاتِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي»^(٢).

وَفِي الْمِصْرَاعِ الثَّانِي إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَمَالِ شَفَقَتِهِ

(١) الناصر هو الله، القائل ولم يستثن: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]،

والنوبة: ١١٦، والعنكبوت: ٢٢، والشورى: ٣١.

(٢) رواه الشهاب في «مسنده» (١٤٥١) من حديث علي رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جداً كما قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١١٩)، وزاد: وقول أبي منصور الديلمي: إنه حديث ثابت، مردود عليه.

وَمَرْحَمَتِهِ، وَتَأْدِيهِ وَتَعْلِيمِهِ لِأُمَّتِهِ، كَالأَبِ لَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وَفِي قِرَاءَةِ شَاذَةٍ: (وَهُوَ أَبُ لَهُمْ) ^(١).

١٣٨ - كَمْ جَدَلْتَ كَلِمَاتِ اللَّهِ مِنْ جَدَلٍ فِيهِ وَكَمْ خَصَصَ الْبُرْهَانَ مِنْ خَصِمٍ (كَمْ) خَبَرِيَّةٌ، وَ(جَدَلْتَ) بِالتَّشْدِيدِ؛ أَي: أَوْقَعْتَ عَلَى الْجَدَالِ وَهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ. وَ(فِيهِ) يُقْرَأُ بِإِسْبَاعِ الْهَاءِ، وَالضَّمِيرُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَ(خَصَصَ)؛ أَي: غَلَبَ فِي الْخُصُومَةِ، مِنْ خَاصَصْتُ زَيْدًا فَخَصَصْتُهُ. وَ(الْجَدَلِ) وَ(الْخَصِمِ) بِكسْرِ عَيْنَيْهِمَا صَيَغَتَا مُبَالَغَةٍ، وَهُمَا مَفْعُولَانِ، وَ(مِنْ) زَائِدَةٌ فِيهِمَا.

وَالْمَعْنَى: كَثِيرًا مِنَ الْمَرَّاتِ قَطَعْتَ وَغَلَبْتَ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمُبَالِغِ فِي الْمُجَادَلَةِ، وَالْمُجَاهِدَةِ فِي الْمُعَارَضَةِ؛ لِإِظْهَارِ نُبُوَّتِهِ، وَإِشْعَارِ رِسَالَتِهِ، وَكَمْ مِنَ الْكُرَّاتِ أَلْزَمْتَ الْحُجُجَ الْوَاضِحَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ الْمُخَاصِمَ غَايَةَ الْخُصُومَةِ فِي الْمُعَالَجَاتِ.

١٣٩ - كَفَّاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْبُيُوتِ الْبَاءُ زَائِدَةٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وَاللَّامُ فِي (الْعِلْمِ) لِلْجِنْسِ، وَالْمَرَادُ بِهِ الْفَرْدُ الْكَامِلُ.

وَ(الْأُمِّيِّ) مَنْسُوبٌ إِلَى الْأُمِّ، وَهُوَ مَنْ لَمْ يُذَرِكْ تَرْبِيَةَ الْأَبِ، أَوْ عَلَى وَصْفِ [مَنْ] ^(٢) خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ بِدُونِ اكْتِسَابِ قِرَاءَةٍ وَكِتَابَةٍ، أَوْ مَنْسُوبٌ إِلَى أُمَّةِ الْعَرَبِ، وَهُمْ قَوْمٌ عَادَةٌ ^(٣) غَالِبُهُمْ عَدَمُ مَعْرِفَةِ الْكِتَابِ وَالْحِسَابِ.

(١) نَسِبَتْ لَابِنَ مَسْعُودٍ كَمَا فِي «الْمَخْتَصَرِ فِي شَوَازِ الْقِرَاءَاتِ» لَابِنِ خَالَوِيهِ (ص ١٢٠). وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ إِنْ صَحَّتْ فَهِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى التَّفْسِيرِ؛ لِمَخَالَفَتِهَا سَوَادَ الْمَصْحُفِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ.

(٢) زِيَادَةٌ يَقْتَضِيهَا السِّيَاقُ.

(٣) كَلِمَةٌ: «عَادَةٌ» مِنْ «د».

و(التأديب) مصدرُ المجهول، وهو معطوفٌ على (العِلْم).

و(اليُثْم) بضمَّتين مصدرٌ جُعِلَ حيناً في المعنى، وهو بمعنى اليُثْم، كالعدلِ بمعنى العادلِ، وتركَ قوله: مُعْجِزَةٌ، بعدَ قوله: (في اليُثْم) للعِلْمِ بها ممَّا قَبْلُ.

وأرادَ بالمعجزة: مجرَّدُ الأمرِ الخارقِ للعادة، وإنِ اعتبروا فيها مع ذلك اقترانهُ بالتَّحْدِي، وهو دَعْوَى الرِّسَالَةِ مع عَدَمِ المُعَارَضَةِ مِنَ المُرْسَلِ إِلَيْهِمْ.

والمعنى: أنَّ معجزاته كثيرةٌ لا تُحصى، وخوارقُ عاداتِهِ شهيذةٌ لا تُخفى، وإذا نَظَرْتَ بعينِ البَصِيرَةِ والاهْتِدَاءِ، وَكَحَلَّتْ بِصَرَكَ بنورِ التَّوْفِيقِ والاقتفاءِ، رأيتَ ذاتهَ الشَّريفةِ، مع صفاته المُنِيفَةِ، محلَّ خارقِ العاداتِ الرَّبَّانِيَّةِ، ومَظْهَرَ المُعْجِزَاتِ السُّبْحَانِيَّةِ، وحيثُ كَفَّافُك أَيُّهَا الطَّالِبُ لِمُعْجِزَاتِهِ، وَحَسْبُكَ أَيُّهَا الرَّائِبُ لخرقِ عاداتِهِ، الدَّالَّةُ على كمالِ كَرَامَاتِهِ: العِلْمُ المُشْتَمِلُ على الأصولِ والفروعِ، المحيطُ بالمعقولِ والمسموعِ، فيَمَن لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ العُلَمَاءِ، وَلَمْ يُكْتَبْ مع الأَدْبَاءِ، في زمانِ كثرةِ الجُهَالِ والسُّفْهَاءِ، حيثُ حُرِّفَ فِيهِ الشَّرْعُ السَّابِقُ، وَصُرِفَ الوَحْيُ اللَّاحِقُ.

وكذا كَفَّافُك كونه مُؤَدِّباً بمكارِمِ الخِصَالِ، ومتأدِّباً على وجهِ الكَمَالِ، في أوانِ يَتِمُّهُ، وزمانِ حَدَاتِهِ، وأوَّلِ خِلْقَتِهِ وفِطْرَتِهِ، بلا وجودِ اكتسابٍ رياضيٍّ، بل بـجُودِ إلهيٍّ فيَّاضٍ، بَغْضٍ إِلَيْهِ الْأَوْتَانِ، وَكَرَّةٍ إِلَيْهِ الْعِصْيَانِ، وَحَبَبٍ إِلَيْهِ الْإِيمَانِ، وَزَيْنٍ إِلَيْهِ الْفُرْقَانِ، وَوَصَلَ إِلَى مَقَامِ الْإِحْسَانِ، وهذا معنى قوله ﷺ: «أَدَبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»^(١)، وقول بعضهم: حَسْبِي رَبِّي مِنْ كُلِّ مُرَبِّي.

١٤٠ - خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْخَدَمِ

المديحُ: ما يُمدَحُ به، وقيل: إِنَّهُ مصدرٌ. والاسْتِقَالَةُ: طَلَبُ الْعَفْوِ.

(١) قال أبو العباس في «مجموع الفتاوى» (١٨ / ٣٧٥): المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت.

وأرادَ بالشَّعرِ هاهُنَا معناهُ المصدريُّ؛ أي: الإتيانَ بالكلامِ المَوْزُونِ المُقَفَّى، وكثيراً ما يُطْلَقُ على نَفْسِ ذلكِ الكلامِ، فيُمْكِنُ أَنْ يُقَدَّرَ مضافاً؛ أي: في استِعْماله أو تأليفه.

و(الخِدم) بكسرِ الخاءِ: جَمْعُ خِدْمَةٍ، والمرادُ بها: خِدْمَةُ المَخْلُوقِينَ؛ كما أَنَّ المرادَ بالشَّعرِ: الشَّعرُ المذمومُ.

وجملةُ (أَسْتَقِيلُ) صفةٌ لـ (مَدِيح)، وقيل: حالٌ مِنْ فاعِلٍ (خَدَمْتُهُ).

والمعنى: تَشَرَّفْتُ بِخِدْمَتِهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باستِعاذَةٍ مَدَحٍ أَطْلُبُ العَفْوَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بسببِهِ مِنْ ذُنُوبٍ مُدَّةَ حَيَاةٍ مَضَّتْ فِي الاِشْتِغَالِ بالشَّعرِ فِي مَدَحِ النَّاسِ وَمَذَمَّتِهِمْ، وَضَاعَتْ فِي خِدْمَاتِ أَرْبابِ الدُّنْيَا لِأَغْرَاضٍ فَاسِدَةٍ فِي صُحْبَتِهِمْ.

١٤١ - إِذْ قَلَّدَانِي مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ كَأَنِّي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ
(إِذْ) تَعْلِيلِيَّةٌ لـ (أَسْتَقِيلُ)، وَالتَّقْلِيدُ: رِبْطُ العُنُقِ، وَيَجِيءُ بِمَعْنَى الإِزَامِ، وَيُقْرَأُ الْبَيْتُ بِفَتْحِ الْيَاءِ مِنْ (قَلَّدَانِي)، وَالضَّمِيرُ فِيهِ وَفِي (بِهِمَا) رَاجِعٌ إِلَى الشُّعْرَاءِ وَالخِدْمَةِ المذمومةِينِ.

وَالْهَدْيُ: مَا يُهْدَى مِنَ النَّعَمِ - وَهُوَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ - لِلذَّبْحِ فِي الْحَرَمِ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُقْلَدَ بِتَعْلِيْقِ شَيْءٍ فِي عُنُقِهِ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ هَدْيٌ فَلَا يُتَعَرَّضُ لَهُ بِشَيْءٍ، ثُمَّ يُنْحَرُ. وَ(مِنْ) بَيَانِيَّةٌ.

والمعنى: لِأَنَّ فَضُولَ الشَّعرِ وَحُصُولَ خِدْمَةِ الْخَلْقِ أَلَزَمَانِي وَعَلَقًا فِي رَقَبَتِي الْأَثَامَ وَالْأَوْزَارَ، الَّتِي تُخْشَى عَوَاقِبُهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ فِي عَاقِبَةِ الدَّارِ، وَكَأَنِّي عُنِيتُ لِلْهَلَاكِ^(١) بِسَبَبِهِمَا، فَإِنَّهُمَا أَوْقَعَانِي فِي مَهْلَكَةِ الْبَوَارِ^(٢).

(١) فِي «د»: «لِلْإِهْلَاكِ».

(٢) فِي «ل»: «الْبَوَار».

١٤٢ - أَطَعْتُ غِيَّ الصَّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْإِثَامِ وَالنَّدَمِ

أي: أَطَعْتُ ضَلَالَةَ الصَّبَا وَجَهَالََةَ الشَّبَابِ النَّاشِئَةَ عَنْهُمَا، فِي حَالَتِي اسْتِعْمَالِ الشُّعْرِ، وَاسْتِغْثَالِ الْخِدْمَةِ وَتَضْيِيعِ الْعُمْرِ بِهِمَا، وَالْحَالُ أَنِّي مَا حَصَلْتُ شَيْئًا مِنْ جِهَتِهِمَا، إِلَّا الْوُقُوعَ عَلَى الْمَعَاصِي، وَالنَّدَامَةَ وَالتَّحَسُّرَ وَالتَّحْزْنَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنَ الْمَنَاهِي.

وَالْمَرَادُ بِالنَّدَمِ: مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ النَّدَامَةُ، وَإِلَّا فَالنَّدَمُ نَفْسُهُ تَوْبَةً، وَهِيَ مُوجِبَةٌ لِلنَّجَاةِ وَلِلدَّرَجَاتِ وَسِيلَةٌ، فَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ الشُّكَايَةِ.

وَيُرْوَى: (حَصَلْتُ) بِالتَّخْفِيفِ، فَالْمَعْنَى: مَا وَقَعْتُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ الْبَاطِلَةِ وَالْمَقَاصِدِ الْفَاسِدَةِ، إِلَّا عَلَى الْمَعَاصِي وَالنَّدَامَةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَفًّا وَنَشْرًا، فَالْإِثَامُ مُتَرْتَّبٌ عَلَى مَذْحِ الْفَسَقَةِ، وَالنَّدَامَةُ عَلَى خِدْمَةِ الْجَهْلَةِ.

١٤٣ - فَيَا خَسَارَةَ نَفْسِي فِي تِجَارَتِهَا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسْمِ

فِي بَعْضِ النُّسخِ: (فَيَا خَسَارَةَ نَفْسِي) عَلَى التَّنْكِيرِ، وَالْمُنَادَى هُنَا مَحذُوفٌ؛ أَيْ: يَا قَوْمِ اعْتَبِرُوا خَسَارَةَ نَفْسِي، أَوِ الْمُنَادَى هُوَ (خَسَارَةَ نَفْسِي)؛ أَيْ: تَعَالَى؛ لِيَعْجَبُوا مِنْكَ وَفِي أَمْرِكَ، وَنِدَاءٌ غَيْرُ الْعُقْلَاءِ شَائِعٌ فِي كَلَامِهِمْ.

قَالَ الْمَحَلِّيُّ: فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ؛ أَيْ: مَا أَخْسَرَهَا!

وَالْمَرَادُ بِالْإِشْتِرَاءِ: الْإِسْتِئْذَالُ، وَ(الدُّنْيَا) بِمَنْزِلَةِ الثَّمَنِ، فَلِهَذَا دَخَلَهُ الْبَاءُ. وَالسُّؤْمُ: طَلَبُ الشَّرَاءِ، مِنْ بَابِ نَصَرَ.

وَالْمَعْنَى: انْظُرُوا يَا أَصْحَابِي، وَاعْتَبِرُوا يَا أَحِبَّائِي، مِنْ خَسَارَةِ نَفْسِي الْفَاسِدَةِ، فِي مُعَامَلَتِهَا الْكَاسِدَةِ، مِنْ إِثَارِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، مَعَ مُعَارَضَتِهَا لِلْعُقْبَى الْبَاقِيَةِ، عَلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ، الْمُوصِلِ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، حَيْثُ لَمْ تَشْتَرِ الْمُلْكَ الْبَاقِيَ بِالثَّمَنِ الْفَانِي، وَلَمْ تَقْصِدْ تَحْصِيلَ الدِّينِ بِتَرْكِ الدُّنْيَا بِحُسْنِ النِّيَّةِ وَصَفَاءِ الطَّوَيَّةِ، وَفِيهِ مُبَالِغَةٌ لَا تَخْفَى، وَإِيمَاءٌ إِلَى عَدَمِ إِمْكَانِ الْجَمْعِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وقال بعض أهل الإشارة: أي: لَمْ يَسْتَبْدِلِ الدُّنْيَا بِالذِّينِ مع أَنَّهُ يَحْصُلُ بِأَذْنَى تبديلٍ، وهو حَكُّ الْأَلْفِ الدَّالَّةِ عَلَى خِسَّةِ الْأَنْوَةِ، وتقديمُ ياءِ اليمينِ المَعْطُورَةِ^(١) لتقديمِ السِّبْرِ، وتقديمِ الهمزة على تأخير^(٢) نُونِ النَّفْسِ المائلة إلى الزَّهْرَةِ.

١٤٤ - وَمَنْ يَبِيعُ أَجْلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ يَبِيعُ لَهُ الْغَبْنَ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمٍ
الْأَجَلُ بِالْمَدِّ هُوَ الْآتِي بَعْدَ أَجَلٍ، والمرادُ به الْعُقْبَى، والعَاجِلُ: الْوَاصِلُ عَلَى عَجَلٍ، والمرادُ به الدُّنْيَا، و(منهُ) يُقْرَأُ بِالْإِشْبَاعِ، وَضَمِيرُهُ رَاجِعٌ إِلَى (مَنْ)، وكذا ضَمِيرُ (عَاجِلِهِ)، وَرُويَ: (بِعَاجِلَةٍ) بِالتَّأْنِيثِ.

وقيل: ضَمِيرُ (منهُ) يَعُودُ إِلَى (الذِّينِ).

وَمَدْخُولُ الْبَاءِ هُوَ الثَّمَنُ الْمَأْخُوذُ دُونَ الثَّمَنِ الْمَتْرُوكِ، عَلَى عَكْسِ الشَّرْهِ، وَتَنْوِينُ (بِيعَ) وَ(سَلَمَ) عَوَظٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَي: يَبِيعُهُ وَسَلَمِهِ.
(وَيَبِيعُ) مُضَارِعٌ مُجْزُومٌ؛ مِنْ بَانَ يَبِينُ - كَبَاعَ يَبِيعُ - بِمَعْنَى: ظَهَرَ.

وَالْبَيْعُ أَنْوَاعٌ: بَيْعُ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَهُوَ الْمَقَابِضَةُ، وَبَيْعُ الذِّينِ بِالْعَيْنِ وَهُوَ السَّلَمُ بِفَتْحَتَيْنِ، وَبَيْعُ الْعَيْنِ بِالذِّينِ وَهُوَ الْمُدَايَنَةُ، وَبَيْعُ الثَّمَنِ بِالْثَّمَنِ وَهُوَ الصَّرْفُ.

وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قَبِيلِ السَّلَمِ، وَلِذَا تَعَرَّضَ لَهُ مَعَ انْدِرَاجِهِ تَحْتَ الْبَيْعِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى رَدِّ مَنْ يَقُولُ مِنَ الْمَلَا حِدَةٍ: الدُّنْيَا نَقْدٌ وَالْآخِرَةُ نَسِيئَةٌ، وَإِعْطَاءُ النَّقْدِ لَهَا غَيْرُ مَعْقُولٍ، فَإِنَّ السَّلَمَ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِعْطَاءِ النَّقْدِ لِلنَّسِيئَةِ، وَحُذَاقُ التُّجَّارِ^(٣) تَلْقَوُهُ بِالْقَبُولِ، وَلِذَا ذَمَّ اللَّهُ الْكَفَّارَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَلْبَسُونَ الْعَاجِلَةَ﴾^(٤) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿[الْقِيَامَةُ: ٢٠ - ٢١]، وَقَالَ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾؛ أَي:

(١) فِي «د»: «المقطورة».

(٢) فِي «د»: «وتأخير»، بَدَلُ: «على تأخير».

(٣) فِي «د»: «التجارة».

لَا مَا يَشَاءُ ﴿لَمَنْ يُرِيدُ﴾؛ أي: لَا لِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾؛ أي: مَطْرُودًا، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿[الإسراء: ١٨ - ٢٠]؛ أي: ممنوعاً.

حاصل المعنى: مَنْ أَخَذَ الْعَاجِلَ وَتَرَكَ الْآجِلَ، يَظْهَرُ لَهُ الْخَسَارَةُ الْكُلِّيَّةُ فِي تِجَارَتِهِ، وَالْعَبْسُ الْفَاحِشُ فِي مُعَامَلَتِهِ.

قال الغزالي رحمه الله: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لاختار العاقل الخزف الباقي على الذهب الفاني، فكيف والأمر بالعكس.

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾؛ أي: بِإِعْطَاءِ الدُّنْيَا لَهُ أَيْضاً، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾؛ أي: بَعْضَهَا، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

١٤٥ - إِنْ آتَ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُتَّقِصٍ مِنْ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمٍ
رُوي: (عَهْدِي) موضع: (عَهْدِي).

والمعنى: إِنْ أَفْعَلْ ذَنْبًا أَوْ أَسِئَ كَسِبًا، وَعَدَلْ عَنْ قَوْلِهِ^(١): إِنْ أَدْبَنْتُ، إِمَّا لِلْإِسْتِحْضَارِ، أَوْ لِإِرَادَةِ الْإِسْتِمْرَارِ (فليس عَهْدِي) وهو الإيمانُ بالنَّبِيِّ - أَوِ الْأَمَانُ مِنْهُ - مُتَّقِصًا؛ لِأَنَّ نَقْضَ التَّوْبَةِ بَارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ لَا يَنْقُضُ عَهْدَ الْإِيمَانِ، وَلَا عَهْدَ الْأَمَانِ، (وَلَا حَبْلِي)؛ أي: وَلَا تَعَلَّقِي بِذِيلِ مُحَبَّتِهِ وَرَجَاءِ شِفَاعَتِهِ بِمُنْقَطِعٍ، لَا مِنْ جَانِبِي وَلَا مِنْ جِهَتِهِ.

وقيل: المرادُ مِنَ الْعَهْدِ مَا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ

(١) في «ال»: «قوله الظاهر».

قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ^(١)، وبالحَبْلِ مَا يُعَلِّمُ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١٤٦ - فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمِّ يُقْرَأُ (منهُ) بِإِشْبَاعِ الضَّمِيرِ الرَّاجِعِ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَ(تَسْمِيَّتِي) مُصَدَّرٌ مُجْهُولٌ مُضَافٌ إِلَى مَفْعُولِهِ الْأَوَّلِ، وَ(مُحَمَّدًا) مَفْعُولُهُ الثَّانِي، وَ(الذِّمِّ) بِكسْرِ أَوَّلِهِ: جَمْعُ الذِّمَّةِ، وَهِيَ الْعَهْدُ وَالْأَمَانُ، وَالْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ.

وقيل: المرادُ بِالذِّمَّةِ هنا: وَعْدُ الشَّفَاعَةِ لِمَنْ يُسَمَّى بِمُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ عَلَى مَا رُوِيَ^(٢).

وحاصلُ هذا البيتِ تعليلٌ لِلْحُكْمِ فِي البيتِ السَّابِقِ، والمعنى: لِأَنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ، وَهُوَ دَالٌّ عَلَى مُحَبَّةِ أَحْمَدَ، وَالاسْمُ لَا يَتَغَيَّرُ بِمُخَالَفَةِ الْمُسَمَّى، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِرَاعَاةِ الذِّمِّ أَوْفَى، فَيَقُومُ بِحَقِّهَا بِالشَّفَاعَةِ لِأَهْلِهَا فِي دَارِ الْعُقْبَى!

١٤٧ - إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخَذًا بِيَدِي فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ الْمَعَادُ: مُصَدَّرٌ أَوْ مَكَانٌ أَوْ زَمَانٌ، وَالْمُرَادُ بِهِ: رَجُوعُ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَبْدَانِ. وَالْأَخْذُ بِالْيَدِ كُنَايَةٌ عَنِ الْمُعَاوَنَةِ، وَ(فَضْلًا) تَمْيِيزٌ.

وَ(إِلَّا) بِكسْرِ الهمزة وتشديد اللام، وَرُوِيَ بِالتَّنْوِينِ، وَهُوَ بِمعْنَى الذِّمَّةِ وَالْعَهْدِ،

(١) رواه مسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

(٢) روي فيه خبر مرسل لا يحتج بمثله على هذا الأمر الظاهر البطлан، فليس كل من تسمى بمحمد صارت له ذمة بهذه التسمية، فكم ممن اسمه محمد وهو ممن تسجر بهم النار، ولو نظر المؤلف إلى زماننا لراى من هذا العجب العجائب. والخبر أورده القاضي عياض في «الشفاء» (١/ ١٣٩) عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: إذا كان يوم القيامة نادى مُنَادٍ: أَلَا لِيَقُمَ مَنْ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ؛ لِكِرَامَةِ اسْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَام.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، وهو الصَّحِيحُ؛ أي: إنَّ لَمْ يَكُنْ مُعِينًا لِي (فَضْلًا)؛ أي: إحسانًا زائدًا على الوَعْدِ، أو عَدْلًا وهو الوفاء بالذِّمَّةِ والعَهْدِ. فالواوُ بمعنى (أو).

ورُويَ بغيرِ تنوينٍ، فهو مركَّبٌ من (إنَّ) الشرطيَّةِ و(لا) النَّافِيَّةِ، بمعنى: وإنَّ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وظاهرُه مُفسِدٌ للمعنى كما لا يَخْفَى، فهو بمعنى الشرطِ الأوَّلِ وتأكيدُه له. والجوابُ: (فَقُلْ) خطاباً لِمَنْ جَرَّدَهُ مِنْ نَفْسِهِ؛ أي: فَقُلْ: يا زَلَّةَ القَدَمِ احْضُرِي فهذا أَوَانُكَ، وهي عبارةٌ عن الوقوعِ في المَهَالِكِ، ويُمكنُ حملُها على مَزَلَّةِ القَدَمِ عن الصِّراطِ بالوقوعِ في النَّارِ.

ويُمكنُ أن يُقالَ: الخطابُ عامٌّ؛ أي: فَقُلْ لِي أَيُّهَا المَخاطَبُ: يا فلانُ، احْذَرِ زَلَّةَ القَدَمِ.

وأما ما قيلَ من أنَّ تقديرَه: وإنَّ لَمْ يَكُنْ عَهْدٌ في الأوَّلَى وَفَضْلٌ في الأُخْرَى، ففيه: أنَّ الشرطَ الأوَّلَ حينئذٍ يَبْقَى بلا جزاءٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا أن يُقالَ: يَدُلُّ عليه الجزاءُ الثاني. وأما ما قيلَ من أنَّ المعنى: وإنَّ لَمْ يَكُنْ فَضْلًا بأن يكونَ عدلاً، ففيه مع ما تقدَّم: أنَّه غيرُ صحيحٍ المعنى؛ لأنَّه لا يُنسَبُ العَدْلُ في ذلك اليومِ إِلَّا إلى الله تعالى، وأيضاً يَرْجِعُ الكلامُ إلى أَنَّهُ: إنَّ كانَ آخِذاً^(١) بيدي عَدْلًا، وهو غيرُ مُلائِمٍ كما لا يَخْفَى.

١٤٨ - حاشاهُ أن يُحْرَمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أو يَرْجِعَ الجارُّ منه غيرُ مُحْتَرَمٍ

(حاشاهُ) تنزيهٌ له، أو معناه: جانبُه، و(يُحْرَمُ) مِنْ حَرَمَهُ يَحْرِمُهُ؛ ك: ضَرَبَهُ يَضْرِبُهُ، أو من أَحْرَمَهُ بمعنى: مَنَعَهُ، يتعدَّى إلى مفعولين، وهو مَبْنِيٌّ على المفعول. وقيل: على الفاعِلِ، وسكونُ (الرَّاجِي) مِنْ ضَرورةِ الشَّعرِ.

(١) في «ل»: «إنَّ آخذًا»، والمثبت من «د»، لكن وقع فيها «آخذ» بالرفع، والصواب المثبت.

و(الجارُّ) مرفوعٌ، ف(يَرْجِعُ) لازمٌ بمعنى: يَصِيرُ وَيَعُودُ، أو منصوبٌ، فهو مُتَعَدٌّ بمعنى: يَرُدُّ وَيُعِيدُ. والجارُّ بمعنى المُسْتَجِيرِ الدَّاخِلِ فِي الْجَوَارِ والعَهْدِ والأَمَانِ. وضميرُ (منه) بالإشباعِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و(مُحْتَرَم) اسمُ مفعولٍ، ونُصِبَ (غَيْرَ) عَلَى الْحَالِيَّةِ مِنَ (الجارِّ).

والمعنى: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى وَسَلَّمَ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَحْرِمَ رَاجِيَهُ عَنِ الْإِكْرَامِ، أَوْ يَرُدُّ الْمُسْتَجِيرَ مِنْهُ بِغَيْرِ اخْتِرَامٍ، فَإِنَّهُ مَعْدِنُ الْكَرَامَاتِ، وَمَنْبِعُ الْاخْتِرَامَاتِ.

١٤٩- وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ وَجَدْتُهُ لَخْلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمٍ (منذُ) بمعنى: أَوَّلُ الْمُدَّةِ، مفعولٌ فِيهِ لـ (وَجَدْتُ)، ولـ (خَلَاصِي) مفعولٌ لـ (مُلْتَزِمٍ) بكسرِ الزَّايِ، واللَّامُ لتقوية العملِ، يقالُ: أَلْزَمْتُ الشَّيْءَ فَالْتَزَمَهُ؛ أَي: جَعَلْتُهُ كَفِيلاً لِلشَّيْءِ فَتَكَفَّلَ بِهِ وَأَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ اللَّامَ لِلْعَلَّةِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ (وَجَدْتُهُ).

والمعنى: أَنَّ مِنْ مَكَارِمِهِ الْحَسَنَةِ وَأَخْلَاقِهِ الْمُسْتَحْسَنَةِ أَنِّي مِنْ حِينَ تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَصَرَفِ أَفْكَارِي لَدَيْهِ فِي إِنْشَاءِ مَدَائِحِهِ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ وَصَفَاءِ الطَّوَيَّةِ، تَكَفَّلَ لِي وَقَامَ بِتَخْلِيصِي مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ وَبَلِيَّةٍ^(١).

١٥٠- وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَى مِنْهُ يَدَا تَرَبَّتْ إِنَّ الْحَيَا يُنْبِتُ الْأَزْهَارَ فِي الْأَكَمِ (الْغِنَى) بالكسرِ مع الْقَصْرِ بمعنى الْيَسَارِ، ومع الْمُدَّةِ بمعنى التَّغْنِي، وبالفتحِ مع الْقَصْرِ: الْإِقَامَةُ، ومع الْمُدَّةِ: الْكِفَايَةُ، وَقَدْ جَمَعَ الْأَرْبَعَةَ مَنْ قَالَ: مَنْ يَكُنْ ذَا غِنَى يَمِلْ فِي غِنَائِي فِي دُرُوءٍ^(٢) غَنَى لِأَهْلِ الْغِنَاءِ

(١) وهذه المحبة لا بدَّ لها من شواهد عملية من متابعة سنة خير البرية، ولعلَّ الناظم ثم الشارح أغفل هذا التنبيه؛ لوضوحه عند كل نبية.

(٢) في «ل»: «دور».

و(منه) بإشباع الضمير صفة لـ (الغنى)؛ أي: من جهته، و(يداً)؛ أي: عن يد، و(تربت)؛ أي: افتقرت، وأريد باليد أيدي المحتاجين، والتكررة في سياق النفي تفيد العموم. ويجوز أن يراد بالغنى: المال، ويؤيده نسخة: (الندى) بفتح النون بمعنى العطاء. و(الحيا) بالقصر: المطر، و(الأزهار): جمع زهر، و(الأكم): جمع أكمة بمعنى: الرتبة، وهي التل، والمقصود تشبيه جوده بالجود في عموم النفع، وقطع النظر عن أن محلّه يستأهل العطاء أو يستحق المنع. وفيه إشارة إلى أنه رحمة للعالمين، وسبب للغنى الظاهري والباطني للعلماء العاملين.

والبيت الذي قبله كان مفيداً لدفع الضر عن الملتجئ إليه، وهذا مؤشر إلى حصول النفع من الطامع لديه. ثم لما كان مؤمهاً أنه أراد النفع الدنيوي دون الحظ الأخرى، فدفع الوهم عن الخيال فقال:

١٥١ - وَلَمْ أَرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي افْتَنَفَتْ
يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَتَنَى عَلَى هَرَمٍ
في أكثر النسخ: (افتنفت)، يقال: قطف الثمرة واقتطفها: جناها، وفيه إشعار بأن المذموم إنما هو تكلف الحصول وطلب الوصول إلى الأمر الفاني، وأما إذا وقع الفاني تبعاً للمقصود الباقي من غير قصدٍ للفاني فلا يضر؛ كما في موافقة الهوى للهدي.

والمراد بـ (زهرة الدنيا): مستلذاتها المشبهة بالزهرة في زينة جمالها وسرعة زوالها.

و(زهير) بالتصغير: هو ابن أبي سلمى - بضم السين - أحد الشعراء السبعة الذين كانت قصائدهم معلقة على باب الكعبة، فأسقطت عند نزول قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَتَّزِلْ أَتْلَعِي مَاءَكَ﴾ الآية [هود: ٤٤]، والباقي: خاله وأبوه وأخته وابنه وبنته وسبطه؛ أي: حفيده^(١).

و(هَرِمَ) بفتح الهاء وكسر الراء: ابنُ سنانٍ، رئيسُ قبيلةِ غطفانَ، وهو من أجود ملوك العرب، ولزهير فيه مدائحُ وأشعارٌ وصلَ بها منه إليه كثيرٌ من الصّلات، وعطايا بالمطايا فوق العادات.

وقيل: الشعراءُ أربعة: امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

والباء في (بما) للسببية، و(ما) مصدرية أو موصولة، والعائدُ محذوفٌ.

١٥٢ - يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِّنَ الْوُدِّ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ
(الخلق) بمعنى المخلوق، واللام للجنس أو الاستغراق، وفي نسخة: (الرُّسُلِ) بسكون السين: جمعُ الرسول^(٢)، ويلزم منه أن يكونَ أفضلَ الخلقِ بالأوّلَى، ويكونُ نصّاً للردِّ على المعتزلة القائلين بتفضيل الملائكة^(٣).

و(ما) نافية، أو استفهامية إنكارية^(٤).

واللُّوْذُ بمعنى: الالتجاء والعوذ، والحُلُول: الوقوعُ والنزولُ، و(الحادث) مُفْرَدُ الحَادِثَاتِ، بمعنى: الآفاتِ والبليّات.

(١) قوله: «أي حفيده» ليس في «ل».

(٢) في «ل»: «جمع رسول الله».

(٣) في هذا الكلام نظر، فكيف يكون بيت شعر لأحد المتأخرين، نصاً في الرد على طائفة تنزع بنصوص الدين؟ وهل يكون هذا إلا بالقرآن الكريم، أو حديث سيد المرسلين، أو إجماع من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين؟

(٤) وجه الاستفهام هنا غير ظاهر، إلا أن يعتبر الاستفهام أيضاً في: «من اللوذ..»، وفيه تكلف. على أنه لو أراد أن يشير إليه.

و(الْعِمِّم) بفتح العين المهملة والميم الأولى، أو بكسر الميم الأولى، وكِلَاهُمَا مَسْمُوعٌ مِنْ (عَمٍّ) ضِدُّ (خَصٍّ).

والمراد ب(الحادث): الشَّامِلُ إِمَّا الموتَ وهي القيامة الصُّغْرَى، وإِمَّا السَّاعَةَ، وهي القيامة الكُبْرَى، والمراد^(١): الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى.

واعْلَمَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ النَّاطِقُ نُعُوتَ ذَاتِهِ وَكَمَالَ صِفَاتِهِ ﷺ، انْتَقَلَ مِنْ حَالِ الْغَيْبَةِ إِلَى مَقَامِ الْحُضُورِ، فَنَادَاهُ بِالْخِطَابِ بِأَحْسَنِ الْأَدَابِ، كَمَا قِيلَ فِي ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِيذُ﴾ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ:

١٥٣- وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ
(رَسُولَ اللَّهِ) مَنَادَى حُذِفَ حَرْفُ نِدَائِهِ، وَالْجَاءُ مِنَ الْوَجَاهَةِ، وَهِيَ رِفْعَةُ الْمَنْزِلَةِ، وَسَعَةُ الْمَرْتَبَةِ، وَ(بِي) مُتَعَلِّقٌ بِ(يَضِيقُ)؛ أَي: بِسَبَبِ شَفَاعَتِي، وَ(إِذَا) كَ (إِذَا) فِي نَسْخَةِ اللَّطْرِفِيَّةِ، وَ(تَحَلَّى) بِالْهَاءِ: اتَّصَفَ، وَبِالْجِيمِ: انْكَشَفَ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ رِوَايَةً، وَالثَّانِي أَوْضَحُ دِرَايَةً، فَإِنَّ الْإِتِّصَافَ أَزْلَى، وَالْإِنْكَشَافَ زَمَانِيٌّ.

و(الْكَرِيمُ) هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ، فِي مَقَامِ الْإِنْتِقَامِ مَعَ أَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْجَلَالِ؛ لِيَحْصَلَ الْإِعْتِدَالُ، وَلَا تَنْقَطِعَ قُلُوبُ الرِّجَالِ، وَهَذَا مَزْجٌ لَطِيفٌ، وَمَعْجُونٌ شَرِيفٌ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦]، تَعْلِيمًا لِأَنَّهُ يَقُولُ: مَا غَرَّنِي إِلَّا كَرَمُكَ. أَوْ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا إِيْمَاءٌ إِلَى مَا قِيلَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ الْحَلِيمِ.

ثُمَّ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ الْأَوَّلُ مُشِيرًا إِلَى الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى عِنْدَ عَمُومِ الْبَلَوَى حِينَ يَقُولُ الْخَلْقُ: نَفْسِي نَفْسِي، حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ، وَالْبَيْتُ الثَّانِي مُشِيرًا إِلَى الشَّفَاعَاتِ الْخَاصَّةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي مَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا مِنْ جَاهِهِ عِنْدَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْجَاءَ هُوَ الْقَدْرُ وَالْمَنْزِلَةُ، وَلَا مَنْزِلَةَ فَوْقَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ.

(١) فِي «د»: «وَالْمَرَادُ بِاللُّوْذِ».

١٥٤- فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
(مِنْ) تَبْعِيضِيَّةٌ، وَ(ضَرَّتْهَا) بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى (الدُّنْيَا) بِالِاسْمِيَّةِ، وَهِيَ
الْآخِرَةُ شُبِّهَتْ بِالضَّرَةِ لَتَعَذُّرِ الْجَمْعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَاحِبَتِهَا كَتَعَسُّرِ الْجَمْعِ بَيْنَ
الْمَرَاتَيْنِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ
بِآخِرَتِهِ، فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»^(١).
وَمِنَ اللَّطَائِفِ مَا قِيلَ^(٢):

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا لِتَأْخِيرِ عَالِمٍ وَتَقْدِيمِ ذِي جَهْلٍ فَقَالَتْ خُذِ الْعُذْرَا
بَنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي لَذَاكَ رَفَعْتُهُمْ وَأَهْلُ النَّهْيِ أَوْلَادُ ضَرَّتِي الْآخَرَى
وَ(عِلْمُ اللَّوْحِ) مَنْصُوبٌ، وَقِيلَ: مَرْفُوعٌ، وَوَجْهُهُمَا ظَاهِرٌ.
وَالْجُودُ صِفَةٌ هِيَ مُبْتَدَأُ^(٣) إِفَادَةٍ مَا يَنْبَغِي لَا لِعَوَاضٍ وَلَا لِعَرَضٍ.
وَالْمَعْنَى: لَنْ يَضِيقَ جَاهُكَ بِجُودِكَ بِوَاحِدٍ مِنْ أُمَّتِكَ؛ لِأَنَّ مِنْ جَمَلَةِ جُودِكَ
وَإِحْسَانِكَ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا خَيْرَ الدُّنْيَا بِالْهَدَايَةِ، وَخَيْرَ الْعُقْبَى بِالشَّفَاعَةِ.
وَقِيلَ: مَعْنَى كَوْنِ الْكَوْنَيْنِ مِنْ جُودِهِ: أَنَّهُ وَاسِطَةٌ فِي فَيْضَانِ الْوُجُودِ عَلَى
الْمَاهِيَّاتِ، وَسَيَلَانِ الْجُودِ عَلَى الْمَوْجُودَاتِ، وَفِيهِ تَلْمِيحٌ إِلَى حَدِيثِ: «لَوْلَاكَ
لَمَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ»^(٤).
وَاضْطَرَبَ الشُّرَاحُ فِي الْمِصْرَاعِ الثَّانِي:

(١) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤ / ٤١٢)، وَابْنُ حِبَانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٠٩)، مِنْ حَدِيثِ
أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) فِي هَامِشِ «ل»: «مِنَ الطَّوِيلِ».

(٣) فِي «ل»: «مُبْدَأٌ».

(٤) لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ كَمَا تَقْدُمُ عِنْدَ شَرْحِ الْبَيْتِ رَقْمَ (٣٣).

ف قيل: العلمُ مصدرٌ مضافٌ إلى فاعله؛ أي: عِلْمُ اللّوْحِ والقلمِ بالأشياء، فاحتاج إلى القولِ بأنَّ لهما إدراكاً وشعوراً بما نُسبَ إليهما.

وقيل: إنَّه مضافٌ إلى المفعول؛ أي: عِلْمُ النَّاسِ باللّوْحِ والقلمِ، فاحتاج إلى القولِ بأنَّ فيه أقوالاً.

وقيل: إنَّ الله أطلعه على ما كَتَبَ القلمُ في اللّوْحِ المحفوظ^(١)، وهو عِلْمُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، وهو الأظهر، وتوضيحه: أنَّ المراد بعلمِ اللّوْحِ: ما أُثبتَ فيه من النقوشِ القدسيَّة، والصُّورِ الغيبيَّة، وبعِلْمِ القلمِ: ما أُثبتَ فيه كما شاء، والإضافة لأدنى مُلابسة، وكونُ عِلْمِهما من علومِهِ: أنَّ علومَهُ تنوعُ إلى الكليَّاتِ والجُزئيَّات، وحقائق ودقائق، وعوارف ومعارف، تتعلَّق بالذَّاتِ والصفاتِ، وعِلْمُهما إنَّما يكونُ سَطراً من سطورِ عِلْمِهِ، ونهراً من بحورِ عِلْمِهِ، ثُمَّ مع هذا هو من بركة وجودِهِ على ما نُقِلَ أَنَّهُ وَرَدَ: «أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ نُورِي، فَظَرَّ إِلَيْهِ تَعَالَى نَظَرَ هَيْبَةٍ فَانْشَقَّ نِصْفَيْنِ، فَتَخَلَّقَ مِنْ نِصْفِهِ الْكَوْنَيْنِ»^(٢)، وهو المرادُ من القلمِ، ولذا وَرَدَ: «أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ»^(٣)، فلا تَعَارُضَ. والحاصلُ: إنَّ الدُّنْيَا والآخِرَةَ مِنْ آثَارِ وجودِكَ وجودِكَ، وما ظَهَرَ مِنْ القلمِ على اللّوْحِ مِنْ أَسْرارِ مَعَارِفِكَ وأنواعِ عُلُومِكَ^(٤).

(١) في هامش «ل»: «قوله: وقيل: إن الله أطلعه على ما كتب القلم في اللوح، كما ترى مخالف لما ذكره المفسرون المحققون في قوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال البيضاوي: لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة، وقال صاحب «الكشاف»: لا يطلع على اللوح غير الملائكة، وقال أبو السعود: لا يطلع على اللوح في سواهم إلا الملائكة، وكذا سائر المفسرين المحققين فليطلب ثم. لمحرره».

(٢) لم أجده.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال الترمذي: حسن غريب.

(٤) تقدم الكلام عن هذا البيت في طليعة التقديم لهذا الشرح.

وفي البيت إيماءٌ إلى أَنَّ الجاءَ على الحقيقةِ إنما هو بِالْعِلْمِ باللهِ، والجودِ على الخَلِيقَةِ؛ كما وَرَدَ: أَنَّ كمالَ الإيمانِ هو التَّعْظِيمُ لأمرِ الله، والشَّفَقَةُ على خَلْقِ الله.

١٥٥ - يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ إِنَّ الْكِبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

رُويَ (نَفْسُ) بِضَمِّ السَّيْنِ على أَنَّهُ مَنَادَى مُفْرَدٌ مَعْرِفَةٌ، وَبِكَسْرِهَا على أَنَّهُ مَنَادَى مُضَافٌ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، وَفِي تَخْصِيصِ النَّفْسِ بِالْخِطَابِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِقَابِ، إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْقُنُوطَ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنَ النَّفْسِ، وَإِلَّا فَالْعَقْلُ مُجَوِّزٌ وَالنَّقْلُ مُصَحِّحٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وفيه ردٌّ على المعتزلة والخوارج، الخارجين عن وَرَظَةِ الْعَقْلِ وَإِحَاطَةِ النَّقْلِ، الدَّاخِلِينَ فِي حَضِيضِ النَّفْسِ، الْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، الْآيِسِينَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفيه إشارة لطيفةٌ إلى أَنَّ الْكَفَرَ هو محلُّ الْيَأْسِ، لا غَيْرُهُ مِنَ الْكِبَائِرِ.

و(لَا تَقْنَطِي) بفتح النون وكسرها، و(إِنَّ الْكِبَائِرَ) استئنافٌ فيه معنى التعليل.

والمعنى: أَيُّهَا النَّفْسُ - أَوْ: يَا نَفْسِي - لَا تَيَاسِي مِنْ غُفْرَانِ زَلَّةٍ، أَوْ مِنْ أَجْلِ إِتْيَانِ مَعْصِيَةٍ كَبُرَتْ فِي الْكَيْفِيَّةِ، أَوْ كَثُرَتْ فِي الْكَمِّيَّةِ، فَإِنَّ الْكِبَائِرَ مِنَ الذُّنُوبِ، فِي جَنْبِ غُفْرَانِ غَفَّارِ الذُّنُوبِ، كَالصَّغَائِرِ مِنَ الْعُيُوبِ، فَإِنَّهُمَا تَسْتَوِيَانِ فِي كَوْنِهِمَا تَحْتَ الْقُدْرَةِ، وَضِمْنِ الْمَشِيعَةِ، كَمَا تُشِيرُ إِلَيْهِ الْآيَةُ.

وقد وَرَدَ: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ خُلَصِ عِبَادِهِ، وَكُمُلِ عِبَادِهِ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] أَنشَدَ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ جَمًّا فَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا»^(١)

(١) رواه الترمذي (٣٢٨٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حسن صحيح غريب.

وقال القُشَيْرِيُّ في قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية: التَّسْمِيَةُ بـ ﴿يَعْبَادِيَ﴾ مدحٌ، والوصفُ بأنَّهم أَسْرَفُوا ذمٌّ، فلمَّا قال: ﴿يَعْبَادِيَ﴾ طَمَعُ الْمُطِيعُونَ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْمُقْصُودِينَ بِالْخِطَابِ، والمطلوبين بِالْعِتَابِ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ، وَنَكَسَ الْعَصَاةُ أَعْنَاقَهُمْ، وقالوا: مَنْ نَحْنُ حَتَّى يَقُولَ لَنَا هَذَا؟ وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ انْقَلَبَ الْحَالُ، وَتَقَلَّبَ الْأَمَالُ، والذين نَكَسُوا رُؤُوسَهُمْ انْتَعَشُوا وَزَالَتْ ذِلَّتُهُمْ، والذين رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ أَطْرَفُوا وَازْتَفَعَتْ صَوْلَتُهُمْ، ثُمَّ سَلَّاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، ثُمَّ قَوَّاهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، ثُمَّ أَكَّدَ ﴿الذُّنُوبَ﴾ الْمُسْتَغْفَرَ بِالْأَلْفِ وَالْأَمِّ بِقَوْلِهِ: ﴿جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فَكَانَتْهُ قَالَ: أَغْفِرْ وَلَا أَثْرُكُ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ جَنَایَةٌ عَمِیمَةٌ، فلي عِنَايَةٌ قَدِیمَةٌ^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١٥٦- لعلَّ رَحْمَةً رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعِضْيَانِ فِي الْقِسْمِ

(الْقِسْمُ) بِكَسْرِ الْقَافِ: جَمْعُ الْقِسْمَةِ؛ أَي: أَرْجُو مِنْ حُسْنِ ظَنِّ قَلْبِي أَنَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا وَيُظْهِرُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى أَرْبَابِ النُّفُوسِ اللَّوَاثِمَةِ، تَأْتِي عَلَى مِقْدَارِ عِضْيَانِهِمْ، لَا عَلَى حَسَبِ حِرْمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَرَحْمَتُهُ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَفَضْلُهُ أَشْمَلُ مِنْ عُيُوبِنَا، أَوْ تَظْهَرُ عَلَى مَرَاتِبِ الْعِضْيَانِ، الصَّادِرَةِ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، بَأَن تَكُونَ الرَّحْمَةُ الصَّغِيرَةُ عَلَى طَبَقِ السَّيِّئَةِ الصَّغِيرَةِ، وَالْكَبِيرَةُ عَلَى وَفْقِ الْكَبِيرَةِ، وَكَذَا الْقَلِيلَةُ وَالْكَثِيرَةُ، وَلِذَا قَالَ بَعْضُ الظُّرَفَاءِ مِنْ كُمَّلِ الْعُرَفَاءِ: مِنْ كِمَالِ ظُهُورِ الرَّحْمَةِ فِي الْعُقْبَى يَنْدُمُ الْمُذْنِبُونَ عَلَى تَقْلِيلِ مَعْصِيَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا وَرَدَ فِي الْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُظْهِرُ صَغَائِرَ عِبْدٍ وَيَعْفُو عَنْهَا، وَيُعْطِي فِي مُقَابِلِهَا أَجُورًا كَثِيرَةً، فيقول العبدُ: كَانَ

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٨٧).

لي ذُنُوبٌ كَبِيرَةٌ؟ فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ^(١). فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ الرَّجَاءِ، فَيَجِبُ التَّزَامُ الدُّعَاءِ وَاللَّجَاءِ.

١٥٧- ياربِّ واجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ واجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمٍ (رَبِّ) مَحذُوفُ الْيَاءِ اكْتِفَاءً بِالْكَسْرِ، وَفِي نَسْخَةٍ: (فَاجْعَلْ) بِالْفَاءِ. وَالْإِنْخِرَامُ بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ بِمَعْنَى: الْإِنْقِطَاعِ.

وَالْمَعْنَى: (يَا رَبِّ) ازْحَمْنِي بِمَحْوِ عُيُوبِي وَغُفْرَانِ ذُنُوبِي، (وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ) عِنْدَكَ أَنْ يَكُونَ الْخِذْلَانُ مَوْضِعَ الْغُفْرَانِ، وَالْعُقُوبَةُ مَكَانَ الرَّحْمَةِ، (وَاجْعَلْ حِسَابِي)؛ أَي: حُسْبَانِي وَظَنِّي بِكَ غَيْرَ مُنْقَطِعٍ عَنْ فَضْلِكَ؛ لِقَوْلِكَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(٢).

١٥٨- وَالظُّفُفُ بَعْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ صَبْرًا مَتَى تَلْقَهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ اللَّطْفُ هُوَ الْإِحْسَانُ الْخَفِيُّ، أَوِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ سَبَبٌ جَلِيٌّ. وَقِيلَ: مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِالْعَبْدِ إِبْهَامٌ عَاقِبَتُهُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ سَعَادَتَهُ لَقَلَّ عَمَلُهُ وَاسْتَنَدَ إِلَيْهِ، وَلَوْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَيْسَ وَتَرَكَ التَّدَلُّلَ لَدَيْهِ. وَقِيلَ: مِنْ لُطْفِهِ إِلَيْهِ إِخْفَاءُ أَجَلِهِ عَلَيْهِ؛ لِثَلَا يَسْتَوْحِشُ إِنْ كَانَ قَدْ دَنَا أَجَلُهُ، وَلَا يَسْتَعْصِي إِذَا طَالَ أَمَلُهُ، وَيَسْتَأَخِرَ عَمَلَهُ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَتَبْدِيلُ السِّيئَاتِ حَسَنَاتٍ وَرَدَّ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتِمْنَى لَوْ كَانَ قَدْ زَادَ مِنَ الْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِنُصُوصِ الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِهَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْدَمُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى لَحْظَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ قَضَاهَا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ، فَكَلَامُ ذَلِكَ الظَّرِيفِ مِنَ الْكَمَلِ لَيْسَ صَوَابًا، فَلَعَلَّ جَاهِلًا يَسْمَعُهُ فَيُبَادِرُ إِلَى اغْتِنَامِ الْفُرْصَةِ فِي الدُّنْيَا بِالْإِكْثَارِ مِنَ الْمَعَاصِي لِثَلَا يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ النَّادِمِينَ!

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٧٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي نسخة: (وازْفُق) موضع: (والطف)، وفي نسخة: (تَدْعُهُ) موضع: (تَلْقُهُ)،
واللَّقِيْ أَظْرَفُ.

والمعنى: الطُّفُّ يا لطيفُ بعبدك الضَّعيف، في الدُّنيا بتوفيق الطَّاعَةِ، وفي
العُقْبَى بِالرَّحْمَةِ وَيَلِ الشَّفَاعَةِ، إِنَّ لَهُ صَبْرًا قَلِيلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْأَحْوَالِ، مَتَى تَلْقَهُ الْأَفْزَاعُ
وَالْأَهْوَالِ، يَنْهَزِمُ وَلَا يَثْبُتُ كَالْجِبَالِ مِنَ الرِّجَالِ.

ثُمَّ لَا مَلْجَأَ أَقْوَى مِنْ مُتَابَعَتِهِ وَمُلَازَمَتِهِ صَلَاتَهُ ﷺ، وَشَرَفَ وَكَرَمَ، وَلِذَا قَالَ:

١٥٩ - وَأَنْذَنْ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍّ وَمُنْسَجِمٍ

(أَذَنْ) بمعنى: أَمْرٌ^(١)، مِنْ بَابِ عَلِمَ. (السُّحْبُ) بضمَّتين: جَمْعُ سَحَابٍ، وَسُكُنَ
حَاوُهُ تَخْفِيفًا، وَالْمُرَادُ مِنَ الصَّلَاةِ مَزِيدُ الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ. وَ(مِنْكَ) صِفَةُ (صَلَاةٍ)؛
أَي: وَاقِعَةٍ. وَ(دَائِمَةٍ) صِفَةُ بَعْدَ صِفَةٍ. وَ(عَلَى النَّبِيِّ) متعلِّقٌ بـ (صَلَاةٍ) أَوْ (دَائِمَةٍ).

وَ(بِمُنْهَلٍّ) متعلِّقٌ بـ (أَنْذَنْ)، وَ(مُنْسَجِمٍ) بكسر الجيمِ عَلَى الصَّحِيحِ عَطْفٌ
عَلَيْهِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَنْذَنْ لَهَا بِإِفَاضَةِ مَطَرٍ مُنْصَبٍّ سَائِلٍ.

قِيلَ: أَتَى النَّازِظُ بِالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِ الْكَرَامِ، بِأَبْلَغِ الْوُجُوهِ وَأَحْسَنِ
الْإِكْرَامِ، حَيْثُ جَمَعَ فِي بَيْتِهِ ذِكْرَ الصَّلَاةِ، وَدَوَامِهَا، وَنُزُولِهَا، وَمُبْتَدَأَ النُّزُولِ
وَمُنْتَهَاهَا، وَكَثَرَتِهَا فِي ضِمْنِ الْأَنْصِبَابِ، وَعُمُومِهَا فِي طَيِّ السَّيْلَانِ، وَمَحَلِّهَا،
وَتَشْبِيهِهَا بِالْأَمْطَارِ، وَإِثْبَاتِ السُّحْبِ لَهَا، فَهَذِهِ عَشْرَةُ أَشْيَاءٍ تُسْتَفَادُ مِنْ كَلَامِهِ،
بَعْضُهَا بِالذَّلَالَةِ وَبَعْضُهَا بِالْإِشَارَةِ.

وَفِي لَفْظَةِ (أَنْذَنْ) إِيْذَانٌ بِأَنْ سُحِبَ الصَّلَاةُ حَاضِرَةٌ وَاقِفَةٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَى
إِذْنِهِ تَعَالَى، وَالْإِذْنُ مُتَحَقِّقٌ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَعَ الْمَلَائِكَةِ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ،

(١) فِي «د»: «أَذَنْ أَمْرٌ».

(٢) فِي «ل»: «سَبِيلٌ»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ «د»، وَهُوَ الْأَنْسَبُ بِالسِّيَاقِ.

وقد أمر عبيده المتفادين لَدَيْهِ، بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] تشریفاً له وتعظيماً، ومهابةً وتكريماً^(١).

١٦٠ - مَا رَنَحَتْ عَذَابَاتُ الْبَانِ رِيحٌ صَبَاً وَأَطْرَبَ الْعَيْسُ حَادِي الْعَيْسِ بِالنَّعَمِ
(رَنَحَتْ) بتشديد النون المفتوحة، والحاء المهملة؛ أي: مِيلَتْ، و(مَا) مصدريةٌ ظرفيةٌ لـ (اِئْذَنْ)، قيل: وتُسَمَّى: دَوَامِيَّةً على عُرفِهِمْ؛ لإرادة الدَّوامِ بها، و: (مَا) مدِّيَّةٌ؛ لدلالِتها على مُدَّةٍ مديدةٍ؛ فَإِنَّ هُبُوبَ الصَّبَا وَتَرْيَحَهَا لَأَفْنَانِ الْبَانِ وَإِنْ لَمْ يُوجَدْ عَلَى الدَّوَامِ، لَكِنْ يَمْتَدُّ عَلَى مَدِيدِ الْأَوَانِ وامتدادِ الزَّمانِ، انتهى.

وحاصلُ كلامِهِ: أَنَّ المرادَ: ما دَامَتِ الدُّنيا، وعَبَّرَ بما لا يَخْلُو عَنْهُمَا، ولهذا قال بعضُ الشُّراح: وهذا كنايةٌ عن التَّأْيِيدِ.

و(عَذَابَاتُ) بالحرركات؛ أي: أغصانُ البانِ، وهو شجرٌ له أغصانٌ لطيفةٌ، وأصلُ عَذْبَةِ الشَّيْءِ: طَرَفُهُ اللَّطِيفُ.

وَالصَّبَا: هي الرِّيحُ التي تَهْبُ مِنْ مَطْلَعِ الشَّمْسِ إِذَا اسْتَوَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَتُقَابِلُ بَابَ الْكَعْبَةِ، فَكَأَنَّهَا تَصْبُو إِلَيْهَا وَتَمِيلُ، وَقَدْ يُقَالُ لَهَا: الْقَبُولُ، وَتُقَابِلُهَا الدَّبُورُ، الَّتِي تَهْبُ مِنْ دُبُرِ الْكَعْبَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»^(٢).

قيل: وَلَكُونِ الصَّبَا حَارَّةً رَطْبَةً تُؤَثِّرُ فِي الْأَشْجَارِ وَالْأَغْصَانِ وَتُلَيِّنُهَا، وَتَهَيِّجُ الْقُوَى النَّامِيَّةَ فِي الْأَرْضِ وَتُزَيِّنُهَا بِأَنْوَاعِ الْأَنْوَارِ وَأَصْنَافِ الْأَزْهَارِ، يَتَبَرَّكُ الشُّعْرَاءُ بِذِكْرِهَا فِي الْأَشْعَارِ؛ كَمَا قَالَ:

(١) في هامش «ل»:

«وَأَلِهَ الْعِزَّ وَالصَّحْبَ الَّذِينَ عَلَّمُوا أَهْلَ الصِّفَا وَالْوَفَا وَالْعَقْلَ وَالْكَرَمَ»

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أَلَا يَا صَبَاً نَجِدَ مَتَى هَجَّتْ مِنْ نَجْدٍ فقد زَادَنِي مَسْرَاكَ وَجَدًا عَلَى وَجْدٍ^(١)
 وإضافة الرِّيحِ إِلَى الصَّبَا مِنْ إِضَافَةِ الْعَامِّ إِلَى الْخَاصِّ، وَهِيَ فَاعِلٌ، وَ(عَذَابَات) مفعولٌ، كَذَا ذَكَرَهُ غَالِبُ الشُّرَاحِ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَلَى لِسَانِ الْجُمْهُورِ، لَكِنْ ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ مَوْلَانَا عَصَامُ الدِّينِ أَنَّ فِيهِ إِشْكَالًا، وَهُوَ أَنَّ (رُنَّجَ) فِي اللَّغَةِ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ «التَّاج» وَ«الصَّحاح»^(٢)، فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْرَأَ مَجْهُولًا، وَيُجْعَلَ (رِيحُ صَبَاً) فَاعِلٌ فِعْلٌ مَحْذُوفٌ، أَي: أَمَّا لَتُهُ رِيحُ صَبَاً؛ لِيَكُونَ التَّرْكِيبُ مِنْ قَبِيلِ: (يُسَبِّحُ)^(٣) لَهُ فِي الْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ رِجَالٌ] [النور: ٣٦-٣٧]، انْتَهَى.

والصواب: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

ثم رأيتُ «القاموس» وافقَ بـ «الصَّحاح» فقال: تَرَنَّجَ: تَمَائَلَ سُكْرًا أَوْ غَيْرَهُ، وَرُنَّجَ عَلَيْهِ تَرْنِيحًا بِالضَّمِّ: غُشِيَ عَلَيْهِ، أَوْ اعْتَرَاهُ وَهُنَّ فِي عِظَامِهِ تَمَائِلٌ، وَهُوَ مُرَنَّجٌ كَمُحَمَّدٍ^(٤). لَكِنْ ظَهَرَ لِي أَنَّ بِنَاءَ الْمَجْهُولِ مُخْتَصُّ بِمَا إِذَا تَعَدَّى بـ (عَلَى)، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ خُصُوصُ الْمَعْنَى، وَلَأنَّ (تَرَنَّجَ) مُطَاوَعٌ، فَلَا بَدْلَ لَهُ مِنْ فِعْلِ مُتَعَدٍّ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعْلُومًا كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، فَازْتَفَعَتِ الْجَهَالَةُ وَصَحَّ مَا وَرَدَ، وَ^(٥): «لَا تَجْتَمِعُ أَمْتِي عَلَى الضَّلَالَةِ»^(٦).

(١) البيت من قصيدة لعبد الله بن الدمينية الخثعمي؛ كما في «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (١٠١ / ٢).
 (٢) انظر: «الصَّحاح» و«تاج العروس» مادة: (رنج). لكن الصواب أن المراد بـ «التاج» ليس «تاج العروس»، فإن الزبيدي صاحب «التاج» وفاته سنة (١٢٠٥ هـ)، بينما المؤلف توفي سنة (١٠١٤ هـ)؛ أي: قبله بحوالي مئتي عام، ووفاة العصام الإسفراييني سنة (٩٤٥ هـ). انظر: «الأعلام» (٧٠ / ٧) و(٥ / ١٢) و(١ / ٦٦).
 (٣) بالبناء للمفعول قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم. انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ١٦٢).
 (٤) انظر: «القاموس» (مادة: رنج).
 (٥) الواو من «د»، وليست في «ل».

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٦٢٣) و(١٣٦٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥ / ٢١٨): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح، خلا =

ثُمَّ رَأَيْتُ: قَالَ ابْنُ الْغَازِي: يَقَالُ: رَنَحَتِ الرِّيحُ الْغُصُونَ؛ أَي: أَمَلَتْهُ. ثُمَّ ذَكَرَ مَا فِي «الصَّحَاحِ».

وَالطَّرْبُ^(١): الْخِفَّةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ الْمَسَرَّةِ، الْمُقْتَضِيَةُ لِلهَزَّةِ وَالْحَرَكَةِ، مِنْ طَرَبٍ يَطْرَبُ؛ ك: حَفِظَ يَحْفَظُ، وَيُعَدِّي بِالْهَمْزِ. وَ(الْعَيْسَ) مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ: جَمْعُ أَعْيَسَ، وَهِيَ الْإِبِلُ الَّتِي يُخَالِطُ بَيَاضَهَا شُقْرَةً؛ أَي: أَيْبُضُ يَقْرُبُ إِلَى الْحُمْرَةِ، وَهِيَ كِرَائِمُ الْإِبِلِ، وَلِذَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «أَفْضَلُ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(٢).

وَالْحَدُّ: سَوْقُ الْإِبِلِ، وَقِيلَ: الْغِنَاءُ بِهَا، قَالَ:

فَغَنَّهَا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْخُدَاءُ^(٣)
وَالنَّعَمُ يَفْتَحَتَانِ: الصَّوْتُ الْحَسَنُ.

وَفِي^(٤) «الْقَامُوسِ»: النَّعَمُ مُحَرَّكَةٌ وَتُسَكَّنُ: الْكَلَامُ الْخَفِيُّ، الْوَاحِدَةُ بِهَاءٍ، وَنَعَمَ فِي الْغِنَاءِ كَضَرَبَ وَنَصَرَ وَسَمِعَ، وَتَنَعَّمَ^(٥)، انْتَهَى.

فَمَا نَقَلَ ابْنُ الْغَازِي عَنْ ابْنِ الْمَرْزُوقِ: أَنَّ (النَّعَمَ) فِي بَيْتِ الْقَصِيدَةِ بِكسْرِ النُّونِ، يَحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صَرِيحٍ، أَوْ دَلِيلٍ صَحِيحٍ.

= مرزوق مولى طلحة وهو ثقة. ورواه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر أيضاً بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمْنِيَّ - أَوْ قَالَ: أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ - عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ»، قَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَلَهُ شَاهِدٌ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ (٣٩٥٠) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) فِي «د»: «هَذَا وَالطَّرْبُ».

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٩٤٢) مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَعَلِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي فَنَحْ خَيْرٍ: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

(٣) الرَّجْزُ فِي «جُمُهرَةِ اللُّغَةِ» (٢/ ١٠٤٧)، وَ«دَلَالَةُ الْإِعْجَازِ» (ص ٢١٢).

(٤) فِي «د»: «هَذَا وَفِي».

(٥) انْظُرْ: «الْقَامُوسُ» (مَادَّة: نَعَم).

والجامعُ بينَ تَرْزِيحِ الأغصانِ، وتَفْرِيحِ الهَيَّجَانِ: إيصالُ طائفةٍ مِنَ النَّبَاتِ
وجماعةٍ مِنَ الحَيَوَانَاتِ إِلَى ظُهُورِ جَمَالِهِمَا وَحُصُولِ كَمَالِهِمَا، وفيه تَنْبِيهُ نَبِيَّةٍ عَلَى
أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَيْهِ مُوجِبَةٌ لَجَمَالِ الْمُصَلِّي وَكَمَالِهِ، وَمُقْتَضِيَةٌ لَطَرَبِ حَالِهِ وَحُسْنِ مَالِهِ.
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

قال مؤلفه: فَرَعَ فِي أَوَائِلِ شَهْرِ صَفَرٍ، خُتِمَ بِالْخَيْرِ وَالظَّفَرِ، عَامٌ سِتٌّ بَعْدَ
الْأَلْفِ مِنْ هَجْرَةِ سَيِّدِ الْبَشَرِ، فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ، قُبَالَةَ الْكَعْبَةِ الْمَعْظَمَةِ، زَادَهَا اللَّهُ
تَعَالَى شَرَفًا^(٢) وَكَرَامَةً، وَبِرًّا وَمَهَابَةً.

والبَيَّتَانِ الْمَشْهُورَانِ فِي ذِكْرِ الْأَلِّ وَالصَّحَابَةِ مُلَحِّقَانِ بِالْقَصِيدَةِ، وَلَيْسَا مِنْ كَلَامِ
النَّاطِمِ، وَلِذَا مَا نَظَّمْنَاهُ فِي سِلْكِ الشَّرْحِ، فَلَا يَتَوَهَّمُ خِلَافَ ذَلِكَ الْوَاهِمُ.

(١) فِي «ل»: «وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَعَلَى جَمِيعِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ». وَفِي الْهَامِشِ: «بَلَّغَ مُقَابِلَةً وَتَصْحِيحاً (٢٤) جَمَادَى الْأُولَى، سَنَةَ (١٠٦٥هـ) عَلَى يَدِ
أَفْقَرِ الْوَرَى: مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي أَحْمَدَ عَفِي عَنْهُمَا». وَجَاءَ فِي «د»: «تَمَّتِ الْأَوْرَاقُ بِعَوْنِ الْمَلِكِ الرَّزَّاقِ،
عَلَى يَدِ الْعَبْدِ الْمُشْتَاكِ، إِلَى رُؤْيَةِ رَبِّهِ الْخَلَّاقِ، السَّيِّدِ عَلِيِّ عَفَّرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ، وَلِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَمِئَةَ وَالْفِ».

(٢) جَاءَ بَعْدَهُ فِي «د»: «وإِحْسَانِهِ، آمِينَ بِحَرَمَةِ قُرْآنِ الْعَظِيمِ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ، بِحَرَمَةِ عَرْشِ
الْعَظِيمِ، آمِينَ يَا مَعِينُ».

الرسالة رقم: (٦٤) مجلّة رسالة
المجلة
المجلد
المجلد

شرح بأنبأ مرسلها

تأليف العلامة
المجلد
المجلد

طبع مؤلفاً على ثلاث نسخ مطبوعة

تجقيق وتعليق
محمد مصعب كلثوم

دار اللباب

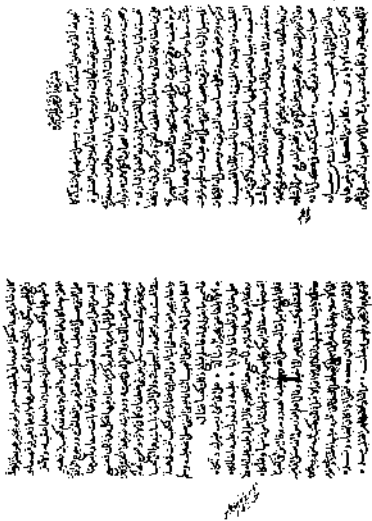
بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي خلق السعداء من العباد، وجعلهم لهم لاشعرا كما أراد.
بمقتضى صفته الخفية، وهو موجب صفاته الجارية، والصلوة والسلام
على السعداء، ومنع العداوات، وتوحيدهم سعدون، وصحة
وحدته، ومناجعتهم من أمته أصحاب الكمال، وأرباب العلم واليات
أما بعد، فيقول الله تعالى: **الذي لا يباري على ابن سلطان محمد**
أقارب، عالمه، بطله، الحق، وكرمه، الحق، هذا شيخ لعريف
وضع شريف، لم يصب مشكلات القسوة الشيرة، بآيات سعدان
منظومات، كتب من عيون أبي علي الذي هداه الله له سبل الرشاد
وأنشأه مني، على الله عليه وسلم، وشرفه، وكريمه، وعرض
قصده، أنه على أسبغة الشريعة، وحصل له الثبات، القلبي، والقلبي
لكنه، فاجتهدت في خدمته، في القسوة، السعداء، بآيات سعدان
من أمته، السعداء، لا يكون من جملة سعدان، من أمته، السعداء
العبد، ولقد سعدت من قال: **عيا رب العالم**
ما من مودة، سعدت من مودة، لكن سعدت من مودة محمد
وقال: **أحسن من السعداء**
مجموعة فضيلة، كثر ما في مودته، الدج من الوفاء
عبد الله سعدت من مودة، وأعلن الله في كل عام
وبما التقوى إلى قصده، **مستغنى** من سعدان
ولكن سعدان، السعداء، وكان في الكرام، سعدان
فإنما كان عبد الله، كتاب الاستعانة، السعداء، لا أصحاب الكرام
زعم كان شافعي، واستغنى من مودته، هو سعدان، سعدان
بسم الله الرحمن الرحيم، وسكن الخيبة، فراكم سعدان، وأبو

زعم من مودته، وأبو سعدان، وكعب، أرسله، سعدان، سعدان
عبد الله، ولا سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
كتب من مودته، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
ورجع الكرام، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
أنت سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
فكل سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
وروي سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
كان في لاشعرا، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
بأسبغة، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
بسم الله الرحمن الرحيم، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
كتب من مودته، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
الأم، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
على سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
روى الله، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
عليه، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
على، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
كما، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
وكثيرا، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
فإن، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان
الله، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان، سعدان

المكتبة السليمانية (س)



مكتبة جامعة أم القرى (ج)



مكتبة ولي الدين أفندي (و)

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة التحقيق

الحمدُ لله الذي شَرَّفَ مقدارَ مَنْ أَرَادَ مِنَ الْعِبَادِ، فَأَنْقَذَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ خَالِقِ الْعِبَادِ، فَأَنْطَقَ كَعْباً بِذِكْرِ سُعَادٍ، تَفَاوُلًا بِهَا فَفَارَ بِالْقُرْبِ وَالْإِسْعَادِ، فَكَانَ مَنْ أَسْعَدَ الْعِبَادِ، بِصَحْبَةِ سَيِّدِ الْعَبِيدِ وَالْأَسْيَادِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِيَدِهِ الْإِسْقَاءُ وَالْإِسْعَادُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مَنْ قَامَ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى وَالرَّشَادِ، فَكَانَ رَحْمَةً لَجَمِيعِ الْعِبَادِ.

وبعدُ:

فهذا شرحٌ لطيفٌ مُنِيفٌ، لِلْقَصِيدَةِ السَّعِيدَةِ الشَّهِيرَةِ بِـ (بَانَتْ سُعَادُ)، لَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، فَتَشَرَّفَ بِصَحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ هَادِي الْعِبَادِ، فَتَفَجَّرَتْ قَرِيحَتُهُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَهُوَ مِنْ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ الْمُخْضَرِّمِينَ، فَأَبْدَى فِيهَا اعْتِذَارَهُ، بَعْدَ أَنْ مَدَحَ الرَّسُولَ ﷺ، بِأَسْلُوبٍ رَاقٍ وَرَائِقٍ وَمُتَأَلِّقٍ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ عُدْرَتَهُ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ بُرْدَتَهُ الشَّرِيفَةَ، فَطَارَ صَيْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ السَّعِيدَةِ فِي الْأَفَاقِ؛ فَنَالَتْ مِنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّ الْعَنَاءِ وَالْإِعْتِنَاءِ، لِمَا حَوَتْهُ مِنْ عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي التَّصْوِيرِ الْفَنِيِّ الْإِبْدَاعِيِّ التَّخْيِيلِيِّ، وَالْمَجَازَاتِ وَالتَّشْبِيهَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ، فَاشْتَهَرَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِاسْمِ:

«بَانَتْ سُعَادُ»

فَجَاءَ الشُّعْرَاءُ مِنْ بَعْدِهِ يَنْظُمُونَ عَلَى مَنَوَالِهِ، حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ بُنْدَارَ الْأَصْفَهَانِيِّ كَانَ يَحْفَظُ تِسْعَ مِائَةِ قَصِيدَةٍ، أَوَّلُ كُلِّ قَصِيدَةٍ مِنْهَا: بَانَتْ سُعَادُ. بَلْ إِنَّ بَعْضَ الشُّعْرَاءِ جَاءَ فَعَارَضَهَا، فَقَامَ بِتَخْمِيسِهَا وَتَسْبِيعِهَا.

ولما كانت القصيدة قد حوت ألفاظاً يحتاج قارئها إلى شرح غريبها
ومعرفة المُرَاد منها، فقد قام بعض العلماء بشرح ألفاظها، وتبيين غريبها،
فكشف عن مُخَدَّرَاتِ هذه القصيدة؛ كابن جَمَاعَة، وابن هشام الأنصاري، وابن
حجر الهيتمي، والفاضل الهندي بهاء الدين مُحَمَّد بن تاج الدين الأصبهاني،
وإبراهيم الباجوري، وغيرهم.

ثم جاء العلامة المَلَأَ عليّ القاري، فأراد أن يخدم تلك القصيدة السعيدة؛ ببيان
بعض ما فيها من المقاصد الحميدة؛ ليكون من جملة خدمة المادحين في المراسد
العديدة، فشرع بهذا الشرح المبارك، فشرح المفردات، وقام بضبطها وإعرابها وبيان
جملتها ومحلّها، فأزال الإشكال عن غريب الألفاظ، وتحرّى في ضبطها كلّ التحري،
واستشهد بكثير من آي الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول الكريم، وبيّن ما فيها من
حُسن المقطع والمطلع، وصنعة تشابه الأطراف، وغيره من بدائع الأصناف، وما
حوته من الدرر والنكت والفوائد.

وقام أيضاً بعد أن شرح ألفاظ القصيدة، ببيان المعنى العام للبيت، وبيّن ما فيه
من الأساليب البلاغية، ولم يخل شرحه من نكت لطيفة، وحكم شريفة.

هذا، ولقد أشار العلامة القاري إلى ما وقع في هذه القصيدة من روايات
واختلافات في النسخ، ووجه بعضها وبينها، فالقصيدة مليئة بالعلوم اللغوية
والبلاغية، مما يستلزم على الطلاب إذا أرادوا أن تقوى بلاغتهم وفصاحتهم أن
يقوموا بحفظها ومطالعته.

فها هو يستنبط من هذه القصيدة السعيدة: استحباب سماع هذه القصيدة،
وتحسين مراتب مرامه العديدة، على ما فيها من لفت الحضرة المصطفوية،
ووصف أصحابه المرصية، وغيرها من الفضائل البهية، والشمائل السنية،

ومعرفة القواعد العربية، والفوائد الأدبية، التي بها فاقت جميع القصائد، ونال صاحبها بها أعلى المراتب والمقاصد.

وقد اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على ثلاث نسخ خطية؛ الأولى نسخة ولي الدين أفندي ورمزها «و»، وهي نسخة جيدة كاملة، والثانية: نسخة المكتبة السلিমانيّة ورمزها «س»، والنسخة الثالثة نسخة جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، وهي نسخة جيدة مذهبة، إلا أنها ناقصة غير كاملة ورمزها «ج».

هذا، وقد أثبتنا القصيدة كاملة ليسهل الرجوع إليها ومطالعتها، وحفظها، فإنها جديرة بالوقوف عليها، فهي من غرر القصائد والشعر العربي.

سائلين المولى سبحانه وتعالى أن نكون قد وفّقنا لإخراج هذه الرسالة كما أراد المصنّف، وأن يتجاوزَ عمّا وقع فيها من خطأ وزلل، وأن يجعلنا من عباده السعداء؛ إنّه عفو كريم وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين.

المحقق

قصيدة بانث سعاد

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ
 وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلَتْ
 هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ
 تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
 شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ
 تَنْفِي الرِّيحَ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرِطُهُ
 أَكْرِمَ بِهَا خِلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
 لَكِنَّهَا خِلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دَمِهَا
 فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
 وَلَا تُمَسِّكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي رَعَمَتْ
 فَلَا يَعْرِنُكَ مَا مَنَتْ وَمَا وَعَدَتْ
 كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا
 أَرْجُو وَأُمِّلُ أَنْ تَذْنُو مَوَدَّتْهَا
 أُمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا
 وَلَنْ يُبْلَغَهَا إِلَّا عُدَافِرَةٌ

مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
 إِلَّا أَغْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
 لَا يُشْتَكِي قِصْرُ مِنْهَا وَلَا طُولُ
 كَأَنَّهُ مِنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ
 صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
 مِنْ صَوْبِ سَارِيَةِ يَبْضُ يَعَالِيلُ
 مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ
 فَجَعُ وَوَلَعُ وَإِخْلَافُ وَتَبْدِيلُ
 كَمَا تَكُونُ فِي أَثَوِبِهَا الْغُولُ
 إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءُ الْعَرَايِلُ
 إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَخْلَامَ تَضْلِيلُ
 وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
 وَمَا إِحْالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ
 إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَاسِيلُ
 لَهَا عَلَى الْآيِنِ إِزْقَالُ وَتَبْغِيلُ

مِنْ كُلِّ نَضَاحَةِ الذُّفْرِى إِذَا عَرِقَتْ
تَرْمِي الْغُيُوبَ بَعَيْنِي مُفَرِّدٍ لَهَقِ
ضَخْمٌ مُقَلَّدُهَا عَيْلٌ مُقَيَّدُهَا
غَلْبَاءُ وَجَنَاءُ عُلُكُومٍ مُذَكَّرَةٌ
وَجِلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ لَا يُؤَيِّسُهُ
حَرْفٌ أَخُوهَا أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ
يَمْشِي الْقِرَادُ عَلَيْهَا تُسَمُّ بِزُلْقَةٍ
عَبْرَانَةٌ قُذِفَتْ بِالنَّخْضِ عَنْ عُرْضٍ
كَأَنَّمَا فَاتَ عَيْنِيهَا وَمَذْبَحُهَا
ثَمَرٌ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلٍ
قَنَوَاءُ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا
تُخْدِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ
سُمُرُ الْعُجَايَاتِ يَتَرُكْنَ الْحَصَى زَيْمًا
كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعِيهَا إِذَا عَرِقَتْ
يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْجِرَاءُ مُضْطَخِدًا
وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ وَقَدْ جَعَلْتُ
شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَيْطَلٍ نَصَفِ
نَوَاحَةٍ رِخْوَةٍ الصَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا
تَفْرِي اللَّبَانَ بِكَفِّهَا وَمَذْرَعُهَا

عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ
إِذَا تَوَقَّعَتِ الْحِزَانَ وَالْمِيسِلُ
فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ
فِي دَفِّهَا سَعَةٌ قُدَّامُهَا مِيلُ
طَلَحُ بِضَاحِيَةِ الْمَتْنَيْنِ مَهْزُولُ
وَعَمُّهَا خَالُهَا قَوْدَاءُ شَمْلِيلُ
مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابُ زَهَالِيلُ
مِرْفَقُهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّرُورِ مَفْتُولُ
مِنْ خَطْمِهَا وَمِنْ اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيلُ
فِي غَارِزٍ لَمْ تَخَوْنَهُ الْأَحَالِيلُ
عِتْقُ مُيَسِّنٍ وَفِي الْخَدَّيْنِ تَسْهِيلُ
ذَوَابِلُ مَسْهُنٍ الْأَرْضَ تَحْلِيلُ
لَمْ يَقْهِنَ رُؤُوسَ الْأَكْمِ تَنْعِيلُ
وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ
كَأَنَّ ضَاحِيَهُ بِالشَّمْسِ مَمْلُولُ
وُزِقَ الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَى: قِيلُوا
قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ
لَمَّا نَعَى بِكُرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ
مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهِهَا رَعَايِلُ

يَسْعَى الْوُشَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمْ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ
كُلُّ ابْنِ أُتْنَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
أُنَيْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
فَقَدْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ مُعْتَذِرًا
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَلَا
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنَا زَعُهُ
لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمُهُ
مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الْأَسَدِ مَسْكَنُهُ
يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْعَامَيْنِ عَيْشُهُمَا
إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لَا يَجِلُّ لَهُ
مِنْهُ تَظَلُّ سَبَاعُ الْجَوْ ضَامِرَةٌ
وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثَقَةٍ
إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
فِي عُضْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ

إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولُ
لَا أَلْفَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَدْبَاءُ مَحْمُولُ
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَا مُمُولُ
وَالْعُذْرُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَقْبُولُ
قُرْآنٌ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
أُذْنِبُ وَإِنْ كُثِرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ
أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَمْ يَسْمَعْ الْفِيلُ
مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلُ
فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلَهُ الْقِيلُ
وَقِيلَ إِنَّكَ مَسْنُوبٌ وَمَسْئُولُ
مِنْ بَطْنِ عَثَرَ غَيْلٍ دُونَهُ غَيْلُ
لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَغْفُورٌ خَرَادِيلُ
أَنْ يَتْرُكَ الْقَرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَفْلُولُ
وَلَا تَمْشَى بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ
مُطَرَّحُ الْبَزِّ وَالذَّرْسَانِ مَأْكُولُ
مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
يَبْطِنُ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا: زُولُوا

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ
شُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَسَالٌ لَبُوسُهُمْ
يَبِضُّ سَوَابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ
يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعِصْمُهُمْ
لَا يَقَعُ الطَّغْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ
عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَارِيلُ
مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِعًا إِذَا نِيلُوا
ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ
وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السُّعْدَاءَ مِنَ الْعِبَادِ، وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْأَشْقِيَاءَ كَمَا أَرَادَ، بِمُقْتَضَى نِعْوَتِهِ الْجَمَالِيَّةِ، وَبِمَوْجِبِ صِفَاتِهِ الْجَلَالِيَّةِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ، وَمَنْبَعِ السَّعَادَاتِ، وَعَلَى مَنْ سَعِدَ بِقُرْبَتِهِ وَصُحْبَتِهِ وَخِدْمَتِهِ وَمُتَابَعَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَصْحَابِ الْكَمَالَاتِ، وَأَرْبَابِ الْإِهْمَمِ الْعَالِيَّاتِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول المفتقر إلى برِّ ربه الغنيِّ الباري، عليُّ بنُ سلطانٍ محمدٍ القاري، عامَلَهُ اللهُ بِلُطْفِهِ الْخَفِيِّ، وَكَرَمِهِ الْوَفِيِّ: إِنَّ هَذَا شَرْحٌ لَطِيفٌ وَفَتْحٌ شَرِيفٌ؛ لِحُلِّ بَعْضِ مُشْكِلَاتِ الْقَصِيدَةِ الشَّهِيرَةِ بِ: «بانت سعاد» مِنْ مَنْظُومَاتِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، الَّذِي هَدَاهُ اللهُ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَتَشَرَّفَ بِصُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ، وَعَرَّضَ قَصِيدَتَهُ عَلَى مَسَامِعِهِ الشَّرِيفَةِ، وَحَصَلَ لَهُ النُّكَاتُ اللَّطِيفَةُ، وَالصَّلَاتُ الْمُنِيفَةُ، فَأُحْبِبْتُ أَنْ أَخْدُمَ تِلْكَ الْقَصِيدَةَ السَّعِيدَةَ، بِيَانِ بَعْضِ مَا فِيهَا مِنَ الْمَقَاصِدِ الْحَمِيدَةِ؛ لِأَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ خَدَمَةِ الْمَادِحِينَ فِي الْمَرَاصِدِ الْعَدِيدَةِ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ مِنْ أَرْبَابِ الْحَالِ:

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَدِيحَتِي لَكِنْ مَدَحْتُ مَدِيحَتِي بِمُحَمَّدٍ
وَقَالَ آخَرُ مِنَ الْفُضَّلَاءِ^(١):

(١) هو أبو إسحاق الغزي كما في «أبجد العلوم» للقنوجي (١/٣٣٧).

جُحُودُ فَضِيلَةِ الشُّعْرَاءِ غِيٌّ وَتَفْخِيمُ الْمَدِيحِ مِنَ الرَّشَادِ
مَحَتْ بَانَتْ سَعَادُ ذَنْوبَ كَعْبٍ وَأَعْلَتْ كَعْبَهُ فِي كُلِّ نَادٍ
وَمَا افْتَقَرَ النَّبِيُّ إِلَى قَصِيدٍ مُشَبَّهٍ بِيَانَتْ^(١) مِنْ سَعَادِ
وَلَكِنْ سَنَ إِسْدَاءِ^(٢) الْأَيَادِي وَكَانَ إِلَى^(٣) الْمَكَارِمِ خَيْرَ هَادٍ
قال ابنُ عبدِ البرِّ في كتاب «الاستيعاب لأحوال الأصحاب»: إنَّ كعبَ
ابنِ زهيرٍ كانَ شاعراً مُجِيداً^(٤) مُكْتَرِأً مُقَدِّماً فِي طَبَقَتِهِ هُوَ وَأَخُوهُ بُجَيْرٌ، وَهُوَ
بِضَمِّ الْمَوْحِدَةِ وَفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ التَّخْتِيةِ فِرَاءٍ، وَكَعْبٌ أَشْعَرُهُمَا، وَأَبُوهُمَا
زُهَيْرٌ فَوْقَهُمَا وَأَشْهَرُهُمَا، وَلَكَعْبٍ ابْنَانِ شَاعِرَانِ جَلِيلَانِ؛ أَحَدُهُمَا عَقْبَةُ وَالْآخَرُ
الْعَوَامُ، مَا كَانَ لهُمَا نَظِيرٌ بَيْنَ الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ.

وقد قَدِمَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الطَّائِفِ، وَرَجُوعِ
الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ مِنَ الطَّوَائِفِ، فَأَنشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلُهَا: «بَانَتْ سَعَادُ» بِأَسْرِهَا،
وَأَتْنَى بِهَا عَلَى السُّمَّاهِجِينَ وَلَمْ يَذْكُرِ الْأَنْصَارَ فِيهَا، فَكَلَّمَهُ الْأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ،
فَصَنَعَ فِيهِمْ شِعْراً هُنَالِكَ.

وَلَا أَعْلَمُ لَهُ فِي صُحْبَتِهِ وَرَوَاتِهِ غَيْرَ هَذَا الْخَبَرِ^(٥).

وَكَانَ مِنْ بَنِي مُزَيْنَةَ، لَكِنَّهُ سَكَنَ بَيْنَ بَنِي غَطَفَانَ، كَمَا فِي الْأَثَرِ.

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» وَصَحَّحَهُ، وَابْيَهَقْتُ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ»

(١) فِي «أَبْجَدِ الْعُلُومِ»: «بَيِّن».

(٢) أَي: إِيصَالُهَا وَإِبْدَاءُهَا.

(٣) فِي «و»: «مَنْ»، وَالْمَثْبُوتُ مِنْ «س»، وَهُوَ الصَّوَابُ.

(٤) فِي مَطْبُوعِ «الاستيعاب»: «مَجُوداً».

(٥) انْظُرْ: «الاستيعاب فِي مَعْرِفَةِ الْأَصْحَابِ» لِابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ (٢/ ١٣١٣).

بأسانيدهما: أن كعباً وأخاه بُجَيْراً خرّجا حتّى أتيا أبرقَ العزّاف^(١)، فقال بُجَيْرٌ لكعبٍ: أثبت في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل العجيب الشأن - يعني: النبي ﷺ - فأسمع ما يقول، فجاء^(٢) فأسلم، فبلغ ذلك كعباً، فقال:

أَلَا أبلغَا عني بُجَيْراً رسالةً على أيّ شيءٍ ونِبَ غيرك ذلكا
على خلقي لم تُلفِ أمّاً ولا أباً عليه ولم تُدرِكْ عليه أخاك لكا
رُوي أنه عليه السّلام لما سمعَ هذا الكلام، قال: «أجل لم يُلَفِّ عليه أباهُ ولا أمّه». ومنهّا:

سقاكَ أبُو بكرٍ بكأسٍ رويّةً

وفي رواية:

شَرِبْتَ بكأسٍ عندَ آلِ محمّدٍ وأنّهلك المأمونُ منها وعلّكا
فلَمّا بلغتِ الأبياتُ إليه صَلَّى اللهُ وسلّمَ عليه أهدَرَ دَمَهُ، وقال: مَنْ لِقِيَ كعباً، فليقتله، فكتبَ بذلك بُجَيْرٌ إلى أخيه، وقال: اعلمُ أن رسولَ الله ﷺ لا يأتيه أحدٌ يشهدُ أن لا إله إلا الله إلا قبلَ ذلك، وكتبَ إليه يُخَوِّفُهُ ويدعوهُ إلى الإسلامِ بقولِهِ:

(١) أبرقُ العزّاف: ماءٌ لبني أسدٍ بنِ خزيمة بن مُذَرَّةٍ مشهُورٌ، له ذِكرٌ في أخبارِهِم، وهو في طَريقِ القاصِدِ إلى المَدِينَةِ مِنَ البَصْرَةِ يُجاءُ مِنْ حِوَالَةِ الدَّرَاجِ إِلَيْهِ، وَمِنْهُ إِلَى بَطْنِ نَحْلٍ، ثُمَّ الطَّرَفُ، ثُمَّ المَدِينَةُ. وهو بَيْنَ المَدِينَةِ والرَّبَذَةِ على عَشْرِينَ مَيْلاً مِنْهَا. وفي رواية: على اثني عشر مَيْلاً، والأبارقُ في بلاد العرب كثيرةٌ، والأبرقُ لغةٌ: الموضعُ المرتفعُ ذو الحِجَارَةِ والرملِ والطِينِ، وسميَ أبرقَ العزّاف: لأنهم كانوا يسمعون به عَزِيفَ الجَنِّ، أي: صوتهم، والله أعلم. انظر: «تاج العروس» للزبيدي (٢٤ / ١٥٥) (مادة: عزف)، و«المعالم الأثيرة في السنة والسيرَة» (ص ١٦). ووقع في النسختين وفي مطبوع «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢ / ١٣١٣): «أبرق العراق»، والمثبت هو الصواب.

(٢) في «س»: «فجاءه».

فَمَنْ مُبْلَغُ كَعْبٍ فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَخْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْعُزَى وَلَا الْأَلَاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُقْلَبٍ مِنْ النَّارِ إِلَّا طَاهَرُ الْقَلْبِ مُسْلِمٌ
فَدَيْنُ زَهِيرٍ - وَهُوَ لَا شَيْءَ - بَاطِلٌ وَدَيْنُ أَبِي سُلَيْمَى عَلَيَّ مُحَرَّمٌ

فَأَسْلَمَ كَعْبٌ كَذَلِكَ، وَقَالَ قَصِيدَتُهُ: (بَانَتْ سَعَادُ هُنَالِكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى أَنَاخَ
بِبَابِ الْمَسْجِدِ، وَدَخَلَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَانَ الْمَائِدَةِ مِنَ الْقَوْمِ، يَتَحَلَّقُونَ حَوْلَهُ،
يَلْتَفِتُ إِلَى هَؤُلَاءِ مَرَّةً وَإِلَى هَؤُلَاءِ مَرَّةً؛ فَيُحَدِّثُهُمْ، قَالَ كَعْبٌ: فَعَرَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
بِالْصِّفَةِ؛ فَتَخَطَيْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَأَسْلَمْتُ، وَقُلْتُ: الْأَمَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

قَالَ: «وَمَنْ أَنْتَ؟» قُلْتُ: أَنَا كَعْبٌ. قَالَ: «الَّذِي يَقُولُ»، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ،
فَقَالَ: كَيْفَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَأَنْشَدَهُ أَبُو بَكْرٍ:

سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ وَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ
فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذَا قُلْتُ! قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: قُلْتُ:

وَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَأْمُونٌ^(١) وَاللَّهِ»، ثُمَّ أَنْشَدَ الْقَصِيدَةَ كُلَّهَا، وَسَأَلَ الْحَاكِمُ
الْقَصِيدَةَ بِتَمَامِهَا^(٢).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ فِي «طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ» بِسَنَدِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ:
قَدِمَ كَعْبٌ مُتَنَكِّرًا حِينَ بَلَغَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَوْعَدَهُ، فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ، فَلَمَّا صَلَّى

(١) فِي «س»: «مَأْمُون».

(٢) رَوَاهَا الْحَاكِمُ (٦٤٧٧)، وَابِيهَقِي فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٥ / ٢٠٧) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
كَعْبِ بْنِ زَهِيرٍ.

الصُّبْحَ أَنَاهُ وَهُوَ مُتَلَثِّمٌ بِعِمَامَتِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَجُلٌ يَبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَبَسَطَ يَدَهُ وَحَسَرَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا مَكَانُ الْعَائِذِ بِكَ، أَنَا كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ، فَأَمَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنشَدَهُ مَذْحِجَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا: بَانَثُ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ، حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا، فَكَسَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُرْدَةً، اشْتَرَاهَا مَعَاوِيَةُ بِمَالٍ كَثِيرٍ؛ فَهِيَ الْبُرْدَةُ الَّتِي يَلْبَسُهَا الْخُلَفَاءُ فِي الْعِيدِينَ^(١).

وقد ذكر التَّبْرِيزِيُّ فِي «طَبَقَاتِ النُّحَاةِ»: أَنَّ بُنْدَارَ الْأَصْفَهَانِيِّ كَانَ يَحْفَظُ تِسْعَ مِئَةِ قَصِيدَةٍ، أَوَّلُ كُلِّ قَصِيدَةٍ مِنْهَا: بَانَثُ سُعَادُ^(٢).

وذكر السيوطي منها عشرة؛ منها: قولُ زهيرٍ والدِ كعبٍ:

بَانَثُ سُعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَ وَلَيْتَ وَضَلَّ لَنَا مِنْ حَبْلِهَا رَجَعًا^(٣)
وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالزُّبَيْرِيُّ بْنُ بَكَّارٍ فِي «أَخْبَارِ الْمَدِينَةِ» مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ زَيْدِ ابْنِ جُدْعَانَ، قَالَ: أَنشَدَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ: بَانَثُ سُعَادُ^(٤).
وَأَخْرَجَهُ فِي «الْأَغَانِي» بَلْفَظٍ: فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ^(٥)، لَا مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ.

ثُمَّ اعْلَمْ: أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ احْتَوَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الْمُبَارَكَةُ النَّسِيبُ^(٦)، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّرْكِيبِ.

(١) انظر: «طَبَقَاتُ فَحُولِ الشُّعْرَاءِ» (١/ ١٠٣). وقوله: (فَهِيَ الْبُرْدَةُ الَّتِي يَلْبَسُهَا الْخُلَفَاءُ فِي الْعِيدِينَ) قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: زَعَمَ ذَلِكَ أَبَانُ.

(٢) انظر: «طَبَقَاتُ النُّحَوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ» (ص: ٢٠٨).

(٣) انظر: «شَرْحُ شَوَاهِدِ الْمَغْنِيِّ» لِلْسَيُوطِيِّ (٢/ ٥٢٩).

(٤) رَوَاهُ الْحَاكِمُ (٦٤٧٨)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٥/ ٢١١)، وَالزُّبَيْرِيُّ بْنُ بَكَّارٍ كَمَا فِي «شَرْحِ شَوَاهِدِ الْمَغْنِيِّ» لِلْسَيُوطِيِّ (٢/ ٥٢٩)، وَعَنْهُ نَقَلَ الْمُؤَلِّفُ.

(٥) انظر: «الْأَغَانِي» (١٧/ ٩٢).

(٦) فِي «س»: «التَّشْيِيبُ».

منها: ذكرُ ما في المحبوبِ من الصفاتِ المحمودَةِ؛ كحُمْرَةِ الخَدِّ، ورشاقَةِ القدِّ.

ومنها: ما في المُحِبِّ المتبولِ^(١)؛ كالنُّحولِ والدُّبولِ.

ومنها: ما يتعلَّقُ بهما من وصلٍ وهجرٍ، وشكوى وعُذْرٍ، ووفاءٍ وجفاءٍ.

ومنها: ما يتعلَّقُ بغيرهما؛ كالوُشاةِ والرُّقباءِ.

والنوعُ الأولُ يُسمَّى أيضاً تشبيهاً^(٢).

فالآنَ أَنْ تُشَرِّعَ في المقصودِ بعونِ الملكِ المعبودِ:

بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ

(بَانَتْ) من البَيْنِ، وهو الفِرَاقُ والوَصْلُ؛ فهو من الأضدادِ، ولم يَقُلْ

نحو: ذهبتُ وراحتُ؛ تفاؤلاً بما في (بانَتْ) من ذكرِ الوَصْلِ للمُشتاقِ، وتحزُّناً

عَمَّا هو نصٌّ في معنى الفِرَاقِ.

و(سُعَادُ) بضمٍّ أولِهِ: علمٌ امرأةٌ يَهْواها في الحقيقةِ، أو ادِّعاءٌ في الطريقةِ.

والفاءُ في (فَقَلْبِي) لمحضِ السَّبْبِ لا لمجرّدِ العُطفِيةِ، والمرادُ بالقلبِ هنا:

الفؤادُ، وسمِّي قلباً لتقلُّبه في هَوَى نحوِ سُعَادِ.

و(الْيَوْمَ) ظرفٌ لِمَا بعدهُ، وقُدِّمَ للحصرِ.

و(مَتَّبُولُ) بتقديمِ الفوقِيةِ على الموحِّدةِ، مِنْ تَبَلُّهُ الحُبِّ؛ أي: أسَقَمَهُ

(١) في «و»: «المقبول».

(٢) قال أبو علي القيرواني في «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» (٢/ ١١٧): حق النسيب أن

يكون حلّو الألفاظ رسلها، قريب المعاني سهلها، غير كزٍّ ولا غامض، وأن يختار له من

الكلام ما كان ظاهر المعنى، ليِّن الإشار، رطب المكسر، شفاف الجوهر، يطرب الحزين،

ويستخف الرصين... والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد.

وأضناه وأضعفه، وفي نسخة بتقديم الموحدة، من البتل بمعنى القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِلًا﴾ [المزمل: ٨]؛ أي: انقطع إليه كمالاً وتكميلاً، ومنه البتول للزهراء؛ لانقطاعها عن^(١) الدنيا بأنواعها.

و(مُتَيِّمٌ) بتشديد التحتية المفتوحة، خبرٌ بعدَ خبرٍ، من تيمم الحب وتامه، بمعنى: استعبده وأذلّه، وقيل في معناه: المجمعول عبداً؛ إذ المُجَبُّ في جناب الحبيب كالعبد اللبیب في مقام الإطاعة في كل ساعة، أو مُذَلَّلٌ مُحَقَّرٌ مأمورٌ مُنقادٌ؛ إذ العبودية تستلزم ذلك في المعتاد.

و(إِثْرَهَا) بكسر فسكون، ظرفٌ (مُتَيِّمٌ)، أو حالٌ من ضميره، والأول أظهر. والأثر: ما يظهر في الأرض من أثر القدم؛ أي: مُتَيِّمٌ وقتَ ظهورِ أثرها، بحذف مُصَافِينَ، ولذا جازَ كونه ظرفاً.

و(لَمْ يُفَدَ) بصيغة المجهول، من فدى الأسير: إذا أعطاه فداءً واستنقذه وخلّصه، صفةٌ (مُتَيِّمٌ)، أو خبرٌ آخر لـ (قَلْبِي)، وكذا (مَكْبُولٌ)؛ أي: عاشقٌ مأسورٌ، ومشتاقٌ محصور، من الكبل والأسر، وهو ما يُشدُّ به الأسير من جبلٍ أو غيره، يقال: كَبَلَهُ بتخفيف الموحدة: وضع رجله في الكبل، بفتح الكاف وتكسر، وهو القيد.

والمعنى: ظهرَ بعدَ سُعادٍ ففؤادُ العاشقِ المُشتاقِ سقيمٌ من ألمِ الفراق، ومنقطعٌ عن كلِّ حظٍّ ومراد، ومُتَحَيِّرٌ في عَقِبِهَا في كلِّ وادٍ؛ إذ لم يحصل له خلاصٌ من أسرِ الرِّقِّ بين العباد.

ولا يَخْفَى حُسْنُ هذا المَطْلَعِ من مَشْرِقِ الأقوال، وبراعة الاستهلال، الذي يصلح أن يُعدَّ من السَّحْرِ الحلالِ.

وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلَتْ إِلَّا أَعْنُ غَضِيضِ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

(١) في «و»: «من».

(مَا) نَافِيَةٌ، وَالْغَدَاةُ: اسْمٌ لِمُقَابِلِ الْعَشِيِّ، وَقَدْ يُرَادُ بِهَا مَطْلَقُ الزَّمَانِ، كَالسَّاعَةِ وَالْيَوْمِ، كَمَا هُوَ الْمَرَادُ هُنَا.

و(الْبَيِّن) مُصَدِّرٌ بَانَ وَ(أَل) فِيهِ لِتَعْرِيفِ الْحَقِيقَةِ.

و(غَدَاةُ الْبَيِّن) ظَرْفٌ لِمَا فُهِمَ مِنَ الْكَلَامِ؛ أَي: يُحْكَمُ عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ التَّامُّ، أَوْ قَصُرَتْ^(١) الصِّفَةُ الْمَذْكُورَةُ غَدَاةُ الْبَيِّنِ مِنَ الْأَيَّامِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ (بَانَتْ)، أَوْ عَطْفٌ عَلَى الْفِعْلِيَّةِ، لَا عَلَى الْأَسْمِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ أَقْرَبَ وَأَنْسَبَ لَكُونَهَا اسْمِيَّةً؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ لَا تُشَارِكُ تِلْكَ فِي التَّسْبُبِ عَنِ الْبَيِّنُونَةِ، وَالْأَصْلُ: وَمَا هِيَ، فَوَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ اسْتِلْذَاذًا بِتَذْكَارِ اسْمِهَا، وَتَلَطُّفًا بِتَكَرُّارِ اسْمِهَا، كَمَا قِيلَ:

أَعِدْ ذِكْرَ نَعْمَانٍ لَنَا إِنَّ ذِكْرَهُ هُوَ الْمِسْكُ مَا كَرَّرْتَهُ يَتَضَوَّعُ^(٢)
وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ»^(٣).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٤١]، وَوَرَدَ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ»^(٤).

وَحُسْنُهُ الْفَصْلُ بِالْجُمْلِ، وَكَوْنُهُ فِي بَيْتٍ آخَرَ مِنَ الْمَحَلِّ.
وَقَوْلُهُ: (إِذْ رَحَلْتُ) بَدَلٌ مِنَ (الْغَدَاةِ) بَدَلُ الْكُلِّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مَرْيَم: ٣٩]، وَفِي نَسَخَةٍ: (إِذْ رَحَلُوا) بِصِيغَةِ الْجَمْعِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا

(١) فِي «و»: «وَأَقْصُرْتَ»، مَكَانَ: «أَوْ قَصُرْتَ»، وَالْمَثْبُتُ مِنْ «س».

(٢) الْبَيْتُ، أَوْرَدَهُ الزَّيْدِيُّ فِي «تَاجِ الْعُرُوسِ» (٢١ / ٤٢٩) مَادَّةَ (ضَوْع).

(٣) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ، وَالدِّيلَمِيُّ مِنْ حَدِيثِ مِقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هَنْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَائِشَةَ بِهِ مَرْفُوعًا، كَمَا فِي «الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ» لِلْسَّخَاوِيِّ (ص ٦١٩).

(٤) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣ / ٦٨)، وَأَبُو يَعْلَى فِي «الْمُسْنَدِ» (١٣٧٦)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»

(١٨٣٩) مِنْ طَرِيقِ دِرَاجٍ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لَضَعْفِ دِرَاجٍ - وَهُوَ ابْنُ سَمْعَانَ - فِي رَوَايَتِهِ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ وَهُوَ سَلِيمَانُ بْنُ عَمْرِو الْعَتَوَارِيِّ.

رحلت مع قومها، أو بإرادة تعظيمها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ [طه: ١٠].
و(الأغن): مَنْ فِي صَوْتِهِ غُنَّةٌ، وَهِيَ صَوْتُ لَذِيذٌ يَخْرُجُ مِنْ أَقْصَى الْأَنْفِ يُشَبَّهُ
بِهِ صَوْتُ الرِّيحِ الْمُؤْتَلِفَةِ فِي الْأَشْجَارِ الْمُتَلَفَّةِ، وَهُوَ صِفَةُ مُحْذُوفٍ؛ أَي: إِلَّا إِنْسَانٌ أَوْ
غَزَالٌ أَغْنُ، لَا خَبْرٌ حَتَّى يَرِدَ أَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْمَبْتَدَأِ فِي التَّأْنِيثِ.

وقوله: (غَضِيضُ الطَّرْفِ) بسكون الراء، هو: العين؛ أي: فِي طَرَفِهِ كُسُورٌ
خَلْقِيٌّ وَفُتُورٌ جِبِلِّيٌّ، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ: خَفَضُ الْعَيْنِ،
فَإِنَّ ذَلِكَ نَفْسُهُ مِنْ صِفَاتِ الْحُسْنِ؛ أَي: أَنَّهَا عَفِيفَةٌ لَا تَنْظُرُ إِلَى أَحَدٍ كَغَيْرِ الْعَفِيفَةِ
مِنَ النِّسَاءِ، بَلْ عَيْنُهَا عَنْ عَيْنِ الْأَجَانِبِ كَلِيلَةٌ غَيْرُ حَدِيدَةٍ، أَوْ هُوَ كَنَابَةٌ عَنْ شِدَّةِ
الْحَيَاءِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ لَوَازِمِهَا، أَوْ عَنْ تَحَمُّلِ مَسَاوِي الرُّقَبَاءِ وَتَجَاهُلِ أَحْوَالِهِمْ، وَتَرْكِ
النَّظَرِ إِلَى أَعْمَالِهِمْ.

و(مَكْحُولٌ) إمَّا مِنَ الْكُحْلِ بِالضَّمِّ، أَوْ مِنَ الْكَحَلِ بِفَتْحَتَيْنِ، وَهُوَ: الَّذِي يَعْلُو
جَفُونَ عَيْنِهِ سَوَادٌ مِنْ غَيْرِ اكْتِحَالٍ.

والمعنى: وَلَيْسَتْ سَعَادٌ فِي غَدَاةٍ بَعَادَ، حِينَ ارْتَحَالُهَا إِلَى زَادٍ مَعَادٍ، إِلَّا كَطَبِي
أَغْنٌ فِي مَقَامِ التَّغْنِي وَحَالِ التَّغْنِي، غَيْرَ مُتَلَفِتٍ إِلَى غَيْرِهَا فِي سُلُوكِهَا وَسِيرِهَا،
مُسْتَحْيِيَةٌ مِنْ حَالِهَا الْوَاقِعَةِ فِي شَرِّهَا وَخَيْرِهَا وَنَفْعِهَا وَضَرِّهَا، مُسْتَغْنِيَةٌ بِمَا أَعْطَاهَا اللَّهُ
مِنْ جَمَالِ عَيْنِهَا وَكَمَالِ زِينِهَا، الْمُبْرَأَةُ عَنْ عَيْبِهَا وَشَيْنِهَا.

وحاصل البيتين: أَنَّ الْأَوَّلَ يُشِيرُ إِلَى كَمَالِ احْتِيَاجِ الْمُحِبِّ إِلَى الْمَحْبُوبِ،
وَالثَّانِي يَوْمِيٌّ إِلَى كَمَالِ اسْتِغْنَاءِ الْمَحْبُوبِ عَنِ الْمُحِبِّ فِي مَقَامِ الْمَطْلُوبِ، كَمَا يُشِيرُ
إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]؛ أَي: الْمَفْتَقِرُونَ إِلَى إِيجَادِهِ
أَوَّلًا، وَإِلَى إِمْدَادِهِ ثَانِيًا، وَيَوْمِيٌّ إِلَيْهِ ^(١) قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي

(١) فِي «و»: «إِلَى».

طرفه عين؛ فَإِنَّكَ إِنْ تَكَلَّنِي إِلَى نَفْسِي تَكَلَّنِي إِلَى ضَعْفٍ وَعُورَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ»^(١).

هَيْفَاءٌ مُقْبِلَةٌ عَجَزَاءٌ مُدْبِرَةٌ لَا يُشْتَكَى قِصَرُ مِنْهَا وَلَا طُولُ

أَي: سَعَادٌ دَقِيقَةُ الْوَسْطِ، وَالْمَعْنَى: يُحْكَمُ عَلَيْهَا بِكَذَا حَالِ كَوْنِهَا مُقْبِلَةً، وَهِيَ عَجَزَاءٌ أَي: عَظِيمَةُ الْعَجْزِ - وَهُوَ: مُؤَخَّرُ الشَّيْءِ - حَالِ كَوْنِهَا مُدْبِرَةً، وَالْجُمْلَةُ اسْتِثْنَائِيَّةٌ مُقَرَّرَةٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَلْ لَهَا صِفَاتٌ غَيْرُ ذَلِكَ؟ فَإِنْ كَانَتْ لَهَا هُنَالِكَ فَادْكُرْهَا بِكَمَا لَا يَتْبَعُهَا؛ فَإِنِّي مُشْتَاقٌ إِلَى بَقِيَّةِ صِفَاتِهَا.

وَقَيَّدَ الْحُكْمَ بِكَوْنِهَا هَيْفَاءً بِحَالِ الْإِقْبَالِ، وَعَجَزَاءً بِحَالِ الْإِدْبَارِ، مَعَ أَنَّ هَاتَيْنِ النِّعَتَيْنِ ثَابِتَانِ^(٢) لَهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَنَارِ؛ إِذْ ظَهَرُ هُمَا فِي هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ أَكْثَرُ فِي نَظَرِ الْأَبْرَارِ وَأَصْحَابِ الْأَسْرَارِ: أَمَّا الثَّانِي فَظَاهِرٌ عَلَى الْأَرَاءِ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ، فَلَأَنَّهُ قَدْ يَسْتَرُّ دَقَّةَ الْوَسْطِ بِلُبْسِ الثِّيَابِ مِنَ الْخَلْفِ دُونَ الْوَرَاءِ.

وَفِي قَوْلِهِ: (لَا يُشْتَكَى) بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى (قِصَرٍ) مُجَازٌ عَقْلِيٌّ، مِنْ بَابٍ: سَرَرْتَنِي رُؤْيَاكَ؛ أَي: لَا تَشْتَكِي هِيَ بِقِصَرٍ مِنْهَا وَلَا طُولٍ مِنْ أَعْضَائِهَا.

وَقَدَّمَ (مِنْهَا) عَلَى (وَلَا طُولٍ) لِرَعَايَةِ الْقَافِيَةِ.

وَفِي ذِكْرِ الْمُقْبِلَةِ وَالْمُدْبِرَةِ وَالْقِصَرِ وَالطُّولِ مِنْ صِنْعَةِ الْمَطَابَقَةِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى أَهْلِ الصِّفَا.

(١) هَذَا مَجْمُوعٌ مِنْ حَدِيثَيْنِ: الْأَوَّلُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢٤٤/١)، وَأَبُو دَاوُدَ (٥٠٩٠)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْكَبَرِيِّ» (١٠٤١٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا بِلَفْظٍ: «دَعَوَاتِ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحِمْتِكَ أَرْجُو فَلَا تَكَلَّنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلَحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ. وَالْبَاقِي قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (١٩١/٥)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (١٩٠٠)، وَابِيهَقِي فِي «الدَّعَوَاتِ الْكَبِيرَةِ» (٤٢) مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ لَانْقِطَاعِهِ. انْظُرِ الْكَلَامَ عَلَيْهِ فِي «الْمُسْنَدِ» (٢١٦٦٦) ط الرسالة.

(٢) فِي «س»: «ثَابِتَانِ».

والمعنى: أن سُعادَ كُلِّما تَنَقَّلْتُ^(١) من وضعٍ إلى وضعٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، يَحْكُمُ الناظرُ إليها في كُلِّ وضعٍ بِحُسْنِ طَبْعٍ، وفي كُلِّ حالٍ بِزِينِ جَمالٍ؛ فإذا أَقْبَلْتُ يَحْكُمُ بأنها هيفاءً، وإذا أَدْبَرْتُ يَحْكُمُ بأنها عجزاءُ، لا تُعَابُ بِقَصَرٍ ولا تُذَمُّ بِطَوِيلٍ، وَقَسَّ على هاتينِ النعتينِ بَقِيَّةَ صِفَاتِها فإنها تطولُ.

وفيه تلويحٌ بأن كُلَّ شيءٍ من المَلِيحِ مَلِيحٌ، وتصريحٌ بتسليمِ صحيحٍ.
وهذا البيتُ غيرُ ثابتٍ في بعضِ النُّسخِ.

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَغْلُولٌ
الجملةُ استثنائيةٌ؛ أي: تَكْشِفُ سُعادٌ وتُوضِحُ للحاضرِ والبادِ عوارِضَ ثَغْرِ ذِي ظَلَمٍ، وهو من إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ؛ فإنَّ العوارِضَ مطلقُ الأَسنانِ لأفرادِ الإنسانِ. والظَّلَمُ: بفتحِ المُعْجَمَةِ: ماءُ الأَسنانِ وبريقُها، وقيل: رَقَّتْها وشَدَّةُ بياضِها، ومنه قولُ العارِفِ ابنِ الفارِضِ:

عَلَيْكَ بِهَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَرْجَها فَعَدْلُكَ عَنْ ظَلَمِ الْحَبِيبِ هُوَ الظُّلْمُ
وفي نسخةٍ: (ذا ظَلَمَ)، وهو ظاهرٌ، وكأَنَّهُ^(٢) من بابِ الترخيمِ للضرورة، أو أَوَّلَ (عوارِضَ) بالجنسِ، وإلا كان الظاهرُ: ذاتِ ظَلَمٍ، وأمَّا القولُ بأنَّ التقديرَ: عوارِضَ فَمِ ذِي ظَلَمٍ، فليسَ بسديدٍ؛ إذ كَوْنُ الفَمِ ذا ماءٍ ليسَ من الصِّفاتِ الحميدةِ^(٣).
وقوله: (إِذَا ابْتَسَمْتَ) متعلِّقٌ بـ (تَجْلُو) على أَنَّ (إِذَا) لمجرَّدٌ^(٤) معنى الوقتِ.
وقوله: (كَأَنَّهُ) صفةٌ (ذِي ظَلَمٍ).

(١) في «و»: «تَنَقَّلَ».

(٢) في «س»: «فَكَأَنَّهُ».

(٣) في «س»: «صفات الحميد».

(٤) في «و»: «علي إذا المجرد»، والمثبت من «س» وهو الصواب.

و(مُنْهَلٌ) اسمٌ مفعولٍ، من أنْهَلَهُ: إذا سقاه نَهْلًا بفتحتين، وهو الشربُ الأولُ، ورُويَ بفتح الميم: اسمٌ موضعٍ بمعنى مَوردِ الماءِ.

و(بِالرَّاحِ) أي: الخمرِ، متعلّقٌ بـ (مُنْهَلٌ)، وحَذَفَ مثلهُ متعلّقًا بقوله: (معلولٌ) من علّه يَعْلُهُ - بالضّمّ على القياس - وَيَعْلُهُ بالكسر؛ عَلَلًا بفتحتين أيضاً: إذا سقاه ثانياً، وأصل ذلك: أَنَّ الإِبَلَ إذا شربتْ في أولِ الوَرْدِ سُمِّيَ ذلك نَهْلًا، فإذا رُدَّتْ إلى أعْطَانِهَا ثم سُقِيَتْ الثانيةُ سُمِّيَ ذلك عَلَلًا.

شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحٍ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ
(شَجَّتْ) بضمّ الشينِ الْمُعْجَمَةِ وتشديد الجيم؛ أي: مُزِجَتْ وَخِلِطَتْ،
والجملةُ صفةٌ (الرَّاحِ)، أو حالٌ منها على حدٍّ:

ولقد أمرُ على اللّيثمِ يُسَبِّحِي^(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَتَحَمَّلُ أَشْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

والمعنى: كُسِرَتْ سَوَرَتُهَا وَخَمَدَتْ فَوَرَّتَهَا.

(بِذِي شَبَمٍ) بفتح الشينِ الْمُعْجَمَةِ والمُوحِدة: البردُ الشَّدِيدُ، والحالُ الشَّدِيدُ،
(وَمِنْ) فِي (مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ) بَيَانِيَّةٌ، والإضافةُ من إضافةِ الشَّيْءِ إلى محلَّتِهِ العَيَانِيَّةِ، وَقَعَ
صفةً لـ (ذِي شَبَمٍ)، أو حالاً^(٢) منه.

والمَخْنِيَةُ: بفتح فسكونٍ فكسرٍ فتحيّةٍ مخفّفةٍ: مُنْعَطَفُ الوَادِي ومُتَفَرِّجُهُ
وَمُنْخَنَاهُ؛ فَإِنَّ مَاءَهُ أَصْفَى وَأَرْقُ، وبالمَدْحِ أَحَقُّ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مِيَاهِ المَطَرِ بِاعتبارِ
المَكَانِ: مَا كَانَ بِأَبْطَحٍ مَخْنِيَةٍ، وهو مَسِيلٌ واسعٌ فيه دُقَاقُ الحَصَى، وباعتبارِ

(١) صدر بيت، وتماه: (فَمَضَيْتُ ثُمْتُ قُلْتُ لَا يَغْنِينِي)، وهو لرجل من سُلُول، كما في «الكتاب» (٣/

٢٤)، و«شرح شواهد المغني» (١/ ٣١٠)، ولشمر بن عمرو الحنفي في «الأصمعيّات» (ص: ١٢٦).

(٢) في «و» و«س»: «حال»، والصواب المثبت.

الزمان: ما كان وقت الضحى، وباعتبار الصفات القائمة به: ما كان صافياً^(١) في لونه، شبيهاً في طبعه، وباعتبار ما يطرأ عليه: ما هبت ريح الشمال لديه، كما أشار إليه بقوله: (صافٍ...) إلخ، وهو صفة (ماء)، وكذا ما بعده من قوله: (بأبطح) لجريانه على دقاق^(٢) الحصى، وقوله: (أضحى) لأن صفاء المياه فيه أوفى، (وهو مشمول)؛ أي: أصابته ريح الشمال في جميع الأحوال؛ إذ لها تأثير قوي في تصفية الماء وتبريده، وتجلية الحال وتسديده.

ولقد كان عليه السلام يعجبه الماء الحلو البارد، حتى قال في دعائه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(٣)، وكان سيّدنا الشاذلي يقول: إذا شربت الماء الحلو البارد أشكر ربّي من وسط قلبي لملاقاة حبي^(٤).

ولا يبعد أنه أشار بالراح المنهل إلى الكتاب الأول، المورث إيمانه بالوجه الأكمل والدوق الأشمل شرباً طهوراً، وبالماء الصافي المبين الحديث الكافي الصادر من صدر^(٥) الرسول الأمين، الموجب نوراً وسروراً، وبالجملة فهو مذحة للكتاب والسنة ومعرفتهما التي ليس فوقها مزية من اللذة.

تَنْفِي الرِّيحِ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةِ بِيضِ يَعَالِيلُ

(١) في «و»: «حلماً».

(٢) في «و»: «دقاتق».

(٣) رواه الترمذي (٣٤٩٠)، والحاكم (٣٦٢١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وفيه أنه كان من دعاء داود عليه السلام. قال الترمذي: حديث حسن.

(٤) جاء في هامش «و»:

قعقة الثلج بماء عذب يستخرج الحمد من اقصى القلب وهو بيت من الرجز، كان الصاحب بن عباد إذا شرب ماء بثلج أنشده على أثره. انظر: «يتيمة الدهر» (٢٣٣/٣).

(٥) في «و»: «الصدر».

(الرِّيَّاحُ): جمعُ رِيحٍ، و(القَدَى) بفتحِ القافِ والذالِ المُعْجَمَةِ: ما يسقطُ في العينِ أو الماءِ من ترابٍ وغيره من الأذى، والجملةُ صفةُ (ماء)، أو حالٌ.

(عنه)؛ أي: تطردهُ عنه وتُبْعِدهُ منه، والضميرُ إلى الماء، وهو بإشباعِ الهاءِ.

(وَأَفْرَطَهُ) حالٌ من ضميرِ (عنه)؛ أي: ملاءةً، والمرادُ: ملاءَ مكانه.

وقوله: (مِنْ صَوْبٍ سَارِيَةٍ) متعلِّقٌ بـ (أَفْرَطَهُ)، والصَّوْبُ له معانٍ، والمرادُ به هاهنا: المطرُ، بقرينةِ (سارية)، وهي سحابةٌ تأتي ليلاً، ورُوي: (غادية) بدلَ (سارية)، وهي سحابةٌ تأتي غُدوةً.

و(بِيضٌ) مرفوعٌ على أنه فاعلُ (أَفْرَطَهُ)، و(يَعَالِيلٌ) نعتُهُ؛ أي: سُحْبٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، أو نفاخاةُ الماءِ تعلوهُ، والواحدةُ يعلولُ، ومن القاعدةِ المُقرَّرةِ: أنَّ النكرةَ إذا أُعيدتْ^(١) كانت الثانيةُ غيرَ الأولى، بخلافِ المعرفةِ، ولذا ورد: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ» في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦٥-٦٦]^(٢)، إلا إذا دلَّ دليلٌ على اتِّحادهما؛ فيكونُ عينَ الأولى، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وهاهنا كذلك؛ إذ من البَيِّنِ أن إفراطَ البِيضِ لا يكونُ من صَوْبٍ غيرِها، فالبيضُ هي الساريةُ، فلا يَرُدُّ القاعدةُ المُقرَّرةُ في النكرةِ المكرَّرةِ، فيلزمُ أن يكونَ إفراطُ اليَعَالِيلِ مِنْ صَوْبٍ ساريةٍ هيَ غيرِها، وهو مُحالٌ من الأحوالِ.

أَكْرَمَ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ

(١) في «و»: «عهدت».

(٢) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٨٠)، والحاكم (٣٩٥٠) عن الحسن البصري عن النبي ﷺ

مرسلاً. ورواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٤٤٦) من قول عمر رضي الله عنه. وعبد الرزاق في

«التفسير» (٣/ ٣٨١) من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

(أَكْرَمَ بِهَا) صِغَةُ تَعَجُّبٍ وَ(خُلَّةٌ) تَمَيِّزٌ مِنْ ضَمِيرِ (بِهَا)، أَوْ حَالٌ عَنْهُ، وَهِيَ بِضَمِّ الْمُعْجَمَةِ: الْخَلِيلُ، يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكُورُ وَالْمَوْثُوتُ، وَ(لَوْ) لِلتَّمَنِّيِّ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَقْدِيرِ جَوَابٍ لِلشَّرْطِ؛ فَالْمَعْنَى: لَوْ ثَبَتَ أَنَّهَا صَدَقَتْ فِي وَعْدِهَا مِنْ وَصْلِهَا لَكَانَتْ خُلَّةً مِنْ أَصْلِهَا، يُتَعَجَّبُ مِنْ كَرَمِهَا وَفَضْلِهَا.

وَالْمَرَادُ بِالْكَرَمِ هُنَا: ضِدُّ الْبُخْلِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْكَرَمِ بِالْمَالِ، أَوْ بِالْوَفَاقِ وَالْوَصَالِ.

و(صَدَقَ) بِالتَّخْفِيفِ مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ، ك: صَدَقَهُ الْحَدِيثُ، وَالْأَوَّلُ هُنَا مَقْدَرٌ؛ أَي: صَدَقْنَا مَوْعِدَهَا، وَهُوَ اسْمٌ مَفْعُولٍ بِمَعْنَى الشَّخْصِ الْمَوْعُودِ بِهِ، أَوْ مَصْدَرٌ عَلَى زَيْتَةِ مَفْعُولٍ؛ كَمَعْسُورٍ وَمَيْسُورٍ، كَقَوْلِهِمْ: دَعَا مِنْ مَعْسُورِهِ إِلَى مَيْسُورِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيَّتُكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

و(أَوْ) هُنَا بِمَعْنَى الْوَاوِ، وَ(لَوْ أَنَّ) بِالنَّقْلِ مَوْزُونٌ.

و(النُّصْحُ) بِضَمِّ النُّونِ: النَّصِيحَةُ، وَهِيَ: إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ، وَاللَّامُ بَدَلٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَي: نُصَحَهَا؛ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى مَفْعُولِهِ.

و(مَقْبُولٌ) خَبَرٌ (أَنَّ)، وَفِيهِ: أَنَّ خَبَرَ (أَنَّ) الْوَاقِعَةَ بَعْدَ (لَوْ) الشَّرْطِيَّةِ إِذَا كَانَ مُشْتَقًّا، وَجِبَ كَوْنُهُ مَاضِيًّا؛ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَدُفِعَ بِأَنَّهُ صِفَةٌ جَامِدٌ مَحْذُوفٌ؛ أَي: أَمْرٌ مَقْبُولٌ.

وَقِيلَ: كَوْنُ الْخَبَرِ الْمَشْتَقِّ مَاضِيًّا غَيْرُ لَازِمٍ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، فَلْيَكُنِ الْبَيْتُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِمْ هَذَا.

وَرُويَ (فِيهَا خُلَّةٌ)، وَرُويَ أَيْضًا: (يَا وَيَحَا خُلَّةً)، وَ: (يَا وَيَلَهَا خُلَّةً)، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْوَيْحِ وَالْوَيْلِ: أَنَّ الْأَوَّلَ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِمَنْ وَقَعَ فِي هَلَكَةٍ لَا يَسْتَحِقُّهَا فَيُتْرَحَّمُ عَلَيْهِ، وَ(وَيْلٌ) تُقَالُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا.

ف(يا) حرفُ نداءٍ والمنادى محذوفٌ، أو حرفُ تنبيهٍ بمنزلةِ (آلا)؛ فاللامُ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ؛ أي: فيا قوم اعجبوا لها خُلَّةً، أو: آلا اعجبوا لها خُلَّةً.

وليس الضميرُ منادى^(١) دخلَ عليه لامُ التعجبِ، كما في قوله: فيا لك من ليلٍ؛ أي: يا إياك، أو: يا أنت، ثم دخلَ لامُ الجرِّ؛ فانقلبَ الضميرُ المتصلُ المرفوعُ ضميراً متصلاً مخفوضاً = لأنَّ ضميرَ الغائبِ لا يُنادى، كما حقَّقه ابنُ جماعة.

لَكِنَّهَا خِلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دِمَها فَجَعٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلٌ
الخِلَّةُ بكسرِ أولِها: الخَصْلَةُ؛ أي: لكنَّها ذاتُ خَصْلَةٍ، أو عينُ خَصْلَةٍ، على طريقة^(٢) المبالغة.

و(قَدْ سَيْطَ) بصيغةِ المجهولِ - أي: خُلِطَ - صفةُ (خِلَّةٍ)، وبه تحصلُ الفائدةُ، على حدِّ قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، والفائدةُ كما تحصلُ من الخبرِ تحصلُ من صفته.

وقوله: (مِنْ دِمَها)؛ أي: في دِمَها، على حدِّ قوله سبحانه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقوله: ﴿إِذَا تُودِيَكَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

و(فَجَعٌ) مرفوعٌ على أنه نائبُ الفاعلِ من (سَيْطَ)، وكذا من بعده، وهُنَّ مصادرٌ؛ أي: إفجاعٌ وإيجاعٌ وولعٌ؛ أي: كذبٌ وزورٌ وإخلافٌ في وعدِ الوصالِ، وتبديلٌ وتغيُّرٌ في الأحوالِ.

والمعنى: وهي مع ذلك خِلَّةٌ لا يُزاحمُ جفاؤها كونُها خِلَّةً؛ فعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ، ووردَ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»^(٣)، مع أنَّها معذورةٌ في

(١) في «س»: «بمنادى».

(٢) في «س»: «طريق».

(٣) رواه أبو داود (٥١٣٠)، والإمام أحمد في «المسند» (١٩٤ / ٥) من طريق بلال بن أبي الدرداء عن =

تلك الصفات؛ لكونها مجبولة عليها في أصل الذات.

قيل: ما ذكره من المعيبة لا يلائم بحال الأحبة.

وأجيب: بأنَّ للمُحِبِّ أحوالاً لا تُدرَكُ إلا بالتجربة، ولا تُعرفُ إلا بالمعاملة؛ فلعله لَمَّا بانثُ سَعَادُ فَبَيَّنَ قَلْبُهُ ذَكَرَ صِفَاتِ حُسْنِهَا شَوْقاً إِلَى ذِكْرِهَا، وَذَوْقاً إِلَى أَمْرِهَا، ثُمَّ لَمَّا رَأَى رَغْبَةَ الْمُسْتَمِيعِينَ فِيهَا، خَافَ أَنْ يَعِشَقَهَا غَيْرُهُ غَيْرَةً عَلَيْهَا، فَأَخَذَ يَذْكُرُ ذِمَائِهَا وَسُوءَ أَخْلَاقِهَا وَأَسْبَابَ جَفَائِهَا، لِيُعْلِلَ لَهُمْ مَا عَرَضَ مِنَ الرَغْبَةِ.

أو أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ صِفَاتِهَا رَأَى الْاِشْتِيَاقَ إِلَيْهَا وَالتَّشَوُّقَ لِمَا لَدَيْهَا، وَأَنَّ الْكَآبَةَ تَزِيدُ عَلَيْهَا؛ بَحِثْ إِنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَباً لِهَلَاكِ هُنَالِكَ، فَأَخَذَ يَذْكُرُ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ تَسْلِيَةً لِقَلْبِهِ مِنْ ذِكْرِ الصِّفَاتِ الْمُنْفَرَةِ^(١).

كذا ذكره الشُّرَاحُ، والأظهرُ في مقامِ الصُّرَاحِ وحالةِ الصُّحَاحِ: أَنَّ الْمَحْبُوبَ لَهُ صِفَاتُ الْجَمَالِ وَنَعَوْتُ الْجَلَالِ؛ فَإِنَّ بِهِمَا تَتِمُّ مَنَقِبَةُ الْكَمَالِ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حِظٍّ فِيهِمَا فِي الْأَحْوَالِ، كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَتَجَنَّبُ عَنْ أَبِيَّ أَنَا أَلْفَقُورُ الرَّحِيمِ﴾^(٢) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ^(٣) [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أُرِيدُ أَنْ أَجُوعَ يَوْمًا فَأَصْبِرَ، وَأَشْبَعَ يَوْمًا فَأَشْكُرَ»^(٤)، وَقَدْ قَالَ

= أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً. قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٣١ / ٨): (يُروى عن بلال عن أبيه موقوفاً عليه غير مرفوع، وقيل: إنه أشبه بالصواب). قلت: رواه موقوفاً البيهقي في «الشعب» (٤١٢) من طريق بلال بن أبي الدرداء، عن أبيه. وإسناده صحيح.

(١) في «و»: «المنفردة»، ولعله تصحيف.

(٢) رواه بنحوه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٢٥٤ / ٥) من طريق عبيد الله بن زُحَيْرٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذا إسناد ضعيف جداً، عبيد الله بن زُحَيْرٍ - وهو الضُّمَرِيُّ الإفريقي - ضعيف، وعلي بن يزيد - وهو ابن أبي هلال الألهاني - وأهبي الحديث.

تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وَوَرَدَ: «الِإِيمَانُ نَصْفَانِ؛ نَصْفُهُ^(١) صَبْرٌ، وَنَصْفُهُ^(٢) شُكْرٌ»^(٣).

وقد عَبَّرَ الصُّوفِيَّةُ عَنِ الْمَقَامَيْنِ: بِالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَالْمَحْوِ وَالصَّحْوِ، وَالتَّلْوِينِ وَالتَّمْكِينِ، وَالفَنَاءِ وَالبَقَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَخْفَى عَلَى أَرْبَابِ الصِّفَاءِ، وَأَصْحَابِ الْوَفَاءِ.

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثَوَابِهَا الْغُورُ

الفاءُ لِلتَّيَجِةِ أَوْ لِلْسَّبِيَةِ؛ أَي: لِأَجْلِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهَا مِنَ الْأَوْصَافِ الْمُتَقَدِّمَةِ لَا تَدُومُ عَلَى حَالَةٍ^(٤) مُسْتَمِرَّةٍ، وَهِيَ مَا عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَنَفْعٍ وَضَرٍّ، وَتَأْنِيثُهَا كَمَا فِي الْبَيْتِ أَوْلَى مِنْ تَذْكِيرِهَا، عَلَى أَنَّ الثَّانِي هُوَ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ.

وَقَوْلُهُ: (تَكُونُ بِهَا) صِفَةٌ لـ (حَالٍ)؛ أَي: تَكُونُ مُتَلَبِّسَةً بِهَا أَوْ عَلَيْهَا؛ فَالْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَوْ بِمَعْنَى (عَلَى)، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَأْمَنُّهُ يَفِئْتَارِ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ (فِي) كَمَا فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

ثُمَّ (مَا) مُصَدِّرَةٌ، وَالْكَافُ مَعَ مَدْخُولِهَا صِفَةٌ مُصَدِّرٌ مَحْذُوفٌ دَلٌّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ؛ إِذِ الَّذِي لَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ يَكُونُ مُتَلَوِّنًا؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ: تَتَلَوَّنُ تَلَوِّنًا، كَمَا تَتَلَوَّنُ، فَـ (تَكُونُ) فَعْلٌ مُضَارِعٌ حُذِفَ إِحْدَى تَاءَيْهِ، وَفَاعِلُهُ (الْغُورُ) وَهُوَ بَضْمٌ أَوَّلُهُ: كُلُّ شَيْءٍ اغْتَالَ الْإِنْسَانَ فَأَهْلَكَهُ.

قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ: وَالْمَرَادُ هُنَا: الْوَاحِدَةُ مِنَ السَّعَالِي، وَهِيَ إِنَاثُ الشَّيَاطِينِ.

(١) فِي «س»: «نَصْف».

(٢) فِي «س»: «وَنَصْف».

(٣) رَوَاهُ الْخِرَاطِيُّ فِي «فَضِيلَةِ الشُّكْرِ» (١٨)، وَابِيهَقِي فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٩٢٦٤)، مِنْ حَدِيثِ

أَنْسَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) فِي «س»: «حَال».

و(في أَثْوَابِهَا) متعلقٌ بالفعل، وهي إمَّا تخيليةٌ للغول، وإمَّا يُرادُّ بها ألوانها المشبهةُ بالأثوابِ في إحاطتها محالها^(١).

والحاصلُ: أنه شبهةٌ تلونُ سعادٍ في حالِ القربِ والبعدِ بتلونِ الغولِ في البلادِ، والوجهُ: سرعةُ تلونها وكثرةُ تَقَلُّبِها^(٢).

قيل: العربُ تزعمُ أن الغولَ تتحوَّلُ من شأنٍ إلى شأنٍ؛ فتصيرُ تارةً بصورةَ إنسانٍ وأخرى بهيئةَ حيوانٍ، وهذا من أكاذيبِ العربِ، وقد جرى على زعمهمُ الناظمُ، والأظهرُ أن العربَ تسمِّي كلَّ داهيةٍ غولاً على التهويلِ، كما جرتُ عادتهمُ في الأشياءِ التي لا أصلَ لها ولا حقيقةً، كالعتقاء ونحوها، واللهُ دُرٌّ مَنْ قَالَ من أربابِ الحالِ:

لَمَّا اخْتَبَرْتُ بَنِي الزَّمَانِ وَمَا بِهِمْ خِلٌ وَفِيَّ لِلشَّدَائِدِ أَصْطَفِي
أَيَقْنْتُ أَنَّ الْمُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ الْغُولُ وَالْعَتَقَاءُ وَالْخِلُّ الْوَفِي

وفي الخبرِ: «أُخْبِرْتُ قُلَّةً»^(٣)، و: «النَّاسُ كِبَابِلُ مِثَّةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(٤)، وقد قال تعالى: ﴿الْأَخْلَآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وَلَا تُمْسِكْ بِالْعَهْدِ الَّذِي رَعِمْتَ إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ

(١) في «س»: «بحالها».

(٢) في «و»: «تنقلها».

(٣) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٩٣)، وابن الجوزي في «العلل» (١٢٠٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال في «مجمع الزوائد» (٨ / ٩٠). وفيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، قال يحيى: أبو بكر ابن أبي مريم ليس بشيء.

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(تَمَسَّكَ) بضمّ التاء وكسر السين المشددة، مضارعٌ: مَسَّكَ، بخلاف (يُمَسِّكُ) الثاني؛ فإنه مضارعٌ: أَمَسَّكَ، فوقع الجمع بينهما تفتناً، وبهما قرئ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكَتِّبِ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، والتخفيف لشعبة^(١)؛ فهو أولى من ضبط بعضهم بفتح التاء والسين على حذف إحدى التاءين، مضارعٌ: تَمَسَّكَ.

والمراد بالعهد: الموثق الشديد، وفي نسخة: (بالوعد)؛ أي: الميعاد الأكيد.

(الذي رَعَمَتْ) أنها توفي به؛ أي: تكفلت بوقوعه، ومصدره: الرَّعْمُ بالفتح، ومنه قوله سبحانه حكايةً: ﴿وَأَنَا بِهِ رَعِيْمٌ﴾ [يوسف: ٧٢].

أو المعنى: قالتُ وتَفَوَّهَتْ به، ومصدره: الرَّعْمُ بثلاث أوله، وهو: قولٌ يدعي المدعي محتولٌ للحق والباطل، وغلب استعماله في الباطل أو الظن، ومنه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَرْعِيهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، وقد يُستعمل في الحق واليقين، ومنه قول أبي طالب للنبي ﷺ:

وَدَعَوْتَنِي وَرَعَمْتَ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِيناً

والمعنى: فلا تعتصم بموثق تفوّهت به أن لا تنساني ولا^(٢) تهجرني، أو: لا تعتمد بيمين أظهرت أنها تحبني، أو: لا تثق بأمان ذكرته أن لا تقطعني؛ فإنه ليس تمسكها (إلا كمّا)؛ أي: إلا تمسكاً كائناً كشيء، أو: إلا كائناً كما (يُمَسِّكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ) جمع غَرَابِلٍ كمفتاح ومفاتيح.

وفيه تشبيه معدوم بمعدوم في صفة العدم، كالصبر في قلب العاشق المتيّم^(٣)،

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني (ص: ١١٤)، وشعبة هو ابن عياش الكوفي

أحد راويي عاصم، وقرأ حفص وباقي السبعة بالتشديد.

(٢) في «س»: «فلا».

(٣) في «س»: «المهتم».

والمال في يد أهل الكرم، والغرض من التشبيه راجع إلى المشبه وهو بيان امتناعه؛
ففيه تأكيد المدح بما يشبه الذم، نحو: فلان لثيم، إلا أنه يُسيء إلى من أحسن إليه،
ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [البروج: ٨]، وقوله سبحانه: ﴿لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقول الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنْ سُيُوفُهُمْ بهنَّ فلولٍ من قِراعِ الكتائبِ
فلا يغرُنْكَ ما مَنَتْ وما وعدت إنَّ الأمانِيَّ والأخلامَ تضليلُ

الفاء للنتيجة، و(يغرُنْكَ) بسكون نون التأكيد؛ من غرّه: خدعه وجعله مغروراً،
قال الخليل: نون التأكيد الخفيفة بمنزلة إعادة الفعل ثانياً، والثقيلة بمنزلة إعادته ثانياً
وثالثاً. كذا ذكره ابن جماعة.

ولا يبعد أن يكون التخفيف للوزن، وإلا فمقام^(١) المبالغة يقتضي التشديد،
ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ١٩٦].

والخطاب إما لغير معين، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ [الأنعام: ٢٧]، وإما لنفسه
على طريق التجريد.

و(ما) موصولة صلتها (مَنَتْ) من التمنية، وهي: أن يحمل أحداً على التمني
بشيء (وما وعدت) عطف.

والمعنى: لا يغرُنْكَ تمنيتها إياك الوصل، ووعدّها بترك الهجر والفصل؛ فالإسناد
سببي مجازي؛ أي: لا يغرُنْكَ سعاد بسبب تمنيتها في المقال، ووعدّها بمقام الوصال.
و(إنّ) بكسر الهمزة على ما ثبت في الرواية، كما ذكره ابن جماعة، وجوز
فتحها على إضمار لام العلة.

(١) في «س»: «فنام».

و(الأماني): جمعُ أمنيّة، وهي اسمٌ من التمني، وتخفيفُ يائه جائزٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمَيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

و(الأحلام) جمعُ حلمٍ، بضمتين، وهو ما يراه النائم، أو مختصٌّ بالأضغاث، وهو الظاهرُ في مقامِ المبالغةِ للمَرام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

و(تضليل) معناه: إبطالٌ وتضييعٌ، ومنه قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، والتقديرُ: ذواتُ تضليلٍ، على حدِّ قوله سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، أي: ذوو مراتبٍ عالِياتٍ، أو جعلت نفسَ التضليلِ مبالغةً، على حدِّ قولهم: رجلٌ عدلٌ، و: إنما هي إقبالٌ وإدبارٌ.

أو: صاحبُ الأماني مُضللٌ بفتح اللام؛ أي: منسوبٌ إلى الضلال، أو: إنَّ الأمانيَّ سببُ تضليلٍ، أو: إنَّ الأمانيَّ مُضِلَّةٌ، على الإسنادِ المجازيِّ العقليِّ، من بابِ الإسنادِ إلى السببِ، فالمِصرَاعُ الثاني تعليلٌ مستأنفٌ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وحاصلُ البيت: نهى نفسه تجريداً، أو مخاطباً مُريداً، عن الاغترارِ بالأمانيِّ، والمواعيدِ في العالمِ الخياليِّ، ثم علَّل ذلك: بأنَّ الأمانيَّ والأحلامَ تضييعٌ في الأنفاسِ والأيام؛ فلا يلتفتُ إليها ولا يُعوَّل عليها.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْرَظْكُمْ أَلْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَظْكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُودُ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَلْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْعُرُودِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولله دُرٌّ مَنْ قَالَ:

أَضْعَاثُ نَوْمٍ أَوْ كَظَلٍّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ^(١)
وَلَا خَرَّ مِنْ أَرْبَابِ الْحَالِ:

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ أَظْلَلَكَ ثُمَّ أَذَّنَ بَارْتِحَالِ^(٢)
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُزُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

(مَوَاعِيدُ): جمعُ ميعادٍ بمعنى المُوَاعِدَةِ، كموازينٍ جمع ميزانٍ بمعنى الموازنة، لا جمعُ موعودٍ بمعنى وعيدٍ؛ لأنَّ المعنى ليس عليه بسديد، ولا حاجة إلى جعله جمعَ موعودٍ بمعنى وعيدٍ؛ إذ مجيء المصدرِ على مفعولٍ؛ إمَّا معدومٌ من أصله، أو نادرٌ في نقله.

و(عُرْقُوبٍ) بضمَّ العين والقاف: اسمُ رجلٍ وعدَّ أخاه ثمرَ نخله، وقال: اثْنِي إِذَا طَلَعَ نَخْلِي؛ أي: خَرَجَ طَلْعُهُ، فَلَمَّا أَطْلَعَ قَالَ: إِذَا أَبْلَحَ؛ أي: صَارَ بَلَحًا بفتحَيْن، والبَلَحُ قَبْلُ الْبُسْرِ بضمَّ فسكونٍ؛ فَلَمَّا أَبْلَحَ قَالَ: إِذَا أَرْهَى؛ أي: احمرَّ واصفرَّ بُسْرُهُ، فَلَمَّا أَرْهَى قَالَ: إِذَا أَرْطَبَ، فَلَمَّا أَرْطَبَ قَالَ: إِذَا صَارَ تَمْرًا، فَلَمَّا صَارَ تَمْرًا أَخَذَهُ مِنَ اللَّيْلِ، وَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا إِلَّا الْوَيْلَ، فَضَرْبُوا بِهِ الْمَثَلَ فِي الْإِخْلَافِ، فَقَالُوا: أَخْلَفَ مِنْ عُزُوبٍ^(٣).

وقوله: (لَهَا) خبرٌ (كانت)؛ أي: حاصلةٌ لها، فقوله: (مَثَلًا) حالٌ. أو (مَثَلًا) خبرٌ (كانت)، و(لَهَا) حالٌ؛ أي: صفةٌ، أو مُشابهةٌ.

(١) البيت، نسب للحسن البصري، كما في «التذكرة الحمدونية» (١/ ٣٢١).

(٢) البيتان ذكرهما الجاحظ في «الرسائل» (١/ ٥٩) بدون ذكر قائله، وتُسبأ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوان علي بن أبي طالب» مع اختلاف في البيت الثاني.

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» للعسكري (١/ ٤٣٣).

و(مَا) نافية، وضمير (مَواعيدُها) إلى سُعاد، ورُوي: (مَواعيدُه)؛ أي: عُقُوب، و(الْأَبَاطِيلُ): جمعُ باطلٍ؛ ضدُّ الحقِّ.

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَذُنُو مَوَدَّتَهَا وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ
فيه التفاتٌ من الخطابِ إلى التكلُّمِ على تقديرِ التجريدِ في (فلا يَغُرُّكَ).
والرجاءُ له معنيان:

أحدهما: الطمعُ، وهو المرادُ هنا، ويُستعملُ في الإيجابِ والنفي، وقد اجتمعَا في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وثانيهما: الخوفُ؛ فقليل: مختصٌّ بالنفي؛ نحو قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وقيل: لا يختصُّ؛ بدليلِ قوله: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].
و(أَمَلُ) بمدُّ الهمزة وضمُّ الميم، عطفٌ للتأكيد، وإنما حسَّنه اختلافُ اللفظ،
نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقوله:
﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وقوله: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ
وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وقوله: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

ولا يُعطفُ هذا النوعُ إلا بالواو، وقال ابنُ مالك: وقد أُنبِ (أو) عنها في
اللفظ؛ نحو: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢]^(١).

وفيه: أنه يجوزُ أن يُرادَ بالخطيئة ما وقعَ خطأً، وبالإثم ما وقعَ عمداً، كذا حقَّقه
ابنُ جماعة.

وفيه: أن الأمثلةَ السابقةَ أيضاً تحتُمِلُ المغايرةَ؛ بأن يُحمَلَ الوهنُ على ضعفِ
القلبِ؛ من الجبنِ، والضعفُ على القلبِ بالتكاسلِ والتهاونِ، وأنَّ البَثَّ: هو الحُزْنُ
الذي لا يزولُ إلا بأنْ يُبَيِّثَ، والصَّلَواتُ: أنواعُ البركاتِ وأصنافُ الصَّلَاتِ، و{أَمْتًا}
فُسِّرَ بـ: ارتفاعاً، و{عِوَجًا} بـ: انخفاضاً.

(١) انظر: «شرح التسهيل» لابن مالك (٣/ ٣٦٥).

وكذا الكلام في البيت؛ فيَحْتَمِلُ أن يكونَ عطفُ (أَمْلُ) على (أرجو) للتأكيد، أو أحدهما يُحْمَلُ على ما يُتَخَيَّلُ في الباطن، والآخرُ ما يُتَبَيَّنُ في الظاهر، أو المعنى: أرجو من الله وأملُ من الممدوحة أن تدنو مودتها وتثبت محبتها إليَّ كمحبتَي إياها؛ لأنَّ حقيقتها لا تُتَصَوَّرُ إلَّا من الجانبين، كما يُشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وفي تقديم (يحبهم) نكتة لطيفة وحكم شريفة، مُشْعِرَةٌ بأنَّ الأصلَ هي محبةُ المحبوب، لا سِيَّما المحبةُ الأزلِيَّةُ القَدِيمِيَّةُ اللازمُ منها المحبةُ الحادثةُ الأبديةُ. و(تَدْنُو) بسكون الواوِ هو الرواية، وذلك إمَّا بأنَّه أهملَ (أنَّ) المصدريةَ حملاً على أختِها وهي (ما)^(١)؛ كقراءة مجاهد: (لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرَّضَاعَةَ) بالرفع^(٢)، وإمَّا بأنَّه أجرى السكونَ على الواوِ مُجرى الفتحة؛ للوزن، قال المُبرِّدُ: وهو من أحسنِ الضرورة. ثم لا يبعدُ أن يكونَ (أن تدنو) مفعولَ (أَمْلُ)، و(أرجو) بمعنى: أخافُ، يُقَدَّرُ له مفعولٌ أي: أخافُ أن لا تدنو وأملُ أن تدنو؛ فأنا بينَ الخوفِ والرجاء؛ كما هو مقامُ أربابِ الوفاء.

أو يُقالُ: (أَمْلُ) تفسيرٌ لـ (أرجو)؛ لاحتماله معنى الخوفِ أيضاً، كما يُستفادُ من شرح الفاضلِ الهندي^(٣).

و(مَا) نافيةٌ، و(إِخَالَ) بكسرِ الهمزة؛ أي: وما أظنُّ.

(١) يعني: (ما) المصدرية، فقد تشبه بها (أن) المصدرية في عدم العمل، قال ابن مالك في «الفتية» (ص ٥٧):

وبعضُهُم أهملَ (أن) حملاً على (ما) أختِها حيثُ استَحَقَّتْ عملاً

(٢) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٢٢٣).

(٣) الفاضلُ الهنديُّ، بهاء الدِّين مُحَمَّد بن تاج الدِّين حسن الأصبهاني، من علَماء الشَّيعة الإمامية (ت ١١٣٧) بأصبهان، له عدَّةُ مصنفات، ولعلَّ له شرحاً لقصيدة بانث سعاد، كما يدلُّ نقلُ القاري عنه في مواضع عديدة. انظر: «هدية العارفين» (٢/ ٣١٨).

(لَدَيْنَا) أي: عندنا (مِنْكَ) بكسر الكاف؛ أي: من جهتك، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب، وقوله: (تَنْوِيلٌ)؛ أي: إعطاء نوالٍ، وإيصالٌ وُصال، فاعلُ الظرف الأول أو الثاني، أو مبتدأ خبره مقدَّم عليه، ولا امتناع من أن يرجو مودَّتَها ولا يظنَّ نوالها الدالَّ على محبَّتِها؛ إذ من الجائز أن تودَّه بقلبها في باطنِ حالها وتمنع حصول نوالها ووصول منالها.

وقيل: المراد الرجاء من ربِّ العباد، وهو لا يُنافي نفْيَ نوالِ الوصالِ من سُعاد. أَمَسْتُ سُعَادَ بِأَرْضٍ لَا تُبْلَغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَّاسِلُ (أَمَسْتُ)؛ أي: دخلتُ في المساء، أو: صارتُ بأرضٍ بعيدة الهوى^(١) (لَا يُبْلَغُهَا) بتشديد اللام المكسورة، وفي نسخة (مَا يُبْلَغُهَا)؛ أي: ما تُوصِلُها ولا تُلَحِّقُها. وَرُويَ بصيغة التفعُّل أيضاً، والتبليغُ: الإيصالُ، والتبْلُغُ: الوصولُ. وعلى الأولِ مفعولُهُ الأولُ محذوفٌ؛ أي: لَا تُبْلَغُنِي إِلَيْهَا؛ ففيهِ الحذفُ والإيصالُ؛ نحو: ﴿وَأَخَذَ مَوْمِنًى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، و﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢].

وعلى الثاني^(٢): الضميرُ المنصوبُ إلى (سُعَاد)، وعائدُ الموصوفِ محذوفٌ؛ أي: لَا تُبْلَغُهَا إِلَيْهَا؛ أي: إلى تلك الأرضِ.

(إِلَّا الْعِتَاقُ) بكسر العين: جمعُ عتيقٍ؛ ككِرَامٍ: جمعُ كريمٍ، من قولهم: وَجْهٌ عَتِيقٌ؛ أي: حَسَنٌ؛ كأنه عَتِيقٌ من العيوبِ، وكذا^(٣) لُقِّبَ به أبو بكرٍ الصديقُ

(١) في «س»: «الهواء».

(٢) أي: على ما في النسخة الثانية، وهي: «تُبْلَغُهَا».

(٣) في «س»: «ولدا».

لحُسْن وجهه، وروى الترمذي أنه لُقِّبَ به لقوله عليه السلام: «أبو بكرٍ عتيقُ الله من النار» قال: فَمِنْ يَوْمِئِذٍ سُمِّيَ عَتِيقًا^(١).

و(النَّجِيَّاتُ): جمعُ النَّجِيَّةِ، وهي الكريمةُ الحبيبةُ، ورُوي: (النَّجِيَّاتُ) بالتحتيَّة المشددة؛ أي: السَّريعاتِ.

و(الْمَرَّاسِيلُ): جمعُ مِرْسَالٍ، ناقةٌ سريعةُ السَّيرِ سهلةُ المَشْيِ.

وَلَنْ يُبْلَغَهَا إِلَّا عَذَا فِرَّةً فِيهَا عَلَى الْأَيْنِ إِزْقَالَ وَتَبْغِيلُ
في نسخة (ولا يُبْلَغَهَا)؛ أي: إلى تلك الأرضِ.

(إِلَّا عَذَا فِرَّةً) بضمُّ مُهملةٍ، فمعجمةٍ، ثم فاءٍ مكسورةٍ، فراءٍ؛ أي: ناقةٌ صُلْبَةٌ عظيمةُ جَسِيْمَةٍ (فِيهَا عَلَى الْأَيْنِ)؛ أي: مع الإعياء، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلِنْ رَبِّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

و(الإِرْقَالُ) بكسرِ أوَّلِهِ: نوعٌ من الخَبَبِ، وضربٌ من العَدُوِّ.

و(التبغِيلُ) بموحدةٍ ومُعْجَمَةٍ: مشيٌّ فيه اختلافٌ بين العَنَقِ والهَمْجَلَةِ، وكأنه مشبَّهٌ بسيرِ البغلِ في شدَّتِهِ.

والعَنَقُ بفتحِ تينٍ: ضربٌ من سَيْرِ الدَّابَّةِ، قال الرَّاجِزُ:

يَانَاقُ سِيرِي عَنَقًا فَيَسِيحًا إِلَى سُلَيْمَانَ فَتَسْتَرِيحًا^(٢)

والهَمْجَلَةُ: فارسيٌّ مُعَرَّبٌ، وهو نوعٌ من السَّيرِ قريبٌ من العَدُوِّ.

والمعنى: أَنَّ تلكَ الأرضَ لِمَا فِيهَا مِنَ الطُّولِ والعَرَضِ لَا تَبْلُغُهَا إِلَّا نَاقَةٌ عَظِيمَةٌ صُلْبَةٌ جَسِيْمَةٌ سَرِيعَةٌ العَدُوِّ والسَّيرِ، على هيئةِ الطَّيْرِ، من صفتها أَنَّهَا إِذَا أُعِيْثَ مِنْ

(١) رواه الترمذي (٣٦٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البيت لأبي النجم. انظر: «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (٢٠٤ / ٤).

السَّيرِ سَارَتْ هَذِينَ النُّوعِينَ مِنْهُ، فَمَا ظَنُّكَ بِهَا إِذَا لَمْ تَعِيَ؟ فَإِنَّهَا حَيْثُذُ تَكُونُ كَالطَّيْرِ.
وفيه إشارةٌ إلى طريقِ السَّالِكِينَ مِنَ السَّائِرِينَ، وَسِيرِ الطَّالِبِينَ مِنَ الطَّائِرِينَ
بِحَسَبِ تَفَاوُتِ مَرَاتِبِ قُوَّةِ الْجَذْبَةِ فِي سَبِيلِ الْمَحَبَّةِ، وَإِيمَاءٌ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَجَائِبِ
الْقُدْرَةِ وَغَرَائِبِ الْقُوَّةِ فِي خَلْقَةِ الْإِبْلِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْهَيْئَةِ الْمُورِثَةِ لِلْعِبْرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَ﴾ [الغاشية: ١٧]، وَإِشْعَارٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْمِلُ
أَنْفَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ١٧].

وفيه تلويحٌ إلى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَسْعَى فِي طَرِيقِ الْإِحْسَانِ لِيَصِلَ إِلَى مَيْدَانِ
الْعِرْفَانِ، وَيَحْصُلَ لَهُ وَصَالُ الْجَنَانِ، وَيَخْلُصَ مِنْ وَبَالِ النِّيرَانِ.

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذُّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُوْلُ
(مِنْ) بَيَانِيَّةُ صِفَةٍ (عَذَافِرَةٍ)؛ أَي: عَذَافِرَةٌ كَائِنَةٌ مِنْ كُلِّ نَاقَةٍ نَضَّاخَةٍ ذُفْرَاهَا،
وفيه مِنَ الْمَبَالِغَةِ مَا لَا يَخْفَى، حَيْثُ جَعَلَهَا مَتَّحِدَةً لِكُلِّ نَضَّاخَةٍ. وَ(النَضَّاخَةُ)
بِتَشْدِيدِ الضَّادِ ثُمَّ الْخَاءِ الْمَعْجَمَتَيْنِ: كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ
نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]؛ أَي: فَوَارَتَانِ.

و(الذُّفْرَى) بِكسْرِ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ: نُقْرَةٌ خَلْفَ أُذُنِ النَّاقَةِ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يَعْرِقُ
مِنْهَا، وَفِيهِ إِقَامَةُ الْمُفْرَدِ مُقَامَ التَّثْنِيَةِ؛ إِذْ لِكُلِّ نَاقَةٍ ذُفْرِيَانِ.

وقوله: (إِذَا عَرِقَتْ) ظَرْفُ (نَضَّاخَةٍ)؛ أَي: وَقْتَ عَرِقِهَا، وَذَلِكَ مِنْ كَثَرَةِ
السَّيْرِ وَسُرْعَتِهِ.

و(عُرْضَتُهَا) مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: (طَامِسُ الْأَعْلَامِ): جَمْعُ عَلَمٍ، بِمَعْنَى عَلَامَةٍ؛
أَي: طَرِيقٌ مُنْتَظِمُ الْعَلَامَاتِ، مُنْدَرِسُ الْإِشَارَاتِ، (مَجْهُوْلُ) صِفَةُ (طَامِسِ)
مَوْكَدٌ؛ إِذْ كُلُّ طَامِسٍ مَجْهُوْلٌ.

والمعنى: هَمَّتْهَا سَلُوكُ طَرِيقٍ مَمْحُورٍ عِلَامَاتُهُ، مَجْهُوْلٌ ذَاتُهُ؛ لِغَايَةِ قُوَّتِهَا عَلَى

سلوكها وسيرها وخرقها^(١)، وإدراكها الطريق المجهولة من غير أمارة وعلامة.

تَرْمِي الْغُيُوبَ بِعَيْنِي مُفْرَدٍ لَهَا إِذَا تَوَقَّدَتِ الْحِزَانُ وَالْمِيلُ

يقال: رمى السهم رمياً، ورمأه بالسهم، كما ورد هنا.

و(الغُيُوبَ) بضم أوله ويكسر: جمع غائب؛ كشاهد وشهود، أو غيب كيبت ويؤوت، والأول أولى، ولم يذكر الشراح إلا الثاني مع أنه مجاز؛ إذ الغيب في الأصل مصدر غاب، فأطلق على الغائب إطلاق الغور على الغائر في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠].

وفي «القاموس»: الغيب: ما اطمأن من الأرض، وجمعه: الغيوب^(٢).

ثم المراد برمي الغيوب: إيقاع النظر إليها بسرعة؛ فإنه يشبه الرمي في سرعة الوقوع على المحل.

وقوله: (بِعَيْنِي مُفْرَدٍ) فيه تشبيه بليغ؛ أي: بعينين كعيني ثور وحشي مفرد عن القطيع، أو بازي مفرد عن أمثاله البديع، فكل من المشبه والمشبه به حسي، ووجه الشبه وهو حدة النظر عقلي، كما حققه الفاضل الهندي.

و(اللَّهُق) بكسر الهاء وفتحها: الأبيض.

وقوله: (إِذَا تَوَقَّدَتِ) ظرف (ترمي) يصفها بأنها حديدة في النظر، ترمي في وقت شدة الحر، والتوقد: الإيقاد، وشبه كمال حر الشمس بتوقد النار.

و(الْحِزَانُ) بكسر الحاء المهملة، وبالزاي المشددة: جمع حزين بزاءين بمعنى: مكان صلب غليظ، و(المِيلُ) بكسر الميم: جمع ميلاء، بفتحها، وهي العقدة الضخمة من الرمل.

(١) في «س»: «وخرمها».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (مادة: غيب).

صَحْمٌ مُقْلَدُهَا عَبْلٌ مُقَيَّدُهَا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ

(صَحْمٌ)؛ أي: غليظٌ، وهو خبرٌ (مُقْلَدُهَا) بفتح اللام؛ أي: موضعُ القِلادة من العُنُقِ، والمرادُ: وصفُ الناقةِ بغِلَظِ الرقبةِ، وقد عيَّبَ ذلك، قال الأصمعيُّ: هذا خطأٌ في الوصفِ، وإنما خيرُ النجائبِ ما يَدُقُّ مَذْبَحُهُ، كذا ذكره ابنُ هشامٍ^(١).

وفيه: أنَّ ضخامةَ كُلِّ نجبيةٍ بحسبِ ما يُناسِبُها من طُولِها وعَرْضِها، على أنَّ الضخْمَ يُمكنُ تفسيره بالعَظِيمَ في حَدِّ ذاته وحُسْنِ صفاته.

و(عَبْلٌ) كضَحْمٍ؛ وزناً ومعنى، وروى: (فَعَمٌ) بالفاءِ والعينِ، وهو كعَبْلٍ مبنًى ومعنى، كذا قاله ابنُ هشامٍ^(٢)، وفَسَّرَهُ الفاضلُ بممتلئٍ.

وقوله: (مُقَيَّدُهَا) بفتحِ التَحْتِيَةِ المُشَدَّدَةِ؛ أي: موضعُ القيدِ منها؛ يعني: قوائمُها غليظةٌ؛ لأنها إذا كانت كذلك كان أقوى على السيرِ فيما هنالك.

والجملتانِ صفةٌ لـ (ناقةٍ)، وكذا قوله: (فِي خَلْقِهَا) بفتحِ أولِهِ؛ أي: في خَلْقَتِهَا وفِطَرَتِهَا.

(عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ) متعلِّقٌ بقوله: (تَفْضِيلِ) على أنَّ (عن) بمعنى (على)، وقيل: حالٌ من ضميرِ (خَلْقِهَا)؛ أي: في خلقِ اللهِ إِيَّاهَا متميِّزةٌ ومُتباينةٌ عن بناتِ الفحلِ تفضيلٌ لها عن سائرِ النُوقِ في الهيئَةِ والقُوَّةِ، وهو مبتدأٌ سَوَّغُهُ تقدُّمُ الخبرِ؛ أي: (فِي خَلْقِهَا)، أو الوصفُ المُستفادُ من تنوينِ التعظيمِ؛ أي: تفضيلٌ جليلٌ فيه تَجِيلٌ.

غَلَبَاءُ وَجَنَاءُ عُلُكُومٌ مُذَكَّرَةٌ فِي دَهْهَا سَعَةً قُدَّامَهَا مِيلُ

(١) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص: ٥٠).

(٢) المصدر السابق.

(عَلْبَاءُ) بغينٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ فَبَاءٍ مَوْحِدَةٍ؛ أي: عَظِيمَةُ الرَقَبَةِ، صِفَةٌ لـ (عَدَافِرَةٍ)، وكذا ما بَعْدَهُ، أو أَخْبَارٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ؛ أي: هِيَ عَلْبَاءٌ...، والجُمْلَةُ صِفَةٌ لـ (عَدَافِرَةٍ).

وقوله: (وَجَنَاءُ)؛ أي: عَظِيمَةُ الْوَجْتَيْنِ، وهما طَرَفَا الْوَجْهِ.

(عُلْكُومٌ) بِضَمَّتَيْنِ؛ أي: شَدِيدَةٌ. (مُذَكَّرَةٌ) بَفَتْحِ الْكَافِ الْمَشْدُودِ؛ أي: إِنِهَا مَعَ عِظَمِ خَلْقِهَا كَالَّذِكْرِ مِنَ الْأَبَاعِرِ.

و(فِي دَفَّهَا سَعَةً) مَبْتَدَأٌ سَوَّغُهُ تَقْدُّمُ الْخَبَرِ، أو فَاعِلُ الظَّرْفِ؛ لِاعْتِمَادِهِ عَلَى مَوْصُوفٍ أو مَبْتَدَأٍ.

و(الدَّفُّ) بَفَتْحِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَالْفَاءِ الْمُشْدُودَةِ: الْجَنْبُ، وَالْمَرَادُ بِهِ الْجَنْسُ لِيَشْمَلَ الْجَنَيْنَ. وَالسَّعَةُ بَفَتْحِ السِّينِ، وَالْقِيَاسُ الْكَسْرُ كَالْعِدَّةِ وَالزَّئِنَةِ وَالْهَيْبَةِ، لَكُنْهُمْ فَتَحُوا عَيْنَ هَذَا الْمَصْدَرِ لِفَتْحِهَا فِي الْمَضَارِعِ كَالضَّعَةِ.

وقوله: (مِيلٌ) مَبْتَدَأٌ، أو فَاعِلٌ^(١) الظَّرْفِ الْمُتَقَدِّمِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (قُدَّامَهَا) بِالنَّصْبِ، وَجُوزَ رَفْعُهُ، قَالَ الْفَاضِلُ: نَحْوُ: خَلْفَ، وَقُدَّامَ، وَأَمَامَ، إِذَا كَانَتْ مُضَافَةً ظُرُوفٌ وَفَاقًا، وَيَجُوزُ رَفْعُهُ عِنْدَ الْبَصْرِيِّ وَالْكَوْفِيِّ وَالسَّجَزِيِّ فِي الشَّعْرِ لَا غَيْرَ، وَإِذَا كَانَتْ مَفْرُودَةً فَلَيْسَتْ بِظُرُوفٍ عِنْدَ الْكَوْفِيِّينَ، بَلْ هِيَ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ، فَخَلْفَ، بِمَعْنَى مُتَأَخَّرٍ، وَقُدَّامَ بِمَعْنَى مُتَقَدِّمٍ، فَإِذَا وَقَعَتْ أَخْبَارًا يَجِبُ رَفْعُهَا عِنْدَهُمْ، وَعِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ يَجُوزُ فِيهِمَا النَّصْبُ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ وَالرَّفْعُ يَحْذِفُ الْمُضَافَ، كَذَا فِي بَعْضِ شُرُوحِ «الْكَافِيَةِ»^(٢).

فـ (قُدَّامَهَا) هُنَا مُضَافٌ وَقَعَ فِي الشَّعْرِ؛ فَيَجُوزُ رَفْعُهُ بِالِاتِّفَاقِ.

(١) فِي «و»: «وَفَاعِلُهُ»، وَالْمُثَبَّتُ مِنْ «س» وَهُوَ الصَّوَابُ.

(٢) انْظُرْ: «شَرْحُ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَّةِ» لِابْنِ مَالِكٍ (٢/ ٩٦٥).

وَجِلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ لَا يُؤَبِّسُهُ^(١) طِلْحٌ بِضَاحِيَةِ الْمَتْنَيْنِ مَهْزُولٌ

(جِلْدُهَا) مبتدأ خبره (مِنْ أَطُومٍ)؛ أي: من جِلْدِهِ، وهو بفتح الهمزة وضمّ الطاء المهملة، قيل: هي سُلْحَفَاءُ بحرية، وقيل: سمكةٌ غليظة الجلد في البحر يُشَبَّهُ بها جلدُ البعير الأملس، ويُتخذُ منها الخِفَافُ للجَمَّالينَ، ويُخصَفُ بها النِّعَالُ للحَمَّالينَ.

وجملة (لَا يُؤَبِّسُهُ طِلْحٌ) صفة (أطوم) يقال: أَبَسَهُ يَأْبِسُهُ: وَيَبِّخُهُ وَرَوَّعَهُ وبه: ذَلَّلَهُ وَفَهَّرَهُ، وفلاناً: صَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ، كَأَبَسَهُ تَأْبِيساً.

و(طِلْحٌ) بكسر فسكونٍ: قرادٌ، صفتُه (بِضَاحِيَةِ الْمَتْنَيْنِ) وهما مُكْتَنَفَا الصُّلْبِ عن يمينٍ وشمالٍ من عَصَبٍ ولحمٍ، والبَاءُ بمعنى (في)، والإضافةُ بمعنى اللامِ، وَضَاحِيَةُ كُلِّ شَيْءٍ: ناحيته البارزةُ منه، وهي اسمُ فاعِلٍ؛ من ضَحِيَتْ بالكسر تَضَحَى بالفتح: إذا برزت للشمسِ، و(أل) في (المتنين) خَلَفٌ عن الضمير؛ فهو كذا: حَسَنَةُ الْوَجْهِ، فالمرادُ: ما برزَ من مَتْنَيْهَا للشمسِ. و(مَهْزُولٌ) صفةٌ أخرى.

والمعنى: جِلْدُهَا أَصْلَبُ أَمْلَسُ، لِسِمْنِهَا وَضَخَامَتِهَا؛ فَالْقَرَادُ الْمَهْزُولُ من الجوع لا يلتزقُ بناحيةٍ منها، ولا يَلْصِقُ بها ولا يَثْبُتُ عليها.

حَرْفٌ أَخُوها أَبُوها مِنْ مُهَجَّنَةٍ وَعَمُّها خَالُها قَوْدَاءُ شَمْلِيلٍ

(حَرْفٌ) خبرٌ محذوف؛ أي: هي، والجملةُ صفةٌ (عُدَّافَةٍ)، و(أَبُوها) مبتدأ خبره (أَخُوها)، والجملةُ صفةٌ (حَرْفٍ)، وحرفٌ كُلُّ شَيْءٍ: طَرَفُهُ، ومنه: حَرْفُ الْجَبَلِ، وهو أعلاه المحدودُ، والحَرْفُ: الناقَةُ الضَّامِرَةُ الصُّلْبَةُ، شُبِّهَتْ بحَرْفِ الْجَبَلِ؛ أي:

(١) في «و»: «يؤيسه» بالياء، والمثبت من «س» وهو الصواب.

أنها مثله في القوَّة والصُّلْبَة، أو المراد بالحرف: الخَطِّيُّ^(١)؛ أي: أنَّها مثله في الضُّمُور والرِّقَّة؛ ففيه تشبيهٌ بليغٌ؛ أي: كالحرف.

وقوله: (أخوها أبوها) كناية عن كمال قوتها وصلابتها، وغاية كرمها ونجابتها؛ إذ ذاك من لوازم إنزاء البعير على النُّوق القريبة منه؛ كالأمِّ والبنْتِ؛ فإنَّ البهائم إلى قرابتها أشهى منها إلى غيرهنَّ، بخلاف الإنسان، ومتى كانت الشهوة أكمل كان الولد أقوى.

وقوله: (مِنْ مُهَجَّنَةٍ) صفة (حرف)، و(مِنْ) بيانية؛ أي: ناقةٌ مُهَجَّنَةٌ، أو تبعيضية؛ أي: مِنْ نياقٍ مُهَجَّنَةٍ؛ أي: مُكْرَمَةٍ.

و(عَمَّهَا خَالُهَا) جملةٌ أخرى، صفة (حرف).

والمعنى: ناقةٌ صُلْبَةٌ مرتفعةٌ، كحرفِ الجبل، كاملةُ القوَّة من حيثُ إنَّ أباهَا أخوها، وعَمَّهَا خَالُهَا؛ فإنَّ ذلك مِنْ كمالِ قوَّةِ البهيمةِ وغايةِ نجابتها.

وهي (قَوْدَاءُ)؛ أي: طويلةُ الظَّهرِ والعُنُقِ.

(سَمْلِيلٌ) بكسرِ الشينِ المُعْجَمَةِ؛ أي: سريعةُ السيرِ خفيفةٌ كالطيرِ.

قال الفاضلُ الهنديُّ: صورةُ ذلكَ بعيرٌ ضربٌ - يعني: نكح - أمَّهُ، فولدتُ بعيراً وناقَةً، ثم ضربَ البعيرُ الأولُ بنتَهُ هذه فولدتُ ناقةً، فهذه الناقةُ أبوها - وهو البعيرُ الثالثُ - أخوها من أمِّها؛ لأنه ولدُ أمِّها قد نزا عليها، فولدتُ هذه الناقةُ، والبعيرُ الثاني أخو أبيها من الأب؛ إذ أبو كلِّ منهما هو البعيرُ الأولُ؛ فهذه ناقةٌ أبوها أخوها، وعَمَّهَا خَالُهَا.

وذكرَ في «التكملة» صورةً أخرى، وهي في مقامِ القُرْبِ أخرى: جملٌ ضربَ ابنتَهُ فجاءتُ بجملين؛ فهما ابناها مع أنهما أخوها لأبيها أيضاً لأنَّهما ولدا أبيها، ثم

(١) الخطي: نوع من الرماح ينسب إلى الخط، وهو موضع باليمامة تحمل إليه الرماح من بلاد الهند فتقوم به فنسبت إليه. ووقع في النسختين: «أو المراد الحرف الخطي»، ولعل المثبت هو الصواب.

ضربَ أحدهما أُمَّه فجاءَ بناقةً، فهذه ناقةٌ أبوها أخوها لأمِّها، والجمالُ الآخرُ الذي لم يضربَ أُمَّه عُمُّها؛ لأنه أخو أبيها لأبٍ وأمٍّ، وهو خالُّها أيضاً؛ لأنه أخو أمِّها لأبٍ؛ لأنَّ أباه وأباه واحدٌ، وهو الجمالُ الذي ضربَ بنته، فولدتَ جَمَلَيْنِ.

وقال ابنُ هشامٍ: التهجينُ مدحٌ في الإبلِ، ذمٌّ في الإنسانِ؛ إذ معناه في الإبلِ: كريمُ الأبوين، وفي الإنسانِ: أن يكون الأبُ عربياً والأمُّ أُمَّةً، وإن كان الأمرُ بالعكسِ قيل: رجلٌ معرَّبٌ^(١).

ومن المَلَح: أن أعرابياً جاء إلى ابنِ شُبْرَمَةَ القاضي، فقال: مسألة؟ فقال: هاتِ، فقال: إنَّ أبي ماتَ وخلفني وشقيقاً لي وخطأً بأصبعيه في الأرضِ خطَّينِ مُتجاورين، ثم قال: وخلفَ هَجِيناً، وخطأَ خطأً آخرَ بعيداً، ثم قال: ولم يُخَلِّفْ غيرَنا، فاقسِمِ المالَ بيننا. قال: هو بينكم أثلاثاً، فقال: سبحانَ الله! كأنَّكَ لم تفهمِ المسألةَ، فقالَ أعدّها فأعادها، فأجابهُ كالأولِ، فقال: أيرِثُ الهَجِينُ كما ارِثُ؟! فقال^(٢): لقد علمتُ والله أنَّ خالاتِكَ بالدَّهْناءِ قليلةٌ^(٣)، فقال: لا يضرُّني ذلكَ عندَ الله شيئاً^(٤).

يَمْشِي الْقَرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزَلِّقُهَا مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلُ
(الْقَرَادُ) بضمُّ القافِ: دُويَّةٌ معروفةٌ تلتزقُ الدَّابَّةَ، يقالُ لها بالفارسية: كنه، والمعنى: أنَّ جلدَها أملسٌ لِسمنِها؛ فالْقَرَادُ لا يثبتُ عليها، وهذا تأكيدٌ لقوله: (وجلدُها من أطوم) فلو ذكرهُ بجَنِّهِ لكانَ أليقَ، ذكرهُ ابنُ هشامٍ^(٥).

(١) في «س»: «مقرَّب».

(٢) أي: الأعرابي. انظر: «محاضرات الأدباء» لأبي القاسم الأصفهاني (١/ ٤٢١)، لكنه ذكر القصة عن سوار القاضي لا عن ابنِ شبرمة كما ذكرها ابنُ هشام.

(٣) في «المحاضرات»: «أعلم أنك قليل الحالات بالدَّهْناء».

(٤) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص: ٥٣).

(٥) انظر: المصدر السابق (ص: ٥٠).

ولعل وجهه: أن البيت الوسطاني جملة معترضة.

وقوله: (ثُمَّ يُزْلِقُهُ) بضم الياء وبكسر اللام من الإزلاق، وهو إفعال من الزلق، وهو نقيض ثبات القدم^(١)، والزلق أيضاً جاء متعدياً، وقُرى بالوجهين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ [القلم: ٥١]، ونافع يفتحها^(٢).

و(ثُمَّ) هنا للترتيب لا للتراخي؛ إذ لا يحسن أن يُخبر عنها بتراخي سقوطه عنها، بل بقربه وسرعته منها.

و(من) في (منها) للابتداء، أو بمعنى (عن)، ويؤيده أنه روي: (عنها).

(لَبَّانُ) بفتح اللام والموحدة: الصدر، أو وسطه، أو ما بين الشدين.

و(أَقْرَابُ) بفتح أوله؛ أي: خواصر، وفيه إقامة الجمع مقام المثنى؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤].

وقوله: (زَهَالِيلُ): جمع زهلول بالضم، بمعنى: أملس، صفة (أقرب)، كما ذكره الفاضل، وهو أقرب، أو صفة (لَبَّانُ) و(أقرب) كما ذكره ابن جماعة، وهو أنسب.

عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ بِالنَّخْضِ عَنْ عُرْضٍ مِرْفَقُهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولٌ
(عَيْرَانَةٌ) خبر لمحذوف؛ أي: هي، وهي بفتح عين مهملة: ناقة شبيهة
بغير الوحش في سرعتها ونشاطها، وصلابتها وانبساطها.

(قُذِفَتْ) بصيغة المجهول؛ أي: رُميت (بِالنَّخْضِ) بنون مفتوحة فحاء مهمة ساكنة وضاد معجمة: اللحم، وروي: (قُذِفَتْ) بتشديد الدال، وقُذِفَتْ بِاللَّحْمِ (عَنْ عُرْضٍ) بضمين؛ أي: جانب.

(١) في «و»: «الثبات القدم»، والمثبت من «س» وهو الصواب.

(٢) انظر: «التيسير» للداني (ص: ٢١٣).

والمعنى: رُمِيت باللحم عن كلِّ جانبٍ من جوانبِها؛ بإرادةِ العمومِ المُستفادِ من النكرةِ المثبتةِ، على حدِّ قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

و(مَرْفُقُهَا) مبتدأٌ خبرُهُ (مفتولٌ)، و(عن بناتِ الزَّورِ) متعلِّقٌ بِهِ.

والمَرْفُقُ: بكسرِ الميمِ وفتحِ الفاءِ وعكسِهِ لغتانِ، وبهما قُرئ في السبعةِ قوله تعالى: ﴿وَبِئْهَيِّ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] ^(١).

و(الزَّورِ) بفتحِ الزاي: أعلى الصدرِ، وبنائُهُ: ما يتصلُّ بِهِ مما حوَلَهُ من الأضلاعِ وغيرِها.

والفَتْلُ بالفاءِ: الصرفُ.

والمعنى: هي مَصُونَةٌ عن الضَّغْطِ والزَّلَاقِ وانقطاعِها؛ لُبْعِدِ مَرْفِقِهَا عن أضلاعِهَا.

كَأَنَّمَا فَاتَتْ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحَهَا مِنْ خَطْمِهَا وَمِنَ اللَّحْيَيْنِ بِرِطِيلٍ
(ما) موصولةٌ، وهي مع صلتِهَا - أعني: فَاتَتْ عَيْنَيْهَا - اسمٌ (كانَ)، و(بِرِطِيلٍ) بكسرِ أولِهِ خبرُهُ، و(فَاتَتْ) بالفاءِ، وفي آخرِهِ التاءُ مِنَ الفوتِ؛ أي: تقدَّم، قال الأصمعيُّ: الوجهُ كُلُّهُ فائَتْ العينينِ إلا الجبهةَ.

و(مَذْبَحَهَا) بفتحِ الموحدةِ؛ أي: منحَرَهَا، وهو ما يلي الصدرَ، و(مِنْ خَطْمِهَا) خبرٌ مقدَّمٌ، والخطْمُ - بفتحِ الخاءِ المُعْجَمَةِ - من كلِّ طائرٍ: منقارُهُ، ومن كلِّ دابةٍ مقدَّمُ أنْفِهِ وفمه.

و(مِنَ اللَّحْيَيْنِ) عطفٌ، وهما بفتحِ اللامِ: العَظْمَانِ اللَّذَانِ يَنْبُتُ عليهما اللَّحْيَةُ - بالكسرِ - من الإنسانِ، ونظيرُهُ من بَقِيَّةِ الحيوانِ.

(١) قرأ نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقون بكسر الميم وفتح الفاء. انظر: «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري (٢/ ٣١٠).

و(بِرْطِيلُ) مبتدأ مؤخر، وهو بكسر أوله: مِعْوَلٌ من حديد، وأيضاً: حَجَرٌ مُسْتَطِيلٌ؛ شَبَّهَ رَأْسَهَا بأحدهما في الكِبَرِ والعِظَمِ والقُوَّةِ.
والحاصل: أَنَّهُ وصفَهَا بِكِبَرِ الرَّأْسِ وَعِظَمِهِ وَقُوَّتِهِ وصلابته، وفيه إيماء إلى فخامته وشهامته.

وفي نسخة: (قَابٌ) بدل: (فَاتٌ)، وهو بالقاف، وفي آخره موَحَّدة مرفوعة.
قال الفاضل: (ما) كَافَّةٌ؛ أي: مانعةٌ لـ (كَأَنَّ) عن العمل، وقَابُ الشيء: قَدْرُهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩]، وهو مبتدأ مضافٌ إلى (عَيْنَيْهَا)، و(مَذْبِجَهَا)^(١) عطفٌ على (عَيْنَيْهَا)، و(مَنْ خَطَمَهَا) و(مَنْ اللَّحْيَيْنِ) حالان من (قَابٌ عَيْنَيْهَا وَمَذْبِجَهَا) على اللَّفِّ والنشرِ المُرتَّبِ، و(مَنْ) للابتداء، والعاملُ فيهما معنى الفعلِ المُستفادِ من (كَأَنَّ)، وإضافةُ القَابِ لأدنى مَلَابَسَةٍ، والمرادُ: قَابٌ وجهها المنتهي إلى عَيْنَيْهَا، وقَابٌ عَنْقُهَا المنتهي إلى مَذْبِجِهَا، و(بِرْطِيلُ) خبرُ المبتدأ بحذفٍ مضافٍ؛ أي: قَدْرُ بِرْطِيلٍ؛ يعني: كَأَنَّ قَدْرَ وجهها المُنتهي إلى عَيْنَيْهَا مبتدأٌ مِنْ خَطَمِهَا، وَقَدْرَ عَنْقِهَا المُنتهي إلى مَذْبِجِهَا مبتدأٌ مِنَ اللَّحْيَيْنِ، قَدْرُ حَجَرٍ طَوِيلٍ في الطُّولِ والصلابة.

والمعنى: أَنَّ وجهها من مُقَدِّمِ الأنفِ إلى العينين كَحَجَرٍ طَوِيلٍ، وكذا عَنْقُهَا من المَنَحَرِ إلى اللَّحْيَيْنِ كَحَجَرٍ طَوِيلٍ، فيما دُكِرَ من وجهِ الشَّيْءِ.

تُمِرُّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلٍ فِي غَارِزٍ لَمْ تَخَوَّنُهُ الْأَحَالِيلُ
(تُمِرُّ) مِنْ أَمْرَةٍ: جعلُهُ مَارًّا؛ أي: تُمِرُّ عِيرَانَهُ ذَنْبًا؛ (مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ) في الطُّولِ، وهو جَرِيدُهُ الذي لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ الخُوصُ؛ فَإِنْ نَبَتَ عَلَيْهِ يَسْمَى: سَعَفًا؛ بفتح السينِ والعينِ المهملتين وبالفاء.

(١) بالجر هنا على ما في «ج»، وعلى ما في «س» - يعني: فات - هي منصوبة.

(ذَا خُصِّلَ) بضمّ ففتح: جمعُ خُصْلَةٍ من الشَّعرِ، صفةٌ أخرى لموصوفٍ محذوفٍ.

(فِي غَارِزٍ) متعلّقٌ بـ (تُورٌ) على أن (في) بمعنى (على)، على حدّ قوله تعالى: ﴿فِي جُدُوعٍ أَلْتَخَلَ﴾ [طه: ٧١]، وهو بغينٍ مُعْجَمَةٌ، ثم راءٍ مكسورةٍ فزايٍ؛ من غَرَزَتِ الناقَةُ - بالفتح - تَغْرُزُ بالضمّ: إذا قَلَّ لبنُها، والمرادُ به هنا: الضَّرْعُ. وقوله: (لَمْ تَخَوَّنَهُ) بفتح الحاءِ المعجمةِ والواوِ المشدّدةِ، حذفَ منه إحدى التاءينِ؛ أي: لم تَنَقُضْهُ.

(الْأَحَالِيلُ) بفتح الهمزةِ والحاءِ المهملةِ: جمعُ إحليلٍ، وهو مخرجُ اللَّبنِ من الضَّرْعِ، وهو المرادُ هاهنا، ويُطلقُ على مخرجِ البولِ أيضاً. والمعنى: أنها حائلٌ لا تُحلبُ، وذلك أقوى لها على السيرِ؛ فنَفَى الضَّعْفَ عنها بنفيه عن ضَرَعِهَا.

قَنَوءٌ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عِتْقٌ مُبِينٌ وَفِي الْحَدِيثِ تَسْهِيلُ
أي: هي قَنَوءٌ، أو صفةٌ (عَيْرَانَةٌ)، مؤنَّثٌ أَقْنَى، من القَنَاءِ كالعَصَا، وهو اخْدِيدَابٌ في الأنفِ؛ أي: ارتفاعٌ في وسطه، وفي روايةٍ: (وَجَنَاءٌ) بدلُ (قَنَوءٌ)، ويضعفُها لزومُ تكراره بقوله: (غَلْبَاءٌ وَجَنَاءٌ)، ويُرجَّحُها ما قيل: من أن القَنَاءَ عيبٌ في الإبلِ.

و(فِي حُرَّتَيْهَا) بضمّ الحاءِ وتشديدِ الرَّاءِ خبرٌ مُقَدَّمٌ، وهما الأُذنانِ، وقد رَوَى اليَشْكُرِيُّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «مَا حُرَّتَاهَا؟» فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَيْنَاهَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «أُذْنَاهَا» ذَكَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ^(١). وقوله: (لِلْبَصِيرِ) متعلّقٌ بـ (مُبِينٌ)؛ أي: للعلمِ بتلكِ الناقَةِ؛ فالباءُ صلةٌ

(١) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٥٧)، وفيه: «العسكري» بدل: «اليشكري»، وفي «ج»: «السكري».

(البصير)، أو للرائي إيّاها؛ فالباء زائدة، و(عِتَقْتُ) مبتدأ، أو فاعل للظرف، ومعناه: كرم ونجابة، (مبين) صفته؛ أي: ظاهر.

و(فِي الْخَدَيْنِ تَسْهِيلٌ) إعرابه كما سبق؛ أي: وفي خديها لين وسهولة لا خشونة وحزونة.

والمعنى: إذا نظر البصير بالإبل إلى أذنيها وسهولة خديها بان له عتقها وكرمها.

تَخْدِي عَلَى يَسْرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ ذَوَابِلُ مَسْهُنِ الْأَرْضِ تَحْلِيلُ

(تَخْدِي) كترمي، بمعجمة فمهملة، بمعنى: تُسرّع، وبمعجمتين: تسترخي، وهو أبلغ؛ لأنها مع استرخائها في السير تلتحق النوق السوابق، فكيف لو أسرع.

وقوله: (عَلَى يَسْرَاتٍ) بفتحيتين؛ أي: قوائم خفاف، و(عَلَى) بمعنى الباء الداخلة على الآلة؛ أي: تُسرّع بها، أو على حقيقتها باعتبار استعلاء الماشية على قوائمها.

وجملة (وَهِيَ لَاحِقَةٌ)؛ أي: مُدْرِكَةٌ، حال من (يَسْرَاتٍ)، وسوِّغَ مجيء الحال من النكرة عدم صلاحية الجملة للوصفية؛ لاقرانها بالواو، على حدّ قوله تعالى: ﴿أَوَكَلِّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ورُوي: (لاهيّة) بدل (لاحقة)؛ أي: أنّها تُسرّع من غير اكتراث ومبالاة، كأنّ ذلك سجيّة لها، وهي تفعله وهي غافلة عنه.

وقوله: (ذَوَابِلُ) تُؤنّ للضرورة، وهو جمع ذابل؛ أي: اليابس، خبر ثان، أو حال من ضمير (لاحقة)، أو صفة (يَسْرَاتٍ)، والفصل بين الصفة والموصوف جائز، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَرُّ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، وهذا أوفق لما بعده من الجملة؛ فإنها صفة لها أيضاً.

وفي نسخة: (وَقُعْهَنَّ) بدل: (مُسْهَنَّ)، وهو مبتدأ خبره (تَحْلِيلُ)؛ أي: شيء قليل لم يُبَالِغْ فِيهِ؛ كَأَنَّهُ مِنْ تَحْلِيلِ الْقَسَمِ، يُشِيرُ بِالْجُمْلَةِ إِلَى صِفَةِ رَفْعِهَا قَوَائِمُهَا؛ فَلَا تَمَسُّ الْأَرْضَ إِلَّا تَحَلَّةَ الْقَسَمِ، كَمَا يَحْلِفُ الْإِنْسَانُ عَلَى الشَّيْءِ لَيَفْعَلَنَّهُ، ففَعَلَ مِنْهُ الْبَسِيرَ لِيَتَحَلَّلَ بِهِ قِسْمُهُ، هَذَا أَصْلُهُ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ شَيْءٍ لَمْ يُبَالِغْ فِيهِ.

ومعنى البيت: أَنَّهَا تُسْرِعُ بِقَوَائِمِهَا الْخِفَافِ الدَّقِيقَةِ مَسْرَعَةً فِي سَبْرِهَا، كَأَنَّهَا لَا تَمَسُّ الْأَرْضَ إِلَّا تَحَلَّةَ الْقَسَمِ، وَالْحَالُ أَنَّهَا ضَامِرَةٌ أَوْ لَاحِقَةٌ بِالنُّوْقِ السَّابِقَةِ^(١) عَلَيْهَا، أَوْ اللَّاحِقَةِ بِالْدِيَارِ الْبَعِيدَةِ إِلَيْهَا.

سُمِرُ الْعُجَايَاتِ يَتَرُكْنَ الْحَصَى زَيْمًا لَمْ يَقِهَنَّ رُؤُوسَ الْأَكْمِ تَنْعِيلُ
(سُمِرُ): جَمْعُ أَسْمَرَ، وَالسُّمْرَةُ: لَوْنٌ يَقْرُبُ مِنَ السَّوَادِ، وَهُوَ بِالرَّفْعِ خَبْرٌ مُحذُوفٌ هُوَ: (هِيَ)، وَالْجُمْلَةُ صِفَةُ (يَسْرَاتٍ)، وَالْإِضَافَةُ لَفْظِيَّةٌ؛ أَيْ: سُمِرُ عُجَايَاتِهَا، وَهِيَ بَضْمُ الْعَيْنِ الْمُهِمْلَةِ وَبِالْجِيمِ: جَمْعُ عُجَايَةٍ، وَهِيَ: لَحْمَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِالْعَصَبِ الْمُنْحَدِرِ مِنْ رُكْبَةِ الْبَعِيرِ إِلَى الْفَرْسَنِ، وَالْفَرْسَنُ فِي الْبَعِيرِ كَالْحَافِرِ فِي الدَّابَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ سِمَاتِ الْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ وَالنَّجَابَةِ.

وَجُمْلَةُ (يَتَرُكْنَ) صِفَةُ (يَسْرَاتٍ)، وَهُوَ بِمَعْنَى: يَجْعَلَنَّ، مُتَعَدٍّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ، وَقِيلَ: (زَيْمًا) حَالٌ مِنَ (الْحَصَى) وَهُوَ بِكَسْرِ الزَّيِّ وَفَتْحِ الْيَاءِ: الْمَتَفَرِّقُ؛ أَيْ: أَنَّهَا لَشِدَّةٍ وَطَنُهَا الْأَرْضُ تُفَرِّقُ الْحَصَى عَنْ مَوْضِعِهَا.

وَجُمْلَةُ (لَمْ يَقِهَنَّ) صِفَةُ (يَسْرَاتٍ) أَيْضًا، مِنَ الْوِقَايَةِ بِمَعْنَى الْحِفْظِ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: (لَمْ يُقِهَنَّ) مِنَ الْإِبْقَاءِ.

و(رُؤُوسَ الْأَكْمِ) ظَرْفُ مَكَانٍ بِحَذْفِ مُضَافٍ؛ أَيْ: لَمْ يَقِهَنَّ - أَوْ: لَمْ يُقِهَنَّ - فَوْقَ رُؤُوسِ الْأَكْمِ، وَهُوَ بِضَمِّ الهمزة وَسُكُونِ الْكَافِ مُخَفَّفُ أَكْمٍ بِضَمَّتَيْنِ جَمْعٌ

(١) فِي «س»: «الْمَسَابِقِ».

إِكَام، كَكْتَبٍ وَكِتَابٍ، و(الْأَكَامُ) جمعُ أَكَمٍ بفتحِ تينٍ، كَجِبَالٍ وَجَبَلٍ، وَالْأَكَمُ، بفتحِ تينٍ: جمعُ أَكَمَةٍ؛ كَثَمَرٍ وَثَمَرَةٍ.

وَالْأَصُوبُ عَلَى رَوَايَةِ (لَمْ يَقِهَنَّ) كَوْنُهُ مَفْعُولًا ثَانِيًا لـ (يَقِ)؛ إِذِ الْوَقَايَةُ تَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، يُقَالُ: وَقَيْتُهُ الشَّرَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوْقَهُمْ اللَّهُ سُرَّةَ الْيُورِ﴾ [الإنسان: ١١].

وَالْمَعْنَى: لَا يُحْتَاجُ لَوَقَايَتِهَا مِنْ أَدَى رُؤُوسِ الْأَكَمِ - أَوْ لِبَقَائِهَا فَوْقَ رُؤُوسِ الْأَكَمِ - إِلَى تَنْعِيلِ كَسَائِرِ الثُّوقِ، بَلْ كَفَى بِصَلَابَتِهَا وَقَايَةً.

و(تَنْعِيلُ) فاعِلٌ (يَقِ) (١)، وَهُوَ شَدُّ النَعْلِ عَلَى حَافِرِ الدَّابَّةِ؛ أَيْ: أَنَّهَا نَاقَةٌ صُلْبَةٌ، لَا تَخْفَى فِي سَبِيلِهَا، وَلَا تَرْتُقُ قَدَمُهَا، فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى النَعْلِ عِنْدَ جَرِيهَا.

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إِذَا عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَعَ بِالقُورِ الْعَسَاقِيلُ
الْجُمْلَةُ الْأُولَى صِفَةٌ (عَيْرَانَّةٌ)، وَالْأَوْبُ بفتحٍ أُولِهِ: سُرْعَةُ تَقْلِبِ (٢) الْيَدَيْنِ
وَالرَّجْلَيْنِ، وَ(إِذَا عَرِقَتْ) ظَرْفُ (أَوْبَ)، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنْ وَقْتِ الْهَاجِرَةِ، وَهُوَ وَقْتُ اشْتِدَادِ
الْحَرِّ، وَإِنَّمَا خَصَّ التَّشْبِيهَ بِهَذَا الْوَقْتِ؛ لِأَنَّ السَّرَابَ إِنَّمَا يَظْهَرُ عِنْدَ قُوَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ.
وَتَلَفَعَ الرَّجْلُ بِالثَّوبِ: اشْتَمَلَ عَلَيْهِ وَتَغَطَّى بِهِ.

و(القُور) بِالضَّمِّ: جَمْعُ قَارَةٍ، وَهِيَ جَبَلٌ صَغِيرٌ، وَ(الْعَسَاقِيلُ): السَّرَابُ، وَهُوَ
مَا تَرَاهُ نِصْفَ النَّهَارِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ (عَرِقَتْ).

قِيلَ: لَيْسَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَةِ ضَمِيرٌ صَاحِبِهَا؟
وَأَجِيبَ: بِأَنَّهُ يَجُوزُ إِخْلَاءُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَةِ عَنْهُ؛ ك: لَقَيْتُكَ وَالْجَيْشُ قَادِمٌ. كَذَا
فِي «الْمُفَصَّلِ» (٣).

(١) فِي «س»: «لَمْ يَقِ».

(٢) فِي «س»: «تَقْلِبَ».

(٣) انْظُرْ: «الْمُفَصَّلُ بِشَرْحِ ابْنِ يَعِيشَ» (ص: ٩٢).

يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْحَرْبَاءُ مُضْطَخِدًا كَأَنَّ صَاحِبَهُ بِالشَّمْسِ مَمْلُوءٌ
(يَوْمًا) ظرفُ (تَلَفَّعَ) أو (عَرَقَتْ)، أو بدلٌ من (إذا) بدلٌ كلٌّ.

و(يَظَلُّ) بفتح الظاءِ الْمُعْجَمَةِ، مضارعٌ ظَلَلْتُ بالكسرِ، يقال: ظَلَلْتُ أَعْمَلُ
كذا ظَلَّلَوْلًا: إذا عملته بالنَّهَارِ، وقد يُخَفَّفُ بحذفِ إحدى اللامينِ، ومنه قوله
تعالى: ﴿ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]، وقد يُفَسَّرُ (يَظَلُّ) بمعنى يَصِيرُ.

و(به) بمعنى: فيه، و(الحَرْبَاءُ) بكسرِ الحاءِ: دُوبَّةٌ مُخَطَّطَةٌ تستقبلُ الشمسَ
وتدورُ معها، فتصيرُ وقتَ الهاجرةِ في أعلى الشجرِ، وقيل: حيوانٌ يرى له سَنَامٌ كسَنَامِ
الإبلِ، يستقبلُ الشمسَ، ويدورُ معها كيف دارت، ويتلونُ ألواناً بحرَّ الشمسِ، وهو
في الظلِّ أخضرٌ، ويُكنى: أبا قُرَّةَ، وبه يُضْرَبُ المثلُ؛ لأنه يُمسِكُ ساقَ الشجرِ، فلا
يُرسلُهُ إلا ويُمسِكُ ساقاً آخرَ، وألفه للإلحاقِ بقرطاسٍ.

وقوله: (مُضْطَخِدًا) بكسرِ الخاءِ الْمُعْجَمَةِ؛ أي: محترقاً، وأصله: مُضْطَخِدًا،
يقال: اضْطَخَدَ: إذا تصلَّى بحرَّ الشمسِ، ورُوي (مُضْطَخِمًا) واضْطَخَمَ بالميمِ:
انتصب قائماً.

والضَّاحِي: البارزُ، ويُروى: (بالنار) بدل (بالشمس)، والباءُ للسببيةِ.

و(مَمْلُوءٌ) مفعولٌ من مَلَأْتُ الخُبْزَ بالفتحِ أَثْمَلُهُ بالضمِّ: إذا عملته في
المَلَّةِ، بفتح الميمِ: وهي الرماذ الحارُّ، وقيل: الحُفْرَةُ نَفْسُهَا، ويقالُ لذلك
الخُبْزِ: ملولٌ ومليلٌ أيضاً.

والحاصلُ: أنه شَبَّهَ أَوْبَ ذراعيها بأوبِ ذراعي عَيْطَلٍ وقتَ عرقها في يومٍ
شديد الحرِّ يَظَلُّ فيه الحرباءُ محترقاً بحيثُ يكونُ ظاهرُهُ كأنه بسببِ الشمسِ
مَجْعُولٌ في الرماذِ الحارِّ.

وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ وَقَدْ جَعَلْتُ وَرُقَ الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَى: قِيلُوا

(قَالَ) عطفٌ على (تَلَفَّعَ)، و(حَادِيهِمْ) سائقٌ إِيْلَهُمْ بِالْحُدَاءِ، وهو الْغِنَاءُ.

و(الْوُرُقُ) بضمٍّ أوله: جمعُ أَوْرُقٍ؛ كَحُمْرٍ وَأَحْمَرٍ، وَالْوُرُقَةُ: لونٌ يُشَبِّهُ الرَّمَادَ، وقيل: أَخْضَرُ يَضْرِبُ إِلَى سَوَادٍ.

و(الْجَنَادِبِ): جمعُ جُنْدَبٍ، بضمٍّ الجيمِ والدالِ ويُفْتَحُ: ذَكَرُ الْجَرَادِ، وقيل: ضَرْبٌ مِنْهُ، وقيل: الصَّغَارُ مِنْهُ، والإضافةُ فِيهِ مِنْ بَابِ: أَخْلَقُ ثِيَابٍ.

وَالرَّكْضُ: تحريكُ الرَّجْلِ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢].

أَي: وَالْحَالُ أَنَّ جَنَادِبَ الْوُرُقِ أَخَذْنَ يُحَرِّكْنَ أَرْجُلَهُنَّ عَلَى الْحَصَايِ، لَا يُمَكِّنُ لَهُنَّ التَّمَكُّنُ عَلَيْهَا لَكُونِهَا مُحَمَّاةً بِالْحَرِّ، وَلَا الطَّيْرَانُ عَنْهَا؛ لِإِعْيَائِهَا عَنْهُ لِتَأْثِيرِ الْحَرِّ فِيهَا، أَوْ: أَخَذْنَ يَضْرِبْنَ الْحَصَى بِأَرْجُلِهِنَّ لِقَصْدِ النُّزُولِ؛ لِلإِعْيَاءِ عَنِ الطَّيْرَانِ، فَيَهْرَبْنَ مِنْ حَرِّهَا.

وقوله: (قِيلُوا) مَقُولٌ (قَالَ) وهو أَمْرٌ مِنْ قَالَ يَقِيلُ قَيْلُولَةً: وَهِيَ النُّومُ فِي نَصْفِ النَّهَارِ، وقيل: الْإِسْتِرَاحَةُ فِي النَّهَارِ وَقَتَ شِدَّةِ الْحَرِّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَ ذَلِكَ نَوْمٌ، ومنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ومن الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنَابَيْتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَيْطَلٍ نَصَفٍ قَامَتْ فَجَاوَبَهَا نُكْدٌ مَثَاكِيلُ

(شَدَّ النَّهَارِ): ارتفاعُهُ؛ فهو مصدرٌ جُعِلَ ظَرْفًا؛ أَي: وَقَتَ ارْتِفَاعِهِ؛ كذ: لَقَيْتَكَ قَدُومَ فُلَانٍ، فهو إِمَّا ظَرْفٌ لِنُفُولٍ (قِيلُوا)، أَوْ بَدَلٌ مِنْ (يَوْمًا) فِي (يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْجَرَبَاءُ). وقوله: (ذِرَاعًا عَيْطَلٍ) خَبَرٌ (كَأَنَّ) بِحَذْفِ مُضَافٍ؛ أَي: كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعِيهَا فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ أَوْبَ ذِرَاعِي عَيْطَلٍ.

وَالْعَيْطَلُ: الطويلة.

و(النَّصْفُ) بفتحِين: التي بين الشَّابَّةِ والكَهْلَةِ، وما أحسن قول الحماسي:

لَا تُنْكِحَنَّ عَجُوزًا إِنْ دُعِيتَ لَهَا وَاخْلَعْ ثِيَابَكَ عَنْهَا مُمَعِنًا هَرَبًا
وَإِنْ أَتَوَكَ وَقَالُوا إِنَّهَا نَصْفٌ فَإِنْ أُمِثَلَ نِصْفَيْهَا الَّذِي ذَهَبَا^(١)

وَضَمِيرُ (قَامَتْ) إِلَى (عَيْطَلٍ)، (فَجَاوَبَهَا نُكْدًا) بضمَّ النونِ وسكونِ الكافِ:
جَمْعُ نُكْدَاءَ، كَحُمْرَاءَ وَحُمْرٍ، وهي التي لا يعيش لها ولدٌ.

و(مَثَاكِيلُ) بفتح الميم: جمعُ مَثْكَالٍ بكسرِها، وهي الكثيرةُ الثُّكُلِ،
وَالثُّكُلُ: فَقْدَانُ الْمَرْأَةِ وَلَدَهَا؛ أي: التي مات لها أولادٌ كثيرةٌ.

والمعنى: كَأَنَّ ذِرَاعِي هَذِهِ النَّاقَةِ فِي سُرْعَةِ سِيرِهَا ذِرَاعًا هَذِهِ الْمَرْأَةِ فِي اللَّطَمِ
لَمَّا فَقَدَتْ وَلَدَهَا، جَاوَبَهَا نِسَاءٌ فَقَدْنَ أَوْلَادَهُنَّ؛ إِذِ النِّسَاءُ الْمَثَاكِيلُ إِذَا جَاوَبَتْهَا كَانَ
ذَلِكَ أَقْوَى لِحُزْنِهَا وَأَنْشَطَ فِي تَرْجِيْعِ يَدَيْهَا عِنْدَ النَّيَاحَةِ لِمُسَاعَدَتِهَا لَهَا.

نَوَاحَةٌ رِخْوَةٌ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا لَمَّا نَعَى بِكُرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ
(نَوَاحَةٌ) بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ: مِبَالِغَةٌ نَائِحَةٌ، صِفَةٌ أُخْرَى لـ (عَيْطَلٍ)، وَكَذَا (رِخْوَةٌ
الضَّبْعَيْنِ) بِكُسْرِ الرَّاءِ، وَتَثَلُّثٌ، وَالْإِضَافَةُ لَفْظِيَّةٌ؛ أَي: رِخْوَةٌ ضَبْعَاهَا، وَالضَّبْعُ؛
بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ: الْعَضُدُ.

وَالنَّعَى بِالْفَتْحِ: خَبَرُ الْمَوْتِ.

وَالْبِكْرُ بِالْكَسْرِ: أَوَّلُ أَوْلَادِ الْمَرْأَةِ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى.

وَالنَّاعِي: مَنْ يَأْتِي بِخَبَرِ الْمَوْتِ.

وَالْمَعْقُولُ: اسْمُ (لَيْسَ) بِمَعْنَى الْعَقْلِ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى صِيغَةِ

(١) انظر: «الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ١٣١١).

مفعول؛ كمَعْسُورٍ، ومَيْسُورٍ، ومَفْتُونٍ، كما في الآية^(١) على ما قاله الأخفش والفرّاء.
 وأنكر سيبويه مجيء المصدرِ بزنة المفعول^(٢)، وتأوّل قولهم: دَعَهُ من معسوره
 إلى ميسوره، على أنه صفةٌ لزمانٍ محذوفٍ؛ أي: دَعَهُ من زمانٍ يُعَسِّرُ فيه إلى زمانٍ يُوسِّرُ فيه.
 وقولهم: ما لَهُ معقولٌ، على معنى: ما لَهُ شيءٌ يُتَعَقَّلُ، ويلزم من انتفاء الشيء
 المتعقّل انتفاء العقل، كما يلزم من انتفاء المضروب انتفاء الضرب.
 وأمّا الآية، فقليل: الباء زائدة.

والمعنى: إنّ هذه المرأة كثيرة النّوح مُسترخية العضدين، فيداها سريعة
 الحركة، فلمّا أخبرها الناعون بموت ولدها لم يبق لها عقل، فأقبلت تُشَقِّقُ مَنْحَرَهَا
 وصدورها بيدها.

تَفْرِي اللَّبَّانَ بِكَفَّيْهَا وَمَدْرَعُهَا مُشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَائِلُ
 (تَفْرِي) بالفاء وكسر الراء، ويجوز في تائه الفتح والضم، يُقال: فَرَيْتُهُ
 وَأَفْرَيْتُهُ بمعنى واحدٍ، وقيل: أَفْرَيْتُ الأديم: قطعته للإفساد، وفَرَيْتُهُ: قطعته
 للإصلاح، والجملة صفةٌ (عَيْطَلٍ).
 و(اللَّبَّانُ) بفتح اللام: الصّدر، و(أل) فيه نائبة عن الضمير؛ أي: لَبَّانُهَا؛
 يعني: قميصها.

والباء في (بِكَفَّيْهَا) للاستعانة.

وأورد عليه: أن الفَرْيَ بالأنامل لا بالكفين.

وأجيب: بأنه قد يحصل الفَرْيُ بالكف عند شدّة الضرب به وكثرته،

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

(٢) انظر: «شرح شافية ابن الحاجب» للرضي (١/ ١٦٨).

حيثُ يتوزَّم به الجلدُ فيشَقُّقُ، أو يُحْمَلُ على حذفِ مضافين؛ أي: بأناملِ أصابعِ كَفَّيْهَا، والأوَّلُ أبلغُ وأدُلُّ على الوجعِ والمُصِيبَةِ.

و(مَذْرَعُهَا) مبتدأ، (مُشَقَّق) خبره؛ أي: مشقوقٌ شَقًّا كثيرًا، و(رَعَابِيلُ) خبرٌ ثانٍ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ (تَفْرِي).

و(عَنْ تَرَاقِيْهَا) متعلقٌ بـ (مُشَقَّق) بتضمينِ معنى الإزالةِ أو التَّحْيَةِ؛ أي: مُزَالًا منها، أو مُنْحَى عنها.

و(التَّرَاقِي) بفتحِ أوَّلِهِ وكسرِ القافِ: جمعُ تَرْقُوةٍ؛ بفتحِ التَّاءِ، والعامَّةُ يَضْمُونَهَا وهوَ خطأ، ووزنُهَا فَعْلُوَّةٌ، وهي عظامُ الصدرِ التي تقعُ عليها القِلَادَةُ، وفيه استعمالُ الجمعِ موضعِ المفردِ للمبالغةِ.

قيل: (الرَّعَابِيلُ) بفتحِ الراءِ: قِطْعٌ، وقيل: ممزَّقٌ، وقيل: الرَّعَابِيلُ: الأخلاقُ، واحدة: رُعْبُولٌ، وإنما يصحُّ حملُه على المِذْرَعِ الواحدِ باعتبارِ حذفِ أداةِ التشبيهِ؛ أي: مِذْرَعُهَا كالثيابِ الأخلاقِ في التشقُّقِ وتفرُّقِ الأجزاءِ، أو باعتبارِ أنه أريدَ بالمِذْرَعِ الجنسُ، فكانَ حملُ الجمعِ عليه نظيرَ التَّوصِيفِ، في نحو: الدرهمُ البِيضُ.

والمعنى: أنها تضربُ صدرَها بكفَّيْهَا مُشَقَّقَةً درْعَهَا؛ تَأْسَفًا على ولِدِهَا.

يَسْعَى الوُشَاةُ جَنَائِبَهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولٌ جملةٌ (يَسْعَى) بالتذكيرِ والتأنِيثِ، صفةٌ (عُذَّافِرَةٌ)، أو (حَرْفٌ) أو (عَيْرَانَةٌ)، والمرادُ بالسَّعْيِ هنا: ما يقعُ من الوُشَاةِ - بضمِّ الواوِ -: وهم النَّمَامُونَ، من الإفسادِ بكلامِهِمْ، والضَّرَرِ بِمَلامِهِمْ.

و(جَنَائِبُهَا) ظرفٌ لـ (يَسْعَى)، ونصبُه بالياءِ؛ لأنه مُثنًى جَنَابٍ بفتحِ الجيمِ، وهو الفناءُ، بكسرِ الفاءِ، وما قُرِبَ من محلَّةِ القومِ ودُورِهِمْ.

ورُوي: (حَوَالَيْهَا) بدل (جَنَائِبِهَا)، وقد ورد: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»^(١)؛ أي: أنزل المطر حَوَالَيْنَا، ولا تُنزلهُ عَلَيْنَا؛ لِمَا يُتَوَقَّع من الضرر لدينا.

وضميرُ (جَنَائِبِهَا) أو (حَوَالَيْهَا) لـ (سُعَادُ) التي ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُبَلِّغُهَا أَرْضَهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَّاسِيلُ؛ أي: أَنَّ الْوُشَاةَ يَسْعُونَ إِلَيْهَا ويمشونَ لديها بوعيد رسول الله ﷺ إِيَّاهَا.

وقيل: جملةُ (يسعى) للتخلصِ للمدح، أو حالٌ من (سُعَاد)؛ أي: فارقَتْ والحالُ أَنَّ الْوُشَاةَ يسعونَ حَوْلَهَا.

و(قَوْلُهُمْ) مُشْبَعًا بالرفع، وهو ومقوله حالٌ من الْوُشَاةِ، وَيُروى (وقيلهم) بالكسر، وهو لغةٌ كالْقَالِ، وَرُويَ نَصَبُ (قَوْلُهُمْ)؛ أي: ويقولونَ قَوْلَهُمْ.

ثم (قَوْلُهُمْ) إِنْ كَانَ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ؛ فَقَوْلُهُ: (إِنَّكَ...) إلخ مقوله، وخبرُ المبتدأ محذوف؛ أي: وقَوْلُهُمْ هَذَا الْقَوْلَ حَاصِلٌ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ؛ فَالْجُمْلَةُ بِتَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ خَيْرُهُ.

و(ابْنُ أَبِي سُلَمَى) بضمِّ السَّيْنِ، قَالَ التَّبْرِيزِيُّ: وَلَيْسَ فِي الْعَرَبِ سُلَمَى بِالضَّمِّ غَيْرُهُ، وَأَبُو سُلَمَى كُنْيَتُهُ - واسمُهُ: رَبِيعَةُ - وَالذُّرَيْرُ جَدُّ كَعْبٍ، فَفِيهِ نَسَبُهُ لَجَدِّهِ، كَمَا فِي حَدِيثٍ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ»^(٢).

وقَوْلُهُ: (لَمَقْتُولُ) أي: صائرٌ إِلَى الْقَتْلِ، عَلَى حَدِّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَمِنْهُ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبَةٌ»^(٣).

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ وَصَفَ النَّاقَةَ الَّتِي كَانَ هُوَ رَاكِبَهَا بِأَنَّهَا تَعْدُو الْوُشَاةَ حَوْلَهَا

(١) رواه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٩)، ومسلم (١٧٧٦)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٢٩٧٣)، ومسلم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

قائلين: إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَمَى لَمْ تُشَارِفْ الْقَتْلَ؛ حَيْثُ أَهْدَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَمَكَ لِمَا وَشَى إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِكَ: أَلَا أُبْلَغَا عَنِّي... الْآيَاتِ.

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهِيَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ
 قَوْلُهُ: (أَمْلُهُ) أَي: أَرْجُو خَيْرَهُ وَأَطْمَعُ نَصْرَهُ؛ فَإِنَّ الذَّوَاتِ لَا تُؤْمَلُ.

وَيَقَالُ: أَلْهَيْتُهُ عَنْهُ؛ شَغَلْتُهُ عَنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلْهَيْتُكُمْ أَتَكَاثَرُوا﴾ [التكاثر: ١]،
 وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (لَا) نَافِيَةً هُنَا، أَوْ نَاهِيَةً عَلَى حَدِّ: لَا أَرَيْنَاكَ هَاهُنَا^(١)، وَالتَّوَكِيدُ بَعْدَ (لَا)
 النَّافِيَةِ، قِيلَ: قِيَاسِيَّةٌ، وَقِيلَ: ضَرُورِيَّةٌ.

وَالْمَعْنَى: لَا أَشْغَلُكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ بِأَنْ أَسْهَلَهُ عَلَيْكَ وَأُسَلِّكَ، فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ؛
 فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً.

وَفِي نَسْخَةٍ (لَا إِلَهِيَّكَ) فَهُوَ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: وَاللَّهِ لِأَجْعَلَنَّكَ مَشْغُولاً
 عَنِّي؛ لِأَنِّي شَغَلْتُ عَنْكَ بِغَيْرِكَ^(٢)، وَإِنِّي لَعَلِيلٌ، فَإِنْ كَانَ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِثْنَاءِ فَ(إِنَّ)
 مَكْسُورَةً، وَإِنْ كَانَ عَلَى إِضْمَارٍ لِامِ التَّعْلِيلِ فَمَفْتُوحَةٌ؛ أَي: لِأَنِّي شَغَلْتُ عَنْكَ بِغَيْرِكَ
 وَأَعْرَضْتُ عَنْكَ بِجُرْمِكَ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَرَ دَمَكَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْوَعِيدَ التَّجَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانَ يَأْمُلُهُمْ فِي
 الْأَمْرِ الشَّدِيدِ فَتَبَرَّؤُوا مِنْهُ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ يَأْساً مِنْ سَلَامَتِهِ؛ لَشِدَّةِ مَلَامَتِهِ، وَخَوْفاً مِنْ
 غَضَبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالُوا لَهُ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى وَجْهِ الْإِهْتِمَامِ.

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ
 الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ، وَ(لَا أَبَا لَكُمْ) بِالْأَلْفِ وَإِشْبَاعِ الْمِيمِ، وَ: لَا أَبَا لَكَ، يُسْتَعْمَلُ فِي

(١) تحرفت في «و» إلى: «لا لدينك هنا».

(٢) في «و»: «بغيري»، والصواب المثبت.

المدح؛ أي: إنك شجاعٌ ماجدٌ مُستغنٍ عن الأب، وفي الذم؛ أي: إنك مجهولُ النسب.
والفاءُ للتعليل، و(ما) موصوفةٌ لا موصولةٌ؛ لأنَّ إضافةَ (كُلِّ) إلى المعرفةِ
يُوجِبُ إحاطةَ الأجزاءِ دونَ الأفرادِ، وإلى النكرةِ عكسُ ذلك، والمقصودُ:
إحاطةُ الأفرادِ دونَ الأجزاءِ.

والحاصلُ: أنه يقولُ: لَمَّا سمعتُ الوُشَاةَ يقولونَ: إِنَّكَ لمقتولٌ؛ أَيْسْتُ
عن إمدادِ الخِلَّانِ، فقلتُ: دعوني أذهبُ إلى جنابِ رسولِ الله ﷺ، وكلُّ أمرٍ
قدَّره الرحمنُ من فناءٍ أو بقاءٍ مفعولٌ.

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءٍ مَحْمُولُ
(كُلُّ) مبتدأٌ خبره (مَحْمُولُ)، و(إِنْ) وَضَلِيَّةٌ، وهي عطفٌ على محذوفٍ؛ أي:
إِنْ لم تَطُلْ أو طَالَتْ، والجملتانِ في محلِّ النصبِ على الحالِّيةِ من ضميرِ (مَحْمُولُ)؛
أي: مَحْمُولُ على جنازةٍ مستويًا طولُ سلامتهِ وعدمه، ويجوزُ للجملهِ الشرطيَّةِ أَنْ
تقعَ حالاً إذا شُرِطَ فيها الشيءُ ونقيضه؛ نحو: لأَضْرِبَنَّه إِنْ ذَهَبَ وَإِنْ مَكَثَ.

وقيلَ: جوابُ الشرطِ محذوفٌ سدَّ مسدَّه خبرُ ما قبله، على حدِّ قوله
تعالى: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

و(يَوْمًا) و(عَلَى آلَةٍ) ظرفًا (مَحْمُولُ)، و(حَدْبَاءٍ)؛ أي: ضيقٌ أو مرتفعةٌ،
والمرادُ بها النَّعْشُ، وما أحسنَ قولَ الشاطبيِّ رحمه الله مُلَغِزاً فيه:

أَتَعْرِفُ شَيْئًا فِي السَّمَاءِ يَطِيرُ إِذَا سَارَ صَاحُ النَّاسِ حَيْثُ يَسِيرُ
فَتَلْقَاهُ مَرْكُوبًا وَتَلْقَاهُ رَاكِبًا وَكُلُّ أَمِيرٍ يَغْتَلِيهِ أَسِيرُ
يَحُضُّ عَلَى التَّقْوَى وَيُكْرِهُ قُرْبَهُ وَتَنْفِرُ مِنْهُ النَّفْسُ وَهُوَ نَذِيرُ
وَلَمْ يَسْتَرْزِزْ عَنْ رَغْبَةٍ فِي زِيَارَةٍ وَلَكِنْ عَلَى رَغَمِ الْمَزُورِ يَزُورُ^(١)

(١) الأبيات، أوردها ابن خُلِّكَّانَ في «وفيات الأعيان» (٧٢ / ٤) في ترجمة الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى.

يقول: إذا كان كل من ولدته أنثى وإن عاش زماً طويلاً سالماً من النوائب وآمناً من المصائب؛ فلا بُدَّ له من الموت، ولا محالة له من القوت، فوَمَّ الجَرْجُ يا صاحب الفزع؟! وبِمَ تفرحون أيها الشامتون؟! والله دَرٌّ مَنْ قَالَ:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفَيْقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا^(١)
هذا؛ و(كل ابن أنثى) يشمل عيسى عليه السلام، وسيموت ويدفن بين نبيينا ﷺ وضجيجيه من صاحبيه^(٢)، لكنَّهُ يُشَكِّلُ بَادَمَ، إلا أن يُرَادُ به هذا الجنس، كما قيل في حديث: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»^(٣)، والعموم يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

(١) البيت نسب لفروة بن مُسيك، ولذي الإصبع العدواني. انظر: «الحماسة البصرية» (٢/ ٤١٦).

(٢) لم يرد في هذا خبر مرفوع عن النبي ﷺ يحتاج به، فقد روى الترمذي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: مكتوب في التوراة صفة مُحَمَّدٍ وصفة عيسى بن مَرْيَمَ يُدْفَنُ معه. قال: فقال أبو مَوْدُودٍ -أحد رواته-: وقد بَقِيَ في البيت موضع قبر. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

قال المباركفوري في «تحفة الأحوذى» (١٠/ ٦٢): «ويؤيده ما روي عن عائشة في حديث قال الحافظ: لا يثبت، أنها استأذنت النبي ﷺ إن عاشت بعده أن تدفن إلى جانبه، فقال لها: «وَأَتَى لَكَ بذلك وليس في ذلك الموضع إلا قبري وقبر أبي بكر وعمر وعيسى بن مريم». وفي «أخبار المدينة» من وجه ضعيف عن سعيد بن المسيب قال: إن قبور الثلاثة في صفة بيت عائشة، وهناك موضع قبر يدفن فيه عيسى عليه السلام».

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٩٩): «وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام في كتابه عن عائشة مرفوعاً أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية، ولكن لا يصح إسناده». وروى ابن الجوزي في «العلل» (١٥٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج ويولد ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري فأقوم أنا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر». قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح».

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذَاقَةُ الْمَوْتِ» [آل عمران: ١٨٥]، وهو أعمُّ من جنسِ الإنسان؛ فإنه شاملٌ للملائكة وأصنافِ الحيوان.

وجملة (على آية حذاء محمول) على الغالب، وفي معناه: كلُّ ما يستقرُّ الميت في مقرِّه، كما حُقِّق في حديث: «إِذَا دُفِنَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ»^(١).

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ (أُنْبِئْتُ) بصيغة المجهول؛ أي: أُخْبِرْتُ، وَرُوي: (نُبِّئْتُ) وهو بمعناه، وكلُّ منهما يقتضي ثلاثة مفاعيل، الأول قائم مقام الفاعل، والثاني والثالث (أَنَّ) مع اسمها وخبرها سادَّ مسدَّهما، وقيل: الثالث محذوف؛ أي: أُنْبِئْتُ إِيْعَادَ رَسُولِ اللَّهِ حَاصِلًا. وأعاد ذكر رسول الله ﷺ؛ إظهاراً للتعظيم، وإشعاراً للتفخيم، ولذا أتى بـ (عِنْدَ) دون (مِنْ)؛ لأنَّ تلك أدلُّ على التعظيم، ولتقوية الرجاء من عند الكريم؛ إذ تواتر أنَّ الصِّفَحَ والكرمَ من أخلاقِ رسولِ الله ﷺ؛ ففي ذكرِ صريحِ اسمه وصحيحِ وسمِّه ما ليس في الضميرِ مِنْ رَسْمِهِ، ولأنَّ فيه تكرارَ الاعترافِ بالرسالة التي هي مقتضية للعفو ومُستجلبَةٌ للرضا.

ثم اعلم: أنَّ جميعَ ما تقدَّم توطئةٌ لهذا البيتِ المُكْرَمِ؛ فإنَّ غرضه من القصيدة وما فيها من الإتحافِ هو التَّنْصُلُ والاستعطافُ، ومُحَصَّلُ البيتِ استرضاءُه عليه السلام، واستجلابُ أخلاقِهِ الكرام؛ من حصولِ رحمته وعنايته، ودفعِ سَخَطِهِ وَغَضَبِهِ ومَلامَتِهِ، وقد رُوي أَنَّهُ ﷺ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ: «الْعَفْوُ عِنْدَ اللَّهِ» ذكره ابنُ جَمَاعَةَ^(٢).

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (١٣٥٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظه: «إِذَا وَضِعَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ».

(٢) انظر: «شرح ابن هشام لبانث سعاد» (ص ٧٢).

فَقَدْ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ مُعْتَذِرًا وَالْعُذْرُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَقْبُولٌ
عُطِفَ عَلَى (أُتَيْتُ) أَي: أَخْبِرْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي، فَقَدْ جِئْتُ مُعْتَذِرًا،
وهذا البيتُ غيرُ موجودٍ في أكثرِ النسخِ.

مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَلْـ قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ
(مَهْلًا) نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ لـ (أَمْهَلُ)؛ أَي: أَمْهَلُ مَهْلًا، فَيَكُونُ اسْمًا بِمَعْنَى
المصدرِ، وَيَجُوزُ كَوْنُهُ اسْمَ فِعْلٍ، وَتَنَوِينُهُ لِلتَّنْكِيرِ، ذِكْرُهُ الْفَاضِلُ.
وَقِيلَ: مَصْدَرُ أُنِيبَ عَنْ فَعْلِهِ، وَأَصْلُهُ: إِمْهَالًا؛ فَحُذِفَ زَائِدُهُ؛ وَهِيَ الْهَمْزَةُ
وَالْأَلْفُ.

اسْتَمَهَلَ مَا يَخَافُهُ مِنَ الْأَخْذِ بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ، حَتَّى يَتِمَّ كُنْ مِنْ إظهارِ
إِيمَانِهِ، وَبَيَانِ كَذِبِ الْوُشَاةِ فِي شَانِهِ.
وَالْجُمْلَةُ اسْتِثْنَاءٌ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: مَاذَا قُلْتَ مِنَ الْكَلَامِ حِينَ ظَفَرْتَ بِإِتْيَانِ جَنَابِهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: مَهْلًا.

وَجُمْلَةُ (هَذَاكَ) دُعَائِيَّةٌ، وَأَرَادَ بِالْدُعَاءِ زِيَادَةَ الْهُدَى فِي مَعْرِضِ الشَّاءِ بَازِيْدِ
آثَارِهِ وَإِشْرَاقِ أَنْوَارِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الثَّبَاتُ عَلَى الْهُدَى؛ إِذْ ذَاكَ ثَابِتٌ فِي حَقِّهِ عَلَيْهِ
السَّلَامُ عَلَى وَجْهِ الدَّوَامِ؛ فَفِيهِ تَحْصِيلُ حَاصِلِ الْمَرَامِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ: هَذَاكَ لِلصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَمَّا أَوْعَدْتَنِي بِهِ؛ فَيَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ دَاعِيًا
لِنَفْسِهِ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّذَلُّلِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الدُّعَاءِ وَالْمَسْأَلَةِ.
و(نَافِلَةُ الْقُرْآنِ) مُدْرَجٌ.

وَأَصْلُ النَّافِلَةِ: عَطِيَّةٌ يُتَطَوَّعُ بِهَا زِيَادَةً عَلَى غَيْرِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَهَجَّدْ
بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإِسْرَاءُ: ٧٩]، وَمِنْهُ النَّوَافِلُ: لِمَا زَادَ عَلَى الْفَرَائِضِ، وَلِذَا سُمِّيَ ابْنُ الْإِبْنِ
نَافِلَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٧٢].

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى أنعم على رسوله ﷺ بعلوم عظيمة علمه إيّاها، وجعل الكتاب زيادة له على تلك العلوم. والإضافة من باب: جَرَدُ قَطِيفَةٍ، كذا ذكره بعضهم.

والأظهر أن المراد بزيادة القرآن مزيته وفضيلته على سائر الكتب، كما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. أو المراد بـ (نافلة القرآن): أحاديثه عليه السلام الزائدة على الكتاب، والمُفيدة بالفوائد الخارجة عن حدّ الحساب.

ثم يجوزُ نصبُ (القرآن) على أن يكونَ حَذْفُ التنوينِ من (نافلة) ليسَ للإضافة بل لالتقاء الساكنين؛ فـ (نافلة) حالٌ، أو مفعولٌ ثانٍ، و(القرآن) بدلٌ.

و(فيها مَوَاعِظٌ) جملةٌ، قدّمَ الخبرَ للاهتمام، وفي نسخة: (مَوَاعِظٌ) بدلُ (مَوَاعِظٌ) وكلاً بالتنوين ضرورةً، والمرادُ بها: وعدُّ المؤمنينَ بالجنانِ، ووعدُّ الكافرينَ بالنيرانِ، ووعدُّ المُخلصينَ بالفردوسِ الأعلى، والمُنافقينَ بالدركِ الأسفلِ، والجملةُ صفةٌ (نافلة القرآن) بحذفِ الموصولِ؛ أي: نافلة القرآن التي فيها، أو مُستأنفةٌ، كأنه قيل: ما فيها؟ فقال: فيها...، أو معترضةٌ لمدحها.

(وتفصيلٌ) أي: تبينُ ما يُحتاجُ إليه من أمرِ المعاشِ والمَعَادِ، وأحكامِ الأصولِ والفروعِ للعباد.

وفي البيت من الاستعطاف: التذكيرُ بنعمةِ الله تعالى على رسوله ﷺ؛ ليكونَ ذلك أدعى إلى العفوِ والكرمِ، وشكرِ المُنعمِ^(١) الربِّ العَزيزِ، والإقرارِ بالتنزيلِ، وما اشتملَ عليه من الموعظِ والتفصيلِ والتذكيرِ بما جاء في الكتابِ المُبينِ؛ من قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد روي أن

(١) في «س»: «شكراً لنعم».

جبريل قال بعد نزول الآية: «إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»^(١).

وقيل: ليس في القرآن آية أجمع في مكارم الأخلاق منها.

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ
الجملة مُبَيَّنَةٌ لقوله: (مهلاً)، وهي سؤال تضرع ومسكنة، و(لا) ناهية،
والنون مؤكدة.

والواو في (وَلَمْ) للحال لا للعطف؛ إذ الخبر لا يعطف على الطلب، أو
للاعتراض؛ لبيان براءته عما قيل في شأنه من ملامته.

والواو في (وَإِنْ كَثُرَتْ) حالية، كذا يُعْبَرُونَ عنها، والتحقيق أَنَّها عاطفة على
حالٍ محذوفة؛ أي: على كلِّ حالٍ وإن كنت على هذه الحالة.

وجواب (إِنْ) محذوف لدلالة (لَا تَأْخُذْنِي) عليه، لا أنه المُتَقَدِّم، خلافاً للمُبرِّد
وأبي زيد والكوفيَّين، كذا حَقَّقَهُ ابنُ هشام^(٢).

وقال الفاضل: عطف على محذوف؛ أي: إِنْ لَمْ تَكْثُرْ وَإِنْ كَثُرَتْ، والجملتان
بعد انسلاخ معنى الشرط وإرادة التسوية في محلِّ النَّصْبِ على الحالية من فاعلِ (لَمْ
أَذْنِبْ)؛ أي: حال كوني مستوياً كثرة الأقاويل في شأني وعدمها.

(١) رواه ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٨). رواه
الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٦٤٣) من طريق سفيان بن عيينة عن رجل قد سماه، ومن طريق سفيان عن
أُمِّ الصيرفي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٣٨) من طريق سفيان عن أُمِّ عن الشعبي،
وكل هذه مراسلات كما قال ابن كثير عند تفسير الآية، وزاد: «وقد روي له شواهد من وجوه أخر».
قلت: ولقوله: «أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ... إلخ، شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد
(٤/ ١٤٨ و ١٥٨).

(٢) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٧٣).

وَيُرَوَّى: (ولو كثرْتُ عني).

والمعنى: لا تُبَحِّ دَمِي ولا تُعاقِبْنِي^(١) في جُرْمي بسببِ أقوالِ الوُشَاةِ الكاذِبِينَ، والحالُ أَنِّي غيرُ مذنبٍ بعدَ أَن هَدَانِي اللهُ؛ فَإِنَّ الإِيْمَانَ يَجِبُ ما قبلَهُ، أو: ولم أَذنبِ الذَّنْبَ الَّذِي قِيلَ عَنِّي كُلُّهُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: (وَإِنْ كَثُرْتُ) في شَأْنِي الأكاذِيبُ مِنَ الأقَاوِيلِ، بل وَقَعَ ما يَسْعُهُ حِلْمُكَ وَعَفْوُكَ وَكِرْمُكَ.

لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
اللامُ جوابُ القسمِ؛ أي: واللهِ لَقَدْ، وَرُويَ: (وَإِنِّي لأَقُومُ مَقَاماً)؛ أي: عَظِيماً.

و(لو) للشرطِ في الماضي، وقد تدخلُ في المستقبلِ؛ نحو: ﴿لَوْ يُطِيعُكَ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ [الحجرات: ٧]، وهاهنا من هذا القبيلِ.

ومفعولُ (أَرَى) محذوفٌ بدلالةِ ما بعده؛ أي: أَرَى ما لو يراهُ الفيلُ، والجملةُ عطفٌ على (أَقُومُ) بحذفِ عاطفٍ، أو حالٌ من فاعله، و(مَا) مفعولُ (أَسْمَعُ)، والشرطيةُ الثانيةُ صلةُ (ما)، أو صفتُهُ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: ما لو يسمعهُ الفيلُ.

وتَنازَعَ (يقومُ) و(ما لو يراهُ) المُقَدَّرُ و(يَسْمَعُ) في (الفيلِ)؛ فَأَعْمَلَ الأخيرُ وَأَضْمَرَ الفاعلُ في أَخَوِيهِ^(٢).

وتَنازَعَ في الجزاءِ الآتي - أعني: (لَظَلَّ) -: (لو يقومُ) و(لو يراهُ) المُقَدَّرُ و(لو يسمعُ الفيلُ)؛ فَضَرَفَ الجزاءُ إلى الأخيرِ، وَحَكَّمَ بحذفِهِ مِنَ الأوَّلَيْنِ.

وفي نسخة:

(لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ أَقُومُ بِهِ أَرَى وَأَسْمَعُ.....) إلخ

(١) في «و»: «تُعاقِبْنِي».

(٢) في «و» و«س»: «آخِرُهُ»، والصوابُ المَثْبُوت.

فـ (أرى) جزاءً (لو أقومُ به). ومعنى (لقد أقومُ به): لقد أريدُ أن أقومَ به^(١)، على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء: ٤٥].

وفيه: أن قوله: (أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ) يقتضي أنه قد تحقق القيامُ منه في جنبه عليه السلام، إلا أن يُحمل (أتيتُ) أيضاً على إرادة الإتيان. كذا حقُّه الفاضل، والحملُ هو المتعينُ لوقوع القصيدة قبل مُلاقاته الطَّلعة السعيدة.

لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلٌ
يُقالُ: ظَلَلْتُ أَعْمَلُ كذا: إذا عَمِلْتَهُ بالنهار؛ ضِدُّ بات، وقد يُستعملُ ظَلٌّ في معنى صارَ كما هنا.

و(يُرْعَدُ) - بصيغة المجهول - خبره، يُقالُ: أرْعَدَ فلانٌ من الفزع: إذا أَخَذَتْهُ الرَّعْدَةُ من الخوفِ.

والتنويلُ: إعطاءُ الأمان، وهو اسمُ (يكون)، و(له) ظرفٌ مستقرٌّ منصوبُ المحلُّ على أنه خبره، ويجوزُ أن تكونَ تامةً؛ فـ (له) حالٌ.

و(مِنَ الرَّسُولِ) متعلِّقٌ بـ (يكون)، أو بقوله: (له)، والباءُ للاستعانة، أو للإلصاق؛ فيكونُ حالٌ بعدَ حالٍ.

والحاصلُ أنه يقولُ: والله لقد أقومُ بعدَ ذهابي إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ مقاماً ذا هَيْبَةٍ، لو يقومُ فيه الفيلُ مع ما فيه من العَظَمَةِ، وأَرَى لأَجَلٍ ما وَشَى به الواشونَ إليه صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عليه ما لو يراه الفيلُ من أصنافِ العقوبة، وأسمعُ ما لو يَسْمَعُهُ الفيلُ من التهديداتِ الشديدة، لَظَلَّ مُضْطَرِباً، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ إعطاءُ أمانٍ،

(١) قوله: «ومعنى لقد أقومُ به: لقد أريدُ أن أقومَ به»، كذا في «و» و«س»، ولعل الصواب: «ومعنى لقد أقومُ مقاماً: لقد أريدُ أن أقومَ مقاماً».

وإيصالَ مَرَحَمَةٍ، وهذا إظهارٌ لفظاعةِ شأنٍ ما عَرَضَ لَهُ مِنَ الخَطْبِ الجَلِيِّ، وأنه معَ ذلكَ يفتحُ قائلًا: خلُّوا سبيلي... إلى آخره.

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنَا زَعُهُ فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ الْقَيْلُ (حَتَّى) غايةٌ لمُقَدَّرٍ بدلالةِ ما سبقَ، أو عطفٌ عليه؛ أي: وكنتُ أخافُ حَتَّى... إلخ، وما بعدَ (حَتَّى) قد تدخلُ في حُكْمِ ما قبلها، وهنا كذلك؛ فإنه كان عندَ وضعِ اليمينِ في كَفِّ النبي ﷺ أخوفَ بدلالةِ وصفِهِ عليه السلامُ بـ (ذِي نَقِمَاتٍ)، والجملةُ المُقَدَّرَةُ - أعني: وكنتُ أخافُ - عطفٌ على (فقلتُ: خلُّوا سبيلي).

ويجوزُ أن تكونَ (حَتَّى) ابتدائيةٌ للتأكيد؛ أي: لقد قُمتُ مقامًا لو يقومُ... إلخ؛ حتى وضعتُ يميني في يمينه وَضَعَ طاعةٍ. ورُوي: (حَتَّى جعلتُ يميني لَا أَنَا زَعُهُ).

والمُنَازَعَةُ: المُجَادَبَةُ، والجملةُ حَالٌ من فاعِلٍ (وضعتُ)، وضميرُ الفاعِلِ عائِدٌ لـ (ذِي نَقِمَاتٍ) باعتبارِ تقدُّمِ الظرفِ - أعني: (في كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ) - على الحال؛ إذ رتبةُ^(١) المُلْحَقَاتِ بالمفاعيلِ التأخُّرُ عنها، ويجوزُ عَوْدُهُ إلى المصدرِ؛ أي: لَا أَنَا زَعُهُ نزاعًا، على حدِّ (عبدُ الله أَظَنَّهُ مُنْطَلِقٌ) أي: أَظُنُّ ظَنًّا.

والمعنى: وضعتُ يميني غيرَ منازِعٍ نزاعًا في كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ - بفتحِ النونِ وكسرِ القافِ - جمعُ نَقِمَةٍ؛ ككَلِمَةٍ وكَلِمَاتٍ، والنَّقِمَةُ: الانتقامُ، وأرادَ به النبي عليه السلامُ؛ فإنه كانَ ينتقمُ من أعداءِ أهلِ الإسلامِ.

وقوله: (قِيلُهُ الْقَيْلُ) صفةُ (ذِي نَقِمَاتٍ)، على حدِّ:

أنا أبو النِّجمِ وشِعْري شِعْري

أي: قِيلُهُ كاملٌ راسخٌ، والقَيْلُ والقَوْلُ والقالُ، بمعنى.

(١) في «و»: «مرتبة».

لَـذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلْتُهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَنُـسُوبٌ وَمَسْـوُولٌ

اللامُ للابتداء، ويحتمل تقدير القسم قبلها؛ إذ المقام يقتضيه، وفي نسخة: (فذاك) بالفاء، و(ذا) إشارة إلى (ذِي نِقَمَاتٍ)، أو إلى وضع اليمين في كفِّ ذِي نِقَمَاتٍ، وهو مبتدأ، خبره (أَهْيَبُ)، وروى: (أَرْهَبُ)، وهما مبنيان من فعل المفعول على حدِّ (أَشْغَلَ)، والمفضلُّ عليه (من خادرٍ)، و(عند) و(إذ) ظرفان لـ (أَهْيَبُ)، و(إذ) مضافٌ إلى (أَكَلْتُهُ)، و(أَكَلْتُهُ) بمعنى: كَلَّمْتُهُ، ويروى: (يُكَلِّمُنِي)، وقيل: عطفٌ على (أَكَلْتُهُ)، أو حالٌ من ضميره.

وفي رواية: (لَـذَاكَ) بلام مكسورة؛ ف (أَهْيَبُ) خبرٌ لمحدوف؛ أي: هو أَهْيَبُ لكونه ذَا نِقَمَاتٍ؛ ف (ذا) إشارة إلى كونه ذَا نِقَمَاتٍ، ومعمول اسم التفضيل وإن امتنع تقدُّمه عليه؛ إلا أنه يجوز في الظرف ما لا يجوز في غيره.

وقوله: (مَسْـوُولٌ) عطفٌ على (مَنُـسُوبٌ)، والمعنى: إِنِّي لَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَكُنْتُ قَدْ قِيلَ لِي قَبْلَ ذَلِكَ: إِنَّهُ بَاحِثٌ عَنْكَ وَسَائِلُ لَكَ عَمَّا نُقِلَ مِنْكَ؛ حَصَلَ لِي مِنَ الرَّهْبِ مَا حَصَلَ.

والحاصل: أَنَّهُ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ - أَوْ: لَوْضَعُ يَمِينِي عَلَى كَفِّهِ - أَهْيَبُ فِي نَفْسِي حِينَ كَلَّمْتُهُ، وَقِيلَ لِي - أَوْ: مَقُولًا لِي -: إِنَّكَ مَنُـسُوبٌ إِلَى أَقْوَالٍ بَاطِلَةٍ، مِنْ نَحْوِ: سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُونُ، وَمَنْعَ أَخِيكَ بُجَيْرٍ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَتَعْيِيرَكَ عَلَيْهِ، وَمَسْـوُولٌ عَنْ سَبَبِهَا.

مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الْأَسَدِ مَسْكَنُهُ مِنْ بَطْنِ عَثَرَ غَيْلٍ دُونَهُ غَيْلٍ (الخَادِرُ) بَخَاءٍ مُعْجَمَةٍ وَدَالٍ مُهْمَلَةٍ: الْأَسَدُ الدَّاخِلُ فِي خَدْرِهِ، وَالْخَدْرَةُ: الْأَجْمَةُ، وَهِيَ الْأَشْجَارُ الْمُتَلَفَّةُ، وَ(مِنْ) الْأُولَى تَفْضِيلِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِ(أَهْيَبُ)، وَالثَّانِيَةُ بَيَانِيَّةٌ وَصْفِيَّةٌ؛ أَيْ: أَهْيَبُ مِنْ مُلَابَسَةِ أَسَدٍ خَادِرٍ كَائِنْ مِنْ لُيُوثِ الْأَسَدِ.

قيل: الليث والأسد مُترادفان، فكيف يصحُّ إضافة أحدهما إلى الآخر؟
وأجيب: بأن الليث مُشترك بين الأسدِ وضربٍ من العناكبِ يصطادُ الذُّبابَ
بالوثبِ؛ فالإضافة من بابِ إضافة اللفظِ المُشتركِ إلى أحدِ معانيه؛ ك: عين الشمسِ،
ولا ريبَ في صحتها.

وبأن المراد: القويَّةُ التامةُ^(١) الكاملةُ البالغةُ في الشجاعةِ والضَّخامةِ والقوَّةِ
والشَّوكةِ مبلغاً تكونُ هي أَسوداً بالنسبةِ إلى الأسودِ، كما يُقال: خواصُّ الخواصِّ.
ويُروى: (من لُيُوثِ الغابِ)؛ أي: الأجامِ.

ويُروى: (من ضَيَّعَ من ضِراءِ الأسدِ)، والضَّيْعُ: فَيَعْلُ من الضَّغَمِ، وهو العَضُّ،
والضَّراءُ بكسرِ الضادِ المُعجمة: جمعُ ضارٍ، من ضَرِيَ بكذا: إذا أُولِعَ.

و(مَسْكَنُهُ) بفتح الكافِ وكسرِها، مبتدأٌ خبرُهُ (غِيلٌ)، والجملةُ صفةٌ أخرى لـ
(خَادِرٍ)، و(مِنْ بَطْنٍ) حالٌ من (غِيلٍ)، ويُروى (بِطْنٍ) فيَحْتَمِلُ الخبريةَ والحاليةَ.
و(عَثَرٌ) بفتح عَيْنٍ مهملةٍ وناءٍ مُثَلَّثَةٍ مُشَدَّدَةٍ: موضعٌ يُنسَبُ إليه الأسودُ، وهو
غيرُ منصرفٍ للوزنِ والعَلَمِيَّةِ، والمعنى: مِنْ وَسْطِ غِيلٍ - بكسرِ مُعجمة - أَجْمَةٍ.

(دُونَهُ) أي: قَرِيبٌ مِنْهُ (غِيلٌ) فاعِلُ الظرفِ، أو مبدأُ خبرِهِ الظرفِ،
والجملةُ صفةٌ (غِيلٌ)؛ أي: أَنَّهُ فِي أَجْمَةٍ دَاخِلٌ فِي أَجْمَةٍ، وذلك أَشَدُّ لَتَوَحُّشِهِ
وقساوتِهِ، وأكَّدَ بضرره وضرارته.

هذا، وقال الفاضلُ: (مِنْ) ابتدائيةٌ، والجارُّ والمجرورُ صفةٌ (خَادِرٍ)؛ أي: من
خَادِرٍ ناشٍ^(٢) مِنْ بَطْنِ عَثَرٍ، وكانَ من بابِ الفَصْلِ بين الصِّفَةِ والموصوفِ بأجنبيٍّ، وهو
(مَسْكَنُهُ) وهو جائزٌ؛ نحو: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسْرٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، أو بيانيةٌ،
ويكونُ (مِنْ بَطْنٍ) حالٌ من (غِيلٍ).

(١) «التامة» زيادة من «س».

(٢) في «و»: «فاش».

يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْعَامَيْنِ عَيْشُهُمَا لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ
(يَغْدُو) صفةٌ (خَادِرٍ) مِنْ: غَدَوْتُ الصَّبِيَّ بِاللَّبَنِ؛ أَي: رَبَّيْتُهُ، وَفِي بَعْضِ
الرَوَايَاتِ: (يَغْدُو) بَدَالٌ مُهْمَلَةٌ مِنَ الْغَدُوِّ، وَهُوَ خِلَافُ الرَّوَّاحِ، وَيَصْحَحُ الْمَعْنَى
عَلَى أَنْ يَكُونَ بَعِينٍ وَدَالٍ مُهْمَلَتَيْنِ مِنَ الْعَدْوِ، لَكِنَّهُ لَمْ يُرَوْ.

ثُمَّ إِنْ كَانَتِ الرِّوَايَةُ (يَغْدُو) بَدَالٌ مُعْجَمَةٌ؛ فَ (ضِرْعَامَيْنِ) تَنَارَعَ فِيهِ (يَغْدُو)
(وَيُلْحِمُ)، وَإِنْ كَانَتْ بَدَالٌ مُهْمَلَةٌ؛ فَهُوَ مَفْعُولٌ (يُلْحِمُ)، وَالرَّاجِحُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ
مَنْعَ، وَالْمَرْجُوحُ كَوْنُهُ مِنْ بَابِ الْإِفْعَالِ. وَالضَّرْعَامُ - بِكَسْرِ الضَّادِ الْمُعْجَمَةِ -: الْأَسَدُ.
وَالْمَعْنَى: يُطْعِمُهُمَا لَحْمًا.

و(عَيْشُهُمَا) مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ (لَحْمٌ...) إِنْخ؛ أَي: قُوْنُهُمَا لَحْمٌ بَنِي آدَمَ، وَ(مِنْ)
ابْتِدَائِيَّةٌ؛ أَي: مُتَرَعٍّ مِنَ الرِّجَالِ، أَوْ بَيَانِيَّةٌ؛ أَي: لَحْمٌ كَائِنٌ مِنْ لَحُومِ الرِّجَالِ.
و(مَعْفُورٌ) صِفَةٌ (لَحْمٍ)؛ أَي: مَلَقَى فِي الْعَفْرِ - بَفَتْحَتَيْنِ - وَهُوَ التَّرَابُ.
و(خَرَادِيلُ) صِفَةٌ أُخْرَى لَهُ، جَمْعُ خَرْدَلَةٍ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الشَّيْءِ.

وَكُونُ الْأَسَدِ مُرَبِّيًا لَحْمًا لِشِبْلَيْنِ عَيْشُهُمَا... إِنْخ، كَنَائَةً عَنْ كَوْنِهِ أَخُوفًا،
إِذَا كَانَ يَسْتَلْزِمُ كَوْنَهُ كَثِيرَ الْأَصْطِيَادِ عَظِيمِ الْافْتِرَاسِ؛ فَإِنَّ الْأَسَدَ إِذَا كَانَ ذَا شِبْلَيْنِ
كَانَ أَكْثَرَ افْتِرَاسًا وَأَدْوَمَ اصْطِيَادًا لِإِشْبَاعِهِمَا.

ثُمَّ إِنْ كَانَ الضَّرْعَامُ اسْمًا لَجَنَسٍ يَسْتَوِي فِيهِ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ؛ فَلَا مَرَّ ظَاهِرًا،
وَإِنْ كَانَ اسْمًا لِلْكَبِيرِ؛ فَتَسْمِيَةُ الشَّبْلِ - وَهُوَ وَلَدُ الْأَسَدِ - بِهِ بِاعْتِبَارِ مَا يُؤُولُ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ وَضَعْتُ يَمِينِي فِي كَفِّهِ أَهْبَبُ
عِنْدِي مِنْ أَسَدٍ خَادِرٍ نَاشٍ^(١) مِنْ بَطْنِ عَثْرَ، مَسْكَنُهُ أَجْمَةٌ بَقُرْبِهَا أَجْمَةٌ أُخْرَى حَرِيصٌ

(١) فِي «و»: «فَاشٍ».

على الاصطياد شديد في الافتراس؛ لكونه ذا شبلين عيشهما لحم من الرجال مُمرَّغ في التراب، مقطوع قطعاً قطعاً.

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْنًا لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتْرِكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَقْلُولُ
الجملة صفة (خادر)، والمساورة: الموائبة، و(القِرْن) بكسر القاف: المُقاوم في الشجاعة أو العلم ونحوهما، وجواب (إذا): (لا يحلُّ له)؛ أي: لا يتأتى له حتى كأنه يحرم عليه أن يترك القِرْنَ المعهود إلا (وهو) بسكون الهاء (مَقْلُولُ) مِنْ فَلَّة: إذا هزَمه وكسره، وأصل الفلّ: الكسر الحسي، ومنه:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
ثم استعمل في غيره اتساعاً ومجازاً، والاستثناء من أعم الأحوال.
ويُروى: (مجدول) بدل (مفلول)؛ أي: مرمي بالجدالة، وهي وجه الأرض؛ أي: مُلقًى على التراب.

والحاصل: أنه يصف الخادر بأنه إذا يصول على أسد آخر مثله في الشجاعة، يلزم أن لا يتركه غير منهزم ومُنكسر؛ لكمال شجاعته؛ فكان أشد مهابة، وأليق بأن تكون له مخافة.

مِنْهُ تَظَلُّ سِبَاعُ الْجَوِّ ضَامِرَةٌ وَلَا تَمْشِي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ
(منه) بالإشباع و(من) سببية، والجملة صفة لـ (خادر)، والضمير له، و(الجو) ما بين السماء والأرض، وما اتسع من الأودية، وهو المراد هنا.
وقيل: الجو: البر الواسع.

و(ضَامِرَةٌ) بضاد مُعجمة فزاي؛ أي: ساكنة، والبعير إذا أمسك جرته في فيه فهو ضامر، كذا ذكره الشراح.

وقال الفاضل الهندي: إنه بالضاد المعجمة والراء؛ يعني: أنه يصفُ كمالَ مهابة ذلك الخادر بحيثُ إنَّه ضمَّ سباع الوادي جوعاً لعدمِ اقتدارها على الاصطياد خوفاً منه. ثم قوله: (وَلَا تُمَشِّي) عطفٌ على (تَظَلُّ) وهو بضمِّ التاء وفتح الميم؛ من التَّمَشِّيَّة، بمعنى المَشْيِ، والباءُ في (بِوَادِيهِ) بمعنى (في)؛ أي: وادي خادر.

و(الْأَرَاجِيلُ) جمعُ راجِلٍ؛ خلافُ الفارسِ، وَرَجُلٌ ^(١) اسمُ جمعٍ؛ كصاحبٍ وصحبٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْبَسَ عَلَيْهِمْ خِيَلًا وَرَجِلًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقيل: الأراجيلُ: جمعُ رَجِيلٍ؛ كأحاديثٍ جمعُ حَدِيثٍ، والرَّجِيلُ: خيلٌ قويٌّ على المشي.

وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثَقَةٍ مُطَرِّحُ الْبَرْزِ وَالْدَّرْسَانِ مَاكُولٌ (أَخُو ثَقَةٍ) اسمُ (لَا يَزَالُ) وخبرُهُ (بِوَادِيهِ) بإشباعِ الهاء؛ أي: صاحبُ ثَقَةٍ لشجاعته، وذو اعتمادٍ على جُرَّاتِهِ، كائناً في واديه، معادياً لثانيه.

(مُطَرِّحُ الْبَرْزِ) صفةُ (أخُو ثَقَةٍ) وهو بفتحِ الراءِ المشدَّدة وكسرِها، و(الْبَرْزِ) بفتحِ المُوحَّدة وتشديدِ الزاي: السلاحُ، و(الدَّرْسَانِ) عطفٌ على (الْبَرْزِ)، وهو جمعُ الدَّرْسِ؛ أي: الشوبُ الخَلْقُ، و(مَاكُولٌ) صفةٌ ثانيةٌ لـ (أخُو ثَقَةٍ).

والحاصلُ: أنَّه يصفُ ذلك الخادر بأنَّه لا يأتي عليه زمانٌ إلا ويوجدُ في واديه شُجاعٌ ذو ثَقَةٍ بشجاعته، مطروحٌ سلاحه، أو طارحٌ هو سلاحه وثيابه المُمزَّقة، أو الخَلَقُ التي تلبسُ تحتَ الْبَرْزِ، وذلك يستلزمُ أشدَّ مهابةٍ وأكثرَ مخافةً، ورسولُ الله ﷺ حينَ وضعتُ يميني في كَفِّهِ المعروفِ كان أهيبَ عندي من هذا الأسدِ الموصوفِ.

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهْتَدٍ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ

(١) في «و»: «و راجل».

(يُسْتَضَاءُ)؛ أي: يُهْتَدَى به إلى الحقِّ، ويُروى: (لسيفٌ) فهو تشبيهٌ بليغٌ؛ أي: كسيفٍ قاطعٍ في دفعِ الباطلِ ودمغِهِ، و(مُهَنْدٌ) بفتحِ النونِ المُشَدَّدةِ؛ أي: مطبوعٌ من حديدِ الهندِ؛ خبرٌ بعدَ خبرٍ، أو صفةٌ (نور) إن أُريدَ به السيفُ.

والمعنى: كصاحبٍ مُهَنْدٍ، أو كسيفٍ مُهَنْدٍ؛ أي: منسوبٍ إلى الهندِ، وسيوفُ الهندِ أفضلُ السيوفِ.

والمعنى: أنه عليه السلامُ كسيفٍ قاطعٍ للخصامِ، من سيوفِ عظماءِ الله بنيلِ الظفرِ والانتقامِ؛ رُويَ أنَّ كعباً رضي الله عنه أنشد: (من سيوفِ الهندِ)، فقال ﷺ: «من سيوفِ الله»^(١).

ورُويَ أيضاً: أنَّ كعباً لمَّا وصلَ إلى قوله:

(إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ)

رمى ﷺ إليه بُرْدَةً كانت عليه، وأنَّ معاويةَ بذَلَ له فيها عشرةَ آلافٍ، فقال كعبٌ: ما كنتُ لأُؤثِّرَ بثوبِ رسولِ الله ﷺ أحداً، فلمَّا ماتَ كعبٌ بعثَ معاويةُ إلى ورثته عشرين ألفاً، وأخذها منهم، وهي البرْدَةُ التي عندَ السلاطينِ إلى اليومِ. ذكره ابنُ جَمَاعَةَ^(٢).

وفي «العوارف»: أنَّ البرْدَةَ كساءٌ أسودٌ مُرَبَّعٌ، وهي البرْدَةُ الباقيةُ عندَ خلفاءِ بغدادَ، توارثاً كابراً عن كابرٍ، انتهى^(٣).

وقيل: هي التي كانت عندَ الخلفاءِ من معاويةَ، وصَلَّتْ إلى بني أميَّةَ، ثم إلى بني العبَّاسِ، وحُكيَ أنها اليومَ عندَ سلاطينِ الأروامِ، حفظُهم الله من حوادثِ الأيامِ إلى انتهاءِ الأنامِ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر «عوارف المعارف» للسهروردي (٢/ ٣٤).

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِيْطْنٍ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا: زُؤَلُوا
(فِي عُصْبَةٍ) خبر آخر له (إِنَّ)، و(مِنْ قُرَيْشٍ) صفة (عُصْبَةٍ) و(قَالَ قَائِلُهُمْ) صفة
ثانية لها، ويروى: (فِتْيَةٍ) بدل (عُصْبَةٍ).

أي: إِنَّ الرسولَ لسيفٌ مهتدٌ كائنٌ في جماعةٍ كائنةٍ من قُرَيْشٍ، أو مبعوثٌ فيهم،
وقائلُهُم هو عمرُ بنُ الخطَّابِ، كما ذكره ابنُ جماعةٍ.

وفي «شرح الفاضل»: زُوي أنه قالَ عبدُ الله بنُ عمر: حدَّثني إبراهيمُ بنُ
المنذرِ، قالَ حدَّثني محمدُ بنُ الضَّحَّاكِ الخُزَاعِيُّ: أَنَّ كعباً عَنِي بـ (قَالَ قَائِلُهُمْ)
عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه^(١).

ثم قوله: (بِيْطْنٍ مَكَّةَ) ظرفُ (قَالَ)، والباءُ بمعنى (فِي)، و(لَمَّا) بمعنى
(حين)، و(زُؤَلُوا) هو المَقُولُ، وهو أمرٌ من زَالَ يَزُولُ؛ أي: انفردوا وتميَّزوا عن
جماعةِ الأعداءِ على عَزمِ قتالهم لا على وجهِ الفرارِ عن خدائهم.

قال السَّهْلِيُّ: وحين أنشدَ كعبٌ: (إِنَّ الرسولَ لسيفٌ^(٢) يُسْتَضَاءُ به...) إلى
قوله: (زُولُوا)، نظرَ عليه السلامُ إلى أصحابِهِ الكرامِ، كالمُتَعَجِّبِ لهم من حُسْنِ مقالِهِ،
وجودةِ شعرِهِ وكمالِهِ في حالِهِ، وقالَ لهم: «اسْمَعُوا»^(٣). أخرجهُ الحاكمُ والبيهقيُّ^(٤).
وقد يُؤخَذُ من هذا الأمرِ: استحبابُ سماعِ هذه القصيدةِ، وتحسينُ مراتبِ

(١) ورواه الأصفهاني في «الأغاني» (٩٦/١٧) من طريق إبراهيم: حدَّثني محمد بن الضحَّاك بن عثمان
عن أبيه قال: عن كعب بن زهير... وذكره.

(٢) في «س»: «النور».

(٣) انظر «الروض الأنف» (٣٠٠/٧). وليس في مطبوعه عبارة: «وقال لهم اسمعوا».

(٤) رواه الحاكم في «المستدرک» (٦٤٧٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٥/٢١١)، عن موسى بن عقبة.

وهو منقطع.

مراهم العديدة، على ما فيها من لفث الحاضرة المصطفوية، ووصف أصحابه المرضية، وغيرها من الفضائل البهية، والسمائل السنية، ومعرفة القواعد العربية، والفوائد الأدبية التي بها فاقت جميع القصائد، ونال صاحبها بها أعلى المراتب والمقاصد^(١).

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ

(زَال) هذه تامة؛ أي: ذهبوا وانتقلوا، وهي التي بُنيَ منها الأمرُ في البيت السابق، (فَمَا زَالَ) عطفٌ على (زَالُوا)، (أَنْكَاسٌ) بفتح الهمزة: جمعُ نَكْسٍ؛ بكسر النون، وهو رجلٌ ضعيفٌ.

(لَا كُشْفٌ) بضمّتين، والشينُ معجمةٌ: جمعُ أَكْشَفَ، وهو مَنْ لَا تُرْسَ معه في الحرب.

و(عِنْدَ اللَّقَاءِ) ظرفٌ (ما زَالَ)؛ أي: حالُ ملاقاتِ الأعداءِ ومحاربتهم.

و(لَا مِيلٌ) بكسر الميم: جمعُ أَمِيلٍ، وهو مَنْ لَا سَيْفَ معه، وَمَنْ لَا يُحْسِنُ الرُّكُوبَ وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَى السَّرِجِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَنَاسِبُ الْمَقَامَ، وَمَنْ جَوَّزَ حَمْلَ الْمُشْتَرِكِ عَلَى مَعْنِيهِ دُفْعَةً - كَالشَّافِعِيِّ - جَازَ عِنْدَهُ الْحَمْلُ عَلَيْهِمَا مَعًا.

هذا؛ والبيتُ كنايةٌ عن قوّةِ شجاعتهم وغايةِ فخامتهم؛ لأنه يدلُّ على أنهم زَالُوا عَنْ مَكَانِهِمْ، وَانْتَقَلُوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَعِنْدَ الْمُحَارَبَةِ لَمْ يَزَلْ عَنْ مَكَانِ الْحَرْبِ ضَعْفًا وَهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ مَعَهُمْ تُرْسٌ وَلَا سَيْفٌ وَلَا رُمْحٌ، فَكَيْفَ أَقْوِيَاؤُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ دُرُوعٍ وَأَسْيَافٍ وَأُتْرَاسٍ وَرِمَاحٍ؛ فَعَدُمُ زَوَالِهِمْ عَنْ مَكَانِهِمْ مِنْ لَوَازِمِ غَايَةِ الشَّجَاعَةِ وَنَهَايَةِ الْجُرْأَةِ وَالْفَخَامَةِ؛ إِذِ الْمُقَاوِمَةُ عَلَى الْمُحَارَبَةِ فِي أَرْضِ الْغَيْرِ أَشَقُّ وَأَصْعَبُ.

وقيل: المعنى: هاجروا من مكة إلى المدينة، وليسَ فيهم من هذه صفته، بل

(١) في «س»: «مراتب المقاصد».

المُهاجرونَ بأسرهمَ أقوياءُ ذوو أسلحةٍ، كلُّما سمعُوا صيحةً طاروا إليها وقاموا عليها وثبُّوا لديها، والأوَّلُ أولى على ما لا يخفى.

شُمُّ العَرَانِينَ أَبْطَالَ لَبْسُهُمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ (شُمُّ) بضمُّ أوله: جمعُ أشْمٍ؛ كَصَمٍّ وَأَصَمٍّ، وهو [مَنْ] في قصبةٍ أنفه علُوٌّ مع استعلاءٍ أعلاه، و(العَرَانِينَ) بفتح أوله: جمعُ عَرْنَيْنٍ بكسر أوله، وهو الأنفُ. و(أَبْطَالَ) بفتح الهمزة: جمعُ بَطَلٍ، بفتحين، وهو من يبطلُ عنده دماءُ خُصمه، ويذهبُ هَدْرًا، ولا يُدرِكُ له بالثَّارِ.

وقيل: مَنْ يبطلُ فيه الحِيلُ؛ فلا يُوصَلُ إليه.

وَاللَّبْسُ - بفتح اللام -: ما يُلبَسُ من السِّلَاحِ.

والمعنى: أَنَّها منسوجةٌ من نسيجِ داودَ عليه السلام، إمَّا على الحقيقة؛ لإمكانِ بقاءِ دروعِ نَسِجِها، وإمَّا دروعٌ مُشَبَّهةٌ بها.

و(الْهَيْجَاءُ): بفتح الهاءِ ممدوداً: الحربُ، وقد يُقَصَّرُ كما هنا.

وقوله: (سَرَابِيلُ)؛ أي: مثلها، لا دروعٌ مشقوقةُ الجيوبِ؛ فإنه أشَقُّ في اللبسِ وأخفُّ للبدنِ.

هذا، وقال الفاضلُ: (شُمُّ العَرَانِينَ...) إلخ، بالرفع، خبرٌ لمَحذوفٍ؛ أي: أولئك العُصبةُ، أو بالنصبِ على المدحِ، أو بالجرِّ على أنه صفةُ (عُصْبَةٍ)، إذ الإضافةُ لفظيةٌ، وقيل: بالرفعِ على لغةٍ (أَكْلُونِي الْبَرَاغِيثُ)، قيل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣]، وحديثُ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ»^(١)، أو بدلٌ، أو مبتدأٌ مقدَّمُ الخبرِ على ما أوَّلَ به الآيةُ والحديثُ المذكورانِ.

(١) رواه البخاري (٥٣٠)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمعنى: ما زال شُمّ العَرانينِ أبطالاً ذَوو دُرُوعٍ، دُونَ الصُّعْفَاءِ العُزَلِ؛ ففَاءُ (فَمَا زَالَ) اعتراضيةٌ، على حدّ قوله:

واعلِمْ فعلُ المرءِ يَنْفَعُهُ^(١)

و(أبطال) صفةٌ ثانيةٌ لـ (عُصْبَةٍ)، أو خبرٌ لمحذوفٍ، و(لَبُوسُهُمْ) بإشباع الميم مبتدأ، خبره: (من نسج داود)، (في الهيجا) ظرفٌ للمبتدأ، و(سَرَايِلُ) خبرٌ آخرٌ له، وحمل الجمع على المفرد باعتبار اشتمال الجنس على الأفراد، على حدّ: الدُّنْيَا جِيفَةٌ وَطُلَّابُهَا كِلَابٌ^(٢)، ونظيره توصيفُ الجنس بالجمع؛ نحو: الدِّينَارُ الصُّفْرُ، والدَّرْهَمُ البَيْضُ، والفصلُ بين المبتدأ ومعموله بخبر - وهو أجنبيٌّ من المبتدأ - يجوزُ ضرورةً. أو (من نسج) صفةٌ (لَبُوسُهُمْ)، و(سَرَايِلُ) خبره، و(في الهيجا) ظرفٌ للمبتدأ؛ فلا فصل؛ أي: لَبُوسُهُم الكائنُ من منسوج داودَ في الحربِ كسراييلَ. أو (من نسج) حالٌ من الخبر؛ لأنه مفعولٌ معنًى، لأنَّ^(٣) المعنى: أنهم يلبسون سراييلَ حالَ كونها من نسج داودَ.

وجملته (لَبُوسُهُمْ) صفةٌ أخرى لـ (عُصْبَةٍ)، أو صفةٌ لـ (أبطال).

بَيْضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولٌ

أي: هي مَجْلُوءَةٌ صافيةٌ، وكواملٌ تامّةٌ، قال ابنُ هشامٍ: هما صِفَتَا (سَرَايِلُ)^(٤)، ومفردُهُما: أبيضٌ، وسريالٌ؛ إذ السريالُ مذكّرٌ، وفاعلٌ يُجمعُ على فَوَاعِلَ في مسائلٍ؛ منها: أن يكونَ صَفَةً لِمَا لَا يَعْقَلُ.

(١) صدر بيت ذكره ابن هشام في «مغني اللبيب» (ص: ٥٢٠)، وعجزه:

أَنْ سَوْفَ يَأْتِي كُلُّ مَا قَدَرَا

(٢) أورده الشجري في «أماليه» (٢٣٨٧) من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) في «و»: «كَانَ».

(٤) انظر: «شرح ابن هشام لبانت سعاد» (ص ٨٢).

و(شُكَّتْ) بضمّ الشينِ الْمُعْجَمَةُ وتشديدِ الكافِ المفتوحة، و(حَلَقٌ) نائبُ
الفاعلِ، والجملةُ صفةٌ أُخرى لـ (سَرَابِيلُ).

و(الحَلَقُ) بفتحِ الحاءِ: جمعُ حَلَقَةٍ بالسُّكونِ على غيرِ القياسِ، وهذا هو
الصحيحُ، وخالفَ أبو عمرو في المُفْرَدِ، فقال: حَلَقَةٌ، بالفتحِ، وقال أبو عمرو
الشَّيبَانِيُّ: ليسَ في الكلامِ حَلَقَةٌ بالتحريكِ إلا جمعُ حَالِقٍ، وخالفَ الأصمعيُّ
في الجمعِ، فقال: حَلَقٌ؛ بكسرِ الحاءِ؛ كَقَصْعَةٍ وقِصْعٍ.
ثم ضميرُ (كَأَنَّهَا) لِلْحَلَقِ، والجملةُ صفةٌ (حَلَقٌ).

و(حَلَقُ الْقَفْعَاءِ) بقاءِ مفتوحةٍ وفاءٍ ساكنةٍ فعينٍ مهملةٍ: نبتٌ يَنْبَسُطُ على وجهِ
الأرضِ، له حَلَقٌ يُشَبَّهُ به حَلَقُ الدُّرُوعِ، وهي شجرةٌ خضراءُ ما دامت رطبةً، فإذا هَمَّتْ
بالجفوفِ انقفعتْ عن الأرضِ وتقبضتْ، ولقبضها شُبَّةُ الدُّرُوعِ بها، وقيل: حشيشةٌ ضعيفةٌ.
قال الفاضلُ: شَبَّهَ حَلَقُ الدُّرُوعِ بِحَلَقِ الْقَفْعَاءِ، وهو تشبيهٌ حَسِّيٌّ بِحَسِّيٍّ، ووجهُ
الشَّبهِ مُتَعَدِّدٌ حَسِّيٌّ، وهو الاستدارةُ، والكثرةُ، والضَّيقُ على مقدارٍ مخصوصٍ.

و(مَجْدُولٌ): مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ، صفةٌ ثانيةٌ لـ (حَلَقٌ)، وفيه تقديمُ الوصفِ
بالجملةِ على الوصفِ بالمفردِ، وهو جائزٌ فصيحٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿مَسَوَفَ يَأْتِي
اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والتذكيرُ بكلِّ واحدٍ منها؛ أي: مجدولٌ كلُّ واحدةٍ منها.

لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
جملةٌ (لَا يَفْرَحُونَ) صفةٌ (عُضْبَةٍ)، و(إِذَا) ظرفٌ لهُ.

و(نَالَتْ)؛ أي: أصابتْ، و(رِمَاحُهُمْ) بإشباعِ الميمِ فاعلهُ، ومفعوله (قَوْمًا)؛
أي: رجالاً.

و(لَيْسُوا)؛ أي: العُصْبَةُ (مَجَازِيْعاً) جمعُ مِجْزَاعٍ: كثيرُ الجَزَعِ، كَمَحَارِبٍ ومِحْرَابٍ، وَصُرِفَ للضرورة، و(يَلُؤُوا) مجهولٌ (نالوا) بمعنى: أُصِيبُوا.

والمعنى: إذا غلبوا لم يفرحوا؛ لأنَّ ذلك شأنهم وسيرتهم، وإذا غلبوا لا يجزعون؛ لشدة صبرهم وقلة مبالاتهم، وكثرة معرفتهم؛ حيث قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَارٌ لِّهَآبِئِنَّ النَّآسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال قائلهم:

فِيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا وَيَوْمًا نُسَاءُ وَيَوْمًا نُسَرُّ^(١)

أو عدم فرحهم بإصابة رماحهم قوماً، وعدم جزعهم بإصابة رماح الخصوم إياهم؛ كناية عن قوة باطنهم بعد بيان قوة ظاهرهم، وإشارة إلى عملهم بقوله عز وجل: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

يَمْشُونَ مَشْيَ الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ
أي: يمشون مشياً كمشي الجمال في الإسراع، أو في الوقار والامتناع، والجملة صفة (عُصْبَة).

و(الزُّهْر) بضم الزاي وسكون الهاء: جمعُ أَزْهَرٍ بمعنى الأبيض، كحُمْرٍ وأَحْمَرٍ. وجملة (يَعْصِمُهُمْ ضَرْبُ) حالٌ من فاعل (يَمْشُونَ)، أو صفة أخرى لـ (عُصْبَة)؛ أي: يحفظهم في الهيجاء ضربهم الأعداء بالسيوف والرماح، لا التحصن بالحصون والقللاع.

وقد تنازع في (إِذَا) قوله: (يَمْشُونَ) و(يَعْصِمُهُمْ).

و(عَرَدَ) بتشديد الراء؛ بمعنى: قرأ، ورؤي بغينٍ مُعْجَمَةٍ، بمعنى طَرِبَ بِالرَّجَزِ والشَّعْرِ عِنْدَ الْقِتَالِ.

و(السُّودُ): جمعُ أَسْوَدَ، والمرادُ بهم الكفارُ.

(١) البيت للنمر بن تُولب.

و(التَّابِيلُ): جَمْعُ تَبَالٍ؛ كَتِمَسَاحٍ، وَهُوَ الْقَصِيرُ.

والبَيْتُ كنايةٌ عن كَمَالِ شَجَاعَتِهِمْ؛ إِذِ الْمَعْنَى: يُسْرِعُونَ إِلَى الْهَيْجَاءِ إِسْرَاعَ الْجِمَالِ وَقْتَ فِرَارِ الْقَوْمِ، يَعْصِمُهُمْ عَنِ الْأَعْدَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ضَرْبُهُمْ إِيَّاهُمْ بِالسُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ، لَا حُصُونٌ^(١) يَفْرُونَ إِلَيْهَا، وَلَا جَمَاعَةٌ يَسْتَعِينُونَ بِهَا، وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْإِسْرَاعَ وَقْتَ فِرَارِ الْقَوْمِ مِنْ لَوَازِمِ كَمَالِ الشَّجَاعَةِ وَغَايَةِ الرُّسُوخِ فِي أَمْرِ الْمُحَارَبَةِ.

لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ
الْجَمْلَةُ صِفَةٌ أُخْرَى لـ (عُصْبَةٍ)؛ أَي: لَا يَقَعُ طَعْنُ الرَّمَاكِ (إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ) بِإِشْبَاعِ ضَمِّ الْمِيمِ؛ أَي: صُدُورِهِمْ، رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: أَنَّهُ كَانَ دِرْعُهُ صَدْرًا لَا ظَهْرًا، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ اخْتَرَزْتَ مِنْ ظَهْرِكَ، فَقَالَ: إِذَا أَمَكَنْتُ مِنْ ظَهْرِي فَلَا نَجُوتَ^(٢).

و(مَا) نَافِيَةٌ؛ أَي: لَيْسَ لَهُمْ (تَهْلِيلُ)؛ أَي: تَأَخَّرَ (عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ) بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ: جَمْعُ حَوْضٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْأَمْكَنَةُ الَّتِي فِيهَا مُجْتَمَعَاتُهُ؛ كَحَوْضِ الْمَاءِ الَّذِي فِيهِ مُجْتَمَعُهُ؛ أَي: لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا إِذَا تَأَخَّرَ غَيْرُهُمْ وَنَكَّصَ مِنْهَا، وَرُوِيَ بِالضَّادِ الْمُهْمَلَةِ؛ جَمْعُ حَوْضٍ، وَحِيَاضُ الْمَوْتِ: مَضَائِقُهُ وَشِدَائِدُهُ. قَالَ الْفَاضِلُ: وَجَمْلَةُ (مَا لَهُمْ) عَطْفٌ عَلَى الْفِعْلِيَّةِ، أَوْ حَالٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ؛ أَي: الضَّمِيرِ (فِي نُحُورِهِمْ)، أَوْ جَمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ لِلْمَدْحِ.

وَفِي رَوَايَةٍ (فَمَا لَهُمْ) بِالْفَاءِ؛ فَالْجَمْلَةُ مُعَلَّلَةٌ؛ أَي: لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ مَضَائِقِ الْحَرْبِ نُكُوصٌ وَرَجُوعٌ، بَلْ سَعَادَةُ الشَّهَادَةِ هِيَ مَطْلُوبُهُمْ، وَالْمَوْتُ فِي حَضْرَةِ الْحَبِيبِ هُوَ مُحِبُّوهُمْ.

وَلَا يَخْفَى عَلَى أَرْيَابِ الصَّفَا مَا فِي الْقَصِيدَةِ مِنْ حُسْنِ الْمَقْطَعِ وَالْمَطْلَعِ، وَصَنَعَةِ

(١) فِي «س»: «بِحُصُون».

(٢) أَوْرَدَهُ أَبُو بَكْرٍ السَّجِسْتَانِي فِي «غَرِيبِ الْقُرْآنِ» (ص ٤٢٠).

تشابه الأطراف، وغيره من بدائع الأصناف^(١)؛ حيثُ ختمَ الكلامُ في المبني بما يُناسبُ ابتداءَ المرامِ في المعنى؛ فإنه قد ابتدأ بذكرِ الفراقِ والجفاءِ، وختمَ بذكرِ الموتِ والفناءِ على وصفِ الشهادةِ الموجبةِ للقاءِ في دارِ البقاءِ، ولا ارتيابَ في أنه ليسَ بينَ الموتِ والفراقِ فرقٌ عندَ أربابِ الاشتياقِ، على أن ذكرَ الموتِ هو مُنتهى أمورِ المرءِ عندَ الانتهاءِ، وإن طالت مُدَّةُ الابتلاءِ في دارِ البلاءِ من الابتداءِ؛ فبلغَ القصيدُ في الحُسْنِ أقصى غايته، وانتهى إلى مُنتهى نهايته.

فنسألُ اللهَ العافيةَ في الدنيا، وحُسنَ الخاتمةِ في حالِ الرجوعِ إلى العقبى، وأن يتفضلَ علينا بالجزاءِ الأولي، وأن يُبلغنا المقامَ الأسنى، ويُلحِقنا بالرفيقِ الأعلى؛ معَ الذين أنعمَ اللهُ عليهم من النبيينَ والصُّديقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، علماً وعملاً، وتصديقاً وتحقيقاً وتوفيقاً، وحُسنَ أولئك رفيقاً.

وقد حرَّره مؤلفه - رُحِمَ وسلفه - في أواخرِ شهرِ صفر، ختمَ بالخيرِ والظفرِ، من شهورِ عامِ اثني عشرَ بعدَ الألفِ من^(٢) هجرةِ سيِّدِ البَشَرِ، عليه من الصَّلواتِ أتمُّها، ومن التحياتِ أعمُّها.

ومما يُستحسنُ من شعرِ كعبٍ رضي اللهُ عنه:

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي	سَعْيُ الْفَتَى وَهُوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ
يَسْعَى الْفَتَى لَأُمُورٍ لَيْسَ يُذَرُّهَا	فَالنَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مُتَشَرُّ
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَلٌ	لَا تَنْتَهِي الْعَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَثَرُ

(١) في «س»: «الأوصاف».

(٢) في «س»: «من بعد».

الرسالة رقم: (٦٥) مجلّة الرسالة
المجلد الثاني

المؤدّي الشريف

في

المؤدّي النبوي

كتاب العبادات
المجلد الثاني

نُطبع مطبوعاً عن نسخة خطية واحدة

تأليف وتحرير
ماهر أديب جنوش

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته التحفثيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم صل على سيد الأنبياء، وأكرم الأصفياء، المرسل رحمة للعالمين، الكائن نبياً وآدم بين الماء والطين، الذي زويت له مشارق الأرض ومغاربها، وفتحت له كنوزها وخزائنها.

وبعد:

فهذه الرسالة للعلامة القاري رحمه الله قد ألفها للكلام عن المولد الشريف، وسماها:

«المورد الروي في المولد النبوي»

لكنها لا تتعلق بالكلام عن الاحتفال بالمولد فحسب - كما قد يتبادر - وإن كان ذلك أحد فصولها، بل إنها اشتملت على مباحث عدة كلها له ارتباط بالموضوع، منها الكلام على الاحتفال بالمولد، كما تناول المؤلف رحمه الله كل ما يتعلق بولادة النبي ﷺ، من إزهاصات ترافقت مع الولادة الشريفة السعيدة، وحوادث عظيمة وقعت في البلدان المترامية القرية والبعيدة.

وكذا الخلافُ في خاتم النبوة: هل وُلِدَ معه، أم كان ذلك حين شق صدره؟

والخلاف: هل وُلِدَ مختوناً أم لا؟

وكيف سُمِّيَ محمّداً؟ ومن الذي سمّاه؟

كما ذكّر الخلاف في تاريخ ولادته مقارنةً مع عام الفيل، وكذا الخلاف في أي شهر كانت تلك الولادة المباركة، وفي أي يوم، وكم كانت مدة الحمل، وهل كانت ولادته ليلاً أو نهاراً أو مع الفجر؟

وقد بدأ الرسالة بذكر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فذكر بعض ما يتعلق بها؛ من كون بعثته عليه الصلاة والسلام من علامات العناية، وأمارات التوفيق، كما أورد الكثير من الإشارات البلاغية في الآية الكريمة.

ثم انتقل إلى الكلام عن الاحتفال بالمولد النبوي، ونقل أقوال بعض العلماء في بيان حكمه؛ كأبي شامة وابن الجزري والسخاوي.

كما نقل عن السخاوي بعض مظاهر الاحتفال بذلك في زمانه وفي زمان ابن الجزري قبله، وتخلّل ذلك كلامه على ما كان سائداً في بعض البلدان في زمانه هو من تلك المظاهر.

ثم انتقل إلى بحث آخر، وهو الكلام في الحديث النبوي الشريف: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» فأطال في هذا البحث، وتخلّل كلامه فيه ذكر الأمر للأنبياء باتباع النبي ﷺ.

كما ذكر في أثناء ذلك الخلاف في أي الأشياء خلقت بعد النور

المحمّديّ: العرشِ أو المَاءِ أو القَلَمِ، فتوصَّلَ مِنْ خِلَالِ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ النُّصُوصِ
الوَاردَةِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ أَوَّلَ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ النُّورُ الْمُحَمَّدِيُّ، ثُمَّ الْمَاءُ،
ثُمَّ الْعَرْشُ، ثُمَّ الْقَلَمُ.

وفي آخِرِ الرِّسَالَةِ نَطَرَقَ إِلَى مَبَاحِثَ عِدَّةٍ:

منها: الكلامُ عن رِضَاعِهِ عِنْدَ حَلِيمَةٍ، وَمَا رُوِيَ فِي ذَلِكَ مِنْ بَرَكَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ الَّتِي عَمَّتْ عَائِلَتَهَا بِارِضَاعِهِ وَمُكْنِهِ عِنْدَهَا.

ومنها: ذِكْرُ شَقِّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ، وَكَمْ مَرَّةً وَقَعَ ذَلِكَ.

ومنها: الكلامُ عن مَوْتِ والدِهِ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ وَفَاةِ والدَتِهِ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى
الْخِلَافِ فِي قَضِيَّةِ نَجَاتِهِمَا مِنَ النَّارِ.

ومنها: ذِكْرُ رَحْلَتِهِ ﷺ إِلَى الشَّامِ، وَكَمْ مَرَّةً وَقَعَ ذَلِكَ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ سَبَباً
لِزَوَاجِهِ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَأُمِّ أَوْلَادِهِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ بِنَاءِ قَرِيشٍ لِلْكَعْبَةِ وَمَا كَانَ مِنْ وَقُوعِ النَّبِيِّ ﷺ مَغْشِياً عَلَيْهِ
أَثْنَاءَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ حَلَّ إِزَارَهُ وَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ.

وَأَخْرَجُ الْمَبَاحِثَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ اللَّطِيفَةِ، كَانَ الْكَلَامُ عَنِ الْبَعْثَةِ
الشَّرِيفَةِ، وَلِلْمُؤَلِّفِ فِيهَا عَوْدٌ عَلَى بَدْءِهِ.

حَيْثُ خَتَمَهَا كَمَا بَدَأَهَا بِشَرْحِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الْآيَةَ شَرْحاً وَافِياً.

وَيَظْهَرُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ قُوَّةُ تَحْرِيرِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَرَاعَةُ تَقْرِيرِهِ،
حَيْثُ إِنَّهُ فِي نَقْلِهِ لِكَلَامِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ - كَالسَّخَاوِيِّ مَثَلًا - يُتْبَعُ كُلُّ فِقْرَةٍ مِنْهُ

بتنبیه أو استشكالٍ أو زيادةٍ أو تعقيبٍ، فانْظُرْ كيفَ تَعَقَّبَ كلامَ ابنِ الجَزَرِيِّ في استدلالِهِ على صِحِّهِ الاحتفالِ بالمولدِ بِفِعْلِ النَّصَارَى في ذِكْرِ مَوْلِدِ نَبِيِّهِمْ، فقال: مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّا مَأْمُورُونَ بِمُخَالَفَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنَ الشَّيْخِ لِهَذَا السُّؤَالِ جَوَابٌ.

ثُمَّ كَيْفَ زَادَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ حَجَرٍ مِنْ اسْتِدْلَالٍ عَلَى صِحِّهِ الاحتفالِ بِالْمَوْلِدِ بِحَدِيثِ صِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ لِيَوْمٍ عَاشُورَاءَ.

وهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنْ حُسْنِ أَسْلُوبِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الرَّسَالَةِ أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ غَامِضاً خِلَالَ الْأَخْبَارِ إِلَّا شَرَحَهُ.

وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ دُونَ انْتِظَارِ، فَهُوَ لَا يُهْمِلُ شَرْحَ الْغَرِيبِ مِنَ الْأَثَرِ، وَلَا يَنْتَظِرُ حَتَّى انْتِهَاءِ الْخَبَرِ.

كَمَا شَرَحَ (مَسْرُوراً) فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِقَوْلِهِ: (مَخْتُوناً)، وَشَرَحَ (الشَّارِفَ) فِي حَدِيثِ حَلِيمَةَ بِقَوْلِهِ: (أَي: نَاقَةٌ مُسِنَّةٌ مُهْرَمَةٌ)، وَشَرَحَ (فَصَلَّتْهُ) فِي حَدِيثِهَا الْآخِرِ بِقَوْلِهِ: (فَطَمَّتْهُ).

فَإِلَيْكَ يَا أَخِي هَذِهِ الرَّسَالَةُ الْغَنِيَّةُ - عَلَى اخْتِصَارِهَا - بِالْمَبَاحِثِ الدَّقِيقَةِ، وَالْمَعْلُومَاتِ الْمَفِيدَةِ، وَالْإِشَارَاتِ اللَّطِيفَةِ الرَّقِيقَةِ.

وَقَدْ اعْتَمَدْنَا فِي تَحْقِيقِهَا عَلَى نُسخَةٍ خَطِّيةٍ وَحِيدَةٍ مَنْقُولَةٍ مِنْ خَطِّ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهِيَ:

* نُسْخَةٌ مَكْتَبَةُ فَيْضِ اللَّهِ وَرَمَزَهَا «ف»، لَكِنْ مَعَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمَصَادِرِ

التي نَقَلَ عنها المؤلِّفُ أو رَوَى منها، ومُقابِلَةُ الكلامِ عليها لتوثيقِهِ، أو
إصلاحِ تحريفِ إنْ وُجِدَ، أو استدراكِ سَقْطِ إنْ وَقَعَ، واللهُ الموفِّقُ.

والحمدُ لله ربَّ العالمين

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدُ اللهَ الأَزَلِّيَّ الأَبَدِيَّ على ما أضاءَ النُّورَ الأَحْمَدِيَّ، وأشَرَقَ الضُّياءَ المُحَمَّدِيَّ، المَنعوتَ بالمحمودِ في عالمِ الوجودِ، وأفاءَ على العَرَبِ والعَجَمِ بأنواعِ النِّعمِ وأصنافِ الجُودِ، وأهداهُ إلى النَّاسِ كافَّةً إرسالَ هِدَايَةٍ وَهَدِيَّةٍ وَرَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ وهو الرَّحِيمُ الوَدُودُ، بإبرازِ هذا المولودِ في أحسنِ المَورُودِ، وهو شهرُ ربيعِ الأوَّلِ، على ما عليه المُعوَّلُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عليه وشَرَّفَ وَكَرَّمْ، وأحسَنَ إليه، وقَرَّبَهُ واصطَفاهُ لَدَيْهِ.

ولقد أحسنَ المَقَالَ مَنْ قالَ من بعضِ أربابِ الحالِ:

لهذا الشَّهرِ في الإسلامِ فَضْلٌ وَمَنْقَبَةٌ تَفُوقُ على الشُّهُورِ
فمُولودٌ به واسمٌ ومعنى وآياتٌ بَهْرَنَ لَدَى الظُّهُورِ
ربيعٌ في ربيعٍ في ربيعٍ ونورٌ فوقَ نورٍ فوقَ نورٍ

وقد قالَ تعالى في القرآنِ العظيمِ، والفرقانِ الحكيمِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وأظهرَ هذا الإخبارُ، المُتَضَمَّنُ لحُصولِ الأنوارِ، مُصَدَّرًا بالقَسمِ المُقَدَّرِ، ومُؤَكَّدًا بحرفِ التَّحْقِيقِ، إشارةً إلى أَنَّ مَجيئَهُ ﷺ إليهم من علاماتِ العِنايةِ، وأماراتِ التَّوْفِيقِ، والخِطابِ عامٌّ شاملٌ للمؤمنين والكافرين، لكنَّه هُدى للمُتَّقِينَ، وَحُجَّةٌ على الآخرين، كماءِ النَّيلِ: ماءٌ للمُحِبِّينَ، ودماءٌ للمُحْجُوبِينَ. وإيماءٌ إلى أَنَّ مَجيئَهُ موعودٌ إليكم، ومَقْصودٌ لديكم، بِمُقْتَضَى قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي

هَذِي فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٣٨-٣٩]﴾، وفي الإتيان بـ «إِنَّ» الشرطية المؤكدة بـ «ما» المَزِيدَة في إتيان الرسول ومجيئه المقبول؛ دلالة كاملة وعلامة شاملة إلى أَنَّ بعث الرسول ليس بواجبٍ عليه سبحانه، إِلَّا بمُوجِبٍ وعده وفَضله وكرمه على عباده.

وفيه إشعارٌ بأنَّه لولا إرسالنا إياه بالمَجْبيءِ إليكم لَمَا تَنَزَّلَ عن مرتبته، ولا نَزَلَ باختياره عليكم، فإنَّه من المُقَرَّبِينَ إلينا، ومن المُعْظَمِينَ لدينا، وهو لا يحبُّ الغيبة عن حضرة الحقِّ بالإقبالِ والتَّوجُّهِ إلى الخلقِ.

أَمَا تَرَى إلى إِيَّازِ الخاصِّ، حيثُ كَانَ من عبيدِ الخَوَاصِّ، كَلَّمَا عَرَضَ عليه سيِّده وسلطانه من المَنَاصِبِ الجَلِيلَةِ لم يَقْبَلْهُ، وأَقْبَلَ على إقبالِ الحضرةِ العَلِيَّةِ، لَكِنَّهُ ﷺ تَرَكَ مَا يُرِيدُ لِمَا يَخْتَارُهُ تعالى وَيُرِيدُ، كما هو شأنُ المُرادِ والمُريدِ، وقد قَالَ قائلُهم:

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَاتْرُكْ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ
فهذه مَرْتَبَةٌ أَهْلِ الكَمَالِ من أربابِ الأحوالِ، الجامعين بينَ تَجَلِّيَّاتِ الجَمَالِ والجَلَالِ، الفانين عَمَّا سِوَاهُ في الإِدْبَارِ والإِقْبَالِ، ولذا لَمَّا قِيلَ لأبي يَزِيدَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ.

وقد قَالَ بعضُ أربابِ التَّوْفِيقِ من أَصْحَابِ التَّحْقِيقِ والتَّدْقِيقِ: هذه أَيْضاً إِرَادَةٌ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ السَّادَةِ؛ إِذْ إِرَادَةٌ عَدَمُ الإِرَادَةِ من بَابِ الزِّيَادَةِ، تَلْمِيحاً إِلَى مَقَامِ الفَنَاءِ عَنِ السَّوَى، وَحَالَةِ التَّسْلِيمِ والرَّضَا في فَضَاءِ القَضَا.

ثُمَّ التَّنْوِينُ فِي ﴿رَسُولٌ﴾ لِلتَّعْظِيمِ الْمُحْتَوِي لِلتَّكْرِيمِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: لَقَدْ جَاءَكُمْ أَتْيَاهَا الْكَرَامُ رَسُولٌ كَرِيمٌ مِنْ رَبِّ كَرِيمٍ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ، فِيهِ دُعَاءٌ إِلَى رُوحٍ وَرِيحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ، وَزِيَادَةٌ بِشَارَةٍ إِلَى لِقَاءِ كَرِيمٍ، وَإِنْدَارٌ عَنِ الْحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَتَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩ - ٥٠]﴾.

ومن عَظْمَةِ هذا الرَّسُولِ أَنَّهُ أَخَذَ المِيثَاقَ مِنَ الأنبياءِ الكِرَامِ، والرُّسُلِ العِظَامِ، أَنَّ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَ وَقْتَ مَجِيئِهِ بِالرَّسَالَةِ، عَلَى جِهَةِ العَظْمَةِ والجَلَالَةِ، آمَنَ بِهِ وَنَصَرَهُ وَأَظْهَرَ كَمَالَهُ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد هُديَ عليه السَّلَامُ إلى هذا المَقَامِ العَالِي بقَوْلِهِ: «لو كَانَ مُوسَى حَيًّا لَمَا وَسَّعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»^(١)، وَأَوْمَأَ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ إِلَى أَنَّهُ فَرَّقَ مَا هُنَاكَ فِي المَرْتَبَةِ بقَوْلِهِ: «آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لَوَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ»^(٢).

ثُمَّ كَانَهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: اعْلَمُوا أَنَّهُ ﷺ مَا جَاءَكُمْ إِلَى جَانِبِكُمْ إِلَّا بِاعتِبَارِ القَالِبِ الصُّورِيِّ عَلَى وَجْهِ الظُّهُورِ النُّورِيِّ، وَلَكِنَّهُ بِاعتِبَارِ القَلْبِ الحُضُورِيِّ واقِفٌ عِنْدَ بَابِنَا، حَاضِرٌ فِي جَنَابِنَا، لَا يَغِيبُ مِنَ البَيِّنِ لِمَحَّةِ عَيْنٍ، فَهُوَ مَجْمَعُ البَحْرَيْنِ؛ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ عِنْدَكُمْ وَقَرِيبٌ إِلَيْنَا، وَبَاطِنٌ عِنْدَكُمْ وَكَائِنٌ عَلَيْنَا، وَفَرَشِيٌّ مَعَكُمْ وَعَرَشِيٌّ لَدَيْنَا.

وَمَعَ هَذَا مَرِجُهُ إِلَى الحَضْرَةِ، وَإِنْ طَالَتِ الغَيْبَةُ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الرَّسُولِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المُرْسَلِ بَعْدَ حُصُولِ المَقْصِدِ المُوَصَّلِ، فَفِيهِ مَرْجُ الحَنَاءِ بِالعَزَاءِ، عَلَى مَا عَلَيْهِ جَمِيعُ نَعِيمِ الدُّنْيَا بِظُهُورِ البَقَاءِ وَتَعْقِيبِ الفَنَاءِ، وَمَنْ الغَرِيبُ أَنَّهُمَا وَقَعَا فِي مَوْسِمٍ وَاحِدٍ وَرَبِيعٍ مُتَّحِدٍ عَلَى السَّوَاءِ، كَمَا وَقَعَ مِنْ عَجَائِبِ التَّارِيخِ أَنَّ عُرْسَ مَيْمُونَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ بِسَرِفٍ حَيْثُ بَنَى بِهَا وَهَنَاهَا، وَوَقَعَ فِيهِ مَوْتُهَا وَدَفْنُهَا وَعَزَاهَا.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨٧) (١٥١٥٦)، وفي إسناده ضعف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند» ط الرسالة.

(٢) قطعة من حديث رواه الترمذي (٣١٤٨) عن أبي سعيد رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح.

فُسُبْحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا يَفُوتُ، وَلَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بِالْإِسْلَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي هُوَ مُتَمَنَّى الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ، فَمَجِيئُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ وَغَايَةِ الْإِكْرَامِ، فَوَجِبَ الْإِقْبَالُ وَالْاِسْتِقبالُ فِي زَمَانِ الْإِرْسَالِ وَمَكَانِ الْإِيصَالِ.

وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُحَضِّزِ الْإِفْضَالِ بَيْنَ حُصُولِ النِّعْمَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ لِأَهْلِ الْبُقْعَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ، أَعْنِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَالْمَحَلَّيْنِ الْمُتَنِيفَيْنِ، زَادَهُمَا اللَّهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا، وَمَهَابَةً وَتَعْظِيمًا، حَيْثُ وَقَعَ الْمَوْلَدُ الْمُكْرَّمُ بِمَكَّةَ الْأَمِينَةِ، وَالْمَدْفَنُ الْمُعْظَمُ فِي الْمَدِينَةِ السَّكِينَةِ، عَلَى سَاكِنِهَا مِنَ الصَّلَوَاتِ أَفْضَلُهَا، وَمِنَ التَّحِيَّاتِ أَكْمَلُهَا.

وَقَدْ قَامَ أَهْلُ كُلِّ بَمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ، وَفَعَلَ كُلُّ مَنْ الْجَمِيلِ بَمَا هُوَ مُسَيَّرٌ وَسَهْلٌ لَهُ، مِنْ زِيَارَةِ الْمَوْلَدِ وَالْمَوْلُودِ، وَحَصَلَ لَهُمْ غَايَةُ الْفَوْزِ وَنَهَايَةُ الْمَقْصُودِ.

قَالَ شَيْخُ مَشَايِخِنَا الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ الْحَبْرُ الْفَهَامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدٌ السَّخَاوِيُّ، بَلَغَهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْعَالِي: وَكَنتُ مِمَّنْ تَشَرَّفَ بِإِدْرَاكِ الْمَوْلَدِ فِي مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ عِدَّةَ سِنِينَ، وَتَعَرَّفَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُشَارِ لِبَعْضِهَا بِالتَّعْيِينِ، وَتَكَرَّرَتْ زِيَارَتِي فِيهِ لِمَحَلِّ الْمَوْلَدِ الْمُسْتَفِيزِ، وَتَصَوَّرْتُ فِكْرَتِي مَا هُنَاكَ مِنَ الْفَخْرِ الطَّوِيلِ الْعَرِيزِ.

قَالَ: وَأَصْلُ عَمَلِ الْمَوْلَدِ الشَّرِيفِ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْفَاضِلَةِ، وَإِنَّمَا حَدَّثَ بَعْدَهَا بِالْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ وَالنِّيَّةِ الَّتِي لِلْإِخْلَاصِ شَامِلَةٌ.

ثُمَّ لَا زَالَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْمُدُنِ الْعِظَامِ، يَحْتَفِلُونَ فِي شَهْرِ مَوْلِدِهِ - ﷺ - وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ - بِعَمَلِ الْوَلَائِمِ الْبَدِيعَةِ، وَالْمَطَاعِمِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى الْأُمُورِ الْبَهِيجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَيَتَصَدَّقُونَ فِي لَيَالِيهِ بِأَنْوَاعِ الصَّدَقَاتِ، وَيُظْهِرُونَ الْمَسَرَّاتِ، وَيَزِيدُونَ فِي الْمَبَرَّاتِ.

بل يَعْتَنُونَ بَقَرَاءَةِ مَوْلَاهُ الْكَرِيمِ، وَيُظْهِرُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَرَكَاتِهِ كُلَّ فَضْلٍ عَمِيمٍ،
بَحِثُ كَانَ مِمَّا جُرِّبَ - كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّمْسُ ابْنُ الْجَزَرِيِّ الْمَقْدِسِيُّ الْمُقَرَّبُ - مِنْ
خَوَاصِّهِ أَنَّهُ أَمَانٌ تَأْمُنُ فِي ذَلِكَ الْعَامِ، وَبُشْرَى تُعَجِّلُ بَنِيْلَ مَا يَنْبَغِي وَيُرَامُ، قَالَ: وَأَكْثَرُهُمْ
بِذَلِكَ عَنَاءَةً أَهْلُ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَلِسُلْطَانِ مِصْرَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنَ الْعَامِ أَعْظَمَ مَقَامٍ.

قال^(١): وَلَقَدْ حَضَرْتُ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَسَبْعٍ مِئَةَ لَيْلَةِ الْمَوْلِدِ عِنْدَ الْمَلِكِ
الظَّاهِرِ بَرْقُوقَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ الْعَلِيَّةِ، فَرَأَيْتُ مَا هَالَنِي وَسَرَّنِي وَمَا سَاءَنِي،
وَحَزَرْتُ مَا أَنْفَقَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَلَى الْقُرَّاءِ وَالْحَاضِرِينَ، مِنَ الْوُعَاظِ وَالْمُنْشِدِينَ،
وغيرِهِمْ مِنَ الْأَتْبَاعِ وَالْعِلْمَانِ وَالْخُدَّامِ الْمُتَرَدِّدِينَ، بِنَحْوِ عَشْرَةِ آلَافٍ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ
الْعَيْنِ، بِالْحَدْسِ الْمُصِيبِ لَا الْمَيْنِ، مَا بَيْنَ خِلْعٍ وَمَطْعُومٍ، وَمَشْرُوبٍ وَمَشْمُومٍ،
وَشُمُوعٍ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يَسْتَقِيمُ بِهِ الضُّلُوعُ.

وَعَدَدْتُ فِي ذَلِكَ خَمْسًا وَعَشْرِينَ جَوْقَةً مِنَ الْقُرَّاءِ الصَّيِّتِينَ، الْمَرْجُوكُونَ كَوْنَهُمْ
مُثَبِّتِينَ، وَلَمْ يَنْزِلْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِنَحْوِ عَشْرِينَ خِلْعَةً مِنَ السُّلْطَانِ، وَمِنَ الْأُمَرَاءِ الْأَعْيَانِ.
قَالَ السَّخَاوِيُّ: قُلْتُ: وَلَمْ يَزَلْ مُلُوكُ مِصْرَ خُدَّامَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ،
مَمَّنْ وَفَقَّهَهُمُ اللَّهُ لَهُذِمَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَنَاكِبِ وَالشَّيْنِ، وَنَظَرُوا فِي أَمْرِ الرَّعِيَّةِ كَالْوَالِدِ
لَوْلَدِهِ، وَشَهَرُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْعَدْلِ فَأَسْعَفَهُمُ اللَّهُ بِجُنْدِهِ وَمَدَدِهِ، كَالْمَلِكِ السَّعِيدِ
الشَّهِيدِ الظَّاهِرِ الْمُصَدِّقِ أَبِي سَعِيدٍ جَفَمَقَ = يَعْتَنُونَ بِهِ، وَيتَوَجَّهونَ لَطَرِيقِ سَبِيهِ،
بَحِثُ ارْتَقَتْ جُوقُ الْقُرَّاءِ فِي أَيَّامِهِ بَيَقِينَ لِلزِّيَادَةِ عَلَى الثَّلَاثِينَ، فَذَكَّرُوا بِكُلِّ
جَمِيلٍ، وَكَفَّوْا مِنَ الْمُهَمَّاتِ كُلِّ عَرِيضٍ وَطَوِيلٍ.

وَأَمَّا مُلُوكُ الْأَنْدَلُسِ وَالْعَرَبِ فَلَهُمْ فِيهِ لَيْلَةٌ تَسِيرُ بِهَا الرُّكْبَانُ، يَجْتَمِعُ فِيهَا أئِمَّةُ
الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ فَمَنْ يَلِيهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَتَعْلُوها بَيْنَ أَهْلِ الْكُفْرِ كَلِمَةُ الْإِيمَانِ.

(١) أي: ابن الجزري.

وأظنُّ أهلَ الرُّومِ لا يتخلَّفون عن ذلك، اقتفاءً لغيرهم من الملوك فيما هنالك، وبلادَ الهندِ تزيدُ على غيرِها بكثير، كما أعلمنيهِ بعضُ أولي النِّقدِ والتَّحريرِ^(١).

قُلْتُ: وأمَّا العَجَمُ، فَمِنْ حَيْثُ دَخَلَ هَذَا الشَّهْرُ الْمُعْظَمُ، وَالزَّمَانُ الْمُكْرَمُ، لَأَهْلِهَا مَجَالِسُ فِخَامٍ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ لِلْقُرَّاءِ الْكِرَامِ، وَلِلْفُقَرَاءِ مِنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَقَرَاءَاتُ الْخَتَمَاتِ وَالتَّلَاوَاتِ الْمُتَوَالِيَاتِ، وَالْإِنْشَادَاتِ الْمُتَعَالِيَاتِ، وَأَنْوَاعُ الشُّرُورِ وَأَصْنَافُ الْحُبُورِ، حَتَّى بَعْضُ الْعَجَائِزِ مِنْ غَزْلِهِنَّ وَنَسِجِهِنَّ يَجْمَعْنَ مَا يَقْمُنُ بِجَمْعِهِنَّ الْأَكَابِرُ وَالْأَعْيَانُ، وَبِضِيافَتِهِنَّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

وَمِنْ تَعْظِيمِ مَشَايِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ هَذَا الْمَوْلِدَ الْمُعْظَمَ وَالْمَجْلِسَ الْمُكْرَمَ: أَنَّهُ لَا يَأْبَاهُ أَحَدٌ فِي حُضُورِهِ، رَجَاءً إِدْرَاكَ نُورِهِ وَسُرُورِهِ.

وَقَدْ وَقَعَ لَشَيْخٍ مَشَايِخُنَا مَوْلَانَا زَيْنِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ الْبَهْدَائِيَّ النَّقْشَبَنْدِيَّ، قُدَّسَ سِرُّهُ الْعَلِيِّ: أَنَّهُ أَرَادَ سُلْطَانُ الزَّمَانِ وَخَاقَانُ الدُّورَانِ هَمَايُونُ بَادِشَاهُ، تَعَمُّدَهُ اللَّهُ وَأَحْسَنَ مَثْوَاهُ، أَنْ يَجْتَمَعَ بِهِ، وَيَحْضُلَ لَهُ الْمَدَدُ وَالْمَدَدُ بِسَبَبِهِ، فَأَبَاهُ الشَّيْخُ، وَامْتَنَعَ أَيْضاً أَنْ يَأْتِيَهُ السُّلْطَانُ، اسْتِغْنَاءً بِفَضْلِ الرَّحْمَنِ، فَالْحَ السُّلْطَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بَيْرَمِ خَانَ، بَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَدْبِيرٍ لِلْاجْتِمَاعِ فِي الْمَكَانِ، وَلَوْ فِي قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَانِ، فَسَمِعَ الْوَزِيرُ أَنَّ الشَّيْخَ لَا يَحْضُرُ فِي دَعْوَةٍ مِنْ هُنَا وَعِزَاءٍ إِلَّا فِي مَوْلِدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَعْظِيماً لَذَلِكَ الْمَقَامِ، فَأَنْهَى إِلَى السُّلْطَانِ، فَأَمَرَهُ بِتَهْيِئَةِ أَسْبَابِهِ الْمُلُوكَانِيَّةِ؛ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَطْعَمَةِ وَالْأَشْرِيَةِ وَمِمَّا يُشَمُّ بِهِ وَيَبَخَّرُ فِي الْمَجَالِسِ الْعَلِيَّةِ، وَنَادَى الْأَكَابِرَ وَالْأَهَالِي، وَحَضَرَ الشَّيْخُ مَعَ بَعْضِ الْمَوَالِي، فَأَخَذَ السُّلْطَانُ الْإِبْرِيْقَ بِيَدِ الْأَدَبِ وَمُعَاوَنَةِ التَّوْفِيقِ، وَالْوَزِيرُ

(١) انظر: «الأجوبة المرضية فيما سئل عنه السخاوي من الأحاديث النبوية» لشمس الدين محمد بن

عبد الرحمن السخاوي (٣/ ١١١٦-١١١٧). وانظر أيضاً «التبر المسبوك في ذيل السلوك» له

(ص ٥٥-٥٦).

أَخَذَ الطُّسْتَ مِنْ تَحْتِ أَمْرِهِ، رَجَاءَ لُطْفِهِ وَنَظَرِهِ، وَغَسَّلا يَدَ الشَّيْخِ الْمُكْرَّمِ، وَحَصَلَ لِهَما بِيْرَكَة تَوَاضَعِهما لَهِ لِرَسولِهِ ﷺ المَقَامُ المُعَظَّمُ، وَالجاءُ المُفَخَّمُ.

قال السَّخَاوِيُّ: وَأَمَّا أَهْلُ مَكَّةَ مَعْدِنِ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، فَيَتَوَجَّهونَ إِلَى الْمَكَانِ الْمُتَوَاتِرِ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ مُحَلٌّ مَوْلِدِهِ، وَهُوَ فِي سَوَاقِ اللَّيْلِ رَجَاءَ بُلُوغِ كُلِّ مِنْهُمْ بِذَلِكَ لِمَقْصِدِهِ، وَيَزِيدُ اهْتِمَامُهُمْ بِهِ عَلَى يَوْمِ الْعِيدِ، حَتَّى قَلَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ صَالِحٍ وَطَالِحٍ، وَمُقِلٍّ وَسَعِيدٍ، سَيِّمًا الشَّرِيفُ صَاحِبُ الْحِجَازِ، بِدَوْنِ تَوَارٍ وَانْحِجَازِ^(١).

قُلْتُ: الْآنَ سَيِّمَاءُ الشَّرِيفِ لَا تَبَانُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَلَا فِي ذَلِكَ الزَّمانِ.

قال: وَجَدَدَ قَاضِيها وَعَالِمُها الْبُرْهَانِيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى إِطْعَامَ غَالِبِ الْوَارِدِينَ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْقَاطِنِينَ الْمُشَاهِدِينَ، فَاخْرَ الْأَطْعِمَةَ وَالْحَلْوَى، وَيَمُدُّ لِلْجُمُهورِ فِي مَنْزِلِهِ صَبِيحَتِها سِمَاطًا جَامِعًا رَجَاءَ لِكُشْفِ الْبَلَوَى، وَتَبَعَهُ وَلَدُهُ الْجَمَالِيُّ فِي ذَلِكَ لِلْقَاطِنِ وَالسَّالِكِ.

قُلْتُ: أَمَّا الْآنَ، فَمَا بَقِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَطْعِمَةِ إِلَّا الدُّخَانُ، وَلَا يَظْهَرُ مِمَّا ذَكَرَ إِلَّا رِيحُ الرِّيحَانِ، فَالْحَالُ كَمَا قال:

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّها كَخِيَامِهِمْ لَكِنَّ نِساءَ الْحَيِّ غَيْرُ نِساءِها

قال: وَلِأَهْلِ الْمَدِينَةِ كَثُرَ هُمْ اللهُ تَعَالَى بِهِ احْتِفَالٌ، وَعَلَى فِعْلِهِ إِقْبَالٌ.

وَكَانَ لِلْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ صَاحِبِ إِزْبِلَ رَحِمَهُ اللهُ بِذَلِكَ فِيها أْتَمُّ الْعِناية، وَاهْتِمَامٌ^(٢) بِشَأْنِهِ جَاوَزَ الْغَايَةَ، أَثْنَى عَلَيْهِ بِهِ الْعَلَّامَةُ أَبُو شَامَةَ، أَحَدُ شُيوخِ النُّوويِّ السَّابِقِ فِي

(١) المصدر السابق (٣/ ١١١٧).

(٢) فِي «ف» وَ«الأجوبة المرضية»: «واهتماماً»، والمثبت من «التبر المسبوك»، وهو الصواب؛ أي:

بالرفع عطفًا على اسم «كان»، وهو: «أتم».

الاستقامة، في كتابه: «الباعث على إنكار البدع والحوادث»، وقال: مثل هذا الحسن يُندب إليه، ويُشكر فاعله ويُثنى عليه^(١).

زاد ابن الجزري: ولو لم يكن في ذلك إلا إرغام الشيطان وسرور أهل الإيمان.

قال - يعني الجزري -: وإذا كان أهل الصليب اتخذوا ليلة مولد نبيهم عيداً

أكبر^(٢)، فأهل الإسلام أولى بالتكريم وأجدر^(٣).

قلت^(٤): ممّا^(٥) يردّ عليه أننا مأمورون بمخالفة أهل الكتاب، ولم يظهر من

الشيخ لهذا السؤال جواب.

قال السخاوي على سبيل الإضراب: بل خرج [شيخنا]^(٦) شيخ مشايخ

الإسلام، خاتمة الأئمة الأعلام، أبو الفضل ابن حجر، الأستاذ المعتبر، تغمده الله

برحمته، وأسكنه فسيح جنّته، فعله على أصل ثابت إمام، يميل إلى الاستناد إليه كل

خير همام، وهو ما ثبت في «الصحيحين»: من أن النبي ﷺ قدّم المدينة فوجد اليهود

يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هو يوم أغرق الله سبحانه فيه فرعون، ونجّى

موسى عليه السلام، فنحن نصومه شكراً لله عزّ وجلّ، فقال ﷺ: «فأنا أحق بموسى -

عليه السلام - منكم»، فصامه وأمر بصيامه^(٧)، وقال: «إن عشت إلى قابل» الحديث^(٨).

(١) انظر: «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (ص ٢٣).

(٢) في «ف»: «عيد الأكبر»، والمثبت من «الأجوبة المرضية» و«التبر المسبوك».

(٣) انظر: «الأجوبة المرضية» (٣ / ١١١٧)، و«التبر المسبوك» (ص ٥٦)، وهنا انتهى كلام السخاوي عن

المولد في «التبر المسبوك»، وما سيرد عنه بعد هذا فمن «الأجوبة المرضية».

(٤) القائل المؤلف.

(٥) في «ف»: «لما»، والصواب المثبت.

(٦) من «الأجوبة المرضية» (٣ / ١١١٧).

(٧) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) رواه مسلم (١١٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع».

قُلْتُ: وافقهم أولاً للألفة، ثم خالفهم آخرًا تحقيقاً لصورة المخالفة.

قال - أي: الشيخ^(١) -: فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما منَّ به في يومٍ مُعينٍ؛ من إسداءِ نعمةٍ، أو دفعِ نِقْمَةٍ، ويُعادُ ذلك في نظير ذلك اليوم من كلِّ سنةٍ، والشُّكرُ لله تعالى يحصلُ بأنواع العبادة كالصَّلاة والصَّيام والتَّلاوة، وأيُّ نعمةٍ أعظم من نعمةِ بُروزِ هذا النَّبيِّ نبيِّ الرَّحمةِ ﷺ؟!

قُلْتُ: وفي قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] إشعارٌ بذلك، وإيماءٌ إلى تعظيمِ وقتِ مجيئه لِما هُنالك.

قال: وعلى هذا فينبغي أن يُقتصرَ فيه على ما يُفهمُ الشُّكرُ لله تعالى من نحو ما ذُكِرَ، وأمَّا ما يتبعُه من السَّماعِ واللَّهو وغيرهما فينبغي أن يُقال: ما كان من ذلك مُباحاً بحيثُ يُعينُ الشُّرورَ بذلك اليوم فلا بأسَ بالحاقه، وما كان حراماً أو مكروهاً فيُمنعُ، وكذا ما كان فيه خلافٌ، بل يحسُنُ في أيامِ الشَّهرِ كُلِّها ولياليه، يعني: كما جاء عن ابنِ جماعةٍ تَمْنِيهِ.

فقد اتَّصلَ بنا: أن الزَّاهدَ القدوةَ المُعَمَّرَ أبا اسحاقَ إبراهيمَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ إبراهيمَ ابنِ جماعةٍ^(٢) لَمَّا كانَ بالمدينةِ النَّبَوِيَّةِ - على ساكنها أَفْضَلُ الصَّلاةِ وأكْمَلُ التَّحِيَّةِ - كانَ يَعمَلُ طَعاماً في المَولِدِ النَّبَوِيِّ، ويُطْعِمُ النَّاسَ ويقولُ: لو تَمَكَّنْتُ عَمِلْتُ بِطَوْلِ الشَّهِرِ كُلِّ يَومٍ مَولِداً.

قُلْتُ: وأنا لَمَّا عَجَزْتُ عن الضَّيافةِ الصُّوريَّةِ، كَتَبْتُ هذه الأَوراقَ لتَصيلِ ضَيافةٍ

(١) أي: ابن حجر، ففي «الأجوبة المرضية»: «قال شيخنا».

(٢) الكنانى الحموي الأصل، المقدسي الشافعي، ابن أخي القاضي بدر الدين بن جماعة، ولد سنة ست أو ثمان وسبعين وست مائة، وقد جاور بالمساجد الثلاثة المشرفة زماناً، وقدم القاهرة وحدث بها، كان زاهد وقته، وقال الولي العراقي: كان عابداً زاهداً ذا حظ من الخير. ومات بيت المقدس سنة (٧٦٤هـ). انظر: «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» للشمس السخاوي (١/ ٩٢).

معنويةٌ نوريةٌ، مُستمرّةٌ على صفحاتِ الدَّهرِ، غيرَ مختصّةٍ بالسَّنةِ والشَّهرِ، وسمّيتُ بـ: «المورِدِ الرّويِّ في المولِدِ النّبويِّ».

قال: وأمّا قراءةُ المولِدِ فينبغي أن يُقتصرَ منه على ما أورده أئمّةُ الحديثِ في تصانيفهم المُختصّةِ بذلك، كـ «المورِدِ الهنيِّ»^(١)، وغيرِ المُختصّةِ به بل ذُكِرَ ضمناً كـ «دلائلِ الثبوتِ» للبيهقيّ، ولا بأس بـ «لطائفِ المعارفِ» لابنِ رجبٍ في ذلك؛ لأنّ أكثرَ ما بأيدي الوُعّاظِ منه كَذِبٌ واختلاقٌ، بل لم يزلوا يؤلّدون ما هو أقبحُ وأسمجُ ممّا لا تحلُّ روايتهُ ولا سماعُهُ، بل يجبُ على مَنْ علِمَ بطلانَهُ إنكارُهُ، والأمرُ بتركِ قراءتهِ.

على أنّه لا ضرورةٌ إلى سياقِ ذكرِ المولِدِ، بل يُكتفى بالتلاوةِ والإطعامِ والصّدقةِ وإنشادِ شيءٍ من المدائحِ النّبويّةِ والزّهديّةِ، المُحرّكةِ للقلوبِ إلى فعلِ الخيرِ وعَمَلِ الآخرةِ، والصّلاةِ والسّلامِ على صاحبِ المولِدِ^(٢).

واعلم أنّ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ أي: رجلٌ موصوفٌ بوصفِ الثبوتِ والرّسالةِ، ومنعوتٌ بنعتِ العظمةِ والجلالةِ، إمّا إشارةً إلى ما له حينَ بلوغِ زمانِ كماله وظهورِ أوانِ جماله، أو إيماءً إلى ما ورَدَ من قوله ﷺ: «كنتُ نبياً وآدمُ بينَ الماءِ والطّينِ»، وهو وإن قالَ بعضُ الحفّاظِ: لم نقفُ عليه بهذا اللفظِ^(٣)، لكنّ جاءَ معناه في طُرُقٍ صحيحةٍ.

منها: ما رواه أحمدُ والبيهقيُّ والحاكمُ وقال: صحيحُ الإسنادِ، عن العزْباضِ

(١) «المورد الهني في المولد السني» لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفى (٨٠٦هـ)، مطبوع في (دار السلام).

(٢) انظر: «الأجوبة المرضية» (٣/ ١١٢٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٦٩)، وفيه: لا أصل له، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ، وهو باطل فإنه لم يكن بين الماء والطين إذ الطين ماء وتراب.

ابن سارية عن النبي ﷺ قَالَ: «إِنِّي مَكْتُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدٌ فِي طَيْبَتِهِ»^(١)؛ أَي: لَطَرِيخٌ مَلْقِيٌّ عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ.

ومنها: ما رواه أحمد وأحمد والبخاري في «تاريخه»، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه الحاكم، عن ميسرة الضبي، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى كُنْتَ نَبِيًّا؟ فَقَالَ: «وَأَدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»^(٢)، وَيُرْوَى: «كُنْتُ» من الكِتَابَةِ^(٣).

ومنها: خبر الترمذي - وحسنه - عن أبي هريرة: أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النَّبُوءَةُ؟ قَالَ: «وَأَدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»^(٤).
وَوَرَدَ: «أَنَا أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ خُلِقُوا وَآخِرُهُمْ بَعُثُوا»^(٥).

وفي «صحيح مسلم» من حديث عمرو بن العاص: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٦). ومن جُمْلَةٍ مَا كَتَبَ فِي الذِّكْرِ وَهُوَ أُمُّ الْكِتَابِ: أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ^(٧).

والمُرَادُ ظُهُورُ بُرْهَانِهِ لِلْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَعُلُوقُ رُوحِهِ فِي أَعْلَى مَقَامِ عِلِّيِّينَ، إِعْلَامًا بِعَظِيمِ شَرَفِهِ وَتَمَيُّزِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، ثُمَّ خَصَّصَ

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٧ / ٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٨٥)، والحاكم في «المستدرک» (٤١٧٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥٩ / ٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣٧٤ / ٧)، والحاكم في «المستدرک» (٤٢٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٣ / ٩).

(٣) هي رواية الإمام أحمد. انظر التعليق السابق.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٠٩)، وجاء في مطبوعه: «حديث حسن صحيح غريب». والذي قاله المؤلف موافق لما في «تحفة الأشراف» للمزي (٧٤ / ١١).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣ / ١٩) عن قتادة مرسلًا.

(٦) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٧) هذه الزيادة من كلام ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ٨٠)، وليست من الحديث.

الإظهار بحالة كون آدم ﷺ بين الروح والجسد؛ لأنه أو أن دخول الأرواح إلى عالم الأجساد، وتمييز الذرية والأولاد من الآباء والأجداد.

وأجاب الإمام حجة الإسلام في كتاب «النفع والتسوية» عن وصفه نفسه بالنبوة قبل وجود ذاته وتحقيق كمالات صفاته، بأن المراد بالخلق هنا التقدير لا الإيجاد، فإنه قبل أن تحمل به أمه لم يكن مخلوقاً موجوداً، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود.

قال: وهو معنى قولهم: أول الفكرة آخر العمل، وآخر العمل أول الفكرة، فقولُه: «كنت نبياً» أي: في التقدير قبل تمام خلقه آدم؛ إذ لم ينشأ إلا ليترع من ذريته محمد ﷺ.

وتحقيقه: أن للدار في ذهن المهندس وجوداً ذهنياً سبباً للوجود الخارجي وسابقاً عليه، فالله تعالى يُقدِّر ثم يُوجد على وفق التقدير ثانياً. انتهى ملخصاً.

وذهب السبكي إلى ما هو أحسن، وللمقصود أبين، وهو أنه جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجساد، فالإشارة بـ «كنت نبياً» إلى روحه الشريفة، أو حقيقة من حقائقه^(١)، ولا يعلمها إلا الله، ومن حباه بالاطلاع عليها.

ثم إنه تعالى يُؤتي كل حقيقة منها ما شاء في أي وقت شاء، فحقيقته ﷺ قد تكون من حين خلق آدم آتاه الله ذلك الوصف بأن خلقها مُهيئة له، وأفاض عليها من ذلك الوقت، فصار نبياً، وكتب اسمه على العرش ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته الزائدة عنده.

فحقيقته موجودة من ذلك الوقت، وإن تأخر جسده الشريف المتصف

(١) العبارة في «فتاوى السبكي» (١/ ٣٩): «... إلى روحه الشريفة ﷺ وإلى حقيقته...».

بها، فحيثُ^(١) يتأوّه النبوة والحكمة وسائر أوصاف حقيقته وكما لا يتّيه مُعَجَّل لا تأخّر فيه، وإنّما المتأخّر تكوُّنه وتنقله في الأصلاب والأرحام الطاهرة، إلى أن ظهر على الوجه الأتم ﷺ^(٢).

قال: ومن فسّر ذلك بعلم الله بأنّه سيصير نبياً لم يصل لهذا المعنى؛ لأنّ علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، فالوصف بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنّه أمر ثابت له فيه، وإلا لم يختصّ بأنّه نبيّ [حيثُ^(٣)]؛ إذ الأنبياء كلّهم كذلك بالنسبة لعلمه سبحانه^(٤).

قال القسطلاني: لما تعلّقت إرادة الحقّ تعالى بإيجاد خلقه وتقدير رزقه، أبرز الحقيقة المحمّدية من الأنوار الصمّدية في الحضرة الأحديّة، ثمّ سلخ منها العوالم كلّها - علوها وسفلها - على صورة حكمه، كما سبق في سابق إرادته وعلمه، ثمّ أعلمه تعالى بنبوته وبشّره برساليته.

هذا، ولم يكن آدم إلا كما قال: «بين الروح والجسد»، ثمّ انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، فظهر بالملا الأعلى وهو بالمنظر الأعلى، فكان لهم المورد الأخلى، فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس. ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقّه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان إلى اسمه الظاهر، فظهر محمّداً ﷺ، [فهو] وإن

(١) بعدها في «ف» كلمة: «تنجر»، والمثبت من كتاب المؤلف «أشرف الوسائل إلى فهم الشرائع» (ص ٣٥)، وهو الموافق لما في «فتاوى السبكي»، والكلام في هذا الموضع منقول منه بالمعنى.

(٢) انظر: «فتاوى السبكي» (١/ ٣٩ - ٤٠).

(٣) ما بين معكوفتين من «أشرف الوسائل» (ص ٣٥)، وانظر التعليق الذي بعده.

(٤) انظر: «فتاوى السبكي» (١/ ٣٨ - ٣٩)، وفيه بدل قوله: «وإلا لم يختص...»: «ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصية بأنّه نبي وآدم بين الروح والجسد لأن جميع الأنبياء...».

تَأَخَّرَتْ طَيْبَتُهُ فَقَدْ عُرِفَتْ قِيَمَتُهُ، فَهُوَ خِزَانَةُ السَّرِّ، وَمَوْضِعُ تَفْوِذِ الْأَمْرِ، فَلَا يَنْفُذُ أَمْرٌ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُنْقَلُ خَيْرٌ إِلَّا عَنْهُ.

أَلَا بِأَبِي مَنْ كَانَ مَلِكًا وَسَيِّدًا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَاقِفٌ
فَذَاكَ الرَّسُولُ الْأَبْطَحِيُّ مُحَمَّدٌ لَهُ فِي الْعُلَا مَجْدٌ تَلِيدٌ وَطَارِفٌ
أَتَى بَزْمَانَ السَّعْدِ فِي آخِرِ الْمَدَى وَكَانَ لَهُ فِي كُلِّ عَصْرِ مَوَاقِفٌ
إِذَا رَامَ أَمْرًا لَا يَكُونُ خِلَافُهُ وَلَيْسَ لَذَاكَ الْأَمْرِ فِي الْكُونِ صَارِفٌ

قَالَ: وَرُوِينَا فِي جُزْءٍ مِنْ «أَمَالِي أَبِي سَهْلٍ الْقَطَّانِ»، عَنْ سَهْلِ بْنِ صَالِحٍ الْهَمْدَانِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ: كَيْفَ صَارَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتَقَدَّمُ الْأَنْبِيَاءَ وَهُوَ آخِرُ مَنْ بُعِثَ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَخَذَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ رَبِّكُمْ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوَّلَ مَنْ قَالَ: بَلَى ^(١).

وَأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ: [قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ]: مَتَى اسْتُنِشِتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَأَدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، حِينَ أَخَذَ مِنِّي الْمِيثَاقَ» ^(٢). وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آدَمَ لَمَّا صُوِّرَ طِينًا، اسْتُخْرِجَ مِنْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ وَنُبِيُّ، وَأَخَذَ مِنْهُ الْمِيثَاقَ، ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى ظَهْرِهِ لِيُخْرَجَ أَوَانُ وَجُودِهِ، فَهُوَ أَوَّلُهُمْ خَلْقًا، وَخَلَقَ آدَمَ السَّابِقُ كَانَ مَوَاتًا لَا رُوحَ فِيهِ.

وَهُوَ ﷺ كَانَ حَيًّا حِينَ اسْتُخْرِجَ وَنُبِيُّ وَأَخَذَ مِنْهُ مِيثَاقَهُ، فَهُوَ أَوَّلُ النَّبِيِّينَ خَلْقًا وَآخِرُهُمْ بَعَثًا، وَلَا يُنَافِي هَذَا أَنَّ اسْتُخْرِجَ ذُرِّيَّةُ آدَمَ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ خُصَّ مِنْ بَنِي آدَمَ بِذَلِكَ الْاسْتُخْرَاجِ الْأَوَّلِ.

(١) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٣٩ - ٤١)، وما سلف بين معكوفتين منه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٤٨)، وما بين معكوفتين منه.

وفي «تفسير العماذ ابن كثير»، عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية [آل عمران: ٨١]: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْسَ بُعْثَ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ، وَيَأْخُذَ الْعَهْدَ بِذَلِكَ عَلَى قَوْمِهِ^(١).

وَأَخَذَ السُّبُكِيَّ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّهُ ﷺ عَلَى تَقْدِيرِ مَجِيئِهِ فِي زَمَانِهِ مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ، فَتَكُونُ بُبُوَّتُهُ وَرِسَالَتُهُ عَامَّةً لَجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَتَكُونُ الْأَنْبِيَاءُ وَأُمَمُهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ، يَعْنِي: فِي الْجُمْلَةِ، فَقَوْلُهُ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»^(٢) يَتَنَاوَلُ مَنْ قَبْلَ زَمَانِهِ أَيْضاً، وَبِهِ يَتَبَيَّنُ مَعْنَى: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»، وَحِكْمَةُ كَوْنِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْآخِرَةِ تَحْتَ لَوَائِهِ، وَصَلَاتِهِ بِهِمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ.

قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُهُ مَا ذَكَرَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ يَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَغَيْرَهُمْ^(٣).

قَالَ: وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ بِسَنَدِهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي، أَخْبِرْنِي عَنْ أَوَّلِ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَبْلَ الْأَشْيَاءِ، قَالَ: «يَا جَابِرُ! إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ يَدُورُ بِالْقُدْرَةِ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَوْحٌ وَلَا قَلَمٌ، وَلَا جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ، وَلَا مَلَكٌ وَلَا سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ، وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ، وَلَا جَنِّيٌّ وَلَا

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» عند شرح الآية المذكورة.

(٢) رواه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) انظر: «تفسير الرازي» (٢٤ / ٤٢٩)، وفي كلامه ما يدل على منع شموله للملائكة، حيث قال: «قالوا: هذه الآية تدل على أحكام: الأول: أن العالم كل ما سوى الله تعالى، ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، لكننا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا إلى الملائكة، فوجب أن يكون رسولا إلى الجن والإنس جميعا».

إِنْسِيٍّ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ قَسَمَ ذَلِكَ النُّورَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ، فَخَلَقَ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ الْقَلَمَ، وَمِنَ الثَّانِي اللَّوْحَ، وَمِنَ الثَّلَاثِ الْعَرْشَ، ثُمَّ قَسَمَ الْجُزْءَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ، فَخَلَقَ مِنَ الْأَوَّلِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، وَمِنَ الثَّانِي الْكُرْسِيَّ، وَمِنَ الثَّلَاثِ بَقِيَّةَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ قَسَمَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ، فَخَلَقَ مِنَ الْأَوَّلِ السَّمَاوَاتِ، وَمِنَ الثَّانِي الْأَرْضِينَ، وَمِنَ الثَّلَاثِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، ثُمَّ قَسَمَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ، فَخَلَقَ مِنَ الْأَوَّلِ نُورَ أَبْصَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنَ الثَّانِي نُورَ قُلُوبِهِمْ، وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ، وَمِنَ الثَّلَاثِ نُورَ أَلْسِنَتِهِمْ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، الْحَدِيثُ (١).

قُلْتُ: وَيُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾؛ أَي: نُورُ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿كَيْتَشْكُوفُ فِيهَا مَضْبَاحٌ﴾ الآية [النور: ٣٥].

وَاخْتَلَفُوا فِي أَوَّلِ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ النُّورِ الْمُحَمَّدِيِّ، فَقِيلَ: الْعَرْشُ، لِمَا صَحَّ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» (٢)، فَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ التَّقْدِيرَ وَقَعَ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَالتَّقْدِيرُ وَقَعَ عِنْدَ أَوَّلِ خَلْقِ الْقَلَمِ؛ لِحَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعاً: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، وَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ (٣).

لَكِنْ صَحَّ فِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي رَزِينِ الْعَقِيلِيِّ، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ: أَنَّ الْمَاءَ خُلِقَ قَبْلَ الْعَرْشِ (٤)، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إشارةٌ إِلَيْهِ وَدَلَالَةٌ عَلَيْهِ.

(١) لَمْ أَجِدْهُ عِنْدَ عَبْدِ الرَّزَاقِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِهِ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥ / ٣١٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢١٥٥) وَ(٣٣١٩)، وَرَوَاهُ أَيْضاً أَبُو دَاوُدَ (٤٧٠٠)، وَاللَّفْظُ لَهُ.

(٤) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٤ / ١١)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣١٠٩) وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَرَوَى السُّدِّيُّ بِأَسَانِيدٍ مُتَعَدِّدَةٍ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا مِمَّا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ^(١).
فَعِلِمَ أَنَّ أَوَّلَ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ النُّورُ الْمُحَمَّدِيُّ، ثُمَّ الْمَاءُ، ثُمَّ الْعَرْشُ، ثُمَّ
الْقَلَمُ، فِذَكَرُ الْأَوَّلِيَّةِ فِي غَيْرِ نُورِهِ ﷺ إِضَافِيَّةً.

وَوَرَدَ: لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ جَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ فِي ظَهْرِهِ، فَكَانَ يَلْمَعُ فِي جَبِينِهِ،
ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سَرِيرٍ مَمْلُوكَتِهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى أَكْتَافٍ مَلَائِكَتِهِ، وَأَمَرَهُمْ
فَطَافُوا بِهِ فِي السَّمَاوَاتِ لِيَرَى عَجَائِبَ مَلَكُوتِهِ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مَكَثَتِ الرُّوحُ فِي رَأْسِ آدَمَ مِثْلَ عَامٍ، وَفِي صَدْرِهِ مِثْلَ عَامٍ،
وَفِي سَاقِيهِ وَقَدَمَيْهِ مِثْلَ عَامٍ، ثُمَّ عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، ثُمَّ أَمَرَ
الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ سَجُودَ تَعْظِيمٍ وَتَحِيَّةٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ، كَسُجُودِ إِخْوَةِ يَسُوفَ لَهُ،
فَالْمَسْجُودُ لَهُ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَآدَمُ كَالْقَبِيلَةِ^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ وَقْتِ الزَّوَالِ إِلَى الْعَصْرِ، ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى
لَهُ حَوَاءَ زَوْجَتَهُ مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ الْيُسْرَى وَهُوَ نَائِمٌ، وَسُمِّيَتْ حَوَاءَ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ
حَيٍّ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ وَرَأَاهَا سَكَنَ إِلَيْهَا^(٣)، وَمَدَّ يَدَهُ لَهَا، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَهْ يَا آدَمُ، قَالَ:
وَلِمَ وَقَدْ خَلَقَهَا اللَّهُ لِي؟ فَقَالُوا: حَتَّى تُؤَدِّيَ مَهْرَهَا، قَالَ: وَمَا مَهْرُهَا؟ قَالُوا: تُصَلِّيَ عَلَى
مُحَمَّدٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ الْجَوَازِيِّ فِي كِتَابِ «سَلْوَةِ الْأَحْزَانِ»: أَنَّهُ لَمَّا رَامَ الْقُرْبَ مِنْهَا
طَلَبَتْ الْمَهْرَ مِنْهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! وَمَاذَا أُعْطِيهَا؟ قَالَ: يَا آدَمُ! صَلِّ عَلَى حَبِيبِي
مُحَمَّدٍ بِنِ عِبْدِ اللَّهِ عَشْرِينَ، فَفَعَلَ.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١ / ٤٦٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (١ / ٤٥٩) عن ابن عباس بإسناد منقطع، دون قوله: «وسميت حواء لأنها خلقت من حي». وقد روى ابن سعد في «الطبقات» (١ / ٣٩) عن ابن عباس خلافاً، ولفظه: «إنما سميت حواء لأنها أم كل حي». وباقي الخبر لم أقف عليه.

قُلْتُ: وَلَعَلَّ الثَّلَاثَ كَانَ مَهْرًا مُعْجَلًا، وَالْعِشْرِينَ صَدَاقًا مُؤَجَّلًا.

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ! أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَّا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: لِأَنَّكَ يَا رَبِّ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ، رَفَعْتَ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لِأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ، وَإِذَا سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِهِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ^(١)، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ^(٢)، وَذَكَرَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَزَادَ فِيهِ: «وَهُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ»^(٣).

وَفِي حَدِيثِ سَلْمَانَ عِنْدَ ابْنِ عَسَاكِرَ قَالَ: هَبَطَ جَبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: إِنْ كُنْتُ اتَّخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، فَقَدْ اتَّخَذْتُكَ حَبِيبًا، وَمَا خَلَقْتُ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، وَلَقَدْ خَلَقْتُ الدُّنْيَا وَأَهْلَهَا لِأَعْرِفَ فَهُمْ كِرَامَتَكَ وَمَنْزِلَتَكَ عِنْدِي، وَلَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ الدُّنْيَا^(٤).

وَاللَّهُ دُرُّ الْعَارِفِ الْوَلِيِّ سَيِّدِي عَلِيِّ الْوَفَّيِّ:

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» (٥ / ٤٨٩) وَقَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ عَنْهُ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤٢٢٨) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَهُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ ذَكَرْتَهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي هَذَا الْكِتَابِ. فَتَعَقَّبَهُ الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ: بَلْ مَوْضُوعٌ.

(٣) لَمْ أَجِدْهُ فِي الْمَطْبُوعِ مِنْ كُتُبِ الطَّبْرَانِيِّ، وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِهِ أَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢ / ١٥١).

(٤) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (٢ / ٥١٨)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْمَوْضُوعَاتِ» (١ / ٢١٤) وَقَالَ: مَوْضُوعٌ لَا شَكَّ فِيهِ.

سَكَنَ الْفُؤَادُ عِشْ هَنِئاً يَا جَسَدُ هَذَا النَّعِيمُ هُوَ الْمُقِيمُ إِلَى الْأَبَدِ
 رُوحُ الْوُجُودِ خِيَالٌ مَنْ هُوَ وَاحِدٌ لَوْلَاهُ مَا تَمَّ الْوُجُودُ لِمَنْ وَجَدُ
 عَيْسَى وَآدَمُ وَالصُّدُورُ جَمِيعُهُمْ هُمْ أَعْيُنٌ هُوَ نُورُهَا لَمَّا وَرَدُ
 لَوْ أَبْصَرَ الشَّيْطَانُ طَلْعَةَ نُورِهِ فِي وَجْهِ آدَمَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَجَدُ
 أَوْ لَوْ رَأَى النَّمْرُودُ نُورَ جَمَالِهِ عَبْدَ الْجَلِيلِ مَعَ الْخَلِيلِ وَلَا عِنْدُ
 لَكِنَّ جَمَالَ اللَّهِ جَلٌّ فَلَا يُرَى إِلَّا بِتَخْصِيصٍ مِنَ اللَّهِ الصَّمَدِ

وإنَّما خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى حَوَاءَ لَتَسْكُنَ إِلَى آدَمَ وَيَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَحِينَ صَارَ لَدَيْهَا
 فَاضَتْ بِرَكَاتِهِ عَلَيْهَا، فَوَلَدَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْأَعْوَامِ الْحُسَيْنَى أَرْبَعِينَ وَلَدًا فِي عَشْرِينَ
 بَطْنًا، وَوَضَعَتْ شَيْئًا وَحَدَهُ كَرَامَةً لِمَنْ أَطْلَعَ اللَّهُ بِالنَّبُوءَةِ سَعْدَهُ، وَلَمَّا تُوفِّيَ آدَمُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ كَانَ شَيْئٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصِيًّا عَلَى وَلَدِهِ، ثُمَّ أَوْصَى شَيْئٌ وَلَدَهُ بِوَصِيَّةِ آدَمَ أَنْ
 لَا يَضَعُ هَذَا النُّورَ إِلَّا فِي الْمُطَهَّرَاتِ مِنَ النَّسَاءِ.

وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ جَارِيَةً تُنْقَلُ مِنْ قَرْنٍ إِلَى قَرْنٍ إِلَى أَنْ آدَى اللَّهُ النُّورَ
 إِلَى عَبْدِ الْمُطَلِّبِ وَوَلَدِهِ عَبْدِ اللَّهِ، وَطَهَّرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا النَّسَبَ الشَّرِيفَ مِنْ سِفَاحِ
 الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا وَرَدَ عَنْهُ ﷺ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَرْضِيَّةِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «سُنَّتِهِ»: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا وَلَدَنِي مِنْ
 سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ، مَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحُ الْإِسْلَامِ»^(١).

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ: وَالسِّفَاحُ بِكَسْرِ السِّينِ الْمُهْمَلَةِ: الزَّنى، وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا: أَنَّ
 الْمَرْأَةَ تُسَافِحُ الرَّجُلَ مُدَّةً، ثُمَّ يَتَزَوَّجُهَا بَعْدَ ذَلِكَ.

وَرَوَى ابْنُ سَعْدٍ، وَابْنُ عَسَاكِرَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ السَّائِبِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ

(١) رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٧/ ١٩٠).

أبيه قال: كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ [خمس] مئة أم، فما وَجَدْتُ فِيهِنَّ سِفَاحاً، وَلَا شَيْئاً مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ^(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، لَمْ يُصْنَبْنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ». رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ»، وَأَبُو نَعِيمٍ، وَابْنُ عَسَاكِرَ^(٢).

وَرَوَى أَبُو نَعِيمٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعاً: «لَمْ يَلْتَقِ أَبُو آيٍ قَطُّ عَلَى سِفَاحٍ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَنْقُلُنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الطَّيِّبَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ مُصَفًّى مُهَذَّباً، لَا تَتَشَعَّبُ شُعَبَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا»^(٣).

وعنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٩]؛ قَالَ: مِنْ نَبِيٍّ إِلَى نَبِيٍّ حَتَّى أَخْرَجْتُكَ نَبِيًّا. رَوَاهُ الْبَزَارُ، وَرَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ نَحْوَهُ^(٤).

وفيه تنبيه على أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْتَقَلَ مِنْ أَصْلَابِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ آبَاءَهُ كُلَّهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّهُ خِلَافُ مَا عَلَيْهِ إِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ، وَلَا أَنَّ آبَاءَهُ جَمِيعُهُمْ

(١) رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (١/ ٦٠)، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (٣/ ٤٠٣)، وَمَا بَيْنَ مَعْكُوفَتَيْنِ مِنْهُمَا وَمِنْ «الْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَّةِ».

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٤٧٢٥)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (١٤) مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «تَارِيخِ الْإِسْلَامِ» (٢/ ١٥): وَهُوَ مُنْقَطِعٌ إِنْ صَحَّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، لَكِنْ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ.

(٣) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (١٥).

(٤) رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى» (١/ ٢٥)، وَابْنُ الْبَزَارِ (٢٢٤٢ - كَشَفُ الْأَسْتَارِ)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (١٧)، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (١٢٠٢١)، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (١١٢٤٧): رَوَاهُ الْبَزَارُ وَابْنُ عَسَاكِرٍ، وَرَجَالُهُمَا رَجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرُ شَيْبِ بْنِ بَشْرٍ، وَهُوَ ثِقَةٌ. وَانْظُرْ: «الْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَّةِ» (١/ ٥٥ - ٥٦).

من أهل الإسلام؛ فإنَّ فيهم من أجمع على كُفْرِه الفُقهَاءُ الأعلامُ، كعبدِ المُطَّلِبِ وأبي إبراهيم عليه السَّلام، وأبوهِ كما بيَّنتُ في هذا المَقام، ممَّا أَلْفَتْ في تحقيق هذه المسألة رسالةٌ مُستَقِلَّةٌ، وأتيتُ بالأدلةِ القاطعةِ القامعةِ، في ردِّ ما أَلْفَه السُّيوطيُّ من الرِّسائلِ الثلاثةِ في هذه المادَّةِ اللَّامِعةِ^(١).

ثمَّ قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْفَسِكُمْ﴾؛ أي: من جنسِكُمْ، وهو بشرٌ مثلكم، لكنَّه رسولٌ منَّا مُبلِّغٌ عنَّا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١٤٠]، والحِكْمَةُ فيه: أنَّ الجِنسيَّةَ علَّةُ الانضمام، وبها يحصلُ الالتئامُ وكمالُ النظام، وأيضاً يسهلُ الاقتداءُ به على وَجِهِ التَّمام؛ إذ لو أُرْسِلَ مَلَكٌ لَقِيلَ له: القُوَّةُ المَلَكِيَّةُ، ونحنُ عاجزون عن مُتابعتِهِ لضعفِ البَشَريَّةِ، بخلافِ ما إذا كانَ الرَّسولُ بشراً، فَإِنَّهُ يُقْتَدَى به قولاً وفِعلاً وحالاً وأثراً، فَإِنَّهُ ﷺ واسِطَةٌ بَيْنَ المُرسَلِ والمُرْسَلِ إِلَيْهِ، بأخذِ الفَيضِ من الحقِّ وإيصالِهِ إلى الخلق.

ولم يفهم هذا المعنى، وغفلَ عن هذا المَبْنَى جمعُ من الكُفَّار، حيثُ قالوا بطريقِ الإنكار: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وهذا يدلُّ على سَخافَةٍ عُقُولِهِمْ، حيثُ رَضُوا أن يكونَ الإلهُ حَجَرًا، واستَبَعَدُوا أن يكونَ الرَّسولُ بشراً. والحاصِلُ: أنَّ مَجِيءَ الرَّسولِ نِعْمَةٌ جَسِيمَةٌ، وَكَوْنُهُ من جنسِ البَشَرِ مِنَحَةٌ عَظِيمَةٌ.

وقال بعضهم: قوله: ﴿مَنْ أَنْفَسِكُمْ﴾؛ أي: جنسِ العَرَبِ، وهو لا يُنافي ما

(١) في هامش «ف»: «مما يجبُ أن يُقالَ في هذا المَقام: جَزَى اللهُ السُّيوطيَّ وَمَنْ حَذَا حَذَوَهُ مِنَ الْأُثْمَةِ الحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ خَيْرًا، وسامَحَ اللهُ هذا المُؤَلِّفَ بما رَلَّ به قَدَمُهُ، ويُرجى لكثرةُ علمِهِ أن لا يكونَ [لعلها: حقيقاً] في آخرِ أمرِهِ».

قلت: يشير إلى رسالته: «أدلة معتقد أبي حنيفة في والدي النبي ﷺ»، فانظرها في موضعها وما تم التقديم لها في هذا المجموع.

سَبَقَ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]،
وقد صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَسَانِيدٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إِلَّا وَقَدْ وَلَدَتْ
النَّبِيَّ ﷺ، مُضَرِّبُهَا وَرَبِيعُهَا وَيَمَانِيُهَا^(١).

وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا
وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَتَرَلَّتْ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؛ أَيِ:
أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(٢).

وَقُرِئَ: (مِنْ أَنْفُسِكُمْ) بَفَتْحِ الْفَاءِ؛ أَيِ: مَنْ أَعْظَمَكُمْ قَدْرًا، نَقَلَهُ الْحَاكِمُ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣).

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْذُوقٍ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِنْ أَنْفُسِكُمْ)، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا مَعْنَى (أَنْفُسِكُمْ)؟ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا أَنْفُسُكُمْ نَسَبًا وَصَهْرًا وَحَسَبًا، لَيْسَ فِيَّ وَلَا فِي آبَائِي مِنْ لَدُنْ
آدَمَ سِفَاحٌ، كُلُّنَا نِكَاحٌ»^(٤).

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَنَا
مَحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ
ابْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ
خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرِّ بْنِ نَزَارٍ، وَمَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِرْقَتَيْنِ إِلَّا

(١) رواه ابن عساکر في «تاریخ دمشق» (٣/ ٩٥) من طریق الکلبی عن أبي صالح عن ابن عباس رضي
الله عنهما. والکلبی متروک، وأبو صالح لم یسمع من ابن عباس.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٢٩)، والبخاری (٣٤٩٧).

(٣) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢٩٤٥). والقراءة شاذة.

(٤) انظر: «الدر المنثور» تفسير الآية (١٢٨) من سورة التوبة.

جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يُصنني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً، وخيركم أباً»^(١).

وأخرج أحمد، والترمذي وحسنه، عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حين خلق الخلق جعلني في خير خلقه، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً، وخيرهم نفساً»^(٢).

أي: خيرهم أصلاً ونسباً، وخيرهم ذاتاً وحسباً.

وأخرج الحكيم الترمذي والطبراني وأبو نعيم والبيهقي وابن مردويه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من خيار إلى خيار»^(٣).

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إذا أراد الله أن يبعث نبياً نظر إلى خير أهل الأرض قبيلة، فبعث من خيرها رجلاً»^(٤).

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٧٤).

(٢) رواه من حديث العباس: الترمذي (٢٦٠٧)، ورواه الترمذي أيضاً (٢٦٠٨) لكن من حديث المطلب بن أبي وداعة، ورواية أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٥) من حديث عبد المطلب (ويقال: المطلب) بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وسبب الاختلاف في الحديث هو اضطراب الراوي لهذه الروايات جميعاً، وهو يزيد بن أبي زياد.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦١٨٢)، و«الكبير» (١٣٦٥٠)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٦٩٥٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٧٢).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٤).

وُروى عن زين العابدين علي بن الحسين عن جدّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفعه: «كنتُ نوراً بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يخلُق آدمَ بأربعة عشر ألف عام، فلمّا خلَق الله آدمَ جعلَ ذلك النورَ في صلبه، فلم يزل ينقله من صلب إلى صلب حتّى استقرّ في صلب عبد المطلب»^(١).

وكذا عند القاضي عياض في «الشفاء» بلا سند عن ابن عباس: أن قریشاً^(٢) كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلُق آدمَ بألفي عام، يُسبّحُ ذلك النور، وتُسبّحُ الملائكةُ بتسبيحه، فلمّا خلَق الله آدمَ ألقي ذلك النورَ في صلبه، فقال رسول الله ﷺ: «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله يقلّبني في الأصلاب الكريمة الطاهرة حتّى أخرجني بين أبويّ لم يلتقيا على سفاح قط»^(٣).

ولبعضهم:

حَفِظَ إِلَهُ كَرَامَةٍ لِمُحَمَّدٍ أَبَاءَهُ الْأَمْجَادَ صَوْنًا لِأَسْمِهِ
تَرَكُوا السَّفَاحَ فَلَمْ يُصِبْهُمْ عَائِبٌ مَنِ آدَمَ وَإِلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ
وفي «البخاري» عن أبي هريرة عنه ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»^(٤).

قال السخاوي: فالرسول هو ﷺ سيّد الأولين والآخرين، والملائكة المقرّبين،

(١) لم أقف عليه.

(٢) في هامش «ف»: «كتب المؤلف في الهامش: لعله أنه عليه السلام. وكتب عليه ظ، وبقي عليه إبدال (كانت) بـ (كان)».

(٣) انظر: «الشفاء» (١/ ٧٢)، والحديث رواه الآجري في «الشرعة» (٩٦٠) من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) رواه البخاري (٣٥٥٧).

وَسَنَدُ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمَخْصُوصُ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى يَوْمَ الدِّينِ، مَوْلَانَا أَبُو الْقَاسِمِ وَأَبُو إِبْرَاهِيمَ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَاسْمُهُ شَيْبَةُ الْحَمْدِ.

قِيلَ: وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ: عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ هَاشِمًا قَالَ لِأَخِيهِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ بِمَكَّةَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: أَدْرِكَ عَبْدَكَ بَيْتَرَب^(١).

وَقِيلَ: إِنَّ عَمَّهُ الْمُطَّلِبَ جَاءَ بِهِ إِلَى مَكَّةَ رَدِيفَهُ، وَهُوَ بِهَيْئَةِ بَذَّةٍ، فَكَانَ يُسَأَلُ عَنْهُ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدِي؛ حَيَاءً أَنْ يَقُولَ: ابْنُ أَخِي، فَلَمَّا أَدْخَلَهُ وَأَحْسَنَ مِنْ حَالِهِ أَظْهَرَ أَنَّهُ ابْنُ أَخِيهِ.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَضَبَ بِالسَّوَادِ مِنَ الْعَرَبِ، وَعَاشَ مِئَةً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. ابْنُ هَاشِمٍ؛ وَاسْمُهُ: عَمْرُو، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ: هَاشِمٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَهْشُمُ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ حِينَ الْجَذْبِ.

ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ، تَصْغِيرُ قُصَيٍّ؛ أَيُّ: بَعِيدٍ، لِأَنَّهُ بَعُدَ عَنْ عَشِيرَتِهِ فِي بِلَادِ قُضَاعَةَ حِينَ احْتَمَلَتْ أُمُّهُ فَاطِمَةُ.

ابْنُ كِلَابٍ، وَهُوَ إِمَّا مَنَقُولٌ مِنَ الْمَصْدَرِ الَّذِي فِي مَعْنَى الْمُكَالَبَةِ، نَحْوُ: كَالَبْتُ الْعَدُوَّ مُكَالَبَةً؛ أَيُّ: مُشَارَةً وَمُضَاقِقَةً، وَإِمَّا مِنْ الْكِلاَبِ جَمْعُ كَلْبٍ؛ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْكَثْرَةَ كَمَا تَسْمَوْنَ بِسَبَاعٍ.

وُسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ: لِمَ تَسْمُونُ أَبْنَاءَكُمْ بِشَرِّ الْأَسْمَاءِ نَحْوَ كَلْبٍ وَذَنْبٍ، وَعَبِيدَكُمْ بِأَحْسَنِ الْأَسْمَاءِ نَحْوَ مَرْزُوقٍ وَرَبَاحٍ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا تُسَمِّي أَبْنَاءَنَا لِأَعْدَائِنَا، وَعَبِيدَنَا لِأَنْفُسِنَا، يُرِيدُونَ أَنَّ الْأَبْنَاءَ عُدَّةٌ لِلْأَعْدَاءِ وَسِهَامٌ فِي نُحُورِهِمْ، فَاخْتَارُوا لَهُمْ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ.

(١) لم أقف عليه.

ابن مَرْة، بَضَمَ الميمِ وتشديد الرَّاءِ.

ابن كَعْبٍ، وهو أَوَّلُ مَنْ سَمَّى يَوْمَ الْجُمُعَةِ: يَوْمَ الْعُرُوبَةِ^(١)، وَكَانَ يَخْطُبُ فِيهِ، وَتَجْتَمِعُ قُرَيْشٌ لِسَمَاعِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، وَرُبَّمَا أَنْذَرَ فِي خُطْبَتِهِ بِخُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُعَلِّمُهُمْ بِأَنَّهُ مِنْ وَلَدِهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، وَيَقُولُ:

يَا لَيْتَنِي شَاهِدُ فَخْوَاءَ دَعْوَتِهِ حِينَ الْعَشِيرَةُ تَنْفِي الْحَقَّ خُذْلَانَا
ابن لُؤَيٍّ، تَصْغِيرُ اللَّأْيِ^(٢).

ابن غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ، بِكسْرِ الْفَاءِ، وَاسْمُهُ: قُرَيْشٌ، أَوْ لَقَبُهُ، وَفِهْرٌ اسْمُهُ، وَإِلَيْهِ يَنْتَهِي نَسَبُ قُرَيْشٍ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَلَدِهِ فَلَيْسَ بِقُرَشِيٍّ، بَلْ كِنَانِيٍّ، وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ، وَعَلَيْهِ نُسَابُ قُرَيْشٍ.

ابن مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَقَبُهُ لِنِضَارَةِ وَجْهِهِ، وَاسْمُهُ: قَيْسٌ، وَعِنْدَ كَثِيرِينَ أَنَّهُ جِمَاعُ قُرَيْشٍ.

ابن كِنَانَةَ، بِكسْرِ الْكَافِ أَبُو قَبِيلَةٍ.

ابن خَزِيمَةَ، تَصْغِيرُ خَزْمَةٍ، بِالْخَاءِ وَالزَّاءِ الْمُعْجَمَتَيْنِ.

ابن مُدْرِكَةَ، عَلَى صِيغَةِ الْفَاعِلِ.

(١) كَذَا قَالَ، وَالَّذِي فِي الْمَصَادِرِ خِلَافُهُ؛ أَيِ كَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ: الْعُرُوبَةَ، فَسَمَاهُ كَعْبٌ: الْجُمُعَةُ. انْظُرْ: «أَدَبُ الْكَاتِبِ» لِابْنِ قَتِيْبَةَ (ص ٢٦)، وَ«الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ» لِلْمَاوَرِدِيِّ (ص ١٨٤)، وَ«الْإِكْتِفَاءُ» لِلْكَلاَعِيِّ (١ / ٢٨).

(٢) وَهُوَ الثَّوْرُ. انْظُرْ: «الزَّاهِرُ» لِابْنِ الْأَنْبَارِيِّ (٢ / ١٢٤). وَقَالَ السَّهْلِيُّ فِي «الرُّوُضِ الْأَنْفِ» (١ / ٥٤): وَهُوَ عِنْدِي تَصْغِيرُ لَأْيٍ، وَاللَّأْيُ: الْبُطْءُ، كَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَعْنَى الْأَنَاءِ وَتَرْكِ الْعَجَلَةِ، وَذَلِكَ أَنِّي أَلْفَيْتُهُ فِي أَشْعَارِ بَدْرِ مُكَبَّرًا عَلَى هَذَا اللَّفْظِ فِي شِعْرِ أَبِي أَسَامَةَ، حَيْثُ يَقُولُ:

فَدُونُكُمْ بَنِي لَأْيٍ أَخَاكُمْ
وَدُونُكَ مَالِكَايَا أَمَّ عَمْرُو
وَاسْتَدَلَ بِأَشْعَارِ أُخْرَى تَنْظُرُ فِي كِتَابِهِ.

ابن إلياس، بكسر الهمزة قطعاً في قول ابن الأنباري^(١)، وقيل: بفتحها وضلاً، وهو قول قاسم بن ثابت، ضد الرجاء، باسم النبي المشهور^(٢)، واللام فيه للتعريف، وقال السهيلي: وهذا أصح، ويذكر أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي ﷺ بالحج^(٣).

ويذكر أنه ﷺ قال: «لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً»^(٤)، ذكر ذلك السهيلي في «روضته»^(٥).

وحكى الزبير: أنه كان يُنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم، وكان يقوم فيهم ويعظهم، حتى جمعهم على رآيه، ورضوا به رضى لم يرضوا من أحد بعد أدب، وهو أول من أهدى البدن إلى البيت، ولم تبح العرب نعظمه تعظيم أهل الحكمة^(٦).

ابن مضر، على وزن عمر، قيل: لأنه كان يضير قلب من رآه لحسنه وجماله، وكان حسن الصوت، فاتفق أنه سقط عن بعيره فأصابت يده، وهو يقول: وإيداه وإيداه، فشطت الإبل لسمع صوته ذلك، بحيث كان ذلك أصل الجداء في العرب، وصدق قول القائل: إنه أول من حدا.
ومن كلماته: من يزرع شراً يحصد ندامة، و: خير الخير أعجله.

(١) انظر: «الزاهر» لابن الأنباري (٢ / ١٢٤)، و«الروض الأنف» للسهيلي (١ / ٥٧).

(٢) قوله: «باسم النبي المشهور» كذا وقع هنا في «ف»، وحقه أن يكون مع قول ابن الأنباري بقطع الهمزة المكسورة، وهو الذي جاء عند السهيلي في «الروض الأنف».

(٣) انظر: «الروض الأنف» (١ / ٥٩ - ٦١).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: «الروض الأنف» (١ / ٦١).

(٦) انظر: «أخبار مكة» للفاكهي (٢٩).

وَيُرَوَّى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا تَسْبُوا مُضَرَ وَرَبِيعَةَ - يَعْنِي: أَخَاهُ - فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمِينَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ^(١).

بَلْ يُرَوَّى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعَهُمَا أَيْضاً خُزَيْمَةُ الْمَاضِي، وَمَعْدُ وَعَدْنَانُ وَأُدُدُ وَقَيْسُ وَتَمِيمٌ وَأَسَدُ وَضَبَّةُ، وَأَنَّهُمْ مَاتُوا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، فَلَا تَذْكُرُوهُمْ إِلَّا بِمَا يُذَكَّرُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ^(٢).

ابْنُ نِزَارٍ، بِكسرِ النُّونِ وَتخفيفِ الزَّايِ، مَاخُوذٌ مِنَ النَّزْرِ وَهُوَ الْقَلِيلُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فَرِيدَ عَصْرِهِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَمَّا وُلِدَ وَنَظَرَ أَبُوهُ نَوْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَرِحَ فَرَحاً شَدِيداً، وَأَطْعَمَ طَعَاماً كَثِيراً وَقَالَ: إِنَّ هَذَا كُلَّهُ نَزْرٌ؛ أَي: قَلِيلٌ لِحَقِّ هَذَا الْمَوْلُودِ.

ابْنُ مَعْدَدٍ، بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الدال، وَيُرَوَّى: أَنَّ بُحْتَ نَصَرَ لَمَّا غَزَا بِلَادَ الْعَرَبِ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَرْمِيَا نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ: أَنَّ ابْنَ مَعْدَدٍ فَأَخْرَجَهُ عَنْ بِلَادِهِ وَاحْمَلَهُ إِلَى الشَّامِ، وَتَوَلَّى أَمْرَهُ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ وَلَدِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، ففَعَلَ بِهِ ذَلِكَ.

وَيُرَوَّى: أَنَّ أَوْلَادَهُ لَمَّا بَلَغُوا عَشْرِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَغَارُوا عَلَى عَسْكَرِ مُوسَى، فَانْتَهَبُوهُ فَدَعَا مُوسَى عَلَيْهِمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: لَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ، وَفِي لَفْظٍ: أَنَّهُ دَعَا

(١) رَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْمُنْتَظَمِ» (١/ ٤٠٨) مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعاً، وَأَوْرَدَهُ الدِّلِيلِيُّ فِي «الْفَرْدُوسِ بِمَأْثُورِ الْخَطَّابِ» (٧٣٠٣). قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ حَنْبَلٍ: وَسَأَلْتُهُ - يَعْنِي أَبَاهُ - عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ كَانَ يَحْدُثُ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مَهْرَانَ؟ قَالَ: كَذَابٌ خَبِيثٌ أَعُورٌ يَضَعُ الْحَدِيثَ. انْظُرْ: «تَهْذِيبُ الْكَمَالِ» (٢٥/ ٢٢٣). وَقَالَ الْحَافِظُ فِي «التَّقْرِيبِ»: كَذِبُوه.

وَرَوَاهُ الْبَلَاذُرِيُّ فِي «أَنْسَابِ الْأَشْرَافِ» (١/ ١٣) مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَرْسَلاً.

(٢) رَوَى ابْنُ حَبِيبٍ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: مَاتَ أَدُدُ وَالِدُ عَدْنَانَ، وَعَدْنَانُ، وَمَعْدُ، وَرَبِيعَةُ، وَمُضَرٌ، وَقَيْسُ عِيلَانَ، وَتَمِيمٌ، وَأَسَدُ، وَضَبَّةُ، وَخُزَيْمَةُ، عَلَى الْإِسْلَامِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ. انْظُرْ: «سَبِيلُ الْهُدَى وَالرَّشَادِ» لِلصَّالِحِيِّ (١/ ٢٩١).

فلم يُجِبْ حتَّى فعلُوا ذلك ثلاثاً، فقال: يا ربِّ! دَعَوْتُكَ على قومٍ أغَارُوا علينا فلم تُجِبْنِي فيهم، فقال: يا موسى! دَعَوْتَنِي على قومٍ فيهم خِيرَتِي في آخرِ الزَّمانِ.

ابنِ عدنانَ، بفتحِ العينِ.

والى هنا من النَّسَبِ الشَّرِيفِ لا خِلافَ فيه، وإنَّما الخِلافُ فيمن فوقِ عدنانَ، على أقوالٍ كثيرةٍ مُتباينةٍ جِدًّا، ولذا يُروى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا بَلَغَ في النَّسَبِ إلى عدنانَ أَمْسَكَ وقالَ: «كَذَبَ النَّسَّابُونَ، قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]»، قال ابنُ عَبَّاسٍ: ولو شاءَ [رسولُ] الله أن يَعلِّمَهُ لَعَلِمَهُ^(١).

وقال ابنُ دِحْيَةَ: أَجمَعَ العُلَماءُ - والإجماعُ حُجَّةٌ - على أَنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما انتَسَبَ إلى عدنانَ ولم يتجاوزَهُ.

وفي «مُسْنَدِ الْفِرْدَوْسِ»، عن ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ ﷺ كانَ إذا انتَسَبَ لم يُجاوزَ مَعَدَ ابنَ عدنانَ، ثُمَّ يُمسِكُ ويقولُ: «كَذَبَ النَّسَّابُونَ»^(٢).

وقال السُّهَيْلِيُّ: الأصَحُّ في هذا الحديثِ أَنَّهُ من قولِ ابنِ مَسْعُودٍ^(٣).

وقالَ غيرُهُ: كانَ ابنُ مَسْعُودٍ إذا قرأ قولَه تعالى: ﴿الَّذِي أَنْتَبَأَكُمْ بِنَبَأِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٥٦)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٥) من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً. وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ١٨) وقال: هشام وأبوه متروكان. ونلفظ ابن سعد: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا انتَسَبَ لم يَجاوزَ في نسبهِ مَعَدَ بنِ عدنانَ بنِ أَدَد، ثُمَّ يَمسِكُ ويقولُ: كَذَبَ...».

(٢) لم أجده في المطبوع من «الفردوس»، وانظر التعليق الذي قبله.

(٣) انظر: «الروض الأنف» (١/ ٦٦)، وانظر تخريجه في التعليق الذي بعده.

[إبراهيم: ٩] قَالَ: كَذَبَ النَّسَابُونَ^(١)؛ يعني: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ عِلْمَ الْأَنْسَابِ، وَنَفَى اللَّهُ عِلْمَهَا عَنِ الْعِبَادِ فِي الْكِتَابِ^(٢).

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَنْتَسِبُ إِلَى عَدْنَانَ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ لَا نَدْرِي مَا هُوَ^(٣).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَ عَدْنَانَ وَإِسْمَاعِيلَ ثَلَاثُونَ أَبًا لَا يُعْرَفُونَ^(٤).

وَقَالَ عُروَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَا وَجَدْنَا أَحَدًا يَعْرِفُ بَعْدَ مُعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ^(٥).

وَسُئِلَ مَالِكٌ عَنِ الرَّجُلِ يَرْفَعُ نَسَبَهُ إِلَى آدَمَ، فَكَرِهَ ذَلِكَ وَقَالَ: مَنْ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ؟ وَكَذَا رُوِيَ عَنْهُ فِي رَفْعِ نَسَبِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَعَنْ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّ أَوَّلَ مَا ذُكِرَ مِنْ فُضَائِلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: أَنَّ قُرَيْشًا خَرَجَتْ مِنَ الْحَرَمِ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ الْفِيلِ، وَقَالَ هُوَ: وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ٥٦)، والطبري في «تفسيره» (١٣ / ٦٠٤).

(٢) وخالف ابن عبد البر هذا المعنى من الآية الذي ذهب إليه ابن مسعود وبعض السلف، فقال في «الإنباء على قبائل الرواة» (ص ١٩): «وكان قوم من السلف منهم عبد الله بن مسعود وعمر بن ميمون الأودي ومحمد بن كعب القرظي إذا تلووا: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ قالوا: كذب النسابون، ومعنى هذا عندنا على غير ما ذهبوا إليه، وإنما المعنى فيها - والله أعلم - تكذيب من ادعى إحصاء بني آدم، فإنه لا يحصيهم إلا الذي خلقهم، فإنه هو الذي أحصاهم وحده لا شريك له، والله أعلم، وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمهاات قبائلها واختلفوا في بعض فروع ذلك.

(٣) انظر: «الروض الأنف» (١ / ٦٦)، ورواه خليفة في «الطبقات» (ص ٢)، وفي إسناده ابن لهيعة، وهو سيع الحفظ.

(٤) انظر: «الروض الأنف» (١ / ٨٤)، ورواه خليفة بن خياط في «الطبقات» (ص ٣) دون قوله: «لا يعرفون»، وفي إسناده هشام عن أبيه محمد بن السائب الكلبي، وهما متروكان كما تقدم. وقال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١ / ٢٦): «وليس هذا الإسناد بما يُقَطَّعُ بصحته، ولكنه عَمَّنْ عِلْمُ الْأَنْسَابِ صُنْعُهُ.

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ٥٨)، وفي إسناده ابن لهيعة.

من حَرَمَ الله أبغي العزَّ في غيره، ولا أبغي سواه عنه تَبْدِيلًا^(١)، وأقامَ عندَ البيتِ المُحْتَرَمِ حتَّى كانَ من أمره معَ صاحبِ الحبْشة حينَ خرَجَ إليه مَطْلُوباً ما عَظُمَ به عنده وعندَ قومه أولي الوجاهة والكرم^(٢).

وأهلكَ اللهُ سُبْحانَه الحبْشةَ وردَّهم عن بيتِه، وأزالَ عن أهله تلكَ الوَحْشةَ، وكانَ السَّقَايَةُ والرَّفَادَةُ لعبِدِ الْمُطَلَّبِ بعدَ عَمِّه الْمُطَلَّبِ، فإنَّه أقامَ لِقَوْمِهِ ما كانَ آباؤُهُ يُقيمُونَه لهم من قبله، فَشَرُفَ بِذلكَ شَرَفاً لم يبلُغْهُ آباؤُهُ، ولا وَصَلَ أَحَدٌ منهم إلى مثله، وأحبَّه قومه وعَظُمَ خَطَرُهُ فيهم، واعتمَدوا في إرشادِهِم وتَنبيهِهِم.

والرَّفَادَةُ: شيءٌ كَانَتْ قُرَيْشٌ في الجاهليَّةِ تَتَخَارَجُهُ من بينِهِم على قَدَرِ طاقتِهِم، بحيثُ يَجْمَعُ من ذلكَ شيءٌ كثيرٌ، ثُمَّ يَشْتَرُونَ به طَعاماً وزَيْباً لِلنَّبِيذِ، وَيُطْعِمُونَ النَّاسَ، وَيَسْقُونَهُم أَيَّامَ مَوْسِمِ الْحَجِّ حتَّى يَنْقُضِيَ.

ويُروى عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أنا ابنُ الذَّيْحَيْنِ»^(٣)، يعني بهما جدَّه إِسماعيلَ، وأباه عبدَ اللهِ.

والقِصَّةُ أَخْرَجَها الطَّبْرَانِيُّ من طريقِ ابنِ وهبٍ عن أسامةَ بنِ زَيْدٍ عن الزُّهريِّ عن قَبِيصَةَ بنِ ذُوَيْبٍ: أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ عَبَّاسٍ قَالَ: كانَ عبدُ الْمُطَلَّبِ نَذَرَ إنْ كَمُلَ لَهُ عَشْرَةُ من الْوِلْدَانِ يَنْحَرُ أَحَدَهُمْ، فَلَمَّا كَمُلَ عَشْرَةُ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ، أَيُّهُمْ يَنْحَرُ؟ فَطَارَتْ

(١) في «ف»: «بديل».

(٢) رواه بنحوه الأزرق في «أخبار مكة» (٢/ ٤٢).

(٣) قال الولي العراقي كما في «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٥٥)، و«روح المعاني» (٢٣/ ١٥٣):

«لم أقف عليه». قلت: ولعل أصله ما رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٩٧-٥٩٨)، والحاكم في

«المستدرک» (٤٠٣٦)، عن معاوية في قصة فيها: أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: يا ابن الذيحين، فتبسّم

رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه. لكن قال السيوطي في «الحاوي» (١/ ٣٠٧)، والآلوسي في «روح

المعاني» (٢٣/ ١٥٣): في إسناده من لا يعرف حاله.

الْقُرْعَةُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ هُوَ أَوْ مِثْلُهُ مِنَ الْإِبْلِ، ثُمَّ أَقْرَعَ فَطَارَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى الْمِثْلِ مِنَ الْإِبْلِ^(١).

وَذَكَرَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ: أَنَّهُ نَحَرَهَا وَتَرَكَهَا لِلنَّاسِ فَأَخَذُوهَا.

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَصَارَتْ الدِّيَةُ مَشْرُوعَةً بِتَعْيِينِ مِثْلٍ مِنَ الْإِبْلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَشْرَةً، وَلِهَذَا اقْتَصَرَ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ فِي الْقُرْعَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ، حَيْثُ كَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَزِيدُ عَشْرَةً، ثُمَّ عَشْرَةً، إِلَى أَنْ صَارَتْ مِثْلًا، فَجَاءَتْ عَلَيْهَا الْقُرْعَةُ.

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ: وَكَانَ سَبَبُ نَذْرِهِ^(٢) حَفَرُ أَبِيهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ زَمْزَمَ؛ لِأَنَّ الْجُرْهُمِيَّ عَمْرَو بْنَ الْحَارِثِ لَمَّا أَحْدَثَ قَوْمُهُ بِحَرَمِ اللَّهِ الْحَوَادِثَ، وَقَبِضَ اللَّهُ لَهُمْ مَنْ أَخْرَجَهُمْ مِنْ مَكَّةَ، فَعَمِدَ عَمْرُو إِلَى نِفَائِسَ فَجَعَلَهَا فِي زَمْزَمَ وَبَالِغَ فِي طَمَّهَا، وَفَرَّ إِلَى الْيَمَنِ بِقَوْمِهِ، فَلَمْ تَزَلْ زَمْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ مَجْهُولَةً إِلَى أَنْ رُفِعَتْ عَنْهَا الْحُجُبُ بِرُؤْيَا مَنْ أَرَاهَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، دَلَّتْهُ عَلَى حَفْرِهَا بِأَمَارَاتٍ عَلَيْهَا، فَمَنَعَتْهُ قُرَيْشٌ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ آذَاهُ مِنَ السُّفَهَاءِ مَنْ آذَاهُ، وَاشْتَدَّ بِذَلِكَ بَلَوَاهُ، وَمَعَهُ وَلَدُهُ الْحَارِثُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ، فَتَذَرَّ لَيْثُ جَاءَهُ عَشْرَةُ بَنِينَ، وَصَارُوا لَهُ أَعْوَانًا، لِيَذْبَحَنَّ أَحَدَهُمْ قُرْبَانًا، ثُمَّ احْتَفَرَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ زَمْزَمَ فَكَانَتْ لَهُ فَخْرًا وَعِزًّا^(٣).

وَذَكَرَ الْبَرْقِيُّ فِي سَبَبِ تَرْوِيجِ عَبْدِ اللَّهِ بِأَمْنَةٍ: أَنَّ جَدَّهُ كَانَ يَأْتِي الْيَمَنَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ عَظِيمٍ مِنْ عَظَمَائِهِمْ، فَتَزَلْ عِنْدَهُ مَرَّةً فَإِذَا عِنْدَهُ رَجُلٌ مِمَّنْ قَرَأَ الْكِتَابَ، فَقَالَ لَهُ: ائْذَنْ لِي

(١) لَمْ أَجِدْهُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ، وَرَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «التَّارِيخِ» (١/ ٤٩٧).

(٢) قَوْلُهُ: «وَكَانَ سَبَبُ نَذْرِهِ» كَذَا فِي «ف»، وَالَّذِي فِي «الْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَّةِ»: «وَكَانَ سَبَبُهَا»؛ أَيِ: سَبَبِ قِصَّةِ نَذْرِ ذَبْحِ عَبْدِ اللَّهِ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ سِيَاقِهِ.

(٣) انْظُرْ: «الْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَّةِ» (١/ ٦٥).

أَفْتَشَّ مَتَجَرَكَ فَقَالَ: دُونَكَ فَاَنْظُرْ، فَقَالَ: أَرَى نُبُوَّةً وَمُلْكًا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ؛
يعني عبد مناف بن قُصَيٍّ، وعبد مناف بن زُهْرَةَ، فَلَمَّا انصَرَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ انطلقَ بَابِنِهِ
عَبْدُ اللَّهِ، فَزَوَّجَهُ بِأَمْنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ بْنِ زُهْرَةَ أُمِّ حَمْزَةَ.

قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: وَأَعْطَى اللَّهُ أَمْنَةَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ النُّورِ وَالْبَهَاءِ وَالْوَقَارِ وَالْجَمَالِ
وَالْكَمَالِ مَا كَانَتْ تُدْعَى بِهِ سَيِّدَةً قَوْمِهَا، وَبَقِيَ عَبْدُ اللَّهِ وَالنُّورُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ لَا يَخْرُجُ حَتَّى
أُذِنَ لِلنُّورِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ.

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: كَانَ
عَبْدُ اللَّهِ مِنْ أَحْسَنِ فَتَى فِي قُرَيْشٍ، فَمَرَّ بِنِسْوَةٍ مُجْتَمِعَاتٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ:
يَا نِسَاءَ قُرَيْشٍ! أَيْتَكُنَّ تَتَزَوَّجُ هَذَا الْفَتَى فَتَصْطَادَ النُّورَ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ؟ قَالَ:
فَتَزَوَّجَ أَمْنَةَ فَحَمَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: لَمَّا تَزَوَّجَ عَبْدُ اللَّهِ أَمْنَةَ كَانَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَقِيلَ: ابْنُ
خَمْسٍ وَعَشْرِينَ^(٢).

وَقَالَ غَيْرُهُ: ثَمَانِيَةَ عَشَرَ.

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَهُوَ الرَّاجِحُ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ فِيمَا رَوَاهُ
الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ الْحَافِظُ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَذَلِكَ فِي
لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ مِنْ رَجَبٍ، أَمَرَ اللَّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ رِضْوَانَ خَازِنَ الْجَنَانِ أَنْ يَفْتَحَ
أَبْوَابَ الْفِرْدَوْسِ وَيُنَادِيَ مُنَادٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ: أَلَا إِنَّ النُّورَ الْمَخْزُونِ
الْمَكْنُونِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ الْهَادِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ يَسْتَقِرُّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
الَّذِي فِيهِ يَتِمُّ خَلْقُهُ، وَيَخْرُجُ إِلَى النَّاسِ نَذِيرًا^(٣).

(١) رواه البيهقي في «الدلائل» (١ / ٨٧).

(٢) انظر: «الاستيعاب» (١ / ٢٨).

(٣) أورده ابن جماعة في «المختصر الكبير في سيرة الرسول» (ص ٢٠).

وذكر الزبير بن بكار: أنه كان في أيام التشريق في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى.

وللواقدي من جهة [علي بن يزيد بن عبد الله بن] وهب بن زمعة، [عن أبيه]، عن عمته قالت: كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به أمه آمنة كانت تقول: ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت ثقلاً كما تجد النساء، إلا أني أنكرت رفع خيضي، ورأيتما كانت تقول: وأتاني آت وأنا بين التائم واليقظان فقال: هل شعرت أنك حملت؟ فكأنني أقول: ما أدري، فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبیها، وسميه محمداً، وذلك يوم الإثنين^(١).

ولابن حبان في «صحيحه» من حديث عبد الله بن جعفر، عن حليلة السعدية مرضعته، أن آمنة قالت لها: إن لابني هذا شأنًا، إنني حملت حملاً، فلم أحول حملاً قط كان أخف علي ولا أعظم بركة منه، ثم رأيت نوراً كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت له أعناق الإبل ببصرى من أرض الشام، ثم وضعته فما وقع كما يقع الصبيان، وقع واضعاً يده بالأرض رافعاً رأسه إلى السماء^(٢).

وفي «صحيح ابن حبان»، و«مستدرک الحاكم»، و«مسند أحمد»، وغيرهم عن العرياض بن سارية السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبیین، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة إبراهيم، وبشرى أخيه عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأيت أنه خرج منها حين وضعت نوراً أضاءت له قصور الشام»^(٣).

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٩٨) - ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (٢/ ٢٤٢) - عن شيخه الواقدي، وما بين معكوفتين منهما. وهذا إسناد منقطع.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٣٣٥).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠٤)، والحاكم في =

قَالَ السَّخَاوِيُّ: قَوْلُهُ «بِبُصْرَى»، قَالَ شَيْخُنَا: يَحْتَمَلُ أَنْ يُقْرَأَ بِضَمِّ الْمُوحَّدَةِ وَسُكُونِ الْمُهْمَلَةِ مَقْصُورًا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُقْرَأَ: بِبَصْرِي، بِفَتْحِ الْبَاءِ وَالصَّادِ؛ أَيْ: أَنَّهَا رَأَتْ رُؤْيَا عَيْنٍ بِبَصْرِهَا.

قَالَ: وَبُصْرَى عَلَى الْأَوَّلِ بِلَدَّةٍ مَعْرُوفَةٌ بِطَرَفِ الشَّرْقِ مِنْ عَمَلِ دِمَشْقَ، مِمَّا يَلِي حَوْرَانَ، وَهِيَ قَصَبَةٌ مِنْ جِهَةِ الْحِجَازِ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّامِ نَحْوُ مَرَحَلَتَيْنِ، وَالنُّكْتَةُ فِي تَخْصِيصِهَا بِالذِّكْرِ - مَعَ أَنَّهُ فِي رِوَايَةٍ: (أَضَاءَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)، وَفِي لَفْظٍ: (الْأَرْضِ)، وَهُمَا أَشْمَلٌ - كَوْنُهُ ﷺ وَصَلَ بِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ إِلَيْهَا وَمَا جَاوَزَهَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْإِشَارَةُ إِلَى مَا خُصَّ الشَّامُ بِهِ مِنْ نُورِ نُبُوتِهِ، فَإِنَّهَا دَارُ مُلْكِهِ كَمَا ذَكَرَ أَنَّ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ، وَمُهَاجَرُهُ يَثْرِبَ، وَمُلْكُهُ بِالشَّامِ^(١). فَمِنْ مَكَّةَ بَدَأَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِلَى الشَّامِ تَنْتَهَى، وَلِهَذَا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ مِنَ الشَّامِ، كَمَا هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَهُ إِلَى الشَّامِ. بَلْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا مِنَ الشَّامِ، فَإِنْ لَمْ يُبْعَثْ مِنْهَا هَاجَرَ إِلَيْهَا، وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ يَسْتَقِرُّ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ بِالشَّامِ، فَيَكُونُ نُورُ النُّبُوَّةِ فِيهَا أَظْهَرَ مِنْهُ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ، أَنْتَهَى.

وَمَا وَقَعَ مِنْ اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي خُرُوجِ النُّورِ، أَهْوَ حِينَ الْحَمَلِ أَوْ الْوَضْعِ؟ لَا مَانِعَ مِنْ وَقُوعِهِ فِي الْوَقْتَيْنِ، وَإِنْ كَانَتِ الرِّوَايَةُ حِينَ الْوَضْعِ أَوْلَى بِالِاتِّصَالِ^(٢). وَبِالْجُمْلَةِ: فَهَذَا النُّورُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا يَجِيءُ بِهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي اهْتَدَى بِهِ

= «المستدرک» (٤١٧٥). وقد تقدمت قطعة منه.

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٦٠)، وابن شبة في «أخبار المدينة» (١٠٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٨٧)، عن كعب الأخبار.

(٢) انظر ما تقدم قريباً من حديث حليلة والعرباض رضي الله عنهما.

أَهْلُ الْأَرْضِ، وَامْتِدَادِ مَلِكٍ أَمَّتِهِ وَدِينِ مِلَّتِهِ إِلَى الْأَفَاقِ بِالطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَهُوَ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، بَحِثُ زَالَتْ بِهِ ظُلْمَةُ الشَّرِكِ مِنْهَا وَالضَّلَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ^(١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]، وَقَالَ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وَقَدْ قَالَ ﷺ كَمَا فِي «مُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِ عَنْ ثَوْبَانَ: «زُوِيَتْ - أَي: جُمِعَتْ - لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَسَيَلُّغُ مَلِكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ مِنْهَا»^(١). وَقَوْلُهَا: (فَلَمْ أَحْمِلْ حَمْلًا كَانَ أَخْفَ عَلَيَّ مِنْهُ)، يُفْهَمُ أَنَّهَا حَمَلَتْ بِغَيْرِهِ، سَيِّمًا وَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ - مِمَّا هُوَ أَصْرَحُ مِنْهُ - حَدِيثُ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ النَّبِيِّ ﷺ: قَدْ حَمَلْتُ الْأَوْلَادَ فَمَا حَمَلْتُ^(٢).

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَهَذَا مِمَّا لَا يُعْرَفُ عِنْدَنَا، وَلَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلَمْ تَلِدْ أَمْنَةً وَلَا عَبْدًا لِلَّهِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٣). قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَحَدَّثَنِي - يَعْنِي: ابْنُ أَخِي الزُّهْرِيُّ - عَنْ عَمِّهِ قَالَ: قَالَتْ أَمْنَةُ: لَقَدْ عَلِقْتُ بِهِ، فَمَا وَجَدْتُ لَهُ مَشَقَّةً حَتَّى وَضَعْتُهُ^(٤).

وَهُوَ عِنْدَ غَيْرِهِ^(٥) بِلَفْظٍ: مَا شَعَرْتُ بِهِ وَلَا وَجَدْتُ لَهُ ثِقَلًا كَمَا تَجِدُ النِّسَاءَ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٨٩).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» (٩٨ / ١).

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

(٥) أَي: غَيْرَ الزُّهْرِيِّ، فَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ (٩٨ / ١) عَنْ شَيْخِهِ الْوَاقِدِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ =

قال السَّخَاوِيُّ: وَاللَّفْظَانِ يُمَكِّنُ التَّأْوِيلَ فِيهِمَا عَلَى أَنَّ مَا سَبَقَ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِنْ كَانَ هُوَ ابْنُ طَلْحَةَ فَهُوَ مُرْسَلٌ رِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ، لَا يَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ أَمَنَةٌ أَسْقَطَتْ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سِقْطًا، فَأَشَارَتْ بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَبِهِ تَجْتَمِعُ الرِّوَايَاتُ إِنْ قَبِلْنَا كَلَامَ الْوَاقِدِيِّ.

وقد قال ابنُ الجوزِيِّ: أَجْمَعَ عُلَمَاءُ النَّقْلِ عَلَى أَنَّ أَمَنَةً لَمْ تَحْمِلْ بَغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ. فَقَوْلُهَا: (لَمْ أَحْمِلْ) خَرَجَ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالِغَةِ، أَوْ عَلَى أَنَّهُ وَقَعَ اتِّفَاقًا، وَالْجَمْعُ الَّذِي قِيلَ أَنْسَبُ.

وَأَمَّا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُشِيرُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ لَمَّا شَرَعَ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ الْبَلَدَ آمِنًا، وَيَجْعَلَ أَفْئِدَةَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَيُرْزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا وَأَنْبِئْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فِي هَذَا النَّبِيِّ ﷺ، وَجَعَلَهُ الرَّسُولَ الَّذِي سَأَلَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعَاهُ أَنْ يُبْعَثَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَضَى أَنْ يَجْعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَأَثْبَتَ ذَلِكَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ، أَنْجَزَ هَذَا الْقَضَاءَ بِأَنْ قَبِضَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلدُّعَاءِ الَّذِي ذَكَرَهُ؛ لِيَكُونَ إِرْسَالُهُ إِيَّاهُ بِدُعَائِهِ، كَمَا يَكُونُ نَقْلُهُ مِنْ صُلْبِهِ إِلَى أَصْلَابِ أَوْلَادِهِ.

وَأَمَّا بُشْرَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُشِيرُ بِهَا إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ بِهِ، فَبَشَّرَ بِهِ ﷺ قَوْمَهُ، فَعَرَفَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ، كَمَا حَكَى تَعَالَى عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ رَسُولٍ يُأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَخْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال السَّخَاوِيُّ: وَقَدْ كَانَتِ السَّنَةُ الَّتِي حُمِلَ فِيهَا بِهِ ﷺ - فِيمَا نُقِلَ - سَنَةً شَدِيدَةً

الجَذْبِ وَالصِّيْقِ عَلَى قُرَيْشٍ، فَاخْضَرَّتْ لَهُمُ الْأَرْضُ، وَحَمَلَتِ الْأَشْجَارُ، وَأَخْصَبَ أَهْلُ مَكَّةَ خَضْباً عَظِيماً، بَحِثُ سُمَيْتِ سَنَةِ الْفَتْحِ وَالْإِتِهَاجِ، وَأَتَاهُمُ الْوَفْدُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ بِهَذَا الْإِفْرَاجِ.

وَعَبْدُ الْمُطَّلَبِ - وَهُوَ يَوْمُئِذٍ صَاحِبُ أَحْكَامِ قُرَيْشٍ وَسَائِرِ الْعَرَبِ - يَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَوَشِّحاً يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنِّي أَنْظَرُ إِلَى تَمَثَالِ شَخْصٍ مُثْمَلًا بَيْنَ عَيْنَيَّ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ نُورٍ كَامِلٍ، لَا أَمَلُ رُؤْيَاهُ، وَتَجَعَّدُ قُرَيْشُ رُؤْيَاهُ كَذَلِكَ، إِمَّا حَسِداً أَوْ عَمَى.

بَلْ نُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ لِقُرَيْشٍ نَطَقَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَالَتْ: حُمِلَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَهُوَ إِمَامُ الدُّنْيَا وَسِرَاجُ أَهْلِهَا، وَلِذَا لَمْ يَبْقَ كَاهِنَةٌ فِي قُرَيْشٍ، وَلَا قَبِيلَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ إِلَّا حُجِّبَتْ عَنْ صَاحِبِهَا، وَانْتَرَعَ عِلْمُ الْكَهَنَةِ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ سَرِيرٌ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا إِلَّا أَصْبَحَ مَنكُوساً، وَأَصْبَحَ كُلُّ مَلِكٍ آخِرَسَ لَا يَنْطِقُ يَوْمَهُ ذَلِكَ، وَمَرَّتْ وَخَشَّ الْمَشَارِقُ إِلَى وَخَشَّ الْمَغَارِبُ بِالْبِشَارَاتِ، وَكَذَا بَشَّرَ أَهْلُ الْبَحَارِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَنُودِيَ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ شُهُورِهِ فِي كُلِّ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: أَنْ أَبْشِرُوا، فَقَدْ آنَ لِأَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْأَرْضِ مَيِّمُوناً مُبَارَكاً^(١).

قَالَ: وَبَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، لَا تَشْكُو وَجَعاً وَلَا رِيحاً، وَلَا مَا يَعْرِضُ لِلنِّسَاءِ ذَوَاتِ الْحَمْلِ^(٢).

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: وَفِي غُضُونِ هَذَا الْحَمْلِ الْمُكْمَلِ بَعَثَ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ بَابِنَهُ عَبْدَ اللَّهِ إِلَى غَزَاةٍ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ يَمْتَارُ لَهُمْ طَعَاماً مَعَ تَجَارِ قُرَيْشٍ، وَلَمَّا رَجَعُوا مَرَضَ

(١) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٥٥٥)، وَنَقَلَهُ عَنْ أَبِي نَعِيمٍ: السَّيُوطِيُّ فِي «الْخَصَائِصِ الْكُبْرَى»

(١ / ٨١). قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (٦ / ٢٩٩): وَهُوَ غَرِيبٌ جَدّاً.

(٢) لَيْسَتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ فِي رَوَايَةِ أَبِي نَعِيمٍ، وَذَكَرَهَا السَّيُوطِيُّ فِي «الْخَصَائِصِ الْكُبْرَى» (١ / ٨١)

فتخلفَ لذلك بالمدينة النبوية عند أحوال أبيه، بني عدي بن النجار شهراً، ثم مات بالمدينة، ودُفِنَ في دارِ النَّابِغَةِ^(١).

وعند ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب: أنه بعثه يمتار لهم تمرًا من يثرب فمات بها^(٢).

وهذا القول هو الذي رجَّحه ابن إسحاق^(٣)، ورواه ابن سعد أيضاً^(٤)، وجزم به الزبير بن بكار، وغير واحد.

وقال ابن الجوزي: هو الذي عليه معظم أهل السير^(٥)، وأطلق غيره عزوه للجُمهور.

وقال بعضهم: مات بعد وضعه، فقد أخرجه يحيى بن سعيد الأموي في «المغازي» من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي أحد الضعفاء عن الزهري عن سعيد بن المسيب: أن آمنه لما وضعت أمراً عبد المطلب ابنه عبد الله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب، فطاف به حتى استأجر حليلة على إرضاعه.

وذكر: أنه أقام عندهم ست سنين، حتى كان من شق صدره ما كان، فردته إلى أمه ﷺ^(٦).

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٩٩ / ١) عن شيخه الواقدي عن موسى بن عبيدة الربذي عن محمد بن كعب، وعن سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: ...، فذكره بنحوه. وقوله: «ودُفِنَ في دارِ النَّابِغَةِ» وقع في «ف» عقب خبر الزهري، والصواب المثبت؛ لأنه قطعة من هذا الخبر لا من خبر الزهري.

(٢) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٨٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١ / ١٨٧).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١ / ١٥٨).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٩٩ / ١).

(٥) انظر: «صفة الصفوة» (١ / ٢١).

(٦) ذكره عن الأموي: ابن كثير في «السيرة النبوية» (١ / ٢٣٢).

وَاخْتَلَفُوا كَمَا كَانَ سِنُّهُ حِينَئِذٍ، فَقِيلَ: كَانَ ابْنُ سَتَيْنِ وَأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، حَكَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ^(١)، وَقِيلَ: كَانَ ابْنُ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ، حَكَاهُ ابْنُ سَعْدٍ^(٢).

وَيُقَالُ: إِنَّ عَبْدِ اللَّهِ خَرَجَ وَهُوَ فِي هَذَا السَّنِّ إِلَى أَخْوَإِلِ أَبِيهِ بِالْمَدِينَةِ زَائِرًا، فَتُوفِّيَ بِهَا.

وَيُقَالُ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: إِلَهَنَا وَسَيِّدَنَا بَقِيَ نَبِيُّكَ يَتِيمًا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: أَنَا لَهُ وَلِيٌّ وَحَافِظٌ وَنَصِيرٌ.

وَقِيلَ لَجَعْفَرِ الصَّادِقِ: لِمَ يُتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَبِيهِ؟ فَقَالَ: لَعَلَّا يَكُونَ عَلَيْهِ حَقٌّ لِمَخْلُوقٍ. نَقَلَهُ عَنْهُ أَبُو حَيَّانَ فِي «الْبَحْرِ»^(٣).

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَقَدْ خَلَفَ أَبُوهُ جَارِيَتَهُ أُمَّ أَيْمَنَ بَرَكَةَ الْحَبَشِيَّةِ، وَخَمْسَةَ أَجْمَالٍ، وَقِطْعَةً عَنَمٍ، فَوَرِثَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَحْضُنُهُ.

ثُمَّ إِنَّ الْخُؤُولَةَ الْمُشَارَإِلِيهَا كَوْنُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ تَزَوَّجَ فِي الْمَدِينَةِ سَلْمَى ابْنَةَ عَمْرِو، أَحَدِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ، فَوُلِدَتْ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ فِي حَدِيثِ الْهَجَرَةِ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنِّي أَنْزَلُ عَلَى [بَنِي النَّجَّارِ] أَخْوَإِلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَكْرَمُهُمْ بِذَلِكَ»^(٤).

وَأَمَّا مَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى مِنْ قَوْلِهِ: «نَزَلَ عَلَى أَخْوَإِلِهِ»، أَوْ قَالَ: «عَلَى

(١) انظر: «سيرة ابن إسحاق» (١ / ٢٢).

(٢) حكى القولين ابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٠٠) عن محمد بن السائب الكلبي وعن عوانة بن الحكم قالاً: توفي عبد الله بن عبد المطلب بعدما أتى على رسول الله ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، ويقال: سبعة أشهر. قال ابن سعد: والأول أثبت، أنه توفي ورسول الله ﷺ حمل.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٨ / ٤٨١)، ونقله أبو حيان عن ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥ / ٤٩٤).

(٤) رواه مسلم (٢٠٠٩ / ٧٥) كتاب الزهد والرفائق من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وما بين معكوفتين منه.

أجداده^(١)؛ فالشك فيه من رواية أبي إسحاق السبيعي، وأياً ما كان فمجازاً، فالخوولة من جهة الأمومة، والتزول إنما كان على بني مالك بن النجار، لا على بني عدي.

وروى البيهقي في «الدلائل»، والطبراني وأبو نعيم، من طريق محمد بن أبي سويد الثقفي، عن عثمان بن أبي العاص، حدثني أمي فاطمة ابنة عبد الله الثقفي إحدى الصحابيات: أنها حضرت أمانة لما ضربها المخاض ليلاً، قالت: فجعلت أنظر إلى النجوم تدلي وتدنو، حتى قلت: ليغن علي، فلما ولدت خرج منها نور أضاء له البيت والدائر^(٢).

قال ابن سعد: أخبرنا الهيثم بن خارجة، ثنا يحيى بن حمزة، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية: أن النبي ﷺ لما ولد وقع على كفيه وركبتيه، شاخصاً بصره إلى السماء^(٣). وهو مرسل قوي.

ومن مرسل إسحاق بن أبي طلحة: أن أمانة قالت: وضعته نظيفاً، ما^(٤) ولدته كما يولد السخل - أي: المولود المحبب إلى أهله - ما به قدر، [ووقع إلى الأرض] وهو جالس على الأرض بيده^(٥).

ولأبي الحسين بن بشران، عن ابن السماك، أنا أبو الحسن بن البراء، قال: قالت أمنة: ولدته جائياً على ركبتيه ينظر إلى السماء، ثم قبض قبضة من الأرض، وأهوى ساجداً، قالت: وكببت عليه إناءً، فوجدته قد انفلق الإناء وهو يمص إبهامه يشخب لبناً^(٦).

(١) رواه البخاري (٤٠) من طريق أبي إسحاق السبيعي عن البراء رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٥ / ١٤٧ و ١٨٦)، وأبو نعيم في «معركة الصحابة» (٧٠٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١ / ١١١).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٠٣).

(٤) كلمة «ما» ليست في مطبوع «الطبقات».

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٠٢).

(٦) رواه ابن الجوزي في «المنتظم» (٢ / ٢٤٨).

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَكَانَتْ آمَنَةٌ لَمَّا وَضَعَتْهُ ﷺ أُرْسِلَتْ إِلَى جَدِّهِ أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ لَكَ اللَّيْلَةُ غُلَامٌ فَاظْطُرْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ خَبْرَهُ، وَحَدَّثَتْهُ بِمَا رَأَتْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ، فَأَخَذَهُ وَقَامَ يَدْعُو اللَّهَ وَيَشْكُرُهُ لِمَا أَعْطَاهُ، وَيَقُولُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي هَذَا الْغُلَامَ الطَّيِّبَ الْأُرْدَانِ
قَدْ سَادَ فِي الْمَهْدِ عَلَى الْغُلَمَانِ أَعْيَدَهُ بِالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ^(١)
وَذَهَبَتْ ثُوبِيَّةُ جَارِيَةُ أَبِي لَهَبٍ عَمَّهُ ﷺ فَبَشَّرَتْهُ أَنَّهُ وُلِدَ لِأَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ غُلَامٌ
فَاعْتَقَهَا فِي الْحَالِ.

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ: وَهِيَ مِمَّنْ أَرْضَعْنَهُ ﷺ، قَالَ: وَقَدْ رُئِيَ أَبُو لَهَبٍ بَعْدَ مَوْتِهِ فِي النَّوْمِ فَقِيلَ لَهُ: مَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: فِي النَّارِ، إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِّي كُلَّ لَيْلَةٍ اثْنَيْنِ، وَأَمَصُّ مِنْ بَيْنِ أَصْبُعَيْ هَاتَيْنِ مَاءً، وَأَشَارَ لِرَأْسِ أَصْبُعِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَاعْتَاقِي لثُوبِيَّةَ عِنْدَمَا بَشَّرْتَنِي بِوِلَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَبِارْضَاعِهَا لَهُ^(٢).

قَالَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ: فَإِذَا كَانَ هَذَا أَبُو لَهَبٍ الْكَافِرُ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنُ بِذَمِّهِ جُوزِي فِي النَّارِ بِفَرْجِهِ لَيْلَةَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ، فَمَا حَالُ الْمُسْلِمِ الْمُوَحِّدِ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُسَرُّ بِمَوْلَدِهِ، وَيَبْذُلُ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ قُدْرَتُهُ فِي مُحِبَّتِهِ ﷺ؟ لَعَمْرِي إِنَّمَا يَكُونُ جَزَاؤُهُ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ أَنْ يُدْخِلَهُ بِفَضْلِهِ الْعَمِيمِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ^(٣).

(١) انظر: «سيرة بن إسحاق» (١/ ٢٢). ورواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٣) عن الواقدي عن علي

ابن يزيد بن عبد الله بن وهب بن زمعة، عن أبيه، عن عمته قالت: «ولما ولدت أمنة...». وإسناده منقطع.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٩). وروى نحوه البخاري (٥١٠١) عن عروة بن الزبير، وفيه:

«قال عروة: وَثُوبِيَّةُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي لَهَبٍ، كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أَرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حَبِيَّةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلَقْ بَعْدَكُمْ، غَيْرَ أَنِّي سَقِيتُ فِي هَذِهِ بَعْتَاقَتِي ثُوبِيَّةَ».

(٣) يعني: مع فعل الطاعات، وترك المحرمات، واجتناب البدع والمحدثات، وإلا فلا يكفي

السُّرُورُ بِمَوْلَدِ النَّبِيِّ ﷺ لدخول الجنات.

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ بِمَكَّةَ يَهُودِيٌّ سَكَنَ سَكَنَهَا يَتَجَرَّبُ بِهَا، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! هَلْ وُلِدَ فِيكُمْ اللَّيْلَةُ مَوْلُودٌ؟ قَالُوا: لَا نَعْلَمُهُ، قَالَ: انظُرُوا فَإِنَّهُ وُلِدَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْآخِرَةِ، بَيْنَ كِتْفَيْهِ عِلَامَةٌ فِيهَا شَعْرَاتٌ مُتَوَاتِرَاتٌ كَأَنَّهُنَّ عُرْفُ فَرَسٍ - بَضْمُ الْعَيْنِ، وَقَدْ تُضَمُّ رَأُوهُ؛ أَيْ: شَعْرُ عُنُقِهِ - لَا يَرْضَعُ لَيْلَتَيْنِ؛ لِأَنَّ عَفْرِيَتًا مِنَ الْجِنِّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ، فَانصَرَفُوا فَسَأَلُوا، فَقِيلَ لَهُمْ: قَدْ وُلِدَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ غُلَامٌ، فَخَرَجُوا بِالْيَهُودِيِّ حَتَّى أَدَخَلُوهُ عَلَى أُمِّهِ، فَقَالُوا لَهَا: أَخْرِجِي إِلَيْنَا ابْنَكَ، فَأَخْرَجَتْهُ وَكَشَفُوا عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَأَى تِلْكَ الشَّامَةَ، فَوَقَعَ الْيَهُودِيُّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قِيلَ لَهُ: وَيْلَكَ، مَا لَكَ؟ قَالَ: ذَهَبَتْ وَاللَّهِ النَّبُوءَةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَمَا وَاللَّهِ لَيَسْطُونَ بِكُمْ سَطْوَةً يُخْرِجُ خَبَرُهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ^(١).

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وُلِدَ ﷺ بِخَاتَمِ النَّبُوءَةِ بَيْنَ كِتْفَيْهِ، وَهُوَ مِنَ الْعِلَامَاتِ الَّتِي كَانَ يَعْرِفُهَا أَهْلُ الْكِتَابِ، وَيَسْأَلُونَ عَنْهَا، وَيَطْلُبُونَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا. حَتَّى إِنَّهُ رُوِيَ: أَنَّ هِرَقْلَ بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَنْ يَنْظُرُ لَهُ خَاتَمَ النَّبُوءَةِ، ثُمَّ يُخْبِرُهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ سِيَأْتِي أَنَّ الْمَلَائِكِينَ الَّذِينَ شَقَّ صَدْرَهُ وَمَلَأَهُ حِكْمَةً هُمَا اللَّذَانِ خَتَمَاهُ بِخَاتَمِ النَّبُوءَةِ، وَهُوَ أَصَحُّ مِمَّا قَبْلَهُ. قُلْتُ: الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُمَكِّنٌ.

قَالَ: وَأَمَّا مَا رُوِيَ مِنْ رَفْعِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ بَيْنِ كِتْفَيْهِ؛ فَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ^(٢). وَلِلْخَطِيبِ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ

(١) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤١٧٧).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٧١)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٢١٩). وفي إسناده الواقدي، وهو متروك، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/ ٢٤٤): ثم هو منقطع بكل حال، ومخالف لما صح، وفيه غرابة شديدة.

ابنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهَا قَالَ: لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ حَبْرٌ كَانَ بِمَكَّةَ: يُولَدُ اللَّيْلَةَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي وُصِفَ بِأَنَّهُ يُعْظَمُ مُوسَى وَهَارُونَ، وَيَقْتُلُ أُمَّتَهُمَا، فَإِنْ أَخْطَأَكُمْ فَبَشِّرُوا بِهِ أَهْلَ الطَّائِفِ أَوْ أَهْلَ لَيْلَةٍ، قَالَ: فَوُلِدَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَخَرَجَ الْحَبْرُ حَتَّى دَخَلَ الْحَجَرَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُوسَى حَقٌّ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ، قَالَ: ثُمَّ فَقَدَ الْحَبْرُ فَلَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْهِ^(١).

وَرَوَى أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الدَّلَائِلِ» مِنْ طَرِيقِ شُعَيْبِ بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَانَ بَمَرِّ الظَّهْرَانِ رَاهِبٌ يُدْعَى عَيْصَا، فَذَكَرَ حَدِيثًا، وَفِيهِ: أَنَّهُ أَعْلَمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَيْلَةَ وُلِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَذَكَرَ لَهُ أَشْيَاءَ مِنْ صِفَتِهِ^(٢).

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَالْعَلَامَاتُ الَّتِي ظَهَرَتْ عِنْدَ مَوْلِدِهِ وَبَعْدَهُ جَمَّةٌ، فَضْلًا عَمَّا وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ حِينِ الْمَبْعَثِ، وَهَلُمَّ جَرًّا، مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْأُتَمَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ، وَقَدْ اعْتَنَى بِجَمْعِهَا جَمَاعَةٌ كَأَبِي نُعَيْمٍ، وَالشَّهْلِيِّ، وَجَمَعَ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ الْمَبْعَثِ - بَلْ قَبْلَ الْمَوْلِدِ - الْحَاكِمُ فِي «الْإِكْلِيلِ»، وَأَبُو سَعْدٍ النَّيْسَابُورِيُّ فِي «شَرَفِ الْمُصْطَفَى»، وَأَبُو نُعَيْمٍ وَالبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ»، وَصَاحِبُ «الشِّفَاءِ».

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ السَّكَنِ وَغَيْرُهُ فِي «مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ» مِنْ حَدِيثِ مَخْزُومِ بْنِ هَانِيٍّ عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِئَةٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً، أَنَّهُ ارْتَجَسَ إِيْوَانَ كِسْرَى^(٣).

أَي: اضْطَرَبَ وَتَحَرَّكَ حَرَكَةً سَمِعَ لَهَا صَوْتَ مَهُولٌ، بِحَيْثُ انْصَدَعَ وَانْشَقَّ مِنْ عُلَاهِ.

(١) لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ.

(٢) أَوْرَدَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (٢ / ٢٧٢) عَنْ أَبِي نُعَيْمٍ بِسَنَدِهِ وَمَتْنُهُ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ وَفِيهِ غَرَابَةٌ.

(٣) قِطْعَةٌ مِنْ خَيْرِ طَوِيلٍ رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي «التَّارِيخِ» (١ / ٤٥٩)، وَالْخُرَاطِيُّ فِي «هَوَاتِفِ الْجَنَانِ» (ص ٧٣)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (١ / ١٢٦). وَأَوْرَدَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي «أَسَدِ الْغَابَةِ» (٥ / ٣٩٧)، ثُمَّ قَالَ: ذَكَرَهُ ابْنُ الدَّبَاغِ عَنْ ابْنِ السَّكَنِ، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال شيخ مشايخنا ابن الجزري: وهذا الشق إلى الآن باقٍ، أخبرنا بذلك جماعة ممن رآه بالمدائن، وأنه سقط عن أعلى الإيوان أربع عشرة شرفة، وهي واحدة الشرف التي تكون على حيطان السور وغيرها؛ ليحسن منظرها.

وحمدت ناز فارس التي كانوا يعبدونها، ولم تخمد قبل ذلك بألفي عام يعبدونها، بل كانت توقد وتضرم ليلاً ونهاراً، فلم يستطع أحد تلك الليلة إضرامها عجزاً لا اختياراً.

وغاضت بحيرة ساوة، المظهر أهلها للشرك والعداوة، وكانت بحيرة كبيرة أكبر من فرسخ، بمملكة عراق العجم بين همدان وقم، تركب فيها السفن ويسافر بها إلى ما حولها من البلاد والمدن، مثل فرغانة والري، فأصبحت من ليلة مولده ﷺ ناشفة يابسة الأرض، كأن لم يكن بها شيء من الماء في الطول والعرض، بل غار ماؤها وذهب، حتى بُني موضعها مدينة تسمى ساوة، باقية إلى اليوم حصينة.

ورأى المؤبدان - وهو قاضيهم الأعلى بتلك الجهات والبلدان - إبلاً صعباً، تقود خيلاً عرباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها ووهاها.

ووقع من تلك الليلة رمي الشياطين بالشهب الثواقب، وكانت قبل ذلك تسترق السمع من كل جانب، وحجب إبليس عن السماء كما يروى، ولعله كان يقعد فيسترق السمع ويشير إليه بالإيماء.

وذكر بقي بن مخلد صاحب «المُسند» في «تفسيره»: ومما رويناه عن مجاهد: أنه رن - أي: نخر - أربع رئات: حين لعن، وحين أهبط، وحين ولد النبي ﷺ، وفي لفظ: حين بعث، وحين أنزلت فاتحة الكتاب^(١).

واختلف في كونه ﷺ ولد وهو بخاتم النبوة كما تقدم في حديث عائشة،

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٩٩).

أَوْ حِينَ وَضَعِهِ، أَوْ خَتَمَهُ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ حِينَ شَقَّ صَدْرَهُ عِنْدَ مُرْصَعَتِهِ، وَمِمَّنْ حَكَى الْأَوَّلَ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ^(١)، وَالثَّانِي مُغْلَطَايَ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَائِذٍ^(٢) بِصِغَةِ التَّمْرِ يَضِي، وَالثَّلَاثُ أُثْبِتُ.

فَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ عَنِ الطَّيَالِسِيِّ وَالْحَارِثِ فِي «مُسْنَدَيْهِمَا»، وَأَبِي نُعَيْمٍ فِي «الدَّلَائِلِ»: قَوْلُهُ ﷺ: «وَحَتَمَ - يَعْنِي جَبْرِيلُ - فِي ظَهْرِي حَتَّى وَجَدْتُ مَسَّ الْخَاتَمِ فِي قَلْبِي»^(٣)، وَمِثْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ أَحْمَدَ وَابْنِ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الدَّلَائِلِ»^(٤).
قُلْتُ: وَالْجَمْعُ مُمْكِنٌ بِظُهُورِ الزِّيَادَةِ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ وَإِفَادَةٍ.

وَكَذَا اخْتِلَافَ أَوْلَدٍ وَهُوَ مَخْتُونٌ، أَوْ تُحْتَنَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو نُعَيْمٍ وَغَيْرُهُمَا مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ عَنْ أَنَسٍ: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَرَّمْتَنِي عَلَى اللَّهِ أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرِ أَحَدٌ سَوْءَتِي»^(٥).

وَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ مِنْ حَدِيثِ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ

(١) حَكَى ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ الْقَوْلَيْنِ، وَالْأَوَّلُ مِنْهُمَا بِصِغَةِ التَّمْرِ يَضِي. انظر: «عيون الأثر» (٢/ ٣٩٧).

(٢) فِي «ف»: «عَائِد»، وَالصُّوَابُ الْمَثْبُت. انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٥٦٢).

(٣) رَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ» (١٥٣٩)، وَالْحَارِثُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٩٢٨ - بَغْيَةُ الْبَاحِثِ)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (١٦٣). وَفِيهِ أَنَّ شَقَّ صَدْرِهِ وَقَعَ فِي مَقْدَمَاتِ الْبَعْثَةِ لَا وَقْتُ الرِّضَاعِ.

(٤) لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ عِنْدَهُمَا، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الْهُوَائِفِ» (٣).

(٥) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ» (٦١٤٨)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٩١)، وَابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْعُلَلِ الْمُتَنَاهِيَةِ» (٢٦٤)، وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: «لَا شَكَّ أَنَّهُ وَلِدٌ مَخْتُونًا، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا يَصِحُّ بِهِ». قُلْتُ: فِي الْمَسْأَلَةِ خِلَافٌ اخْتَصَرَهُ الْمَنَاوِي فِي «فَيْضِ الْقَدِيرِ» (٦/ ١٦) بِقَوْلِهِ: «قَالَ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»: تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِوِلَادَتِهِ مَخْتُونًا. وَمَرَادُهُ بِالتَّوَاتُرِ الْأَشْتِهَارُ لَا الْمَصْطَلَحُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَهْلِ الْأَثَرِ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ الذَّهَبِيُّ: لَا أَعْلَمُ صَحَّةَ ذَلِكَ فَضْلًا عَنْ تَوَاتُرِهِ؟ وَقَالَ الزَّيْنُ الْعِرَاقِيُّ عَنْ ابْنِ الْعَدِيمِ: أَخْبَارُ وَِلَادَتِهِ مَخْتُونًا ضَعِيفَةٌ، بَلْ لَمْ يَثْبِتْ فِيهِ شَيْءٌ. وَسَبَقَهُ لِنَحْوِهِ ابْنُ الْقَيْمِ». وَسَيَأْتِي كَلَامُ الْحَاكِمِ قَرِيبًا عِنْدَ الْمُؤَلِّفِ.

أبيه: أَنَّهُ ﷺ وُلِدَ مَخْتُونًا مَسْرُورًا - أَي: مَقْطُوعَ الشَّرَّةِ - فَفَرِحَ بِهِ جَدُّهُ وَقَالَ: لِيَكُونَنَّ لَابْنِي هَذَا شَأْنٌ^(١).

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ فِي «تَارِيخِهِ»: وُلِدَ ﷺ مَعْدُورًا؛ أَي: مَخْتُونًا.

وَقَالَ الْحَكِيمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التِّرْمِذِيُّ: إِنَّهُ وُلِدَ مَخْتُونًا.

وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ»: أَنَّ جَدَّهُ خَتَنَهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَعَمِلَ لَهُ مَادُبَةً^(٢).

قُلْتُ: لَعَلَّهُ لَمَّا عَمِلَ الْمَادُبَةَ وَقَتَ الْخِتَانِ، ظَنَّ أَنَّهُ خُتِنَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: (خَتَنَهُ): أَظْهَرَ الْخِتَانِ، وَأَنَّهُ عَلِيَ الشَّانَ جَلِيَّ الْبُرْهَانِ؛ إِذْ فِي رِوَايَةِ لَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَوْمَ السَّابِعِ دَبَحَ كَبْشًا وَدَعَا إِلَى طَعَامِهِ قُرَيْشًا، فَلَمَّا أَكَلُوا قَالُوا لَهُ: يَا عَبْدَ الْمُطَّلَبِ! أَرَأَيْتَ ابْنَكَ هَذَا الَّذِي أَكْرَمْتَنَا عَلَى وَضْعِهِ، مَا سَمَّيْتَهُ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدًا، فَقَالُوا لَهُ: فَلِمَ رَغِبْتَ بِهِ عَنْ أَسْمَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَّمَاءِ، وَخَلَقَهُ فِي الْأَرْضِ^(٣).

هَذَا وَقَدْ أَغْرَبَ مَنْ قَالَ: خَتَنَهُ جَبْرِيلُ.

وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ: لَا يَثْبُتُ فِي هَذَا كُلُّ شَيْءٍ.

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٣)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٥): هذا الحديث في إسناده نظر. وقال ابن القيم في «تحفة المولود» (ص ٢٠١): قال ابن عبد البر: ليس إسناده حديث العباس هذا بالقائم، قال: وقد روي موقوفاً على ابن عمر ولا يثبت أيضاً. وقال في «زاد المعاد» (١/ ٨٠): وليس فيه حديث ثابت، وليس هذا من خواصه فإن كثيراً من الناس يولد مختوناً.

(٢) رواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ٦١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حديث مسند غريب. ونقل ابن القيم في «تحفة المودود» (ص ٢٠٦) عن ابن العديم قوله: وهو على ما فيه أشبه بالصواب وأقرب إلى الواقع.

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١١٣).

وتوقف الإمام أحمد في كون جدّه ختنه، وكذا توقف في مُقابله، فقال المُرِّي: إنّه سُئِلَ: هل وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مختوناً؟ فقال: الله أعلم، ثم قال: لا أدري^(١).

قال أبو بكر عبد العزيز بن جعفر^(٢) من أئمة الحنابلة: قد روي أنّه ﷺ وُلِدَ مختوناً مسروراً، ولم يجترئ أبو عبد الله - يعني الإمام أحمد بن حنبل - على تصحيح هذا الحديث.

وقال بعض الأئمة: إنّ ختان جدّه له على ما في المروئي به أشبه، لكن قال الحاكم: إنّ الأول قد تواترت به الرواية^(٣).

قال السخاوي: وهو الذي أميل إليه، سيما مع قول أمّه: ولدتّه نظيفاً. قال بعض الأئمة: ألهم الله عزّ وجلّ أهله ﷺ أن يُسمّوه مُحَمَّدًا؛ لِمَا فيه من الصّفات المَحمودَة، يُطابق الاسم المُسمّى، وقد قيل: الأسماء تنزل من السّماء، وما أحسن قول حسان:

فَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذْ قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنْ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ^(٤)

(١) رواه الخلال في «السنة» (٢٠٢) عن أبي بكر المروزي قال: سئل... فلعل قول المؤلف: «المري» محرف عن «المروزي».

(٢) المعروف بغلام الخلال، وهو تلميذه، قال الذهبي: ما جاء بعد أصحاب أحمد مثل الخلال، ولا جاء بعد الخلال مثل عبد العزيز، إلا أن يكون أبا القاسم الخرقى، توفي سنة (٣٦٣هـ) وله ثمان وسبعون سنة، في سن شيخه الخلال، وسن شيخه أبي بكر المروزي، وسن شيخ المروزي الإمام أحمد. انظر: «السير» (١٦ / ١٤٣).

(٣) انظر: «المستدرک» عقب الحديث (٤١٧٧)، وقد ذكرنا قريباً تعقب الذهبي له، وقول غيره ممن خالفه.

(٤) انظر: «ديوان حسان» (ص ١٣٤).

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَتَسْمِيَةُ جَدِّهِ لَهُ بِذَلِكَ كَانَ بِتَوْفِيقِ مَنْ اللَّهُ تَعَالَى، إِمَّا ابْتِدَاءً، أَوْ بِمَنَامٍ رَأَاهُ، فَقَدْ قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ بْنُ سَالِمٍ الْكَلَاعِيُّ: زَعَمُوا أَنَّهُ رَأَى فِي نَوْمِهِ كَأَنَّ سِلْسِلَةً مِنْ فِضَّةٍ خَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهِ، لَهَا طَرَفٌ فِي السَّمَاءِ، وَطَرَفٌ فِي الْأَرْضِ، وَطَرَفٌ فِي الْمَشْرِقِ، وَطَرَفٌ فِي الْمَغْرِبِ، ثُمَّ عَادَتْ كَأَنَّهَا شَجَرَةٌ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْهَا نُورٌ، وَإِذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَتَعَلَّقُونَ بِهَا، فَقَصَّهَا؛ فَعُبِّرَتْ لَهُ بِمَوْلُودٍ يَكُونُ مِنْ صُلْبِهِ، يَتَّبِعُهُ أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَيَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَلِذَلِكَ سَمَّاهُ بِهِ، مَعَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ آمَنَةٌ مِنْ أَمْرِهَا بِتَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ^(١).

فَمُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ اسْمَانِ لَهُ ﷺ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَمُبَشِّرٌ رَسُولُ يُأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»: أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى اسْمَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَكْتُوبًا عَلَى الْعَرْشِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِآدَمَ: لَوْلَا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ^(٢).
وَأَمَّا حَدِيثُ: «لَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ الْأَفْلَاكَ»؛ فَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ، وَإِنْ قَالَ الصَّغَانِيُّ: إِنَّهُ مَوْضُوعٌ^(٣).

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: فَأَمَّا «أَحْمَدُ» فَأَفْعَلٌ تَفْضِيلٌ مُبَالِغَةٌ مِنْ صِفَةِ الْحَمْدِ مِنْهُ، وَ«مُحَمَّدٌ» مُفَعَّلٌ مُبَالِغَةٌ مِنْ كَثَرَةِ الْحَمْدِ فِيهِ، فَهُوَ أَجَلُّ مَنْ حَمِدَ، [وَأَفْضَلُ مَنْ حُمِدَ] وَأَكْثَرُ النَّاسِ حَمْدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَهُوَ أَحْمَدُ الْمَحْمُودِينَ وَأَحْمَدُ الْحَامِدِينَ، وَمَعَهُ لِيَوَاءُ الْحَمْدِ فِي الْمَحْشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَتِمَّ لَهُ كَمَالُ الْحَمْدِ، وَيَشْتَهَرَ فِي الْعَرَصَاتِ

(١) انظر: «الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء» للكلاعي (١/ ١٣٢).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٢٢٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع.

(٣) انظر: «الموضوعات» للصغاني (ص ٥٢).

بِصِفَةِ الْحَمْدِ، وَتُبِعَتْ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ وَيَحْمَدُهُ فِي الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَيُفْتَحَ عَلَيْهِ فِيهِ مِنَ الْمَحَامِدِ - كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) - مَا لَمْ يُعْطَ غَيْرُهُ.

وَسُمِّيَتْ أُمَّتُهُ فِي كُتُبِ أَنْبِيَائِهِ بِالْحَمَادِينَ، فَحَقِيقٌ أَنْ يُسَمَّى ﷺ مُحَمَّدًا وَأَحْمَدًا. وَفِي هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ مِنْ عَجَائِبِ خَصَائِصِهِ وَبِدَائِعِ آيَاتِهِ فَنٌّ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَمَى أَنْ يُسَمَّى بِهِمَا أَحَدٌ قَبْلَ زَمَانِهِ، أَمَّا أَحْمَدُ الَّذِي ذُكِرَ فِي الْكُتُبِ وَبَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فَمَنَعَ اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُسَمَّى بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَلَا يُدْعَى بِهِ مَدْعُوُّ قَبْلَهُ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ اللَّبْسُ وَلَا الشَّكُّ عَلَى ضَعِيفِ الْقَلْبِ.

وكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ - أَيْضًا - لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ، إِلَى أَنْ شَاعَ قُبَيْلَ وُجُودِهِ وَمِيلَادِهِ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، فَسَمَّى قَوْمٌ قَلِيلٌ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءَهُمْ بِذَلِكَ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ هُوَ، وَ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ثُمَّ حَمَى اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مَنْ يُسَمَّى بِهِ أَنْ يَدَّعِيَ النَّبُوَّةَ، أَوْ يَدَّعِيَهَا أَحَدٌ لَهُ، أَوْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ سَبَبٌ يُشَكِّكُ أَحَدًا فِي أَمْرِهِ، حَتَّى تَحَقَّقَتِ السَّمَتَانِ لَهُ ﷺ، وَلَمْ يَنَازِعْ لَهُ أَحَدٌ فِيهِمَا^(٢).

قَالَ السَّخَاوِيُّ: وَأَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا، قِيلَ: إِنَّهَا بَلَغَتْ أَلْفًا، لَكِنْ أَكْثَرُهَا اشْتُقَّ مِنْ أَفْعَالٍ وَصِفَ ﷺ بِهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَسْمَاءِ دَلِيلٌ عَلَى جَلَالَةِ الْمُسَمَّى، وَنَاهِيكَ بِشَرَفِهِ تَشْرِيفَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِمَا سَمَّاهُ بِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَوَصَفَهُ بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَا، كَمَا بَيَّنَّهَ صَاحِبُ «الشُّفَا» وَغَيْرُهُ.

قُلْتُ: وَقَدْ جَمَعَهَا شَيْخُ مَشَايِخِنَا الْحَافِظُ جَلَالُ الدِّينِ الشُّيُوطِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ أَيْضًا بَلَغَتْ خَمْسَ مِائَةٍ، وَأَخَذْتُ مِنْهَا عُمْدَتَهَا وَزُبْدَتَهَا الْعُلْيَا، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، وَزَانَ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْحُسْنَى:

(١) رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الشُّفَا» (١/ ١٧٦ - ١٧٧)، وما بين معكوفتين منه.

هذا الحبيب فمثله لا يُولَدُ والنُّورُ من وَجَنَاتِهِ يَتَوَقَّدُ
جبريلُ نادى في مَنْصَةِ حُسْنِهِ هذا مَدِيحُ الكَوْنِ هذا أَحْمَدُ
هذا مَلِيحُ الوَجْهِ هذا الْمُصْطَفَى هذا جَمِيلُ الوَصْفِ هذا الْمَسْنَدُ
هذا الْجَلِيلُ النَّعْتِ هذا الْمُرتَضَى هذا كَحِيلُ الطَّرْفِ هذا الْأَمجدُ
هذا الذي خُلِعَتْ عليه مَلَابِسُ وَتَفَائِسُ فَنَظِيرُهُ لا يُوجَدُ

وكان مولده ﷺ عام الفيل، كما رواه الترمذي في «جامعه» من حديث قيس بن مخرمة بن أشيم^(١)، والبيهقي في «الدلائل» من حديث سويد بن غفلة أحد المخضرمين^(٢)، والبيهقي أيضاً، وشيخه الحاكم وصححه، كلاهما من طريق حجاج بن محمد، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس^(٣).

ورواه ابن سعد بلفظ: يوم الفيل^(٤).

ورواه الحاكم أيضاً من طريق حميد بن الربيع، عن حجاج كذلك، وقال: إن حميداً تفرد بقوله: (يوم الفيل)^(٥)، وتُعقَّب برواية ابن معين^(٦)، ولكنَّ المحفوظ بلفظ «عام»، وقد لا يُنافيه اللفظ الآخر؛ لعدم صراحته في ذلك؛ لِمَا فيه من الاحتمال.

(١) رواه الترمذي (٣٦١٩) وقال: حسن غريب.

(٢) رواه البيهقي في «الدلائل» (٧٩ / ١)، ورواه أيضاً الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٩١ / ١)، ورواية البيهقي من طريقه.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤١٨٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٧٥ / ١).

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١٠١ / ١).

(٥) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤١٨١)، وقال: تفرد حميد بن الربيع بهذه اللفظة في هذا الحديث ولم يتابع عليه.

(٦) هي رواية ابن سعد في «الطبقات» وقد تقدمت قريباً، ورواه عن ابن معين أيضاً: عبد الله بن أحمد في «العلل» لأبيه (٥٢٢١)، لكنه عقبه بقوله: فبلغني عن يحيى بن معين أنه رجع عنه فقال: عام الفيل.

قال ابنُ عبدِ البرِّ: إنَّه يَحْتَمِلُ أن يكونَ أرادَ باليومِ الذي حَبَسَ اللهُ الفيلَ فيه عن وَطءِ الحَرَمِ، وأَهْلَكَ الَّذِينَ جَاؤُوا بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أن يكونَ أرادَ باليومِ العامِّ^(١).

قال السَّخَاوِيُّ: وَمَالَ شَيْخُنَا إِلَى الْأَوَّلِ، حَيْثُ قَالَ: يُطْلَقُ الْيَوْمُ وَيُرَادُّ بِهِ مُطْلَقُ الْوَقْتِ، كَمَا يُقَالُ: يَوْمَ الْفَتْحِ، وَيَوْمُ بَدْرِ؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ حَقِيقَةَ الْيَوْمِ، فَيَكُونُ أَخَصَّ مِنَ الْأَوَّلِ، وبِذَلِكَ صَرَّحَ ابْنُ حِبَّانَ فِي أَوَّلِ «تَارِيخِهِ» فَإِنَّهُ قَالَ: وَلَدَ عَامَ الْفِيلِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ الطَّيْرَ الْأَبَابِيلَ عَلَى أَصْحَابِ الْفِيلِ^(٢).

وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ أَيْضاً مِنْ مُرْسَلِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ بِلَفْظِ «عَامٍ»^(٣).
وقد عاينَ ذلكَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ، وَخُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَكُلُّ مِنْهُمْ عَاشَ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وقال إبراهيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ: هو الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَائِنَا^(٤).
وَمِمَّنْ حَكَى الْإِجْمَاعُ: ابْنُ قُتَيْبَةَ^(٥)، ثُمَّ عِيَاضُ^(٦)، وَقَالَ ابْنُ دِحْيَةَ: اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ بِالْأَثَرِ وَالسَّنَنِ عَلَيْهِ، انْتَهَى.
وَكَأَنَّهُمْ عُمْدَةُ ابْنِ الْقَيْمِ فِي الْإِتِّفَاقِ^(٧)، وَلَكِنَّ الْخِلَافَ فِيهِ ثَابِتٌ، وَيتَحَصَّلُ مِنْهُ أَقْوَالٌ أُخَرُ:

(١) انظر: «الاستيعاب» (١ / ٣٠).

(٢) انظر: «الثقات» لابن حبان (١ / ١٥ - ١٦).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١ / ٧٨).

(٤) رواه عن إبراهيم بن المنذر: تلميذه يعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣ / ٢٨١).

(٥) انظر: «المعارف» (ص ١٥٠).

(٦) انظر: «إكمال المعلم» (٧ / ٣١٦).

(٧) أي: في حكاية الاتفاق. انظر: «زاد المعاد» (١ / ٧٤).

بعد الفيل بأربعين سنة، قاله أبو زكريا العجلاني، وحكاؤه ابن عساكر في التَّرجمة النبوية من أوَّل «تاريخه»^(١).

أو بثلاثين سنة، حكاؤه موسى بن عَقَبَة عن الزُّهرِّي^(٢).

أو بثلاث وعشرين، أورده ابن عساكر من رواية شُعَيْب بن شُعَيْب^(٣).

أو بخمس عشرة، حكاؤه ابن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس^(٤)، لكنَّ المُعْتَمَد عن ابن عباس ما تقدَّم.

أو بشهر، حكاؤه ابن عبد البر^(٥).

أو بعشر، أورده ابن عساكر من طريق عبد الرحمن بن أبزي^(٦).

أو بثلاثين يوماً، أو بأربعين يوماً.

قال السَّخَاوِيُّ: وأما ما يُذكرُ على الألسنة بلفظ: وُلِدْتُ في زَمَنِ الْمَلِكِ

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦)، وقد نقله ابن عساكر عن خليفة بن خياط، وهو في «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٥٣). وأورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٢) وقال: هذا غريب جداً. وقال خليفة: المجتمع عليه عام الفيل. وقد تحرف «العجلاني» في الأصل إلى: «العلائي». والمثبت من المصادر المذكورة. وهو يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمن، أبو زكريا الحماني العجلاني الكوفي، قال ابن نمير: كذاب، وقال أحمد: كان يكذب جهاراً، ما زلنا نعرف ابن الحماني يسرق الأحاديث، وقال السعدي: ساقط، وقال النسائي: ضعيف، وقال يحيى بن معين: ثقة. انظر: «الضعفاء والمتروكون» لابن الجوزي (٣/ ١٩٧).

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٦٢)، وحكاؤه خليفة في «تاريخه» (ص ٥٢) عن موسى بن عقبة قوله، ويؤيده قول ابن كثير: واختاره موسى بن عقبة أيضاً.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٦٦) من طريق شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٤) رواه خليفة بن خياط في «تاريخه» (ص ٥٣)، والكلبي وأبوه متروكان، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٥) انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣٠).

(٦) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦).

العادل^(١)؛ فشيء لا أصل له، على أن بعضهم اغترَّ به وقال ممَّا جازَفَ فيه: إنَّه لا خلاف بين العلماء أنَّه ﷺ وُلِدَ بمَكَّةَ في أيامِ كِسْرَى أَنُوشِرَوَانَ العادلِ.
قُلْتُ: وقد قال الزَّرْكَشِيُّ: كَذَبٌ باطِلٌ^(٢).

قال السيوطي: قال البيهقي في «شعب الإيمان»: تكلم شيخنا أبو عبد الله الحافظ في بطلان ما يرويه بعض الجهلاء عن نبينا ﷺ: وُلِدْتُ في رَمَنِ الملكِ العادلِ، يعني: أَنُوشِرَوَانَ، ثم رأى بعض الصالحين رسول الله ﷺ في المنام فحكى له ما قال أبو عبد الله، فصَدَّقَه في تكذيب هذا الحديث وإبطاله، وقال: ما قلته قط^(٣).
فإن قلت: تُرْبَةُ الشَّخْصِ مَدْفُنُهُ، فكان مُقْتَضَى هذا أن يكون مَدْفُنُهُ عليه السَّلامُ بمَكَّةَ حيث كان تربته منها.

فقد أجاب عنه صاحب «العوارف» أفاض الله علينا من عوارفه، وتعطف علينا بعواطفه، بأنَّه قيل: إنَّ الماءَ لَمَّا تَمَوَّجَ رَمَى الرَّبْدَ إلى النّواحي، فَوَقَعَتْ جَوْهَرَةُ النَّبِيِّ ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، فكان ﷺ مَكِّيًّا مَدَنِيًّا، حينئذٍ إلى مَكَّةَ وتُربته بالمدينة.
ثم اختلف في الشهر الذي وُلِدَ فيه، والمشهور أنَّه وُلِدَ في شهر ربيع الأول، وهو قول جمهور العلماء، ونقل ابن الجوزي الاتفاق عليه^(٤)، وفيه نظر، فقد قيل: في صَفَرٍ، وقيل: في ربيع الآخر.
وقيل: في رَجَبٍ، ولا يصح.

(١) ذكره الصغاني في «الموضوعات» (ص ٣٦).

(٢) انظر: «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» (ص ١٧٩).

(٣) انظر: «شعب الإيمان» (٥١٩٥). وانظر: «الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة» للسيوطي

(ص ٢٠١).

(٤) انظر: «صفة الصفوة» (١/ ٢٢)، و«تلفيح فهم أهل الأثر» (ص ١٤).

وقيل: في شهر رَمَضانَ. ورُوِيَ عن ابنِ عَمَرَ^(١) بإسنادٍ لا يصحُّ، وهو مُوافِقٌ لَمَنْ قال: إِنَّ أُمَّه حَمَلَتْ به في أَيَّامِ التَّشْرِيقِ.
وأغْرَبَ مَنْ قال: وُلِدَ في عاشوراءَ.

وكذا اِخْتَلَفَ أَيْضاً في أَيِّ يومٍ من الشَّهْرِ، فقيل: إِنَّه غيرُ مُعَيَّنٍ، إِنَّمَا وُلِدَ يومَ الإِثْنَيْنِ من ربيعِ الأوَّلِ من غيرِ تَعْيِينٍ، والجُمُهورُ على أَنَّهُ يومٌ مُعَيَّنٌ منه: فقيل: لِلَّيْلَتَيْنِ خَلَّتَا.
وقيل: لثَمَانٍ خَلَّتْ منه.

قال الشَّيْخُ قُطِبُ الدِّينِ القَسْطَلَانِيُّ^(٢): وهو اِخْتِيارٌ أَكْثَرُ أَهْلِ الحَدِيثِ، ونُقِلَ عن ابنِ عَبَّاسٍ، وَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وهو إِطْلَاقٌ أَكْثَرُ مَنْ له مَعْرِفَةٌ بهذا الشَّأْنِ، واِخْتارَهُ الحَمِيدِيُّ، وشيخُهُ ابنُ حَزْمٍ^(٣)، وَحَكَى القُضَاعِيُّ في «عيونِ المَعَارِفِ» إِجماعَ أَهْلِ الرِّيَاجِ عليه.

(١) قوله: «ابن عمر» كذا في «ف»، ولعل الصواب: «ابن عمرو»، فقد رواه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٦٦) من طريق شعيب بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: حُمِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ في عاشوراءِ المحرمِ، وولد يومَ الإِثْنَيْنِ لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل.
وشعيب بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، هو أخو عمرو بن شعيب كما في «الثقات» لابن حبان (٨ / ٣٠٧)، فإن كان المراد بجده هو جد أبيه عبد الله بن عمرو كما قيل فيما يماثله من إسناده أخيه، يكون الحديث من مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقد قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١ / ٢٥) بعد أن ذكر الحديث بإسناده: هذا حديث ساقط كما ترى.

(٢) محمد بن أحمد بن علي القيسي الشاطبي، أبو بكر، قطب الدين التوزري القسطلاني عالم بالحديث ورجاله. مولده بمصر، ومنشؤه بمكة، له: «الإفصاح عن المعجم من الغامض والمبهم» في أسانيد رجال الحديث، و«اقتداء الغافل باقتداء العاقل»، ورسالة في تفسير آيات من القرآن الكريم، وغيرها، توفي سنة (٦٨٦هـ). انظر: «الوافي بالوفيات» (٢ / ٩٤). وذكر كلامه الشيخ شهاب الدين القسطلاني في «المواهب اللدنية» (١ / ٨٥).

(٣) انظر: «جوامع السيرة» لابن حزم (ص ٧).

وقيل: لعشر.

وقيل: لاثني عشر، وعليه أهل مكة في زيارتهم موضع ولادته في هذا الوقت.

وقيل: لسبع عشرة، وقيل: لثمان بقين منه.

والمشهور: أنه ولد يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق وغيره^(١).

واختلف أيضاً في الوقت الذي ولد فيه، والمشهور أنه يوم الإثنين، فعن أبي قتادة الأنصاري: أنه سئل ﷺ عن صيام يوم الإثنين، قال: «ذاك يومٌ ولدت فيه، وأنزلت علي فيه النبوة». رواه مسلم^(٢)، وهذا يدل على أنه ولد نهاراً.

وفي «المسند» عن ابن عباس قال: ولد ﷺ يوم الإثنين، واستنبت يوم الإثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، ورفع الحجر يوم الإثنين^(٣).

قال القسطلاني: وكذا فتح مكة، ونزول سورة المائدة يوم الإثنين^(٤).

يعني: المشتملة على آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهي آخر سورة نزلت.

وقد روى ابن أبي شيبة وأبو نعيم في «الدلائل»: أنه ولد عند طلوع الفجر^(٥).

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٥٨).

(٢) رواه مسلم (١١٦٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٧)، وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٤) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٦).

(٥) المصدر السابق (١/ ٨٧)، وفيه بعد أن أورد الخبر المروي في ذلك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: «رواه أبو جعفر بن أبي شيبة، وخرجه أبو نعيم في «الدلائل» بسند فيه

ضعف». قلت: ورواه من طريق أبي جعفر محمد بن عثمان بن محمد بن أبي شيبة: ابن عساكر =

وقيل: وُلِدَ لَيْلاً.

قال الزُّرْكَشِيُّ: والصَّحِيحُ أَنَّ ولادته عليه السَّلامُ كانتَ نهاراً.

قُلْتُ: وأغْرَبَ القَسْطَلَانِيُّ وقال: ليلةُ مَوْلَيْهِ ﷺ أَفْضَلُ من ليلةِ القَدْرِ من وجوه ثلاثة...، ذكرها^(١)، حيثُ لا يُفِيدُ الإطلاقُ، معَ أَنَّ الأفضليَّةَ ليسَ إلا لكونِ العبادةِ فيها أَفْضَلَ بِشهادةِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، ولا تُعرَفُ هذه الفضيلةُ لَيْلَةَ مَوْلَيْهِ عليه السَّلامُ والتَّحِيَّةُ ﷺ لا من الكتابِ ولا من السُّنَّةِ، ولا من أحدٍ من عُلماءِ الأُمَّةِ.

وأما تضعيفُ ابنِ دِحْيَةَ روايةَ سُقُوطِ النَّجْمِ عندَ مَوْلَيْهِ بِأنه وُلِدَ نهاراً^(٢) فغيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ سُقُوطَها خارقٌ للعادةِ، فلا فرقَ فيه بينَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، على أَنَّهُ بعدَ الفَجْرِ، ولِلنَّجُومِ حينئذٍ سُلْطَانٌ كما في اللَّيْلِ، أو يُقالُ: سُقُوطُ النَّجْمِ كانَ في ليلةِ مَوْلَيْهِ إظهاراً لِدُنُوِّهِ وقُرْبِهِ، وما قاربَ الشَّيْءُ يُعطى حُكْمُهُ.

ثمَّ اختلفَ في مُدَّةِ الحملِ، فقول: تسعةُ أَشْهُرٍ، وقيل: عشرةٌ، وقيل: ثمانيةٌ، وقيل: سبعةٌ، وقيل: ستةٌ.

قال القَسْطَلَانِيُّ: ووُلِدَ عليه السَّلامُ في الدَّارِ التي كانتَ لِمُحَمَّدِ بْنِ يَوْسُفَ أَخِي الحَجَّاجِ، ويُقالُ: بالشَّعْبِ، ويُقالُ: بالرَّذَمِ، ويُقالُ: بَعُسْفَانَ^(٣). قال شيخنا ابنُ حَجَرٍ المَكِّيُّ: الصَّحِيحُ - بل الصَّوابُ - بِمَكَّةَ بِمَوْلَيْهِ المَشْهُورِ الآنَ.

= في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤٢٦)، وفي إسناده المسيب بن شريك، قال عنه يحيى: ليس بشيء. وقال أحمد: ترك الناس حديثه. وقال مسلم وجماعة: متروك. انظر: «الميزان» (٤/ ٣٣٣).

(١) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٨).

(٢) ذكره الزركشي عن ابن دحية كما في «المواهب اللدنية» (١/ ٨٨).

(٣) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٨٨).

قال العلماء: ولم يكن مولده ﷺ في المحرم، ولا في رجب، ولا في رمضان، لئلا يتشرف بالزمان، وإنما الزمان يتشرف به كالمكان^(١).

قال القسطلاني: وقد ذكر أنه لما ولد ﷺ قيل: من يكفل هذه الدرة اليتيمة التي لا يوجد لمثلها قيمة؟ فقالت الطيور: نحن نكفله ونغنم خدمته العظيمة، وقالت الوحوش: نحن أولى بذلك، ننال شرفه وتعظيمه، فنأدى لسان القدرة: أن يا جميع المخلوقات! إن الله تعالى قد كتب في سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعاً لحليمة الحليمة^(٢).

قالت حليمة فيما رواه ابن إسحاق، وابن راهويه، وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم^(٣): قدمت مكة نسوة من بني سعد بن بكر يلتومن الرضعا في سنة شهباء، فقدمت على أتان لي ومعها صبي لنا، وشارف لنا - أي: ناقة مسنة مهيمة - والله ما تبض بقطرة، وما ننأى ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، لا يجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه إذا قيل: يتيم، فوالله ما بقي من صواحيبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري.

فلما لم أجده غيره قلت لزوجي: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلا نخذه، فذهبت فإذا هو مدرج في ثوب

(١) في هامش «ف»: «يقال: هذا مما يرجح كلام القسطلاني في أفضلية ليلة المولد، وقد أتى الشيخ ابن حجر المكي بالكلام الشافعي في مولده، فليراجع».

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» (١/ ٩٠)، وعنه نقل المؤلف أيضاً خبر حليمة الآتي.

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٦٢)، وإسحاق بن راهويه كما في

«المطالب العالية» (٤٢٠٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧١٦٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/

٢١٤)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٣٣). ونقله المؤلف عن

«المواهب اللدنية» (١/ ٩٠ - ٩٢).

صُوفٍ أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحتة حريرة خضراء، راقدة على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله.

فدئوت منه رؤيداً، فوضعت يدي على صدره فتبسّم ضاحكاً، وفتح عينيه ينظر إليّ، فخرج من عينيه نورٌ حتى دخل خلال السماء، وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحوّلته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك حاله بعد.

قال أهل العلم: أعلمه الله تعالى أن له شريكاً، فألهمه العدل.

فقالت: فروي وروي أخوه، ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رخلي، وقام صاحبي - تعني زوجها - إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى رويناً، وبثنا بخير ليلة.

فقال صاحبي: يا حليلة! والله إنني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بثنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟ فلم يزل الله يزيدنا خيراً.

قالت حليلة: فودعت الناس بعضهم بعضاً، وودعت أنا أم النبي ﷺ، ثم ركبأت أتانِي، وأخذت محمداً ﷺ بين يدي، قالت: فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجّادات، ورفعت رأسها إلى السماء، ثم مشّت حتى سبقت دوابّ الناس الذين كانوا معي، وصار الناس يتعجبون مني، ويقولن لي النساء وهن ورائي: يا بنت أبي ذؤيب! أهذه أتانك التي كنت عليها وأنت جائية معنا تخفضك طوراً وترفعك أخرى؟!

فأقول: تالله إنها هي، فيتعجبن منها، ويقولن: إن لها شأنًا عظيمًا.

قالت: فكنت أسمع أتانِي تنطق وتقول: إن لي شأنًا ثم شأنًا، بعثني الله بعد موتي، وردّ لي سمّي بعد هزلي، ويحكّن يا نساء بني سعد، إنكُنّ لفي

غَفْلَةٍ، وهل تَدْرِينَ مَنْ عَلَى ظَهْرِي؟ عَلَى ظَهْرِي خَيْرُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَأَفْضَلُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١).

قَالَتْ حَلِيمَةُ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَ بَنِي سَعْدِ، وَلَا أَعْلَمُ أَرْضاً مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرَوْحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ شِبَاعاً لَبَناً فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلَا يَجْدُ فِي صَرْعٍ، حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعِيَانِهِمْ: اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي غَنَمِ بَنَاتِ أَبِي ذُوَيْبٍ، فَتَرَوْحُ أَغْنَامُهُمْ جِيعاً مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرَوْحُ أَغْنَامِي شِبَاعاً لَبَناً.

فَلِلَّهِ دَرُّهَا مِنْ بَرَكَهٍ كَثُرَتْ بِهَا مَوَاشِي حَلِيمَةَ، وَنَمَتْ وَارْتَفَعَ قَدْرُهَا بِهِ وَسَمَتْ، وَلَمْ تَزَلْ حَلِيمَةُ تَتَعَرَّفُ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ، وَتَفُورُ مِنْهُ بِالْحُسْنَى وَزِيَادَةٍ:

لَقَدْ بَلَغَتْ بِالْهَاشِمِيِّ حَلِيمَةُ مَقَاماً عَلا فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ وَالْمَجْدِ
وَزَادَتْ مَوَاشِيَهَا وَأَخْصَبَ رَبْعُهَا وَقَدْ عَمَّ هَذَا السَّعْدُ كُلَّ بَنِي سَعْدِ
وَفِي كِتَابِ «التَّرْقِيقِ» لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُعَلَّى الْأَزْدِيِّ: أَنَّ مِنْ شُعْرِ حَلِيمَةَ مِمَّا كَانَتْ تُرَقِّصُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ:

يَا رَبِّ إِذْ أُعْطِيَتْهُ فَأَبَقَهُ وَأَعْلَاهُ إِلَى الْعُلَا وَرَقَهُ
وَادْحَضَ أَبَاطِيلَ الْعَدَى بِحَقِّهِ^(٢)

وَزِدَتْ أَنَا^(٣): بِحَقِّهِ بِحَقِّهِ بِحَقِّهِ

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ، وَالْخَطِيبُ وَابْنُ عَسَاكِرَ فِي «تَارِيخِهِمَا»، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «قَالَتْ: فَكُنْتُ أَسْمَعُ أَتَانِي...» إِلَى هُنَا، كَذَا نَقَلَهُ الْمُؤَلِّفُ مِنْ «الْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَّةِ»

(١ / ٩٢)، وَلَمْ أَجِدْهُ مُسْتَدَافٍ فِي الْخَبَرِ الْمَذْكُورِ وَلَا فِي غَيْرِهِ.

(٢) انْظُرْ: «الْخَصَائِصُ الْكُبْرَى» لِلْسَيُوطِيِّ (١ / ١٠٠).

(٣) كَتَبَ تَحْتَهَا فِي «ف»: مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ.

عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله! دعاني الدخول في دينك أمانةً لنبوتك، رأيتك في المهدي ثنائي القمر، وتسير إليه بأصبعك، فحيث أشرت إليه مال، قال: «إني كنت أحدثه ويحدثني، ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته يسجد تحت العرش»^(١).

وفي «فتح الباري» عن «سيرة الواقدي»: أنه ﷺ تكلم في أوائل ما ولد^(٢).

وذكر ابن سبع في «الخصائص»: أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة^(٣).

وأخرج البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال: كانت حلیمة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيتجنبهم. الحديث^(٤).

وقد روى ابن سعد، وأبو نعيم، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: كانت حلیمة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً، فعفلت عنه، فخرج مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم، فخرجت حلیمة تطلبه حتى تجده مع أخته، فقالت: في هذا الحر؟ فقالت أخته: يا أمه! ما وجد أخى حرّاً، رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع. الحديث^(٥).

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢ / ٤١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤ / ٣٥٩ - ٣٦٠). قال البيهقي: تفرد به هذا الحلبي بإسناده، وهو مجهول. قلت: والحلبي المذكور اسمه أحمد بن إبراهيم كما جاء مصرحاً به في الإسناد.

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦ / ٤٨٠).

(٣) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١ / ٩١). وابن سبع هو أبو الربيع سليمان بن سبع - بضم الباء وإسكانها - السبي، واسم كتابه: «شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه»، انظر: «الرسالة المستطرفة» (١ / ٢٠٢).

(٤) رواه البيهقي في «الدلائل» (١ / ١٣٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣ / ٤٧٤).

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٥٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤ / ٣٦٠)، وفي إسناده الواقدي، وهو متروك. ولم أجده بهذا السياق في «دلائل النبوة» لأبي نعيم.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَلَمَّا فَصَلْتُهُ - أَي: فَطَمْتُهُ - قَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكَّتِهِ عِنْدَنَا؛ لِمَا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ، فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ، قُلْنَا: لَوْ تَرَكْتِيهِ عِنْدَنَا حَتَّى يَغْلُظَ، فَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ، وَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّته مَعَنَا، فَرَجَعْنَا بِهِ.

فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَبَعْدَ مَقْدَمِنَا بِشَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ مَعَ أَخِيهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ لَفِي بُهْمٍ لَنَا خَلَفَ بِيُورْتَنَا جَاءَ أَخُوهُ يَشْتَدُّ، فَقَالَ: ذَاكَ أَخِي الْقُرْشِيُّ قَدْ جَاءَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيَضُ، فَأَضْجَعَاهُ وَشَقًّا بَطْنَهُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ نَشْتَدُّ نَحْوَهُ، فَجِدُّهُ قَائِمًا مُتَقَبِّعًا لَوْنُهُ، فَاعْتَنَقَهُ أَبُوهُ وَقَالَ: يَا بُنَيَّ! مَا شَأْنُكَ؟

قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيَضُ، فَأَضْجَعَانِي، فَشَقًّا بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا مِنْهُ شَيْئًا فَطَرَحَاهُ، ثُمَّ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ، فَرَجَعْنَا بِهِ مَعَنَا، فَقَالَ أَبُوهُ: يَا حَلِيمَةُ! لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ ابْنِي قَدْ أُصِيبَ، فَاَنْطَلِقِي نَرُدُّهُ إِلَى أَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ بِهِ مَا تَخَوَّفُ.

قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَاحْتَمَلْنَاهُ حَتَّى قَدِمْنَا بِهِ إِلَى أُمِّهِ، فَقَالَتْ: مَا رَدَّكُمَا بِهِ؟ فَقَدْ كُنْتُمَا حَرِيصَيْنِ عَلَيْهِ، قُلْنَا: نَخْشَى الْإِتْلَافَ وَالْأَحْدَاثَ، فَقَالَتْ: مَا ذَاكَ بِكُمَا فَاصْدُقَانِي بِشَأْنِكُمَا، فَلَمْ تَدْعُنَا حَتَّى أَخْبَرْنَا خَبْرَهُ، قَالَتْ: أَخَشِيتُمَا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟ فَلَا وَاللَّهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، وَإِنَّهُ لَكَائِنٌ لِابْنِي هَذَا شَأْنٌ، فَدَعَاهُ عَنْكُمَا^(١).

هَذَا وَقَعَ شَقُّ صَدْرِهِ الشَّرِيفِ مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَ مَجِيءِ جَبْرِيلَ لَهُ بِالْوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاءٍ^(٢)، وَمَرَّةً أُخْرَى لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ^(٣).

(١) قطعة من خبر رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧١٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٣٣٥)، من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما عن حليلة السعدية رضي الله عنها. وقصة شق صدره وهو غلام يلعب مع الغلمان رواها أيضاً مسلم (١٦٢ / ٢٦١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٥٣٩)، والحاثر في «مسنده» (٩٢٨ - بغية الباحث)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٦٣).

(٣) رواه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢ / ٢٦٢)، من حديث أنس رضي الله عنه. ورواه البخاري =

ولمَّا بَلَغَ ﷺ أَرْبَعَ سِنِينَ، وَقِيلَ: خَمْسًا، وَقِيلَ: سِتًّا، وَقِيلَ: سَبْعًا، وَقِيلَ: تِسْعًا، وَقِيلَ: اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَشَهْرًا وَعَشْرَةَ أَيَّامًا، مَاتَتْ أُمُّهُ بِالْأَبْوَاءِ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَقِيلَ: بِشُعْبِ أَبِي دُبٍّ بِالْحَجَوْنِ^(١).

وفي «القاموس»: ودارٌ رائعةٌ بمكةَ فيه مدفنُ أُمِّ النَّبِيِّ ﷺ^(٢).

وقد أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَنْ الزُّهْرِيِّ، وَعَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، دَخَلَ حَدِيثٌ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَالُوا: لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّ سِنِينَ خَرَجَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى أَخْوَالِهِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ بِالْمَدِينَةِ تَزْوُرُهُمْ، وَمَعَهُ أُمُّ أَيْمَنَ، فَنَزَلَتْ بِهِ دَارَ النَّابِغَةِ، فَأَقَامَتْ بِهِ عِنْدَهُمْ شَهْرًا، فَكَانَ ﷺ يَذْكُرُ أُمُورًا كَانَتْ فِي مُقَامِهِ ذَلِكَ، وَنَظَرَ إِلَى الدَّارِ فَقَالَ: هَهُنَا نَزَلْتُ بِي أُمِّي وَأَحْسَنْتُ الْعَوْمَ فِي بَثْرِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ النَّجَّارِ.

وكَانَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ يَخْتَلِفُونَ، يَنْظُرُونَ إِلَيَّ، قَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: فَسَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَقُولُ: هُوَ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهَذِهِ دَارُ هِجْرَتِهِ، فَوَعَيْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ كَلَامِهِمْ، ثُمَّ رَجَعْتُ بِهِ أُمُّهُ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا كَانَتْ بِالْأَبْوَاءِ تُوفِّيَتْ^(٣).

وقد جَزَمَ الْحَافِظُ جَلَّالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ بِأَنْ أَبَوَيْهِ ﷺ نَاجِيَانِ^(٤)، وَالْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّتْهُ فِي رِسَالَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ^(٥)، وَقَدْ كَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ بَرَكَةُ دَايَتِهِ

= (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما. ورواه البخاري (٣٢٠٧)،

ومسلم (١٦٤)، من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(١) وهذا استبعده البلاذري فقال: وزعم بعض البصريين أن أمانة أم النبي ﷺ ماتت بمكة، ودفنت في شعب أبي دُبٍّ الخزاعي. وذلك غير ثبت. انظر: «أنساب الأشراف» (١/ ٤٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (مادة: روع). وتحرفت «رائعة» في «ف» إلى: «نابغة»، والتصويب من «القاموس»، ومثله في «الأماكن» للحازمي (ص ٥٩)، و«معجم البلدان» (٣/ ٢٢ و ٣٤٧).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١١٦).

(٤) انظر رسالة «مسالك الحنفا في والدي المصطفى» ضمن «الحاوي» للسُّيُوطِي (٢/ ٢٤٤).

(٥) وهي مطبوعة ضمن هذا المجموع.

وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه السلام يقول لها: «أنت أمي بعد أمي»^(١). ومات جدُّه عبدُ المُطَّلِبِ كافله وله ثماني سنين، وقيل: تسع، وقيل: عشر، وقيل: ست. ولجدُّه عشرٌ ومئة سنة، وقيل: مئة وأربعون سنة. وكفله أبو طالب، واسمه عبدُ مناف، وكان عبدُ المُطَّلِبِ قد أوصاه بذلك لكونه شقيقَ عبدِ الله.

ولما بلغ رسولُ الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج مع عمِّه أبي طالبٍ إلى الشام، حتَّى بلغَ بَصْرَى، فرآه بحيرا الرَّاهِبُ، واسمه جرجيس، فعرفه بصفته، فقال وهو آخذٌ بيده: هذا سيِّدُ العالمين، هذا يبعثُ اللهُ رحمةً للعالمين.

فقيل له: وما علمُك بذلك؟ فقال: إنكم حينَ أشرقتُم به من العقبة، فلم يبقَ شَجَرٌ ولا حَجَرٌ إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدُ إلا لنبيٍّ، وإنِّي أعرفُه بخاتمِ النبوةِ في أسفلِ من عُصروفِ كتفه مثلُ الثُّفاحِ، وإنَّا نجدُه في كُتُبنا، وسألَ أبا طالبٍ أن يرُدَّه خوفاً عليه من اليهود... الحديث. رواه ابنُ أبي شيبة، وفيه: أنه ﷺ أقبلَ وعليه عَمَامَةٌ تُظِلُّه^(٢). والله درُّ القائل:

إِنْ قَالَ يَوْمًا ظَلَّلَتْهُ عَمَامَةٌ
هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَحْتَ ظِلِّ الْقَائِلِ
وأخرج ابنُ منده - بسندٍ ضعيفٍ - عن ابنِ عباسٍ: أن أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه صحَّبَ النَّبِيَّ ﷺ وهو ابنُ ثماني عشرة، والنَّبيُّ ﷺ ابنُ عشرين سنة، وهم يريدون الشامَ في تجارة، حتَّى نزلا منزلاً فيه سِدْرَةٌ، فقعَدَ في ظلِّها، ومضى أبو بكرٍ إلى راهِبٍ يُقالُ له: بحيرا، يسأله عن شيء، فقال له: مَنْ الرَّجُلُ الَّذِي فِي ظِلِّ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ

(١) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» من طريق سليمان بن أبي شيخ عن النبي ﷺ، وهذا إسناد منقطع.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٤١) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، ورواه الترمذي

(٣٦٢٠) وقال: حسن غريب.

بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: هَذَا وَاللَّهِ نَبِيٌّ، مَا اسْتَظَلَّ تَحْتَهَا بَعْدَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَوَقَعَ فِي قَلْبِ أَبِي بَكْرٍ التَّصَدِيقُ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَبَعَهُ^(١).

قَالَ الْحَافِظُ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي «الإصابة»: إِنْ صَحَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فَهِيَ سَفَرَةٌ أُخْرَى بَعْدَ سَفَرَةِ أَبِي طَالِبٍ^(٢).

ثُمَّ خَرَجَ ﷺ وَمَعَهُ مَيْسِرَةٌ غُلَامٌ خَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ فِي تِجَارَةٍ لَهَا، حَتَّى بَلَغَ سُوقَ بُصْرَى، وَلَهُ إِذْ ذَاكَ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَقَالَ نُسْطُورُ الرَّاهِبِ: مَا نَزَلَ تَحْتَ ظِلِّ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا نَبِيٌّ، وَفِي رِوَايَةٍ: بَعْدَ عِيسَى، وَكَانَ مَيْسِرَةٌ يَرَى فِي الْهَاجِرَةِ مَلَكَ يَظِلُّانِهِ مِنَ الشَّمْسِ.

وَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى مَكَّةَ فِي سَاعَةِ الظَّهِيرَةِ وَخَدِيجَةُ فِي عَلِيَّةٍ لَهَا، فَرَأَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ وَمَلَكَانِ يَظِلُّانِ عَلَيْهِ. رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ^(٣).

وَتَزَوَّجَ ﷺ خَدِيجَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِشَهْرَيْنِ وَخَمْسَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَقِيلَ: كَانَ سَنُهُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَقِيلَ: ثَلَاثِينَ.

وكَانَتْ تُدْعَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالطَّاهِرَةِ، وَكَانَتْ تَحْتَ أَبِي هَالَةَ بْنِ زُرَّارَةَ التَّمِيمِيِّ، فَوَلَدَتْ لَهُ هِنْدًا وَهَالَةَ، وَهُمَا ذَكَرَانِ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا عَتِيقُ بْنُ عَائِذِ الْمَخْزُومِيِّ فَوَلَدَتْ لَهُ هِنْدًا^(٤)، وَكَانَ لَهَا حِينَ تَزْوِجِهَا بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْعُمَرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

وكَانَتْ عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِأَعْمَامِهِ، فَخَرَجَ مَعَهُ مِنْهُمْ حَمْزَةُ حَتَّى

(١) رواه أبو نعيم في «معركة الصحابة» (١٢٨٤)، وفي إسناده عبد الغني بن سعيد أحد الضعفاء المتروكين، كما ذكر ابن حجر في «الإصابة» (١/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٣٥٣).

(٣) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١١٠) من حديث نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية، ورواه أيضاً ابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٣٠ و ١٥٦).

(٤) وهي أنثى. انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ١٥).

دَخَلَ عَلَى خُوَيْلِدِ بْنِ أَسِيدٍ فَخَطَبَهَا إِلَيْهِ، فَتَزَوَّجَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَصْدَقَهَا عَشْرِينَ بَكْرَةً، وَحَضَرَ أَبُو بَكْرٍ وَرُؤَسَاءُ مُضَرَ، فَخَطَبَ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَزَرَعَ إِسْمَاعِيلَ، وَضَنَضِي مَعَدٍّ، وَعَنْصِرَ مُضَرَ، وَجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهِ، وَسُوَّاسَ حَرَمِهِ، وَجَعَلَ لَنَا بَيْتًا مَحْجُوجًا وَحَرَمًا آمِنًا، وَجَعَلَنَا الْحُكَّامَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَا يُورَثُ بَرَجُلٌ إِلَّا رَجَحَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قُلٌّ، فَإِنَّ الْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ وَأَمْرٌ حَائِلٌ، وَمُحَمَّدٌ مَنْ قَدْ عَرَفْتُمْ قَرَابَتَهُ، وَقَدْ خَطَبَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَبَذَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ مَا آجِلُهُ وَعَاجِلُهُ مِنْ مَالِي كَذَا، وَهُوَ وَاللَّهُ بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، وَخَطَرٌ جَلِيلٌ، فَتَزَوَّجَهَا.

وَلَمَّا بَلَغَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً خَافَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَنْهَدِمَ الْكَعْبَةُ مِنَ السُّيُولِ، فَأَمَرُوا بِأَقْوَمِ مَوْلَى سَعِيدٍ^(١) بْنِ الْعَاصِ بِأَنْ يَبْنِيَ الْكَعْبَةَ الْمُعْظَمَةَ، وَحَضَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ، وَكَانُوا يَضْعَوْنَ أُرْزُهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ وَيَحْمِلُونَ الْحِجَارَةَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَبِطَ بِهِ - أَي: سَقَطَ مِنْ قِيَامٍ، كَمَا فِي «الْقَامُوسِ»^(٢) - وَنُودِيَ: عَوَرَتَكَ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا نُودِيَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ أَوْ الْعَبَّاسُ: يَا ابْنَ أَخِي! اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَأْسِكَ، فَقَالَ: «مَا أَصَابَنِي، مَا أَصَابَنِي إِلَّا مِنَ التَّعَرِّي»^(٣).

وَلَمَّا بَلَغَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً - قِيلَ: وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَقِيلَ: وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ، وَقِيلَ: وَشَهْرَيْنِ، يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لَسَبْعَ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَقِيلَ: لَسَبْعَ، وَقِيلَ: لِأَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لَثَمَانٍ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةً إِحْدَى

(١) تحرفت في «ف» إلى: «سعد».

(٢) انظر: «القاموس» (مادة: لبط).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١ / ١٤٥) عن ابن عباس، وعن عمرو الهذلي، وعن محمد بن جبير بن مطعم دخل حديث بعضهم في حديث بعض. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٣٦٤)، و«صحيح مسلم» (٣٤٠)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وأربعين من الفيل^(١) - بعثه الله رَحْمَةً للعالمين، وَرَسُولاً إِلَى كَافَّةِ الثَّقَلَيْنِ أَجْمَعِينَ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَغَيْرُهُمَا، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، قَالَ: جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، فَلَا تَحْسُدُوهُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْكَرَامَةِ، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ مَا عَنَتَ مُؤْمِنُهُمْ، ﴿حَرِيصٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] عَلَى ضَالَّتِهِمْ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ^(٢).

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قَالَ: شَدِيدٌ عَلَيْهِ مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَنْ يُؤْمِنَ كُفَّارُكُمْ^(٣). وَالْحَاصِلُ: أَنَّهُ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أَي: شَاقٌّ عَلَيْهِ وَصَعْبٌ لَدَيْهِ عَنَّتِكُمْ وَتَعَبُكُمْ، وَلِذَا رُفِعَ بَرَكَتُهُ الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ وَالْإِكْرَاهُ عَنْكُمْ، وَوُضِعَ عَنْكُمْ الْأَصَارُ وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، حَيْثُ أَتَى ﷺ بِالْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَاءِ، وَالطَّرِيقَةِ الْمَرْضِيَّةِ النَّوْرَاءِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: ﴿عَزِيزٌ﴾ مُنْفَصِلاً عَمَّا قَبْلَهُ^(٤) مُتَّصِلاً بِمَا سَبَقَ لَهُ، فَهُوَ صِفَةٌ لـ «رسول»؛ أَي: هُوَ عَزِيزُ الْوُجُودِ، وَكَامِلُ الْجُودِ، وَبَدِيعُ الْجَمَالِ، عَدِيمُ الْمِثَالِ. أَوْ: عَزِيزٌ مُّكْرَمٌ لَدَيْنَا، فَأَعَزُّوهُ وَأَكْرِمُوهُ، وَانصُرُوهُ وَعَظِّمُوهُ، وَيُؤَيِّدُهُ الْقِرَاءَةُ الشَّاذَّةُ بِالزَّائِنِ فِي قَوْلِهِ: (لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوهُ)^(٥).

أَوْ مَعْنَاهُ: غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، لَكُونِهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، أَوْ لَكُونِ دِينِهِ غَالِباً عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، شَامِلاً لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، أَوْ هُوَ مُتَّقِمٌ لِأَعْدَائِهِ كَمَا هُوَ رَحِيمٌ بِأَحْبَائِهِ.

(١) انظر: «الاستيعاب» (١/ ٣١).

(٢) رواه مفرقا الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٩٧ - ٩٩).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٩١٧). وانظر: «الدر المثور» (٤/ ٣٣٣).

(٤) كذا في «ف»، ولعل الصواب: «بعده» بدلالة المعنى والسياق.

(٥) ذكرها ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩) عن محمد بن السميع وابن عباس.

﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: صَرَرْتُ عَلَيْهِ صَرَرُكُمْ، وشَاقُّ عَلَيْهِ مِحْنُكُمْ؛ لكونه رحمةً للعالمين، ورأفةً للمؤمنين.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: على إيمانكم وإيقانكم وإحسانكم.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على الخُصوصِ ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ في غايَةِ من الرَّأفَةِ وَالشَّفَقَةِ، ونِهَايَةِ من اللَّطْفِ وَالْمَرْحَمَةِ.

فقد أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن عكرمة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «جاءَ جبريلُ فقالَ لي: يا مُحَمَّدُ! إِنَّ رَبَّكَ يَقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَهَذَا مَلَكُ الْجِبَالِ قَدْ أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ، وَأَمْرُهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ شَيْئاً إِلَّا بِأَمْرِكَ، [فَقَالَ لَهُ مَلَكُ الْجِبَالِ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَلَّا أَفْعَلَ شَيْئاً إِلَّا بِأَمْرِكَ]، إِنَّ شَيْئاً هَدَمْتُ عَلَيْهِمُ [الْجِبَالَ]، وَإِنْ شِئْتُ رَمَيْتُهُم بِالْحَصْبَاءِ، وَإِنْ شِئْتُ خَسَفْتُ بِهِمُ الْأَرْضَ، قَالَ: يَا مَلَكُ الْجِبَالِ! فَإِنِّي أَنِي بِهِمْ، لَعَلَّهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُمْ ذُرِّيَّةٌ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ مَلَكُ الْجِبَالِ: أَنْتَ كَمَا سَمَّاكَ رَبُّكَ: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾»^(١).

وأخرج ابنُ مردويه، عن أبي صالحٍ الحنفيِّ قال: قالَ عبدُ الله: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ، وَلَا يَضَعُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كُلُّنَا نَرَحِمُ أَمْوَالَنَا وَأَوْلَادَنَا، قَالَ: «لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]»^(٢).

ففي الحديثِ إشارةٌ إلى أَنَّ الرَّحْمَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَامَّةً وَخَاصَّةً؛ كما قالَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٣).

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩١٨ / ٦)، وما بين معكوفتين منه. والخبر مرسل.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٣٣٣ / ٤)، وقد عزاه السيوطي لابن مردويه لكن دون قوله: «قال عبد الله»،

وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (١٠١ / ١٢)، وهو على هذا مرسل.

(٣) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وفي الصحيح أيضاً: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنَ السَّمَاءِ»^(١).

﴿إِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أَعَرَضُوا، يعني الكَفَّارَ عن الإيمان بك، أو جميع الخلق عنك وعن مُتَابِعَتِكَ، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: كَافِيَ في جميع أموري، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: ليس لي رَبٌّ سِوَاهُ، فلا أَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي: اعْتَمَدْتُ، وإليه اسْتَدْنْتُ، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] بالجَرِّ على أَنَّهُ صِفَةُ «العرش» - وقرئ بالرَّفْعِ على أَنَّهُ صِفَةُ الرَّبِّ^(٢) - أي: الهَيْكَلُ الجَسِيمُ المُحِيطُ بجميع المَخْلُوقَاتِ.

وقد ورد: أَنَّ الْأَرْضَيْنِ السَّبْعَ فِي جَنْبِ سَمَاءِ الدُّنْيَا كَحَلْقَةٍ فِي فَلَاةٍ، وكذا كُلُّ سَمَاءٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أُخْرَى، ثُمَّ جَمِيعُ الْأَرْضَيْنِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى بِجَنْبِ الْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ فِي فَلَاةٍ، ومعَ هَذَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «لَا يَسْغُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسْغُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»^(٣).

وأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَوْقُوفاً^(٤)، وَابْنُ السُّنِّيِّ عَنْهُ مَرْفُوعاً: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ سَبْعَ مَرَّاتٍ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥).

وأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: أَخْبَرُ

(١) رواه الترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو، وقال: حسن صحيح.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص ٦١).

(٣) قال في «مجموع الفتاوى» (١٨ / ٣٧٦): هذا مذكور في الإسرائيليات، ليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ.

(٤) رواه أبو داود (٥٠٨١).

(٥) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧١).

آيَةُ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر السُّورَةِ^(١).

وفي رواية: قَالَ أَبِي: فَهَذَا آخِرُ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَخُتِمَ الْأَمْرُ بِمَا فُتِحَ بِهِ، وَهُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]^(٢).

فَلنَخْتِمَ بِمَا خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نُزُولَ كَلَامِهِ الْمُبِينِ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، رَجَاءً أَنْ يَخْتِمَ لَنَا بِالْخَاتَمَةِ الْحُسْنَى، وَأَنْ يُبَلِّغَنَا الْمَقَامَ الْأَسْنَى، فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَتَوْفِيقاً، مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسْنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقاً، ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَكَفَى بِاللَّهِ عِلِيماً، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَبَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَحَدِيثًا وَقَدِيمًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً، وَزَادَهُ تَكْرِيمًا وَتَشْرِيفًا وَمَهَابَةً وَتَعْظِيماً^(٣).

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥ / ١١٧)، والطبري في «تفسيره» (١٢ / ١٠١).

(٢) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٧)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص ٥٦).

(٣) جاء بعده في «ف»: «من خط مؤلفه نقل».

الرسالة رقم: (٦٦) مجلّة المجلد الثاني القاري

أَلَمْ نَمَعْنِفْكَ يَا حَنِيفَةَ

يَا

أَبُو يَسَّابِ بْنِ كَلْبٍ

تَأْلِيفُ الْعَلَامَةِ

المجلد الثاني القاري

يُطْبَعُ مُطَبَّعًا عَلَى نَدَارٍ شَيْخِ مَطْبَعَةٍ

يَحْمَدُ سَيِّدُ وَتَهْلِكُ

محمد طارق مغربية

دار اللغات

بسم الله الرحمن الرحيم مقدّمه التحفّيق

الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ، وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَبَعْدُ:
فهذه رسالة للعلامة الملاء عليّ القاريّ في مسألة مَوْتِ الْوَلَدِي النَّبِيِّ ﷺ، على أيّ حالٍ ماتا؟! أفردها الملاء عليّ في هذه الرسالة، كما أفردَهَا قَبْلَهُ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وقد اختلفتْ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا، كُلُّ يُذْلِي فِيهَا بِدَلْوِهِ، بما عندهُ مِنْ أدلّةٍ وَنُقُولٍ عَمَّنْ سَبَقَهُ.
والأقوال المنقولة المشهورة في هذه المسألة باختصارٍ ثلاثة:

الأوّل: القولُ بنجاتِهما.

الثاني: القولُ بأنَّهما لم يموتا على الإسلام.

الثالث: القولُ بأنَّهما مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ، ويتفرَّعُ عنه قولان:

أولُهما: أنَّهما مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ، وأحكامُ أَهْلِ الْفِتْرَةِ تَسْرِي عليهما كما تَسْرِي على غيرهما، وقد تُكتب لهما النِّجاة.

وثانيهما: أنَّهما مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ ولكن لا تُكتب لهما النِّجاة؛ لِما أخبرَ به النَّبِيُّ ﷺ مما جاء عنه في «صحيح مسلم» وغيره.

وقد قال بكلِّ واحدٍ منها جماعةٌ، ونصروا ما ذهبوا إليه بتأليفِ ورسائل.

وقد قال جماعةٌ بإسلامِ الْوَلَدِي النَّبِيِّ ﷺ، وأنَّ اللهَ أَحْيَاهُما فَأَسْلَمَا ثم أَمَاتَهُما، معتمدين في ذلك على أحاديثٍ لا تقومُ بمثلها حُجَّةٌ، ولا يُعتمدُ عليها في إثباتِ مسألةٍ،

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا: الْإِمَامُ الشُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَفْرَدَ فِي ذَلِكَ تَأْلِيفًا. فَرَدَّ عَلَيْهِ الْعَلَامَةُ الْقَارِيَّ وَشَنَعَ عَلَيْهِ مَقَالَتهُ، وَأَغْلَظَ كَثِيرًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ، سَامِحَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ.

فَإِذَا قَرَأْنَا كَلَامَ الْمَلَا عَلِيِّ الْقَارِيَّ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَجَدْنَاهُ يَصُبُّ جُلَّ اهْتِمَامِهِ عَلَى تَفْنِيدِ مَا قَالَهُ الْجَلَالُ الشُّيُوطِيُّ، وَيَبَيِّنُ ضَعْفَهُ، وَيَجْعَلُ وَكْدَهُ وَهَجِيرَاهُ تَخْطِئَتُهُ فِي كُلِّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، مَعَ مَا رَدَّ بِهِ عَلَى الْإِمَامِ ابْنِ حَجَرَ الْهَيْتَمِيِّ، وَالْإِمَامِ الْقُرْطُبِيِّ.

وَيُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّ الرِّسَالَةَ دِفَاعٌ مُسْتَمِيتٌ عَنْ قَوْلِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي ضَمَّنَهُ كِتَابَهُ «الْفَقْهُ الْأَكْبَرُ» الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ، وَيَقُولُ أَتْبَاعُهُ وَمُقَلِّدُوهُ إِنَّهُ لَهُ مُتَّصِلًا عَنْهُ بِالرُّوَايَةِ، وَهُنَا لَا بُدَّ مِنْ وَقْفَةٍ مُتَأَنِيَةٍ مَعَ هَذَا الْمَوْضُوعِ.

فَمَطْبُوعَاتُ «الْفَقْهِ الْأَكْبَرِ» تَخْلُو مِنَ الْجُمْلَةِ الَّتِي يُدِيرُ الْمَلَا عَلِيُّ الْقَارِيَّ رِسَالَتَهُ عَلَيْهَا، وَمِنْهَا نُسْخَةٌ شَرَحَ عَلَيْهِ «مِنْحُ الرُّوضِ الْأَزْهَرِ» فَلَا تَجِدُ لَهَا أَثَرًا!!!

وَقَدْ تَعَرَّضَ الدُّكْتُورُ خَلِيلُ إِبْرَاهِيمَ قُونَلَايَ فِي كِتَابِهِ «الْإِمَامُ عَلِيُّ الْقَارِيَّ وَجُهِودُهُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ» وَاجْتَهَدَ فِي تَفْسِيرِ الْأَمْرِ بَعْدَهُ أَمْرًا:

فَمِنْهَا: أَنَّ الْمَذْكُورَ فِي النُّسخِ الْقَدِيمَةِ مِنْهَا: أَنَّ وَالِدِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (مَا مَاتَا عَلَى الْكُفْرِ)، فَتَصَحَّفَتِ الْعِبَارَةُ عَلَى الْقَارِيَّ وَبَنَى شَرْحَهُ عَلَيْهَا، وَأَثْبَتَ - دِفَاعًا عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ - كُفْرَهُمَا!!

وَمِنْهَا: أَنَّ الْكَلَامَ مُوجُودًا فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ لِلشَّرْحِ، وَطَبْعَةِ دِهْلِي سَنَةِ (١٣١٤) هِجْرِيَّةً، وَتَخْلُو مِنْهُ طَبْعَاتُ مِصْرَ وَبَيْرُوتَ، وَهَذِهِ مُشْكِلَةٌ مِنْ مَشَاكِلِ مَخْطُوطَاتِنَا الَّتِي يَسْتَحِلُّ بَعْضُ نَاسِخِيهَا أَوْ نَاشِرِيهَا تَغْيِيرَ نَصِّ الْمُؤَلِّفِ لِمَا يَرَى حَسَنَةً أَوْ خَبِيثَةً، فَلَا بُدَّ أَنْ يَبْقَى كَلَامُ الْمُصَنِّفِ كَمَا هُوَ، وَيُتْرَكَ الْحُكْمُ عَلَيْهِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْقُرَّاءِ وَالْبَاحِثِينَ. وَذَكَرَ آخَرُونَ: أَنَّهُ عَادَ وَأَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ، وَذَكَرَ هَذَا فِي شَرْحِهِ لـ «الشُّفَا»

للقاضي عياض الذي رجح الدكتور خليل قوتلاي أنه من آخر تصانيفه، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

ومما ينبغي التنبيه عليه ونراه لزاماً الوقوف عنده: أن هذه المسألة ليست من الاعتقاديّات، فلا حظّ للقلب منها، وأمّا اللسان فحقّه أن يُصانَ عمّا يتبادر منه النقصان خصوصاً إلى وهم العوام؛ لأنّهم لا يقدرّون على دفعه وتداركه، كما قال الإمام ابن كمال باشا رحمه الله تعالى. وإن أدخلها قومٌ - ومنهم العلامة القاري - في جملة المسائل الاعتقادية، غير أنّه صرّح: أنّه لو لم يخطر ببال مؤمن هذا البحث لا نفيّاً ولا إثباتاً، فإنّه لا يضرّه، والله تعالى أعلم.

ثم إن هذه المسألة مما تحيرت فيها العقول، واضطربت فيها النقول، فنسلم الأمر إلى خالفهما فيما قضى عليهما ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، وليس لأحد الوصول إلى حقيقة هذا الحكم فيهما، إلا أن يقول كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

هذا، وقد تمّ الاعتماد في تحقيق هذه الرسالة على ثلاث نسخ خطية: الأولى: النسخة السليمانية ورمزها «س»، ونسخة قيصري رشيد أفندي ورمزها «ق»، والنسخة الأحمدية ورمزها «أ».

والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على نبيّنا وحبيبنا وقدوتنا، وعلى صحابته الكرام أهل الجلال والكمال، وآله خير آل.

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خَصَّ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ فِي عَالَمِ الْقَضَاءِ بِالْإِيمَانِ، وَهَدَاهُ بِجُودِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ نَوْرِ وُجُودِهِ وَظُهُورِ شُهُودِهِ فِي مَقَامِ الْعِرْفَانِ، وَمَرَامِ الْإِحْسَانِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ الْأَتَمَّانِ الْأَكْمَلَانِ عَلَى سَيِّدِنَا وَسَنَدِنَا مُحَمَّدٍ مِنْ أَوْلَادِ عَدْنَانٍ، وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ، وَأَصْحَابِهِ الْفَخَامِ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامِ، وَعَلَى أَتْبَاعِهِ خُلَاصَةِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَقُولُ أَحَقَرُ عِبَادِ اللَّهِ الْبَارِي، عَلِيُّ بْنُ سُلْطَانٍ مُحَمَّدٍ الْقَارِي: قَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَالْهُمَامُ الْأَقْدَمُ، فِي كِتَابِهِ الْمُعْتَبَرِ الْمُعْتَبَرِ بِدِ «الْفَقْهِ الْأَكْبَرِ» مَا نَصَّهُ: (وَوَالِدَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَاتَا عَلَى الْكُفْرِ)^(١).

فَقَالَ شَارِحُهُ: (هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ: بَأَنَّ وَالَّذِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَاتَا عَلَى الْإِيمَانِ، وَعَلَى مَنْ قَالَ: مَاتَا عَلَى الْكُفْرِ، ثُمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَعَا اللَّهَ لِهَمَا فَأَحْيَاهُمَا اللَّهُ وَأَسْلَمَا ثُمَّ مَاتَا عَلَى الْإِيمَانِ).

فَأَقُولُ وَبِحَوْلِهِ سُبْحَانَهُ أَصُولُ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ حَضْرَةِ الْإِمَامِ لَا يُتَصَوَّرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِتَحْصِيلِ الْمَرَامِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَاطِعِي الدَّرَايَةِ لَا ظَنِّي الرَّوَايَةِ؛ لِأَنَّهُ فِي بَابِ الْإِعْتِقَادِ لَا يُعْمَلُ بِالظَّنِّيَّاتِ، وَلَا يُكْتَفَى بِالْأَحَادِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَاحِيَّاتِ، وَالرَّوَايَاتِ

(١) لم أجد بعد التتبع ما ينسبه الإمام القاري هنا في مطبوعات «الْفَقْهِ الْأَكْبَرِ»، ومنها نسخة شرحه عليه: «منح الروض الأزهر»، فالله سبحانه أعلم بحقيقة الحال، ويراجع ما كتبت في المقدمة ففيه بيان وتفصيل.

الْوَهْمِيَّاتِ؛ إِذْ مِنْ الْمُقَرَّرِ الْمُحَرَّرِ فِي الْأَصْلِ الْمُعْتَبَرِ: أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى أَحَدٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ، إِلَّا بِنَقْلِ^(١) ثَبَتَ بِنَصٍّ مِنَ الْكِتَابِ، أَوْ تَوَاتَرَ مِنَ السُّنَّةِ، أَوْ إِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ بِالْإِيمَانِ الْمَقْرُونِ بِالْوَفَاءِ، أَوْ بِالْكُفْرِ الْمُنْظَمِ إِلَى آخِرِ الْحَيَاةِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، فَتَسْتَدِلُّ عَلَى مَرَامِ الْإِمَامِ بِحَسَبِ مَا أُطْلِعْنَا عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، بِالْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَاتِّفَاقِ أُمَّةِ الْأَنَامِ.

﴿أَمَّا الْكِتَابُ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، فَقَرَأَةُ الْجُمْهُورِ عَلَى الْمَجْهُولِ فِي النَّفْسِ، وَقَرَأَةُ نَافِعٍ عَلَى الْمَعْلُومِ بِالنَّهْيِ^(٢).

وَقَدْ أَخْرَجَ وَكِيعٌ، وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْتَ شِعْرِي، مَا فَعَلَ أَبُو آيٍ؟»، فَتَرَلْتُ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، فَمَا ذَكَرَهُمَا حَتَّى تَوْفَاَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(٣).

(١) فِي جَمِيعِ النُّسخِ: «فِيخُلْ»، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ الْمَثْبُوتَ.

(٢) وَهِيَ قِرَاءَةُ نَافِعٍ وَحْدَهُ كَمَا فِي «السَّبْعَةِ» لِابْنِ مَجَاهِدٍ (١٦٩)، وَفِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ نَهَى عَنِ السُّؤَالِ عَمَّنْ كَفَرَ مِنَ الْأَحْيَاءِ، لِأَنَّهُ قَدْ يَتَغَيَّرُ حَالُهُ فَيَنْتَقِلُ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ. وَالثَّانِي - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - أَنَّهُ نَهَى عَنِ السُّؤَالِ عَمَّنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ تَعْظِيمًا لِحَالِهِ، وَتَغْلِيظًا لَشَأْنِهِ، وَهَذَا كَمَا قَدْ يُقَالُ: لَا تَسْأَلُ عَنْ فُلَانٍ؛ أَي: قَدْ بَلَغَ فَوْقَ مَا تَحْسَبُ. «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٩٣/٢).

(٣) يَنْظُرُ: «الدَّرُ الْمُنْثَوْرُ» (٢٧١/١)، وَرَوَاهُ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٥٥٨/٢ - ٥٥٩) بِتَعْلِيْقِ الشَّيْخَيْنِ الْأَخْوَيْنِ شَاكِرٍ، وَهُوَ مَرْسَلٌ لِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرْظِيَّ تَابِعِيٌّ، وَفِي إِسْنَادِهِ مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ بْنِ نَشِيطِ الرُّبَذِيِّ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: لَا تَحُلْ عِنْدِي الرَّوَايَةَ عَنْ مُوسَى بْنِ عُبَيْدَةَ، وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ: لَا يَحْتَجُّ بِحَدِيثِهِ، «التَّارِيخُ الْكَبِيرُ» لِلْبُخَارِيِّ (٢٩١/٤)، وَيَنْظُرُ تَعْلِيْقُ الشَّيْخِ أَحْمَدَ شَاكِرٍ عَلَى الطَّبْرِيِّ فِي الْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ.

وفيه دليل واضح على المدعى، وتنبية نبيه على أن هذا حكم لم يُنسَخ بالإحياء، كما لا يخفى. قال العلامة الشيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد^(١).

قلت: المرسل حجة عند الجمهور من علماء الأصول والاعتقاد^(٢)، والطرق المتعددة للحديث ترفع الضعف وتوصله إلى الحسن أو الصحة عند الكل في الاعتماد.

وأخرج ابن جرير عن داود بن أبي عاصم رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «أين أبواي؟» فنزلت^(٣). قال الشيوطي: والآخر معضل الإسناد ضعيف^(٤).

قلت: المعضل عندنا حجة^(٥)، وضعفه يتقوى بالتعدد، لا سيما وقد تعلق به اجتهاد المجتهد، فدل على صحته، ولو حديث ضعف بالنسبة إلينا في روايته^(٦)، ويكتفى بمثل ذلك في أسباب النزول، كما هو معقول عند أرباب النقول.

(١) «الدر المنثور» (١/ ٢٧١).

(٢) لا بد من تحرير مصطلح المرسل عند الحنفية والجمهور؛ فالمرسل عند الحنفية: هو ما انقطع سنده، سواء كان الانقطاع في أوله، أو آخره، أو أوسطه، واحداً كان أو أكثر، وهذا ما أطبق عليه محققو متأخريهم، كالبخاري، وابن الهمام، وتلميذه ابن أمير حاج، وابن عابدين، أما متقدموهم كالجصاص، والبرزدي، والسرخسي فهو قول غير الصحابي: قال رسول الله ﷺ. أما عند المحدثين فقول التابعي: قال رسول الله ﷺ، ومذهب جمهور الفقهاء الاحتجاج بالمرسل، واشترط الشافعي لذلك شروطاً لا يحتج به دونها، فهو عنده من أنواع الحديث الضعيف. ينظر: «دراسات في أصول الحديث عند الحنفية» (٣٧٦)، و«كشف الأسرار» (٥/ ٣)، و«توجيه النظر في أصول الأثر» (٢/ ٥٥٧).

(٣) «تفسير الإمام الطبري»، (٢/ ٥٥٨ - ٥٥٩)، وداود بن أبي عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي: تابعي ثقة، ويروي عن بعض التابعين أيضاً. مترجم في «التهذيب» (١/ ٥٦٥)، والحديث مرسل.

(٤) «الدر المنثور» (١/ ٢٧١).

(٥) لأنه من أنواع المرسل عند الحنفية كما مر قريباً.

(٦) كذا في جميع النسخ الخطية.

وأخرج ابنُ المُنْذِرِ عن الأعرَجِ أَنَّهُ قرَأَ: ﴿وَلَا تَسْتَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾؛
أي: أنتَ يا مُحَمَّدُ. كذا في «الدرِّ المشهور»^(١).

وفي «تفسيرِ العِمَادِ ابنِ كثيرٍ»: قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنبَأَ الثَّوْرِيُّ، عن موسى بنِ
عُبَيْدَةَ، عن مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرْظِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْتَ
شِعْرِي، مَا فَعَلَ أَبُوَاي؟ لَيْتَ شِعْرِي، مَا فَعَلَ أَبُوَاي؟ لَيْتَ شِعْرِي، مَا فَعَلَ أَبُوَاي؟»
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩]، فَمَا ذَكَرَهُمَا
حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ^(٢)، وَهَذَا يُؤَيِّدُ مَا قَدَّمْنَاهُ، فَتَدَبَّرْ وَتَأَمَّلْ.

ورَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عن أَبِي كُرَيْبٍ، عن وَكَيْعٍ، عن موسى بنِ عُبَيْدَةَ، به مثْلَهُ،
وَذَكَرَ الْحَدِيثَ الْآخَرَ بِسَنَدِهِ كَمَا تَقَدَّمَ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَقَدْ رَدَّ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْقَوْلَ الْمَرْوِيَّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ
وغيرِهِ فِي ذَلِكَ لِاسْتِحَالَةِ الشَّكِّ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ فِي أَمْرِ أَبُوَيْهِ، وَاخْتَارَ الْقِرَاءَةَ الْأُولَى.
يعني النَّفْيَ.

قَالَ: وَهَذَا الَّذِي سَلَكَهَا هُنَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ هَذَا كَانَ فِي حَالِ اسْتِغْفَارِهِ^(٣)
لأَبُوَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَمْرَهُمَا، فَلَمَّا عَلِمَ ذَلِكَ تَبَرَّأَ مِنْهُمَا، وَأَخْبَرَ عَنْهُمَا أَنََّّهُمَا مِنْ أَهْلِ
النَّارِ، وَلِهَذَا أَشْبَاهُ كَثِيرَةٌ وَنَظَائِرُ، وَلَا يَلْزَمُ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ^(٤). انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ كَثِيرٍ.

وَقَالَ مُحْيِي السُّنَنِ فِي تَفْسِيرِهِ «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ»: قَالَ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «لَيْتَ شِعْرِي، مَا فَعَلَ
أَبُوَاي؟»، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ^(٥).

(١) «الدر المشهور» (١/ ٢٧١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).

(٣) في «س»: كذا في الأصل، وفي «ق» و«هـ» و«س»: (استفساره) ورمز لها ب (ظ).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٩).

(٥) «معالم التنزيل» (١/ ١٤٣).

أقول: وهذا النقل من ابن عباسٍ حبر الأُمّة كافٍ في الحُجّة، لا سيّما وهو من أهل بيت النبوة، ولو كان هناك تردّد في القضية لما ذكر مثل هذه القصة المُستلزمة للغصّة.

وكذا نقل الواحدي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ثمّ قال: وهذا على قراءة من قرأ ﴿وَلَا تُشْغَلْ عَنْ أَحْبَابِ الْبَحِيرِ﴾، جزمًا^(١).

وقال البيضاوي: قرأ نافع ويعقوب (ولا تسأل) على أنّه نهى للرّسول ﷺ من السّؤال عن حال أبيه^(٢)، انتهى.

والحاصل أنّ عمّة المُفسّرين كالمُجمعين على أنّ هذا سبب نزول الآية، ومن المُقرّر في علم الأصول أنّ نقل الصّحابيّ في سبب النّزول ولو كان موقوفاً فهو في حكم المرفوع الموصول^(٣)، فكيف وقد ثبت رفعه بطريق مُتعدّدة وأسانيد مختلفة؟ هذا، وقد قال من أئمّة التّفسير صاحب «التّيسير»^(٤): ولما أمر رسول الله ﷺ بتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين، كان يذكر عُقوبات الكفّار، فقام رجل وقال: يا رسول الله! أين والديّ؟ فقال: «في النّار»، فحزن الرّجل، فقال عليه السّلام: «إنّ والديك ووالديّ ووالديّ إبراهيم في النّار»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْغَلْ عَنْ أَحْبَابِ الْبَحِيرِ﴾، فلم يسألوا^(٥) بعد ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّدَ لَكُمْ قَسْوَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، انتهى.

(١) «الوسيط» للواحدي (١/ ١٩٩) وفيه: وقرأنا مع: ﴿وَلَا تُشْغَلْ﴾ بفتح التاء وجزم اللام، على النهي

للنبي ﷺ، وينظر: «حجة القراءات»، لابن زنجلة (١١١).

(٢) «أنوار التنزيل» (١/ ١٨٥).

(٣) ينظر: «إرشاد طلاب الحقائق» (٧٩).

(٤) هو الإمام عمر بن أحمد النسفي (ت ٥٣٧)، ولا زال التّفسير مخطوطاً.

(٥) زاد في «ق»: «شيئاً».

وفيه تنبيهٌ على أنَّ قراءةَ التَّنْفِي أيضاً تدلُّ على المُدَّعَى، فُتَبِّينُ ما ذكره العلماءُ من المُفسِّرين والقُرَّاءِ من أنَّ الأصلَ في القراءتين أن يَتَّفِقَ حالُهما ويَجْتَمَعَ مآلُهما، ثُمَّ تَقَطَّنْ لما في الحديثِ من تصريحِ ذكرِ والدِ إبراهيمَ في هذا المَقَامِ الفَخِيمِ.

* وَأَمَّا السُّنَّةُ: فما رواه مُسلمٌ عن أنسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْنَ أَبِي؟ فَقَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَى دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»^(١). وكذا ما رواه البزارُ من: أَنَّهُ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَأُمِّهِ فَضَرَبَ جَبْرِيْلُ صَدْرَهُ، وَقَالَ: لَا تَسْتَغْفِرُ لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا^(٢).

وكذا ما رواه الحاكمُ في «مُسْتَدْرَكِهِ» وَصَحَّحَهُ: أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِابْنِي مُلَيْكَةَ: «أُمُّكُمْ فِي النَّارِ»، فَشَقَّ عَلَيْهِمَا، فَدَعَاهُمَا، فَقَالَ: «إِنَّ أُمِّي مَعَ أُمِّكُمْ»^(٣). وَتَعَقَّبُ الذَّهَبِيُّ لَهُ بِكَوْنِ عِثْمَانَ بْنِ عُمَيْرٍ ضَعْفَهُ الدَّارِقُطِيُّ^(٤) لَمْ يُخْرِجْهُ عَنْ كَوْنِهِ ثَابِتًا حَسَنًا قَابِلًا لِلِاسْتِدْلَالِ، إِمَّا عَلَى الْإِسْتِقْلَالِ، وَإِمَّا مَعَ غَيْرِهِ لِتَقْوِيَةِ الْحَالِ. وكذا ما أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ أَبِي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْنَ أُمِّي؟ قَالَ: «أُمُّكَ فِي النَّارِ»، قُلْتُ: فَأَيْنَ مَنْ مَضَى مِنْ أَهْلِكَ؟ قَالَ: «أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ أُمُّكَ مَعَ أُمِّي»^(٥).

(١) «صحيح مسلم» رقم (٢٠٣).

(٢) عن بريدة رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بودان، أو بالقبور، سأل الشفاعة لأمه، أحسبه قال: فضرب جبريل عليه السلام صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركا. رواه البزار - كما في «كشف الأستار» (١/٦٦) - قال البزار: لا نعلم رواه بهذا الإسناد إلا محمد بن جابر. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/١١٧): ولم أر من ذكر محمد بن جابر هذا.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرک» (٣/٢١١) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) «تلخيص المستدرک» (٣/٢١١).

(٥) «مسند أحمد» (١٩٨٩٥).

وكذا ما روى ابن جرير عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه: أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه، فجعل يخاطب ثم قام مستعيراً، فقلنا: يا رسول الله! إنا رأينا ما صنعت، قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي»، فما ربي باكباً أكثر من يومئذ^(١).

وسياتي سبب بكائه ﷺ منصوصاً عن بعض العلماء، والله أعلم.

وكذا حديث مسلم، وأبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه ﷺ استأذن في الاستغفار لأمه، فلم يؤذن له^(٢).

وأما القول بأنه ثم استأذنه ثانياً وأذن له؛ فيحتاج إلى دليل صريح ونقل صحيح. ثم لا ينافي الحديث الأول ما ورد من طريق آخر ولم يذكر فيه: «إن أبي وأباك في النار»، بل قال: «إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار»؛ فإنه يفيد التعميم، والأول يدل على التخصيص، فذكره أولاً لتسليته له، وثانياً لئلا يتقيد الحكم بالمذكور، بل يعم من هو بالكفر مشهور.

كما يدل عليه رواية ابن ماجه من طريق إبراهيم بن سعيد، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أبي كان يصل الرحم، وكان وكان، فأين هو؟ قال: «في النار»، قال: فكأنه وجد من ذلك، فقال: يا رسول الله! فأين أبوك؟ قال رسول الله ﷺ: «حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار»، قال: فأسلم الأعرابي بعد، وقال: لقد كلفني رسول الله ﷺ تعباً، ما مررت بقبر كافر إلا بشرته بالنار^(٣).

(١) «تفسير الإمام الطبري» (١٣٤٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٦)، وأبو داود (٣٢٣٥).

(٣) «سنن ابن ماجه» (١٥٧٣).

وفي هذا التعميم دلالة واضحة، وإشارة لائحة بأن أهل الجاهلية كلهم كفار، إلا ما خُصَّ منهم بالأخبار عن النبي المختار.

ومما ثبت في الكتاب والسنة: ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال: ذُكِرَ لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يُحسِنُ الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ فقال النبي ﷺ: «والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٤] الآية، ثم عذر الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿تَبَرَّأْتُهُ﴾ [التوبة: ١١٤] (١).

وذكر لنا: أن نبي الله ﷺ قال: «أوحى إليّ كلمات قد دخلن في أذني وقرن في قلبي، أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفافي» (٢).

وتأويل الشيوطي: أن المراد بأبيه عمه أبو طالب، وبأبي إبراهيم عمه أزر؛ في غاية من السقوط. فتدبر، وسيأتي زيادة الكلام للرد عليه بالوجه الآخر الأوفر.

وأخرج ابن جرير (٣) من طريق عطية العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية، قال: إن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عن ذلك، قال: فإن إبراهيم عليه السلام قد استغفر لأبيه فتزل: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [التوبة: ١١٤].

(١) «تفسير الطبري» (١٣٤٧٥).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣٤٧٥).

(٣) «تفسير الطبري» (١٣٤٧٣).

قال السُّيوطي: هذا الأثر ضعيفٌ معلولٌ؛ فإنَّ عطيةً ضعيفٌ^(١)، وهو مُخالِفٌ لرواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس السَّابِقة، وتلك أَصَحُّ، وعليُّ ثِقَةٌ جليلٌ^(٢). قلتُ: عطيةٌ مُختلفٌ فيه، ولو سَلِمَ أَنَّهُ ضعيفٌ فيتَقَوَّى بانضمام غيره إليه، ثمَّ لا مُخالَفةَ بينَ الرَّوايتين؛ لإمكان الجمع بين القضيتين بتعدُّد الواقعة في الحالتين، وقد نقله الحافظُ عمادُ الدِّين في «تفسيره» عن العوفيِّ عن ابن عباسٍ وسكت عليه، وهذا دليلٌ ثبوته عنده^(٣).

وقد أخرج ابنُ أبي حاتمٍ والحاكمُ وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «الدلائل» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خرج رسولُ الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتَّبَعْنَاهُ، فجاء حتَّى جلسَ إلى قبرٍ منها فَنَاجَاهُ طويلاً، ثمَّ بكى فَبَكَيْنَا لُبْكَائِهِ، ثمَّ قامَ فقامَ إليه عمرُ فدعاه، ثمَّ دعانا فقال: «ما أبكاكم؟» قلنا: بَكَيْنَا لُبْكَائِكَ، قال: «إِنَّ القَبْرَ الَّذِي جَلَسْتُ عنده قبرُ آمنَةٍ، وإِنِّي استأذَنْتُ ربي في زيارتها فأذِنَ لي، وإِنِّي استأذَنْتُ ربي بالاستغفارِ لها فلم يأذنْ لي، وأنزَلَ عليَّ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣]، فأخذني ما يأخذُ الولدُ للوالدة من الرَّأْفَةِ، فذاك الذي أبكاني»^(٤).

(١) عطية بن سعد بن جنادة العوفي القيسي الكوفي، أبو الحسن، من التابعين، روى له البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، اختلف فيه، فوثقه جمع من الأئمة، وضعفه آخرون، وكان فيه تشيع، ينظر: «تهذيب الكمال» (١٤٨/٢٠).

(٢) علي بن أبي صالح، يروي التفسير عن ابن عباس رضي الله عنه، لكنه لم يسمعه منه، قال الإمام الخليلي في «الإرشاد»: وأجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمعه - أي: التفسير - من ابن عباس. «الإرشاد» (٣٩٤/١)، وأخرج الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٢٨/١١) عن صالح جزرة أنه سئل: ممن سمع ابن أبي طلحة التفسير؟ فقال: من لا أحد.

(٣) ينظر: «تفسيره» (١٧١٦/٤).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٥١)، والحاكم في «المستدرک» (٣٣٦/٢)، والبيهقي في =

وكذا ذكره الواحدِيُّ في «أسباب نزوله»^(١) بإسناده عنه مثله، ورواه الطَّبْرَانِيُّ عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا نحوه، كما ذكره الْقَسْطَلَانِيُّ، قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: وَبُكَاءُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَا فَاتَهَا مِنْ إِدْرَاكِ آيَاتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ^(٢).

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ وَقَفَ عَلَى عُسْفَانَ فَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَأَبْصَرَ قَبْرَ أُمِّهِ آمَنَةَ، فَوَرَدَ الْمَاءَ فَنَوَضًا ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَلَمْ يَفْجَأْنَا إِلَّا بِبُكَائِهِ، فَبَكَيْنَا بِبُكَائِهِ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ وَدَعَا، فَلَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَقَدْ عَلَا بُكَاءُهُ فَعَلَّا بِبُكَاءِ الْبُكَائِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَا الَّذِي أَبْكَأَكُمْ؟» قَالُوا: بَكَيْتَ فَبَكَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «وَمَا ظَنَنْتُمْ؟» قَالُوا: ظَنَنَّا أَنَّ الْعَذَابَ نَازَلَ عَلَيْنَا بِمَا نَعْمَلُ، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ».

قَالُوا: فَظَنَنَّا أَنَّ أَمْتَكْ كُلَّتْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَا يُطِيقُونَ فَرَحْمَتَهَا، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ»، وَلَكِنْ مَرَرْتُ بِقَبْرِ آمَنَةَ أُمِّي فَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ أَنْ أَسْتَغْفَرَ لَهَا، فَتُهِيتُ فَبَكَيْتُ، ثُمَّ عُدْتُ فَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ فَاسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفَرَ لَهَا فَرُجِرْتُ زَجْرًا، فَعَلَّا بِبُكَائِي، ثُمَّ دَعَا بِرَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا، فَمَا سَارَ إِلَّا هُنَيْهَةً حَتَّى قَامَتِ^(٣) النَّاقَةُ لِثِقَلِ الْوَحْيِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤] الْآيَتِينَ^(٤).

وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَقْبَلَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ اعْتَمَرَ، فَلَمَّا هَبَطَ مِنْ ثَنِيَّةِ عُسْفَانَ أَمَرَ

«دلائل النبوة» (١/ ١٨٨).

(١) «أسباب النزول» للواحدِي (٢٦٨).

(٢) انظر: «إكمال المعلم» للقاضي عِيَّاض (٣/ ٤٥٢).

(٣) في «س»: أشار فوقها: «أي وقفت».

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٢٠٣) حيث عزاه إلى ابنِ مَرْدَوَيْهِ.

أصحابه أن يستندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهبت فتزل على قبر آمنه، فنجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاءً، فبكى هؤلاء لبكائه، فقالوا: ما بكى نبي الله هذا البكاء إلا وقد حدث في أمته شيء لم نطقه، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله، ما هذا البكاء إلا وقد حدث في أمتك شيء لم نطقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكنني نزلت على قبر أمي، فدعوت الله ليأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى أن يأذن لي فرحمتها، وهي أمي، فدعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعاً، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء، والغرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم القتل والهرج».

قال: وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء، وكانت عسفان لهم، وبها ولد النبي ﷺ، أي: على قول^(١).

وقد أخرج العماذ ابن كثير هذا الحديث بسند الطبراني المتصل إلى ابن عباس رضي الله عنهما مع تغيير قليل، وزاد في آخره: «ثم جاءني جبريل وقال: ﴿وَمَا كَأَنْتَ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فتبرأ من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهي أمي، ودعوت ربي»^(٢)... إلى آخره.

وأخرج ابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٤٩)، قال في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٧): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه أبو الدرداء، وعبد الغفار بن المنيب عن إسحاق بن عبد الله عن أبيه عن عكرمة، ومن عدا عكرمة لم أعرفهم ولم أر من ذكرهم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥).

عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ابْنَا مُلَيْكَةَ، وَهُمَا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّنَا كَانَتْ تَحْفَظُ عَلَى الْبَعْلِ، وَتُكْرِمُ عَلَى الضَّيْفِ، وَقَدْ وَاَدَّتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَيْنَ أُمَّنَا؟ قَالَ: «أُمُّكُمَا فِي النَّارِ»، فَقَامَا وَقَدْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجَعَا، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ أُمَّي مَعَ أُمُّكُمَا فِي النَّارِ»^(١).

وَأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنِ الْكَلْبِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ بِنِ قَيْسٍ الْجَعْفِيِّ نَحْوَهُ^(٢).

وَفِي «الْمَعَالِمِ»: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَبُرَيْدَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَى إِلَى قَبْرِ أُمِّهِ آمَنَةَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ حَتَّى حَمَيْتِ الشَّمْسُ رَجَاءً أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فَيَسْتَغْفَرَ لَهَا، فَتَزَلَّتْ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]^(٣).

ثُمَّ ذَكَرَ إِسْنَادَهُ الْمُتَّصِلَ إِلَى مُسْلِمِ بْنِ الْحَجَّاجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبَكَى مِنْ حَوْلِهِ، فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفَرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»^(٤).

* وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ: فَقَدْ اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَالْأئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَسَائِرُ الْمُجْتَهِدِينَ عَلَى ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ إِظْهَارٍ خِلَافٍ لِمَا هُنَالِكَ، وَالْخِلَافُ مِنَ اللَّاحِقِ لَا يَقْدَحُ فِي الْإِجْمَاعِ السَّابِقِ، سِوَاءِ يَكُونُ مِنْ جَنْسِ الْمُخَالَفِ، أَوْ صَنْفِ الْمُوَافِقِ.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/١٠٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٣٩٦). ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ١١٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» (١/ ١١٦).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٢/ ٣٣١).

(٤) «صحيح مسلم» (٩٧٦). وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٢/ ٣٣١).

والعَجَبُ من الشَّيْخِ جلالِ الدِّينِ السَّيُوطِيِّ مع إحاطتِهِ بهذه الآثارِ التي كادَتْ أن تكونَ مُتواترةً في الأخبارِ؛ أنَّه عدَلَ عن مُتَابَعَةِ هذه الحُجَّةِ، وموافقةِ سائرِ الأئمَّةِ، وتبعَ جماعةً من العلماءِ المُتأخِّرينَ، وأوردَ أدلَّةً واهيةً في نظرِ الفُضلاءِ المُعْتَبَرينَ.

منها: أنَّ اللهَ سبحانه أحمى له أبويه حتَّى آمنا به، مُستدلاً بما أخرجه ابنُ شاهينَ في «النَّاسِخِ والمَنْسُوخِ»، والخطيبُ البغداديُّ في «السَّابِقِ وَاللاحِقِ»، والدَّارَقُطْنِيُّ، وابنُ عساکِرٍ كلاهما في «غرائبِ مالِكٍ» بسندٍ ضعيفٍ عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَ: حَجَّ بنا رسولُ الله ﷺ حَجَّةَ الوداعِ، فمرَّ بي على عَقَبَةِ الحُجَّونِ وهو بالِكَ حزينٌ مُعْتَمٌ فنزلَ فَمَكَثَ عَنِّي طويلاً، ثُمَّ عادَ إِلَيَّ وهو فَرِحٌ مُتَبَسِّمٌ، فقلتُ له، فقال: «ذهبْتُ لِقَبْرِ أُمِّي، فسألتُ اللهَ أن يُحييَها فأَمَنَتْ بي، ورَدَّها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وهذا الحديثُ ضعيفٌ باتِّفاقِ المُحدِّثينَ كما اعترفَ به السَّيُوطِيُّ^(٢)، وقالَ ابنُ كثيرٍ: إِنَّهُ مُنْكَرٌ جَدًّا^(٣)، ورَوَّاهُ مجهولونَ، فَقَوْلُ الشَّيْخِ ابنِ حَجَرٍ المَكِّيِّ في «شرحِ الهمزِيَّةِ»^(٤): «هو حديثٌ صحيحٌ صحَّحَهُ غيرُ واحدٍ من الحُفَّاظِ؛ مردودٌ عليه، بل كَذِبٌ صريحٌ، وعَيْبٌ قبيحٌ، مُسْقِطٌ للعدالةِ، ومُوهِنٌ للرَّوايةِ؛ لأنَّ السَّيُوطِيَّ مع جلالَتِهِ، وكمالِ إحاطتِهِ، ومُبالغتِهِ في رسائلٍ مُتعدِّدةٍ من تصنيفاتِهِ، ذَكَرَ الاتِّفَاقَ على ضَعْفِ هذا الحديثِ، فلو كانَ له طريقٌ واحدٌ صحيحٌ لَذَكَرَهُ في مَعْرِضِ التَّرْجِيحِ.

ومن المعلومِ أنَّ بَعْدَهُ لم يُحَدِّثْ غيرُ واحدٍ من المُحدِّثينَ الذينَ يَصِحُّ كونُهُم من المُصَحِّحينَ، وَمَنْ ادَّعى فعليةَ البيانِ في مَعْرِضِ المِيدانِ.

(١) الحديث رواه ابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (٤٨٩). وقد أورده ابن الجوزي في

«الموضوعات» (١/ ٢٠٩)، والسَّيُوطِيَّ في «اللائلِ المصنوعة» (١/ ٢٤٥) إلا أنه صوب

الحكم عليه بالضعف لا الوضع.

(٢) كما في: «نشر العلمين المنفين» (٢٠٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥).

(٤) «المنح المكية بشرح الهمزية» (١٠١).

هذا وقد قال الحافظ ابن دحية^(١) كما نقله العِمَادُ ابنُ كثيرٍ عنه: إنَّ هذا الحديثَ موضوعٌ يرُدُّه القرآنُ والإجماعُ، قال اللهُ تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]^(٢)، انتهى.

والمعنى: أنَّه ثبتَ كُفْرُهُما بما سبقَ من دلالة الآية السابقة المنصّمة إلى رواية السنّة المتقوية بإجماع الأمّة مع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ أي: ليست التوبة صحيحة ممّن مات وهو كافراً؛ لأنّ المُعتبر هو الإيمان الغيبي؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤].

والحاصل: أنَّه لم يثبت إحيائهما وإيمانُهما، والدليل على انتفائهما عدمُ اشتغاريهما عند الصّحابة، لا سيّما والواقعة في حجة الوداع، والخلق الكثير في خدمته بلا نزاع، مع منافاته للقواعد الشرعيّة من عدم قبول الإيمان بعد مُشاهدة الأحوال الغيبيّة بالإجماع، ثمّ دعوى الخصوصية يحتاجُ إلى إثبات الأدلة القويّة، فمن ادّعى هذا العنوان فعليه البيان.

وأما الاستدلالُ بالقدرة الإلهيّة وقابليّة الخصوصية للحضرة النّبويّة، فأمر لا يُنكره أحدٌ من أهل المِلّة الحنيفيّة، وإنّما الكلامُ في إثبات هذا المرام بالأدلة على وجه النّظام، لا بالاحتمال الذي لا يصلح للاستدلال خصوصاً في معارضة نصوص الأقوال.

(١) أبو الخطاب عمر بن الحسين الكلبي السبتي، الحافظ الرحال، جال البلاد في طلب الحديث، وله سماعات عالية، وحدث كثيراً، وأدب أولاد الملك الكامل، وتوطن مصر ومات بها وقد ناهز التسعين (ت ٦٣٣)، «بغية الوعاة» (٢/ ٢١٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥).

وأما قول القرطبي: فليس إحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً^(١)؛ فلا شبهة في إمكانه أصلاً ولا فرعاً، وإنما الكلام في ثبوته أولاً ونفيه ثانياً.

وبهذا يندفع ما أورده السهيلي في «الروض الأنف»^(٢) بسند فيه جماعة مجهولون: إن الله أحى له أباه وأمه فأمنابه.

ثم قال بعد إيراده: الله قادرٌ على كل شيء، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيه ﷺ أهل أن يختص بما شاء من فضله وينعم بما شاء من كرامته.

قلت: ولو صحَّ هذا الإحياء، لأظهره ﷺ على الأعداء، فضلاً عن الأحباء من أكابر أصحابه، ولم يكتفِ بذكره لعائشة من بين أحبائه، على أن رواية عائشة رضي الله عنها لو صحَّت لانتشر عنها إلى التابعين وغيرهم وشاعت؛ فإنه لو صحَّ إحياء أبيه وإيمانها لكان من أظهر معجزاته، وأكبر كراماته ﷺ، فتبين أن هذا من موضوعات الرافضة، وإنما نسبوا الحديث إلى عائشة تبعيداً عن الظن بوضعهم، وتأكيذاً للقضية في ثقة إثباتهم.

وأغرب القرطبي حيث قال: لا تعارض بين حديث الإحياء وحديث النهي عن الاستغفار لهما، بدليل حديث عائشة رضي الله عنها: أن ذلك كان في حجة الوداع، ولذلك جعله ابن شاهين ناسخاً لما ذكر من الأخبار^(٣)، انتهى. ولا يخفى وجه الغرابة؛ فإن الحديث إذا كان ضعيفاً باتفاق المحدثين، وموضوعاً عند المحققين، ومخالفاً للكتاب عند المفسرين، كيف يصلح أن يكون معارضاً لحديث مسلم في «الصحيح»، ومناقضاً لما سبق مما كاد أن يكون متواتراً

(١) «التذكرة» للقرطبي (١/١٤١).

(٢) «الروض الأنف» (١/١٩٤).

(٣) «التذكرة» للقرطبي (١/١٣٨).

في التصريح؟ أو كيف يُمكنُ أن يكونَ ناسخاً؟ والنسخُ لا يجوزُ في الأخبارِ عندَ علماءِ الأعلامِ، وإنَّما هو من مُختَصَّاتِ الإنشاءِ والأحكامِ، وإلا فيلزمُ الخُلْفُ في أخبارِهِ ويتوجَّهُ البَداءُ^(١) في آثارِهِ، وهو مُتعالٍ عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها قولُ السيوطي: إنَّهما ماتا قبلَ البعثةِ، وإنَّهما كانا من أصحابِ الفترةِ^(٢). وهذا كما لا يخفى مُعارضَةٌ لما ثَبَتَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ومُناقضةٌ لما صرَّحَ بإشراكِهِما فيما سبقَ من صاحبِ النبوةِ.

فما ذكره من تطويلِ البَحْثِ وتكثيرِ الأدلَّةِ غيرُ مُفيدٍ له في هذه القضيةِ معَ ظهورِ التَّنَاقُضِ في كلامِهِ لتحصيلِ مَرامِهِ، فإنَّهما لو كانا من أهلِ الفترةِ لَمَا احتاجا إلى الإحياءِ والإيمانِ بالنبوةِ بناءً على أنَّهما من أهلِ النَّجاةِ في الفِطْرةِ.

ثمَّ هذه المسألةُ فيها خلافُ المُعتزَلَةِ، وأكثرِ أكابرِ أهلِ السُّنَّةِ، حتَّى قالَ بعضُ المُحقِّقين: لا يُوجَدُ صاحبُ الفترةِ إلا من ولِدَ في مفازةٍ خاليةٍ عن سماعِ بَعثةِ صاحبِ النبوةِ بالكُلِّيَّةِ، على خلافٍ في أنَّه هل هو مُكَلَّفٌ بالعقلِ توحيدَ الرَّبِّ وشُكْرَ نِعَمَتِهِ ووجوبَ النَّظَرِ في صَنعَتِهِ أم لا^(٣)؟

(١) البداء ظهور بعد خفاء، وهو بهذا المعنى محال على الله تعالى، لأن منشأ الجهل بعواقب الأمور، ولا يبدو له تعالى شيء كان عنه غائباً. «الكليات» للإمام الكفوي (٢٠١).

(٢) ينظر: «السبل الجلية في الآباء العلية»، ضمن «الرسائل التسع» للسيوطي (٢٢٥).

(٣) قال السيوطي: وحكم من لم تبلغه الدعوة أنه يموت ناجياً ولا يعذب ويدخل الجنة، هذا مذهبنا لا خلاف بين أئمتنا الشافعية في الفقه، والأشاعرة في الأصول، وقد نص على ذلك إمامنا الشافعي رضي الله عنه في «الأم» و«المختصر». ثم قال السيوطي: وهذه مسألة فقهية مقررة في كتب الفقه، وهي فرع من فروع قاعدة أصولية متفق عليها عند أئمتنا الأشاعرة، وهي قاعدة: شكر المنعم وأنه واجب بالسمع لا بالعقل، وهذه القاعدة مرجعها إلى قاعدة كلامية؛ وهي قاعدة التحسين والتقيح العقليين، وإنكارهما متفق عليه من الأشاعرة كما هو معروف في كتب الكلام والأصول. «السبل المرضية في الآباء العلية» (٢٢٦).

ومما يتفرَّع عليه ما ذكره البَغَوِيُّ في «التَّهْذِيبِ»: «أَمَّا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ فَلَا يَجُوزُ قَتْلُهُ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ قُتِلَ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَجَبَ فِي قَتْلِهِ الدِّيَّةُ وَالْكَفَّارَةُ، وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَجِبُ الضَّمَانُ بِقَتْلِهِ.

وَقَالَ الْغَزَالِيُّ فِي «الْبَسِيطِ»: «مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ يُضْمَنُ بِالْأُتَمَّةِ وَالْكَفَّارَةِ لَا بِالْقَصَاصِ عَلَى الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مُسْلِمًا عَلَى التَّحْقِيقِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي مَعْنَى الْمُسْلِمِ. قَالَ ابْنُ الرَّفْعَةِ فِي «الْكِفَايَةِ»: «لَأَنَّهُ مَوْلُودٌ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ عِنَادٌ. انْتَهَى»^(١).

وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى أَصْلِ الْفِطْرَةِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا يُنَافِي التَّفْرِيدَ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وَكَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيُنَصْرَانِهِ وَيُمَجَّسَانِهِ»^(٢). الْحَدِيثُ.

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ فِي حَالِ عَقْلِهِ وَكَمَالِ حَالِهِ إِذَا خُلِّيَ هُوَ وَطَبَعُهُ اخْتَارَ التَّوْحِيدَ لِلَّهِ فِي الذَّاتِ، وَالتَّفْرِيدَ لَهُ فِي الصِّفَاتِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَضِيَّةُ الْمِيثَاقِ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ، عَلَى مَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مُحَلِّهِ الْأَلْيَقِ بِهِ. وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ: مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا فَهُوَ فِي النَّارِ، وَإِنْ مَاتَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا قَدْ غَيَّرُوا الْحَنِيفِيَّةَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِهَا الشُّرْكَ وَارْتَكَبُوهُ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ، وَلَمْ يَزَلْ مَعْلُومًا مِنْ دِينِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى

(١) هذه النقول عن البغوي والغزالي وابن الرفعة نقلها الملا القاري من رسالة السيوطي: هل

أبو رسول الله ﷺ ناجيان؟ ضمن «الحاوي للفتاوي» (٢/٢٠٦).

(٢) رواه البخاري (١٣١٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

آخِرِهِمْ قُبْحُ الشُّرْكِ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ فِي النَّارِ، وَأَخْبَارُ عُقُوبَاتِ اللَّهِ لِأَهْلِهِ مُنْدَاوَلَةٌ بَيْنَ الْأُمَمِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ.

ولو لم يكن إلا ما فطر الله عليه عباده من توحيد ربوبيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان سبحانه لا يُعَذَّبُ بِمُقْتَضَى هذه الفطرة وحدها، فلم تزل دعوة الرُّسُلِ إلى التَّوْحِيدِ فِي الْأَرْضِ معلومةً لأهلها، فالْمُشْرِكُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ فِي النَّارِ لِمُخَالَفَتِهِ دَعْوَى الرُّسُلِ، وهو مُخَلَّدٌ فِيهَا دَائِمًا كخُلُودِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، انتهى.

ولا يخفى أَنَّ ما وَرَدَ عَنْهُ ﷺ فِي حَقِّ بَعْضِ أَرْبَابِ الْفِتْرَةِ مِنَ التَّعْذِيبِ يَدُلُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً لِلرَّدِّ عَلَى ما عَلَيْهِ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ^(١) مِنْ أَنَّ أَهْلَ الْفِتْرَةِ لَا يُعَذَّبُونَ مُطْلَقًا. قال: وأصله أَنَّهُ عِنْدَهُمْ مُحْجُوجٌ عَلَيْهِ بِعَقْلِهِ، وَعِنْدَنَا هُوَ غَيْرُ مُحْجُوجٍ عَلَيْهِ قَبْلَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

ومنها قولُ السُّبُوطِيِّ: إِنَّهُ وَرَدَ فِي أَهْلِ الْفِتْرَةِ أَحَادِيثُ أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ تُرْفَعَ لَهُمْ نَارٌ فَيُقَالُ لَهُمْ: أَدْخُلُوهَا، فَيَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ سَعِيدًا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلُ، وَيَمْتَنِعُ مَنْ دُخِلَ لَهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ شَقِيًّا لَوْ أَدْرَكَ الْعَمَلُ، فيقولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ، فكيفَ بُرِّسْتُمْ بِالْغَيْبِ؟^(٢).

ولا يخفى أَنَّ هذا على تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ لِمُعَارَضَةِ مُخَالَفَتِهِ إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ وَلَمْ يُعْلَمْ حَالُهُ مِنْ إِحْدَاثِ الشُّرْكِ أَوْ التَّوْحِيدِ عَلَى الْفِطْرَةِ.

وَأَمَّا مَنْ ثَبَتَ كُفْرُهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاتَّفَاقِ الْأُئِمَّةِ؛ فَلَا وَجْهَ لِإِدْخَالِهِ فِي أَصْحَابِ

(١) هو مذهب جمهور الشافعية، والمنقول عن نص الإمام كما مر آنفاً.

(٢) ينظر: «مسالك الحنفيا» ضمن «الرسائل التسع» (١٥) وما بعد.

الامتحان للطاعة، كورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة، وغيرهما ممن ثبت توحيدهما، ولا نحو صاحب المخجن^(١) وغيره ممن ثبت شركهما.

وأغرب من هذا أنه استدل بقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في بعض كتبه: الظنُّ بآله ﷺ - يعني الذين ماتوا قبل البعثة - أنهم يطيعون عند الامتحان إكراماً له ﷺ لتقرَّ بهم عينه^(٢)، انتهى.

ووجه الغرابة: أن هذه القضية بالطريقة الظنية في أهل الفترة الحقيقية المبهمة لا تُفقد في المسألة العينية.

وكذا من العجيب ما نسب إلى العسقلاني في قوله: ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وأل بيته في جملة من يدخلها طائعاً فينجو، إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن، وثبت في «الصحيح» أنه في ضحضاح من نار^(٣)، انتهى.

ولا يخفى أن إدخال عبد المطلب في القصة خارج عن الصحة؛ لما ورد في «صحيح البخاري ومسلم»^(٤) وغيرهما: أن رسول الله ﷺ دخل على أبي طالب عند موته وعنده أبو جهل وابن أبي وأمية قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فنزل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦]، فهذا يقتضي أن عبد المطلب مات على الشرك بلا شك.

(١) رجل من أهل الجاهلية كان يسرق متاع الحاج بمحجنه، فإن رآه أحد قال: إنما تعلق بمحجني، وقد شهد رسول الله ﷺ بأنه رآه متكئاً على محجنه في النار. ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (١/ ١٥٦ - ١٥٧).

(٢) «الدرج المنيفة في الآباء الشريفة»، ضمن «الرسائل التسع» للسيوطي (٩١).

(٣) رواه البخاري (٣٦٧٠) ومسلم (٣٥٧) عن العباس رضي الله عنه.

(٤) «صحيح البخاري» (٩٩) ومسلم (٣٩) عن سعيد بن المسيب، عن أبيه.

وفي الأصل المَهْذَبُ أَنَّ الْمَجْرَبَ لَا يُجْرَبُ.

وَمِمَّا يُقَوِّيه وَيُؤَكِّدُهُ مَا فِي «مُسْنَدِ الْبَزَارِ» وَ «كِتَابِ النَّسَائِيِّ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَدْ عَزَّتْ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ عَنْ مِيتِهِمْ: «لَعَلَّكَ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكُدَى»^(١)، فَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكُدَى مَا رَأَيْتِ الْجَنَّةَ حَتَّى يَرَاهَا جَدُّ أَبِيكَ»^(٢).

وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ: «حَتَّى يَرَاهَا جَدُّ أَبِيكَ».

وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ عَلَى مُرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةِ وَلَوْ كَانَ صَاحِبُهَا مِنْ أَعْلَى أَهْلِ بَيْتِ النَّبَوَّةِ.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ»^(٣)، فَمَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَابِ الْإِفْتِخَارِ فِي الْإِتْسَابِ بِالْأَبَاءِ الْكُفَّارِ، بَلْ لِإِظْهَارِ الْجَلَادَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْإِشْتِهَارِ، كَمَا بَيَّنَّتْهُ فِي «شَرْحِ الشَّمَائِلِ» لِلتِّرْمِذِيِّ. وَأَمَّا مَا حَكَاهُ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ: إِنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُ بَعْدَ بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى آمَنَ بِهِ وَأَسْلَمَ ثُمَّ مَاتَ^(٤)، فَهُوَ مَرْدُودٌ؛ لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثٍ ضَعِيفٍ وَلَا غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا حَكُوهُ عَنْ بَعْضِ الشَّيْعَةِ، وَخِلَافُهُمْ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ.

(١) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: أَرَادَ الْمَقَابِرَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمَا كَانَتَا مَقَابِرَهُمْ فِي مَوَاضِعَ صَلْبَةٍ، وَهِيَ جَمْعُ كَدِيَّةٍ. «الْنَهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ» (٤/١٥٦).

(٢) «سَنَنِ النَّسَائِيِّ» رَقْمُ (١٨٨٠)، وَعَقِبَ عَلَيْهِ: رِبْعَةٌ - أَيِ: الْمَعَاوِرِ أَحَدُ رَوَاتِهِ - ضَعِيفٌ، وَأَخْرَجَهُ بِهِ أَبُو دَاوُدَ (٣١٢٣)، وَهُوَ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» (٦٥٧٤)، وَابْنُ حِبَانَ (٣١٧٧).

(٣) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (٢٧١٩) عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) «عَيُونُ الْأَثَرِ» (١/٢٢٨)، وَقَدْ صَرَحَ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ بِذَلِكَ فَقَالَ بَعْدَ إِيرَادِهِ خَبَرَ إِيْمَانَ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ وَوَالِدِي النَّبِيِّ ﷺ بِصِغَةِ التَّضْعِيفِ: وَهِيَ رَوَايَاتٌ لَا مَعُولَ عَلَيْهَا.

وكذا قول القُرطبيّ على ما ذكره ابنُ العِمادِ ابنُ كثيرٍ عنه في «تفسيره»^(١):
 إِنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَا طَالِبٍ حَتَّى آمَنَ؛ باطلٌ موضوعٌ بإجماعِ أهلِ الحديثِ، ومُخالفٌ
 لمذهبِ الحقِّ، على أَنَّهُ سَبَقَ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ بَعْدَ الْعِيَانِ، بل أقولُ: لَا يَتَصَوَّرُ
 هَذَا الْبَيَانُ؛ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]،
 وَلَا خُلْفَ فِي إِخْبَارِهِ سُبْحَانَهُ.

ومنها قولُ السُّيوطيِّ: إِنَّ ابْنَ جَرِيرٍ ذَكَرَ فِي «تفسيره» عن ابنِ عَبَّاسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]،
 قَالَ: مِنْ رَضَى مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ النَّارَ^(٢).

وفيه أَنَّ هَذَا قَوْلُ صَحَابِيٍّ مِنْ قِبَلِ رَأْيِهِ، وَعَلَى تَسْلِيمِ صِحَّتِهِ وَدَلَالَتِهِ فَأَهْلُ
 بَيْتِهِ لَا يَتَنَاوَلُ أَقَارِبَهُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْكُفَّارِ بِالْإِجْمَاعِ، نَعَمْ يُفِيدُ أَنَّ مَنْ كَانَ نَسَبُهُ ثَابِتًا
 إِلَى صَاحِبِ النُّبُوَّةِ يُرْجَى لَهُ حُسْنُ الْخَاتِمَةِ وَحُصُولُ الشَّفَاعَةِ، أَوْ تَوْفِيقُ التَّوْبَةِ عَنِ
 الْمَعْصِيَةِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ؛ لِمَا أَخْرَجَهُ أَبُو سَعِيدٍ فِي «شَرَفِ النُّبُوَّةِ»، وَالْمَلَأَ فِي
 «السِّيَرَةِ» عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يَدْخُلَ
 النَّارَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَأَعْطَانِي ذَلِكَ».

على أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: الْمُرَادُ بِالنَّفْيِ دُخُولُ الْآبَاءِ، فَيَكُونُ بَشَارَةً إِلَى مَوْتِ
 أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَدُخُولِهِمْ دَارَ السَّلَامِ، وَلَوْ كَانَ بَعْدَ مُضِيِّ الْأَيَّامِ^(٣).

وَأَمَّا مَا أَخْرَجَ تَمَّامُ الرَّازِيُّ فِي «فوائده» بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شَفَعْتُ لِأَبِي

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧١٥)، وهو في «التذكرة للقرطبي» (١/ ١٣٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٨) ط - دار هجر، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠١)، وقال: رواه ابن جرير،

وابن أبي حاتم، عن السدي، وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة، وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

(٣) «مسالك الحنفا» (٢٤).

وَأُمِّي وَعَمِّي أَبِي طَالِبٍ وَأَخِي لِي كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ»^(١)؛ أَي: بِالرَّضَاعَةِ، كَمَا فِي رَوَايَةٍ، فَهُوَ حُجَّةٌ لَنَا لَا عَلَيْنَا، لِإِدْرَاجِهِ أَبُوهُ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الْمُجْمَعِ عَلَى كُفْرِهِ، فَالْحَدِيثُ إِنْ ثَبَتَ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ بِشَفَاعَتِهِ ﷺ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ أَغْرَبَ الشَّيْطَانُ فِي قَوْلِهِ: وَمِمَّا يُرْشَحُ مَا نَحْنُ فِيهِ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي أَبْنَاءَ الْعَشْرِينَ مِنْ أُمَّتِي فَوَهَبَهُمْ لِي»^(٢).

ثُمَّ قَالَ: وَمِمَّا يَنْضَمُّ إِلَى ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَرِيحاً فِي الْحَقِّ مَا أَخْرَجَهُ الدَّيْلَمِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعاً: «أَوَّلُ مَنْ أَشْفَعُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَهْلُ بَيْتِي، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ»^(٣)، الْحَدِيثُ.

فَذَكَّرْ هَذَا وَأَمْثَالَهُ مِمَّا لَا يُنَاسِبُ حَالَهُ؛ إِذِ الْكَلَامُ لَيْسَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلِذَا قَالَ التَّوَوُّيُّ فِي «شرح مُسْلِمٍ» عِنْدَ حَدِيثِ «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»: فِيهِ أَنَّ مَنْ مَاتَ كَافِراً فِي النَّارِ لَا تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْأَقْرَبِينَ^(٤)، وَتَعَقَّبَهُ السُّهَيْلِيُّ بِمَا ظَاهَرَهُ مِنَ الْبُطْلَانِ الْبَدِيهِيِّ، وَهُوَ قَوْلُهُ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نَقُولَ ذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَا تُؤَدُّوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْأَمْوَاتِ»^(٥)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]،

(١) رَوَاهُ تَمَامٌ فِي «فَوَائِدِهِ» (٢/ ٤٥). وَانْظُرْ: «مَسَائِلُ الْحَنَفَاءِ» (٢٤).

(٢) «جَامِعُ الْأَحَادِيثِ» لِلْسَيَّوْطِيِّ (٤/ ٢٦٠) رَقْمُ الْحَدِيثِ (١٢٧٩٦).

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ» (١٣٥٥٠). قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَادِ» (١٠/ ٣٨٠): وَفِيهِ مَنْ لَمْ أَعْرِفْهُم.

(٤) «شرح مُسْلِمٍ» (١/ ٤٣٩).

(٥) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَقْمُ (١٩٨٢) بِلَفْظٍ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ».

ولعلَّه يصحُّ ما جاء أنَّه ﷺ سأل الله سبحانه فأحى له أبويه، ورسولُ الله ﷺ فوقَ هذا، ولا يُعجزُ الله سبحانه شيءٌ^(١).

ثمَّ أوردَ قولَ النَّوَوِيِّ: إِنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْفَتْرَةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ التَّعْذِيبِ قَبْلَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ^(٢)، انتهى.

وهو في غاية من البهائم كشمس الضحى وبذر الدجى، لكن مع هذا تعقُّبه بما هو كالبهائم في الهواء من المناقشة في العبارة على توهم المناقضة بين كلامي النَّوَوِيِّ مُعْتَرِضاً عَلَيْهِ بقوله: إِنَّ مَنْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ لَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ، وَدَفَعَهُ سَهْلٌ؛ فَإِنَّ مُرَادَ النَّوَوِيِّ مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ: مَنْ كَانَ قَبْلَ بَعَثَةِ نَبِيِّنَا ﷺ الْمُعْبَرِ عَنْهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ.

ومنها قولُ الشُّيُوطِيِّ: إِنَّهُمَا لَمْ يَثْبُتْ شِرْكُهُمَا، بَلْ كَانَا عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ دِينَ جَدُّهُمَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(٣).

قلتُ: وهذا يُعَارِضُهُ مَا صَحَّ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا سَبَقَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ.

قَالَ: وَهَذَا الْمَسْلُوكُ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ، مِنْهُمْ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ «أَسْرَارِ التَّنْزِيلِ» مَا نَصَّهُ: قِيلَ: إِنَّ آزَرَ لَمْ يَكُنْ وَالِدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بَلْ كَانَ عَمَّهُ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِوُجُوهِ:

منها: أَنَّ آبَاءَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَا كَانُوا كُفَّاراً، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وَجوهٌ: منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ نَقُومُ﴾ (٢١٨) وَتَقَلُّبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿ [الشعراء: ٢١٨]، قِيلَ: معناه أَنَّهُ

(١) ينظر: «مسالك الحنفا» (٢٦).

(٢) «شرح مسلم» (١/٤٣٩).

(٣) «مسالك الحنفا» (٢٨).

كَانَ يُنْقَلُ نَوْرُهُ مِنْ سَاجِدٍ إِلَى سَاجِدٍ^(١)، وَبِهَذَا التَّقْدِيرِ فَلَايَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ آبَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَحَيْثُ يُجِبُّ الْقَطْعُ بِأَنَّ وَالِدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، إِنَّمَا ذَاكَ عَمُّهُ، أَقْصَى مَا فِي الْبَابِ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلْبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٨] عَلَى وُجُوهِ أُخْرَى.

وَإِذَا وَرَدَتِ الرُّوَايَةُ بِالْكُلِّ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا؛ وَجَبَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْكُلِّ، وَمَتَى صَحَّ ذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّ وَالِدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، ثُمَّ قَالَ: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آبَاءَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا كَانُوا مُشْرِكِينَ قَوْلُهُ ﷺ: «وَلَمْ أَزَلْ أُنْقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ»^(٢)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، فَوَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدٌ مِنْ أَجْدَادِهِ مُشْرِكًا.

قَالَ السُّيُوطِيُّ: هَذَا كَلَامُ الْإِمَامِ فَخْرِ الدِّينِ بِخُرُوفِهِ، وَنَاهِيكَ بِهِ إِمَامَةً وَجَلَالَةً؛ فَإِنَّهُ إِمَامٌ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي زَمَانِهِ، وَالْقَائِمُ بِالرَّدِّ عَلَى فِرْقِ الْمُبْتَدِعَةِ، وَالنَّاصِرُ لِمَذَاهِبِ الْأَشَاعِرَةِ فِي عَصَرِهِ، وَهُوَ الْعَالِمُ الْمَبْعُوثُ عَلَى رَأْسِ الْمِثَّةِ السَّادِسَةِ لِيُجَدِّدَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا^(٣). انْتَهَى.

وَلَا يَخْفَى مَعَ مُعَارَضَةِ كَلَامِهِ لِمَا سَبَقَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ، وَمَا هُوَ صَرِيحٌ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ كَلَامِ صَاحِبِ النُّبُوَّةِ، أَنَّهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَلَامِهِ الْقَدِيمِ مَا يَدُلُّ عَلَى كُفْرِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ^(٤).

(١) «السبل المرضية في الآباء العلية» للسُّيُوطِيُّ.

(٢) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٥٧/١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِلَفْظٍ: لَمْ يَلْتَقِ أَبُوَايَ فِي سَفَاحٍ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقُلُنِي مِنْ أَصْلَابِ طَيِّبَةٍ إِلَى أَرْحَامِ طَاهِرَةٍ صَافِيًا مَهَذَّبًا لَا تَشْعَبُ شَعْبَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا.

(٣) «مسالك الحنفا» (٢٩).

(٤) رَوَى الْبُخَارِيُّ (٣٣٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَلْقَى إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ أَرْبَعَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِهِ أَرْبَعَةُ غُبَرَةٍ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ لَهُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ =

والأصل في حمل الكلام على الحقيقة، ولا يُعدّل عنه إلى المجاز إلا حال الضرورة، عند دليل صريح ونقل صحيح يضطر منه إلى ارتكاب المجاز، فمجرد قول إخباري تاريخي يهودي أو نصراني، كما عبّر عنه بقيل: إن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام بل كان عمّه، كيف يُعدّل عن آيات مُصرّحة فيها إثبات الأبوة^(١)؟ منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وهو عطف بيان أو بدل، بناءً على أنّه لقّب له أُوْنعت بلسانهم ونحو ذلك.

ومنها: قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانِ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤]، وفي قراءة شاذة: (أباه).

ومنها: قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ﴾ مُكرّراً.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمُ إِنَّا بُرءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

وأقول زيادةً على ذلك: وهو أنّه ﷺ كان مُبيناً للكتاب، ومُهدداً الطريق الصواب، فلو كان المراد بأبي إبراهيم عمّه لبيته؛ ولو في حديث للأصحاب ليحملوا الأب على عمّه بطريق المجاز في هذا الباب، ثمّ دعوته أنّ آباء الأنبياء

= إبراهيم: اللهم أنت وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: انظر إلى ما تحت رجلِك، فينظر، فإذا هو بذئخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار. الذئخ: ذكر الضبع كثير الشعر.

(١) وقد رجح الإمام الطبري أنه أبوه، واحتمال أن له اسمين، أو اسماً ولقباً، وقال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله جيد وقوي. «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٣٢٤).

عليهم السَّلامُ لم يكونوا كُفَّاراً تحتاجُ إلى بُرْهَانٍ واضحٍ ودليلٍ لائقٍ، فاستدلَّ أنه بقوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨] بناءً على (قيل) في غاية من السُّقوطِ، كما يُعلَّمُ من قولِ سائرِ المُفسِّرين في الآية.

فقد ذكرَ البيضاوي وغيره في تفاسيرهم أنَّ معنى الآية: وتردُّدُكَ في تصفُّحِ أحوالِ المُتَهَجِّدين^(١)، كما روي أنَّه لما نُسِّخَ قَرْضُ قِيَامِ اللَّيْلِ طافَ تلكَ اللَّيْلَةُ بِيُوتِ أَصْحَابِهِ لِيَنْظُرَ مَا يَصْنَعُونَ حِرْصاً على كثرةِ طاعاتِهِم، فوجدَها كَبُيُوتِ الزَّنايِرِ لِمَا سَمِعَ لها من دَنَدَنَتِهِمْ بذكرِ الله تعالى^(٢).

ونقلَ الإمامُ أبو حَيَّان في «البحر»^(٣) عندَ تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجِدِينَ﴾: أنَّ الرَّاغِبَةَ هُمُ الْقَائِلُونَ: إِنَّ أَبَاءَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مُسْتَدِلِّينَ بقوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجِدِينَ﴾، وبقوله عليه الصَّلَاةُ والسَّلامُ: «لَمْ أَزَلْ أُنْقَلُ من أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ»، الحديث.

وأما قولُ ابنِ حَجَرٍ المَكِّيِّ: فَلَكَ رَدُّ قَوْلِ أَبِي حَيَّانَ: بِأَنَّ مِثْلَهُ إِنَّمَا يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي عِلْمِ النَّحْوِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ^(٤)؛ فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِ شَهَادَةِ النَّحْوِيِّينَ وَرِوَايَتِهِمْ عَنِ الْمُحَدِّثِينَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَعْفٌ فِي الدِّينِ، كَيْفَ وَلَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ التَّفَاسِيرِ؟ وَلَهُ فِي السِّيَرِ كِتَابٌ كَبِيرٌ، مَعَ أَنَّ الشَّيْعَةَ بِأَجْمَعِهِمْ مُقَرَّرُونَ بِأَنَّ هَذَا قَاعِدَةٌ مَذْهَبِهِمْ، وَلَهُ أَنْ يُعَارِضَكَ وَيَقُولَ: وَأَنْتَ فَاقِيهٌ صَرَفٌ، لَمْ تَعْرِفْ إِلَّا رُؤُوسَ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْخُصُومَاتِ الْعُرْفِيَّةِ.

(١) «أنوار التنزيل» (٤/ ١١١)، وفيه: المجتهدين، بدل: المتجهدين.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٦/ ٣٣٧).

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ٤٤).

(٤) «المنح المكية» (١٠٣).

وبهذا يظهر أيضاً بطلان قول ابن حجر، وأما من أخذه بظاهره كالبيضاوي وغيره فقد تساهل واستروح، انتهى.

فكيف يصح قول الرازي: إن جميع آباء محمد ﷺ كانوا مسلمين مع حديث مسلم وإجماع جمهور المسلمين؟ ثم أغرب في قوله: وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام ما كان من الكافرين، انتهى.

ولا يخفى أنه لم يثبت به الظن فضلاً عن القطع، بل إنما هو في مرتبة الشك أو الوهم، ثم الاستدلال على أن آباء محمد ﷺ ما كانوا مشركين بقوله ﷺ: «ولم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»... إلى آخر ما ذكره؛ مردود عليه بما أشرنا إليه، وبأن المراد بالحديث ما ورد من طرق متعددة.

منها: ما أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله تعالى في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم عليه السلام، حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً - أي: روحاً وذاتاً - وخيركم أباً»^(١) أي: نسباً وحسباً.

ومنها: ما أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» من طريق عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة والأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا يتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما»^(٢).

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٧٠)، وقال الحافظ ابن كثير: وهذا الحديث غريب جداً من

حديث مالك، تفرد به القدامي وهو ضعيف، لكن سنذكر له شواهد من وجوه آخر. وذكر له

شواهد يتقوى بها، ينظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٣١٤).

(٢) «دلائل النبوة» (١/ ٥٧) وقد تقدم قريباً.

ومنها: ما أوردَه البيهقي في «سُنَنِه»: «ما وَلَدَنِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٍ، مَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحُ الْإِسْلَامِ»^(١).

وأما ما ذكره ابنُ حَجَرٍ المَكِّيُّ - تبعاً للشيوطيِّ - من أنَّ الأحاديثَ مُصَرَّحَةٌ لفظاً في أكثره، ومعنى في كله: أنَّ أباءَ النَّبِيِّ ﷺ - غيرَ الأنبياءِ - وأمهاتِه إلى آدمَ وحواءَ ليس فيهم كافرٌ؛ لأنَّ الكافرَ لا يُقالُ في حقِّه: إنَّه مُختارٌ ولا كريمٌ ولا طاهرٌ^(٢)؛ فمردودٌ عليه؛ إذ ليسَ في الأحاديثِ لفظٌ صريحٌ مُشيرٌ إليه.

وأما المعنى: فكأنَّه أرادَ به لفظَ المُختارِ والكريمِ والأطهارِ، وهو لا دلالةَ فيه على الإيمانِ أصلاً، وإلا فيلزمُ منه أن تكونَ قبيلةُ قُرَيْشٍ كُلُّهم مؤمنين؛ لحديث: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى بَنِي كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ»^(٣)، ولم يقلْ به أحدٌ من المسلمين، وكذا حديث: «فاختارَ منهم العربَ»^(٤).

ولا يصحُّ عمومُ إيمانهم قطعاً، بل لو استدلَّ بمثلِ هذا المبنى لزمَ أن لا يُوجدَ كافرٌ على وجهِ الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]، فتأمل؛ فإنَّه موضعُ زَلَلٍ، ومقامُ خَطَلٍ، واحذرْ أن لا تكونَ ضالاً مُضِلًّا في الوَحَلِ.

ثمَّ ما أبعدَ قوله في حديثِ مُسْلِمٍ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»: قصْدُ بذلك تطييبَ خاطرِ ذلك الرَّجُلِ خشيةَ أن يرتدَّ لو قرَّعَ سمعُه أوْلاً أنَّ أباه في النَّارِ^(٥)، انتهى.

وهذا نعوذُ باللهِ وحاشاهُ ﷺ أن يُخبرَ بغيرِ الواقعِ، ويحكمَ بكُفْرٍ وإلِده لأجلِ

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٩٠/٧).

(٢) «المنح المكية» (١٠٠).

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي (١٦٧/١) بنحوه.

(٤) «دلائل النبوة» للبيهقي (١٧٢/١).

(٥) «المنح المكية» (١٠٣).

تَأْلَفُ قَلْبَ وَاحِدٍ يُؤْمِنُ بِهِ أَوْ لَا يُؤْمِنُ، فَهَذِهِ زَلَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَجُرْأَةٌ جَسِيمَةٌ، حَفِظَنَا اللَّهُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ.

ومنها: استدلالُ السُّيوطِيِّ^(١) عَلَى إِيْمَانِ جَمِيعِ آبَائِهِ ﷺ: بِمَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «المُصَنَّفِ» عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لَمْ يَزَلْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فِي الدَّهْرِ سَبْعَةٌ مُسْلِمُونَ فَصَاعِدًا، وَلَوْلَا ذَلِكَ هَلَكَتِ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وهذا إسنادٌ صحيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَمِثْلُهُ لَا يُقَالُ مِنْ قَبْلِ الرَّايِ، فَلَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ^(٢).

وأَطَالَ فِي ذِكْرِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ مِمَّا لَيْسَ لَهُ مُنَاسَبَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَسْوِيدُ الْكِتَابِ عِنْدَ مَنْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَطَا وَالصَّوَابِ.

هَذَا، وَمَا أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ أَنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ اسْمُهُ (آزَرَ) وَإِنَّمَا كَانَ اسْمُهُ (تَارِحَ)^(٣)؛ فَلَا دَلَالَةَ لَهُ فِيهِ عَلَى الْمُدَّعَى؛ لِأَنَّا نَقُولُ: وَلَوْ سُلِّمَ أَنَّ اسْمَهُ تَارِحُ، وَلَقَبُهُ آزَرُ، لَا يَلِزُ أَنْ أَبَاهُ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا.

وَكَذَا مَا أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طُرُقٍ بَعْضُهَا صَحِيحٌ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: لَيْسَ آزَرُ أَبَا إِبْرَاهِيمَ، يَعْنِي اسْمَهُ، بَلْ لَقَبُهُ^(٤)، لِإِمَّا سَبَقَ جَمْعًا بَيْنَ الْأَدِلَّةِ.

(١) «مسالك الحنفا» (٣٤).

(٢) «مسالك الحنفا» (٣٤).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٧٤٩١)، و«مسالك الحنفا» (٣٨).

(٤) قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١٣٢٤): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي بِآزَرَ الصَّنَمَ، وَأَبُو إِبْرَاهِيمَ اسْمُهُ يَازَرُ.

وَيُؤَيِّدُهُ: مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ الشُّدِّيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: اسْمُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ آزَرُ؟ فَقَالَ: بَلِ اسْمُهُ تَارِخٌ، يَعْنِي: وَلَقَبُهُ آزَرُ^(١).

وَكَذَا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّنِي بِمَا أَنَا عَبْدٌ لِّكَ﴾، لَيْسَ آزَرُ بِأَبِيهِ، يَعْنِي بَلِ لَقَبُهُ، إِنَّمَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَيْرِخَ، أَوْ تَارِخَ بْنِ شَارُوحَ بْنِ نَاصُورَ بْنِ فَايَحَ.

هَذَا وَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ أَنَّ آزَرَ عَمُّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ الْقِيلَ مِنَ الْقَوْلِ الْعَلِيلِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَا زَالَ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ فَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُ^(٢).

وَأَخْرَجَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَقَتَادَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَغَيْرِهِمْ قَالُوا: كَانَ يَرْجُو إِيْمَانَهُ فِي حَيَاتِهِ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذَا الْمَبْحَثَ مُسْتَوْعِبًا.

وَمِنْهَا: اسْتِدْلَالُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨]، حَيْثُ قَالَ: أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بَاقِيَةٌ فِي عَقِبِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣).

أَقُولُ: أَيْ: فِي ذُرِّيَّتِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ عَمُومُهُمْ، وَيَكْفِي وَجُودُهُ فِي بَعْضِ مِنْهُمْ؛ إِذَا الْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ أَنَّ جَمِيعَ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا يَزَالُ فِي ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَقُولُهَا مِنْ بَعْدِهِ،

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٧٤٩٠). وينظر: «تفسير ابن كثير» (١٣٢٤/٣).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٠٥٥).

(٣) «مسالك الحنفيا» (٤٤).

وفي رواية: مَنْ يُوحِّدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَعْبُدُهُ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: فَلَمْ يَزَلْ بَعْدُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١).

ومنها: استدلَّه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، حيث قال: أخرج ابن جُرَيْجٍ في «تفسيره» عن مُجَاهِدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: فَاسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعْوَتَهُ فِي وَلَدِهِ فَلَمْ يَعْبدْ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ صَنَمًا بَعْدَ دَعْوَتِهِ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ وَجَعَلَ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا، وَرَزَقَ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَجَعَلَهُ إِمَامًا، وَجَعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يُقِيمُ الصَّلَاةَ^(٢)، انتهى.

ولا يخفى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ حَمْلُ وَلَدِهِ عَلَى عُمومِ ذُرِّيَّتِهِ؛ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ فِي أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ كَفْرَةً مُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَجِبُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بَوْلَدِهِ أَوْلَادُ صُلْبِهِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ كَلَامِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَنِيَّ﴾.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: فَإِنْ قِيلَ: قَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مَعْصُومًا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ السُّؤَالُ وَقَدْ عَبَدَ كَثِيرٌ مِنْ بَنِيهِ الْأَصْنَامَ؟ فَأَيْنَ الْإِجَابَةُ؟ قِيلَ: الدُّعَاءُ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَزِيَادَةِ الْعِصْمَةِ وَالتَّثْبِيتِ.

وَأَمَّا دُعَاؤُهُ لَبْنِهِ فَأَرَادَ بَنِيهِ مِنْ صُلْبِهِ، وَلَمْ يَعْبدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ الصَّنَمَ، وَقِيلَ: إِنَّ دُعَاءَهُ لِمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مِنْ بَنِيهِ؛ أَي: ذُرِّيَّتِهِ^(٣).

وبهذا اندفع ما أخرجَه ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ سُئِلَ: هَلْ عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ الْأَصْنَامَ؟ قَالَ: أَلَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾؟ قِيلَ: فَكَيْفَ لَمْ يَدْخُلْ وَلَدُ إِسْحَاقَ وَسَائِرُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ

(١) «مسالك الحنفا» (٤٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/١٧)، و«مسالك الحنفا» (٤٥).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/٣٥٢).

السَّلَامُ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ دَعَا لِأَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ أَنْ لَا يَعْبُدُوا إِذَا أَسْكَنَهُمْ إِلَّا إِيَّاهُ فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا﴾، وَلَمْ يَدْعُ لِجَمِيعِ الْبُلْدَانِ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فِيهِ، وَقَدْ خَصَّ أَهْلَهُ وَقَالَ: ﴿وَرَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَنِيكَ الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧^(١)].

قَالَ السُّيُوطِيُّ^(٢): فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَوَابِ مِنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَهُوَ أَحَدُ الْأَثَمَةِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَهُوَ شَيْخُ إِمَامِنَا الشَّافِعِيِّ.

قُلْتُ: انْظُرْ إِلَى مَا قَالَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ، لِيَتَبَيَّنَ لَكَ حَقِيقَةُ الْحَالِ؛ فَإِنَّ الْاِتِّفَاقَ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمْ سُكَّانُ حَوْلِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فِي جَمِيعِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَأَنَّ الْأَوْتَانَ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَخَارِجَهُ فِي مَكَّةَ كَانَتْ فِي غَايَةِ مِنَ الْكثْرَةِ إِلَى أَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَكَسَرَهَا وَأَخْرَجَهَا قَائِلًا: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]؛ أَي: مُضْمَجِلًا مِنْ نَفْسِهِ وَفِي حَدِّ ذَاتِهِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨] وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ^(٣)

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بَعْدَنِي وَإِيَّاهُمْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ^(٤)، وَهُوَ بظَاهِرِهِ لَا يَتَنَاوَلُ أَحْفَادَهُ وَجَمِيعَ ذُرِّيَّتِهِ.

وَزَعَمَ ابْنُ عُيَيْنَةَ أَنَّ أَوْلَادَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَعْبُدُوا الصُّنَمَ مُحْتَجًّا بِهِ،

(١) ينظر: «مسالك الحنفا» (٤٥).

(٢) «مسالك الحنفا» (٤٦).

(٣) شطر البيت، وعجزه: وكل نعيم لا محالة زائل.

(٤) «أنوار التنزيل» (٣/ ١٦١).

وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدَّوَارَ، ويقولون: البيت حَجَرٌ فحيثما نصبنا حَجَرًا فهو بمنزلته، انتهى.

وَبُطْلَانُهُ ظَاهِرٌ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ كَمَا لَا يَخْفَى.

ومنها: استِدْلَالُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

[إبراهيم: ٤٠].

فقد أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ: فلن يزَالَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَاسٌ عَلَى الْفِطْرَةِ يَعْبُدُونَ اللَّهَ.

قُلْتُ: هذا كَلَامٌ صَحِيحٌ، ودَلَالَتُهُ عَلَى التَّبَعِيضِ صَرِيحٌ، وَأَمَّا مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ عَدْنَانٌ وَجَعْدٌ وَرَبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ وَخُزَيْمَةٌ وَأَسَدٌ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَا تَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ؛ فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّتِهِ إِلَّا عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا عَلَى التَّوْحِيدِ، وَإِنَّمَا أَشْرَكَ أَوْلَادُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ حِزِّ التَّوْفِيقِ وَالتَّائِيدِ.

ومنها: أَنَّهُ قَدْ ثَبَّتَ عَنْ جَمَاعَةٍ كَانُوا فِي زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُمْ تَحَنَّنُوا وَتَدَيَّنُوا بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَرَكَوا الشُّرْكَ، فَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَبُو النَّبِيِّ ﷺ سَلَكَوا سَبِيلَهُمْ فِي ذَلِكَ؟

قُلْتُ: بَعْدَمَا كَانَ مُسْتَدِلًّا قَاطِعًا رَجَعَ فَصَارَ مَانِعًا، وَهَذَا مَسْلُكُهُ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ مِثْلُ هَذَا إِلَّا فِي الْبُيُوتِ؛ إِذْ حَدِيثُ مُسْلِمٍ يُنَادِي عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَبَقِيَّةُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الدَّلَالَاتِ فِي الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ يَرُدُّ احْتِمَالَ خِلَافِ مَا هُنَالِكَ؛ لِأَنَّ الْحَافِظَ أَبَا الْفَرَجِ بْنَ الْجَوَازِيِّ ذَكَرَ فِي «التَّلْقِيحِ» تَسْمِيَةَ مَنْ رَفَضَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: أَبُو بَكْرٍ الصَّدِّيقُ، زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ، عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، عُثْمَانُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ، [وَرَقَّةُ بْنُ نُوْفَلٍ، رِيَابُ بْنُ الْبَرَاءِ الشَّمْنِيُّ، أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ،

أَسْعَدُ بْنُ كَرْبِ الْحَمِيرِيِّ^(١)، قُسْ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي، أَبُو قَيْسِ بْنِ صَرْمَةَ^(٢)، انتهى.
ولو كانا من هذا القبيل لكان ذكرهما أولى في مقام التعليل، هذا وقد رَوَى
ابنُ إِسْحَاقَ وَأَصْلُهُ فِي «الصَّحِيحِ»^(٣) تَعْلِيقًا عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
قَالَتْ: لَقَدْ رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِ بْنِ نُفَيْلٍ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ!
مَا أَصْبَحَ مِنْكُمْ أَحَدٌ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَحَبَّ
الْوُجُوهِ إِلَيْكَ عَبْدُكَ بِهِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ.

وهذا يدلُّ على ما حرَّزناه، وفيما تقدَّم قرَّرناه من أنَّ جميعَ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ لَمْ يَثْبُتُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ التَّوْحِيدِ.

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ السُّلَمِيِّ^(٤) قَالَ: رَغِبْتُ
عَنْ آلِهِ قَوْمِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَرَأَيْتُ أَنَّهَا الْبَاطِلُ، يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ^(٥).

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ وَالْبَيْهَقِيُّ كِلَاهُمَا فِي «الدَّلَائِلِ» مِنْ طَرِيقِ الشَّعْبِيِّ عَنْ
شَيْخٍ مِنْ جُهَيْنَةَ: أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ حَبِيبٍ الْجُهَنِيَّ تَرَكَ الشُّرْكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَصَلَّى لِلَّهِ
تَعَالَى، وَعَاشَ حَتَّى أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ^(٦).

هَذَا، وَقَدْ أَظْهَرَ الشُّيُوطِيُّ مُجَادَلَتَهُ مَعَ كُلِّ مِنَ الْحَنْفِيِّ وَالْمَالِكِيِّ وَالشَّافِعِيِّ

(١) ما بين معكوفين سقط من جميع النسخ، والمثبت من «التلقيح».

(٢) «تلقيح فهم أهل الأثر» (٣٣٣).

(٣) «صحيح البخاري»، باب فضائل الصحابة (٣٦١٤).

(٤) أبو نجيع ويقال: أبو شعيب، عمرو بن عبسة بن خالد الظريفي السلمي البجلي، أحد السابقين
الأولين، قدم المدينة بعد الخندق واستوطنها، وكان من القواد الشجعان، قال الإمام الذهبي: لم
يؤرخوا وفاته، وأظنه توفي في حدود (٦٠). «سير أعلام النبلاء» (٤٥٩/٢).

(٥) «دلائل النبوة» لأبي نعيم (٢٥٧/١).

(٦) «دلائل النبوة» لأبي نعيم (٢٥٧/١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١١٩/٢).

والحنبلي^(١) في عدولهم من الحديث الصحيح، لما قام عندهم من الدليل الصريح، الصارف عن العمل بذلك الحديث والأخذ به، مع أن أدلة كل من المذاهب المذكورة في مؤلفاتهم، ومسطورة في مطولاتهم، وليس في قواعدهم أن يتركوا الحديث الصحيح ويأخذوا بالحديث الضعيف في مقام الترجيح.

على أن الشافعي قال: إذا صحَّ الحديث فاتركوا قولِي، ثمَّ قال: وإن كان المُجادِلُ ممن يكتُبُ الحديث ولا فقه عنده يُقال له، فقد قال الأقدمون: المُحدِّثُ بلا فقه كعطارٍ غير طيب، فالأدوية حاصلةٌ في دُكانه ولا يدري لماذا تصلح، والفقيه بلا حديثٍ كطبيبٍ ليس بعطارٍ، يعرف ما تصلح له الأدوية إلا أنَّها ليست عنده.

وإنِّي بحمدِ الله قد اجتمع عندي الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية والمعاني والبيان وغير ذلك، فأنا أعلمُ كيف أتكلَّمُ، وكيف أقولُ، وكيف أَسَدِّلُ، وكيف أَرْجِعُ، وأما أنتُ أخِي - وفَّقني اللهُ تعالى وإياكَ - فلا يصلحُ لك ذلك؛ لأنَّك لا تدري الفقه ولا الأصول ولا شيئاً من الآلات.

والكلامُ في الحديث والاستدلال به ليس بالهين، ولا يحلُّ الإقدام على التكلُّم فيه لمن لم يجمع هذه العلوم، فاقْتَصِرْ على ما آتاك اللهُ تعالى، وهو أنَّك إذا سُئِلْتَ عن حديثٍ مَقُولٍ وَرَدَّ أو لم يَرُدَّ وَصَحَّحَهُ الحُفَّاظُ أو حَسَّنُوهُ أو ضَعَّفُوهُ؛ لا يحلُّ لك في الإفتاءِ سِوَى هذا القَدْرِ، وخلَّ ما عدا ذلك، والله أعلمُ.

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا
انتهى^(٢).

وقد أطنب الشيخُ رحمَه اللهُ في مَنْقَبَتِهِ، وهو كذلك في حَدِّ ذاتِهِ وصِفَاتِهِ، مع

(١) في: «مسالك الحنفا» (٧٠) وما بعدها.

(٢) «مسالك الحنفا» (٧٢ - ٧٣) والبيت للمنتبي.

استحقاق زيادة في تركيته؛ لأنه صنف في كل صنف من العلوم الشرعية كال تفسير والحديث والفقه والآلات العربية، إلا أنه في هذه الرسالة عمل عمل العطارين في تكبير النواله وتكثير الحواله، ولم ينظر إلى كلام العلماء المتقدمين، والأئمة المعبرين، الذين هم الأطباء والحكماء في نظر الخواص والعوام أجمعين.

ثم أقول له بطريق المجادلة على أسلوب الجدال: هل يعارض حديث مسلم المجمع على صحته الدال على كفر أبويه ﷺ بحديث إحيائهما وإيمانهما به بعد بعثتهما، والحال أنه ضعيف باتفاق المحدثين، بل موضوع باطل لا أصل له عند المحققين، مع أنه مخالف للآيات السابقة، والأحاديث اللاحقة، ولكلام الأئمة الأربعة وغيرهم من أكابر هذه الأمة، وعلماء أهل السنة والجماعة، وإنما هو على الأصول الباطلة للطائفة الرافضة.

أو نقول: إذا صح الحديث عن الرسول، وتلقته الأمة^(١) بالقبول، فهل يحل لأحد من أرباب الفضول أن يرد عليه؟ ويقول: إنهما ماتا في الفترة قبل البعثة، أو يمتحنان يوم القيامة، أفليس هذا معارضة بالتعليل في مقابلة النص من الدليل؟

أما ذكر أرباب الأصول في الحديث والفقه الجامعون بين المنقول والمعقول أن الحديث إذا ثبت في «الصحيحين» أو أحدهما فلا يعارضه حديث غيرهما، ولو صح من طريقهما^(٢)، وإن كان من بقية صحاح الستة، فكيف إذا أخرجه أصحاب الكتب الغير المعتمدة من الطرق الغير المشتهرة.

وصرح الحفاظ بضعف طرقه كلها، بل بوضعها، والحال أنه لم يقل بهذه

(١) في جميع النسخ: «الأئمة».

(٢) بل ذكروا عكس ذلك، قال الحفاظ العراقي: ما اتفق الستة على توثيق رواه أولى بالصحة مما

اختلفوا فيه؛ وإن اتفق عليه الشيخان. «تدريب الراوي» (١/ ١٢٣).

الرَّوَايَةُ إِلَّا جَمَعَ مِنَ الْمُقْلَدِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَرْتَبَةِ الْمُجْتَهِدِينَ، كَابْنِ شَاهِينَ،
وَالْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ، وَالشَّهْلِيِّ، وَالْقُرْطُبِيِّ، وَالْمُحِبِّ الطَّبْرِيِّ، وَابْنِ الْمُنِيرِ،
وَأَمْثَالِهِمْ، فَهَلْ يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْحَنْفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يُقْلِدُوا هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ
وَيَتْرَكُوا الْاِقْتِدَاءَ بِأَثَمَتِهِمُ الْمُعْتَبَرِينَ؟ مَعَ ظُهُورِ أُدْلَةٍ الْجُمْهُورِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ، لَا
سِيَّامَا وَالْمَسْأَلَةُ مِنَ الْاِعْتِقَادِيَّاتِ الَّتِي لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْأَدْلَةِ الْيَقِينِيَّةِ، لَا مِنَ الْفُرُوعِ
الْفِقْهِيَّةِ الَّتِي يَغْلِبُ مَذَارُهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ الظَّنِّيَّةِ.

انتهى ما تعلقَ بِزُبْدَةِ كَلَامِهِ وَخُلَاصَةِ مَرَامِهِ وَعَدَلْنَا عَنِ التَّعَرُّضِ لِمَا ذَكَرَهُ مِنَ
التَّطْوِيلِ الَّذِي لَا يُفِيدُ التَّعْلِيلَ فِي مَقَامِ التَّحْصِيلِ، وَإِنَّمَا هُوَ بَيَانُ قَالٍ وَقِيلٍ، وَاللَّهُ هُوَ
الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ كَحَاطِبِ لَيْلٍ، وَخَاطِبِ وَيْلٍ، فَتَارَةً يَقُولُ: إِنَّهُمَا مُؤْمِنَانِ مِنْ
أَصْلِهِمَا، فَإِنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ أَوْ لَكُونَهُمَا مِنْ آبَاءِ أَرْبَابِ النُّبُوَّةِ.
وَأُخْرَى يَقُولُ: إِنَّهُمَا كَانَا كَافِرَيْنِ لَكُنَّهْمَا أَحْيَاهُمَا اللَّهُ وَآمَنَّا.

وَمَرَّةً يَقُولُ: مَا كَانَا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَا كَافِرَيْنِ، بَلْ كَانَا فِي مَرْتَبَةِ الْمَجَانِينِ
جَاهِلِينَ فَيُمْتَحَنَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبِالظَّنِّ يَحْكُمُ بَأَنَّهُمَا نَاجِيَانِ. فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ
الْمُعَارَضَاتِ الْوَاضِحَةِ، وَالْمُنَاقَضَاتِ اللَّائِحَةِ، فَهَلْ تَثْبُتُ الْمَسَائِلُ الْاِعْتِقَادِيَّةُ
بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْاِحْتِمَالَاتِ الْعَقْلِيَّةِ؟

فَدَلَّتْ تَصَانِيفُهُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بِأَنَّهُ أَقْلُ الْعَطَّارِينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى إِمَامِ الْحُكَمَاءِ
الْمُعْتَبَرِينَ، فَإِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَعْلَمَ عُلَمَاءِ الشَّافِعِيَّةِ فِي زَمَانِهِ، وَنَفَوَّقَ عَلَى جَمِيعِ أَقْرَانِهِ،
وَأَنَا الْفَقِيرُ الْحَقِيرُ مِنْ أَقْلِ عُلَمَاءِ الْحَنْفِيَّةِ يَبْنَتْ خَطَاؤُهُ بِمَا أَخَذْتُهُ غَالِبًا مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِيَّةِ
وَالْحَدِيثِيَّةِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ بَابَ الْفَيْضِ مَفْتُوحٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي

الْوُجُودِ مَنْ يَكْشِفُ الْغُمَّةَ، مِمَّا اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْأُثْمَةُ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ،
وَيُبَيِّنُ الْمُزَيَّنَ مِنَ الْعَاطِلِ.

ثُمَّ اَعْلَمَ أَنَّ مَا اخْتَارَهُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، وَتَبِعَهُ الشُّيُوطِيُّ فِي أَنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فَسَادُ عَظِيمٍ فِي الدِّينِ، وَتَشْكِيكٌ لِعَقِيدَةِ أَرْبَابِ الْيَقِينِ، وَإِنْ كَانَ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدَّعِي أَنَّهُ مِنَ الْمُجَدِّدِينَ، بَلْ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمَا مِنَ الْمُخْدَثِينَ؛ لِمَا
وَرَدَ أَنَّهُ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(١) مِنْ بَيْنِ الْمُجْتَهِدِينَ.

وَبَيَانُهُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ أَجْمَعِينَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ
وَيَتْلُونَ الْفُرْقَانَ الْكَرِيمَ، فَإِذَا رَأَوْا فِيهِ نَصًّا عَلَى انتسابِ الْكُفْرِ إِلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
التَّحِيَّةُ وَالتَّسْلِيمُ، وَيَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ صَارِفٌ عَنْ حَمَلِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ
هُنَالِكَ، وَلَا يَدْرُونَ أَنَّ إِنْخِبَارِيًّا يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ذَكَرَ أَنَّ الْمُرَادَ بِأَبِيهِ عَمَّهُ، قَاصِدًا
بِذَلِكَ الطَّعْنَ فِي دِينِ النَّبِيِّ ﷺ وَكِتَابِ رَبِّهِ، هَلْ يُحْكَمُ بِبُطْلَانِ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي
هُوَ مُخَالِفٌ لظَاهِرِ الْكِتَابِ، وَمُعَارِضٌ لِمَا قَدَّمَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ؟ أَوْ يُحْكَمُ بِفَسَادِ
اعْتِقَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا مَنْ اعْتَقَدَ اعْتِقَادَ الرَّازِيِّ
وَالشُّيُوطِيِّ، مَعَ أَنَّهُمَا قَبْلَ وَصُولِ هَذَا الْقَوْلِ الْبَاطِلِ إِلَيْهِمَا لَمْ يَكُونَا شَاكِّينَ فِي أَنَّ
أَبَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ عَلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ وَالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، فَلَمَّا حَقَّقَا ذَلِكَ
وَصَنَّفَا بَيَانَ مَا هُنَالِكَ، رَجَعَا مِنْ اعْتِقَادِهِمَا الْبَاطِلِ عَلَى رَعْمِهِمَا إِلَى الْإِعْتِقَادِ الْحَقِّ
عِنْدَهُمَا، حَتَّى قَلَدَهُمَا ابْنُ حَجَرٍ الْمَكِّيُّ، وَبَالَغَ حَتَّى قَالَ: وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ^(٢). وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يُصْلِحُ الْأَحْوَالَ.

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الشُّيُوطِيُّ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ السَّقُوطِيِّ، وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ مِنْ

(١) رواه مسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) ينظر: «المنح المكية» (١٠٠) وما بعد.

حيثُ اللُّغَةُ بأنَّ العربَ تُطْلِقُ لفظَ الأبِ على العمِّ إطلاقاً شائعاً، وإن كانَ مجازاً، ففي التَّنْزِيلِ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِنَّا بِهِمْ ءِئْرَاهِمُ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ، فأُطْلِقَ على إسماعيلَ لفظَ الأبِ، وهو عمُّ يعقوبَ عليه السَّلامُ، كما أُطْلِقَ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ وهو جدُّه.

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الْجَدُّ أَبٌ، وَيَتْلُو ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ﴾ ^(١) الآية.

وَأَخْرَجَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِنَّا بِهِمْ ءِئْرَاهِمُ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عَلَيْهِمَا السَّلامُ قَالَ: سَمَّى الْعَمَّ أَباً.

وَأَخْرَجَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: الْخَالَ وَالِدٌ وَالْعَمُّ وَالِدٌ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. فَهَذِهِ أَقْوَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي ذَلِكَ ^(٢).

قُلْتُ: هَذِهِ طَنْطَنَةٌ مَصْرِئَةٌ لَيْسَ تَحْتَهَا فَائِدَةٌ قَوِيَّةٌ؛ إِذْ نَفْسُ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ يُسْتَفَادُ مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ عَاقِلٍ لِلْإِنْبَاءِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ إِطْلَاقُ جَمْعِ الْأَبَاءِ حَقِيقَةً بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْأَبْنَاءِ لَا شَرْعاً وَلَا عُرْفاً عَلَى عُمُومِ الْجُزْءِ، بَأَن يُقَالَ: الْمُرَادُ بِالْأَبَاءِ الْأَسْلَافُ، كَمَا قَالَه الْأَيْمَةُ الْحَنْفِيُّ، أَوْ عَلَى اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ بِالِاشْتِرَاكِ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ كَمَا اخْتَارَهُ الشَّافِعِيُّ.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، فَهَلْ تَرَى أَنَّ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِأَبِي إِبْرَاهِيمَ أَبُوهُ حَقِيقَةً، وَلَا يَصِحُّ أَنَّهُ أَرَادَ عَمَّهُ مَجَازاً، حَيْثُ لَا دَلِيلَ مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ، وَلَا مِنْ طَرِيقَةِ النُّقْلِ الصَّحِيحِ، مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَانِعاً مِنْ إِرَادَةِ الْحَقِيقَةِ، وَبَاعِثاً عَلَى قَصْدِ الْمَجَازِ.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٢٨١).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم»، الموضع السابق.

ثُمَّ رَأَيْتُ رِسَالَةً فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِابْنِ كَمَالٍ بَاشَا، وَفِيهَا مَا لَا يَنْبَغِي مِنَ الْأَشْيَاءِ، مِنْهَا قَوْلُهُ: إِنَّ السَّلَفَ اخْتَلَفُوا، وَالْحَالُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْخُلْفُ إِلَّا فِي الْخُلْفِ.

وَمِنْهَا نَقَلُهُ عَنِ الْحَافِظِ ابْنِ دِحْيَةَ مَا قَدَّمَاهُ أَنَّهُ قَالَ: فَمَنْ مَاتَ كَافِرًا لَمْ يَنْفَعَهُ الْإِيمَانُ بَعْدَ الرَّجْعَةِ، بَلْ لَوْ آمَنَ عِنْدَ الْمُعَايِنَةِ، فَكَيْفَ بَعْدَ الْإِعَادَةِ؟ وَتَعَقَّبَهُ بِأَنَّهُ مَدْفُوعٌ بِمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ يُبْعَثُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيُحْجُونَ وَيَكُونُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَشْرِيفًا لَهُمْ بِذَلِكَ، أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِهِ»، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مُرْدَوَيْهِ فِي «تَفْسِيرِهِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «أَصْحَابُ الْكَهْفِ أَعْوَانُ الْمَهْدِيِّ»^(١)، انْتَهَى.

وَلَا يَخْفَى بُطْلَانُ هَذَا التَّعَقُّبِ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ مَاتُوا مُؤْمِنِينَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي قَبُولِ تَوْبَةِ الْأَمْوَاتِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

ثُمَّ قَالَ: وَلَا يَدْعُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ كَتَبَ لِأَبُو النَّبِيِّ ﷺ عُمَرَاً ثُمَّ قَبَضَهُمَا قَبْلَ اسْتِيفَائِهِ، ثُمَّ أَعَادَهُمَا لِاسْتِيفَاءِ تِلْكَ اللَّحْظَةِ الْبَاقِيَةِ، وَآمَنَّا فِيهَا فُيَعْتَدُّ بِهِ، انْتَهَى.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْبَحْثَ لَيْسَ فِي إِمْكَانِ الْقُدْرَةِ؛ لِأَنَّهَا قَابِلَةٌ لِلطَّرَفَيْنِ وَشَامِلَةٌ لِلصَّنْفَيْنِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي صِحَّةِ وَقُوعِ أَيِّ الشَّقِيَيْنِ.

ثُمَّ قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُهُ: بَلْ لَوْ آمَنَ عِنْدَ الْمُعَايِنَةِ فَكَيْفَ بَعْدَ الْإِعَادَةِ؟ فَمَرْدُودٌ بِأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمُعَايِنَةِ إِيْمَانٌ يَأْسٍ فَلَا يُقْبَلُ، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بَعْدَ الْإِعَادَةِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أَقُولُ: الْكَمَالُ لِلَّهِ، وَإِلَّا فَمِثْلُ هَذَا الْفَاضِلِ فِي مَقَامِ الْأَقْصَى كَيْفَ يَغْفُلُ عَنِ الْبُرْهَانِ الْأَوَّلِيِّ؟ فَإِنَّ الْإِيمَانَ إِذَا لَمْ يُقْبَلْ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ بَعْضِ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ الَّذِي هُوَ عَيْنُ الْيَقِينِ، فَكَيْفَ يُقْبَلُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَحَقُّقِهِ بِأُمُورِ الْعُقْبَى الَّذِي يُسَمَّى حَقَّ الْيَقِينِ؟

على أن المطلوب من العبد أن يؤمن بالغيب الذي هو علم اليقين، مع أن الله تعالى نصّ على الحالتين بقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ﴾، وهو حال الغرغرة ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، وهو بعد الإعادة.

ثم من أعجب العجائب وأغرب الغرائب قوله: وينبغي على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]؛ فإنه دلّ عليه صحيحاً، لكن على رده صريحاً؛ لأنهم إذا عادوا لما نُهُوا عنه من الكفر والمعصية، فلا يتصور منهم وجود الإيمان مع الطاعة.

وأما ما ذكره ابن الكمال تبعاً للسيوطي من أنه سُئل القاضي أبو بكر بن العربي أحد المالكية عن رجل قال: إن أبا النبي ﷺ في النار فأجاب بأنه ملعون؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، قال: ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه: إنه في النار، محمول على من قصّد أذى النبي عليه الصلاة والسلام بإطلاق هذا الكلام، فإنه ملعون، بل كافر مطعون.

وأما من أخبره بما ثبت عنه عليه الصلاة والسلام، واعتقده كأبي حنيفة وغيره من علماء الأعلام، فحاشاهم من نسبة الطعن إليهم، ويحرم اللعن عليهم.

ثم نقله تبعاً له عن السهيلي: ليس لنا أن نقول ذلك في أبيه ﷺ لقوله عليه السلام: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات»، كما رواه الطبراني؛ فدفعه ظاهر، على من عنده علم باهر وعقل قاهر.

ثم قال ابن الكمال: وبالجُملة هذه المسألة ليست من الاعتقاديّات، فلا حظّ للقلب منها، وأما اللسان فحقّه أن يُصان عمّا يتبادر منه النقصان، خصوصاً إلى وهم العامة؛ لأنهم لا يقدرّون على دفعه وتداركه.

قلتُ: ما ثَبَّتَ بالكتابِ والسُّنَّةِ يجبُ اعتقادهُ مُجملاً أو مُفصّلاً، نعم لو لم يخطُرُ
ببالِ مؤمنٍ هذا المَبَحْثُ لا نَفياً ولا إثباتاً لا يضرُّه، ككثيرٍ من المسائلِ المذكورةِ في
كُتُبِ العقائدِ المسطورةِ، ثمَّ هذه المسألةُ لو لم تُكُنْ في الجُملةِ من المسائلِ الاعتقاديَّةِ
لما ذكرها الإمامُ المُعظَّمُ المُعتَبَرُ في خَتَمِ فَهْمِهِ الأَكْبَرِ، وكانَ هذا من علامةِ ولايتهِ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حيثُ كُوشِفَ له هذا المعنى، أن يَقَعَ الاختلافُ في هذا المَبْنَى.

ثمَّ لا عبرةَ بالعوامِ كالأنعامِ في عقائِدِهِم الفاسِدةِ، وتأويلاتِهِم الكاسِدةِ، وإنَّما
المدارُ على كلامِ الخواصِّ من العلماءِ الأعلامِ، الذين هم قُدوةُ أهلِ الإسلامِ.
ثمَّ من الوقائعِ الغريبةِ في الأزمنةِ القريبةِ أنَّ بعضَ علماءِ الحنَفِيَّةِ مع أنَّه بَلَغَ غايةَ
القُصوى في مرتبةِ الفُتوى، أَفتى تبعاً للشُّيُوطيَّ وَجَمَعَ من الشَّافعيَّةِ مع اِطِّلاعِهِ على
عقيدةِ إمامِ المِلَّةِ الحنِيفِيَّةِ، حيثُ قالَ: المشهورُ عندَ العلماءِ ما ذكره الإمامُ الأعظمُ،
ولم يرجعْ عنه، غيرَ أنَّ العلامةَ الشُّيُوطيَّ أخرجَ بسنَدِهِ حديثاً يَصِحُّ التَّمسُّكُ بهِ،
مَضمونُهُ أنَّ اللهَ أَحيا أبويهِ فَأَمَّنَا بهِ.

ثمَّ قالَ في آخِرِهِ: وهو الذي نَعْتَقُهُ وَنَدِينُ اللهُ بهِ... ثمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يُعَارِضُ حديثَ
ابنِ مسعودٍ، وحديثَ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَأَمَكَّنَ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّهُ مُنِيعٌ من
الاستِغْفارِ أَوَّلاً، وهو مَضمونُ حديثِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ أُذِنَ لَهُ ثانياً، وهو
مَضمونُ حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ الذي أَخَذَ بهِ الجَلالُ الشُّيُوطيُّ. انتهى مُلَخَّصاً.

وَأَنْتَ عَرَفْتَ أَنَّ الحديثَ الأوَّلَ الذي تَمَسَّكَ بهِ الشُّيُوطيُّ لَيْسَ بِإِسنادِهِ، ولا
يَصِحُّ بِالاتِّفَاقِ، بل هو ضَعِيفٌ كما اعترفَ بهِ الشُّيُوطيُّ، أو موضوعٌ كما صرَّحَ بهِ غَيْرُهُ،
وَأَمَّا ما نَسَبَهُ إلى ابنِ عَبَّاسٍ؛ فلا أَصْلَ له لا عندَ الشُّيُوطيِّ ولا عندَ غَيْرِهِ، واللهُ أَعْلَمُ.
وكانَ الواجِبُ عليه حيثُ لا دَليْلَ قُدَّامَهُ أن يَقتَفي إمامَهُ، ولا يَعتَدي إمامَهُ،
تَصديقاً لِقَوْلِ القائلِ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ^(١)
ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْكَمَالِ: لَا خَفَاءَ فِي أَنَّ إِثْبَاتَ الشَّرِكِ فِي أَبِيهِ إِضْلَالٌ ظَاهِرٌ بِشَرَفِ
نَسَبِهِ الظَّاهِرِ.

قلت: هذا القول ليس له دَخْلٌ فِي نَسَبِ الظَّاهِرِ، بَلْ إِثْبَاتٌ لِمَا أَثَبَّتهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ بِنَفْسِهِ الظَّاهِرِ، نَعَمْ مَنْ قَذَفَ أُمَّ النَّبِيِّ ﷺ قُتِلَ؛ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، كَمَا قَالَه
الإمامُ مُوَفَّقُ الدِّينِ ابْنُ قُدَامَةَ الحَنْبَلِيُّ فِي «الْمُقْنِعِ»^(٢) وَنَقَلَهُ عَنْهُ الشُّيُوطِيُّ، وَإِنَّمَا خَصَّ
الْأُمَّ بِالذِّكْرِ لِثُبُوتِ أَحَادِيثَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ ﷺ وَلَدَ عَنْ أُمِّهِ بِنِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ، فَإِنْكَارُ مَا
ثَبَّتَ عَنْهُ ﷺ كُفْرٌ، فَلَا يَرُدُّ أَنَّ حُكْمَ الْقَاذِفِ الْحَدَّ الْمَعْرُوفُ.

ثُمَّ قَوْلُهُ (كَافِرًا) فِيهِ بَحْثٌ مِنْ جِهَةِ إِطْلَاقِهِ؛ لِأَنَّ الْحَرْبِيَّ لَا كَلَامَ فِيهِ، وَالْمُسْتَأْمَنُ
لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ، وَالذَّمُّ ظَاهِرُهُ الْقَتْلُ؛ لِأَنَّهُ لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا، إِلَّا مَا خُصَّ بِدَلِيلٍ.
وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الْكَرْدَرِيُّ فِي «الْمَنَاقِبِ» مِنْ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ أَبِيحَ
لَعْنُهُ إِلَّا وَالِإِدْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِثُبُوتِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَاهُمَا لَهُ حَتَّى آمَنَا بِهِ؛
فَفِيهِ مَعَ مَا سَبَقَ مِنَ التَّنْبِيهِ أَنَّهُ أَثَبَّتَ كُفْرَ وَالِدَيْهِ وَمَنَعَ لَعْنَهُمَا بِشَبْهَةِ الْحَدِيثِ
الْمَذْكُورِ، وَلَوْ لَمْ يَصِحَّ نَقْلًا وَلَا شَرْعًا.

غَايَتُهُ أَنَّهُ يَجُوزُ عَقْلًا، فَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَحْوَطَ لِصَاحِبِ الدِّينِ أَنْ لَا يَلْعَنَ أَحَدًا،
فَإِنَّ الْأَشْتِغَالَ بِذِكْرِ الْمَوْلَى فِي كُلِّ حَالٍ هُوَ الْأَوْلَى.

(١) البيت للجيم بن صعيب أحد شعراء الجاهلية، ونسبه بعضهم لديسم بن طارق، وهو من شواهد
النحو المشهورة. ينظر: «لسان العرب» (مادة: رقص).

(٢) قال في شرحه: يعني أن حده القتل، ولا تقبل توبته، نص عليه أحمد، وحكى أبو الخطاب رواية
أخرى، أن توبته تقبل، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، مسلماً كان أو كافراً. «المقنع» و«الشرح الكبير»
(٤٠٢/٢٦).

ثُمَّ ظَهَرَ لِي وَجْهٌ آخَرُ فِي مَنَعِ اللَّعْنِ، وَهُوَ مَا قَالَ ﷺ: «لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْأَمْوَاتِ»^(١)، فَعَلَى هَذَا لَا يَجُوزُ لَعْنُ وَالِدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، وَوَالِدَيْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا آبَاءَ سَائِرِ الصَّحَابَةِ، وَلَا آبَاءَ بَقِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

إِذَا لَا فَائِدَةَ فِي اللَّعْنِ، وَقَدْ يَتَفَرَّغُ عَلَيْهِ الطَّعْنُ، وَيَنْجَرُّ إِلَى الْفَسَادِ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ عَلَى الْخُصُوصِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى وَالِدَيْهِ ﷺ، فَإِنَّهُ أَبٌ لِلأُمَّةِ، وَلَهُ كَمَالٌ فِي الْحُرْمَةِ، وَلَوْ لَا النَّفْيُ الْمُتَضَمِّنُ لِمَنْعِنَا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ لِهَمَا وَلَأَمْثَالِهِمَا فِي الْآيَةِ لَكُنَّا دَعَوْنَا لَهُمَا بِالْمَغْفِرَةِ، فَلَا يُنَاسِبُ أَنْ نَدْعُو عَلَيْهِمَا بِاللَّعْنِ وَالطَّرْدِ عَنِ الرَّحْمَةِ، بَلْ رُبَّمَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَدْعُو لَهُمَا بِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُمَا، وَتُسْلَمَ الْأُمْرُ إِلَى خَالِقِهِمَا فِيمَا قَضَى عَلَيْهِمَا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٨] وَ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٥٨].

وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تَحْيَرُ فِيهَا الْعُقُولُ، وَاضْطَرَبَ فِيهَا النُّقُولُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ الْوَصُولُ إِلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْمَحْصُولِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلَكُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٣].

ثُمَّ مِنَ الْوَاقِعَةِ الْغَرِيبَةِ فِي الْحَالَةِ الْقَرِيبَةِ: أَنَّ الْفَاضِلَ الْعِصَامِيَّ مُفْتِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنْكَرَ عَلَى الْحَنْفِيَّةِ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ ذَا أَبٍ مُسْلِمٍ لَا يَكُونُ كُفُوءًا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ مُسْلِمٌ، مُعْتَرِضًا بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ لَا يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ كُفُوءًا لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَإِنَّمَا نَشَأُ هَذَا مِنْ بَنَاءٍ عَلَى جَهْلِهِ بِالْقَوَاعِدِ الْحَنْفِيَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ قَالُوا: قُرَيْشُ بَعْضُهُمْ كُفُوءٌ لِبَعْضٍ^(٢)، وَالْعَرَبُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا اعْتَبَرُوا إِيمَانَ الْأَبَاءِ فِيمَا عَدَا الْعَرَبَ مِنَ الْأَعْجَامِ وَالْأَرَوَامِ وَسَائِرِ الْأَنَامِ فِي مَسْأَلَةِ الْأَكْفَاءِ.

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١٩٨٢) عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَلْفُظٍ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ».

(٢) قَالَ الْغَنِيْمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْلُبَابِ» (١٤٨/٢): فَقُرَيْشُ بَعْضُهُمْ أَكْفَاءُ لِبَعْضٍ، وَبَقِيَّةُ الْعَرَبِ بَعْضُهُمْ أَكْفَاءُ لِبَعْضٍ، وَلَيْسُوا بِأَكْفَاءَ لِقُرَيْشٍ.

هذا، وفيه بيانٌ لَكَمالِ قُدْرَتِهِ في خَلْقِهِ وأَمْرِهِ، وتَبَيانٌ لِسِرِّ قَضَائِهِ وقُدْرِهِ، ورَدٌّ على الحُكَماءِ والفلاسفة والطَّبِيعِيِّينَ في بناءِ أمرِ النُّبُوَّةِ والمعرفةِ على الأمورِ النَّسَبِيَّةِ والأحوالِ الكَسْبِيَّةِ، لا على المواهبِ الإلهيَّةِ الشُّبْحانيَّةِ، والجذباتِ الرَّبَّانيَّةِ الصِّمْدانيَّةِ.

كما أشار اللهُ سُبحانَهُ إلى هذا المعنى في رَدِّ ذلكِ المَبْنى بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، فأخْرَجَ اللهُ سُبحانَهُ المَؤْمِنَ مِنَ الكافِرِ، والكافِرَ مِنَ المَؤْمِنِ كَابِنِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، فَإِنَّهُ كافرٌ بِإِجماعِ أُمَّةِ الإِسْلامِ، وكفابيلُ قاتِلِ هابِيلَ من بني آدَمَ عليه السَّلامُ، فَإِنَّهُ كافرٌ باتِّفاقِ علماءِ الأعلامِ. ولَمَّا رَأى عليه السَّلامُ عِكرِمَةَ بَنِ أَبِي جَهْلٍ بعدَ الإِسْلامِ قَرَأَ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩].

وفي هذا بيانٌ عَظِيمٌ إلى أَنَّ الإِيمانَ إِنْعامٌ جَسِيمٌ، لا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا نَبِيٌّ أو وَلِيُّ كَرِيمٌ، مَمَّنْ سَبَقَتْ لَهُمُ الحُسْنى بِالوُصولِ إلى المَقامِ الأَسْنى. فنَسأَلُ اللهُ تَعَالَى حُسْنَ الخاتِمَةِ الدَّالَّةِ على سَبْقِ العِنايةِ، بِتَعَلُّقِ الإرادةِ لِتَحَقُّقِ السَّعادةِ، دَاعِينَ رَبَّنَا: تَوْفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالحِينَ، وَأَدْخِلْنَا الجَنَّةَ آمِنِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، آمِينَ، وسلامٌ على المُرسَلِينَ، والحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ.

الرسالة رقم: (٦٧) مجموع المؤلفات
المؤلف: الميرزا علي القاري

النسب الميرزا في المعرفة والمحبة

تأليف المؤلف
الميرزا علي القاري

طبع بمطبعة علي نادر شمس

تجريب و تيسير
محمد بركات

دار النشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته التحفّيق

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محبوب ربّ العالمين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه رسالة «النسبة المرتبة بين المعرفة والمحبة» للعلامة الملا عليّ القاري، رسالة لطيفة في مسألة من مسائل السالكين إلى ربّ العالمين في مراقبي العبودية، والمُتقربين إليه تعالى بمعرفته والمُجتهدين بالطاعات للحصول على مرتبة محبته، قال تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وفي هذه الرسالة أراد المصنّف شرح مقولة بعض الشيوخ: المعرفة فوق مرتبة المحبة بتسع درجات. وقول بعضهم الآخر: ما بينهما ثمانية عشر درجة. وفي هذا الشرح بيان للنسبة الحاصلة بعينهما.

ثم شرع في بيان مفهوم «المعرفة» يعني دراية صفاته سبحانه، ومراتبها، ثم ثنى بذكر تعريف المحبة ومراتبها، وضح ذلك بعبارات مختصرة مستشهداً بقوله بما ينقله من مقولات عن أصحاب هذا الفن ممن عُرف بالزهد والتّصوّف وتزكية النفس، وفي هذا بيان للقارئ لمعرفة العلامة والنسبة بين المعرفة والمحبة.

وفي ثنايا هذه الرسالة شرح المصنّف بعض المقولات المنقولة عن العلماء العابدين، مثل: «عرفت الله حق معرفته»، و«ما عرفناك حق معرفتك»، و«من عرف نفسه فقد عرف ربه»، و«أعرفكم بنفسه أعرّفكم بربه»، وقول

الصَّدِيق: «العَجَزُ عَنْ ذَرْكِ الإِذْرَاكِ إِذْرَاكَ»، و«مَنْ عَرَفَ اللَّهَ كَلَّ لِسَانَهُ»، و«مَنْ عَرَفَ اللَّهَ طَالَ لِسَانُهُ»، إلى غير ذلك من أقوالِ قالها شيوخ وعُبَاد مشغولون بأنواع الطاعات، راجينَ القُرْبَ إليه تعالى وراغبينَ في تَيْلِ محبَّتِهِ ورضاهُ. كما أَنَّهُ ذَكَرَ أشعاراً قالها متذوقون في باب المحبة الإلهية، فأوردها وبيَّن مرادتهم في عباراتهم.

ويمكنُ القولُ بأنَّ هذه الرسالةُ تُبيِّن طرفاً من اهتمامات المُصنِّف ومشاركاته العلمية في الفنونِ المُتعدِّدة، ففي هذه الرسالة تُظْهَر مشاركته في علم التَّصَوُّف الذي عُرِفَ به، لكن ما يُميِّز العلامةَ القاري عن غيره من المُتصوِّفة: هو اشتغاله بعلوم الحديث والاطلاع على السُّنَّة المُطهرة بنُصوصها وشُروحها، مما جَعَلَهُ بعيداً عن نَقْلِ ما لا يُؤَيِّدُهُ نصٌّ قرآنيٌّ أو سُنَّةٌ مطهرة، وإذا استشهد لأقواله تجنَّب ما كان موضوعاً أو منكراً، هذا غالباً، وإن كان وَقَعَ منه خلافُ ذلك.

هذا وقد اعتمدنا في تحقيقِ هذه الرِّسالةِ على ثلاثِ نسخٍ خطية: نسخة فيض الله، ورمزها «ف»، ونسخة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ورمزها «ج»، ونسخة عاطف أفندي ورمزها «ط».

وفي الختام أرجو من الله تعالى القدير حُسْنَ القبول، والعفو عن الزَّلَلِ، إنه تعالى سميعٌ مجيبٌ. والحمد لله ربَّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تعرّف إلى أوليائه بتجلّي نعمت جماله فعرفوه وأحبّوه، وتنكّر على أعدائه بتجلّي صفة^(١) جلاله فأنكروه ولم يُجيبوه، والصلاة والسلام على سيّد العارفين، وسنّد المحبّين، وعلى آله المحبّوبين، وأصحابه المجذّوبين، وعلى أتباعه الذين صاروا بين المعرفة والمحبة جامعين.

أمّا بعد: فيقول أقلّ أصحاب المعرفة، وأذلّ أرباب المحبة، عليّ بن سلطان محمّد القاري، الهرويّ الحنفيّ، عاملهما الله بلطفه الخفيّ، وكرمه الوفيّ: إنّه نُقل عن بعض العارفين من مشايخنا المعروفين: أنّه قال: المعرفة فوق مرتبة المحبة بتسع من الدّرجة.

وهذه مسألةٌ مُشكِلةٌ، ونُقلت بعينها عن بعض الحكماء أيضاً مُجمّلةً، من غير أن يتبيّن حكمها مُفصّلةً، فسَنَح بيالي، وخطر في خيالي^(٢)، أن سببها هو أن المعرفة موجبُ المحبة^(٣)، ونتيجةُ المودّة المورثة^(٤) للعبادة، المُفضية إلى السّعادة، كما أن الشّجرة أصلُ الثّمرة، ويُشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: ليعرفون، كما فسّره به خبرُ الأئمة^(٥).

(١) في «ط»: «صفات».

(٢) في «ط»: «بحالي» بدل «في خيالي».

(٣) في «ط»: «موجبة للمحبة».

(٤) في «ط»: «المؤدية».

(٥) رواه الدينوري في «المجالسة» (٢٢٥) عن مجاهد عن ابن عباس حبر الأمة. وفي «تفسير الثعلبي» =

وقد وَرَدَ^(١) على ما ذَكَرَهُ بعضُ الصُّوفِيَّةِ: (كُنْتُ كُنْزاً مَخْفِياً، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِأَنْ أُعْرَفَ)^(٢).

فالمدارُ كُلُّ المدارِ على المعرفة، ولهذا فُسرَ الإيمانُ بها في بعضِ الأحاديثِ المَرْوِيَّةِ، واختارَهَا بعضُ علماءِ الأُمَّةِ.

وممَّا يُسْتَأْنَسُ به في مَرَامِ هذا المقامِ: حديثُ: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ؛ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»^(٣).

بقي الإشكالُ في بيانِ خصوصِ عددِ التَّسْعِ من جهةِ عُلُوِّ الدَّرَجَةِ، ورفعِ المرتبةِ، فأقولُ، وبحَوْلِهِ أَصُولُ:

إنَّ جميعَ المخلوقاتِ مُعْتَرِفُونَ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَمُعْتَرِفُونَ مِنْ بَحْرِ مَحَبَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ، إِلَّا طَائِفَةً مِنْ جَهْلَةِ الدَّهْرِيَّةِ، وَسَفَلَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، حَتَّى أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فَأَقْرَبُوا بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَقَالُوا فِي شَأْنِ آلِهَتِهِمْ، وَبَيَانِ عِبَادَتِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]؛ أَي: قُرْبَةً وَوَسِيلَةً. وَيَطُولُ شَرْحُ هَذِهِ الْحِكْمَةِ.

فَنرجعُ إلى ما كُنَّا بَصَدَدِهِ مِنْ بَيَانِ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ:

= (٩/ ١٢٠) و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٢٥) عن مجاهد.

(١) في «ف»: «رد علي». والمثبت من «ط» و«ج».

(٢) أورده ابن الوزير في «العواصم والقواصم» (٦/ ٣٥٥) منسوباً لداود عليه السلام. وأورده أيضاً السخاوي في «المقاصد الحسنة»، والسيوطي في «الدر المنشرة»، وقالوا: لا أصل له.

وقال الآلوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٢٢): ذكره سعد الدين الفرغاني في «متهى المدارك» وذكره غيره كالشيخ الأكبر.. وتعقبه الحفاظ فقال ابن تيمية: أنه ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وكذا قال الزركشي والحافظ ابن حجر وغيرهما: ومن يرويه من الصوفية معترف بعدم ثبوته نقلاً، لكن يقول: إنه ثابت كشفاً. اهـ. وانظر «كشف الخفاء» (٢/ ١٥٦).

(٣) رواه البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٢٦٣٨). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونقول: المعرفة على نوعين: ناقصة، وكاملة. فمن عرف الله حق معرفته وعظمه حق عظمته، لا يكون في قلبه سوى محبته أو محبة ما يتنسب إلى جهته، وكمال معرفته إنما يكون بحسب مراتب معرفته ذاته سبحانه وتعالى وصفاته. ثم صفاته التي مدار المعرفة عليها ثمانية: حياة، وعلم، وإرادة، وقدرة، وسمع، وبصر، وكلام، وبقاء. فمن عرف ذات الله بهذه الصفات الثمانية صححت له المحبة الذاتية والصفاتية الشاملة.

فتبين لك أن المحبة وقعت في الدرجة العاشرة الكاملة، وأن ما بين بداية المعرفة ونهاية المحبة تسعة من الدرجة، فالمراد بالفوقية تحققها قبل وجودها؛ نظير تقدم الشروط الصلاتية على أركان الماهية، وليس المراد أن المحبة دون المعرفة في الرتبة؛ فإنها بمنزلة الوسيلة لتلك المنزلة العلية، ولهذا جعلها السادة الصوفية في أواخر منازل السائرين ومراحل الطائرين^(١)، ولا يعد تقدمها في الرتبة أيضاً؛ لاستلزامها المحبة في كل مرتبة من مراتب الصفة دون لزوم عكس القضية، مع أنه قيل بتلازمهما؛ كما أنشدوا:

ولولا الهوى ما عرفناكم ولولاكم ما عرفنا الهوى
إلا أن الأول هو المعول كما أشار إليه بعضهم بقوله شعراً:

وهوأك أول ما عرفت من الهوى والقلب لا ينسى الحبيب الأول

فإن قلت: روي أن ما بينهما ثمانية عشر درجة، فما وجه هذه الرواية؟

قلت: وجهها أوجه في مرتبة الدراية؛ فإن معرفة صفاته سبحانه تتوقف على ما يستدل به، وما يستدل عليه من أفعاله.

(١) زاد في «ط»: «المرايطين».

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فثلاثة، كما بيَّنه قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فَإِنَّ الْأَدْلَةَ إِمَّا سَمْعِيَّةً أَوْ بَصَرِيَّةً أَوْ عَقْلِيَّةً. وَأَمَّا الثَّانِي، وَإِنْ كَانَ أَفْرَادُهُ كَثِيرًا؛ كَمَا قِيلَ:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ شَاهِدٌ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ
لَكِنَّ أَصُولَهُ الْمُجْمَلَةَ سَبْعَةٌ كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: خَلْقِ الْعُلُوبَاتِ وَخَلْقِ السُّفْلِيَّاتِ، ﴿وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أَي: تَعَاظُمِهِمَا وَتَفَاوُتِهِمَا قَدْرًا وَظُلْمَةً وَنُورًا وَبَرْدًا وَحَرًّا، ﴿وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾؛ بَحْرًا وَبَرًّا، ﴿وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾؛ أَي: مَطَرًا، ﴿فَأَنبَايَاهُ الْأَرْضِ﴾؛ بِإِنْبَائَاتِهَا ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أَي: بَعْدَ يُنْسِهَا، ﴿وَبَيِّنَ﴾؛ أَي: فَرَّقَ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾؛ أَي: وَحْشِيَّةٍ وَإِنْسِيَّةٍ، ﴿وَنَصَرَفَ الرِّيحَ﴾؛ أَي: تَغْيِيرَهَا يَمِينًا وَشِمَالًا، وَشَرْقًا وَغَرْبًا، وَرُخَاءً وَعَاصِفَةً، وَبَارِدَةً وَحَارَّةً، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ غَيْرِ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ لَدَلَالَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْتَعْمِلُونَ عَقُولَهُمْ، أَوْ لِقَوْمٍ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْقِلُوا الْآيَاتِ وَيَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى الذَّاتِ الْمُنْعَوَةِ بِكَمَالِ الصِّفَاتِ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ السَّبْعَ، وَالْآيَاتِ الثَّلَاثَ السَّابِقَةَ كُلَّهَا مَظَاهِرُ أَفْعَالِ الْحَقِّ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ ﴿سَرُّهُمْ ءَابِتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾، كَمَا فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ^(١) ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾، كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى^(٢) ﴿حَقَّ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أَي: حَتَّى يَظْهَرَ لَهُمْ طَرِيقُ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ؛ فِعْلًا وَصِفَةً وَذَاتًا؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ، وَالصِّفَةُ عَلَى الذَّاتِ، فَتَمُّ الْمَرَاتِبُ عَلَى أَحْسَنِ الْجِهَاتِ.

(١) أَي آيَةُ الْبَقَرَةِ السَّالِفَةِ.

(٢) أَي آيَةُ النُّحْلِ السَّالِفَةِ.

كما وردَ في الحديث الشريف إيماءً إلى هذه الدرجات؛ حيث قال: «أعوذُ بعَفْوِكَ من عقَابِكَ، وبرِضَاكَ من سَخَطِكَ، وبِكَ منك»، ثم أظهر العجز في معرفة الذات وقال: «لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نَفْسِكَ»^(١).

ثم هذه المحبة الكاملة المراتبة على المعرفة الشاملة ما وُجِدَتْ مجتمعة إلا في الحضرة المصطفوية الجامعة للمرتبة المحيية والمحبوبة، وإنما حصل لأتباعه من السابقين واللاحقين بمقدار أتباعه، كما أخبر الله سبحانه عنه بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال صاحب «التعريف»^(٢) في كتابه الذي هو زبدة التصوف عن بعض الشيوخ: المعرفة معرفتان: معرفة حق، ومعرفة حقيقة. فمعرفة الحق: إثبات وحدانيته على ما أبرز من الصفات، ومعرفة الحقيقة: على أن لا سبيل إليها؛ لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأن الصمد هو الذي لا تدرك حقائق نعوته وصفاته^(٣).

أقول: فمن قال: (عرفت الله حق معرفته)، نظر إلى معرفة الصفات، ومن قال: (ما عرفناك حق معرفتك)^(٤)، نظر إلى معرفة الذات، وإلى هذا المعنى الأخير أشار قوله ﷺ: «لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نَفْسِكَ».

(١) رواه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٥٨)، وفي «المجتبى» (١/ ١٠٢)، وابن ماجه (٣٨٤١) والدارقطني في «سننه» (٥١٥) واللفظ له وأحمد (٢٥٦٥٥) من حديث عائشة.

(٢) هو كتاب «التعريف لمذهب أهل التصوف»، لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي المتوفى سنة (٣٨٠هـ). انظر: «كشف الظنون» (١/ ٤١٩).

(٣) انظر: «التعريف لمذهب أهل التصوف» (ص ١٣٢).

(٤) في «ف» معرفته. وجاء في هامشها ما نصه «خط المصنف كما ترى والظاهر: ما عرفناه حق معرفته». اه. قلت: والمثبت من بقية النسخ، وقد تكلم المصنف في هذه المسألة في رسالته «المقدمة السالمة في خوف الخاتمة» المطبوعة ضمن هذا المجموع، فانظرها ثمة.

وأما ما رُوِيَ عن بعض العارفين، وليس بحديث كما صرح به بعض المحدثين^(١): (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ، فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ)؛ فمعناه: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْقَدَمِ، عَرَفَ رَبَّهُ بِالْقَدَمِ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْقَنَاءِ، عَرَفَ رَبَّهُ بِالْبَقَاءِ، وَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالْعَجْزِ، عَرَفَ رَبَّهُ بِالْقُدْرَةِ.

وقال بعض أرباب التحقيق وأصحاب التدقيق: إِنَّ هَذَا تَعْجِيزٌ لِلخَلْقِ عَنْ دَرَكِ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الشَّخْصَ إِذَا كَانَ عَاجِزاً عَنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ وَرُوحِهِ وَحَقِيقَةِ ذَاتِهِ وَصِفَتِهِ، كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَةَ ذَاتِ اللَّهِ وَكُنْهَ أَعْمَالِهِ وَصِفَاتِهِ.

وكذا ما ورد في الخبر: (أَعْرِفُكُمْ بِنَفْسِهِ، أَعْرِفُكُمْ بِرَبِّهِ)^(٢).

وفيه تنبيهٌ نبيهٌ على ما ورد من الصديق الأكبر من قوله: (العجز عن درك الإدراك إدراك)^(٣).

وعن سيّد البشر: «أَنْتَ كَمَا أَتْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٤).

وبهذا التقرير، وتقدير التحرير، ارتفع التناقض بين قول بعضهم: (مَنْ

(١) ذكره السخاوي في «المقاصد» (ص ٦٥٧)، ونقل عن السمعاني في «القواطع»: أنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي، يعني من قوله، وكذا قاله النووي: إنه ليس ثابت.

(٢) أورده أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢ / ٦٨)، والراغب الأصفهاني في «الذريعة في مكارم الشريعة» (ص ٧٣)، والغزالي في «ميزان العمل» (ص ٣٠٠) مرفوعاً دون إسناد.

وينحوه يروى عن علي بن أبي طالب قوله، انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٥ / ٢٩١)، وقال ابن القيم في «مدارج السالكين» (١ / ٤٢٧): وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ وإنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضاً: يا إنسان! اعرف نفسك تعرف ربك. اه. قلت: وقد نسبته إلى بعض كتب المنزلة: الراغب الأصفهاني والغزالي، انظر المصادر السابقة.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤ / ٣٠٥)، و«الفروق» للقرافي (٤ / ١٢٤).

(٤) تقدم تخرجه.

عرفَ اللهَ كُلَّ لِسَانُهُ^(١). وبين قولِ آخرين: (مَنْ عَرَفَ اللهَ طَالَ لِسَانُهُ). فالأَوَّلُ مشيرٌ إلى الذَّاتِ، والثَّاني معبَّرٌ عن الصِّفَاتِ، على أَنَّهُ قد يُقَالُ: مَنْ عَرَفَ اللهَ بصفاتِ الجمالِ، طَالَ لِسَانُهُ في بيانِ الحالِ وبُرهانِ المقالِ، وحصلَ له البَسْطُ والصَّخُوُّ والبقَاءُ، وَمَنْ عَرَفَ اللهَ بصفاتِ الجلالِ، كَلَّ لِسَانُهُ عن كُلِّ مقالٍ، وتغيَّرَ في جميعِ حالٍ، وتَحَيَّرَ في مقامِ القَبْضِ والسُّكْرِ والفناءِ.

ولعلَّه سبحانه أشارَ إلى المقامينِ بقوله مخاطباً لإبليسَ، ومعاتباً على ما وقعَ له^(٢) من التَّلَبُّسِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٣]، وإنَّما حُرِّمَ عن هذا المعنى؛ لأنَّه في تركيبِ المبنى كان مِنْ مَظهرِ الجلالِ الذي يقتضي عدمَ مُبالاةٍ بما^(٣) يقعُ من أهلِ الضَّلَالِ^(٤)، وهذا قولٌ بعضِ أربابِ الحالِ^(٥) من أصحابِ الكمالِ: لا تُتَكَرَّرُ الباطلُ في طَوْرِهِ؛ فَإِنَّهُ بعضُ ظُهورَاتِهِ^(٦).

ولمَّا كان الملائكةُ من أهلِ الجمالِ، صَدَرَ مِنْهُمْ ما كان على وَفْقِ الكمالِ، وتوضيحه: أَنَّ الشَّيَاطِينَ مَظهرُ صفاتِ الجلالِ، وكذا أنواعُ الظُّلُمَاتِ وأصنافُ الضَّلَالِ، والمكروهاتُ ودارُ البوارِ والنَّكالِ والأغلالِ، وأنَّ الملائكةَ مَظهرُ نُعُوتِ الجمالِ، وكذا أجناسُ الأنوارِ وأنواعُ الهدايةِ والمُسْتَحْسَنَاتِ وأصنافُ النِّعَمِ ودارُ^(٧) القرارِ ومجلسُ الآمالِ.

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٨ / ٢١٦).

(٢) في «ط»: «منه».

(٣) في «ط»: «مما».

(٤) في «ط»: «الإضلال».

(٥) في «ط»: «الجمال».

(٦) هو قول أبي مدين المغربي، انظر: «مرقاة المفاتيح» (٨ / ٣٤٥٣) وأبو مدين هو شعيب،

المتوفى سنة (٥٩٤هـ). انظر: «طبقات الشعراني» (٢ / ١٠١).

(٧) في «ط»: «في» بدل «و».

وبيأئه: أَنَّ الْآدَمِيَّ - لكونه من أربابِ الكمالِ - مُرَكَّبٌ فيه ما يصلحُ أن يكونَ مظهرًا للجمالِ والجلالِ، فإنْ غَلَبَ عليه آثارُ الجمالِ، تَرَقَّى من مقامِ الملائكةِ المقرَّبينَ حتى صارَ أعلى منهم، وإنْ غَلَبَ عليه آثارُ الجلالِ، تَدَلَّى إلى مقامِ مَرَدَّةِ الشَّيَاطِينِ حتى كانَ أدنى منهم.

وفي الجُمْلَةِ: نَبِيَّنَا ﷺ رَئِيسُ الْمُحِبِّينَ من مظاهرِ الجَمالِ، وإِبْلِيسُ رَئِيسُ الْمُحِبِّينَ من مظاهرِ الجلالِ، وَبَحْثُ هذا يطولُ على المَلُولِ، فنرجعُ ونقولُ:

قد قالَ بعضُ الكُبراءِ^(١): المعرفةُ: إحصاءُ السِّرِّ بصُنُوفِ الفِكرِ، في مراعاةِ مَوَاجِدِ الأَذكارِ، على حَسَبِ تَوَالِي أعلامِ كُشُوفِ الأَسْتارِ.

قالَ بعضُ العارفينَ: معناه: أنْ يُشَاهَدَ السِّرُّ من عَظَمَةِ اللَّهِ تعالى وتَعْظِيمِ حَقِّهِ وإِجلالِ قَدْرِهِ ما تَعَجَّزُ عنه العبارةُ.

وَسُئِلَ الجُنَيْدُ قُدَّسَ سِرُّهُ عن المعرفةِ، فقال: هو تَرَدُّدُ السِّرِّ بين تَعْظِيمِ الحَقِّ عن الإِحاطَةِ وإِجلالِهِ عن الدَّرَكِ. فَيَا لَهَا حَيْرَةً! لا لها حَظٌّ من أَحَدٍ، ولا لأَحَدٍ منه حَظٌّ، وإذا هو وجودٌ يتردَّدُ في العَدَمِ لا تَنهَيَّا العبارةُ عنه؛ لأنَّ المخلوقَ مَسْبُوقٌ، والمَسْبُوقُ غيرُ مُحِيطٍ بالسَّابِقِ.

قيل: معنى (هو وجودٌ يتردَّدُ في العَدَمِ): أنْ صَاحِبَ الحالِ يَقُولُ: هو موجودٌ عَيَانًا وشَخْصًا، وكأنَّه معدومٌ صِفَةً ونَعْتًا.

وعن الجُنَيْدِ قال: المعرفةُ هي: شَهِودُ الخواطرِ بعواقِبِ المَصِيرِ، وأنْ لا يَتَصَرَّفَ العارفُ بِسِرْفِ^(٢) ولا تَقْصِيرِ.

(١) انظر: «التعرف لمذهب أهل التصوف» (ص ١٣٣)، ففيه ما سيرد من نقول، نقله عنه المصنف.

(٢) في «ف»: بسوف. والمثبت من النسخ، و«التعرف» (ص ١٣٣).

قيل: معناه: لا يشهد حاله، وإنما يشهد سابق علم الحق فيه، وأن ما سبق له منه، ويكون مصروفاً في الخدمة والتقصير.

وقال بعضهم: المعرفة إذا وردت على السر، ضاق السر^(١) عن حمّله؛ كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها وجوهرها.

قال ابن الفرغاني^(٢): مَنْ عَرَفَ الرَّسْمَ تَجَبَّرَ، وَمَنْ عَرَفَ الْوَسْمَ تَحَيَّرَ، وَمَنْ عَرَفَ السَّبْقَ تَعَطَّلَ، وَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ تَمَكَّنَ، وَمَنْ عَرَفَ التَّوَلَّى تَمَسَّكَ.

قيل: معناه: مَنْ شَاهَدَ نَفْسَهُ قَائِماً بِوِظَائِفِ الْحَقِّ أُعْجِبَ، وَمَنْ شَاهَدَ مَا سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَحَيَّرَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا عَلِمَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِيهِ، وَمَاذَا جَرَى لَهُ الْقَلَمُ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ مَا سَبَقَ لَهُ مِنَ الْقِسْمَةِ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ تَعَطَّلَ عَنِ الطَّلَبِ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَالْكِفَايَةِ لَهُ تَمَكَّنَ فَلَا يَضْطَرُّ عِنْدَ الْمَخُوفَاتِ وَلَا عِنْدَ الْحَاجَاتِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ تَوَلَّى أَمْرَهُ تَذَلَّلَ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ وَأَقْضِيَّتِهِ.

قال بعض الكبار: إِذَا عَرَفَهُ الْحَقُّ إِيَّاهُ، أَوْقَفَ الْمُعَرَّفَ^(٣) حَيْثُ لَا يَشْهَدُ مَحَبَّةً، وَلَا خَوْفاً وَلَا رَجَاءً، وَلَا فَقْراً وَلَا غِنًى؛ لِأَنَّهَا دُونَ الْغَايَاتِ، وَالْحَقُّ وَرَاءَ النِّهَايَاتِ.

قيل: معناه: لَا يَشْهَدُ هَذِهِ الْأَحْوَالُ؛ لِأَنَّهَا أَوْصَافُهُ، وَأَوْصَافُهُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تَبْلُغَ مَا يَسْتَحَقُّهُ الْحَقُّ مِنْ ذَلِكَ.

(١) في «ط»: «الصدر».

(٢) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي المعروف بابن الفرغاني، صاحب الجنيذ، توفي سنة

(٣٢٠هـ). انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص ٢٣٢).

(٣) في «ط»: «المعرفة» وهو الموافق لما في «التعرف» (ص ١٣٣).

وَأَشْدُوا لِبَعْضِ الْكُبَرَاءِ شِعْرًا:

رَاعَيْتَنِي بِالْحِفَاطِ حَتَّى
فَأَنْتَ عِنْدَ الْخِصَامِ عُذْرِي
إِذَا امْتَطَى الْعَارِفُ الْمُعَلَّى
وَخَاصَّ فِي أَبْحَرِ غَزَارِ
فَضَّ^(١) خِتَامَ الْغُيُوبِ حَتَّى
مَنْ حَارَ فِي دَهْشَةِ التَّلَاقِ فِي
حُمَيْتٍ عَنْ مَرْتَعِ وَبِي
وَفِي ظَمَائِي فَأَنْتَ رِي
سَرَا إِلَى مَنْظَرِ عَلِيٍّ
تَقِيضُ بِالْخَاطِرِ الْوَصِيَّ
يَحْيَى فُوَادُ الشَّجِيِّ الْوَلِيِّ
أَبْصَرْتَهُ مَيْتًا كَحْيٍ

يعني: مَنْ خَيْرْتَهُ دَهْشَةً^(٢) ما يبدو له من شاهد تعظيم الله وإجلاله،
أَبْصَرْتَهُ حَيًّا كَمَيْتٍ؛ يعني: عن رؤية تأمُّنه، ولا يجد له متقدِّماً ولا متأخراً^(٣)،
والحمد لله أولاً وآخراً.

وهذا شَمَّةٌ من روائِحِ فَوَائِحِ الْمَعْرِفَةِ^(٤)، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُوقَ طَعْمَ حَيَّةٍ
من شجرة المحبَّة، أو تشربَ قَطْرَةً من بحرِ المودَّة.
فَقَالَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمَحَبَّةُ مَيْلُ الْقَلْبِ.
ومعناه: أَنْ تَمِيلَ حَبَّةً^(٥) قَلْبِهِ إِلَى مُحَبَّةِ رَبِّهِ.
وقيل: معناه: أَنْ يَمِيلَ قَلْبُهُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى مَا لِلَّهِ، مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فِي مَبْنَاهِ، وَأَنْ
يُعْرَضَ عَمَّا سِوَاهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ سِوَاهُ.

(١) في «ف» و«ط»: «فص».

(٢) في «ط»: «خيرة دهشته».

(٣) إلى هنا ينتهي ما نقله المصنف عن كتاب «التعرف» (ص ١٣٤).

(٤) في «ف»: «المحبة». والمثبت من بقية النسخ.

(٥) في «ط»: «محبة».

وقال غيره: المحبة: هي الموافقة.

ومعناه: الطاعة له فيما أمر، والانتهاؤ عما زجر، والرضا بما حكّم وقدّر^(١).
ومجمله: قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].
ولله درّ القائل^(٢):

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرُكَ^(٣) فِي الصَّنِيعِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
وقال محمد بن علي الكتاني^(٤): المحبة: هي الإيثار للمحبوب.

ومعناه: أنك تختار رضا الله على ما تحبه وتهواه.
وقال بعضهم: المحبة لذة في المخلوق، واستهلاك في الخالق. والاستهلاك:
أن لا يبقى لك حظ، ولا يكون لمحبتك علة، ولا تكون قائماً بعلة.
وقال سهل التستري: من أحب الله، فهو العيش، ومن أحب غير الله، فلا
عيش له.

قيل: معنى (فهو العيش): أن يطيب عيشه؛ لأن المحب يتلذذ بكل ما يرد عليه
من المحبوب؛ من مكروه أو مطلوب.
ومعنى: (لا عيش له)؛ لأنه يطلب الوصول إليه، ويخاف الانقطاع دونه،
فيذهب عيشه^(٥).

(١) من قول الجنيد إلى هاهنا منقول من «التعرف» (ص ١٠٩).

(٢) القائل هو أبو العتاهية.

(٣) في «ط»: «العمرى».

(٤) هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني المكي، صاحب الجنيد، المتوفى سنة (٣٢٢هـ). انظر: «طبقات الصوفية» للسلمي (ص ٢٨٢).

(٥) من قول الكتاني إلى هاهنا منقول من كتاب «التعرف» (١٠٩ - ١١٠).

أقول: وهذا المعنى مُقْتَبَسٌ من قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ومن قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ جَنَّةٌ في الدنيا: وهي مقام المُرَاقَبَةِ، وجَنَّةٌ في العُقْبَى: وهي مقام المشاهدة.

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِيشَةً نَّيِّةً، وَمِيتَةً سَوِيَّةً»^(١).

وقال بعضهم^(٢): المحبَّة على وجهين: محبَّة الإقرار: وهو للخاص والعام. ومحبَّة الوجد: من طريق الإصابة، فلا يكون فيه رؤية النفس والخلق، ولا رؤية الأسباب والأحوال؛ بل يكون مُستَغْرِقاً في رؤية الله المَلِكِ الْمُتَعَالِ. وأنشد بعض أرباب الأقوال:

أحْبُكَ حُبِّينَ: حُبَّ الهَوَى	وَحُبًّا لَّأَنَّكَ أَهْلٌ لِّذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهَوَى	فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّا سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَلَسْتُ أَرَى الْكَوْنَ حَتَّى أَرَكَ
فَمَا الْحَمْدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وإن أردت استيفاء المعرفة، واستقصاء المحبَّة، فعليك بـ«إحياء علوم الدين» و«كتاب منازل السَّائِرِينَ»، لتحصل لك مراتب اليقين، وتدخل في زُمرَةِ العارفين وروضة المحبِّين، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربَّ العالمين، وصلى الله على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ، وسلَّم تسليماً كثيراً إلى يومِ الدِّينِ.

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ١٤٢٨٨)، والحاكم (١/ ٥٤١)، والقضاعي في «مسند الشهاب»

(١٤٩٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٩٦) من حديث عبد الله بن عمر، وعند بعضهم: عبد الله

ابن عمرو بن العاص. وصححه الحاكم، لكن في إسناده شريك النخعي وهو ضعيف.

(٢) انظر: «التعرف» (ص ١١٠).

فِي هَذَا الْمَجَلَدِ

الصفحة

الموضوع

- الرسالة رقم (٦٢): شرحُ تصريحِ العِزِّي..... ٥
- الرسالة رقم (٦٣): الزُّبْدَةُ في شرحِ البُرْدَةِ..... ١٢١
- الرسالة رقم (٦٤): شرحُ بَائِثِ سَعَاد..... ٢٩١
- الرسالة رقم (٦٥): المَمُورِدُ الرَّوِّيُّ في المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ..... ٣٧٣
- الرسالة رقم (٦٦): أدِلَّةُ مَعْتَقِدِ أَبِي حَنِيفَةَ في أبَوَيْ النَّبِيِّ ﷺ..... ٤٥١
- الرسالة رقم (٦٧): النِّسْبَةُ المَرْتَبَةُ في المَعْرِفَةِ وَالْمَحَبَّةِ..... ٥٠٣
